الرِّعَايَةُ لِحُقُوقِ اللهِ

لأبي عَبدِ اللهِ الحارثِ بن أسد المحاسِبِي
المتوفى سَنة ٢٤٣ هـ

تحقِيق
عَبد القَادِر أحمد عَطَا

الطبعة الرابعة
مزيدة ومنقحه ومخرجة احاديثها

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت ـ لبنان
هاتف : ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

الإمام المحاسبي

لمحات من شخصيته

تحدثنا عن الإمام الحارث بن أسد المحاسبي في مقدمات الكتب التي نشرناها من تراثه المجيد، وهي: الوصايا، وأعمال القلوب والجوارح وملحقاته، وآداب النفوس وملحقاته. وهذا الأخير قد قارب الظهور إن شاء الله تعالى.

ولا نريد أن نكرر ـ ونحن نقدم للرعاية لحقوق الله ـ ما تحدثنا عنه في الدراسات السابقة عن هذا الإمام الذي تعددت جوانب عظمته، ولذلك آثرنا أن نستشرف على لمحات من القمم الشامخة التي تبرز من تاريخ هذا الرجل العظيم في تراث العرب الإسلامي، ولعلنا نوفق بحول الله وقوته إلى إعطاء القارىء صورة واضحة عن شخصية هائلة من أوائل مفكري الإسلام، ومن أبعدهم سحقا وغوراً في عالم المعرفة والخبرة بالنفس البشرية، ومن أصدقهم مسلكا، وأنقاهم طوية، وأخلصهم سبيلا، وأخفاهم عن أضواء الشهرة على هذا المدى الطويل من الزمان.

١ ـ شخصية من خير القرون

لقد صدر البيان النبوي الشريف بأن خير القرون: قرنه ﷺ ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

ثلاثة قرون هي: خير القرون، كما شهد من لا ينطق عن الهوى ﷺ، وهي شهادة لا تنفي الخير عن باقي القرون بعد الثلاثة كما يتبادر إلى بعض الأذهان،

ولكن معناها تغليب الخير على هذه القرون، وندرة الأخيار في القرون التالية التي يسودها اضطراب الفكر والرأي والسلوك، وللأخيار بين زمر الأشرار من الفضل ما للأخيار الذي حملوا أمانة تأسيس قواعد السلوك في عصور النور، فلكل مكانه من التاريخ لا ينكره إلا جحود.

فالقرن الأول هو قرن التشريع وحفظ السُّنة قولا وفعلا وتركا وتقريرا عن السيد الكامل عين الأعيان سيدنا محمد ﷺ، حتى لقد أصبح حفظ الصحابي وعمله من أصول التشريع، لا يختلف في هذا المبدأ اثنان.

ومع التشريع كان الفتح، وكان تفرق الصحابة أعلام الهدى والنور في البلدان المفتوحة، إما ليعطروا بدمائهم الطاهرة ثرى البلاد المفتوحة في سبيل إعلاء كلمة الله، وتأصيل سنة النبي ﷺ، وإما لنشر العلم والتشريع، وتربية جيل من المعلمين المرشدين يحملون لواء الفكر من بعدهم عاليا على هامة الزمن.

ومما لا خلاف عليه أن كل صحابي كان يعلم ما عرف من السنة، ويقيم تعاليمه وأحكَامه على أساس ما عرف، فكان مع بعضهم ناسخ ومع الآخر منسوخ، أو مع بعضهم عام، ومع الآخر خاص، أو مع بعضهم مطلق ومع الآخر مقيد، وهكذا كانت جوانب العظمة العديدة في شخصية الرسول الأعظم ﷺ تكون عددا هائلا من المدارس الفكرية والتشريعية، تتلمذ فيها أعداد هائلة من نجوم الهدى من أصحابه الأكرمين رضوان الله تعالى عليهم، فكانوا بحق ينابيع معرفة، وأعلام هدى، وأصول علم تتطلب من يجمع عنهم، وينظّم السنة المتلقاة منهم تنظيما زمنيا وأصوليا يضع الناسخ بعد المنسوخ، والمقيد بعد المطلق، والمخصص بعد العام.

وكانت تلك المهمة الشاقة هي مهمة علماء القرن الثاني، حيث استقرت الدولة الإسلامية، وأحاط الحفاظ علما بالسنة. فلئن كان القرن الأول قرن الجمع والتشريع، فإن القرن الثاني هو قرن المقارنات والتنظيم.

ومن هنا كان القرن الثاني هو أغنى القرون وأثراها كيفاً لا كـمًّا، إذ فيه وضعت أصول العلوم الإسلامية، وبدأت تبرز في مجال الإسلام الفسيح شجرات العلوم

المختلفة تمد أغصانها للدارسين المستبصرين تطلب الري ومدد النماء.

وكان القرن الثاني في الواقع لا يكفي لاستيعاب فقه السنة والكتاب، وتأسيس أصول السلوك، بل إن أصول الوعي الروحي للإسلام لم تكن قد استمسكت جذورها بعد في تربته الطاهرة الطيبة.

ولذلك لم يكن الفكر الإسلامي قد اكتمل كمًّا، وإن كان قد برز في سمائه أعلام مؤسسون فإن التكامل يبدو عند ظهور الوجهات المقابلة، ورد التلاميذ على المقابلين لهم، وهو ما تم بالفعل في القرن الثالث. إذ كان الجمع والفقه والتأصيل، والتشاور والأخذ والرد بيد فحول العلماء الذين تمخضت عنهم القرون الثلاثة قد اكتمل جمعاً وفقها وضبطا في جميع فروع المعارف الإسلامية الأصيلة. وأصبح على لوحة الزمن: النعمان، ومالك، والشافعي، وأحمد، والسفيانان، وابن المبارك، والأوزاعي بالشام، والليث بن سعد في مصر. كما كان في ميدان السلوك أمثال الجنيد البغدادي ومعروف الكرخي، وبشر الحافي. وكان للسلوك والعقيدة معا إمامنا الجليل الحارث بن أسد المحاسبي إذ هو أول من تكلم في إثبات الصفات، وأول من قمع قرون الشيطان الوافدة إلى بلاد الإسلام من ضلالات الأمم المفتوحة التي لا تزال تحن إلى وثنية زمنية قضى الإسلام على أصولها.

وقد كان الإمام المحاسبي مع تخصصه في التصوف علما وذوقا وحالا، وفي العقيدة ذوقا واعتقادا وعلما، فقيها شافعيا عظيما لا خلاف في عظمته، بل الخلاف كله قد دار في أنه: هل كان من أصحاب الشافعي الآخذين عليه، أم كان من المعاصرين له السائرين على مذهبه، كما تحدث ابن السبكي في طبقات الشافعية.

وكان مع فقهه محدثا خبيرا، عن عدد كبير من أئمة الحديث، من طبقة يزيد ابن هارون.

وحدث هو كذلك، وسمع عنه الكثير من التلاميذ الذين صاروا أئمة فيما بعد.

ومن هنا يمكن أن يقال بحق: إن الإمام الحارث بن أسد المحاسبي، كان زاهدا

صوفيا فقيها محدثا أصوليا متكلما على هدى من السنة والبصيرة السليمة. وقلّ من تجمعت له هذه المواهب في ذلك العصر الذي عاش فيه وهو ما بعد النصف الثاني من القرن الثاني الهجري إلى عام ٢٤٥ من الهجرة.

٢ - مرشد الجماهير

في القرون الماضية والحاضرة تتهدد العامة موجات من الضياع والضلال.

موجات من الضياع الناتج عن الإهمال، إذ يتجمع المريدون في كل علم حول أستاذهم، ولهم من وسائل التحصيل، والقدرة على الموازنة والمقارنة ما يؤهلهم للانسلاك في دوائر كبار العلماء. ولما كانت تلك الآلات وغيرها من آلات العلم لا تتهيأ لعامة المسلمين فإن تلك الدوائر العلمية تلفظهم إلا من فترات قصيرة يفدون إليها سائلين عن حكم، أو مصححين لعقيدة، ثم ينصرفون حيث لا يستطيعون التجاوب مع تلك الحلقات الأكاديمية يوما أو بعض يوم.

وموجات من الضياع الناتج عن الجهل، ثم عن فلسفة الجهل التي تأبى الاعتراف بالجهل، ومن ثم تفسد نفسية جماهير العامة، وتسدل ستارا كثيفاً على الجهل، وتدع أصحابها إلى التعرض لحظر الاستمساك بالخطأ، والكبر عن السؤال، ويبدو ذلك واضحا من قولة سليمان بن عبد الملك لأبنائه بعد أن جلس إلى عطاء ليتعلم منه مناسك الحج: تعلموا العلم فإني لا أنسى ذلنا بين يدي هذا العبد الأسود.

كان هناك إذن حقد على العلماء من أوساط العامة ومنهم السلاطين والأمراء، وكان هناك تهالك من علماء السوء. كما يقول المحاسبي، على أبواب الأغنياء من العامة، يزهّدونهم في الدنيا، ثم يأخذونها منهم في المجلس، وكان امتهان من أغنياء العامة للعلماء.

وكان هناك من نتائج ذلك الاضطراب فقدان النصح من العلماء لعامة المسلمين وخاصتهم، فاهتزت القيم، وسادت الدعوى، واستمسك كل فريق بدوائره، وأصبح المجتمع الاسلامي أحزابا متنافرة يهددها الانقسام بالشر والوبال.

وموجات من الضياع الناتج عن الانغماس في مجالس اللهو الغاصة بالشعراء المجان، والمخنثين الوافدين، والغانيات من بائعات الهوى، ورواد زقاق الخمر، وذائقي خيال الليل تحت أغصان الكروم وبين خرير الجداول، وسلطان العيون الفاجرة.

وموجات من الضياع الناتج من فطنة شيوخ المذاهب الدخيلة الوافدة التي تستهدف أولا هدم أصول العقيدة في أكثر أوساط المجتمع عددا، وأشدهم شعورا بالفراغ، واستعداداً للهجوم، وليس ذلك الوسط إلا وسط العامة الذين ضلوا بلا راع يحميهم غائلة الغزو الفكري، والتعقيد النفسي، والتردي في أوحال الرذيلة العمياء.

وكانت مهمة قيادة هؤلاء العامة إلى بر الأمان شاقة وعسيرة، فالأهواء متباينة، وعقد النفس مختلفة، والحجب تختلف كثافة ورقة، والبيئات شتى، والشهوات مستحكمة، إلى غير ذلك من مظاهر التباين والاختلاف، دون أي غاية تربط بين هذه الجماهير الهائلة من شعب الإسلام.

كانت هناك مدرستان هائلتان من مدارس الفكر الإسلامي في عصر الإمام المحاسبي، مدرسة أهل السنة بزعامة الإمام أحمد بن حنبل، وهي مدرسة تقوم على أساس أن الدين نصوص تفسرها أسباب النزول. وإلى جانب تلك المدرسة تقوم مدرسة الاعتزال التي تقوم على أساس أن الدين نصر يفسره العقل وحده.

ونحن إن كنا نعيب بعض مسالك المعتزلة، ونؤيد مذهب أهل السنة إذا تكامل نصه وأسباب ونزوله بوجدان الإسلام العميق، وسبحات الروح النقية بين قممه وشوامخه، فليس للفكر الإسلامي غنى عن النص وأسباب النزول ولا غنى عن العقل وموازينه، ولكننا لا نجرد الإسلام الغني الفسيح الآفاق، العظيم في جوانب عديدة من وجوهه من مدرسة ثالثة هي مدرسة الذوق الروحي، الذي يجمع إلى النص والعقل ذوق الوجدان، وكانت تلك المدرسة الثالثة بزعامة الحارث بن أسد المحاسبي.

المعتزلي يطالب تلميذه بصفاء العقل، والسني يطالب تلميذه بإقامة وصفاء الروح، ولكن أيًّا من المدرستين لم ترسم الطريق لصفاء الروح الذي يعتبر بحق أساس الإصلاح لمجتمع يوشك على الفساد.

كان أهل السنة والفقهاء على درجة من حسن النية بالجماهير، إذ يكتفون بإقامة ظاهر الطقوس الدينية، ولا يهتمون بفحص الدوافع والغايات إلا في نطاق القوانين التي تحدد الأعمال العبادية بشروطها وأركانها ومبطلاتها.

ولم تكن أي مدرسة من المدرستين صالحة لقيادة الجماهير، فالجماهير فقيرة من النصوص، كما هي فقيرة من العقل الغواص وراء المعضلات، كما أنها عاطلة من الصفاء الذي يحدد البداية والغاية كما يريدها الإسلام، ومن هنا كان الأساس الذي أقام عليه الإمام المحاسبي بناء مدرسته هو: تحديد البداية والغاية وتطهير القلب من دنيء الوزر، وحمايته من هجمات النفس، ثم تصحيح العبادات على ضوء الكتاب والسنة، والاكتفاء من العلم بالقليل مع العمل، فإذا ما تم للمريد إحكام هذا القدر، وعرف كيف يراقب نفسه ويحاسبه، وكانت له قوة قاهرة على نفسه صلح أن يكون شيخا يرشد الجماهير بعد أن يتفقه ويحدث ليكون فقيها صوفيا، لا صوفيا فقيها إذ الأول أعلى وأثبت كعبا من تاليه بلا نزاع.

والعامة على جهلهم بالعلم لهم قدر كبير من القدرة على النقد وتلمُّس السقطات، على عكس العلماء الذين يسعفهم التأويل، وحسن الظن، وتغليب الخير سياسة للناس ونظرة فاحصة لما يدور في عقلية الأوساط الشعبية من أفكار تستغرقهم تماما تحقق ما نقول.

ومن هنا كانت القدوة الحسنة الصادقه القويمة هي عدة المرشد الجماهيري.

والعامل الأساسي في نجاحه وقوته على أداء رسالته كاملة. فما هنالك من قوة تقهر جبروت الجهل لدى العامة أعظم من قوة الصدق في السلوك، والعمل بالعلم، والرغبة عما في أيدي الناس.

وكان الإمام المحاسبي هامة شماء في هذا المضمار.

لفظ الدنيا... وازدرى هوى النفس.. ولم يستجب لها إلا في ميدان الحلال الخالص... مات أبوه الثري الواسع الثراء، وأباحت الشريعة ميراثه منه حتى ولو جمعه من غير وجوه الحل. ولكنه رفض أن يأخذ من ميراث أبيه شيئا وهو جائع كثير الضر محتاج إلى دانق كما يقول عنه تلميذه الجنيد البغدادي آنذاك.

لماذا ؟

لأن أباه كان قدري المذهب. أو كان واقفيا من الخوارج.

وإذا كانت الشريعة قد ترددت في الحكم بكفر القدرية أو الواقفية. فقد أصر من جانب الورع على رفض الميراث قائلا: «لا توارث بين أهل ملتين».

وهو يؤكد رأيه في كفر القدرية أو الواقفية حينما تعلق بأبيه عند «باب الطاق» في بغداد، وقد تجمع الناس حوله، وهو يقول له: طلق أمي، فإنك على دين وهي على دين آخر». كما يروي عنه تلميذه اسماعيل السراج.

ولو لم يكن ورعا يدع ما فيه شبهة، ولا يكتفي بأن يدع الحرام وحده، لتشبث بخلاف علماء الشريعة في كفر القدرية أو الواقفية، واحتوى ميراثه من أبيه وهو في أمسِّ الحاجة إليه. ولكنه الورع المثالي الذي يندر أن يوجد في غير الإمام المحاسبي إلا على فترات متطاولة من الزمان.

وهو نفسه في كتابه «المكاسب» لا يحرم ميراثا من هذا النوع، ولكنه يضيف إلى دلائل صدقه مع ربه فيما اختاره لنفسه من سبيل إليه حينما رآه تلميذه الجنيد متهالكا على نفسه من الجوع، فدعاه إلى بيت عمه، وجهز له طعاما فاخرا، ولكنه تناول لقمة، وأخذ يلوكها ولا يسيغها، ثم قام مسرعا وخرج.

فلما قابله في اليوم التالي وسأله قال: «يا بني، أما الحاجة فكانت شديدة، ولكن بيني وبين الله علامة إذا لم يكن الطعام مرضيا عنده ارتفعت إلى أنفي منه زمنة، أو ضرب عرق في أصبعي، فقد رميت بتلك اللقمة في دهليزكم وخرجت».

وماذا عليه لو لم يكن صادقا أصيلا في صدقه مع ربه أن يأكل، ويتجاهل الزمنة التي ارتفعت إلى أنفه، أو العرق الذي ضرب في أصبعه، وهو أمر يستوي في عدم الفطنة إليه العلماء والجماهير على السواء:

وبهذا الصدق النادر استحق الحارث بن أسد بحق أن يكون رائدا لمدرسة الوعي الروحي المجنحة بالكتاب والسنة والعقل، في وحدة متناسقة تقهر النفوس الجامحة، وتروضها في يسر نحو الله في نجاح.

وبهذا الصدق استطاع أن يقبض على زمام أعداد كبيرة من الطلاب، وأن يخضعهم لسلطان إرشاده ـ وهو الأمين في السر والعلانية ـ وأصبح طلابه كما وصفهم تلميذه اسماعيل السراج، يجلسون بين يديه من بعد صلاة العشاء إلى بعد منتصف الليل، وكأن على رؤوسهم الطير.

ومن عُدة شيوخ هذه المدرسة الخبرة العميقة بالنفس البشرية في أطوائها المحيرة، وأعماقها السحيقة المجهولة، وخداعها الذي يشتبه بالحق فلا يكشفه إلا جبابرة أهل البصائر، وجواسيس القلوب، وبكرّ النفس وفرِّها ومعاودتها للهجوم، ومغالبتها بالمحاسبة والتفتيش والمواجهة حتى تستسلم تماما لصوت الحق والصدق، وتأنس إلى الطريق، وكان من بركات هذه العدة وبواكيرها ذلك التراث الهائل من الدراسات النفسية التي تركه لنا الإمام المحاسبي، وتولاه من جاء بعده من مرشدي الصوفية المحققين بالنماء والتعميق، حتى أثرت المكتبة الإسلامية وسبقت غيرها من مكتبات الأديان والحضارات الأخرى في هذا المجال. وكان ممن حمل لواءه من بعده على مدى العصور، مهتديا بمنهاجه: أبو طالب المكي، والحكيم الترمذي، وأبو سعيد الخراز، والشيخ الأكبر ابن عربي، والإمام الغزالي. وفي القرون المتأخرة: الإمام العربي الدرقاوي، وسيدي مصطفى بن كمال الدين البكري، مؤسس الطريقة الخلوتية في مصر والشام، والذي عني بجمع جمهرة من دراسات الصوفية للنفس البشرية في موسوعته المخطوطة التي سماها «العرائس القدسية، المفصحة على الدسائس النفسية».

٣ - منهجه في التربية

يقول أئمة الإرشاد الصوفي: إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق. ولا نجد في التاريخ مدرسة فكرية أثرت ثراء المدرسة الصوفية في تعدد مناهجها، وكثرة طرائقها، وتنوع مذاقاتها ومشاربها، وأصالة ملكة الاجتهاد البناء لدى شيوخها.

ونحن حينما نتحدث عن المدارس الصوفية إنما نعني تلك المدارس الأصيلة التي تستند إلى الكتاب والسنة، وتستمد نورها من مشكاة الإسلام النقية، ولا تنساق وراء الوهم وخداع النفس، وضلال الجهل، وأضواء الشهرة.

هناك التصوف العام، وهناك تصوف الفقهاء وتصوف أهل الحديث، وتصوف العباد، وتصوف المرتاضين، وتصوف النساك، وتصوف الحكماء والمناطقة، وتصوف الأصوليين، وتصوف الطبائعيين.

ولقد حدد العارف الشيخ أحمد زروق في القاعدة (٥٩) من قواعده تلك الوجوه مع شيوخها، وقال تعليلا لشمول القاعدة الصوفية لجميع فروع العلم: إن تعدد وجوه الحسن يقضي بتعدد الاستحسان.

ونزيد على هذا التعليل الحكيم: أنه لا العلوم العقلية، ولا العبادات الشكلية ولا الانقطاع والاعتزال في الكهوف والمغارات يمكن أن يملأ الفراغ السحيق في أعماق الإنسان.

والإمام الحاسبي نفسه تحدث في هذا الصدد في مقدمة وصاياه إذ قال:

« لم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة وألتمس المنهاج الواضح، والسبيل القاصد، وأطلب من العلم والعمل، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء، وعقلت كثيرا من كلام الله عز وجل بتأويل الفقهاء، وتدبرت أحوال الأمة، ونظرت في مذاهبها وأقاويلها، فعلقت من ذلك ما قدر لي، ورأيت اختلافهم بحرا عميقا غرق فيه ناس كثير وسلم منه عصابة قليلة.

ورأيت كل صنف منهم يزعم أن النجاة لمن تبعهم، وأن الهلاك لمن خالفهم. وهكذا يلعب الخلاف دوراً خطيرا في تعقيد النفوس، واستمساكها برأيها، ومحاولتها إلباس الباطل ثوب الحق، وعلى أحسن تقدير فالخلاف يشغل الأمة كلها بالجدل حول الآراء المتباينة، وما أفلح قوم كانت غايتهم الجدل.

على أن التدهور الخلقي قد يصيب طوائف العلماء والزهاد والعباد فتفسد نواياهم، ويضل سعيهم، ويضلون غيرهم شعروا أم لم يشعروا.

وأساس الضلال كله كما يقول الإمام المحاسبي في مقدمة وصاياه هو: اتباع الهوى، فهو يعمي عن الرشد، ويضل عن الحق، ويطيل المكث في الغرة»[١].

وإذا كان الإجماع قد انعقد على أن سبيل النجاة في التمسك بتقوى الله، وأداء فرائضه، والورع في حلاله وحرامه، وجميع حدوده، والإخلاص لله تعالى بطاعته، والتأسي برسوله ﷺ، فهل اجتمعت كلمة العلماء على رأي واحد يعصم الناس من المتاهات المردية؟ وفي هذا المجال تدع الإمام المحاسبي يجيب على هذا التساؤل إجابة خبير مجرب، قال[٢]:

«طلبت معرفة الفرائض والسنة عند العلماء بالآثار، فرأيت اجتماعاً واختلافا، ووجدت جميعهم مجتمعين على أن علم الفرائض والسنة عند العلماء بالله وأمره، الفقهاء عن الله، العاملين برضوانه، الورعين عن محارمه، المتأسين برسوله عليه الصلاة والسلام».

النجاة إذن هي الغاية، وأخلاق النبوة والتحقق بها هي الوسيلة، هكذا استقرت بالإمام المحاسبي رحلته الفكرية والجسدية الطويلة التي حددها في مقدمة وصاياه، وشتان بين تلك الغاية والغاية التي حددتها النفس الخادعة لسائر العلماء، وحددت لهم وسائل الوصول إليها[٣].

---

(١) الوصايا ١٩. (٢) الوصايا ٣٠.

(٣) أنظر الباب الأربعين من الوصايا، حيث فصل المحاسبي آفات العلماء.

غاية عامة العلماء: الغلبة، والتفوق، والشهرة، وتسفيه المخالفين، ووسائلهم إلى هذه الغاية جدل ولدد، ورمي للغير بالعظائم، وهدم كل تليد من التراث، ودعوى عريضة، ونفاق عفن، وثرثرة مملولة، ونقول لا أصالة فيها.

أما الذين اختارهم الإمام المحاسبي ليطلب النجاة على أيديهم فقد أسف أشد الأسف لأنه وجد علمهم مندرساً، ووجدهم أقل من القليل، ووصفهم فقال:

«وجدتهم مجتمعين على نصح الأمة، لا يرجّون أبداً في معصيته، ولا يقنطون أبداً من رحمته، يحببون الله تعالى إلى العبد بذكر أياديه وإحسانه، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى... فقهاء في دينه، علماء بما يحب ويكره، ورعين عن البدع والأهواء، تاركين للتعمق والإغلاء، مبغضين للجدال والمراء... ورعين في مطاعمهم وملابسهم وجميع أحوالهم، مجانبين للشبهات، متقللين من المباح، زاهدين في الحلال»[1].

وهكذا عشق الإمام المحاسبي منهج هذا اللون من العلماء بالله، الفقهاء عنه، واكتفى من علم النقل بما يعرف به الحدود، وعلم أكثر من ذلك، ولكنه لم يشارك في معركة الانتصار للمذهب، والرد على المخالفين كما شارك غيره ممن لم يؤثر النجاة.

وأعلن الإمام المحاسبي رأيه في القدوة التي اختارها فقال: «فتبين لي فضلهم، واتضح لي نصحهم، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة، والمتأسون بالمرسلين، والمصابيح لمن استضاء بهم، والهادون لمن استرشد بهم، فأصبحت راغباً في مذهبهم، مقتبساً من فرائدهم، قابلا لآدابهم، طلباً لطاعتهم، لا أعدل بهم سبباً، ولا أوثر عليهم أحداً، ففتح الله لي علماً اتضح لي برهانه، وأنار لي فضله، ورجوت النجاة لمن اقتربه وانتحله، وأيقنت بالغوث لمن عمل به، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحده، ورأيت الحجة العظمى لمن فهمه، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً عليّ، فاعتقدته في سريرتي، وانطويت عليه

(١) الوصايا ٣١.

بضميري، وجعلته أساس ديني، وبنيت عليه أعمالي، وتقلبت فيه بأحوالي، وسألت الله عز وجل أن يوزعني شكر ما أنعم به عليّ، وأن يقويني على القيام بحدود ما عرفني به، مع معرفتي بتقصيري في ذلك، وأني لا أدرك شكره أبداً».

ونقول كذلك: إن الإمام المحاسبي لم يصل إلى هذا القرار إلا بعد بحث وتدقيق ودراسة عميقة للإنسان بوجه عام، وللعلماء من بني الانسان بوجه خاص استمع إليه يقول[1]:

«ثم رأيت الناس أصنافاً، فمنهم العالم بأمر الآخرة، لقاؤه عسير، ووجوده عزيز، ومنهم الجاهل، فالبعد عنه غنيمة، ومنهم المتشبه بالعلماء، مشغوف بدنياه، مؤثر لها، ومنهم حامل علم، منسوب إلى الدين، ملتمس بعلمه التعظيم والعلو، ينال بالدين من عرض الدنيا، ومنهم حامل علم لا يعلم تأويل ما حمل، ومنهم متشبه بالنساك، متحر للخير، لا غناء عنده، ولا نفاذ لعلمه، ولا معتمد على رأيه، ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء، مفقود الورع والتقوى، ومنهم متوادون، على الهواء واقفون، وللدنيا يذلون، ورياستها يطلبون، ومنهم شياطين الإنس، عن الآخرة يصدون، وعلى الدنيا يتكالبون، وإلى جمعها يهرعون، وفي الاستكثار منها يرغبون، فهم في الدنيا أحياء، وفي العرف موتى، بل العرف عندهم منكر».

على أن الإمام المحاسبي لم يقتصر في دراسته مجتمعه على طوائف العلماء وطلاب العلم وحدهم، بل إنه درس طبقات التجار والمحاربين والقراء وغيرهم، وأودع ملاحظاته القيمة في كتاب «المكاسب»، وكتاب «آداب النفوس»، وكتاب «الوصايا».

وخلص من كل دراسته وملاحظاته إلى النتائج التالية:

١ ـ لا خير في الخلاف، ولا نجاة فيما فيه خلاف.

---

(١) الوصايا ٢٨.

٢ ـ لا جدوى من علوم العقل والنقل إذا لم تستند إلى وجدان روحي يصل الإنسان بربه، ويعرفه قدر نفسه، ويلزمه حدود الورعِ والزهد.

٣ ـ رعاية جماهير المسلمين أمر واجب بعد أن فقدوا الرعاية وأوشك أن يضل بهم السبيل في متاهات المدنيات الوافدة.

ثم بنى الإمام المحاسبي رسالته التي اعتزم أن يؤديها إلى المسلمين على الأسس الآتية:

١ ـ التطهير خير من عمل البر دون تطهير.

وهذا لأن الانسان مأمور بترك الشر كله، وليس مأمور بفعل الخير كله، فالأولى به أن يتتبع خصال الشر في نفسه بالقمع. والتخلص من خصلة واحدة من خصال الشر عنده خير من كثير من أعمال البر، وذلك لأن الخير إذا خالطه الشر استحال إلى شر، فالشر شر كله، ومنبع الضلال هو إكثار عمل البر مع انكماش القلب على خصال السوء وخداع النفس.

٢ ـ الزهد في الحلال.

فلا شيء يفسد السلوك البشري قدر ما يفسده عقد القلب على حب مظاهر الوجود والاستمساك بها، واتخاذها غاية من الحياة.

وليس الزهد كما يزعم بعض الناس قاصراً على الحرام، فالحرام قد أمر الناس جميعاً بتركه، ولا فضيلة للانسان في تركه إلا اتباع الأمر، أما زوائد اليقين والمعرفة والعلم والصلاح فإنما هي في الزهد في الحلال.

٣ ـ الحب تقليد للمحبوب، وليس ادعاء وثرثرة.

فنحن لا نرى إنساناً مسلماً إلا وهو يدعي حب النبي ﷺ، وحب الصالحين والأولياء، فإذا ما لاحظنا سلوك هذا الذي يدعي الحب وجدنا مسلكه مبايناً لمسالك من يدعي حبهم، وهذا حب كاذب.

والدليل على ذلك كما فصله الإمام المحاسبي في «آداب النفوس» أن الجائع يحب الطعام، والعطشان يحب الماء، فإذا ما علقنا له الماء والطعام في عنقه أبى إلا أن يتناول منهما، فما للإنسان يكتفي بحفظ سير الصالحين والأنبياء دون أن ينال من سلوكهم بالعمل على مناهجهم، إلا أن تكون نفسه قد خدعته ولم يشعر.

٤ ـ تخليص العمل من الآفات في بدايته وأوسطه ونهايته.

وقد أفاض الإمام المحاسبي في الرعاية، وآداب النفوس، وفي عامة كتبه في الحديث عن آفات الأعمال، وخداع النفوس فيها، وأبدع في بيانه أدق الدسائس النفسية وأخفاها على الخبراء، حتى عد بحق من أوائل المؤسسين للدراسات النفسية في التراث العربي.

ومن أطرف ما فطن إليه الإمام المحاسبي: أن رقابة الإنسان على نفسه لرعاية ثمرات عمله لازمة بعد العمل بعشرات السنين كما هي لازمة في بدايته ونهايته، فقد يعتقد الإنسان أنه صادق في عمله، وفي تخليص إرادته لله وحده، ويعتقد الناس فيه مثل اعتقاده في نفسه، ولكن براعم الكذب قد تكون كامنة في أعماق النفس، فلا تظهر إلا بعد عشر سنين أو بعد خمسين سنة.

وقد ساق لذلك مثالا في «آداب النفوس» فقال: إنه قد يبدو لبعض الناس أن يحصي أسماء صلحاء المحلة وعبادهم وزهادهم، ويقيدهم في سجل، فيهمل اسم هذا العابد الذي غبر عشرات السنين معروفاً بالصلاح والولاية، أو يكتب اسمه في آخرهم، فيجد هذا العابد في نفسه، ويتحرج صدره، ويفصح أو لا يستطيع أن يفصح، وفي هذه اللحظة ظهر كذبه طوال هذا الزمن، إذ بان أنه لم يكن يخلص إرادته لربه وحده، وإنما عمل لنفسه طوال هذه السنين.

وساق مثالا آخر في نفس المرجع يقع فيه جمهور العباد والصالحين، فقد يصنع عابد معروفاً إلى بعض الناس يبتغي به وجه الله وحده بزعمه، وتمضي السنون الطويلة، ثم تبدو من العابد إلى المصنوع إليه المعروف حاجة فلا يقضيها له، فيذكر في نفسه معروفه الذي كان قد صنع إليه منذ زمان طويل، ويجد في نفسه عليه،

وقد بان بهذا الشعور كذبه في ادعائه صنع المعروف لله منذ سنين.

ويبدو الإمام المحاسبي ألمعيا في وضع المقاييس الدقيقة لاختبار إخلاص النفس في عملها، فهو يقول في «آداب النفوس»: هب أنك أردت أن تصنع وليمة تبر بها الأحباب لوجه الله تعالى، فاختارت نفسك عدداً من الناس لهذه الوليمة زاعمة أنها لا تريد من عملها سوى سرور الأخ المؤمن ولا شيء غيره، فإن أردت اختبارها في ذلك فاعرض عليها نقض العمل من أساسه، وابتداءه من جديد، والإضراب عن هذا الفوج من الناس الذين اختارتهم نفسك، فإن جادت بذلك دون حرج في الصدر فالعمل لله حقيقة، وإن حدث الحرج في الصدر ونازعتك إلى ذلك الفوج بالذات فليس العمل لله، وليست النفس إلا كاذبة خادعة.

وهكذا تموج كتب المحاسبي بهذه التجارب الطريفة التي تدل على ذكاء فطري، غريب لم يتيسر لغيره من أئمة السلوك إلا نادراً، وكتاب الرعاية الذي نقدمه إلى القراء في ثوبه الجديد خير شاهد على ألمعية الإمام رضي الله عنه.

وهكذا يؤسس الإمام المحاسبي مذهبه على أساس إعادة الإنسان إلى فطرته النقية الصافية، أما الأعمال فيكفي منها ما قل مع صحة القصد، وسلامة الهدف، وخلاصه من الآفات، فهو لا يعني بالكم ما قد يعني كل العناية بالكيف.

كما أننا لا نلاحظ في كتبه أنه عني بطقوس الطريق الصوفي التي عرفت فيما بعده، فلم يكن عصره في حاجة إلى توثيق العهود على المريدين، ولم يكن الفساد قد استأسد واستكلب حتى يحتاج المرشد إلى ترتيب الأذكار والأوراد وتنظيمها، ولكننا نراه يتحدث عن الأوراد في كتاب المسائل، ويوصي بتنظيم وتقسيم القرآن على الليالي، وينصح بتقسيم الليل بين الصلاة والقرآن، ويرشد إلى أفضل أوقات الليل، وتنظيم الطعام للسالك، ولعل تلك كانت بذور التنظيم الصوفي المجيد الذي آتى ثماره الزكية من بعد الإمام رضي الله عنه.

وهو لا يتحدث عن المكاشفات والمواجيد باعتبارها أساساً في السلوك، وهكذا قال الأئمة من بعده، ولكنهم فصلوا مواجيدهم ومكاشفاتهم بما شاء الله لهم، ولكنه

أشار إشارة عابرة في «آداب النفوس» إلى أن طيب اللقمة وحلها وتخليص النفس من شرورها، وتصحيح مبادىء الأعمال وغاياتها ويجعل الكون كله ستراً رقيقاً ينظر السالك من خلاله إلى عالم الملكوت.

٤ - أزمة نفسية؟!

أولع المتحدثون بتفسير الظواهر التي تبدو على السالكين إلى الله مخالفة لما عليه المجتمع من تقاليد بأنها «أزمة نفسية».

أما أنها أزمة نفسية حسب المصطلح عليه في علم النفس النظري الحديث فلا.

وأما أنها أزمة صراع بين الروح والنفس تخضع على أثرها النفس لسلطان الوعي الروحي، وتثبت الروح كمال سيطرتها على النفس بإرغامها على ما لم تكن تألفه، وما كانت تأنف منه، فنعم، وألف نعم.

ولئن كان تفسير ما حدث للإمام المحاسبي من خروج على المألوف يفسر على أنه أزمة نفسية بالمعنى المتعارف عليه عند النظار في التحليل النفسي الحديث، فإننا نتهم كل من يقولون بذلك بالبلاهة، أو بالعمل السري ضد المثل العليا للإسلام.

هل كان الصديق الأكبر رضي الله عنه على رأيهم مصاباً بأزمة نفسية بالمصطلح الحديث وهو يجرد نفسه من ماله في سبيل الله، ويخلل ثوبه بأعواد وهو أمير للمؤمنين؟

هل كان إمام العدل عمر رضي الله عنه مصاباً بأزمة نفسية بالمصطلح الحديث وهو يلبس ثوباً فيه ثماني رقاع بين يديه ومن خلفه إحداها من أدم وهو يسير الجيوش، ويرهب الكفر، ويزحف بالرعب على تيجان الجبابرة؟

هل كان أستاذ جامعة السنة النبوية في صفة المسجد النبوي أبو هريرة مصاباً بأزمة نفسية وهو يعانق الفقر والعلم معا، ويحفظ للمسلمين تراثهم المجيد؟

وأخيراً وأولاً هل كان سيد البشر ﷺ مصاباً بأزمة نفسية وهو يرفض الدنيا المعروضة عليه بمفاتيحها، ويختار الفقر ليشكر ويصبر؟

هناك فرق كبير بين الأزمة النفسية المصطلح عليها حديثاً، وبين الانتصار على النفس، وتسخيرها لخدمة المجموع، وإنكارها في سبيل بناء مجد حضاري يقوم على المثل الأعلى.

فالأزمة النفسية المصطلح عليها حديثاً علة عصبية تقارب الجنون، أما الانتصار على النفس كما أوضحناه فهو قمة الاعتدال على المستوى العالمي، وقمة الأخلاق الإنسانية المرضية عند الله، وعند المحتاجين إلى العون من الناس.

وهل كان الإسلام إلا خروجا عن المألوف في عصره لدى جميع الأمم، وفي قلب جزيرة العرب؟ خروجا في كل شؤون الحياة؟ من العلو في الأرض إلى التواضع والفقر إلى الله، من الأثرة إلى الإيثار، من التطاول في البناء إلى قدر الضرورة؟ من كل شيء تقره النفس وتهواه، إلى كل شيء يقره وعي الروح الموصول بالغيب ويهواه رب الغيب؟!

ولكن ما حيلتنا في العصر ومصطلحاته، وما حيلتنا في انقياد المفكرين الأعمى إلى كل ما هو أجنبي عن بيئتهم وتقاليدهم، وما حيلتنا في ظلمات القلوب وإغراقها في الأضواء الكاذبة، والتراث المسموم.

وما وصفه الإمام المحاسبي من حالته النفسية في أول عهده بالبحث عن المنهاج الذي يرتضيه لنفسه لا يدل من قريب ولا من بعيد على أنه مريض نفساني على الإطلاق، فلا ندري من أين استقى القائلون بمرضه نفسيا معلوماتهم.

استمع معي أيها القارىء الكريم إلى العبارات التي وردت في مقدمة وصاياه، والتي استند إليها القائلون بإصابته بأزمة نفسية.

لم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة، وألتمس المنهاج الواضح... وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء... ورأيت اختلافهم بحرا عميقاً غرق فيه

ناس كثير... فتفقدت في الأصناف نفس، وضقت بذلك ذرعا، فقصدت إلى هدي المهتدين بطلب السداد والهدى، واسترشدت العلم، وأعملت الفكر فتبين لي من كتاب الله، وسنة نبيه، وإجماع الأمة، أن اتباع الهوى يعمي عن الرشد... فعظمت مصيبتي لفقد الأولياء الأتقياء، وخشيت بغتة الموت أن يفجأني على اضطراب من عمري لاختلاف الأمة، فانكمشت في طلب عالم لم أجد لي من معرفته بدا.

ولا نعلم في هذا الكلام ما يوحي بأزمة نفسية بالمعنى الحديث، وإنما هو صراع بين النفس والروح كان قوامه: هل يخضع الإمام المحاسبي لعرف العصر، ويلتمس الشهرة في حلقات العلم المعروفة في عصره، وبين صيحات الجدل وحب الظهور على الخصوم؟ أو يؤمن بنظرية الخمول، وإنكار الذات، والعمل من أجل الحق، دون انتظار جزاء؟

لقد اختار الإمام المحاسبي المنهاج الثاني، ونبذ المنهاج الأول، وفضل أن يكون فقيهاً بالقدر الذي يمكنه من معرفة الأركان والشروط والواجبات، أو أن يكون فقيهاً واسع الاطلاع لا ليخوض المعركة مع الخائضين، ولكن ليتلمس أصول الداء في المجتمع الذي يعيش فيه، والذي تهدده الأهواء والفتن.

لقد عرض علينا الإمام المحاسبي نموذجاً من فقهه الواسع وخبرته الشاملة بآراء المعاصرين والسابقين له في كتابه «المكاسب» عند حديثه عن مذاهب السلف في المطاعم والملابس، ولكنه أعطانا صورة مشرفة لهدف الفقيه الذي يقارن بين الآراء، ويمتصها تماماً، ويصل غاية المجتمع الإسلامي بغاية الفكر، لا سيما وهو ينقد الزهاد القائلين باعتزال الحاكم الظالم، وعدم مشاركته في الحرب حتى ولو أغار على البلاد مغير، أو ينقد الذين اختاروا الحياة على اللقاط، أو على ما تنبته الأرض من أعشاب، أو غير ذلك من وجوه الحياة السلبية التي تتنافى مع هدف الإسلام من العمل والجهاد والبذل في سبيل إعلاء كلمة الله وتحطيم كلمة الإلحاد.

الإمام المحاسبي لم يكُن مريضا نفسيا، وإنما كان رجلا يعيش في النصف الأخير من القرن الثاني، وأواخر النصف الأول من القرن الثالث، وقد زحفت مدنيات مسمومة على بلاد الإسلام، واحتاجت الكَثيرين من رجال الفكْر في الدولة، بل لقد أصبحت مجالس الشراب والقيام أمل الجماهير الذين يرتادون مجالس الشعراء، بل وتصور الخلفاء.

وتفتحت عيون كثيرة مخلصة تلتمس طريقا للخلاص من هذه الفتنة العمياء، وللعودة بالمجتمع الإسلامي إلى بساطته والتزامه نحو الآخرين.

وأخطأ الكثيرون الطريق، وبدأ الإمام المحاسبي يرسم الطريق الأمثل لقيادة المجتمع نحو قمته التي كاد ينزلق منها إلى هاوية التدهور والانحلال.

وآمن بفكْرته، ونفذها مع نفسه قبل أن يطالب بها الآخرين، وبدأ يصنع المنهاج النفسي القويم لإصلاح النفوس المريضة، ويضع الموازين والمقاييس لقياس النتائج التي قد يبدو للسالك أنه حصل عليها من جهاده مع نفسه.

فالإمام المحاسبي هو ميزان النفوس السليمة من الانحراف، وميزان الأرواح الصادقة الجائلة في المجهول من عوالم المعرفة والصفاء والمكاشفات، وأهاب بالناس أن يحاسبوا أنفسهم على كل خطوة وعمل، وأن يراقبوها ويفاتشوها بين حين وحين لاكتشاف ما تنطوي عليه من خداع وكذب دفين، وأعلن اتهامها بالتقصير حتى ولو بلغت قمة الصلاح والاستقامة على الجادة والسبيل الأقوم.

٥ ـ لماذا أهمل تراث المحاسبي

لقد اشتهر تراث من تتلمذوا على المحاسبي كالإمام الغزالي وغيره، ولكن تراث الإمام بقي زمنا طويلا في غيابة النسيان، وحتى تراجمه في المراجع لم تحظ بعناية على علو مقداره، اللهم إلا الإمام أبو نعيم، الذي أفاض في حليته الحديث عنه وعن آرائه، فلماذا؟

الواقع أن الإمام كان من أهل الخلفاء، الذين لا يحبون الظهور والشهرة، بل يؤثرون العمل الدائب مع خمول الذكر.

ولئن كانت شخصيته لم تشتهر فإن أضواء منهجه قد تجمعت في أنقى وأضخم عدسة جامعة للنور، وفاضت منها إلى أرجاء الإسلام شرقا وغربا وشمالا وجنوبا، وتلك العدسة الهائلة هي الإمام الجنيد بن محمد البغدادي تلميذ الإمام المحاسبي، وحامل منهجه النفسي إلى طرائق التصوف في العالم كله.

وما تلك الدراسات الصوفية في مجال تهذيب النفس وإخضاعها لسلطان الروح إلا ما تفرق من شعاع منهج الإمام المحاسبي عن طريق الإمام الجنيد.

أما نصوص الإمام المحاسبي وكتبه فقد بقيت طوال تلك القرون حبيسة الصدور المخلصة، كما هي حبيسة خزائن المخطوطات، حتى أخرج المستشرقون منها كتابي «الرعاية» و«التوهم» على علاتها، ولم يحاولوا تحقيق نصوصها، ولكنهم مشكورون على أي حال.

والحق أن الموسوعات التي ظهرت في الدراسات النفسية الصوفية كلها شرح وتوسيع وتعميق لمختصرات الإمام المحاسبي الوافية المركزة السهلة الشائقة. وفي عصور الاضطراب الفكري، وحيرة الإنسان بين أكداس الأفكار التي وضعت لإسعاد الإنسان وخلاصه من الفتن يحتاج الانسان إلى مختصرات مركزة وافية سهلة صافية العرض نابعة من قلب مخلص، ولم يكن ذلك العصر إلا عصرنا الحديث، ولم تكن تلك المختصرات الواضحة إلا تراث الإمام المحاسبي.

لقد ادخر الله تعالى هذا التراث المجيد إلى أوانه، فقد أراد الله لمنهجه الانتشار الواسع على يد تلميذه الإمام الجنيد: فلما اتخذ منهجه قاعدة عالمية واسعة على الصورة التي نراها الآن، لم يبق إلا أن شاءت إرادة الله في هذه الأيام أن يظهر تراث الإمام، حتى يعود من كان قد شطحت به روحه، أو خدعته نفسه إلى جادة الصواب، وفطرة الإسلام التقية الصافية، وبذلك تتجلى الحكمة الإلٓهية العليا في إيتاء

هذا التراث ثماره المرجوة في أوانها حيت يحتاج إلى تلك الثمرات كل الطالبين لله، والذين هاموا تلك القرون الطويلة في أرجاء عالم الروح ما شاء الله لهم من الجولان، والذين شعروا بالحاجة الماسة إلى العودة إلى الله، وأحسوا بالمهمة الشاقة الملقاة على كواهلهم في هذا العصر، فشاءَ الله لكاتب هذه السطور أن ينشر «الوصايا» و«المسـائـل في أعمال القلـوب والجوارح» و«المكـاسـب» و«العقـل» و«وآداب النفوس» و«بدء من أناب إلى الله» و«المعرفة»، وفي سبيلنا بحول الله وقوته إلى استكمال نصوص كتاب «القصد والرجوع إلى الله».

وشاء الله تعالى أن يصدر الأستاذ (أبو غدة) كتاب «رسالة المسترشدين» في دمشق، وشاء كذلك أن نعيد تحقيق نصوص «الرعاية» على الصورة التي نقدمها الآن بعد أن تبين نقصه عن واقعه.

وباستكمال كتاب «القصد» واستكمال رسائل الإمام الصغيرة المتناثرة في مجاميع المخطوطات نكون قد أتينا بحمد الله على ما عرف لدينا من تراث الإمام.

وأما كتاب «الرضا» وكتاب «أخلاق الحكيم» فلا نعرف لهما طريقا إلى الآن، ونسأل الله أن يهدينا إليهما قريبا بعونه وحوله وأن يسدد الخطا، ويخلص النية ويتقبل منا بفضله إنه سميع الدعاء.

عبد القادر أحمد عطا

الرِعاية لحقوق الله

لأبي عَبدِ الله الحارِثِ بن أسد المحاسِبِي

المتوفى سَنة ٢٤٣ هـ

الرموز المستعملة في التحقيق

١ ـ [ ] كلمات زدناها لتوضيح المعنى
٢ ـ ط = المطبوعات
٣ ـ ا = المخطوطة الأزهرية
٤ ـ ب = مخطوطة دار الكتب المصرية

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

رب يسر ولا تعسر

(الحمد لله ولي الحمد، والصلاة والسلام على نبينا محمد ﷺ.

حدثني الشيخ أبو عبد الله محمد بن أبي النعم، قال: قرأت عن الشيخ الفقيه الزاهد: أبي محمد هياج بن عبيد بن الحسين الشافعي، الخطيب في المسجد الحرام مقابل الكعبة عند المقام. قلت: أخبرك الشيخ أبو الفرج عبيد الله بن محمد التميمي فأقرّ به. قال: أخبرني عبد الله بن بكر بن محمد الطبراني قال: أخبرني أبو بكر أحمد ابن محمد البغدادي في المسجد الحرام بقراءته عليّ قال: أخبرنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله بن ميمون الخواص ببغداد قال: سمعت أبا عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي قال:)[١].

الحمد لله قبل كل مقال، وأمام كل رغبة وسؤال، فكل أمر مهم ذي بال لم يُبْدَأ فيه بحمد الله وذِكْره فهو (أبتر أو)[٢] أقطع من القول، غيرُ ذي اتصال، كذلك يروى عن النبي (المصطفى)[٣] ﷺ[٤].

فالحمد لله الأول (اسمه، وتعالى)[٥] القديم الذي لم يزل، ولا يستحق هذا الوصف غيرُه، ولا يليق بسواه، لأنه (كان و)[٦] لم يزل واحداً لا شيء معه، ثم ابتدأ خلق الأشياء لا من شيء (ولا شيء)[٧] كان معه قديماً، فاخترع الأشياء

---

(١) ما بين الحاصرين سقط من ط.

(٢ - ٣) سقطت من ط.

(٤) في ا: عليه السلام.

(٥ - ٦ - ٧) سقط من ط.

وأنشأها وقدَّرها كما أراد، فليس له شريك في الملك، وكل شيء (سواه عبد)[1] له مملوك، بدأنا منه بالنعم تفضلا، وبالأيادي التي لا تحصى كرماً وجوداً، فله الحمد كما هو أهله، وكما ينبغي لكرم وجهه وعِزّ جلاله، وإياه نستهدي، وبه نستعين، وعليه نتوكل، وصلى الله على محمد نبيه، وعلى آله وسلم (وبعد)[2]:

فإني قد فهمتُ جميع ما سألتَ عنه، وقد أحببتُ قبل جوابي إياك عما سألتَ عنهُ أن أحثك[3] على حسن الاستماع، لتدرك به الفهمَ عن الله عز وجل في كل ما دعاك إليه.

فقدِّم حسنَ الاستماع منك لما أجبتُك به، لعل الله عز وجل[4] أن ينفعك بفهم ما أجبتك عنه: من الرعاية لحقوق الله عز وجل[5]، والقيام بها، فإن الله تبارك وتعالى أخبرنا في كتابه: أنه من استمع كما يحب الله ويرضى، كان له فيما يستمع إليه ذكرى، يعني اتعاظا، وإذا سمى اللهُ عز وجل[6] لأحد من خلقه شيئاً فهو كما سَمَّى، وهو واصل إليه كما أخبر.

قال الله، تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ﴾[7] فقيل في التفسير: له عقل «أو ألقى السمع وهو شهد» قال مجاهد:[8] شاهدَ بالقلب [وهو] لا يحدثُ نفسَه بشيء، وليس بغائب.

فمن استمع إلى كتاب الله عز وجل، أو إلى حكمه، أو إلى علم، أو إلى موعظة [وهو] لا يحدّث نَفْسَه بشيء غير ما يستمع إليه، وقد أشهد قلبَه ما يستمع إليه، يريد الله تعالى بذلك، كان له فيه ذكرى، لأن الله تبارك اسمه[9] قال ذلك، وهو

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) سقطت من ط وجاء مكانها: ثم إني على أثر ذلك.

(٣) في ط: أحضك.

(٤ - ٦) في ا: تعالى.

(٧) سورة قۤ، الآية: ٣٦.

(٨) هو: مجاهد بن جبر الامام أبو الحجاج المخزومي، مولاهم المكي، المقرىء، المفسر، الحافظ. مولى السائب بن أبي السائب المخزومي. كان أحد أوعية العلم، روى عنه قتاده، والحكم بن عتيبة وعمرو ابن دينار وغيرهما. انظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي ١/٩٢، ترجمة رقم ٨٣).

(٩) في المخطوطة: تعالى إسمه.

كما قال، وبذلك وصفَ المؤمنين وأمرهم بهِ، فقال عز وجل[1]:

﴿الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ، أُولئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ، وَأُولئِكَ هُمْ أُولُوا الألْبَابِ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَإذَا قُرِىءَ القُرْآنُ فاَسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾[3]، وإن كان ذلك في الصلاة أو الخطبة فهو أدب لكل مستمع إلى خير.

ووصف الله تعالى مؤمني الجنّ بذلك حين سمعوا النبي ﷺ، يقرأ بنخلة، وقيل: بعكاظ، فقال تعالى: ﴿فَلَـمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا﴾[4] فأمر بالاستماع لكتابه - مع ترك الكلام - بحضور العقل، لينال عبادُه بذلك الفهمَ عنه، وذمَّ من خالف ذلك، فقال عز وجل[5]:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِـمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[6].

فمدح الناصت له، لأن يستمع عنه كلامَه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، لأن ينالوا بذلك الفهمَ عنه.

وروى عن وهب بن مُنَبِّه[7] أنه قال: «من أدب الاستماع: سكون الجوارح، وغض البصر، والإصغاءُ بالسمع، وحضورُ العقل، والعزمُ على العمل». وذلك هو الاستماع كما يحب اللهُ تعالى [وهو] أن يكفّ العبدُ جوارحَه أن يشغلها (بشيء)[8] فيشتغلَ بقلبه (به)[9] عما يستمع، ويغض طرفَه لئلا يلهوَ قلبهُ بما يرى، ويُحضر

(١) في ا: فقال تعالى.

(٢) سورة الزمر، الآية: ١٨.

(٣) سورة الاعراف: الآية: ٢٠٤.

(٤) سورة الاحقاف، الآية: ٢٩.

(٥) في ا: جل وعز.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٧) هو: وهب بن منبه بن كامل اليماني، أبو عبد الله الابناوي. ثقة. من الطبقة الثالثة. قال الذهبي: ولد سنة أربع وثلاثين، وتوفي سنة أربع عشر ومائة. كان كثير النقل من كتب الإسرائيليات - قال الجوزجاني: كتب كتاباً في القدر ثم ندم، وقال أحمد بن حنبل: كان يتهم بشيء من القدر ثم رجع، أنظر: (تذكرة الحفاظ للذهبي ١/١٠٠، تقريب التهذيب ٢/٣٣٩، ميزان الاعتدال ٤/٣٥٢).

(٨ - ٩) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

عقله فلا يحدّث نفسَه بشيء سوى ما يستمع إليه، ويعزم أن يفهم فيعمل بما يفهم، لأن أول ما أدب الله تعالى به المؤمنين[١]: أن يقدموا الإرادة والعزمَ على طلب الفهم عنه، ثم يستمعوا بإحضار عقولهم، ونياتهم في ذلك أن يفهموا عنه فيعملوا له بما يفهمون عنه.

(قال بعض الحكماء: «تعلم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن من حسن الاستماع إمهال المتكلم حتى يقضي حديثه، وقلة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه، والنظر إلى المتكلم والوعي في أن يفهموا عنه فيعملوا له بما يفهمون عنه») [٢].

حدثنا الغلابي قال: سمعت سفيانَ بن عُيينة يقول: «أول العلم حسن الاستماعِ، ثم الفَهْمُ، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر».

وضرب بعض الحكماء مثلا لذلك كله فقال: «إن الباذر خرج ببذره، فملأ[٣] منه كَفّهُ فبذر، فوقع منه شيء على ظهر الطريق فلم يلبَث أن انحط الطيرُ عليه فاختطفه، ووقع منه شيء على صفا ـ يعني حجراً أملس ـ عليه تراب يسير، وندى قليل، فنبت، حتى إذا وصلت عروقهُ إلى الصفا لم يجد مساغاً ينفذ فيه فيبس، ووقع منه شيء في أرض طيبة فيها شوك نابت، فنبت البذر، فلما ارتفع خنقه الشوك فأفسده واختلط به، ووقع منه شيء على أرض طيبة ليس على ظهر طريق[٤]، ولا على صفا، ولا فيها شوك، فنبت ونما وصَلَح».

فمثل الباذر: مثل[٥] الحكيم. ومثل البذر: مثل[٦] صواب الكلام يتكلم به الحكيمُ. ومثل ما وقع على ظهر الطريق: مثل الرجل يستمع الكلام وهو لا يريد أن

---

(١) في ط: ما أدب الله به عز وجل عباده المؤمنين.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٣) في ط: وملأ.

(٤) في ط: الطريق.

(٥ ـ ٦) في ط: كمثل.

يسمعه[1]، فلا يلبث الشيطان أن يختطفه من قلبه فينساه. ومثل الذي وقع على الصفا: مثل الرجل يستمع الكلام فيستمعه ويستحسنه، ثم يفضي إلى قلب ليس فيه عزمٌ على العمل، فينفسخ من قلبه. ومثل الذي وقع في أرض طيبة فيها شوك: مثل الرجل يستمع إلى الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فإذا اعترضت له الشهوات عند مواقع الأعمال خنقته، فأفسدته، فترك استعمال ما نوى أن يعمل به. ومثل الذي وقع في أرض طيبة ليس على ظهر طريق، ولا فيها شوك ولا على صفا: مثل الرجل يستمع إلى الكلام وهو ينوي أن يعمل به، فيفهمه، ثم يصبر على العمل به عند مواقع الأعمال، ويجانب الشهوات.

قال أبو عبد الله: فلقد ضرب هذا المثل: فما غادر ما يحب اللهُ تعالى، أن يدل عليه، مما أدّب به عبادَه، لأنه أدبهم بالاستماع والإنصات والنية على الطاعة، والصبر عليها، عند مواقع الأعمال ومجانبة الشهوات، والأهواء المزيلة عن الطاعة والمفسدة لها، وإن أدوها بجوارحهم.

فاستمعْ لما أجبتُك به، على ما وصفت من الاستماع، فإنك إذا استمعت كذلك نفعك الله تعالى بما أجبتك به، لأن العبد إذا استمع كما يحب اللهُ تعالى[2]، أفهمه الله تبارك وتعالى كما يحب، لأنه عالم بما يستمع به المستمعون، مطلع على إراداتهم[3] وهممهم، ناظر إلى جوارحهم، ألم تسمعه تعالى يعيب من لا يريد الفهم عنه، وأنه بذلك عالم منهم، إذا يقول:

﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى﴾[4].

فالله جل وعز مطلع عليك، يرى همك[5] وما تريد، فألزِمْ قلبَك ما أجبتك به وما يحب الله تبارك وتعالى عند نظرك إلى ما كتبتُهُ لك، واستماعك إلى ما أجبتُك به[6] يورثْكَ ذلك القيامَ لله تعالى بحقه بإذنه وتوفيقه ولطفه إن شاء الله.

---

(١) في ط: يستمعه.
(٢) في ط: إرادتهم.
(٣) في ط: فإنه.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.
(٥) في ط: هممك.
(٦) في ط: ما أجبتك عنه. وليس مراداً للمؤلف.

باب الرعاية لحقوق الله والقيام بها

(قال الحارث رحمه الله)[١]: وأما[٢] ما سألت عنه من الرعاية لحقوق الله عز وجل والقيام بها، فإنك سألت عن أمر عظيم أصبح عامة أهل زمانك له مضيعين، وهو الأمر الذي تولى الله عليه أنبياءه وأحباءه، لأنهم رعوا عهده وحفظوا وصيته.

وبذلك جاء الحديث عن النبي ﷺ، رواه عنه محمد بن علي بن الحسين بن فاطمة بنت النبي ﷺ[٣]، أنه يقول[٤] لهم الملك العظيم، في الوقت الذي أمِنُوا فيه من كل ما كانوا يخافون، وحَلُّوا في كل ما كانوا يأملون، وفيما لم تبلغه آمالهم، في المقعد الصدق الذي وعدهم فيه أن[٥] يريهم وجهه، ويبلغهم فيه غاية الكرامة من رؤيته ورضوانه، فقال لهم في ذلك المقعد الذي ليس فوقه منزلة، ولا بعده غاية أو كرامة: «مرحباً بعبادي وزواري وخيرتي من خلقي الذين رعوا عهدي وحفظوا وصيتي، وخافوني بالغيب»[٦] لأنهم حفظوا ما استرعاهم واستودعهم فكلَّ ما أمر الله بالقيام به، قد أمر برعايته، كما قال[٧] النبي ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٨].

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) في ط: فأما.

(٣) هو: محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أبو جعفر الباقر، ثقة، فاضل، من الطبقة الرابعة، مات سنة بضع عشرة. أنظر: (تقريب التهذيب ٢/١٩٢).

(٤) في ط: قال.

(٥) في ط: بأن.

(٦) أخرج البزار نحوه من رواية أوردها الهيثمي، عن حذيفة بن اليمان، وقال: «فيه القاسم بن مطيب، وهو متروك». (مجمع الزوائد ١٠/٤٢٢).

(٧) في ط: ألا ترى إلى قول...

(٨) أخرجه: البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب ١١، جنائز، باب ٣٢، احكام باب١. ومسلم في صحيحه، كتاب الامارة باب ٢٠، وأبو داود في سننه، كتاب الامارة باب ١، ١٣ والترمذي في سننه، كتاب الجهاد باب ٣٧. والامام احمد بن حنبل في المسند ٢/٥، ٥٥، ١٠٨، ١١١، ١٢١.

فعلى العباد أن يقوموا بما أوجب الله تعالى عليهم في أنفسهم، وفيمن استرعوه، فالإمام راع على الناس، يجب عليه حفظ ما استرعى من أمورهم، وكذلك الخاصة والعامة، ألا ترى (إلى)[1] عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يقول: «لو أن سخلة[2] ضاعت بشاطىء الفرات لخشيت أن يسألني الله عز وجل عنها». فكل حق أوجبه الله، جل وعز، على عباده في خاصة أنفسهم أو فيما أوجب لبعضهم على بعض، فقد أمرهم بحفظه والقيام به، وذلك رعاية حقه الذي افترضه عليهم، والقيام به.

ولقد ذم الله تعالى قوماً من بني إسرائيل ابتدعوا رهبانية لم يؤمروا بها، فلم يرعوها حق رعايتها، فقال تعالى: **﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾**[3].

وقد اختلف في هذا الحرف، فقال مجاهد: «مَا كتبنَاهَا عليهم إلاّ ابتغاءَ رِضْوانٍ الله» عليهم أي: كتبناها عليهم ابتغاء رضوان الله.

وقال أبو أمامة وغيره: ما كتبناها عليهم أي: لم نكتبها عليهم ولم يبتدعوها إلا ابتغاء رضوان الله، فعابهم الله عز وجل بتركها وهذا أولى التفسيرين بالحق إن شاء الله، وعليه أكثر علماء الأمة فقال الله تعالى[4]: **﴿فما رَعْوها حَقَّ رِعايتها﴾**[5].

فذمهم الله تعالى بترك رعاية ما لم يَفترض، ولم يوجب عليهم، فكيف بمن ضيَّع رعاية حقوقهِ الواجبةِ، التي أوجب في تضييعها غضبه وعقابه، وجعل القيام بها مفتاحاً لكل خير في الدنيا والآخرة، وهي التقوى، ولأهلها أعد الجنة، ولأهلها جعل الأمن في الآخرة، وإياهم وَعدَ قبولَ الأعمال، وإياهم سمَّى بالولاية، ورفع

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٢) سخلة: الشاة الصغيرة.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢٧.
(٤) في ط: عز وجل.
(٥) سورة الحديد، الآية: ٢٧.

عنهم الخوفَ والحزن في يوم المخافة والأحزان، إلاّ تارات[1] أهوالٍ تعمُّ الخلائق، ولهم جعل النصر في الدنيا والمعونة على طاعته، ولهم جعل المخرجَ من كل ما ضاق على العباد، ولهم ضمن الرزق من غير الوجوه التي يحتسبونها [فقال تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجا ٭ ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[2] وقال تعالى][3]: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا اَلسَّمٰوَاتُ وَالارْضُ أُعِدَّتْ لِلْـمُتَّقِينَ**﴾[4].

فهل ترى فيها موضعاً لغير متق؟!

باب معرفة التقوى وما هي

والتقوى التي أعد الله تعالى الجنةَ لأهلها هي: اتقاءُ الشركِ فما دونه، من كل ذنب نهى الله عنه[5]، أو تضييع واجب مما افترضه الله.

وقال تعالى: ﴿**ولَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ**﴾[6] وهي وصية الله عز وجل في الأولين والآخرين.

وقال تعالى: ﴿**ألاَ إنَّ أوْلِياءَ اللهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِـمْ ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ الذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ**﴾[7].

وقد رُوِي في الحديث: أن المنادي ينادي يوم القيامة: « يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون فترفع الخلائق رؤوسهم يقولون: نحن عباد الله عز وجل، ثم ينادي الثانية: الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين، فينكِّسُ الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحدون رافعي رؤوسهم، ثم ينادي الثالثة: الذين آمنوا وكانوا يتقون، فينكس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم» قد

---

(١) يعني: فترات.
(٢) سورة الطلاق، الآية: ٣.
(٣) ما بين الحاصرتين:سقط من ط.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.
(٥) في ط: من ذنب من كل ما نهى الله عنه.
(٦) سورة النساء، الآية: ١٣١.
(٧) سورة يونس، الآية: ٦٢.

أزال (الله)[1] الكريمُ عنهم الخوفُ والحزن[2] كما وعدهم، لأنه أكرم الأكرمين، لا يخذل وليه ولا يُسلمه عند الهلكة، قال تعالى: ﴿إنَّ الـمُتَّقِينَ في مَقامٍ أَمِينٍ﴾[3]، لأن التقوى: إنما كان أصلها الخوف والحذر من الله تعالى[4]، وكذلك يقول الله تعالى[5]: ﴿وَلمنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جنَّتَان﴾[6]. وقال ﴿وأمّا مَنْ خافَ مقامَ رَبِّهِ ونهى النَّفْس عن الْـهَوَى﴾[7].

فأخبر العليمُ أن الخوفَ كان قبل التقوى.

والعرب مجمعة في لغتها على أنه إذا أمر بعضها بعضاً بالاتقاء من شيء قال: احذر السبع، احذر الجدار، احذر البئر، أي احذر فتجنب ما أحذِّرك.

فلما كان أصل التقوى لله تعالى: الخوفَ منه، وعدهم الأمن عوضاً مما أخافوا أنفسهم به من عقابه فقال جل وعز:

﴿إنَّ الـمُتَّقينَ في مَقَامٍ أمِينٍ﴾[8].

وقال: ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِين﴾[9].

وقال تعالى: ﴿أفَمَنْ يُلْقَى في النَّارِ خيرٌ أمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ القِيَامَةِ﴾[10].

وبذلك جاء الخبر: أنه يقول جل وعز يوم القيامة. «وعزتي وجلالي لا أجمعُ اليومَ لعبدي أمْنين، ولا أجمع عليه خوفين، فمن خافني في الدنيا أمَّنته اليوم، ومن أمِنَني في الدنيا أخفْتُه اليوم»[11] فما ظنك بالله عز وجل يقولها؟

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٢) في ا. الحزن والخوف.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٥١.
(٤ - ٥) في ط عز وجل.
(٦) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٧) سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٨) سورة الدخان، الآية: ٥١.
(٩) سورة الحجر، الآية: ٤٦.
(١٠) سورة فصلت، الآية: ٤٠.
(١١) أخرجه ابن المبارك عن الحسن مع اختلاف يسير في اللفظ. وأخرجه البزار عن الحسن مرسلا، وقال الهيثمي: «وفيه شيخه محمد بن يحيى بن ميمون، لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه البزار أيضا عن أبي هريرة ورجاله رجال الصحح غير محمد بن عمر بن علقمة، وهو حسن الحديث. انظر: (الزهد لابن المبارك ٥١، مجمع الزوائد ٣٠٨/١٠).

وقلبك لا يخلو في ذلك الوقت أن يكون أحد قلبين: إما قلباً كان في الدنيا لله تعالى خائفاً، فاستطار فرحاً لما سمع الله، عز وجل، يقولها غبطةً وسروراً، لما رأى من عواقب الصبر، وما حلّ في قلبه من الأمن، وما سمع من الخصوصية له من الله جل (تعالى)[1] وعز بالأمن والرضاء على رؤوس أهل الجمع، أو قلباً[2] كان في الدنيا غافلا مغتراً آمناً، فاستطار فَزَعاً ورعباً، وغلَبت عليه الندامة، والحسرة، حين رأى سوء عواقب غفلته واغتراره، ولزم قلبه اليقين بأن غضب الله (عز وجل)[3] قد حل به، وأنه لن ينجو من عذاب الله تعالى جل وعز[4]، بضعفه، وما خصه الله تبارك اسمُه (تعالى)[5] به من الشقاء. والعداوة من النداء بالخيبة له على رؤوس أهل الجمع.

باب معرفة الحذر

ومما تخوف النفوس حتى تحذر وتجانب وتباين الهلكات[6].

قال الحارث رحمه الله: يا أخي، فإني أحذِّرك ونفسي مقاماً عَنَتْ فيه الوجوهُ، وخشعت فيه الأصوات، وذَلَّ فيه الجبارون، وتضعضع فيه المتكبرون، واستسلم فيه الأولون والآخرون بالذل والمسكنة، والخضوع لرب العالمين وقد جمعهم الواحد القهار الذي لا ثاني له في الهيبة، ولا مشاركَ في حكمه، جمعهم بعد طول البِلى للفصل والقضاء، في يوم آلى فيه على نفسه: أن لا يترك فيه عبداً أمره في الدنيا ونهاه حتى يسائله عن عمله في سره وعلانيته.

فانظر بأي بدن تقف بين يديه، وأعِدَّ للسؤال جواباً وللجواب صواباً، فإنه لا يصدِّق إلا الصادقين، ولا يكَذِّب إلا الكاذبين.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٢) في ط: وإما قلبا.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من أ.
(٤) في ط: عز وجل.
(٥) ما بين الحاصرتين، سقطت من ط.
(٦) هذا العنوان: سقط من ط.

باب معرفة ما يبدأ به العبد من العدة

للمقام بين يدي الله تعالى

فليكن أولُ ما تبدأ به من العُدَّة لذلك المقام تقوى الله عز وجل، في السر والعلانية، ليأمن قلبك في ذلك المقام مع قلوب المتقين، حين ينجز لهم ما وعدهم من الأمن والغبطة والسرور.

وما تركهم اللطيف في الدنيا، مع ما يعطيهم في الآخرة، حتى أنار لهم قلوبَهم، وأعزّ لهم أنفسهم، وأغناهم به عن خلقه ونعَّمَهم بطاعته، فألزم قلوبَهم مع الخوف منه حسنَ الظن به، والأنس إلى رجائه، ثم علا ذلك بالشوق إليه جل وعز، وإلى جنته، فنقلهم من المكابدة إلى النعيم بطاعته والسرور بها، وقَنَّعهم من الدنيا باليسير منها، فطيَّبَ فيها عيْشَهم، وأحسن فيها نَصْرَهم ومعونتهم. وذلك الذي وعدهم، فقال عز وجل: **﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾**[1].

فهل على من كان الله عز وجل معه بالنصر والمعونة ضَيْمٌ أو خذلان؟ فهم أعز الخلائق أنْفُساً، وأنورُهم قلوباً، وأغناهم به غنى، وأطيبهم عيشاً، حزنهم فيما يُسَرُّ به الناسُ، وسرورهم فيما يحزن له الناسُ، وطلبهم لما يهرب منه الناس[2]، وهربهم مما يرغب فيه غيرهم من أهل الغفلة والغِرَّة، يستأنِسُون إذا استوحش الناس؛ إذ كان أنسهم بالله جل وعز وحده استكمالا لمناجاته، فعنده يضعون بثوثهم، وإليه يفزعون[3] في حوائجهم، وقد اتخذوه حرزاً وجُنَّة[4] وكهفاً؛ وثقوا به دون خلقه، وانقطعوا إليه عز وجل عن كل قاطع يقطعهم عنه، فاستوحشوا حين استأنس الناس استيحاشاً من الخلائق واستئناساً بربهم.

فهذه مواريث التقوى، لأنها أساس العمل، وأصل الطاعة، وهي أول منزلة العابدين وأعلاها، لأن النوافل بعدها، ولا تقبل نافلة إلا بها ومعها، وهي التي

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

(٢) في ا: لما يهرب الناس منه.

(٣) في ط: يضرعون.

(٤) الجنة: الوقاية.

أصبح عامة القراء[1] لها مضيعين، وقد أمر الله جل ثناؤه، في كتابه في آيات كثيرة بها، وعظم قدرها وقدر القائمين بها، ونبهنا[2] النبي ﷺ (عليها)[3] بسننه، وعظم قدرها، والعلماء من بعده إلى عصرنا هذا.

فأما تفسير ما أمر الله جل وعز به في كتابه: فإنه حدثنا سنيد بن داود عن حجاج عن أبي جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى**﴾[4]، قال: البر: ما أُمرتم به، والتقوى: ما نهيتم عنه.

وحدثنا الوليد بن شجاع عن ضمرة بن رجاء بن أبي سلمة عن يونس بن عبيد عن الحسن قال: ما عبد الله العابدون بشيء أفضل من ترك ما نهاهم عنه.

حدثنا الوليد، قال: حدثنا عمر بن حفص بن ثابت الأنصاري عن سفيان الثوري عن رجل عن الحسن قال: ﴿**إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ**﴾[5] قال: اتقَوْا الله جل ثناؤه فيما نهاهم عنه، وأحسنوا فيما افترض عليهم.

وحدثنا سنيد بن داود قال: حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾[6]، قال: من الذنوب، فأوجب الرحمة بترك الذنوب.

وحدثنا أبو النصر عن شعبة عن منصور عن إبراهيم أو مجاهد في قوله تعالى: ﴿**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ**﴾[7]، قال: يريد أن يذنب، أو يهم فيخاف ربه فيدعه.

وحدثنا سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿**وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ**﴾[8]، قال: تحدث به النفس.

---

(١) القراء: الذين يجتهدون في العبادة على غير علم.
(٢) في ط: بينها.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٢.
(٥) سورة النحل، الآية: ١٢٨.
(٦) سورة يس، الآية: ٤٥.
(٧) سورة الرحمن، الآية: ٤٦.
(٨) سورة غافر، الآية: ١٩.

وحدثنا عبيد الله بن موسى[1]، قال: أخبرنا هشام بن عروة[2] أظنه ذكره عن أبيه، قال: لما ولي أبو بكر الصديق، رضوان الله عليه حمد الله فأثنى عليه، ثم قال: «أيها الناس، قد وليتكم ولست بخيركم، ولكن نزل القرآن، وسن النبي ﷺ، وعُلمنا فَعَلِـمْنَا، واعلموا أن أكيس الكَيْس التقيّ، وأن أحمق الحمق الفجور، وأن أقوى القوي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وأن أضعفكم عندي القويُّ حتى آخذ منه الحق. أيها الناس، إنما أنا مُتَّبع ولست مبتدعاً، فإذا أحسنتُ فأعينوني، وإن زُغْتُ فقَوِّموني».

باب شرح التقوى

قلت: فما التقوى؟

قال: الحذر بالمجانبة لما كره الله، عز وجل.

قلت: الحذر من ماذا؟

قال: الحذر من الله تعالى[3].

قلت: (فالحذر من الله)[4] فماذا؟

قال: في خَصْلَتين: تضييع واجب حقه، وركوب ما حَرَّم ونهى عنه في السر

---

(١) هو: عبيد الله بن موسى بن أبي المختار، العيسي الكوفي، أبو محمد. من الطبقة التاسعة، وثقه إبن حجر. قال الذهبي: «ثقة في نفسه لكنه شيعي متحرق». ووثقه أبو حاتم وإبن نعيم. قال ابو حاتم: «أبو نعيم اتقن منه، وعبيد الله أثبتهم في إسرائيل». مات سنة ثلاثة عشر ومائتين. أنظر: (تقريب التهذيب ٥٣٩/١، ميزان الاعتدال ١٦/٣).

(٢) هو: هشام بن عروة بن الزبير العوام الاسدي، ثقة، فقيه، قال ابن حجر: «ربما دلس». قال الذهبي: «لم يختلط أبداً، ولا عبرة بما قاله أبو الحسن بن القطان من أنه اختلط». من الطبقة الخامسة مات سنة خمس أو ست وأربعين وله سبع وثمانون سنة. أنظر: (تقريب التهذيب ٣١٩/٢، ميزان الإعتدال ٣٠١/٤).

(٣) في ط: عز وجل.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

والعلانية. وتجمع ذلك خَصْلَتان: القيام بما أوجب الله عز وجل[1] لله، وترك ما نهى الله عز وجل عنه لله تبارك وتعالى.

وكذلك يروى: أن الفتنة لما وقعت قال طلق بن حبيب[2]: اتقوها بالتقوى. فقال له بكر بن عبد الله المزني[3]: صف لنا التقوى، فقال:

التقوى: أن تعمل بطاعة الله عز وجل، على نور من الله عز وجل، ترجو ثواب الله عز وجل.

والتقوى: ترك معاصي الله على نور من الله عزّ وجل، مخافة عقاب الله عز وجل.

والتقوى: حقيقتها في الجوارح: القيام بالحق وترك المعاصي.

والتقوى: حقيقتها في الضمير: إرادة الديان في الفرض، وبإخلاص[4] العمل له في النفل: بالبكاء والأحزان والصلاة والصيام، وجميع أعمال الطاعات مما ندب الله عز وجل إليها عبادَه، ولم يفترضها عليهم: رأفة بهم ورحمة لهم.

ولا يَقبل ما نَدَبَ إليه إلا بالتقوى، حتى تخلصَ له الإرادة به.

وعن التقوى[5] كان الورع؛ لأنه لما اتقى (العبد)[6] الله عز وجل تورَّع.

---

(١) في أ: تعالى.

(٢) هو: طلق بن حبيب العنزي، بصري، صدوق عابد، من الطبقة الثالثة. قال الذهبي: «من صلحاء التابعين إلا انه كان يرى الارجاء» وقال أبو زرعة: «ثقة مرجىء». وقال أبو حاتم: «صدوق». انظر: (ميزان الاعتدال ٢/٢٤٥، تقريب التهذيب ١/٣٨٠).

يقال له: أبو عبد الله البصري، ثقة من الطبقة الثالثة: أنظر: (تقريب التهذيب ١/١٠٦).

(٤) في ا: بإخلاص.

(٥) في ط: ومن التقوى.

(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

باب معرفة الورع [1]

قلت: ما الورع؟.

قال: مجانبة ما كره الله جل وعز، ومنه قول عمر رضي الله عنه: ورِّعوا اللص ولا تراعوه، يقول: اطردوه وجنبوه رحالكم، ولا ترصدوه حتى يقع، ومنه قول العرب: ورِّع الإبل أي جنِّبها.

فالتقوى أول منزلة العابدين، وبها يدركون أعلاها، وبها تزكوا أعمالهم؛ لأن الله جل وعز، لا يقبل عملا إلا ما أرِيد به وجهُهُ، فوالله ما رضي كثير من المتقين بها لله تعالى وحدها، حتى أعطوه المجهود من القلوب والأبدان، وبذلوا له المهج من الدماء والأموال. فانظر رحمك الله أين أنت منهم؟

ولقد خشيت أن يكون عامة أهل زماننا من العابدين (مخدوعين) [2]، مغترين، فكم من متقشف في لباسه متذلل في نفسه آخذ من حطام الدنيا اليسير، ومن مصلٍّ وصائم، وغازٍ وَحاج، وباك وداع، ومظهر للزهادة في الدنيا والرفض لها على غير صدق من الضمير لرب العالمين عزّ وجل، يتصنع للعباد بما يظهر من الطاعات، ويرى أنه من المخلصين وجوارحه مع ذلك (عليه) [3] منتشرة، من عين ينظر (بها) [4] إلى ما كره اللهُ، ولسانٍ يتكلم به لا يحب اللهْ جلَّ وعز عند غضبه وعند أنسه بالناس ومحادثته بالغيبة وغيرها.

---

(١) العنوان ساقط من: ط.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من م.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

باب في تعريف المغتر نفسه وطول غرته

قلت: فكيف لهذا المغتر بظاهر طاعته أن يعرف نفسه وطولَ غرته، في أيام الدنيا بقراءته؟

قال: يرجع هذا القارىء المتقشف إلى نفسه، ثم يعرض أيامه التي خلت من عمره فيتقشفه وتزهده، هل أتى عليه يوم منها، طلعت عليه فيه الشمس ثم غابت عنه، حفظ فيه جارحة من جوارحه مما كره الله عز وجل ونهى عنه، وقام بها فيما أوجب الله عز وجل[1] وافترضه عليه.

فلو فعل ذلك فاعترضها جارحة جارحة، هل يعرف يوماً إلى الليل، حفظ فيه لسانه، فلم يتكلم بكلمة تسخط الله جل وعز[2]، ولم يسكت عن كلمة أوجبها عليه ربه حتى أمسى، لخشيت أن لا يجد ذلك اليومَ فيما مضى من أيام قراءته دون أيام جهالته. وكذلك بصره وسمعه وخطاه وجميع جوارحه.

ولو وجد من نفسه أنه حفظ الله عز وجل، جوارحَه أيام قراءته، أو يوماً خلا منها، ثم رجع إلى قلبه، فتذكر، هل يعرف يوماً من أيام قراءته مع حفظه لجوارحه هل تفقد فيه قلبه فعلم أنه قد كان حذراً من اطلاع الله عز وجل تعالى على ما يضمر فيه، وكان عقله حارساً لهواه في يوم ذلك، فلم تخطر (بقلبه)[3] خطرة يكرهها الله عز وجل، من الرياء والتصنع، بعمله إلا عرفها وكرهها، وسلم من جميع خطرات هواه، أو عدوّه في يومه ذلك، حتى عرف أنه قد أخلص يوماً إلى الليل، يتفقّد (ذلك)[4] من غير غفلة ولا غرة لخشيت أن لا يجد ذلك.

(١، ٢) في أ، ب: تعالى. وهكذا في بقية الباب.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من أ.

ولقد خشيت أن لو وجد ذلك أن لا يكون سلِم مما سوى ذلك مما كره الله عز وجل في ضميره، من العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن وغيره، لأن عامة قرّاء زماننا مغترون مخدوعون، نعد أنفسنا المتقشفين المتنسكين، ولعلنا عند الله من الفاجرين الفاسقين، وكيف نأمن أن نكون كذلك، ونحن لا يأتي علينا يوم إلا جددنا فيه ذنوباً لم تكن من قبل نضيفها إلى ما خلا من الذنوب بالأمس، من ذنوب الجوارح وذنوب الضمير، من الكبر والحسد والشماتة وسوء الظن والعجب والرياء وغير ذلك. فكل يوم من أعمارنا نكتسب فيه ذنوباً جديدة بجوارحنا وقلوبنا، نضمها إلى الذنوب التي كانت بالأمس جمعا جمعاً.

فلن نخلو من إحدى منزلتين: أن نكون عند الله عز وجل من أهل العفو والتجاوز والصفح، فكل يوم نزداد بتجديد الذنوب مع تجديد الأيام والليالي طولَ مقام بين يدي الله عز وجل، وكثرة سؤال ودوام حصر[1] وكثرة تعب غير موصوف. أو أن نكون من أهل العداوة والغضب، فكلّ يوم نزداد فيه بتجديد الذنوب زيادة في العذاب بالتضعيف والذل والهوان؛ فلا تخلو ذنوبنا من أن نزداد بها كثرة سؤال أو شدة عذاب، لأن أول ذنب اكتسبناه عند البلوغ والإدراك استوجبنا به العذاب، ثم كلُّ ذنب بعده زيادةٌ في العذاب بالتضعيف إلا أن يعفو الرحيم الجواد الكريم، وإن يعف فأول ذنب أذنبناه عند البلوغ، وجب علينا التوقيف عليه بين يدي الله عز وجل، والسؤال عنه ثم كلُّ ذنب بعده نزداد به توقيفاً عليه وكثرة سؤال عنه.

(قال الحارث رحمه الله)[2]: يا أخي فلتكن التقوى من بالك، فإنها رأس مالك، والنوافلُ بعد ذلك ربحك، وليس بتاجر عاقل ولا حصيفٍ لبيب من يعدّ له ربحاً دون أن يكمل رأس ماله.

---

(١) في ط: خطر. وليس مرادا في المعنى.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

باب أول ما يجب على العبد معرفته والفكر فيه[1]

قلت: فما أول ما تأمرني أن أبتدي به[2]؟.

قال: أن تعلم أنك عبد مربوب، لا نجاة لك إلا بتقوى سيدك جل وعز ومولاك، ولا هلكة عليك بعدها. فتذكر وتفكّرْ لأيّ شيء خُلِقتْ؟ ولمَ وضعت في هذه الدار الفانية؟ فتعلم أنك لم تُخْلقْ عبثاً، ولم تترك سدى، وإنما خلقت ووضعت في هذه الدار للبلوى والاختبار، لتطيع الله عز وجل تعالى أو تعصي، فتنقل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد.

فإذا علمت أنك عبد مربوب، ثم عقَلتَ لـمَ خلقت؟ ولماذا عُرّضت؟ وإلى أي شيء لا محالة مصيرُك، إلى عذاب الأبد، أو الثواب ونعيم الأبد؟[3] كان ذلك أولَ ما يجب عليك أن تبدأ به؛ لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذي لا صلاح لها في غيره ـ وهو أولُ الرعاية ـ أن تعلم أنها مربوبة متعبدة، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه، وأن الدليل على طاعة ربه ومولاه عز وجل العلمُ، ثم العملُ بأمره ونهيه في مواضعه وعلله وأسبابه، ولن يجد ذلك إلا في كتاب ربه، وسنة نبيه ﷺ، لأن الطاعة سبيل النجاة، والعلم [هو] الدليل على السبيل، فأصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقوى[4] وأصل التقوى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الـخوف والرجاء[5]. والدليل على محاسبة النفس العلمُ بما تعبّد اللهُ عز وجل[6] به خلقَه في قلوبهم وجوارحهم، وكذلك أهل الدنيا

(١) في نسخة: باب ما يجب أن يبدأ به العبد. على هامش أ.

(٢) انظر باب الفكرة من: المسائل في أعمال القلوب والجوارح. للمؤلف. فقد فصل فيه الموضوع بأوضح مما هنا.

(٣) في أ: أو نعيم وثواب الأبد.

(٤) في ط: التقي.

(٥) رجح المؤلف في باب الغرة من (آداب النفوس) أن أصل المحاسبة من خوف البخس وشين النجس، ولم يجعل الرجاء أصلاً لها.

(٦) في أ: تعالى.

لا يعالجون الأعمال، ولا يتكلفون التجارات، إلا ببصر قد تقدم منهم، وعلم بما يعملون، وبما يبتاعون ويبيعون.

باب محاسبة العبد نفسه في أعماله[1]

قلت فما المحاسبة؟

قال: النظر والتثبت، بالتمييز لما كره الله عز وجل، مما أحب، ثم هي على وجهين: أحدهما في مستقبل الأعمال، والآخر في مستدبرها. فأما المحاسبة في مستقبل الأعمال فقد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها علماء الأمة.

فأما ما دل عليها من الكتاب فقوله عز وجل: ﴿ **وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُم تُفْلِحُونَ** ﴾[2] أي: اتقوا الله عز وجل، في أداء فرائضه واجتناب نهيه، وكذا فسره المفسرون في غير موضع من كتاب الله عز وجل تعالى. وقوله: ﴿ **يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُم فَاحْذَرُوهُ** ﴾[3] وقوله جل وعز: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسوِس بِهِ نَفْسُهُ** ﴾[4]، فذلك[5] تحذير منه لنا، وتنبيه على ذكر الله عز وجل. واطلاعه على ما في قلوبنا. وقوله: ﴿ **إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا** ﴾[6] وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تَرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ** ﴾[7]، وقال تعالى: ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدونَ وَجْهَهُ** ﴾[8] ووصف ضمير الصادقين، فقال جل وعز: ﴿ **إِنَّمَا نُطعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا** ﴾[9]، قيل في التفسير: لا نريد منكم مكافأة ولا ثناء. وقال جل وعز: ﴿ **فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّين ألا للهِ الدينُ الخالصُ** ﴾[10]. قيل في التفسير: الذي لا يشوبه شيء.

---

(١) في ط و أ: باب في محاسبة النفس في مستقبل الأعمال. وقد اخترنا ما على هامش أ من نسخة ثانية لموافقته للموضوع.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٣٠. (٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٥. (٤) سورة قٓ، الآية: ١٦.

(٥) في ط: وذلك. (٦) سورة النساء، الآية: ٩٤. (٧) سورة الروم، الآية: ٣٩.

(٨) سورة الكهف، الآية: ٢٨. (٩) سورة الإنسان، الآية: ٩. (١٠) سورة الزمر، الآية: ٢.

وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِن أَنْفُسِهِمْ**﴾[1] قال الحسن: كان أحدهم إذا أردا أن يتصدق بصدقة نظر وتثبت، فإن كانت لله جل وعز أمضاها. وقال الحسن: «رحم الله عبداً وقف عند همه» فليس يعمل عبد حتى يهم، فإن كان له مضى، وإن كان عليه تأخر.

وقال في حديث سعد، حين أوصاه سلمان الفارسي فقال: «اتق الله عند همك إذا هممت، وعند حكمك إذا حكمت». قال الحسن: رحم الله القوم كانوا فقهاء، علموا أنه لا يكون عمل حتى يكون بدؤه هماً، وكذلك المؤمن هو الوقاف.

وقال محمد بن علي رضي الله عنه: «إن المؤمن وقاف متأن، يقف عند همه لله جل وعز، وليس كحاطب ليل».

والآي في ذلك كثير. فوصف الله جل وعز محاسبتهم أنفسهم[2] في أعمال جوارحهم، وضمائر قلوبهم بالإخلاص له.

وأما السنة التي دلت على ذلك فإن النبي ﷺ. قال: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرىء ما نوى[3]» رواه عنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال ابن مسعود: من هاجر يبتغي شيئاً فهو له. وقال النبي ﷺ: «من غزا لا ينوي إلا

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٥.

(٢) في ط: لأنفسهم.

(٣) أخرجه: البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب ١، ومواضع أخرى. ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، د ١٥٥. وأبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب ١١ والترمذي في سننه كتاب فضائل الجهاد، والنسائي في سننه، كتاب الطهارة، باب ٥٩. وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد باب ٥٦. والإمام أحمد في المسند ٢٥/١، ٥٤٣، ٣٢١/٢، ٣٧٣، ٣٨٠، ١٣٤/٥، ١٨٣، ٣١٥، ٣٢٠، ٣٢٩، ٤٤٦، ٧٢/٦. وأخرجه أيضاً الدارقطني، وإبن حبان، والبيهقي. وأخرجه أيضاً ابن المبارك في الزهد عن عمر بن الخطاب: «... فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله وإلى رسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إمرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر إليه».

عقالا فله ما نوى»[1] رواه عنه عبادة بن الصامت. وسأله رجل أن يوصيه ويعظه[2]، فقال «إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان رشداً فأمضه، وإن كان غياً فانته عنه» رواه طاوس.

وقال لقمان: إن المؤمن أبصر العاقبة، فأمن الندامة. وقال بعض الحكماء: إذا أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعجل بقضاء الشهوة حتى تنظر في العاقبة، فإنه كان يقال: إن مكث الندامة في القلب بارتكاب الشهوة أكثر مكثا من مكث الشهوة[3].

وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ، أنه قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»[4]. وقوله: «دان نفسه» يعني[5] حاسب نفسه. وهي المحاسبة في لغة العرب، ودل على ذلك قول الله جل وعز: ﴿يُكَذِّبُونَ بِيومِ الدِّيـنِ[6]﴾[7]، أي[8] بيوم الحساب. وقوله تعالى: ﴿أئِنا لَـمَدِينُونَ[9]؟﴾[10] أي: لمحاسبون. وكذلك

---

(١) أخرجه: النسائي في سننه من كتاب الجهاد، باب ٢٣. والدارمي في مسنده، كتاب الجهاد باب ٢٣. والإمام أحمد بن حنبل ٣١٥/٥، ٣٢٠، ٣٢٩.

(٢) في أ: وقال لرجل سأله أن يوصيه ويعظه.

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد ص ١٤ د ٤١، ولفظه: «جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: بارك الله المسلمين فيك فخصني منك بخاصة خير، قال: مستوص أنت؟ - أراه قال: ثلاثاً - قال: نعم، قال: إجلس إذا أردت أمراً فتدبر عاقبته، فإن كان خيراً فأمضه، وإن كان شراً فانته عنه».
وأخرج معناه أبو داود في سننه، كتاب الأدب باب ٤، وحسن الخلقه، باب ٢ وفيه: «ما خير رسول الله ﷺ في أمرين إلا إختار أيسرهما».

(٤) في ط: أكثر مكثا من دوام الفرح في القلب بانقضاء الشهوة.

(٥ - ٦) أخرجه: الترمذي في سننه ٣٥/٣، وابن المبارك في الزهد ص ٥٦ حـ - ١٧١، وتمام الحديث: «....، والعاجز من اتبع نفسه هواها، وتمنى الله عز وجل».

(٧) في أ: يعني بقوله وان نفسه أي...

(٨) سورة: المصطفين، الآية: ١١.

(٩) في أ: يعني.

(١٠) سورة الصافات، الآية: ٣٧.

تقول العرب: كما تدين تدان. أي يحسب ذلك لك. وكذلك جاء الخبر عن النبي ﷺ: «البر لا يبلى، والإثم لا ينسى، والديان لا ينام، فكن كما شئت كما تدين تدان»[1]. أي يحسب لك ذلك. وقال عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتهيئوا للعرض الأكبر». وكتب إلى أبي موسى (الأشعري)[2]: «حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة».

وقال عمر لكعب: «كيف تجدنا في كتاب الله عز وجل»؟ فقال: ويل لديان الأرض من ديان السماء. فضربه بالدرة وقال: إلا من حاسب نفسه، قال: فقال له كعب: والله يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها[3] في التوراة وما بينهما حرف: إلا من حاسب نفسه. حدثنا بذلك يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثني أبي عن الزهري عن سالم بن عبد الله: أن عمر سأل كعبا[4]، والحديث في ذلك كثير.

فهذه المحاسبة في مستقبل الأعمال، وهي: النظر بالتثبت قبل الزلل، ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم، فمن اتقى[5] العجلة، وتثبت قبل فعله، واستدل بالعلم، أبصر ما يضره مما[6] ينفعه قبل العلم بهما.

والمحاسبة الثانية في مستدبر الأعمال - وهو فعل ماض - نطق بها الكتاب والسنة، وقالت بها علماء الأمة.

فأما (ما نطق به)[7] الكتاب فقوله تعالى: ﴿**يا أيّها الّذينَ آمنُوا اتّقوا اللهَ وَلْتنظرْ نفسٌ ما قدّمت لغد**﴾[8] قال قتادة وابن جريج: ما قدمت لغد: ليوم

---

(١) أخرجه: ابن المبارك في الزهد ص ٤٠٥ حـ ١١٥٥.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٣) في ط: جنبتها. خطأ. وفي صدق كعب نظر.
(٤) في ط: قال لكعب.
(٥) في أ: ألقى.
(٦) في ط: فما. خطأ.
(٧) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٨) سورة الحشر، الآية: ١٨.

القيامة، ولم يقل في هذا الموضع ما تقدم. وكذا فسره العلماء: إنما هو النظر لما مضى، ليتوبوا من ذنوبهم التي مضت فيما مضى من أعمالهم.

وقال جل وعلا: ﴿**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤمِنُونَ لعَلَكُم تُفلحونَ**﴾[1] فأمرهم جل وعلا أن يستدبروا أعمالهم التي مضت، بالندم على ذنوبهم، والتوبة إلى ربهم. وقال النبي ﷺ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة»[2]. وقال الله عز وجل: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فإذا هم مبصرون**﴾[3] قال مجاهد (طائف الشيطان)[4] هو الغضب. تذكروا: فإذا هم مبصرون. وقال عبد الله بن كثير: أهل الشرك لا يبصرون كما يبصر الذين آمنوا، ولا يرعوون، ولا يحجزهم الإيمان. قال مجاهد: وإخوانهم من الشياطين يمدونهم في الغي.

وروي عن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب قدميه[5] ـ حدثنا بذلك كثير

---

(١) سورة النور: الآية: ٣١.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: مسلم في صحيحه، كتاب الذكر حديث ٤١. وأبو داود في سننه، كتاب الوتر، باب ٢٦، والترمذي في سننه، تفسير سورة ٤٧، وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب ٥٧. والدارمي في مسنده كتاب الرقاق، باب ١٥. والإمام أحمد في المسند ٢/٤٥، ٤/٢٦٠، ٥/٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠٢.

وأخرجه بلفظ: «فإني أتوب إلى الله وأستغفره في اليوم مائة مرة» الإمام أحمد بن حنبل ٤/٢٦١، ٥/٤١١.

وأخرجه بلفظ: «إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب ٣. والترمذي في سننه تفسير سورة ٤٧. وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب ٥٧. والإمام أحمد بن حنبل ٢/٢٨٢، ٣٤١.

وأخرجه بلفظ: «أستغفر الله وأتوب إليه». أبو داود، كتاب الوتر، باب ٢٦، كتاب الحدود، باب ٩. والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ٣٣، ١١٧، والدارمي في مسنده، كتاب الحدود، باب ٦.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٢٠١.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٥) في ط: قدمه.

ابن هشام عن جعفر بن ميمون ـ بالدرة إذا جنه الليل، ويقول لنفسه: ماذا عملتِ اليوم؟

وروي عن ميمون بن مهران [١] أنه قال: لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبته شريكه (حدثنا بذلك كثير بن هشام عن يعقوب عن ميمون) [٢].

وليس لهذا معنى إلا في مستدبر الأعمال، لأن الشريكين لا يتحاسبان في بداءة اشتراكهما حتى يعملا عملا يجب فيه النظر والمحاسبة.

حدثنا [٣] أبو داود الطيالسي [٤] عن عبد العزيز الماجشون [٥] عن هشام عن عروة [٦] عن عائشة رضي الله عنها، أن أبا بكر رضي الله عنه، قال لها، عند الموت: ما أحد من الناس أحب إليَّ من عمر، قال: ثم قال لها: كيف قلتُ؟ قالت: قلتَ ما أحد من الناس أحب إليّ من عمر، فقال: لا. ما أحدٌ من الناس أعز عليّ من عمر. فتدبر كلمة قالها، ثم أبدلها بكلمة غيرها [٧].

---

(١) هو: ميمون بن مهران الجزري، أبو أيوب، أصله كوفي، ثقة، فقيه، ولي الجزيرة لعمر بن عبد العزيز، وكان يرسل، من الطبقة الرابعة، مات سنة سبع عشرة. أنظر: (تقريب التهذيب ٢/٢٩٢).

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ط: وروي.

(٤) هو: سليمان بن داود بن الجارود، أبو داود الطيالسي البصري، ثقة حافظ، غلط في أحاديث، وقال الذهبي: «ثقه أخطأ في أحاديث؟. من الطبقة التاسعة، مائة سنة أربع ومائتين. أنظر: (تقريب التهذيب ١/٣٢٣، ميزان الاعتدال ٢/٢٠٣).

(٥) هو: عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة، الماجشون بكسر الجيم، المدني، نزيل بغداد، مولى آل الهدير، ثقة، فقيه، مصنف. من الطبقة السابعة، مات سنة أربع وستين. أنظر: (تقريب التهذيب ١/٥١٠).

(٦) في ط: إبن عروة.

(٧) حاسب نفسه على قوله: «احب إلي»، لأن أحب الناس إليه كان رسول الله ﷺ فأبدلها بقوله: «أعز علي» لأنها تتصل بالاحياء أكثر صلتها بالمنتقلين إلى جوار الله.

وكذلك حديث أبي طلحة حين شغله الطير في صلاته فتدبر شغله، فجعل حائطه صدقة لله عز وجل، ندماً ورجاء العوض لما فاته.

وكذلك حديث عبد الله بن سلام[1]، أنه حمل[2] حزمة من حطب، فقيل له: يا أبا يوسف، قد كان في بنيك وغلمانك من يكفونك. فقال: أردت أن أجرب قلبي هل ينكره؟ (وكذلك الرجل الذي اشتغل بحائطه حتى فاتته صلاة الجمعة فأتى عثمان رضي الله عنه، فجعله صدقة لله تعالى) [3]

وقد روي المختار بن فلفل[4] عن الحسن في تفسير المحاسبة في مستقبل الأعمال ومستدبرها أنه قال: إن المؤمن قوَّام على نفسه يحاسبها لله عز وجل، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر عن غير محاسبة.

ثم فسَّر المحاسبة فقال: إن المؤمن يفجؤه الشيء يعجبه، فيقول: والله إنك لتعجبني، وإنك لمن حاجتي، ولكن هيهات هيهات، حيل بيني وبينك. فهذا في مستقبل العمل.

ثم قال: ويفرُط منه الشيء فيرجع إلى نفسه، فيقول (لها)[5]: ماذا أردت بهذا؟ والله لا أعذَر بهذا، والله لا أعود لهذا إن شاء الله أبداً. فهذا في مستدبر الأعمال.

وكذلك أهل الدنيا في صناعاتهم وأعمالهم: إذا أراد أحدهم أن يبتدىء العمل روّاه في نفسه، وقدره ومثّله في وهمه، وصوّره في العاقبة، كيف يكون إذا فرغ

---

(١) هو: عبد الله بن سلام، الإسرائيلي، أبو يوسف، حليف بني خزرج، قيل كان إسمه الحصين فسماه رسول الله ﷺ عبد الله. مات بالمدينة سنة ثلاث وأربعين. أنظر: (تقريب التهذيب ١/٤٢٢).

(٢) في ط: حسين حمل.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) هو: مختار بن فُلْفُل، مولى عمرو بن حريث، صدوق له أوهام، وثقه أحمد وغيره. من الطبقة الخامسة، أنظر: (تقريب التهذيب ٢/٢٣٤، ميزان الإعتدال ٤/٨٠).

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

منه؟ فإذا تمثل في وهمه على ما يريد من الإحكام والتام ابتدأ فيه، حتى إذا فرغ منه اعترضه خشية أن يكون كان منه زلل أو نسيان فأخطأ فيه وفرّط في إحكامه، فإن رأى تفريطاً أتم ما بقي منه وأصلح ما فسدَ منه[1].

فعمال الله عزَّ وجلّ، أولى بذلك أن يتثبتوا قبل أعمالهم، ويمثلوها في أوهامهم كيف تكون بعد فراغهم منها، ولا فراغ لهم[2] من جميعها إلا عند موتهم.

وكذلك روي عن الحسن أنه قال: ما جعل[3] الله عزَ وجلَ، لعمل المؤمن أجلا دون الموت، ثم قرأ: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[4] يعني الموت.

وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرغتَ لنا؟ فقال: ذهبَ الفراغ فلا فراغ إلا عند الله عزّ وجل تعالى، وكذلك المستأجرون من أهل الدنيا: إنما فراغهم من أعمالهم إذا أتمّوها، وإنما يحكمونها ويستعرضونها بعد فراغهم منها قبل أن يعرضوها على من استأجرهم، لتكون على ما أراد وأحب، وكذلك عمال الله[5] جلّ وعزّ يتثبتون في أول أعمالهم، ويعترضونها بعد فراغهم منها: كيف تكون إذا عرضت على خالقهم؟ هل هي كما يرضى بها عنهم؟ وهل أتـمّوها كما أمرهم.

فشتان بينهما[6]: هذا مخلوق استأجر مخلوقا بقليل فانٍ مكدر ممزوج بالغموم، ولا يخلو أن يناله[7] من همّ يعترض، أو حزن يعتري، أو مصيبة فاجعة، أو سقَم نازل، أو موت فاجيء، وفيه الحساب حتى يتتبع عليهم جميعَ ما عملوا واكتسبوا، فيحاسبون عليه.

---

(١) أنظر: «الوصايا» الباب الرابع، وباب النية والرياء من «آداب النفوس» للمؤلف، من تحقيقنا. الأول طبعة دار الكتب العلمية، والثاني دار الجيل، لبنان.

(٢) في ط: فلا فراغ لهم.

(٣) في ا: ما يجعل.

(٤) سورة الحجر، الآية: ٩٩.

(٥) في ا: فعمال الله.

(٦) في ا: وشتان.

(٧) في المطبوعة ولا يخلو إن ناله منهم.

والذي عمل له الصادقون مَلِكٌ عظيمٌ وعدهم على أعمالهم الأجر الكبير، الباقي الذي لا ينفد، ولا يعترض فيه غمّ، ولا يعتري فيه حزن، ولا يحل بالعمال فيه سَقَم، ولا يختم عيشهم بالموت، ولا يتتبع عليهم فيه الحساب.

فعجبٌ، كيف خفّ على العمال للدنيا التثبتُ قبل أعمالهم، والنظر في أعمالهم بعد الفراغ[1] منها للقليل اليسير المنغص المكدّر بالأحزان والأسقام، ثم يختم فراغهم بالموت، ثم يتتبع الله عليهم ذلك بالحساب من بعد الموت، في يوم الشدائد والأهوال، فيسألون عن أعمالهم، كيف كان اكتسابُهم وإنفاقهم وإمساكهم، وكيف كانت طاعتهم فيها لربهم جل وعلا.

وعجبٌ، كيف لا يخف على المؤمن التثبُّت قبل فعله، والنظرُ فيه بعد فراغه منه للثواب العظيم، والنعيم السليم، والعيش المقيم، ورضى الملك الكريم، من غير أن ينقصوا من أرزاقهم، ولا آجالهم، ولا يفوتهم ما قُدِّر لهم.

فعجبٌ لذلك، ثم عجبٌ لولا متابعة الهوى، ونسيانُ نظر الملك الأعلى، وقلةُ التفكر في يوم الفصل والجزاء.

فبالتحذير من ذلك اليوم، ختم الله عز وجل كتابه فيما يروى عن البراء بن عازب أنه قال: آخر آية نزلت من كتاب الله عزَّ وجلَّ ﴿**وَاتَّقوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[2].

وإن كانوا قد اختلفوا في آخر آية نزلت آخر القرآن، فإن في هذه الآية عظة وعبرة.

وقال الحسن لثابت [البناني][3] في مرضة مرضها: أوْصِنِي، فقال: أوصيك بيوم ﴿**تُرْجَعُونَ فِيهِ إلى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ**

---

(١) في ا: قبل الفراغ.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(٣) هو: ثابت بن أسلم البناني، أبو محمد البصري، ثقة، عابد، من الطبقة الرابعة مات سنة بضع وعشرين. انظر: (تقريب التهذيب ١/١١٥).

﴿يُظْلَمُونَ﴾[1] قال: فقال الحسن ﴿إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾[2] آية من كتاب الله جلَّ وعزَّ، كأني ما سمعت بها إلا الساعة يسترجع على غفلته ونسيانه.

وفيما يحكى عن الله تعالى، أنه قال لموسى: «يَا مُوسَى صرّحَ الكتاب إليك بما أنت إليه صائر» فكيف ترقد العيون على هذا، أم كيف يجد قوم لذاذة العيش، لولا التمادي في الغفلة، والتتابعُ في القسوة؟ ومن دون هذا جزع[3] الصديقون، فقد صرّح الكتاب بما إليه المصير، فقال: ﴿وَاتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ﴾[4] وقال تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[5].

فقد سترت الغفلة بيننا وبين أعمال الآخرة، وصلّبت القسوة قلوبنا على وعيد الله عزّ وجلّ، وطمس الران على[6] بصائرنا عن ثواب الله جلَّ وعزَّ، وعقابه وأمره وأحكامه، وذلك أنَّا عطلنا قلوبنا من فكر الآخرة، فغلبت عليها فكرة الدنيا فأشغلتها[7]، فنسينا أنفسنا؛ لأننا نسينا النظر لها.

وكذلك قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[8]. فسَّرَهُ المفسرون: أنساهم النظرَ لها.

فأول البلية تعطيل القلوب من فكرة وذكرها، وعن ذلك يكون السهو ثم النسيان ثم الغفلة ثم التضييع لأمر الله عزَّ وجلَّ، ثم مواريث السوء من الران والقسوة اللذين يحجبان عن الآخرة، فنعوذ بالله من مواريث السوء على أعمال السوء.

وإنما قدمت إليك هذا الكلام قبل إجابتي إياك عن سؤالك عن رعاية الأعمال لله عزَّ وجلَّ، واختلاف الناس في طلبها على قدر ضعفهم وقوتهم، لينفسح لفهم الإجابة صدرك، وليرقّ ويخشع للقيام بالرعاية قلبك، وليبعثك على الترغيب في طلبها.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٥٦.
(٣) في ط: يجزع.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٩٢.
(٦) في ط: وعمى الرين بصائرنا.
(٧) في ط: فكر الدنيا فشغلها.
(٨) سورة الحشر، الآية: ١٩.

وأنا أرجع[1] إليك بجواب مسألتك عن الرعاية لحقوق الله عزّ وجلّ، والقيام بها، واختلاف الناس في طلبها على قدر ضعفهم وقوتهم، لتنظر في أي حال أنت منها، فتعمل على حسب ذلك إن شاء الله.

باب اختلاف الناس في طلب التقوى

وفي رعاية الأعمال لله تعالى

الرعاية ما هي[2]؟

إعلم أن الناس مختلفون في ذلك على ثلاث منازل، لا رابع لها:

فمهم من نشأ على الخبر لا صبوة له إلا الزلة عند السهو[3]، كالزلة التي لم يَعْرَ من مثلها النبيون والصديقون، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره الشهوات، ولم يعتد اللذات[4] من الحرام، ولم تَعْتَقِبْه الذنوبُ، ولم يعله الران[5]، ولم تغلب عليه القسوةُ.

فرعاية حقوق الله عزّ وجلّ، والقيام به على هذا أسهل، والمحنةُ عليه أخفّ، ودواعي النفس له أقلّ وأضعف، لأن قلبه طاهر، والله عزّ وجلّ عليه مقبل، وله محبّ ومتولٍّ، والوليّ لا يخذل وليّه، والحبيب لا يُسلم إلى الهلكة حبيبَه.

وقد جاء في الحديث: «يَعْجَبُ ربك للشاب ليست له[6] صبوة»[7] أي: يسر

---

(١) في ط: وأني أرجح، وقد جاء قبلها عنوان (باب الرعاية) ولا وجود له في الأصول المخطوطة.

(٢) في ط: باب منازل التوابين.

(٣) في ط: الشهرة، ولا يتفق مع السياق.

(٤) في ط: يغتذ اللذات.

(٥) في ط: ولم يعل قلبه الرين.

(٦) في ط: ليست به.

(٧) أخرجه: إبن المبارك في الزهد عن أبي عشانة المعاقري أنه سمع عقبة بن عامر يقول:... وذكره. إنظر: ص ١١٨ حـ ٣٤٩. =

به ويعظم قدره عنده لأن التعجب[1] على وجهين:

أحدهما: المحبة، بتعظيم قدر الطاعة، والسخطُ بتعظيم قدر الذنب في الجرأة والوجه الثاني[2] الاستكثار للشيء، وإنما يعجب استكثاراً للشيء، والجاهلُ الذي لم يكن يعرف الشيء، فلما رآه استكثره وتعجب منه، وجل الله تعالى[3] عن هذا الوصف، وإن كان قد قرأ بعض القراء: «بل عجبتُ (ويسخرون)[4]» فليس هو على الاستكثار لما لا يُعلم، ومعنى قوله: يعجبُ ربك للشاب ليست له صبوة. أي: إن الله عزّ وجلّ محبّ له، راضٍ عنه، عظيم قدرُه عنده[5].

وروى في بعض الحديث عن شريح: «أن للشاب الناشىء على عبادة ربّه ومحبته أجرَ سبعين صديقاً»[6].

وروى معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي ﷺ، أن الله عزّ وجلّ يقول: «أيها الشاب الباذل شبابَه لي، التارك شهوته من أجلي، أنت عندي كبعض ملائكتي»[7] فمن أطهر من هذا قلباً؟ أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يرتكب الذنوب عند بلوغه، ونشأ على طاعة ربه وعبادته، واعتاد القيامَ بحقه، فرعاية[7]

= وأخرجه بلفظ: «إن الله يحب الشاب ليست له صبوة» تمام في فوائده، والقضاعي في مسنده، وفي إسنادها ابن لهيعة. وأخرجه أحمد وأبي يعلى وسنده حسن، وضعفه إبن حجر لأجل إبن لهيعة. وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة، وأخرجه الطبراني من حديث عقبة بن عامر. أنظر: (احياء علوم الدين ٤/٤٩).

(١) في ط: العجب.

(٢) في أ، ب: الآخر.

(٣) في ط: وجل الله جل جلاله عن...

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٥) لعل هذا التأويل هو مما أغضب المعاصرين للمحاسبي عليه.

(٦) اخرجه: ابن المبارك في الزهد.

(٧) أخرجه: أبو نعيم في الحلية ٥/٢٣٧، وإبن المبارك في الزهد عن يزيد بن ميسرة. ص ١١٧ جـ ٣٤٦.

(٨) في ط: أو رعاية.

حقوق الله عزَّ وجلّ عليه خفيفةٌ لطول عادته للقيام بها، وتركه الركونَ إلى أضدادها، قليلٌ مكابدته، ومجاهدتُهُ، طويلٌ بالله عزّ وجلّ شغله واشتغاله.

وآخر تائب من بعد صبوته، وراجعٌ إلى الله سبحانه عن جهالته، ونادمٌ على ما سلف من ذنوبه في أيامه، قد أعطاه العزمَ أن لا يعود إلى تضييع شيء من فرضه، ولا يعاود شيئاً[1] مما سلف من ذنوبه، والنفسُ معه تنازعه إلى عادتها، لترده برغبتها إلى لذتها، وهو يَقْمَعها ويجاهدها، ويخوفها عواقب ما كان منها، وعدوُّه يذكرها ما فاتها (من لقائها)[2] ويدعوها إلى ما تركت من شهواتها، وهو يذكِّرها قبيحَ ما كان منها، ويعظم منّة الله عزّ وجلّ عليها بنقلها[3] عما يسخط به ربُّها عليها، فلم يلبث[4] إلا قليلا، أن صدق الله عزّ وجلّ في مجاهدته، وأمسك نفسه عن الشهوات التي تنقص عزمه - حتى يمده الله عزّ وجل بمعونته، فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه فقال عزّ وجل:

﴿وَالذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِينهُمْ سُبُلَنَا﴾[5]، **﴿وَالّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدىً وآتَاهُمْ تَقْوَاهم﴾**[6]، وقال عز وجل: **﴿وَلَوْ أَنهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظونَ بِهِ لكَانَ خَيْراً لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتاً، وإذاً لآتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنّا أجْراً عظِيماً وَلَهَدَيْنَاهم صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾**[7] فوعدهم الله تبارك وتعالى أن يحملهم على الطريق المستقيم، ويريَهم الحق جهاراً[8] سرمداً، لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه، فكيف بمن يتقرب إليه؟ ويتحبّب إلى من يتبغّض إليه، فكيفَ بمن يتحبّب إليه؟.

---

(١) في ط: ولا معاودة.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ط: بنقاطها.

(٤) في ط: فما لبث.

(٥) الآية: سقط من ط، وذكرها محققها في الهامش على أنه تقوية للمعنى. سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

(٦) سورة محمد، الآية: ١٧.

(٧) سورة النساء، الآية: ٦٦، ٦٧.

(٨) في ط: نهاراً تحريف.

وكذا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «يقول الله عز وجلّ: «يابن آدمَ إن تقرَّبت إليَّ فتراً تقرَّبت إليك شبراً، وإن تقرَّبت إليَّ شبراً تقرَّبت إليك ذراعاً، وإن تقرَّبت إليَّ ذراعاً تقرَّبت إليك باعاً، وإن أتيتني سعياً أتيتك هرولة»[1].

وإنما هذا على حُسن المعونة، وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والتوفيق، والاكتناف بالعصمة فما يلبث[2] هذا التائب إلا يسيراً حتى يُقبل الله عزّ وجل عليه بمعونته[3] فيغلب على هوى نفسه[4]، ويُقوي منه ضعفه، ويميت منه دواعي شَهواته، فيقهرُ العقلُ منه الهوى، ويغلبُ العلمُ منه (على)[5] الجهل، ويسكنُ قلبَهُ الخوفُ (والحزن)[6] والهم، ويواصل فيه الأحزان بعد طول لهوه، واتصال أفراحه بالدنيا، كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه هاج خوفه، وغلب هَمُّه وطال حزنه، فإذا غفل عن الذكر سها عن الفكر، نازعته نفسه فمال إلى بعض الزلل الذي لم يعرَ من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهوهم.

ثم يرجع إلى الله عزّ وجلّ بقلب طاهر من الرين[7] والدنس، قد فطمه عن

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ١٥، ٥٠. ومسلم في صحيحه، كتاب الذكر، حـ ٢٠، ٢١، ٢٢، وكتاب التوبة، حـ ١. والترمذي في سننه، كتاب الدعوات، باب ١٣١. وابن ماجه في سننه، كتاب الأدب، باب ٥٨. والإمام أحمد بن حنبل ٤١٣/٢، ٤٣٥، ٤٨٠، ٤٨٢، ٥٠٩، ٥٢٤، ٥٣٤، ٤٠/٣، ١٢٢، ١٢٧، ١٣٠، ٣٧٣، ١٥٣/٥، ١٥٥، ١٦٩، ٣٥١.

وأخرجه: ابن المبارك في الزهد برواية أخرى عن أبي ذر، ونصها: «قال رسول الله ﷺ: يقول الله: من عمل حسنة فله عشر أمثالها، ومن عمل سيئة فجزاء مثلها، أو أغفر، ومن عمل قراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة، ومن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، ومن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة».

(٢) في ط: فلم يلبث.

(٣) في ط: بمعونة.

(٤) في ط: فيغلب له صبري نفسه.

(٥ - ٦) سقط من ط.

(٧) في ا، ب: الران.

عادته، وأعقبه بالخوف من الأمن والإصرار، وبالرجاء الصادق من الغرّة والتسويف، فهو من سالف ذنوبه هاربُ، [و] لرحمة ربه عزّ وجل بهربه [1] طالِب حتى يلقاه وهو من عذاب آمن [2].

وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «إن العبد ليذنب الذنب فيدخله ذنبه الْجَنَّة، قيل: يا رسول الله، وكيف يُدْخله ذَنْبُهُ الْجَنَّة؟ قال: لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله (ذنبه) [3] الجَنَّة» [4].

وقيل لسعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ قال: رجل أصاب من الذنوب فإذا ذكرها اجتهد.

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: «خياركُم كلّ مفتَّن تواب» [5] يخبرك: أن خيار أمته لن يَعْرَوْا [6] عن الزلل [7]، وأنَّ علمهم بالله عزّ وجل، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه بالتوبة والإنابة.

والثالث مصرّ على ذنبه، مقيم على سيئاته (ونسيانه) [8]، يغلبه الهوى وضعف الخوف، مقرّ مع ذلك بأن لله عزّ وجلّ معاداً يبعثه فيه، وهو لا يتغشاه به، ومقاماً

---

(١) في ا: يجهره.

(٢) في ط: آمنا من عذابه، وما أثبتناه أليق بنسق الأسلوب.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) أخرجه: ابن المبارك في الزهد عن الحسن ص ٥٢ حـ ٢٦٢ برواية فيها إختلاف في اللفظ. وأورده الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/١٩٩ وعزاه للطبراني في الأوسط، عن أبي هريرة مرفوعا، بلفظ: «إن العبد ليذنب ذنباً فإذا ذكره أحزنه ما صنع، فإذا نظر الله إليه احزنه ما صنع غفر له.
واخرجه: احمد في الزهد عن الحسن يعده راويان؟ انظر ص ٢٧٧، ٢٦٩.

(٥) اخرجه البيهقي في شعب الايمان، بسند ضعيف.

(٦) في ط: لم يعروا، وما في أ أنسب للمعنى.

(٧) في ط: من الزلة.

(٨) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

يوقفه فيه ويسائله[1] عما كان منه، وثواباً وعقاباً يصرفه من بعد السؤال إلى أحدهما، ثم يحل فيه مخلداً إلا ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد في العذاب الأليم.

فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زايل به الْجَحْد، وصدَّق به الربّ عزّ وجل والقلب بالشهوات مشغول عن الفكر، والرين[2] له مانع عن الذكر إلا الخطرة[3] تهيج من الإيمان بذكر المعاد، ثم لا تجد موضعاً تستقر فيه، لمَا غلب على قلبه من القسوة، وتتابع فيه من الغفلة، فقلبه هائح باشتغال الدنيا لا يلزمه ذِكْرَ التخويف، ولا يتفرغ للفكر ولا يجد حلاوة للذكر.

وكيف يكون للذكر فيه مستقرّ، والأشغالُ تنازعه والغفلات تغلب عليه؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقودَ الإصرار من قلبه، فيتوب إلى ربه من ذنبه، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله: الناشيء على غير صبوة، والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى.

باب ما يبعث العبد على التوبة وترك الإصرار

قلت: فما الذي يبعثه على التوبة وترك الإصرار؟

قال: الذي يُحِل به إصرار قلبه، ويتحول به عن خطئه وذنبه[4] الخوف والرجاء لربّه؛ لأن الله نهاه عما يهوى قلبه وتشتهيه نفسه، فجعله للطبع موافقاً خفيفاً وفي المباشرة لذيذاً. وكذا روي عن المصطفى ﷺ أنه قال: «حُفّت النار بالشهوات»[5] فأخبرَ: أنَّ العملَ الذي يدخل بهِ عامِلُهُ النار: شهيَّ في النفوس.

---

(١) في ط: ويسأله.

(٢) في ا: والران.

(٣) في ط: إلا الخطوة، خطأ.

(٤) في ط: خطاياه وذنوبه.

(٥) أخرجه: مسلم في صحيحه، كتاب الجنة، جـ ١، وأبو داود في سننه، كتاب الجنة، باب ٢٢ والترمذي في سننه، كتاب الجنة، باب ٢١. والنسائي في سننه، كتاب الإيمان باب ٣. والدارمي في

وقال ابن مسعود رحمه الله في هذا الحديث: ومن اطلع الحجاب واقع ما وراءه، أي مَنْ عَمِلَ بالشهوات المحرمات واقع النار، ومن لم يطلع الحجاب كان بينه وبين النار حاجزاً وساتراً فلم يدخله، ومن لم يطلع حجاب النار فمأواه الْجَنَّة برحمة الله عزّ وجل، وكذلك يقول: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى**﴾ (١).

ومن ذلك قول النبي ﷺ: « إنَّ الله تبارك وتعالى خلق النار، فقال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لا يسمع بها احد فيدخلها. فحفها بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لقد خشيت أن لا يبقى أحد إلا دخلها، وخلق الجنة، فقال لجبريل: إذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها فقال: وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها بالمكاره، ثم قال: اذهب فانظر إليها، فذهب فنظر إليها، فقال: وعزتك لقد خشيت ألاَّ يدخلها أحدٌ » (٢).

فمن ترك ما يهوي قلبه وتشتهيه نفسه مما كره ربُّه، فقد احتجب عن النار واستوجب الحلولَ في جوار الله.

والأعمال التي أمر الله بها وندب إليها أكثرها مُملّ للقلب، متعب للجوارح، أو مُشغل عن أضداده من اللذات. وذلك كريه في الطبع ثقيل على النفس.

وكذلك يقول الله تعالى: ﴿**وعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وهُوَ شَرٌّ لَكُمْ**﴾ (٣).

= مسنده، كتاب الرقاق ١١٧. والامام احمد في مسنده ٢/٢٦٠، ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٥٤، ٣٨٠، ٣/١٥٣، ٢٥٤، ٢٨٤. وأخرجه ابن المبارك في الزهد ص ٢٢٩، ٣٢٥.

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

(٢) أخرجه: الترمذي في سننه، كتاب الجنة، باب ٢١. والنسائي في سننه، كتاب الايمان ٣، والإمام أحمد بن حنبل ٢/٣٣، ٣٣٢، ٣٣٣، ٣٥٤، ٣٧٣.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦.

وقال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾[1].

وقال الصادق المصدوق ﷺ: «حُفّت الْجَنَّة بالمكاره»[2]، فأخبر أن الحجاب الذي حُفّت به الجنة: هو الفعل الذي هو كريه في النفس، ثم أخبر أنه من حمل نفسه على ذلك المكروه، حتى يؤدي حقوق الله تعالى عليه، دخل الْجَنَّة[3].

وقال عبد الله بن مسعود: ومن اطلع الحجاب واقع ما وراءه. أي: من يحمل المكاره في طاعة الله واقع الجَنَّة، أي: دخلها.

والله العليم الكريم أعلم بخلقه وبما يصلحهم، فعلم من هذا العبد قبل أن يخلقه أنه إذا طبعه على حُبِّ ما وافقه وبغض ما خالفه، ثم علم ما يوافقه مما يخالفه، فهاجت لذلك شهواته، ونازعته إلى ذلك نفسه، ولاسيما من خاض في استعمال الشهوات عمره لن يدع ما تشتهي نفسه إلا أن يخلق له عذاباً أليماً، ثم يتهدده به ولن يتحمل ما يكره إلا أن يخلق له نعيماً مقيماً، ثم يرجِّيه ذلك النعيم ويَعِدَه إياه، فخلقهما جميعاً لعلمه بخلقه، وما أراد من كرامة أوليائه، وهوان أعدائه، وعلم أن هذا العبد الضعيف الجاهل إذا غيب عنه الثواب والعقاب، وصارا مذكورين في الخبر لا بالعيان، لم يسمح قلبه بترك الشهوات، وتحمل المكاره إلا بالخوف لما خوّف، والرجاء لما رجّي[4]، فخوّف عباده وتهددهم، ورجاهم ووعدهم، ليخوفوا أنفسهم ويرجّوها فيخافوه.

وكذلك وصف الله الذين فهموا ذلك عنه وخافوه، فقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مقَامَ ربِّهِ ونَهى النفْسَ عَنِ الـهَوَى﴾[5]، فأخبر عزَّ وجلَّ أنه لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى.

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.

(٢) سبَق تخريجه. ص ٦٨. حديث حفت النار بالشهوات.

(٣) في أ، ب: دخل الجنة برحمته.

(٤) في ط: إلا بتخوف لما خوف، ورجاء لما رجي.

(٥) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

وقال: ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾[1].

وقال جلا وعلا: ﴿الذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بالغَيْبِ﴾[2].

فأخبر أن ما غاب عنهم من العقاب هم له خائفون، ولما رجاهم من الغيب هم له راجعون[4]، وأنهم لما خافوا ورجوا هربوا وطلبوا، وإنما جعل الجزاء من العقاب والثواب والرهبة والرغبة من الله تعالى، ليذلوا للمجازي، فيعبدوه بالخضوع له والذلة ليورثهم في الآخرة النعيمَ والعزّ، وأخبر[3]: أنهم لما رغبوا ورهبوا خضعوا له بالذلة ، وكذلك أهل الدنيا، من خاف منهم ذلَّ لمن يخافه حتى يعفوَ عنه، ومن طمع منهم ذلَّ لمن يرجوه حتى ينال منه ما يأمل وسارع في محبته.

وكذلك وصف الله أولياءه فقال: ﴿يُسَارِعونَ في الْـخَيْرَاتِ وَيَدْعونَنا رَغَباً وَرَهَباً وَكانوا لَنَا خَاشِعِين﴾[5].

قال الحسن: هو الخوف الدائم. وقال مجاهد[6]: الذلُّ في القلب يعني ذلّ الخوف لأنهم[7] لـمَّا رجوا ما غاب عنهم من الثواب تحملوا المكروه، فوصفهم في كتابه فقال تعالى: ﴿إنَّ الّذين آمنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ أُولٰئِكَ يَرْجُون رَحْمَةَ الله﴾[8]، وقال عز وجل: ﴿فَمَنْ كان يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعمل عَمَلاً صَالحاً ولا يُشْرِك بعبَادةِ رَبِّهِ أحداً﴾[9]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿مَنْ كان يرجو لِقَاءَ الله فإن أجل اللهِ لآت﴾[10]. قيل في التفسير: ثواب الله.

فلما خافوا هربوا وجانبوا ما نهاهم عنه كما وصفهم فقال: ﴿ذلكَ لِـمَنْ خَافَ مَقَامي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[11].

---

(١) سورة الرعد، الآية: ٢١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٤٩.
(٣) في ط: فأخبر.
(٤) في ط: وذلوا.
(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٩٠.
(٦) في ط: المجاهد.
(٧) في ط: إلا أنهم.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.
(٩) سورة الكهف، الآية: ١١٠.
(١٠) سورة العنكبوت، الآية: ٥.
(١١) سورة إبراهيم، الآية: ١٤.

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى﴾[1] وقال تعالى: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الحِسَابِ﴾[2].

باب ما ينال به خوف وعيد الله تعالى

قلت: فبم يُنال الخوف والرجاء؟

قال: تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد.

قلت: فبم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد؟

قال: بالتخويف من شدة[3] العذاب والترجي لعظيم الثواب.

قلت: وبم ينال التخويف؟

قال: بالذكر والفكر في العاقبة، لأن الله عزّ وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيّب عنه ما قد خوّفه ورجاه لن يخاف ولم يرج إلا بالذكر والفكر، لأن الغيب لا يُرى بالعين، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين. فإذا احتجب العبد بالغفلة عن الآخرة، واحتجب عنها بأشغال الدنيا لم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه[4].

وأما خوف ينغص عليه تعجيل لذته مما كره إلَهه عزّ وجلَّ، ورجاءٌ يتحمل به ما كرهته نفسه فيما أحبه ربّه فلا، ما دام مُؤْثراً الهوى نفسه، وإنما يجتلب ذلك الخوف والرجاء - بمنة الله عز وجل - بالذكر والفكر والتنبيه والتذكر لشدّة غضب الله وأليم عذابه وليوم المعاد.

وقد أخبر الله أن أولياءه اجتلبوها بذلك، وقال: ﴿لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون﴾[5]، وقال: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُون الله قياماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٢١.

(٣) في ط: لشدة.

(٤) يعني الرجاء والخوف الذي يقربها كل إنسان دون ممارسة وذوق ومنازلة.

(٥) سورة الرعد، الآية: ٣.

وَيَتَفَكَّرُون فِي خلقِ السموَاتِ وَالأَرضِ رَبَّنَا مَا خلقتَ هذا بَاطِلاً سُبْحَانكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار رَبَّنَا إنكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّار فقد أخزَيْتَهُ ومَا للظالمينَ مِنْ أَنْصَار﴾ إلى قوله جل وعز: **﴿وَلاَ تُخْزِنَا يومَ القِيَامةِ إنكَ لا تُخلفُ الميعَاد﴾**[1].

قرأ النبي ﷺ هذه الآية في جوف الليل فقال: ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبلته فلم يتفكر فيها، وصلى وبكى عامة ليله، فقيل له في ذلك، فقال: أنزلت عليَّ هذه الآيات، فأخبر الله تعالى: أنهم لما تفكروا وتذكروا عظم عليهم خزي دخول النار فخافوا النار، ثم ناجوه بأن يفكّهم من النار ومن خزي يوم الحساب، لأنهم لما رجوا النجاة بمنّته أقبلوا إليه بالتضرّع أن ينجيهم من خزي ذلك اليوم.

فالذي ينال به الخوف، معرفة عظيم قدر العذاب، والذي يعظم به معرفة عظيم قدر العذاب التخويف، والتخويف ينال بالفكر في المعاد، والفكر ينال بالذكر، والذكر بالتيقظ من الغفلة لأن الله جلَّ وعزَّ إنما خَوَّفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا، ورجّانا لنرجّيها، والتخويف تكلف من العبد بمنة الله عزّ وجل وبفضله عليه، والخوف هائج منه لا يملكه، يكون عن التخويف، يهيجه الله من القلب المخوّف لنفسه كما أمره الله، وقد يخطرُ اللهُ جل وعز الخوفَ بقلب العبد المؤمن من غير تكلف، إذا أراد أن يتفضل عليه بذلك، وإن لم يخطره بباله لم يكن العبد عنده معذوراً بتركه التكلف للتخويف، كما أمره أن يخوّف نفسه، لأنه أمره بالفكرة في المعاد، وذلك هو التخويف والترجي، وتهدده وأوعده ليتفكر في ذلك فيخافه ويرجوه.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٩١ وما بعدها.

باب ما يحل به المصر إصراره
ووصف ثقل الفكرة على القلب

فإذا أراد هذا العبد المصر أن يصل إلى ما يحل به إصرار قلبه، ويبعثه على التوبة من ذنوبه، فليُعْن بطلب الخوف بالتخويف بالفكر في المعاد، وهجوم الموت وعظيم حقّ الله عزّ وجلَّ وواجب طاعته، ودوام تضييعه لأمره وركوبه لنهيه.

قلت: الفكرة أجدها على قلبي ثقيلة، فمن أين ثقلت على العباد؟

قال: ثقلت الفكرة على العباد لثلاث خلال: فقد تجتمع على بعضهم فتثقل عليه الفكرة، وقد يُثقلها على بعضهم الخلةُ من هذه الخلال الثلاث أو الخلتان.

فإحداها: قطع راحة القلب عن النظر في الدنيا بالذكر في الآخرة، لأنه إذا تفكر سجن عقله عن الدنيا، فقطعه عن راحته بالفكر في الدنيا، والنظر في أمورها. والخلة الثانية: أن الفكر في المعاد وشدائده تلذيع للنفس، وغمّ لها حين تذكر المعاد والحساب، وما لها وما عليها، لأن الموحّد المقر إذا تفكَّر في ذلك هاج منه الغمّ والحزن، لإيمانه بذلك، فيثقل الفكر على النفس من أجل ذلك، لأنه يثقل عليها ما أهاج عليها الغمومَ والأحزان.

والخلة الثالثة: أن النفس والعدو قد علما أن المريد إذا أراد الفكر في معاده أنه إنما يطلب بالفكر خوفاً يقطعه عن كل لذة لا تُقرب إلى رَبِّهِ، ويحمله على كل مكروه يتحمله فيما أوجب عليه.

فالنفس يَثقل عليها الفكرُ إذا علمت أنه إنما يطالب بما يقطع به عنها لذتها أيام حياتها، ويحملها على ما تكره ويثقل عليها، وقد علم العدوّ أنه إنما يطالب ما يُبطل عنه مكائدَه، ويدحض حجته، ويخالف محبته؛ فلهذه الخلال الثلاث ثقلت على المريدين الفكرة.

باب ما تخف به الفكرة على القلب

قلت: فما الذي يخفّفها؟ قال: العناية، قلت: فما تورث العناية؟ قال: عظيم المعرفة بعظيم قدر ما ينال (المفكر)[1] بالفكرة من المنافع في الدنيا والآخرة، وبعظيم قدر ضرر الغفلة عن الفكر في المعاد. قلت: فإن اعترضتهُ هذه الثلاث الخلال عند ذكره عظيمَ قدر ما ينال بالفكرة من المنافع، فبم يدفعهن عند ذلك إذا ثقلت الفكرةُ عليه باعتراض الخلال الثلاثة؟[2] قال يرجع العبد إلى نفسه في هذه الثلاث خلال[3] إذا عرضت له عند إرادته[4] الفكرة، أو عرض بعضها دون بعض؛ لأن كل خَلّة منها فيها عبرة يذكر (سببها)[5] شكلها من شدائد الآخرة، بل أعظم وأطمّ، فيرجع إلى نفسه بالعتاب لها وبالتوبيخ في ذلك فيقول لها:

أتجزعين أن أسجن عقلَك عن النظر في الدنيا؟ فكيف بسجنك في النار أبدا؟ فتحملي هذا الثقل القليل للنجاة من السجن الطويل (في النار: بل)[6] أتجزعين من سجن عقلك فيك عن النظر في الدنيا لنجاتك وفوزك في المعاد؟ ولا تجزعين إن تركت الفكرة التي تحجزك عن المعاصي التي تورثك السجن وتكبّك في النار أبدا.

فمن السجن في النار فاجزعي وتحملي[7] هذا القليل[8] الفاني للنجاة الدائمة، وأما جزعك في تلذيع ذكر العقاب، فكيف جزعك من مواقعته، فالفكرة فيه أيسر من مباشرته، فتحملي تلذيع ذكره للنجاة من الخلود فيه.

وأما فرارك من النظر فيما ينجيك من عذاب الله كراهية أن ينغص عليك لذاتك في دنياك فكيف بالتنغيص عليك لذات الآخرة، وحرمان ما فيها من نعيمها؟ مع أن الله ليس بتاركك إن صدقتِه مع ما تنالين من نعيم الآخرة حتى ينعمك بطاعته في الدنيا.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من: ط.
(٢) في ط: الثلاث الخلال.
(٣) في ط: الثلاث الخلال.
(٤) في ط: إذا اعترضت عند إرادته.
(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٦) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٧) في ط: تحملي.
(٨) في أ: هذا النفل.

ففي نعيم الطاعة في الدنيا والظفر بنعيم الآخرة عوضٌ من تنغيص لذات الدنيا، وليس لذّاتُ الدنيا بنعيم لو تعقلين بَل شغْل قلب لا ينقضي وهمّ لا ينفد وحرص لا راحة معه، مع ظلمة القلب إذا سُلبت بمعصية الله نورَ الطاعة والنعيم[١] بها، فالذل والهمّ في لذاتك في الدنيا[٢]، والعزُّ والغنى[٣] والنعيم في الاستبدال بها التنعم[٤] بطاعة ربِك، لأن ترك اللذة لله، ألذّ عند المريد، وأبقى في القلب لذّةً من اللذة بمواقعة ما كره الله، لأن العبد يُصيب اللذةَ ساعة أو أقلّ من ساعة، ثم يعقبه الندم الطويل، وإذا تركها لله، ثم ذكر أنه تركها لطلب رضاهُ فكلما ذكرها أمّل ورجا[٥] أن يكون قد رضي عنه بتركه لها[٦]، ووجد سرورَ ذلك ولذّته، فيبقى ذلك السرور في قلبه حتى يموت.

قلت: قد تخفى[٧] علي الفكرة ولا أعرف طريقها، فما الذي يفتحها؟ قال: اجتماع الهمّ مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب (تعالى) لا على[٨] العقل.

وقد وصف الله عزّ وجلّ المستمعين لما يحبّ باجتماع الهمّ، فقال عز من قائل:

﴿**إنَّ في ذَلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ**﴾[٩]. قال المفسرون: حاضر ليس بغائب.

فحضور العقل باجتماع الهمّ، لأن العقل إنما يشتغل عن الفهم والفكر في المعاد بتفريق الهمّ في الدنيا، فإذا اجتمع الهمّ حضر العقل، ولم يعزب عن الفكر فيما أحب الله. وكذلك روي عن أبي العالية قيل له: ما يفتح على الفكر؟ قال: اجتماع الهمّ، لأن العبد إذا اجتمع همّه تفكر، وإذا تفكر نظر، وإذا نظر أبصر.

---

(١) في ط: والتنعيم.
(٢) في ط: بالدنيا.
(٣) في ط: والغناء.
(٤) في ط: التنعيم.
(٥) في ط: فأمل ورجا.
(٦) في ط: بتركها له.
(٧) في ط: قد تخف وما أثبتناه من أ أوضح.
(٨) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٩) سورة قٓ، الآية: ٣٧.

باب ما ينال به اجتماع الهم

قلت: فاجتماع الهمّ بم ينال.

قال: بخَلتين: إحداهما قطع شغل الجوارح عن كل شيء سوى ما يريد أن يتفكر فيه، لأن النظر بالعين يلهي القلبَ ويشغله، واستماعَ الأذن كذلك، ومسَّ اليد كذلك، إلا نظراً أو استماعا يستعين به على (الفكر فيها)[1] ما يريد أن يتفكر فيه كالرجل يعظك فتستمع له لتفهم (عنه)[2] ما يقول أن تنظر إليه أو القراءة في المصحف أو الصحف فيها العلم.

وقد وصف الله عزّ وجلّ بذلك من فهم عنه فقال: ﴿**الّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَه**﴾[3] قال عبد الله بن مسعود حدّثِ القومَ ما حدقوك بأبصارهم، وكذلك أن تنظر إلى الأشياء لتعتبر بها، فأما ما سوى ذلك فلا تشغل جوارحَك بشيء من أمر الدنيا، فإذا أردت أت تفكِّر خالياً كنت أو مستمعاً أو معتبراً، فاقطع شغل جوارحك بالدنيا، فإن ذلك يغلق عليك[4] (باب)[5] الفكر ومن ذلك قوله: ﴿**إذ يَسْتَمِعُونَ إلَيْكَ وَإذْ هُمْ نَجْوَى**﴾[6]. ووصف الله مؤمني الجنّ فقال: ﴿**فَلـمّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا**﴾[7]، فمدحهم بذلك إذ تناهوا عما يشغلهم عن فهم كتابه من رسول الله ﷺ. وقال عزّ وجلّ: ﴿**وَإذَا قُرِئَ القُرْآنُ فاسْتَمِعُوا لهُ وَأَنْصِتُوا**﴾[8]. فأمر تبارك وتعالى بترك الكلام لينال به فهم كتابه.

وروي عن حمزة بن عبد الله بن مسعود أنه قال: طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه، ولم ينسَ ذكر ربّه بما تسمع اذناه. فإذا قطع العبد شغل جوارحه بأن لا

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٣) سورة الزمر، الآية: ١٦.
(٤) في ط: يغلق عنك.
(٥) سقطت من ط.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.
(٧) سورة الاحقاف، الاية: ٢٩.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٤.

يشغلها بغير ما يتفكر فيه، حضر عقله ولم يشغله بشيء مما ظهر له.

والثانية: أن يمنع قلبه أن ينظر ويتفكر في شيء من أمور الدنيا سوى ما يريد أن يتفكر فيه، وكذا روى أبو هريرة عن النبي ﷺ، أنه قال: «من كل قلب ابن آدم في كل وادٍ شعبة، فمن أتبع قلبه تلك الشعب لم يبال الله في أيِّ أوديته هلك ووقع»[1] وقوله: ﴿أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2] فهو: ألا يتفكر في غير ما يستمع، وروي ذلك عن مجاهد وغيره.

فإذا قطع العبد شغل جوارحه من الظاهر، وقطع فضول الفكر من الباطن، ومنع قلبه من الفكر إلا فيما يريد أن يتفكر فيه، اجتمع همّه وحضر عقله، وكذلك رأينا أهل الدنيا، إذا أراد أحدٌ منهم أن يُحكم شيئاً من أمر دنياه من تقدير عمل يعمله أو حساب يريد أن يُحكمه، منع سمعَه وبصرَه أن يشتغل بشيء (سوى ما يريد عمله وإحكامه)[3]، ومنع قلبه أن ينظر[4] في غير ذلك، كراهية أن لا يُحكم حسابه إن اشتغل[5] قلبه بالفكر في غيره، أو نظرت العينان[6] أو استمعت الأذنان[7] إلى شيء غير ذلك مال إليه العقل فاختلط عليه حسابه، فإذا قطع العبد شغل جوارحه عن الدنيا في وقت فكرته، ومنع قلبَه من النظر في شيء من الدنيا اجتمع همّه.

وإذا[8] اجتمع همّه ثم تفكر بالتوكل على الله[9] لا على عقله، فتحت له الفكرة بمنة الله، لأن العبد قد يغفل ذلك إذا اجتمع همّه واتكل على عقله لما يعرف من فطنته، وقد يوسوس إليه[10] العدو أن الفكرة إنما كانت تستغلق عنك باشتغالك،

---

(١) أخرجه: البيهقي في شعب الايمان.

(٢) سورة قٓ، الآية: ٣٧.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط. وهاء مكان. غير ذلك.

(٤) في أ: إلى غير ذلك.

(٥) في ط: إن شغل.

(٦) في ط: العين.

(٧) في ط: الأذن.

(٨) في ط: فإذا.

(٩) في أ: على الله.

(١٠) في أ: يوسوس.

فأما إذ حضر همّك فإنه ستفتح لك الفكرة، فيتكل على عقله وينسى ربه تعالى فأخاف أن لا يفتح له ما يريد من خير.

ومن ذلك حديث سليمان النبي عليه السلام[1]، في الولد: أنه قال: «لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة، فتحمل كل امرأة بغلام، يقاتل[2] في سبيل الله (فرسانا)[3]، ولم يقل إن شاء الله. فقال النبي ﷺ: «فما حملت منهن إلا امرأة واحدة جاءت بشق غلام» قال النبي ﷺ: «لو قال: إن شـاء الله لكان كما قال»[4].

فإذا تفكرّ في المعاد بتخويف نفسه عظيم قدر العذاب عنده، فإذا عظم قدر العذاب في قلبه[5] هاج الخوف حتى لا يملكه، فما مثل التخويف في جنب الخوف إلا كمثل الوقود في جنب الغليان، كالموقد يوقد تحت القدر المملوءة، فكلما أدام الوقود اشتدّ الغليان.

فكذلك العبد: كلما أدام الفكر بالتخويف في ذكر العقاب وكثرة الأهوال وعظيم السؤال مع المعرفة بعظيم حقّ الله جلّ وعز وواجب طاعته، وأنه لعامة ذلك مضيّع هاج الخوف.

فإذا هاج الخوف قذف القلبُ بالإصرار على الذنوب، وسخا عنها نفساً فندم وتاب وخشع وأناب؛ وكذلك الوقود كلما اشتد دوام الوقود اشتد الغليان، فإذا اشتد الغليان قذفت القدر ببعض ما فيها، فمن أدمن الفكر بالتخويف لنفسه فيما تهدّده ربّه وتوعده به هاج خوفه. فأطفأ نار[6] شهواته التي أصر عليها، فسخا بترك الإصرار نفساً، وأقلع عن الذنوب وخاف عاقبتها ولا سيما إذا أدمن الفكرة وهو يتلو كتاب الله عز وجل، فيتفكر في وعده ووعيده، وأهوال القيامة وشدائدها، وتلك أنجع الفكرة إذا كانت بتلاوة كتاب الله عز وجل.

---

(١) في ط: ﷺ. (٢) في أ: ثم يقابل. (٣) سقط من ط.

(٤) أخرج الامام أحمد بن حنبل في مسنده نحوه بإسناد جيد، وأخرجه: إبن أبي الدنيا في كتاب الموت. وأخرجه البخاري أيضا بعده ألفاظ.

(٥) في ط: عنده.

(٦) في ا: حلاوة.

باب وصف منازل المصرين
وبـم يقوي العزم على التوبة وترك الإصرار

قلت: فهل يستوي المصرّون في ذلك؟

قال: لا، المصرّون في منازل شتى. فمنهم من كثرت ذنوبه، وعظمت بليته، وطالت غفلته واحتجابه بها عن الآخرة، فإذا أعمل قلبه في الفكرة بالتخويف لما خوّفه ربه عزّ وجلّ، لم يهيَّج منه الخوف سريعاً لطول غفلته وغلظِ القسوة فيه.

ومنهم من قَلت ذنوبه، ولم تطل به الغفلة، ولا احتجابه بها عن الآخرة.

ومنهم تائب من بعض ذنوبه، وهو مصرّ على ما بقي[1] من ذنوبه. وهم في طلب[2] الخوف متفاوتون.

قلت: ففَصِّل لي[3] بين من عظم بلاؤه، واشتدَّ مرض قلبه، وبين غيره من المذنبين.

قال: إن للعدو خدعاً من الدعاء عند مطالبة الخوف، لمن عَظم ذنبه، وطالت غفلته، وغلظت القسوة فيه، فإذا أعمل قلبَهُ في الفكر[4] بالتخويف لما خوَّفه ربه، لم يهج[5] منه الخوف سريعاً لطول غفلته، وغلظ القسوة في قلبه، لأنه قد أعضل داؤه فلا ينجع (أكثر)[6] الدواء فيه (سريعاً)[7]، وكذلك أهل الدنيا في أمراض

---

(١) في ط: على آخر من ذنوبه.

(٢) في ط: في مطالبة الخوف.

(٣) في ا: ففسر لي.

(٤) في ط: بالفكر.

(٥) في ط: لم يهيج.

(٦ ـ ٧) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

أبدانهم: إذا طال السقم بأحدهم (وأغفل داءه حتى)[1] أعضل لم ينجع الدواء فيه إلا بطيئاً، وكذلك من طال مرض قلبه وأعضل داؤه لم ينجع التخويف فيه سريعاً، (فإذا لم ينجع التخويف فيه سريعاً)[2]، فللعدو وللنفس تثبيط منها بالدعاء عند طلب الخوف، فإذا لم ينجع التخويف فيه سريعاً، دعته نفسه وعدوه إلى الملال والسآمة والانصراف عن الفكر، وأنه ليس بمقامك، ولا يُهيِّج الخوفُ من مثلك، إنما تُعَنِّي نفسك، فيترك الفكرة والطلب، ويعتقد المنى والتسويفَ إلا أن يكون لبيباً فطناً، فإن كان لبيباً فطناً رجع إليهما بالزجر لهما عن دعائهما (وقال لهما)[3]: إن عظيم ما يطالب من النجاة، وعظيم ما قد حَلَّ به من البلاء الـمُسْلم له إلى عذاب الله، إلا أن يعفو الكريم (تعالى)[4]: يزيلان السآمة والملال في طلب الخوف، ويبعثان على الدوام بالفكر بالتخويف، وإنما هذا مقام مثلي لأنه إنما خوف العاصين من عباده ليخافوه، وتهدّدَ بالتخويف من عَظُم ذنبه وطالت غفلته، ليتيقظ من رقدته ويفيق من سكرته، ولكن دائي قد أعضل، وسقم قلبي قد طال، فالدواء[5] بالفكر والتخويف[6] أولى بي إذ أعضل دائي، وطالت غفلتي، فإن أدمن على ذلك هاج الخوف بإذن ربي[7].

ولذلك مثال من الدنيا كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبُه إلا بدوام التداوي، وكالثوب إذا كثر وَسَخُه لم ينق إلا بإدامه غسله، فإذا أدمن المصرّ الفكْرَ بالتخويف سخت نفسه بالتوبة، وكذلك التائب من بعض ذنوبه المقيمُ على بعضها قد يكون بعض ما هو مقيم عليه قد غلب على قلبه حبُّه، وطالت به غفلته، ودامت له عادته، ومطالبة الخوف في عاقبة ذنبه ذكل عسيرة، وهو دون المصرّ على أكثر ذنوبه، إلا أنه يحتاج أيضاً إلى الدوام على الفكر، ودفع خدع النفس والعدوّ بمثل ذلك، حتى يسخو نفساً بالتوبة، ويندمَ على جملة ما عمل من الذنوب، وينوي أن لا يعود وقد أنجع حينئذ فيهما الخوف.

(١ ـ ٤) ما بين الحاصرتين سقط من ط.
(٥) في ط: بالدوام.
(٦) في ط: بالتخويف.
(٧) في ا: بإذن الله تعالى.

قلت: فالندم على جملتها يجزيه دون معرفتها بأعيانها؟

قال: لا، لأن كثيراً من الذنوب يسترها الهوى، ويحول بين العبد وبينها النسيان، وللعدو والنفس خدع عند ذلك، إذا علما أنه قد غلبهما، وصار إلى الندم واعتقاد التوبة من ذنوبه، أرياه أنه لا ذنوب له إلا الذنوب التي يذكرها في ذلك[1] المقام.

وقد تكون له ذنوب أُخر كثيرة، كانت في أحواله فيما مضى من عمره، من كلام لا يظنه ذنباً، أو عمل لا يعدّه خطأ، أو مظلمة لا يرى أنها مظلمة لغلبة الهوى، وقد يخيل إليه أنه قد تاب من جميع ذنوبه، وهو مصرّ على أكثرها أو بعضها وهو لا يعلم؛ لأنه في وقت الخوف أطوعَ ما كان لربّه، وليس له جارحة تتحرك بما يكره مولاه، وهذا لا يكاد يعرف جميع ذنوبه تلك الساعة، فإن كان عاقلا متيقظاً علم أن له ذنوباً كانت في أحواله فيما مضي من عمره كثيرة، ومثله مما كان فيه من الغفلة يُعَمّي عليه أكثرُ ذنوبه من كلام يتكلم به لا يظنّه محرماً عليه، أو عقد ضمير بالسوء لم يكن يراه فيه مخطئاً، بل قد يسمع به فيتعجب ممن يأتيه وهو يفعله (وهو تائب)[2] ولا يعرفه.

باب معرفة التذكر بمعرفة أحواله

(قيل للحارث رحمه الله)[3]: فبمَ يعرفها؟

قال: يعرفها بتذكُّرِ ساعاته فيما مضى من أيامه فإنه لا يعرفها إلا بذلك، ويتذكَّر أحواله في ساعاته فيما مضى من عمره كيف كان فيها؟ من حقّ ضيعه، أو ذنب قد ركبه، فيعرض أيامه الخالية في عمره، وأحوالَه في أيامه، وحركاتِه وسكونَه، وضميرَه في أحواله، فيذكر غضبه ورضاه كيف كان فيه؟ ومحبَّتَهُ وبغضه

(١) في ط: في هذا المقام.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) العنوان وما بين الحاصرين: سقط من ط، وجاء مكانها: قلت.

واكتسابه وإنفاقَهُ وإمساكه، وردّ ما كان عليه (من حق)[1] وأخذه ما كان له عند غيره (من حق)[2] كيف كان (قد)[3] أخذه، أبحق أم بظلم[4]؟ ومنطقه ولحظه واستماعه، وخطاه برجله، وبطشه بيده، ومظالم العباد عنده في أموالهم وأعراضهم، وحقوق من يجب له عليه الحقّ من أقربائه وغيرهم، فيتذكّر تذكُّرَ من يريد الطهارة قبل لقاء الله، ويتذكّـر مظالـم العباد عنده تذكُّرَ مَنْ أوقف نفسه للقصاص قبل القصاص بين يدي الله، فإذا تذكَّرَ كيف كان منذ أصبح إلى أن أمسى في جميع هذه الأحوال، وكيف كان إذا أمسى إلى أن أصبح، فعرض كل جارحة على حيالها في عمل ليله ونهاره، وكيف كان قلبه في أعمال الصالحة، ما كان يريد بها، وعلى ما كان يدور، وما الذي كان يبعثه على الأعمال، وكيف كانت عقود ضميره من الحسد على الدين وغيره، وجميع أعمال قلبه؟ ذكر حقوقاً كثيرة لله ضَيَّعها، فكلما ذكر حَقًّا قد ضَيَّعه هاج الندم من قلبه (على)[5] ما مضى[6] من تفريطه في حقوق ربّه، وأعطى العزم (على)[7] أن يقوم به للهِ عزَّ وجلَّ فيما يستقبل من عمره، فكلما مر (به)[8] الذنب[9] قد اكتسبه هاج حزنه وندمه، وخاف أن يكون قد نظر إليه الله جلَّ وعزَّ[10] بمقت وغضب، وآلى على نفسه ألا يقبله بعدها، ولا يرحمه أبداً، فأعطي العزمَ ألا يعود إلى ذنب أبداً، واتصل الرجاء بالخوف، فمنع[11] منه الإياس، ورجع إلى نفسه بذكر الرجاء، أنه لو كان أوجب ألا يرحمين أبداً لما أهاج قلبي بالرجاء، ولا تسخى[12] قلبي بالتوبة، فالرجاء والخوف هائجات في قلبي، وهو يستشفّ حقوقَ ربّه حقاً حقاً، وهو يتذكّر ذنوبه ذنباً ذنباً.

فإذا كثر ذكر التضييع لـحقوق الله عزَّ وجلَّ[13] في قلبه، وكثر ذكر عدد الذنوب التي كانت منه فلم يذكر يوماً من أيامه طلعت فيه الشمس ثم غابت، حفظ

(١ ـ ٣) سقطت من: ط.
(٤) في ط: بالحق أم بغيره.
(٥) ساقط من ط.
(٦) في ط: لما مضي.
(٧ ـ ٨) سقطت من ط.
(٩) في ط: فكلما مر بذنب قد اكتسبه.
(١٠) في ا: الإله تعالى.
(١١) في ط: وامتنع منه الإياس.
(١٢) في ا: ولا سخا.
(١٣) في ا: لحقوق ربه.

لله تعالى فيه جارحةً من جوارحه. لا يعرف أنه حفظ لسانه في يوم من أيامه إلى أن أمسى، فلم يتكلم بكلمة يتخوّف سخط الله عزَّ وجلَّ فيها، ولا سلم سمعه وبصره و(لا)[1] خطاه، ولا تفقد فيه قلبه يوماً إلى الليل في طاعة ربّه، فلم تخطر خطرة رياء ولا عجب ولا كبر ولا حسد إلا كرهها وسلم منها، فأخلص طاعة ربه يوماً من أيامه فيما خلا من عمره.

فإذا نظر إلى كثرة تضييع حقوق الله جلَّ وعزَّ، ودوام ترك الرعاية لها وعظيم الذنوب، وكثرة المظالم[2] للناس عنده في أعراضهم وأموالهم، وترك الإخلاص في القليل الذي كان يعمله، خاف أن يكون الخير مُحْبَطاً، وتضييع حقوق الله تعالى وعظيم الذنوب قد سقط بها من عين الله جل وعز، وكان يخامر الإياسُ عقله؛ لأنه كان يظنّ أنه مطيع لله، فلما[3] فتش نفسه وتذكَّر أحواله، علم أنه قد كان حَرَبَ بكثير من دينه[4] وهو لا يعلم[5]، فمثله كمثل رجل كان له مال عظيم في صندوق مقفل فسرق ما في الصندوق وأقفله كما كان، فهو قوي القلب مسرور بما يرى أنه في الصندوق، فلما فتح الصندوق فلم يَرَ المال، علم أنه قد كان حُرِب وهو لا يشعر، فانكسر قلبه وأيقن بفقره.

فكذلك هذا المتفتش لنفسه المتفقد لعيبه، إذا أيقن بالافتقار[6]، ثم فزع قلبه إلى ذكر ذي الجود والكرم، وأيادي الله السابقة[7] فيمن كان أعظم منه ذنباً وأطول غفلة كالسحرة وغيرهم، ثم رأى آثار الجود والتفضل عنده إذا نظر إلى نفسه قد هاج الخوف منها، وتذكرت ما مضى من الذنوب، لتطهر من أدناسها قبل لقاء ربّها عزَّ وجلَّ.

---

(١) سقطت من ط.
(٢) في ا: وكثرة المطالبة للناس.
(٣) في ط: فكلما.
(٤) في ط: حرب بدينه.
(٥) في: وهو غافل.
(٦) في ط: وكذلك لما أيقن بالافتقار.
(٧) في ا: السالفة.

باب معرفة متى يفزع العبد
إلى الله تعالى فيفتقر إليه [١]

فهاج الرجاء (حينئذ) [٢] أن يكون في سابق علمه وقدره وليًّا لربه، وأن ذلك الوقت تاريخ حكم ولايته، وخاتمة من أسعده، ليطهره قبل لقائه، ويزينه للعرض عليه، فيعطي الله العزم بالتوبة عند كل ذنب يذكره، وتضييع حتى يعرفه، وأداء المظالم إلى أهلها في عاجل الدنيا والتذلل لهم [٣] لرجاء التعزز في الآخرة بالسلامة من الخصوص بين يدي الله حتى إذا أعطي العزم ألا يعود في ذنوبه، وأن يقوم بجميع حقوق الله، وما كان عليه منها أداؤه [٤] كصلاة ضيَّعها في جهالته، وصيام أو رحم قطعها؛ لأن كثيراً من القراء يمكث الدهر الطويل في قراءته، وعليه صلوات قد ضيَّعها في جهالته، لا يذكر أن عليه قضاءها، كمتهاون في جنابة أو سكر أو تخفيف لا تجزئه الصلاة معه [٥]، أو تقصير في وضوء لا تجزئه بذلك الصلاة، فتنسيه قراءته ذكر ما كان في جهالته.

فإذا عزم العبد القيام بجميع حقوق الله بعد معرفته بذلك، فعند ذلك للعدوّ وللنفس خدع، يُريانه أنه إنما يَنال القيامَ بما عزم عليه بعقله وقوّته، وأنه بعد عزمه لن يغلب، وينسى التوكُّلَ على ربه، فلا يؤمن عليه الخذلان.

ومن ذلك حديث سليمان عليه السلام، أنه لم يُعْطَ ما أراد بقصد عزمه إذ أغفلَ التوكل على ربّه عزَّ وجلَّ، بتركه الاستثناء، كما قال المصطفى ﷺ، وكما أنزل الله

---

(١) العنوان سقط من ط.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٣) في ط: وأداء المظالم إلى أهلها وتدلل لهم، وهو ركيك.
(٤) في ط: أداه.
(٥) في ط: الصلاة به.

على النبي ﷺ يعاتب أصحابه في يوم حُنين حين قال منهم مَنْ قال: «لن نُغْلَبَ اليوم من قلّة»، فأنزل تبارك وتعالى في ذلك يعاتبهم ـ وهم خير عصابة على الأرض، بل لا عصابة تعبد الله غيرهم ومَنْ تبعهم، غضاب لله ينصرون دين الله، مستجمعون لقتال أعداء الله ـ بما أغفلوا التوكُّلَ عليه، فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾[1] (ليعلمهم تعالى أنه الناصر لهم والغالب لهم عدوهم، ثم عطف عليهم بالنصر إكراماً لنبيه ﷺ، فأنزل الله تعالى بذلك قرآناً يعرفهم به ما كان منهم)[2]، والأحاديث كثيرة في ذلك[3].

معرفة الرجوع إلى الله والتوكل عليه[4]:

فإن كان عبداً عاقلاً رجع حينئذ إلى ضعف نفسه، وإلى ذكر قوة ربّه (تعالى)[5]، فرغب إليه في المعونة من عنده على أداء حقوقه ورعايتها، وناجاه بقلب راغب راهب: إني أنسى إن لم تذكرني، وأعجز وأضعف إن لم تقوّني، وأجزع إن لم تصبرني.

وإن لم يناج ربّه بذلك كان ذلك عَقْدَهُ في طلب المعونة، فعزم وتوكل واستغاث واستعان، وتبرّأ من الحول والقوة إلا بربّه تبارك وتعالى، وقطع رجاءَه كله إلى خالقه ومولاه؛ فإنه سيجد الله قريباً مجيباً، متفضلا متحنناً.

وكذلك أمر من أناب إليه وعزم على طاعته فقال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[6].

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٣) منها ما رواه إبن ماجه في سننه، كتاب الجهاد، باب ١٢. فانظره.
(٤) العنوان سقط من ط.
(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

ووصف عبده الصالح شعيباً عليه السلام، بالنية بترك ما يكره (الله)[1]، وبالعمل بما يحب وبالتوكل مع ذلك بطلب التوفيق من ربِّه فقال: **﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُم عَنْهُ إِنْ أُرِيد إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْت ومَا تَوْفِيقي إلا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾**[2].

ما يعرض من العجب من الشيطان والنفس باستعظام المقامات[3]:

وعند هذه الحال للنفس والشيطان خدع من خطرات العجب باستعظام هذا المقام، فيدعوانه إلى أن يضيف ذلك إلى نفسه، وأنه إنما وصل إلى ذلك بعقله وفطنته وعمله (وفهمه)[4]، وفقهه وحزمه وقوته، فرحاً منه بقوته على ذلك، فذلك لنفسه حَمْد مع نسيان منَّه ربّه بذلك وتفضله عليه.

فإن غفل وسها وأضاف ذلك إلى نفسه: أنه هو الذي وصل إلى ذلك، وحمِدَ عقله وفطنَتُه، وتخلصه وطلبه، ونسي نعمة ربّه، فاستحقَّ عند ذلك أن يوكل إلى نفسه، كالذي يروى عن ابن عباس: «أن داود عليه السلام إنما أصاب الذنب بإعجاب أعجبه من نفسه، فوكله إلى نفسه بالإعجاب[5]، وسنأتي على ذكر العجب في غير هذا الموضع إن شاء الله.

معرفة التنبيه والتيقظ ومن منَّ الله عليه باليقظة ونبهه للخطر العظيم[6]:

فإذا نبهه الله وأيقظه، علم أن ذلك كان بمنّة الله عليه، وأن نفسه من ذلك بريئة، وإنما عزم على خلاف محبَّتها، وأنها لم تنقد له إلا مجبورة، ولم تنقد حتى احتاج إلى أن يتكلف الخوف، فكيف يكون منها هذه الأحوال ـ وهو خلاف

---

(١) ساقط من ط.

(٢) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٣ و ٦) العنوانان سقط من ط.

(٤) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

(٥) في ا، ب: فوكله إليها للاعجاب.

محبتها، وأنها لم تَنقَدْ له إلا بجبر وكراهية ـ فكيف يكون منها ما تأباه ولا تريده، وهي التي كانت مهلكته من قِبلِ هواها وأن الذي أدخلها في خلاف محبتها إلّهها وخالقها جلَّ وعلا، فخلص له الحمد، ووجب له الشكر، وأمكنته الثقة وحسن الظن فيما يستقبل، لما يرى من أثر الـمَنّ والتفضل والاستراحة إلى المتفضل بذلك، ولزوم القلب الإياس منها، ووجب الذمّ لها وحذرها واتهامها وترك الطمأنينة إليها؛ لأنه قد رأى ما قد مضى من أفاعيلها ما استحق ذلك عنده بعد ما عرفها، وأراه ربه، جلَّ وعزَّ من آثار تفضله ما استحق الرجاء والشكر وحسن الظنِّ به، حين خلص عزم التوبة في قلبه، بعد الاعتراض لذنوبه فيما مضى من عمره، وأزال العجب عن قلبه، وألزم قلبه حسن الظنِّ بربه، فهو حينئذ تائب مقلع، منيب خاشع، مقر معترف أن توبته كانت بمنَّة الله ربّه لا بقوته، فيستأهل بذلك الزيادة من الله تعالى؛ لأنه يقول: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[1]، وفي التفسير: لأزيدنَّكم من طاعتي[2].

باب ما يجب أن يلزم القلب عن معرفة النفس

ومعرفة الخلال التي يكون عنها نقض العزم عن الطاعة والاهتمام بالتيقظ والحذر بتصحيح التوبة

قلت: وما الذي هو أولى به بعد ذلك أن يلزمه قلبه؟

قال: (أن)[3] يعلم أن الله تعالى محناً فيما يستقبل من عمره، وأن عدوه لم يمت، وأن طبعه قائم لم ينقلب ولم يَحُلْ، وأن الدنيا بزينتها ومكروهها لم تتغير[4]، وأنه

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

(٢) انظر آراء السلف في الآية في باب الحكمة من «علم القلوب» لأبي طالب المكي من تحقيقنا. مكتبة القاهرة.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) في ط: لم تفن.

لن ينال القيام برعاية حقوق الله تعالى، مع هذه الأسباب الـمُزِيلَة[1] المفتنة إلا بالتيقّظ من الغفلة، والذكر من النسيان، وأن ذلك لا يجتلب إلا بالاهتمام والحذر.

قلت: الاهتمام بماذا؟

قال: الاهتمام بالوفاء بعزمه، والحذر لنقض عزمه.

قلت: وما الذي ينقض عزمَه فيكون له حذِراً فيُلزم قلبَهُ الحذرَ له؟

قال: أن يُلزم قلبَه الحذرَ لست خلال، وبهنَّ يُنقض عزمه، وهي التي تزيله عن الوفاء بالعزم لربه تعالى، وبتركهنَّ يكون الوفاء بعزمه لربه تعالى:

فإحداها: أن يحذر أن يعود إلى ذنب قد عزم على تركه، حَذَراً أن تغلبه نفسه بهواها عند غفلته ونسيانه، فيعود فيها لما هاج من شهوته[2]؛ لأن العبد قد يترك لله جل وعزَّ ما تشتهي نفسه، ثم ترده إلى معاودتها رغبتُه فيه، ألم تسمع قول وهب: طوبى لمن لم تغلبه شهوته، ولم ترده رغبته!

والثانية: أن يكون ذنب قد مضى من عُمره ستره الهوى والشهوة في حال توبته، فيعرفه فيما يستقبل، فيُعطى الندمَ عليه والعزْمَ ألا يعود فيه، فيحذر أن تعود النفسُ إلى عادتها، ومطالبة هواها ولذتها في وقت غفلته، وليس عنده معرفةٌ به، فتركن إليه، وإنما يَرْتَقِبُ متى تعرِّضُ نفسهُ بالطلب لعادتها، فيعرفه إذا كان ذاكراً مثبتاً.

والثالثة: أن يَعرض له ذنبٌ لم يكن فيما مضى من عُمره، لأن النفس إذا مُنِعَت أبواباً من الشهوات طلب شهواتٍ أُخَر تستريح إليها، عوضاً مما قطِعَت عنه من الشهوات واللذات.

والرابعة: حق الله عزَّ وجلَّ، مما أوجب العمل به، قد كان مضيِّعاً له فأعطاه العزْمَ أن يقوم لله تعالى به، فيحذر أن يضيعه فيما يستقبل من عمره، لاستقبال

---

(١) في ط: المزلة.

(٢) في ط: من شهوة لذته.

مكروه من تعب، أو مشغل عن راحة الدنيا، أو واضع من قدره عند المخلوقين، كطلب الحلال وغيره، أو استدلال منهم له، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكز، والقيام بحقوق الله تعالى، فيما يخالف أهواء العباد.

والخامسة: أن يكون حقاً لله عزَّ وجل، قد ضيعه فيما مضى من عمره، سترته كراهية النفس للقيام به، وهواها للراحة في تركه، فلم يعرفه في حال توبته، فيحذر أن تعود النفس إلى عادتها من تضييع حق ربها، فيقَدِّم الحذرَ ليفطن له إلى عَرَض.

والسادسة: أن يبتلي ويمتحن بحق لم يبتل بهِ من قبل، ولم يجب عليه، كالعيال وغيرهم، فيضيِّع ما وجب عليه من ذلك، فيكون في ذلك سخط رَبه جل وعزَّ.

فإذا ألزم قلبَه الحذرَ لهذه الخلال الست، والاهتمامَ بتركهن تيقظ، فبالاهتمام والحذر يجتلب التيقظ، وبالتيقظ يُجْتلبُ الذكر، وبالذكر يجتلب التثبت، وبالتثبّت يجتلب التفقد، وبالتفقد بالعلم يَتبيّن له ما كره الله تعالى مما أحب، وبالتبيّن مع الخوف يميز ما كره ربه جل وعزَّ مما أحب، وبالتمييز مع الخوف يكون متقياً موفياً بعزمه.

باب معرفة هل يعطي الحذر والاهتمام فيما يستقبل ما الدليل على ذلك؟

قلت: فالاهتمام والحذر إن ألزمهما قلبَه أيوقظاه فيما يستقبل من عمره؟

قال: نعم.

قلت: فما الدليل على ذلك؟

قال: الدليل على ذلك أن العبد قد ينام الليالي الكثيرة، فلا يستيقظ إلا بقرب وقت صلاة الفجر أو بعده، حتى إذا عرضت له حاجة من حوائج الدنيا يهتم بأن ينالها، ويحذر أن تفوته إن لم يدلج لها، فإذا نام مهتمًّا بالقيام وقد ألزم قلبه الحذرَ من أن يذهب به النوم فيفوته البكور تيقظ في الليل مراراً لغير الوقت الذي كان ينتبه له، يحركه الاهتمام والحذرُ اللذان نام وهما في قلبه فإذا كان الاهتمام والحذر

لأمر الدنيا يوقظان عقله، وينبهانه بعد ما نام وذهب عقله، فهما أولى أن يوقظاه لأمر الآخرة وهو يقظان لم ينم ولم يذهب عقله بنوم.

وشتان بين المطلوبين هذا يطلب قليلا فانياً مكَدّراً بالغموم والأمراض والأسقام، ومن بعده يختم له بالموت، ومن بعد الموت ينظر فيه بعد ما ذهبت لذته ومنفعته، وبقي السؤال بين يدي الله تعالى عنه، حتى يُسأل عنه: ماذا صنع فيه؟ ثم العفوُ أو العذاب عليه، ومع هذه الأسباب المكدرة في الدنيا والآخرة لن ينال من ذلك إلا ما قدِّر له، وهذا ويهتم لطلب باقٍ كثير لا يفنى، مع نعيم مقيم وعيش سليم، قد أُزيلت عنه الأمراضُ والأسقامُ، ورُفعت عنه الهمومُ والغمومُ والأحزان، ولا يختم بموت أبداً ولا حساب ولا تبعة فيه عليه، والمولى راض عنه، وهو مسرور بما يتقلب فيه من نعيم الآخرة، باقٍ فيه أبداً، ولا يشاء شيئاً إلا بلغت فيه مشيئته، في حياة ليس فيها موت. ونعيمٍ لا يخاف فيه أبداً له بالفوت، مجاورٌ للملِك القدوس الأعلى في داره، لا يخاف سخطه بعد رضاه، ثم ما رضي له بذلك حتى أكمل ذلك له بغاية الكرامة، وقَرَّبه إليه في الزيارة، وأنجز له ما وعده من الرؤية والنظر إلى وجهه الكريم عزَّ وجلَّ، إذ يقول، جلَّ من قائل: **﴿إِنَّ الـمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهرٍ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾**(١).

فأعظم به من مجلس، وأكرم به من زائر ومزور، وناظر ومنظور إليه، ومقبل ومقبَل عليه، متردِّدٍ فيما بين نعيمه ولذاته، والنظرِ إلى وجهه جل وعزَّ، فشتان ما بين الهمتين، وشتان بين الغايتين.

فإذا كان هذا النائم يوقظه اهتمامُه لهذا الفاني المنغِّص المكدر بعد ذهاب عقله، فالهم للباقي الهنيء السليم، والحذرُ من فوته مع الحلول في العذاب الأليم أولى أن يتيقظ له العقل، ولم يذهب بنوم فإذا اهتم وحذرَ تيقظ وإذا تيقظ ذكر، فإذا ذكر تثبَّت، فإذا تثبَّت تفقَّد، فإذا تفقَّد نظر، وإذا نظر بالنور وهو العلم أبصر، وإذا أبصر تبيّن.

---

(١) سورة القمر، الآية: ٥٤، ٥٥.

باب معرفة التثبت وعند ماذا يثبت

قلت: يثبت عند ماذا؟

قال: يتثبت عند ما تدعوه النفس والعدو [إلى عمل] فينظر[1] ما يدعوان إليه، أهو مما كره اللهُ جلَّ وعزَّ، أَو أحبّه؟ لئلا تخفى عليه واحدة من هذه الخلال الست إذا اعترضت له في بلاء النفس بالمنازعة إليها، فإن عرض له ذنب مما كان عزم على تركه لله، خوَّف نفسه أن يرجع فيما كان تركه لله تعالى، فيسميه الله تعالى غادراً مُخْلفاً، ويحضها على ترك الذنب الذي عرض له، ليسميه الله جل وعز بالوفاء بالعهد والتمام على العزم [فيحكم له بحكمه] فيحق له حكم الصادقين الموفين بعهودهم، الماضين على عزومهم، فإن استصعبت نفسه عند ذلك أهاج ذكر الخوف في عاقبة المعاد، أن يوافيه وهو مخلف كذاب، غير تائب لم يَفِ بعزمه، إلى ما يسخط ربه، فيخوِّف نفسه الحكْمَ عليه بذلك بين يدي الله تعالى، والنظرَ إليه بالمقت في مقامه ذلك، فلم يلبث أن تغلب مرارةُ ذكر العقاب، وخوفُ المقت في العاجل، حلاوة دواعي النفس إلى راحتها وشهوتها، وقد يفعل ذلك العبد في خوف سوء عاقبة أمر الدنيا: يعرض له أحب الطعام إليه، فإذا ذكر فيه ضرراً من حرارة أو برودة أو غير ذلك امتنع منه، فإن جاشت ودعته نفسه إلى أكله، ذكرها سوءَ عاقبته وهيجانَ الوجع بعد ما تمضي لذته وحلاوته، فيطفي ذكرُ مرارةِ سوء عاقبة ذلك الطعامِ حلاوة تعجيل لذته، فيتركه من أجل سوء عاقبة أيام قليلة لسقم، فإن مقدور واقع به إن كان قُدِّر أكْلُ ذلك الطعام أو تركُه، وإن لم يقدر له لم يقع به أكْله أو تركُه؛ فهذا الذي عَرَضَ له الذنبُ، فذكر سوء العاقبة في الآخرة، أولى أن

---

(١) في الأصول كلها: عقد دعاء النفس والعدو لينتظر. وما أثبتناه أوضح.

تُطفيء ذكرُ مرارةِ سوء العاقبة حلاوةَ لذة الشهوة، لأنه يخاف (سوء)[١] عاقبة دائمةً في ضرر عظيم، لا يقوى عليه بدنُه، ولا يقوم له صبره، وإن لم يَخَفْه لم ينج منه إلا أن يعفو عنه[٢]، لأن ضرر الدنيا قد يصرف بحذر وغير حذر، ولا يصرف ضرر الآخرة إلا بالحذر.

فإذا كان سوء عاقبة يوم أو يومين، يطفيء حلاوة تعجيل أحبّ الطعام إليه فسوءُ عاقبةِ عذاب الأبد مع الحياء من الله (تعالى)[٣] ونظره إليه، أولى أن يطفيء حلاوةَ شهوة الذنب.

وإن عرض له ذنب مما كان في ستره الهوى والشهوة فلم يعرفه في حال توبته، عزم على تركه وحمد الله إذ فَطَّنه[٤] له قبل أن يتوفاه عليه، وإذا عرض له ذنب لم يكن أذنبه من قبل خوّف نفسه سوء الخاتمة إن واقعه أن يختم له بخاتمة الأشقياء في آخر عمره، ولم يأمن أن يكون أخِّر عنه[٥] ليختم له بخاتمة الشقوة والهلكة، وإن عرض له حق لله جلّ وعزّ، مما قد كان ضيَّعه، فتاب منه[٦] وعزم على القيام به، خوّف نفسه أن يعود إلى التضييع له، فيخلف وعدَه وينقض عزمه على القيام به، فيكون اسمه عند الله عز وجل مخلفاً غدارا، ورجَّى نفسَه على القيام به النظر من الله عزّ وجلَّ بالرضا عنه، وأن يسمِّيه الله عزَّ وجلّ موفياً، ويحكم له بالصدق، لأنه سمع[٧] الله سمَّى بالكذب والخلف، وأوجب العقوبة لمن عاهده وعزم على طاعته فلم يفِ بها له فقال[٨]:

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من: ط.
(٢) في ا: يعفو عنه سيده.
(٣) ما بين الحاصرتي: سقطت من ط.
(٤) في ا: أيقظه.
(٥) في ط: أخر له.
(٦) في ا: فثاب عنه.
(٧) في ط: لأنه يسمع.
(٨) في ا: عز وجل.

﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ. [فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾] (1).

وفي التفسير عن مجاهد: أنهما رجلان خرجا على ملأ من الناس فقالا: لئن آتانا الله من فضله لنصدقن، وقال معبد بن ثابت: هو شيء قالوه في أنفسهم، ألم تسمع قوله تعالى: **﴿يَعْلَم سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهم﴾** (2)؟ قال الله تبارك وتعالى: **﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضلِه بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضونَ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾** (3).

فسمَّاهم الله عزّ وجلّ، إذ لم يفوا بعزومهم مخلفين للوعد كاذبين له فسمَّاهم الله عزّ وجلّ بذلك، وألزم قلوبهم النفاق حتى ماتوا (4) على ذلك، فعاقبهم بعقوبة لا يفلحون بعدها أبداً، ولا يصلون إلى التوبة مما يسخط ربهم عزّ وجلّ.

وقد يخلف العبدُ الوعد، فلا يعاقب إذا كان الله عزّ وجلّ يريد أن يسعده في آخر عمره، لأنه يعاقب من يشاء ويعفو عمن يشاء، فيخوّف نفسّه العقوبةَ.

وإن كان قد عاهد من قبل فأخلف رجى نفسَه التوبةَ والإقالة، فعاود العزم على الوفاء، وذكّر نفسه ما سمَّى الله عزّ وجلّ (به) (5)، من أوفى بعهده وهو قوله، جلّ ثناؤه: **﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ﴾** (6) الآية. وروي في تفسير ذلك أثران:

أما أحدهما فما رواه أنس بن ملك، أن أنس بن النضر عم أنس بن مالك غاب

---

(1) سورة التوبة، الآية: ٧٥. وما بين المعقوفتين: سقطت من ط.

(2) سورة التوبة، الآية: ٧٨.

(3) سورة التوبة، الآية: ٧٦، ٧٧، وتكملة الآية: **فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما** اخلفوا الله ما وعدوه وبما كانو يكذبون».

(4) في ط: حتى يموتوا.

(5) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(6) سورة الاحزاب، الآية: ٢٣، وتكملة الآية «ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا».

عن قتال بدر فقال: «أول مشهد شهده رسول الله ﷺ لم أشهده!! لئن كان لرسول الله ﷺ قتالٌ مع قريش بعد اليوم ليرينّ الله تعالى، ما أصنع». وهابَ أن يقول غير ذلك، فلما كان يومُ أحد وانهزم الناس، فقال سعدُ بن معاذ: فاستقبلته، فقال يا سعد إلى أين؟ واهاً لريح الجنَّة إني لأجد ريحها دون أحد فتقدم فقاتل حتى قُتِل، وأصيب به بضع وثمانون جراحة: من (بين)[1] ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، فما عَرَفَته أخته إلا بثيابه فنزلت:

﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ﴾ يعني عهدَه، أي مات على ذلك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِر﴾ أي صادق قائم بالحق لله عز وجل، وينتظر يوماً فيه لقاؤه فيموت على صدقه والوفاء بعهده.

ومرّ النبي صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ (واحتج بمصعب بن عمير)[2]، وهو قتيل منجعف على وجهه، فقرأ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيه﴾.

(وقال مجاهد: النحب هو العهد. واحتج بأن النبي ﷺ مر به طلحة فقال: «هذا ممن قضى نحبه»)[3].

فيذكر نفسه ما قال الله تعالى، وما سمَّى به من كذبه ولم يفِ بعزمه، وما سمَّى به من صدقه وأوفى بعزمه.

وإن تقاعست النفس وثقل عليها القيام بذلك الحق، ذكّرها ثواب الله تعالى وما يأمل من نعيم الآخرة إن قام بذلك الحق، ورجاها رضاء الله عز وجل، والسرورَ والأمن في يوم الخوف والأحزان، ودوامَ النعيم الذي لا ينقطع في جوار الله عز وجل، والنظر إلى وجهه الكريم الأعلى، ليطفىء بذكر حلاوة الثواب مرارةَ القيام

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من: ط.

(٢ ـ ٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

بذلك الحق، ويخفف (الثواب)[1] على النفس ما ثَقُل عليها من القيام بذلك الحق لذكر حلاوه الثواب، وذلك معروف في أهل الدنيا، لم يُرَ عامل من عمال الدنيا ولا غيره، ولا تاجرٌ من تجار الدنيا يخف عليه التعب والمؤونة إلا لما يرجو من الأجر، فالبنَّاء وغيره لذته في التعب وغمَّه في الراحة لحلاوة الأجر، وإنَّ التعب له لمؤلم مؤذٍ، وإن الراحة له لموافقة، ولكن اختار النصب على الراحة لما يأمل من الأجر، فإن كان أجره قليلا والمستأجر (له)[2] موفياً ملِيئاً[3]. فإذا ذكر قلة الأجر استثقل العمل. وإذا ذكر أن المستأجر له مليء لن يظلمه خفّ عليه العملُ. وإذا كان الأجر كثيراً والمستأجر له لا يأمن من ظلمه. فكلما ذكر ما يخاف من ظلمه استثقل العمل. وإذا ذكر كثرة الأجر خف عليه العمل. فإذا كثر الأجر وكان المستأجر (له)[4] مليئاً موفياً[5] خف عليه العمل. ولم يجد على قلبه ثقله له. وعمله بنشاط له وخفّة. فلا مستأجر أملأ من الله. ولا أجرَ أكثر من الجنة.

وكذلك التجار من أهل الدنيا: لا يقطعهم عن سفرهم[6] الحرُّ ولا البردُ ولا الأمطار ولا الخوف من اللصوص ولا السباعِ، لحلاوة ما يأملون من الأرباح[7]. فالعامل لله، والتاجر له أولى أن يخف عليه العمل إذا ذكر الربح الذي لا ينقطع ولا تنغيص فيه، ولا تصريد من المربح الذي لا يظلم مثقال ذرة، بل يضاعف ويعطي الكثير باليسير من العملِ، وتجار الآخرة لا يربحون كما يربح تجار الدنيا ولا عمالها، لأن تجار الدنيا إنما يربحون من جنس الدنيا وجوهرها، والله عزَّ وجلَّ لا يُربح عُمَّال الدين من جنس الدنيا ولا من جوهرها، ولا يرضى لهم بربح الدراهم والدنانير؛ لأن ذلك من جنس الدنيا وجوهرها. ولكن يُرْبِحُهُمْ قصورَ الياقوتِ والزمرد والدر في الدّار التي لا تفنى. تربتها المسك والزعفران، مع زوال

(١، ٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ط: مليا.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٥) في ط: ماليا.

(٦) في ط: عن سفرهم لما يأملون من الأرباح. وهو ركيك جداً.

(٧) في ط: الربح، وما أثبتناه أليق بالسياق.

الهموم عن قلوبهم، فلا تخطر أبداً بقلوبهم الأحزان ولا تحل في قلوبهم أبداً. والفرح والسرور لا يبرحان من قلوبهم أبداً.

فإذا تذكَّر هذا العبد حلاوة هذا الأجر مع تذكُّر نظر الجواد الكريم إليه، وهو مجاهد لنفسه مكابد لهواه فأمّل أن ينظر إليه على تلك الحال فيرضى عنه، فيوجب له الخلودَ في داره والأمن من عذابه، خفَّ عليه القيامُ بذلك الحقّ.

وإن عرض له حق لربِّه جلَّ وعلا مما كان قد ضيَّعه سترته كراهةُ النفس للقيام به وهوى الراحة في تركه. فلم يعرفه في حال توبته فعرفه حين عرض له حمد الله جلَّ وعزَّ إذا فطنه له قبل أن يموت وهو مضيّع للقيام بحق ربِّه جلَّ وعزَّ. فيحل بذلك عليه غضبه وعقابه.

وإن عرض له حق ابتلي به في آخر عمره. ووجب (لله)(٢) عليه مما لم يكن أوجبه الله عليه قبلُ فثقل على نفسه القيام به حض نفسه على القيام به، رجاء أن يكون إنما ذخره له فلم يوجبه عليه إلاّ في آخر عمره، ليستوجب بذلك رضاء الله، وليختم له بخاتمة السعداء، فإن نكلت النفس عن القيام به خوفها خاتمة الشقاء بتضييعه، وأن يكون إنما أخر لذلك، ألم تسمع قول مطرف: «إن الحسنة أثقل ما تكون عليك وأنت تعملها، فإذا فرغت منها ذهب ثقلها ويبقى سرورها، فكيف بك إذا قرأتها بين يدي الله، ورأيت ثوابها»؟ فتذكُّر رضاء (الله)(٣) عنه بالقيام به، وذكر ثوابه، وخوف غضبه على تضييعه، يخفّ عليه القيام به.

فإذا تطهر من هذه الخلال الست بالتوبة، فقد صحت توبته، وساوى الذي لم يكن له صبوة في رعاية حقوق الله فيما يستقبل من عمره، وساوى التائب من قبله الذي لم تستصعب عليه نفسه عند التوبة ولم تحتج إلى طلب الخوف بالتخويف، ولم يغمّ عليه شيء من ذنوبه (عنده)(٤)، ولم يأمن أن يكون الله قد أحصى عليه ما قد

---

(١) في ا: فيجب.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣ - ٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

نسيه، كالسحرة، وأصحاب محمد ﷺ وغيرهم ممَّن أتتهم مِنَّة الله عز وجل، برفع الامتحان عنهم والتكلفِ لطلب التوبة، فبهرت عقولَهم حجتُه، وأزعجها إليه توفيقهُ وتفضله، إلا أنها وإن لم يكن معها امتحان التكلف للطلب، فقد نهت عقولَهم على المعرفة بالله عزَّ وجلَّ، وعظيم قدر ثوابه وعقابه، وعظيم حَقّه عليهم، وواجب طاعته، ولم يتمالكوا مع هذه المعرفة أن رفضوا كل قاطع يقطعهم من الله عزَّ وجلَّ، وأقبلوا بعقولهم على ربِّهم، قد استفرغوها في الإقبال عليه والإنابة إليه.

فقد ساوى هذا التائب من قبله الذي قلَّت كلفتهُ، ولم تغمّ عليه ذنوبهُ عند توبته، وساوى من لم تكن له صبوة، لأنه قد تطهَّر مما يكره الله عزَّ وجلَّ.

وعليهم جميعاً حسن القيام بحق الله عزَّ وجلَّ فيما بقي من أعمارهم.

باب معرفة حقوق الله بأسبابها (وأوقاتها) (١)

وعللها وإرادتها وترتيبها في القيام بها، والرعاية لها

ولا بدّ للخلق أجمعين من معرفة حقوق الله عزّ وجلّ بأسبابها، وأوقاتها، وعللها، وإرادتها، ووجوبها، وفيم هي؟ وأيها بدأ الله عز وجلّ به خلقَه؟ وأيها أوجب أن يبدأ به الأول فالأول، لا يقدم ما أخر الله، ولا يؤخر ما قدَّم الله منها.

كما قال ابو بكر لعمر رضي الله عنهما في وصيته: «واعلم أن الله عزَّ وجلّ، حقًّا بالنهار لا يقبله بالليل، وحقًّا بالليل لا يقبله بالنهار».

فأما أوقاتها: فكالحجّ في وقته، وكالصلوات في أوقاتها.

وأما أسبابها فكوجود السبيل إلى الحج (٢) لأن الله أوجب على عباده أداء حقه،

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في ط: السبيل للحج.

فالأمر قبل الأداء، والأمر قبل الوقت إعلام للعبد كيف يؤدي حقّ الله إذا جاء الوقت. فمنها ما وقته واحد، ومنها ما له وقتان، وكثير منها أداؤه على وجهين: أحدهما وقت موسع مخير فيه، إن شاء يعجله وإن شاء يؤخره، كالظهر إلى آخر وقتها، وكالعصر وغير ذلك، والوقت الآخر: هو: الذي ألزم فيه الفرضَ، وإن فات فقد خرج وضُيِّعَ(١).

وأما إرادتها: فإخلاص النية لله عز وجلّ بالقيام بها.

وأما ما أوجبها أولا فأولاً فإنما يستدلّ على ذلك بالكتاب والسنّة، مع التثبّت قبل الفعل على قدر الوجوب في أداء اي الحقوق أعظم في وجوبها وأيها قد حضر وقته، وأيها لم يحضر وقته، وأيها يترك لما هو أوجب منه؟.

وأما فيما هي ففي أعمال القلوب والجوارح.

فأما بأيها بدأ الله عزّ وجلّ: فأول ما بدأ الله عز وجلّ به خلقه من إيجاب الرعاية فيه لحقه فـ[ـقد] بدأهم، بأن تعبّدهم برعاية حقوقه في قلوبهم، في جمل عقودهـا وهمومها من تديّنها، ومحابّها ومكارهها، وعند منازعة خطراتها التي هي بدء دواعي كل خير وشرّ، ثم جوارحهم من الأسماع والأبصار، والألسن، والأيدي والأرجل والمآكل (والمشارب)(٢) والمشام والمباشرة بالأبدان: من الأخذ بالفعل(٣) والترك.

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ به. فيبدأ برعاية حقوق الله عزّ وجلّ في قلبه، فإنه أول عامل منه، وعنه تكون أعمال الجوارح، فيوقفه حيث أوقفه الله عزّ وجلّ، من الرعاية لحقوقه، فيوقفه على جمل رعاية حقوق الله عزّ وجلّ، في عقود ضميره، حتى يقوم بها الله عزّ وجلّ كما أمرهُ وتعبّده، وهي ثلاث خلال: اعتقاد الإيمان ومجانبة

---

(١) وذلك كصوم رمضان، ومن مات وهو قادر على الحج على مذهب من يقول بوجوبه على الفور.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ط: الأخذ للفعل.

الكفر، واعتقاد السنَّة ومجانبة البدعة، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على كل ما يكره الله عز وجلّ من عمل قلب وبدن.

وجملُ حقوق الله عزّ وجلّ في الجوارح: القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى، وترك الحركات، وهو السكون عما كره الله عز وجل، ثم رعاية حقوق الله عز وجل عند خطرات القلوب الداعية إلى كل خير وشر.

باب رعاية حقوق الله تعالى

عند الخطرات في اعتقاد القلوب

(والمعرفة بحركات الجوارح)[1]

قلت: وكيف يرعى حقوق الله عز وجل عند الخطرات؟ وبم يستدل على ذلك؟ والخطرات ما هي؟.

قال: يرعاها بالتثبت والاستدلال بالعلم عند دواعي الخطرات[2] لأن الخطرات هي دواعي القلوب إلى كل خير وشر.

قلت: الخطرات من أين بدؤها، ومن أي الوجوه هي؟ أمن وجه واحد أم من وجوه شتى؟

قال بدؤها من هوى النفس، او من العقل بعد تنبيه الله عز وجل له، أو من العدو، وهي على ثلاثة معان:

تنبيه من الرحمن، وكذلك يروى عن غير واحد، يروى عن النبي ﷺ انه قال: «من يُرد الله به خيراً يجعل له واعظاً من قلبه»[3]، وروى النواس بن سمعان، عن

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من .ط.

(٢) في ط: عند دواعي القلوب وهي الخطرات.

(٣) لم أجده بهذا اللفظ فيما أتيح لنا من مصادر.

النبي ﷺ انه ضرب مثلا فقال: «مثل صراط وعليه ستور ودواع من أسفل الصراط، ودواع من أعلاه، فالدواعي من أعلاه واعظ الله عز وجل في قلب كل مسلم».

فثبت بقول النبي ﷺ: أن الله يعظ عبده فيُخطر بباله ذكره ليتعظ بذلك وذلك: أن الله يخطر ببال المؤمن، لينبهه بذلك ويعظه، فمنه ما يخطر بباله بإحداث الخاطر، فينشئه في قلبه، ومنه ما يأمر الملك أن يخطر ببال العبد ليعظه بذلك، وينبهه (له)[1]، وإياه عنى عبد الله بن مسعود بقوله: «لـمَّة من الملك»[2]، وقد قيل في بعض الحديث عن عبد الله: «لـمّة من الملك»[3] يعني: الله (تبارك)[4] وتعالى:

والثانية: تسويل وأمر من النفس، وكذلك قال الله عز وجلّ فيما يصف قول نبيه إسرائيل صلى الله عليه وسلم، إذ يقول لبَنِيه: ﴿**بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ**﴾[5].

وقال جل وعلا، في قصَّة ابني آدم: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ**﴾[6].

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من أ.

(٢) أخرج قول عبد الله بن مسعود إبن المبارك في الزهد ٥٠٣ حـ ١٤٣٥ ونصه: «لابن آدم لمتان: لمة من الملك الملك، ولمة من الشيطان. فأما لمة الملك فإيعاز بالخير وتصديق بالحق، وتطيب بالنفس. وأما لمة الشيطان فإيعاز بالشر وتكذيب بالحق، وتخبيث بالنفس». واللمة معناها النزول والقرب والإصابة. والمراد بها: ما يقع في القلب بواسطة الشيطان أو الملك.

(٣) الحديث أخرجه الترمذي من حديث عبد الله بن مسعود مرفوعاً، بلفظ: «إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة، فأما لمة الشيطان فايعاز بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان. ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) انظر: سنن الترمذي، تفسير سورة ٢، ٣٥.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من أ.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٨.

(٦) سورة المائدة، الآية: ٣٠.

وقال تعالى: ﴿إنّ النَّفْسَ لأمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾[١] .

والثالثة: تَزْيينٌ ونزغٌ ووسوسة من الشيطان.

وكذلك أمر الله تعالى نبيه ﷺ، أن يفزع إليه بالاستجارة به من خطرات الشيطان فقال تعالى: ﴿وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ من الشَّيطَانِ نزْغٌ فاستَعِذ باللهِ إنهُ هُوَ السميعُ العَليمُ﴾[٢] .

وقال جلَّ وعزَّ ﴿يُوَسْوِسُ في صُدُورِ النَّاسِ﴾[٣] .

وقال عز وجلّ: فيما وصف به آدم وحواء عليهما السلام: ﴿فَوَسْوَسَ لَـهُمَا الشَّيْطانُ﴾[٤] .

وقال جل وعز: ﴿وَزَيَّنَ لَـهُـمُ الشَّيْطانُ ما كَانُوا يَعْـمَلُونَ﴾[٥] .

فعلى العبد التثبت بالعلم الدال على الخطرات حتى يستدل فيعلم من أي الوجوه الخطرةُ حين تعرض، فيجعل الكتابَ والسنة دليله فإن لم يتثبت بعقله ويجعل العلـمَ دليلَه لم يبصر ما يضره مما ينفعه. وقد قال بعض الحكماء: إن أردت أن يكون العقل غالباً للهوى فلا تعجل بفعل الشهورة حتى تنظر في العاقبة.

فصل في التثبت وحبس النفس عند الفعل[٦]

قلت: وما التثبت؟

قال: حبس النفس قبل الفعل، وترك العجلة، وهو الصبر قبل الفعل.

قلت: فإن جاشت النفس إلى العجلة بالفعل، فما الذي يحبسها؟

قال: يذكّرها نظر الله عزّ وجلّ إليها، ويخَوِّفها نزولَ نقمته، فإن أبت عاتبها فقال لها: إن الله عزّ وجلَّ يراكِ فلا تعجلي وقفي، فإنك موقوفةٌ غداً على فعلك.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٥٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٠.
(٣) سورة الناس، الآية: ٥.
(٤) سورة الاعراف، الآية: ٢٠.
(٥) سورة الأنعام، الآية، ٤٣.
(٦) سقطت من ط.

ولا يدع (مع ذلك)[1] الاستعانة بالله عزَّ وجلَّ، أن يقوي ضعفه ويقهر له هواه، لأنه من ثقل عليه توقيفُ الله عزّ وجلَّ غداً على فعله خفّ عليه في الدنيا أن يقف ويتثبّت قبل فعله، خوفاً وحياء من توقيف الله عزَّ وجلَّ غداً على فعله.

فبالعقل والعلم والتثبُّت، يبصر الضرر والنفع من دواعي القلوب بالخطرات، وإلا لم يُؤمَن عليه أن يقبل خطرةً من نزغات الشيطان، أو تسويل النفس يحْسَبُها (تنبيهاً)[2] من الرحمن جل ثناؤه[3]، أو ينفي خطرة من التنبيه على الخير يحسبها من تسويل النفس أو تزيين الشيطان، فلن يميز بين ذلك ولا يعرفه إلاَّ بالعلم والتثبت بالعقل، ومثل ذلك: كمن هو في ظلمة شديدة في الطريق مخوفة من الآبار والزلل في المطر الوابل، فلن ينفعه بصره بغير سراج ولن ينفعه السراج إن لم يكن له بصر صحيح، ولن ينفعه البصر والسراج إن لم يرم بصره حيث يضع قدمه ويتثبَّت، فإن نظر إلى السماء أو التفتَ وناظره[4] صحيح وسراجه يزهر (ولم يرم بطرفه إلى الأرض)[5] كان كمن لا بصر له ولا سراج معه، وإن هو رمى بطرفه نحو الأرض ولا سراج معه، كان كمن لا بصر له. فمثل البصر الصحيح: كمثل العقل، ومثل السراج: كمثل العلم، ومثل النظر بالتثبت: مثل التثبت بالعقل. والاستضاءة بالعلم وعرض ما يخطر على الكتاب والسُّنّة. وليس في أكثر ذلك طولُ مكث لمن علم أنه (إنما)[6] يراد منه أن يكون حَذِراً. فإذا سَنحت الخطرة بالاعتراض عرفها في مثل لمح البصر. للعلم المتأصل في قلبه إذ يَقَّظَهُ الحذرُ لذلك. حتىٰ يأتي الشيء الذي يلتبس عليه ويشتبه فعند ذلك يمكث حتى يعْلَم. فإن لم يكن له علم فعليه التمكّث وإن طال ذلك حتى يعلم: أيُرْضي الله عزَّ وجل قبولُ ما عرض من دواعي قلبه أو يُسْخطهُ. لا يسعه إلاَّ ذلك.

---

(١) سقطت من ط.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ا.

(٣) في ط: جل وعز.

(٤) في ط: ونظره.

(٥ - ٦) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

باب صفة الراغبين[١] لحقوق الله تعالى
في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح
على قدر منازل اهل القوة والضعف

والراعون لحقوق الله عزّ وجلّ في منازل شتى، وقد ينتقل كل راعٍ منهم في تلك المنازل على قدر قوته وضعفه.

فأول منزلة من الرعاية ـ وأهلها اقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عزَّ وجلَّ ـ الرعاية عند الخطرات، بعد اعتقاد جمل حقوق الله تعالى[٢]، فلا تخطر بقلبه خطرةٌ من أعمال قلبه إلاَّ جعل الكتابَ والسُّنَّةَ دليلين عليها[٣]، فلم يقبلها باعتقاد الضمير، و (لا)[٤] يتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التمني وغيره، إلاّ أن يَشْهَدَ له العلمُ أن الله تعالى قد أمر بها وندب إليها، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها وإرادته[٥] فيها.

فإنه قد يقبل الخطرة يرى انها داعية إلى سنَّة وهي بدعة. وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية، وقد يرى انها داعية إلى خير وهي شر، كالخطرة تدعو إلى الاخلاص بترك العمل. وإلى التنزه عن الخلق بالكبر[٦]. وإلى الرجاء على العمل بالعجب والغرَّة. والى المنافسة بالحسد، وإلى الغضب لله تعالى بتمنّي البلاء في الدين والدنيا للمسلمين. واعتقاد استحلال ما حرم الله عزّ وجلَّ منهم. ونحو ذلك من

---

(١) في ط: باب منازل أهل الرعاية لحقوق الله عز وجل...

(٢) هنا وفي بقية الباب: الله عز وجل في ط.

(٣) وقد بنى المرشدون مناهجهم على هذه القاعدة، ولاسيا الشاذلية، وهذه القاعدة تحمي السالكين من الشطحات التي لا تؤيدها نصوص الكتاب والسنة.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٥) في ط: وإرادتها فيها.

(٦) في ط: بالفكر.

الخطرات، أو إلى القَدر بالتنزيه[1] لله تعالى، وإلى رأي جَهْم بنفي التشبيه (لله تعالى)[2]، وإلى التشبيه: بنفي رأي جَهم، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد، وإلى الخروج بالسيف بالغضب لله تعالى[3]، أو إلى الإرجاء بتعظيم الأقدار، وتنزيه الإيمان من النقصان.

وقد تخطر الخطرة إلى بدعة في الجملة يحسَبها سُنَّة، ومما يدلّ على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطرت بها الخطرات (مما)[4] تدعوهم إلى بدعة عدوها سُنَّة، فكذلك أهل السُّنَّة: لن يَدَع العدوُّ أن يدعوهم إلى البِدَع[5] عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون، ولولا ذلك ما ابتدع أحَدٌ بدعة بعد اعتقاده للسُّنَّة في عبادة ولا غيرها، لأنه قد يدعوه العدو إلى الابتداع في زهده وفي رضائه وتوكله، فيخالف زهدَ[6] الأئمة المتقدمين وتوكلهم، ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السُّنة واعتقاده البدعة وهو يرى أنه سنة، كما اعتقد قوم الزهد في الدنيا بتضييع العيال، وبترك وجوب حق الوالدين، والتوكل بترك الاكتساب على (العيال)[7] والأهل والأولاد، والخروج في السفر بلا زاد، والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع بالمسلمين، وبتحريم الدوا[8] والدعاء، وترك التّمنّي أن المعاصي لم تكن، وبالاشتغال بالله عزّ وجلّ بترك الفرائض، وبترك النوافل، ودعوى البصائر، واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب من

---

(١) في ط: بتنزيه.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ومن هنا تظهر يقظة المحاسبي، وشمول منهجه لجميع نواحي المجتمع، ومحافظته على كيان الدولة. انظر رأيه في هذا الموضوع بتوسع في كتاب «المكاسب» الملحق بكتابه «المسائل في أعمال القلوب والجوارح».

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٥) في ا: إلى بدعة.

(٦) في ا: فيخالف هذه الأئمة.

(٧) سقطت من ط.

(٨) فصل المحاسبي هذا الموضوع في باب مستقل بهذا العنوان في كتابه «القصد والرجوع إلى الله» من تحقيقنا. ط دار التراث العربي.

القطع على ما في ضمائر الخلق وما يُسِرُّون ويكتمون. ويحَتجُّون في ذلكَ بآثار مثل قوله ﷺ: «المؤمن ينظر بنور الله»[1].

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار، والكتاب والمقاييس. ولكن يطول ذكرها، وإنما أردنا تحذيرَ جملتها، ليعرفها العالِمُ المتثبتُ بالكتاب والسُّنة.

وكذلك الخطراتُ التي تدعو[2] إلى تدين القلوب من غير عبادات بالأعمال. كالقدر ورأي جَهم، والرفض، والاعتزال، ونحوه. فلن يميِّز العبدُ بين ذلك وبين ما يحب[3] الله عزَّ وجلَّ من الأعمال والسنن، إلاَّ بشاهد العلم، بأن[4] الله عزَّ وجلَّ أمر بذلك أو ندب إليه وأذن فيه، ولا تخطر خطرة فينفيها، أو يحجب قلبه عنها إلا أن يشهد له العلمُ أن الله عزَّ وجلَّ قد نهى عنها وَذَمَّها بسببها وعللها وأوقاتها.

فإنه قد تخطر بقلب العبد الخطرةُ داعيةً إلى خير فينفيه، وهو يحسب أنها شر، وقد تدعو إلى سُنَّة فينفيها، وهو يحسب أنها بدعة يزينها له عدوُّه. ومما يدلك[5] على ذلك: أن قلوب أهل البدع إذا خطرت بها خطرة تبعثهم على اعتقاد السُّنة نفوها وحسبوها بدعة[6]، ولن يدع العدو أن يدعو العبدَ المريد إلى نفي خطرات

(١) نظر المؤمن بنور الله حقيقة، ولكنها لا تصلح حجة على الناس، فالشريعة أن الحجة لا بد أن تكون ظاهرة. والحديث أخرجه: الترمذي بلفظ: «إتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله». وقال الترمذي: غريب.

وأخرجه العسكري في الأمثال عن أبي سعيد الخدري. والهروي، والطبراني، وأبو نعيم في الطب النبوي، عن أبي أمامة. وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة. وأخرجه أيضا القضاعي في الشهاب عن أبي أمامة. أنظر: (المقاصد الحسنة ١٩، اللباب في شرح الشهاب ١١٦، سنن الترمذي، تفسير سورة ١٩، ١٦.

(٢) في ا: تعود.

(٣) في ط: ما أحب.

(٤) في ط: لأن الله.

(٥) في ط: ومما يدل.

(٦) وهكذا يكشف الإمام المحاسبي عن ميزان واضح لمعرفة المبتدعين، وهو أن كل من أكثر من إطلاق لفظ البدعة على أعمال الخير فهو المبتدع، وهذا لا يحصر الابتداع في هؤلاء وحدهم بالطبع.

التنبيه على الخير والشر لئلا يقلبها، لأن على العباد وإن أرادوا الله عزَّ وجلَّ، أن يصيبوا الحقَّ بذلك.

وقد ذمَّ الله عزَّ وجلَّ، قوماً ولم يعذرهم بأن رأوا أن الشرَّ خير والخير شر، فقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾ (١).

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً﴾ (٢).

وقال حذيفة رضي الله عنه لرجل سأله عن الرجل: يقاتل يريد وجه الله عزَّ وجلَّ، فَيُقْتَلُ، ولم يوفق للحق، فقال: «ليدخلن النار ممن يقتل أكثر من كذا وكذا، ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجلَّ فأصاب الحق فهو في سبيل الله».

ومن لم يوفق للحق، ولم يوفق للخير، وكذلك الذي ينفي خطرات من الخير يحسَبها سواءً، ولا يميز بين ذلك إلا بشاهد العلم من الكتاب والسُّنة (وإجماع العلماء)(٣)، وإذا تبين له بشاهد العلم إحدى الخطرتين، أنها أحبَّ الله عز وجلَّ من عمل قلب أو اعتقاد سُنة قَبلَها وَعَزَمَ عليها.

وإن تبَيّن له بشاهد العلم أنها مما كره الله عزَّ وجلَّ أو ذمه في كتاب الله عزّ وجلّ، أو في سنَّة النبي ﷺ، أو اجتمعت عليه العلماء نفاها عن قلبه وحجب قلبه عنها.

فإن لم يتبيّن له عند إحدى الخطرتين ما هي، أهي مما أحبّ الله عزّ وجلّ، أو مما كره الله تعالى وقف وتثبت ابتداءً، أو يشهد العلم له بأحد الأمرين، فيقبل أو

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

ينفي، وهو في فسحة حتى يتبين (له)[1] بالنظر بقلبه (وعلمه)[2] أو بسؤال العلماء إن كان مما لا يبلغه علمه. فإنه إن لم يفعل ذلك لم آمن عليه أن يضلّ بغير دليل، فيعتقد الشرّ ويحسب أنه خير أو ينفي الخير ويحسب أنه شرّ، ويعرف الشرّ ثم يعتقده، أو يعرف الخير ثم يجانبه، ولو تبين ذلك لم آمن لك عليه أيضاً.

فإذا فعل ذلك فقد رَعَى حقوق الله تعالى في (قلبه، ثم يرعى حقوق الله تعالى)[3] في جوارحه، فلا يخطر بقلبه خطرةٌ تدعو إلى القول بلسانه، فيعتقد الهمّ[4] بها، ولا يأذن للسانه أن ينطق بها، حتى يتبين له في العلم والكتاب والسُّنة، أو في إجماع الأمّة أن الله عزّ وجل، أمر بها أو ندب إليها وأباحها، وكذلك الداعي إلى الاستماع إلى صوت من الأصوات فيعتقد الهمّ إلى الإصغاء إلى ذلك الصوت، إلى أن يتبين له في العلم أن الله عزّ وجلّ، قد أذن في ذلك أو ندب إليه أو أباحه[5].

ألا ترى إلى ما جاء في الحديث عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه مرَّ بزمّارة راعٍ، فوضع أصبعيه في أذنيه، وعدل عن الطريق، حتى قيل له: إن الصوت قد انقطع. فمنع سمعه، فلما يأذن له فيما كره الله عزَّ وجل[6].

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة، لم يعتقد الهمَّ[7] بها (فإن فجأته)[8] لم يدع بصره يتردد في النظر إليها إن كانت نظرة فجأة، حتى يعلم أن الله عزّ وجلّ، قد أمر بها أو ندب إليها أو أباحها، وكذلك يداه: لا يعتقد الهمَّ[9]

(١، ٢، ٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٤) في ا: معتقداً فيهم.

(٥) أنظر باب نظر الفجأة من [المسائل في أعمال القلوب والجوارح] ففيه تفصيل للمحظور والمباح من هذا الموضوع ودسائس النفس فيه.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٨/٢، ٣٨، أنظره أيضاً في ترجمته من سير السلف للحافظ إسماعيل الأصبهاني.

(٧) في ط: يعقد الهم.

(٨) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٩) في ط: يعتقد الهم.

ببطشهما وحركاتهما، ولا يخلّي بينهما وبين البطش، وكذلك الرِّجلان لا يخلي بينهما وبين المشي [١] حتى يعلم أن الله عزَّ وجلَّ، قد أمر بها أو ندب إليها أو أباحها، في كتاب أو سنَّة أو في إجماع الأمة.

باب ما يبدأ به من الفرائض

قلت: فإذا رعيت حقّ الله عزّ وجل. عند الخطرات التي تدعو إلى اعتقاد ضمير [٢] القلوب، والخطرات التي تدعو إلى الهمِّ بحركات الجوارح وسكونها، فما تخاف عليَّ بعد ذلك؟ وهل يجب عليَّ غيرُ ذلك؟.

قال: نعم: إن الله عزَّ وجلّ، أوجب فرائضه في كتابه نصًّا في التلاوة (وفي سنة نبيه ﷺ) [٣] وكثير من نص التلاوة مجمل بالفرض، يحتاج إلى التفسير بما في سنة النبي ﷺ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض إذا اجتمع الفرضان، وفرض فرضاً له وقت يفوت، إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدَّى كان العبد عاصياً لربه (إذ لم يؤده في وقته) [٤]، وفرض فرضاً له وقتان، فمن أدَّاه في أول وقته كان ذلك أفضل عليه، وإن أدّاه في الوقت الثاني لم يكن مأزوراً. وأوجب الله عزَّ وجل أن لا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب به إليه. فعليك وعلى العباد أن لا يؤخروا من فرضه ما أوجب أن يُبدَأ به، ولا يقدّموا ما أمر أن يؤخّر بعد غيره من الفرض، ولا يتركوا فرضاً لطلب قربة بنافلة ولا غيرها.

قلت [٥]: بيِّنْ لي كيف ذلك كله، ما الذي أبدأ به من الفروض إذا حلت

---

(١) في ا: لا يمسك فيهما عما أمسك الدين.

(٢) في ط: عقد ضمير.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٥) كان في ط عنوان: باب ما يبتدأ به من أداء الفروض وترتيبها في الأداء والوجوب وهو مؤخر عن مكانه.

جميعاً؟ وما الذي أؤخره منها؟ وما الذي له وقت يفوت، والذي لا يفوت وقته؟.

قال: إذا أوجب عليك فرضين، فابدأ بأوجبهما عليك في الكتاب والسنَّة، وإن حضر وقتهما جميعاً. كحاجة الوالدة والوالد. فابدأ بحاجة الوالدة، وإنما (مثلت)[1] هذا المثال[2] في الوالدين (لئلا)[3] يطول[4] تفسير (كل)[5] شيء من ذلك فقس على هذا المثال ما أَشْبَهَهُ[6] من ذلك. فليبدأ العبد بحاجة والدته، لأن برّها مقدّم في سُنَّة النبي ﷺ، واجتماع العلماء على تقديمها في البرّ والطاعة على الوالد، وكذلك إن لم يكن له والدة ولا والد، وكانت له قرابة فأصابتهم خلة أو حاجة مما يلزم (إزالته)[7] أو صلتهم[8]، ولم تقدر أن توسعهم فابدأ بالأقرب فالأقرب.

وبذلك جاءت السُّنّة في الوالـدين والقرابة، حين سئل النبي ﷺ. فقال له السائل: «يا رسول الله من أبر؟ قال أمَّك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أباك، قال: ثم من، قال: أدناك فأدناك»[9].

وكذلك كل ذي رحم محرم تبدأ به قبل من ليس بمحرم، فإن استووا في

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في ط: هذا مثال.

(٣) سقطت من ط.

(٤) في ط: ويطول.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٦) في ط: فهذا مثال لما أشبهه.

(٧) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٨) في ط: مما يلزم فيه صلتهم.

(٩) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب الأول من كتاب البر. والبخاري في صحيحه، الكتاب الثاني من كتاب الأدب. ومسلم في صحيحه، الحديث الأول من كتاب البر. وأبو داود في سننه، الباب ١٢٠ من كتاب الأدب، وإبن ماجه في سننه، الباب الأول من كتاب الأدب. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/٥، ٥. والبيهقي في الآداب. تحت الطبع. دار الكتب العلمية. بيروت.

القرابة فابدأ بأحوجهم، إلاّ أن تكون واسعاً لهم أجمعين فتعـمّهم (حينئذ)[1] بالبرّ والصلة[2]).

وكذلك إن كان عليه نذر إن قدم من سفر سالماً، أو برىء من مرضه أن يبدأ من أول يوم يفعلُ الله ذلك به فيصوم شهراً، فبرىء من مرضه أو قدم من سفره في أول يوم من رمضان، كان صوم رمضان وتأخير صيام النذر واجباً، وكذلك إن وافق يوم قدومه أو برئه يومَ عيد لم يصم، لأن اتباع السنّة في الإفطار أولى به، وكذلك لو ملك العبد ما يحج به وليس له ما يخلّف لوالديه أو أحدهما أو أهله وولده إذا كانوا لا يقدرون على ما يقوتهم، أقام وآثر الإنفاق عليهم[3] على الحج، وكان هذا أوْجَبَ عليه في السُّنة وعند علماء الأمة، وكذلك الميعاد يكون على العبد فيحضر وقتُ الجمعة، أو آخر وقت صلاة من الصلوات الخمس فليبدأ بصلاة التي يخاف فَواتها قبل الميعاد، وإن ضيَّعه[4] فليس بمضيع له لأنه بدأ بما هو أوجب منه، لأن المسلمين قد أجمعوا على أنهم إنما يتواعدون على غير ترك الصلاة المفترضة، وإن لم يتكلموا به، فذلك عقد قلوبهم، أو يحضر الجمعة في آخر وقتها، أو آخرُ وقت صلاة من الصلوات الخمس، ويريد الولدان حاجة ليس في تركها عطبهما، إلاّ أنها تَرَفّقٌ بهما، ويسخطان من تركها (وتأخيرها)[5] فليبدأ بالجمعة والصلاة المفروضة إذا كانت الجمعة يعلم أنه فائتة، أو كطلوع الشمس لصلاة الغداة، أو كغروبها للعصر.

وكذلك كلّ فرض: لا يجوز له أن يضيّعه لطاعتها وبرّهما إلاّ أن يخاف عطبهما، فقد اختلف في بعض الفروض عند ذلك. ألا ترى أن النبي ﷺ يقول:

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) وهكذا يضع المحاسبي أصول فقه السلوك التي لم يعن فقهاء الشريعة بالتبويب له.

(٣) سقطت من أ.

(٤) أي: الميعاد.

(٥) ما بين المعقوفتين: أسقطت من ط.

« لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق »[1].

وكذلك يفرض له الحجّ، وعنده ما يحجّ به، وعليه دين يخرج عليه صاحبه ويحبسه[2] فلا يخرج؛ فليؤدّ إليه حقه، وإن كان له غير ذلك من العروض والعقارات فليبعه وليخرج به، وكذلك يكون عليه الدين يخرج عليه صاحبه. فيخاف أن يجوع والده وعياله، فليبدأ بقضاء الدين. ويحسن التوكّل على[3] الله عز وجل في عياله. وليس بمضيّع لهم. ولكن مؤثراً واجباً على واجب هو أوجب منه، لأنه الله عز وجل أمر أن تؤدى الحقوق إلى أهلها. وقال النبي ﷺ « مَطْل الغنى ظلم »[4].

وكذلك لو نهاه والداه عن قضاء دينه لم يكن له طاعتهما، إذا كان صاحبهُ قد خرج عليه، أورد مظلمة قد خرج عليه في حبسها.

فإن بدأ بغير هذا الذي كتَبت له من هذه الأشياء أو ما أشبهها، فقد خرج وضيَّع، لأنه قدم ما أخر الله، وأخر ما قدّم الله، ولا يتقرب إلى الله تعالى بخلاف ما أمر به.

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب الأول من كتاب الآحاد. ومسلم في صحيحه، الحديث ٣٩ من كتاب الإمارة. وأبو داود في سننه، الباب ٨٧ من كتاب الجهاد. والنسائي في سننه، الباب ٣٤ من كتاب البيعة. وإبن ماجه في سننه، الباب ٤٠ من كتاب الجهاد. والإمام أحمد في المسند ١/٩٤، ١٠٩، ٣/٦٧، ٢١٣، ٤/٤٢٦، ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٣٦، ٥/٦٦، ٦٧، ٧٠.
وأخرجه أيضا القضاعي في الشهاب، والحاكم في المستدرك عن عمران بن حصين.

(٢) في أ: في حبسه.

(٣) إحسان التوكل على الله هو: قطع النظر عن غير الله تعالى بالقلب وبالضمير، وعدم تعليق الرزق على السبب مع القيام به أنظر تفاصيل هذا الموضوع في باب التوكل من « المسائل في أعمال القلوب والجوارح » و « القصد الرجوع إلى الله » للمحاسبي، وكذلك انظر باب الفصول الأربعة من كتاب « الأمد الأقصى » للقاضي أبي زيد الدبوس. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت.

(٤) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب الأول والثاني من كتاب الحوالات، والباب ١٢ من كتاب الإستقراض. ومسلم في صحيحه، الحديث ٣٣ من المساقات. وأبو داود في سننه، الباب ٦٨ من

وكذلك إن وجب عليهِ فرض قد حضر وقتهُ بدأ به ما لم يحضر وقتهُ من الفروض، وذلك كالرجل يريد الحجّ في وقت فيه سعة من الأيام، فيأمره والده أن يقيم إلى آخر الوقت للحجّ، أو كصلاة (الجمعة أو غيرها)[1] قبل أن يأتي الوقت المضيّق عليه أن يجوزه، فليطعهما ويبدأ بحاجتهما حتى يأتي الوقت المضيّق عليه فَوْتـه.

كذلك جنازة القرابة تحضر يخاف فواتها، فليبدأ بها، وكذلك الميعادُ يكون عليه قبل أن يخاف فوات الحج أو الصلاة فليبدأ بميعاده.

وكذلك يكون عليه الميعادان، أحدهما لـوقـت معلـوم مـن النهـار، والآخـر لا وقت له معلوما من النهار من الأيام، كقوله: آتيك اليوم أو الليلة، أو: أتيك ولا يذكر وقتاً، فليبدأ بالذي له الوقت المعلوم.

وكذلك تفوته الصلاة المفروضة بنسيان أو نوم أو تفريط، ويحضر وقت صلاة أخرى، فليبدأ بالفائتة إلا أن يخاف فوات الداخلة فيبدأ بالداخلة، ولا يضيّعها كما ضيَّع الأخرى، وفي ذلك اختلاف، إذا خاف فواتها وما لم يخف فوات الداخلة.

فمجتمع عليه أن يبدأ بالأولى، وكذلك أن يَعِدَ مِيعاداً وعليه ميعاد آخرُ قبله، وهو ناس للأول، ثم يذكره، فليبدأ بالأول ويؤخر الآخر، لأن الله عزَّ وجلَّ، فرض فرائضه، فبدأ بالغداة قبل الظهر، والظهر قبل العصر، وكثير من فرائضه كذلك.

ومن ذلك قول أبي بكر رضي الله عنه في وصيته لعمر رضي الله عنه: «اعلم أن الله عـز وجل عملا بالليل لا يقبله بالنهار، وعملا بالنهار لا يقبله بالليل»، فأوصاه

= كتاب البيوع. والنسائي في سننه، الباب ١٠٠، ١٠١ من كتاب البيوع. وإبن ماجه في سننه، الباب ٨ من كتاب الصدقات، والباب ٨٤ من كتاب البيوع. وتمامه عندهم: «... فإذا ما اتبع أحد على مليء فليتبع».

وأخرجه أيضاً الدارمي في مسنده، الباب ٤٨ من كتاب البيوع. والإمام أحمد في المسند ٢/٧١، ٢٤٥، ٢٥٤، ٢٦٠، ٣١٥، ٣٧٧، ٣٨٠، ٤٦٣ : ٤٦٥. وأخرجه أيضاً القضاعي في الشهاب عن عمران بن حصين ص ٨. وأورده السخاوي في المقاصد الحسنة ٣٨٨.

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

أن يقدم ما قدّم الله عز وجل من الفروض، ويؤخّر ما أخر الله منها، وذلك على ما وصفتُ (لك)[1].

وإذا كان في فرض فحضر فرضٌ دونَه، فَلْيُتِمَّ ما هو فيه ولا يقطعه، وذلك كالجمعة يدخل مع الإمام فيها، أو صلاة الغداة في آخر وقتها، فَيُدْعَى لجنازة قرابة فلا يقطعها لذلك، وليتم ما بقي منها ونحو ذلك (وقد اختلف في بعض ذلك)[2] وكذلك إذا كان في الحجّ المفروض مُحْرماً به، فكتب إليه والداه ألا تقيم ساعة، فليتمَّه ولا يخرج منه.

وقد يَعْرِضُ الواجبُ فيؤدِّيه بالاستعانة بالمعاصي. كاكتساب الحرام والشبهة المجمع على تركها، يريد بذلك غداء عياله، وأداء ما وجب عليه من حقهم. كذلك الولدان يهجرهما أو أحدهما إذا آذيا أهله أو ظلماها. يريد بذلك أداء حق أهله[3]. ولعله (أن)[4] يتأول فيقول: امرأتي أسيرة في يدي وقد أوصيت بها. وكذلك أهله يضر بها أو يضيعها. أو يشتمها بغير حق يريد بذلك رضاء والديه.

فعليه ألا يفعل شيئاً من ذلك، فإن فعل فقد قام بواجب [مستعيناً] بمعصية الله عز وجل، وهو حقيق ألا يُتَقَبَّل منه ذلك، وأن يغضب الله عز وجل عليه.

وكذلك يضرب ولده لأهله، يريد أداء ما وجب عليه لها، وكذلك يأمر بالمعروف لقرابة أو غيرهم بالقذف والشتم والضرب الذي لا يحل له، يظن أن ذلك غضبٌ لله عز وجل.

وكذلك يطيع والديه في قطع رحم. وكذلك في النظافة والطهارة للصلاة، يصيبه القذر، أو يخاف أن يكون أصابه فيضجر، فيشتم الوالدين أو الأهل أو الخادم، أو يضربها بما لا يحل به، يظن أن ذلك غضبٌ للدِّين.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من أ.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ومنه الاستعانة بآلات الطرب على الحضور في ذكر الله تعالى. فهي عادة نشأت في عصور متأخرة اكتملت عند المولوية والبكتاشية. وهما طريقتان منحرفتان عن السنن القويم.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وإن كان في فرض فعرض له فرض أوجب منه قطَعَهُ بعدما يدخل[١] فيه (بقلبه)[٢] كالصلاة يدخل فيها في أول وقتها أو أوسطِه، ثم يذكر أن عليه صلاة فائتة فلْيقطعها (وليصل الفائتة، ثم يصلي هذه الصلاة التي قد بقي لها وقت)[٣] وقد رأى بعضهم إتمامها، ولا يحتسب بها، وشبّهها بالحجّ الفاسد يمضي فيه ثم يقضيه من عام قابل وذلك لا يشبه الحجّ، لأن الحجّ لا يمكنه في عامه أن يعيده والإحرام لازم له ليس كعقد الصلاة.

وكذلك إن كان جالساً لميعاد ثم ذكر أن عليه صلاة فائتة؛ فإنه يترك الميعاد ويبدأ[٤] بالصلاة الفائتة إذا خشي فوتَ الصلاة (الثانية)[٥] الداخلة قبل أن يقضي الفائتة، كالعصر تفوته فخشي أن تغيب الشمس، وأشباه ذلك.

وكذلك إن حرَّج عليه والداه أن لا يخرج عن بلدهم، فيحضر النفير [للحرب] لظهور المشركين على المسلمين، وليس في وجوههم من يقوم بقتالهم فعليه الخروج. وترك المُقَامِ.

وكذلك الصلاة يدخل فيها في أول وقتها، فيرى رجلا قد أضجع للقتل ظلماً، أو امرأة مستكرهة [على الزنى]، وهو يقوى على أن يغير ذلك، فليغير ذلك وليقطع الصلاة ما لم يخف فواتها.

وقد اختلف العلماء إذا خالف فواتها، وكذلك إن أصبح صائماً من نذر واجب، فتبيَّن له أنه يومُ عيد أفطر، وكذلك إن كانت امرأةٌ صائمة من نذر، فحاضت أو دخلت في صلاة مفترضة فحاضت (وهي لم تتمها)[٦] قطعت الصلاة (والصوم)[٧] وأفطرت (ولم تتم)[٨].

---

(١) في ط: بعد ما يحل فيه.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٤) في ا: ويقوم.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٦) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٧ - ٨) سقطت من ط.

وقد يطلب العبدُ الورعَ والنوافل، فيضيع الفريضة وهو لم يتـمّها، وقد يطلب العبد الورعَ بتضييع الواجب بترك المال وهو حلال غلطاً، خشية ألا يحل له أخذه، و[يترك] الصناعة والتجارة والميراث الحلال، يريد بذلك السلامة فيضيّع العيال، فيجيعهم ويعريهم، ويسخط عليه الولدان ويضيّعها وهو يقدر على المال أو العمل الحلال.

وكذلك يدع الحجّ مخافة أن يكون خالط ماله حرام من غير أن يعرف شيئاً يعينه فيه، وكذلك أن يخرج من البلدة يخاف ألا يسلم فيها فيسخط عليه والداه ويضيّع عياله.

وقد يضيّع الفرض للوسوسة تعرض من الشيطان، فيدع الفرض إرادة أن يؤديه على ما أمر، ومخافة أن لا يجزيه أداؤه إلا بذلك، يحسَب أن ذلك عليه هو الواجب، فيكثر الوضوء ويطيله، حتى يذهب وقت الصلاة كطلوع الشمس لصلاة الفجر، أو كفوت الجمعة، وكذلك في الغسل من الجنابة، أو يشتغل بالاستبراء، ويرى أن ذلك واجب عليه، وأنه لا يجزئه إلا ذلك ويتشاغل بذلك حتى تخرج أوقات الصلوات، فيضيّع الفرض بطلب إقامة الفرض غلطاً ووسواساً. وكذلك يتشاغل بإعادة التكبير. أو يقطع الصلاة قبل أن تتم، يعيدها مراراً، أو يضيق الصدر منه على التكبير حتى تذهب أوقات الصلاة، أو يؤخر أوقات الصلاة كالعصر وغيرها ويسفر بالفجر يريد بذلك القدوة بمن تأول غلطاً. حتى يذهب وقتها الذي جعل النبي ﷺ آخر وقتها.

باب شرح ما يبتدأ به من أداء الفرائض

وقد يعرض للرجل الواجبُ في الكتاب أو في السُّنّة، وقد رخص له في تركه من أجل علة عرضت، لا يجوز أن يأتيه من أجلها، فيأتيه يريد بذلك أداء الواجب، ويضيّع ما هو أولى به، كالدار الغصب فيها وليمةٌ أو قرابة فيدخلها بغير إذن ربّها يريد بذلك البرّ، أو يسكنها يريد بذل برَّ القرابة، أو الوليمة [يكون]

فيها المنكر، فيأتيها إرادة (قصد)[1] واجب حقّ المسلمين، ولعله أن يتأول في ذلك يقول لا أدع حقاً لباطل، فيترك ما هو أولى به ويأتي ما كُره له، وإنما أمر بأداء الحقّ بالحقّ، فأما بتضييع ما هو أوجب عليه منه[2] فلا يجوز له ذلك.

وقد تعرض للعبد العلة التي لا يجوز أداء الفرض بمثلها لولا العذرُ الذي رخص له من أجله، كالبول الذي يستمرّ به نزوله، والدم أو [انطلاق] البطن، فيدع الصلاة حتى يخرج وقتها يريد بذلك أداءَ الفرض بالطهارة، فيدع الفرضَ ويضيعه وعلماء الأمّة مجمعة على الرخصة له بأن يتوضّأ لكل صلاة ويصلي، وإن سأل، وأمر النبي ﷺ المستحاضة بذلك.

وكذلك فعل عمر رضي الله عنه، حين طعن، صلى وجرحه يثعب دماً، وزيد ابن ثابت استمرّ به البول، فكان يتوضأ ويرسل البول. (أو يمرض فلا يمكنه الصلاة قائماً ولا يمكنه قاعداً)[3]، أو لا يمكنه أن يسجد على الأرض فيدع الصلاة انتظاراً للعافية حتى يخرج وقتها، أو رجاء أن يخف ما به، وذلك كالصداع وغيره حتى يمكنه (الصلاة إذا ذهب أو خف)[4]، والأمّة مجمعة أن عليه أن يصلي كما أمكنه، وقد جحشت ساق النبي ﷺ فصلى جالساً[5]، ومرض ﷺ فصلى جالساً يوم توفي وأبو بكر إلى جنبه[6].

---

(١) سقطت من: ط.

(٢) في ط: ما أوجب الله عز وجل عليه.

(٣) ما بين الحاصرتين: جاء في ط. بعد قوله: يتعب دما خطأ.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٥) أخرج الحديث: البخاري في صحيحه، الباب ٥١، ٨٢ من كتاب الآذان، والباب ١٨ من كتاب الصلاة، والباب ١٧ من كتاب التقصير. ومسلم، حـ ٧٧: ٨١ من كتاب الصلاة. وأبو داود، الباب ٦٨ من كتاب الصلاة. والترمذي، الباب ١٥٠ من كتاب الصلاة. والنسائي في سننه، الباب ٤٠ من كتبا الإمامة ومالك في الموطأ، حـ ١٦ من كتاب الجماعة. والدارمي في مسنده، الباب ٤٤ من كتاب الصلاة. والإمام أحمد في المسند ٣/١١٠، ١٦٢.

(٦) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٥١ من كتاب الآذان، والباب ٢٠ من كتاب التقصير. ومسلم =

وقد يعرض للعبد الفرض فيقوم به فيضيّع ما هو أوجب منه، كالصوم في السفر أو الصوم في المرض، حتى لا يقدر أن يصلي إلاّ قاعداً أو مضطجعاً، ولو أفطر لأمكنه أن يصلي قائماً، وقد يصوم في السفر أو في المرض حتى يضجر ويخرج إلى ما لا يحل له من الكلام وغيره.

وقد يجب على العبد الفرض، فيؤدّيه لإرادة الدنيا، يرى أن ذلك يجزئه، وأن ذلك أولى به جهلا وغلطا كالزكاة تجب عليه فيعطيها فقيراً قد لزمه ذمامةُ لا بد له من مكافأته (لما وجب عليه ولزمه)[1] فيفي ماله بحقّ الله جلّ وعزّ، كاليد اصطنعها إليه، أو عمل له عملا على غير أجرة مسماة، كالرجل يخدمة أو يقوم بحوائجه، أو المرأة الفقيرة ترضع له أو تخدم أهله أو تلطفهم بالبرّ، فقد ألزم نفسَه مكافأته، فيعطيه الزكاة لتسقط عنه مكافأتهُ، ولعله يترك من هو أولى منه أن يعطيه، أو الرجل يخاف لسانهَ إن لم يعطه، أو يرجو حمده فيعطيه فيكثر له، ويمنع من هو أحوج منه، والله عزَّ وجلَّ، يقول:

﴿يُؤْتِي مَالَهُ يَتزَكَّى وَمَا لأحَدٍ عِنْدَهُ من نِعْمَةٍ تُجْزَى[2]...﴾.

وقال جلّ وعزّ وعلا: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكْوةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ[3]﴾.

وكذلك الوصية يوصي بها إليه في وجوه البرّ، مثل ابن السبيل والفقير أو غيرهما، فيخصّ بها إلى ذوي الأيادي عنده، ومن لزمه ذمامه، ومن يخاف لسانه، أو يرجو مكافأته أو حمده، ويدع من هو أولى به، فيدع أن يضعه كما أمر به صاحبه، أو يغش الميت في وصيته ويعمل في منفعة نفسه فيما أوصى إليه به.

= في صحيحه، حـ ١١٤، ١١٦، ١٢٦ من كتاب المسافرين. وإبن ماجه في سننه، الباب ٢٨ من كتاب الزهد. والدارمي في مسنده، الباب ٤٤ من كتاب الصلاة. وأحمد بن حنبل في المسند ٦/١١٤، ١٦٩، ٢٧٤.

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) سورة، الليل، الآية: ١٨.

(٣) سورة الروم، الآية: ٢٩.

وقد يجب عليه الشيء فيؤديه، ورغبته أن يزداد لنفسه بعد أداء ما وجب عليه، فيرى أن الازدياد من ذلك هو الواجب، فيضيّع كثيراً مما يجب عليه لذلك، ويعتل بالفرض وقد أدّى الفرضَ، وإنما يعمل في رغبة الدنيا، كالعيال يكتسب لهم ما يغذوهم حتى يكون عنده ما يكفيه الأيام والشهور والسنين، فإذا عرضت له حاجة قرابة، أو جار يستيقن فقره وجوعه، أو غريب منقطع به، أو جنازة قرابة قال: الفرض وأداء الوجب أولى به، يعني الاشتغال بالاكتساب للعيال[1]. أو إمساك ما عنده من مواساة من يجب عليه. ويقول: قال النبي ﷺ: «ابْدَأ بمن تعول»[2]: ويرى أن ذلك أولى به. فقد قام بما زعم أنه يجب عليه إذ كان عندها ما يكفيهم. وإنما يعتل من أجل البخل أو الكسل، أو يكون جاهلا وغالطاً، ومع ذلك فإن الاكتساب على العيال مختَلَف في وجوبه.

وقد يطلب العبد التطوع بتضييع الواجب، وأولى به أداءُ الواجبِ وإن فاته التطوع كطلب الحديث وتضييع العيال والقرابة. فينفق في طلبه ويضيّع عياله وقرابتَه: وهم فقراء لا غنى بهم عنه. أو يعصي الوالدين في الخروج من بلدهما، أو تعرض بهما حاجة في بلدهما. فيدع حاجتهما فيسخطهما. ويغدو أو يروح في طلب الحديث (فيسخطهما)[3] أو يصحب في طلبه من قَـدْ أمر بمجانبته والإنكار عليه.

---

(١) انظر تفاصيل هذا الموضوع في الباب الأول من المكاسب للمحاسبي.

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ١٨ من كتاب الزكاة، والباب الثاني من كتاب النفقات. والترمذي في سننه، الباب ٣٨ من كتاب الزكاة، والباب ٣٢ من كتاب الزكاة. والنسائي في سننه، الباب ٥١ من كتاب الزكاة. والدارمي في مسنده، الباب ٢١، ٢٢ من كتاب الزكاة. وإبن المبارك في الزهد ٤١٠. والقضاعي في الشهاب عن أبي هريرة ١٠٩. والسخاوي في المقاصد الحسنة ٧. والإمام أحمد في مسنده ٢/٤، ١٥٢، ٢٣٠، ٢٤٥، ٢٧٨، ٢٨٥، ٣١٩، ٣٥٨، ٣٦٢، ٣٩٤، ٤٠٢، ٤٣٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٨٠، ٥٠١، ٥٢٤، ٥٢٧، ٣/٣٣٠، ٣٤٦، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٣٤، ٥/٣٦٢.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

أو من يعلم أنه لا يسلم معه في دينه في الغيبة (للناس)[1] وغيرها. أو كخروجه إلى الحجّ تطوعاً أو الغزوِ بتضييع عياله أو بسخط الوالدين، أو المبيت على الذكر بعصيان الوالدين وكإعطاء الغزاة والحجاج المال، والإنفاق على الإخوان أو الجيران، أو الصدقة بتضييع حقٍّ من يلزمه حقّه.

فإن لم يكن يملك إلا ذلك فقد ضيّع واجباً من حق الله عز وجل. وإن كان يملك سوى ما ينفق في ذلك فقد ترك ما هو أولى به وأنفق فيما لا يجب عليه وترك ما يجب عليه. وكتركه أداء المظلمة تكون عليه ومظلمة الدين عليه ولا يقضيه مَن قد ضيّق عليه فيه. وإنفاقه في طلب الحديث وسائر التطوع.

باب معرفة من يطلب النوافل

بالاستعانة بما يفسد عمله وما يلحقه من الآفات[2]

وقد يطلب العبد النوافل والقربة إلى الله عز وجلّ، بالاستعانة، بما لا يحل، كاكتسابه المال بالولاية والظلم والخيانة والرشوة، وكالمبايعة بالتجارات بما لا يحل له من الربا وما نهي عنه من المبايعة، وكالصناعة التي تكره كالتصاوير للصور أو كعمل الآنية من الذهب والفضة لمن يأكل ويشرب فيها، أو صنعة الملاهي وبيع السلاح والثياب السود من القلانيس وغيرها، وبيع الحرير من الرجال ويغزو بما يصيب من ذلك ويحج، ويعول القرابة ويتفضل على الإخوان، يريد بذلك التطوع، ويحتجّ في ذلك فيقول: أعول به عيالا صغاراً وقرابة مساكين وأوجهه لله عز وجلّ، في سبيل الخير، وقد عصى الله عز وجلّ، (في أكثره وبعضه مكروه فيما)[3]، يكتسب من ذلك، فآثر من ذلك تركُ ذلك، كما قال أبو الدرداء، رحمه الله،

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) العنوان سقطت منط.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

فيمن كسب مالا من غير حلّه، وأنفقه في غير حلّه، فآثر من ذلك[1] ألا يسلب اليتيمَ ويكسو الأرملة.

وإتيان السلطان الجائر وتعظيمه بما لا يحلّ. وتصديقه على الكذب ومجالسته على المنكر. يريد بذلك فيما يزعم أن يدرأ عن مظلوم أو يرد مظلمة. أو يأخذ لمسكين أو في وجوه البرّ. أو يحتسب ويطلب القضاء. أو يلي المظالم يريد بذلك التطوع والقربة وهو لا يسلم من جميع ذلك (ولا يتخلص من تبعاته)[2] فإن كانت نيته بما يقول صادقاً فقد غلط وجهل. يتقرب إلى الله عز وجل بما يباعده منه. وإن كانت نيته الاستكثار من الدنيا أو الرفعة بها. فقد جمع كذباً وغلطاً. أو كمن له ضيعة فيأتي السلاطين ويعظهم أو يداهنهم في المنكر. وكذلك يؤانس أهل البدع ويعظمهم ممن له الجاه عند السلطان أو له المال الكثير. يريد بذلك أن يستعين به على دفع مظلمة لغيرة أو عوناً لضعيف. أو يأخذ من الدراهم للفقراء.

وكذلك يحبّ في الله عزّ وجل الأخوان. فيغضب لغضبهم بغير حقّ، فيصارم من صارموا، ويعادي من عادَوْا، ويغتاب من يغتابون يريد بذلك فيما يخيَّل إليه القيامَ بالحب في الله تعالى. وقد عصى الله عزّ وجل وهو لا يشعر.

وكذلك يصوم تطوعاً في الحر وغيره. حتى يضجر وَيخرج منه إلى والديه وأهله أو خادمه ومن عامله ما لا يحلّ له. وإذا أفطر لم يفعل من ذلك شيئاً. وكذلك قد يقطعه هذا الصوم عن طلب المعاش الذي لا بد له منه. وقد اختلفوا في وجوب طلب المعاش. وقد كثرت هذه الفرقة من القراء بطلب النوافل فيما تزعم بترك الواجب (المفروض)[3].

وكذلك يتجوع ويقلّ المطعم. يتزهد يزعم بزعم. فيخرجه ذلك إلى ما لا يحل له من الضجر والعجز، ويقطعه من معاشه وعما هو أولى به من الطاعات التي ندب

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) في ط: فأبر من ذلك.

(٣) ومنه: «ليتها لم تزن ولم تتصدق».

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

الله عز وجل إليها، ولم يفرضها عليهم، أو يترك الاكتساب لأهله وولده ووالديه فيجوعون ويعرون، يريد بذلك التوكُّل على الله عز وجلّ - والاكتساب يمكنه - غلطاً وجهلا، فيطلب الفضل بترك ما هو أولى به، وقد يسخط عليه والداه لذلك ولا يبالي بسخطهما (ويضيعهما، ورضاهما وحفظهما أولى به وأقرب له من ربه عز وجل)[1].

باب ما يخاف على المريد في النوافل

من غير تضييع الواجب[2]

قلت: فهل يُخَافُ عليّ في النوافل، من غير تضييع الواجب، الغلط أيضاً)[3].

قال: نعم، إلا أنك لا تخرج في غلطتك في النوافل إلى مأثم، إلا أنك تغبن وتنقص.

قلت: فلا غنى بي عن معرفة ذلك فبيِّنه لي.

قال: (إنه)[4] قد يُخْدَع المريد أيضاً في البرّ الذي هو نافلة فيُزِيلُه العدوّ، وهوى النَّفس عن الفضل إلى النفس، فتستريح النفس إلى ما بينهما، أو يزيله العدو عن فضل ما بينهما نفاسة عليه بالفضل.

وقد يعرض له أمران: أحدهما أفضل من الآخر، وقتهما واحد، ويزيله العدو، والهوى عن أفضلهما إلى أدناهما، كعيادة أخ مريض وزيارة أخ صحيح، وحالهما سواء في الحبِّ والطاعة، فيبدأ بالزيارة ويدع العيادة، والعيادة أفضل؛ لأنها زيادة وعيادة، أو كالأخ المستقل بنفسه يوجود القوت وآخرٌ محتاجٌ، فيبدأ بالمستقل ويدع المحتاج، وكزيارة أخوين أحدهما أنفع له في دينه، والآخر أقَلّ منفعة وإن كان قد

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) العنوان سقط من ط.

(٣ - ٤) سقطت من ط.

يسلم معهما جميعاً، فيصدّه العدو عن المنفعة حسداً منه، والنفسُ تصدّه عن إتيانه خشية أن يستفيد ما ينغص عليها لذتها، ويحملها على ما يثقل على النفس وفيه الفضل، وكالدعاء للإخوان من الأغنياء على ألوان الأطعمة، يريد بذلك البرّ والأجرَ، وصلة الإخوان الفقراء، ووضعُه ما ينفق على الأغنياء فيهم أولى (به أن يضعه في الفقراء، وأفضل له)[1]، وكجنازة الغني والفقير فيؤثر الذهاب مع جنازة الغني لأيادٍ تقدمت، يريد أن يكافىء على أيادي الدنيا بالطاعة، ويرى أن ذلك أفضل، أو مداراة له أو مخافة لسانه، ويرى أن ذلك أولى به؛ والله أحقُّ أن يؤثر، فليأت الفقير إن كان أقرب جواراً، أو كان أفضلَ في الدين، أو ليس معها من يقوم بها، وربما آثر الذهابَ مع جنازة الغني بعد علمه أن الفقير أفضل لأثرة هواه، فقد ضيَّع ما هو أولى به (وأحث له على العمل)[2] على تعهد منه.

وقد يعرض له مجلسان لمحدِّثين أحدهما يحدِّث من الحديث بما هو أنفع في دينه وإتيانه أسلم من الخوض في الباطل[3]، فيأتي الذي هو أقَلّ منفعة وأقَلّ سلامةً له، والأولى[4] به طلب المنفعة والسلامة.

وكذلك طلب الحديث الذي قد سمعه مرَّة أو مراراً، يريد بذلك ليعرف الإسناد من وجوه عدة، ويعرض له جنازة، أو عيادة مريض، أو ذهابٌ في حاجة مع أخ مكروبٍ أو مضطر، أو ضعيف غريب، فيذهب إلى الحديث (يرى أن)[5] ذهابه إلى ذلك الحديث فضلٌ، والأولى به إتيان الجنازة، أو عيادةُ المريض، أو زيارة أخ يستفيد منه ما يزداد به خيراً، أو إغاثة الملهوف، لأنه إنما يطلب العلم لمثل هذه الخصال، فإذا تركها ففي ماذا يستعمل العلم؟ وليس يذهب إلى حديث هو به جاهل، أو قد سمعه مرَّة (أو مرتين)[6] أو مراراً، إلا أن يكون فيه زيادة علم

(١ ـ ٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٣) في ط: من الخوض معه.

(٤) في ط: وأولى به.

(٥ ـ ٦) سقطت من: ط.

يستفيده فهو يخاف فوته. فإن كان يستفيد بذهابه علماً ينهاه عن رديء. أو يدله على هدى فليذهب حينئذ فإن الذهاب إلى العلم أفضل.

باب معرفة ما يعرض للعبد من الافات

وتركه طلب العلم الذي هو به جاهل [1]

وقد يعرض الحديث الذي هو به جاهل وإليه محتاج: من فرض يؤديه، أو حرام هو به جاهل [2]، أو سُنَّة أو خير ينتفع به فيما يستقبل من عمره فيعرض له الحديث مع الإخوان والجلوس في المسجد، أو زيادة قرابة لا يخاف أن يكون في ترك زيارتهم حرج (إن تركها لأنه لم يطل العهد بهم) [3]، فيدع الحديثَ ويذهب إلى ذلك كله، ويقول: حتى نعمل بما نعلم، ويقول: قد ذهب حلاوة الحديث وهذا غلط، وأولى به أن يتعلم ما يجهل وما يعلم به أداء فرائضه، وتحريمَ ربّه جل وعلا، وَسُنَّةَ نبيه ﷺ.

وكذلك الصلاة تعرض له في موضعين، أحدهما: تلهي النفس بالنظر والاستماع إلى كلام يكون فيه، والآخر تسكن فيه الجوارح وينقطع فيه اللهو، (ويفرغ القلب) [4]، ويكثر منه [5] الفهم، فيصدّه النفسُ والعَدوُّ عن ذلك إلى ما هو أخف، فيصلي حيث يلهو ويسهو إما بغلط، يرى أن ذلك الموضع أفضل، أو يؤثر هواه.

باب ما يعرض للنفس من الآفات في الصوم [6]

وقد يكون قد تعودَ الصوم ولم يضعفه ضعفاً ينقطع به عن البرّ، فتخيل إليه النفس والعدو أن الإفطار أفضل له ليقوى على المعونة للضعفاء والإخوان، أو الصلاة أو طلب المعاش، فيفطر من غير أن يعرف ضعفاً قاطعاً إلا كما يضعف

---

(١) العنوان سقط من ط.

(٢) في ط: يعرفه به.

(٣ ـ ٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٥) في ط: ويمكن فيه الفهم.

(٦) العنوان سقط من ط.

القوي على الصوم ضعفا لا يقطعه، ولعله يكون في إفطاره أضعف بدناً.

وكذلك يصوم فيضعف، فينقطع عن إتيان الجنازة وعن طلب العلوم، وعن عيادة المرضى أو عن الصلاة، فلا يكاد (أن)[1] يأتي برًّا بالنهار، فالإفطار أولى به، إلا أن يكون قد ينقطع عن بعض ويأتي بعضاً، فالصوم حينئذ أولى (به)[2]؛ لأن الصائم لا يخلو من الضعف، وقد ينقطع أيضاً عن مثل ذلك البعض وهو مفطر، فالإفطار خدعة إلا أن يكون ما ينقطع به عنه أفضل من الصوم، ويكون لا ينقطع عن مثله في الإفطار.

وقد يعرض له الفضلان: أحدهما له وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته، وتكون النفس قد سخت بإتيان أحدهما أن يبدأ به أيهما كان، وإتيان الآخر بعدُ فيصدّ النفس والعدوُّ بإتيان ما لا يفوت وقته عما يفوت وقته، كالجنازة تعرض وعيادة المريض الذي لا يخاف عليه عجلة الموت لظاهر العادة، وكذلك المجلسُ من العلم لا غنى به عنه، والجلوس للذكر والحديث مع الإخوان الذين لا يفوت لقاؤهم متى أراد، فيدع العلم ويجلس معهم.

وكذلك البكور إلى الجمعة، وزيارة الأخ الذي لا تفوت زيارته، أو عيادة المريض الذي لا يخاف عليه ويمكنه إتيانه بعد الجمعة، فإن خاف الموت أن يعاجله، أو كان لا يمكنه إتيانه بعد الجمعة فعيادته أفضل. إذا كان أخاً أو جاراً يلزمه حقّه. وإلا فلا يدع البكور (إلى الجمعة)[3] لأن ذلك يفوته إلى الجمعة الأخرى إن عاش.

أو كالجلوس في المسجد حتى تطلع الشمس. ويعرض له زيادة أو عيادة لا يفوت وقتها. فيبدأ بالزيارة والعيادة ويدع الجلوس الذي يفوت وقته. وقد يمكنه بعد طلوع الشمس أن يزور ويعود. إلا أن يكون له شغل هو أولى به بعد طلوع الشمس لا يتفرغ لذلك. فلينظر حينئذ من يزور ومن يعود في الفضل والمنفعة في

(١ و ٢) سقطت من ط.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

الدين والسلامة؟ فإن كان كذلك فوقتها حينئذ واحد فليبدأ بالزيارة والعيادة إن كان فيها المنفعة والسلامة أو الفضل لمن يعود. وكذلك يؤثر الزيارة على عيادة من هو أولى به. وذلك أنه يخاف فوته فأولى به العيادة له.

باب معرفة التمييز بين الفضلين

وكيف تدعوه نفسه إلى ذلك [١]

وقد يدخن في البر (الذي) [٢] له الفضل العظيم، فتدعوه نفسه وعدوه إلى فضل هو أدنى منه، كالمصلّي تدعوه نفسه وعدوه إلى سرعة القراءة لفضل كثرة الدرس، فيصده عن الفهم، لثقل الفهم على النفس وما يدخلها عند الفهم من ذكر الوعد والوعيد والغم) [٣] ولراحتها إلى الفكر في الدنيا وحديث النفس بأمرها، والفهمُ أولى به لرقة قلبه وهيجان خوفه.

وكذلك قد يصلي وهو نشط قوي فتدعوه نفسه إلى النوم، فتقول له: إنه أقوى لك على (أكبر) [٤] غداً، فيقطع الصلاة وليس به ضعف، ولا يعرف من نفسه بالنهار ضعفاً قاطعاً، فإن عرف ضعفاً قاطعاً فلينظر حينئذ: إن كان يقطعه ذلك الضعف عما هو أفضل من الصلاة، صلى بقدر ما لا يضعف بالنهار ذلك الضعف، وإن كان (يقطعه) [٥] عما دون الصلاة أتم الصلاة ولم يقطعها، وكذلك المجلس قد يكون فيه مما يستفيد فيه ما ينفعه، فتذكر النفس براً هو أنى منه، فيقوم إليه ويقطع ما هو فيه.

وكذلك (أن يكون صائماً) [٦] فيفطر لسرور أخ له لعله لا يغتم إن لم يفطر [٧] ولم يتكلف الطعام من أجله، فإن كان تكلفه من أجله، أو علم أنه يغتم وهو أخ

---

(١) العنوان سقط من ط.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من: ط.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٦) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٧) في: إن لم يفعل.

مستحق للأخوة سرَّه وأفطر، وإن كان غير ذلك من الإخوان لم يفطر إلا أن يكون تكلف ذلك من أجله وحده، أو يحلف عليه فيفطر حينئذ، للحديث، لأمر النبي ﷺ أن يبرّ القسم.

قال البراء بن عازب: «أمرنا رسولَ اللهِ ﷺ أن نبر القسم»[1].

وكذلك يدع العمل من الصوم والصلاة وغيرهما، فيقطعه بعدما يدخل فيه، خشية ألا يسلم من الرياء والتصنّع، وقد أراد الله عز وجل به. فذلك غلط، إنما عليه المجاهدة بالإباء والكراهة، ولو أطاع في ذلك نفسه لما بقي (له)[2] كثير عمل إلا عرض له في ذلك الرياء وغيره، فلم يؤمر الناس بذلك، أو يقطع العمل في العلانية ليعمله في السرّ، وقد جرب من النفس الخدعة إذا صار إلى السر ترك العمل وكسل عنه، فإن كان قد عوَّده الله عز وجل، القوة على ذلك فليأته سراً، فهو أحرز وأفضل.

معرفة ترك الأعمال للآفة وكيف يقطع به ويخدعه[3]:

وقد يقطع العمل خشية أن يقول هو مراءٍ، كالرجل يصلي في المسجد وحده والناس حوله جلوس، أو يذكر الله عز وجل وهم يخوضون، أو يصمت وهم فيما لا يحل، أو يعرض عليه الطعام وهو صائم وهم مفطرون، أو يبيت مع قوم وقد عوده الله القيام من الليل، فيدع ذلك كله خشية أن يقولوا: مراء، فذلك غلط، وتَرْكُ فضل عظيم وعقدُه في الترك رياء منه، لأنه يحب أن يدوم حمدهم وينظروا إليه بعين الإخلاص لا بالرياء، وقد أساء بهم الظن أيضاً.

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٤٥ من كتاب اللباس، والباب ١٣٤ من كتاب الأدب، الباب ٨ من كتاب الإستئذان، والباب التاسع من كتاب الإيمان. ومسلم في صحيحه، الحديث التاسع من كتاب الإيمان.

(٢) سقطت من ط.

(٣) العنوان سقط من ط.

ما يعرض للعبد في صلاته من حديث النفس وغيره[1]:

وقد يقطع العمل خشية سوء الظن وإشفاقاً فيما يرى عليهم، فقد خدعته نفسه لتستريح، وقد أساء بهم الظن.

وقد يكون في الفرض خلف الإمام أو يصلي وحده، فيقرأ الإمام وهو يتفكّر في غير ما يقرأ الإمام من أمر الآخرة، فقد ترك ما هو أولى به، وأفضل له أن يفهم ما يقرأ إمامه أو يقرأ ما يقرؤه هو وحده، وقد عد ذلك عامرُ بن عبد قيس رحمه الله من الوساوس، إذا تفكر في أمر الآخرة في الصلاة في غير ما هو فيه من الصلاة.

وقد يَدَعُ العملَ وهو نشط لا يرى منه نفسه فترة ولا ضعفاً، فتدعوه نفسهُ إلى الترك وتقول: المداومة على القليل أفضل، فذلك خدعة من النفس، وسكون إلى الرّاحة، فليغنم ما عرَض له من البر كما جاء الحديث.

«إذا فتح الله لك باباً من الخير، فانتهزه، فإنك لا تدري متى يغلق عنك»[2].

إلا أن يجد من نفسه ضعفاً، فإن تركه كراهة الفترة ورجاء المداومة فهو حينئذ أفضل، وكذلك جاء الحديث عن النبي ﷺ:

«إن أحب الأعمال إلى الله عز وجل، ما داوم عليه صاحبه وإن قال»[3]. وقال داود عليه السلام:

---

(١) العنوان سقط من ط.

(٢) أخرجه: إبن المبارك في الزهد ٣٨، والإمام أحمد في الزهد ٣٩٤.

(٣) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٤٣ من كتاب اللباس. بلفظ: «أحب الأعمال إلى الله ما دام وإن قل».

وأخرجه الترمذي في سننه، الباب ٧٣ من كتاب الأدب. والبخاري في صحيحه، الباب ٥٢ من كتاب الصوم، ولفظه: «كان أحب العمل إلى رسول الله ﷺ ما ديم عليه».

وأخرجه إبن ماجه في سننه، الباب ١٤٠ من كتاب الإقامة، والباب ٢٨ من كتاب الزهد، ومالك في الموطأ، الحديث ٩٠ من كتاب السفر. والإمام أحمد في المسند ١١٣/٦، ١٧٦، بلفظ

« داوم وأنت الجواد السابق ».

وقال النبي ﷺ: « إن الله لا يمل حتى تملوا »[1] قال: القصد والدوام.

وقال سلمان: شر السير الحقحقة (وقال)[2] لا تبغض إلى نفسك عبادة الله عز وجل. (وقد تعرض له أشياء يدخل فيها لأثرة المولى غلطاً كالأشياء التي ذكرناها قبل هذا الباب)[3].

وقد يكون (الرجل)[4] في البر ويعرض له فضول من المباح، كالرجل يكون ذاكراً لله عز وجل بلسانه بقراءة قرآن أو تسبيح، فتدعوه نفسه إلى كلام الفضول استراحة منها إلى محادثة الناس والخوض فيما لا يعنيه، فيترك الذكر، ويخوض في الفضول، وكالرجل الجالس في المسجد أو في ذكر الله عز وجل مع غيره، فيعرض له النظرُ إلى ما يشتهي من المباح أو السمع، فيقطع ما كان فيه وينظر ويسمع، أو يقوم إلى ما يريد أن ينظر إليه أو يسمعه. وقد آثر هواه في هذا الموضع على طاعة الله عز وجل غلطا منه.

وقد يكون في الصلاة فيذكر صاحبا يستريح إلى حديثه، ولا يأمل عنده منفعة إلا أن لا يخوض معه في الحرام، فيقطع الصلاة ويذهب إليه خدعة من النفس

= العمل الصالح الذي يدوم عليه العبد ». وأخرجه أيضاً بألفاظ متقاربة النسائي في سننه.

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٣٢ من كتاب الإيمان، والباب ١٨ من كتاب التهجد، والباب ٥٢ من كتاب الصوم، والباب ٤٣ من كتاب اللباس. ومسلم في صحيحه، حـ ٢١٥، ٢٢١ من كتاب المسافرين، وحـ ١٧٧ من كتاب الصيام. وأبو داود في سننه، الباب ٢٧ من كتاب التطوع. والترمذي في سننه، الباب ١٣ من كتاب القبلة، والباب ١٧ من كتاب قيام الليل، والباب ٢٩ من كتاب الايمان. وإبن ماجه في سننه، الباب ٢٨ من كتاب الزهد، ومالك في الموطأ، الحديث ٤ من كتاب صلاة الليل. والإمام أحمد في الزهد ٣٩٣، وفي مسنده ٦/٤٠، ٥١، ٦١، ٨٤، ١٢٢، ١٨٩، ١٩٩، ٢١٢، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٨.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من أ.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وهرباً من العمل.

وقد يكون العبد في عمل من أعمال البر. أو يكون قد نوى الدخول فيه فتدعوه نفسه إلى قطع ذلك لشهوة معصية عرضت. كالرجل يكون ذاكراً بلسانه أو يكون صامتا على عزم يريد به السلامة. فيعرض ذكر الغيبة فيمن هو معتاظ عليه. أو فيما يعجب منه أو يعجب منه غيره. فيخرج من الطاعة إلى المعصية. وكذلك يعرض له الاستهزاء بغيره والحديث بالكذب لمزاح أوجد.

وكذلك قد يكون في ذكر أو صلاة، فيستمع إلى ما لا يحل له، أو ينظر إلى ما لا يحل، فيقطع ما هو فيه ويصير إلى المعصية أو يمكث فيما هو فيه ويخلط الطاعة في المعصية.

وكذلك قد يكون متفكراً في الآخرة فيعرض له نيّة في معصية أو تمنٍّ لها أو فكرة فيها، فيفكر أو يتمنَّى. أو يشغل قلبه بالنية فيها. وبدع ما كان فيه من ذكر الآخرة. وكذلك يكون في الفرض فيخرج منه إلى معصية أو مباح فيعصي معصيتين: بقطعه للفرض، وإتيانِه المعصية.

وهذا شَرُّ أحوال العبد. فالعبد المريد المعنيُّ بنفسه. الـمُؤْتَمّ بكتاب ربّه عز وجل وَسُنَّة نبيه ﷺ همَّته محاسبة نفسه ليميز بين خطراته. أيها لله عز وجل أرضى، أو أيها لله عز وجل أسخط؟

باب في الأمرين من أمور الله تعالى يعرضان بأيها يبدأ (١)

قلت: أجمل لي في علل ذلك كله جملة(٢) مختصرة لأفهمه.

قال: إذا عرض له أمر مما أمر الله عزّ وجلّ به أو ندب إليه نظرت في ذلك حتى تؤديه كما أحبَّ الله عز وجل وأوجب، فإذا عرض لك أمران واجبان فأبدأ بأوجبها، وإن عرض له واجبان لأحدهما وقت يفوت، والآخر لا يفوت وقته بدأ

(١) العنوان ساقط من ط. (٢) في ط: الجملة.

بما يفوت وقته فيقدِّم ما قدَّم الله ويؤخر ما أخر الله عزّ وجلّ، وإن كان في فرض فعرض له فرض دونه لم يخرج إليه فيكون عاصياً بتركه ما أوجب الله عزَّ وجلَّ، عليه بعد ما دخل فيه، وإن عرض له فرض أوجب مما هو فيه قطعة ولا يمكث فيما دخل فيه، فيكون عاصياً لله ثم كما كتبت له باباً باباً. وكذلك لا يدع الفرض للنافلة، وكذلك يعمل في النافلة الأفضل على ما كتبت لك.

قلت: فإن عرض أمران واجبان أو فضلان، فلم يتبيّن أيهما أوجب أو أفضل، قال ينظر أيهما أخفُّ على قلبه، فإن كان أخفَّ من قبل الهوى أتى الذي ثقل، لأنه لا يؤمن عليه، أن يعمل الذي خفّ عليه لهوى نفسه لا لربّه عزَّ وجلَّ، وإن كان أخف عليه لأنه أسلم أو القلب فيه أزيد عملا - وما أقل ذلك إلاّ من قلوب الصادقين الأقوياء - أتى الذي هو أخف، لأنه لأن يعبد الله عزَّ وجلَّ بنشاط الطاعة، أفضل من أن يعبده بكراهة ومكابدة، ولا يؤمن عليه أيضاً الملال والشغل عن الله عزَّ وجلَّ فيه، وأيضاً: إذا هو أقل سلامة وأقل زيادة في القلب لم يؤمن عليه أن لا يسلم فيه، وإن سلم لم يزدد في قلبه كما يزداد في الذي قد نشط له القلب وفرغ له، وإن لم يتبيّن له لم خفَّ عليه أو لم ثقل، فأحبُّ إليَّ أن يأتي الذي هو أثقل، لأنه لم يتبيَّن له أن الخفة إنما كانت من قوة قلبه وطلبه السلامة والزيادة في العمل، فهو إلى الهوى أقرب منه للخشية، لما جرَّب العُمَّال من أنفسهم، ولما طبعوا عليه من خفّة ما وافق شهواتهم من الدنيا، وثقل ما نافر هواهم من عمل الآخرة.

ولقوله عزَّ وجلَّ: ﴿فعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْراً كَثِيراً﴾ [1]، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [2] الآية.

فرجَّانا الخيرَ في المكروه وخوَّفنا الشرَّ في المحبوب، ولو شاء جلَّ ثناؤه لقال: عسى أن تحبّوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو شرٌّ لكم، ولكن نبهنا لما هو أغلب علينا ولما بنانا عليه وطَبَعَنَا، وهو أعلم بنا.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

فمن أجْل ذلك اخترنا للعامل أن يجانب ما خفَّ عليه تحرزاً وخوفاً لما خوَّفنا ربُّنا جلَّ وعلا، فإن استويا في الخفّة فلم يقدر أن يعرف أخفهما أو استويا في الثقل فلم يقدر أن يعلم أيهما أثقل، فإنه لا يؤمن أن يكون له في أحدهما هوًى غامض يهيج عند مباشرته أو يعرفه بعد تقضّيه وفراغه منه، فليعرض نفسه حينئذ على الموت، أيهما يحبُّ أن يأتيه الموت وهو عليه، فإن النفس المؤمنة وإن كانت غافلة عاصية، لا تتمنّى لقاءَ الله عزَّ وجلَّ ولا تحبُّه إلا على الخير الصافي، الذي ترجو أن ينجيها من عذاب الله عزَّ وجلَّ ويدخلها جنَّته، لأنه لا هوى لها عند الموت في الدنيا، إنما هو في الدنيا ما دامت حيَّة.

فإن وجد نفسةَ تجزع أن يأتيها الموت وهي عاملة بأحدهما ولا تجزع أن يأتيها عند الآخر، فلينظر: لِـمَ جزعَتْ؟ فإنه لا يكاد يخفى عليه حينئذ إذا ردّ عليها فقال: لِـمَ خف عليكِ الموتُ عندها وجزعت من نزوله، وأنت بهذا عاملة، فإنها إن شاء الله، سترجع إليه، فتقول: لكذا وكذا، فليأت حينئذ الذي لا يكره الموتَ من أجله[1].

ألم تسمع قوله عزَّ وجلَّ: ﴿**قَالَتِ الْيَهُودُ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ**﴾[2] فقال الله عز وجل: ﴿**فَتَمَنَّوُا الْـمَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾[3]، أي من كان منكم على أمر يثق به لم يبال أن يأتيه الموت وهو عليه، فقال عزَّ وجلَّ إن كنتم أوليائي: ﴿**فَتَمَنَّوا الْـمَوْتَ إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾، ثم قال جلّ ثناؤه: ﴿**ولاَ يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِـمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِم**﴾، أي لما عرفوا مما عندهم مما لا يَرضى الله عز وجل به، وما أسلفوه من الذنوب غير تائبين منه، فهم عليه بعدُ.

---

(١) بمثل هذه التفاصيل الدقيقة يمكن الرد على الاتهامات التي وجهت ضد كتب الإمام المحاسبي من مثل أبي زرعة وغيره، وقولهم إنه لا حاجة للمسلمين بها اكتفاء بالكتاب والسنة. ففي الكتاب والسنة أصول هذه المسائل، وقد تركت تفاصيلها للأمـة المأمورة بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(٢) سورة المائدة، الآية: ١٨.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٩٤.

وقال ابن عباس: لو تمنَّوْا الموت لماتوا، وقال ابن جريج في قوله تعالى ﴿**بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ**﴾[1]. لما عرفوا أن محمداً ﷺ حقّ فكتموه وكذبوا بالحق قال قتادة: لأنه تلا عليهم: ﴿**ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عالِـمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ**﴾[2]. وقال: إن الله عز وجل أذلَّ ابن آدم بالموت، رفعه إلى النبي ﷺ. فالمؤمن أولى أن يجزع مما يكرهه الله عز وجل، أن يأتيه الموت عليه.

وقال بعض العلماء: أنظر كل أمر تكره أن يأتيك الموت عليه فاتركه، فإن لم يدر لم جزعتْ نفسُه فليأت ما لم تجزع النفس، لأنها لم تجزع إلاّ لبلية[3]، وإن سترها الهوى عنه، وما يكاد يكون ذلك، وإن لم تبال على أيها أتاه الموت فليبدأ بأيها شاء، فإنه قد وزن العمل قبل أن يوزن، وعرضه قبل أن يعرض، وفتش من نفسه قبل أن يفتّش، والموت معيار العابدين فيما يُشكل عليهم من همومهم في أعمالهم، ويبين الاستعدادُ له كلما خفي عليهم من قصد ضمائرهم وأهوائهم في أعمال جوارحهم، لأنه لا يستعدون لم يعلم السرّ، ولا يخفى عليه غوامض الصدور، إلا بما لا خدعة فيه ولا التباس.

قلت: أجمل لي جملة الأولى فالأولى مما هو أوجب وأفضل بعد تفسيرك هذا، لأحفظه مختصراً مع ما عرفتني مفسّراً.

قال: إذا عرض للعبد أمران واجبان في وقت واحد بدأ بأوجبها قبل الآخر الذي هو دونه في الوجوب أو عرض له واجبان لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته، بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر.

فإن كان في فرض فعرض له فرض دونه لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمّه.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٩٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٩٤.

(٣) وهذا الأصل كله راجع إلى قاعدة الصديق الأكبر رضي الله عنه فيما إذا عرض للانسان أمران. فإنه يجب أن يأتي منهما أثقلهما على النفس، لأنه هو الحق.

فإن كان في فرض فعرض له فرض أوجب منه قطع ما هو فيه ودخل في أوجبها.

وإن عرضت له نافلة وهو في واجب لم يقطعه من أجلها.

وكذلك الفضل والتطوع: يبدأ بالأفضل فالأفضل، كما كتبت له وعلى قدر الأوقات.

باب منازل أهل الرعاية لحقوق الله تعالى

قلت: فأهل (التقوى من أهل)[1] الرعاية لحقوق الله عز وجل، والقائمون بها في منزلة واحدة أو منازل شتى؟

قال: في منازل شتى، وهي سبع منازل:

فأول منازل الرعاية في حقوق الله عز وجل عند الخطرات (حتى ترد)[2] على (القلب)[3] العلل، والأسباب، والأوقات، والإرادات، والوجوب على ما ذكرتُ لك.

ثم أهل المنزلة الثانية الذين أغفلوا الرعاية: عند الخطرات في أعمال القلوب مما ليس للبدن فيه عمل، حتى جالت قلوبهم بالفكر فيما كَرِهَ الله عز وجل، ثم تيقظوا قبل أن يعتقدوها بقلوبهم، ففزعوا وصرفوا قلوبهم عن ذلك.

وأهل المنزلة الثالثة: الذين أغفلوا الرعاية والمراقبة عند الخطرات وعند الفكر في أعمال قلوبهم، حتى اعتقدوا ما كره الله عز وجل، من أعمال قلوبهم مما لا عمل للبدن فيه، مثل العجب والكبر والحسد والشماتة وسوء الظن، وما أشبه ذلك والبدعة؛ ثم تيقظوا وفزعوا، وذكروا الله عز وجل، فندموا وخلوا ما عقدوا عليه من ذلك بالتوبة إلى الله عز وجل.

(١ ـ ٢) سقط من ط.

وأهل المنزلة الرابعة: الذين أغفلوا المراقبة لله عز وجل، والرعاية لحقه، حتى همُّوا وعزموا أن يأتوا ما كره الله عز وجل بجوارحهم، ثم تيقظوا ورهبوا، فندموا على ما أضمروا (واعتقدوا)[1] وخلوا ما عليه أصروا من عقد ضمائرهم وقلوبهم[2].

وأهل المنزلة الخامسة: الذين أغفلوا مراقبة الله عز وجل وتقواه، حتى ابتدأوا بالعمل بجوارحهم بما كره الله عز وجل، من لحظة بعين، أو إصغاء بأذن، أو مدّ بيد، أو خطوة برجل، ثم تيقظوا وفزعوا، وخافوا الله عز وجل قبل أن يتمُّوا ما كره الله عز وجل من العمل.

كالعين يلحظ بها، ثم يذكر اطلاع الله عز وجل عليه وأن الله يسائله عنها أو يخاف أن يغضب عليه، فيصرف بصره قبل أن يستتم من النظر ما أراد وأحب. وكذلك يصغي بسمعه ليستمع إلى ما يكره الله عز وجل، ثم يذكر الله عز وجل، فيصرف سمعه عن ذلك، ويترك ما أحبَّت نفسه خوفاً من الله عز وجل، من قبل أن يستتّمه. وكذلك يبتدىء بالقول باللسان، ثم يذكر الله عز وجل، فيقطع كلامه ولا يتم ما أراد منه. وكذلك يمدُّ اليد، ثم يذكر الله عز وجل، فيكفّها عما كره الله عز وجل، قبل أن يستتَّم ما أراد. وكذلك يخطو بالقدم، ثم يذكر الله عز وجل، فيقف ويترك المشي إلى ما كره الله عز وجل، قبل أن ينال تمام ما أراد من ذلك، لعلمه بعلم الله عز وجل ونظره إليه، فإن ذلك عليه محصي لأنه قد سمعه يقول:

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إلاّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً﴾[3].

يحذرهم اطلاعه، ويبعثهم على الحياء منه والهيبة، والإجلال له والرهبة منه، ثم قال: **﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾**[4].

---

(١) سقط من ط.

(٢) وخلوا ما عليه عقدوا بضمائر قلوبهم.

(٣) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٤) نفس السورة، والآية.

روي عن الحسن أنه قال في تفسير ذلك: حين تبدأ في العمل يراك الله عز وجل، فأخبرنا أنه يعلم ما نعمل، ويرانا حين نبتدىء فيه وقبل ذلك، ولكن أراد أن يُسْتحيي منه لعلمه بذلك، فلا يفيض فيما كره، فإن أفاض فيه ثم ذكر اطلاعه ترك ما هو فيه قبل أن يستتمَّ خوفاً منه وحياء وإجلالا له عز وجل، ليس كمثله شيء، ولا نظير له ولا شبيه.

وأهل المنزلة السادسة: الذين أغفلوا مراقبة الله عز وجل، وتقواه حتى استتمُّوا ما كره الله عز وجل من العمل وفرغوا منه، ثم فزعوا وندموا، فتابوا إلى الله عز وجل، وأقلعوا ولم يصرّوا على شيء مما كـره الله بعدما تيقظوا فعلموا أنهم أسخطوا الله عز وجل بما قد فعلوا وتعرضوا.

وأهل المنزلة السابعة: الذين أغفلوا رعايةَ حقوق الله عز وجل، حتى من الأعمال التي يكرهها الله عز وجل، ثم فزعوا عند بعضها فأقلعوا عن بعضها وأقاموا على بعضها ولم تسخ أنفسُهم بالتوبة؛ وقد يفزعون من العمل الواحد فيدَعون بعضَهُ خوفاً من الله عز وجل، ولا تطيب أنفسهم بالتوبة من بعضه.

كالرجل يأتي العمل في أعمال السلطان من الجباية والكتابة وغير ذلك، فيظلم فيه ثم يفزع وينوي أن لا يظلم أحداً، ولا تطيب نفسه بترك ديوانه ولا ولايته.

أو كالرجل يشرب المسكر مع الفجور، أو (يحب)[1] ضرب العيدان والغناء، أو يشرب بضرب العود والغناء ولا فجور فيه، ثم يفزع من ذلك فيندم على الضرب يالعود والغناء، ولا يندم على شرب المسكر ولا يصبر عنه، ولا يقوى على تركه، ولعله يتأول في استحلاله، وكذلك يشربه فيترك الصلاة، فيندم على ترك الصلاة، وينوي ألا يشربه إلا في وقت لا تدركه فيه الصلاة.

أو يشرب فيسكر منه فينوي أن يشربه ولا يكثر منه، وشربه عنده حرام، ولكن لا يقوى على أن يعزم على تركه كله.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وكذلك يغضب فيغتاب من يغضب عليه ويكذب عليه، ثم يندم فينوي ألا يكذب عليه، ويستعظم الكذب ولا تطيب نفسه بأن يقلع عما يعلم منه من الذنوب، لأنها وإن كانت غيبةً، فقد قال حَقًّا ولم يقل كذباً، فلا تطيب نفسه بالتوبة[1] من الغيبة له، ويعزم أن لا يكذب عليه ولا على أحد.

وكذلك يغتابه ويقذفه ثم يندم على القذف أو ذِكْرِ والديه ولا يندم على الغيبة.

وكذلك يصارمه ويقع فيه فيتوب عن أن يذكره بسوء، ولا يقوى على أن يترك مصارمته حقداً وأنفاً أن يبدأه بالصلح والكلام والسلام.

وكذلك يعمل من التجارة بما لا يحلّ له، كالربا والكذب في المرابحة، أو في مدح سلعته، أو ذم سلعة غيره، فيتوب من الربا والكذب ولا يتوب من المدح والذمّ، فقد راقب الله عز وجل، ورعي حقوقه في التوبة في بعض ما يكره الله عز وجل، وضيَّع الرعاية في بعض ما كره الله عز وجل، حتى أقام عليه ولم يقلع عنه.

باب بيان منازل المصرين المقيمن على الذنوب

وذكر ما يبعثهم على التوبة، وقطع التسويف

قلت فما منزلة من لم تطب نفسه أن يقلع عنه ولا يتوب، وغلبته نفسه؟

قال: أولئك في ثلاث منازل:

فأهل المنزلة الأولى: مقيمون على الذنوب، طالبون للتوبة على غير حقائقها ولا استتمام طلبها، يبكون ويتضرعون، ويتفكرون في الوعيد والعذاب، رجاء أن تسخو نفوسهم بالتوبة ويأتون مواضع الذكر، فيتفكرون فيما يسمعون أو لا يأتون مواضع الذكر، ولكن يتفكرون فيبكون ويتضرعون، فيملّون ولا يدمنون على التخويف لأنفسهم إلى وقت هيجان الخوف المنغِّص لهم لَذّاتِ ذنوبهم، فلا يدمنون على ذكرٍ

---

(١) من ط: من التوبة.

إدماناً يبلغون به من الخوف ما يبعثهم على التوبة، وتسخو أنفسهم بترك المعصية لأن النفس والعدو إذا أدمن العبد من طلب الخوف، دعواه إلى الملال والسآمة والإعراض عن الفكرة[1]، فتستثقل النفس ذلك، لما غمَّها من الخوف، ولما تخاف من تنغيص لذّتها عليها، فإن كان عبداً عاقلا عازماً لم يمل وأدمن الفكر حتى يقوى منه الخوف ويترك ما كره الله عز وجل. ويقطع التسويف للتوبة.

وأهل المنزلة الثانية ليسوا بأصحاب فكرة لطلب الخوف، ولا تسخو نفوسهم بذلك، لأنهم يكرهون ما هم فيه ويغتمون لذلك، ويسألون الله عز وجل النقلة، ولا ينوون المقام على الذنوب حتى يموتوا، ولكن يسوِّفون التوبةَ ويضربون لها الآجال.

كرجل يقول: حتى اتخذ معاشاً يقيمني ويكفيني من غلة، أو مال للتجارة، أو كرجل يقول: حتى يموت عيالي لعلهم إن يموتوا فأترك ما أنا فيه، لأني لا أقوى على التوبة مع العيال، أو حتى يموت والدي، أو حتى أخرج من هذه البلدة، لأني لا أعلم فيها ولا أقوى على ترك مخالطة الناس ولا ترك الاكتساب فيما لا يحل. فهذه الفرقة تقيم على المعاصي وتسوِّف التوبة، ولا تتوجّه لطلب الخوف ولا تقوى عليه.

وأهل المنزلة الثالثة: أهل العمى والجهل والشرود على الله عز وجل، مقيمون على الذنوب، مغتبطون بما هم فيه من لذاتهم، لا يحدّثون أنفسهم بالتوبة ولا يسوِّفونها، فمنهم شبيه باليائس أن يتوب، لما هو فيه من غلبة المعاصي ومن سوء الغذاء، ولعلّ كل ما هو فيه خبيث حرام، أو لما جنى من الجنايات التي لا يقوى على الخروج منها، كغضب الأموال وما أشبه ذلك، ومنهم من يخيّل إليه أن ذنبه ليس بعظيم، وأنه أمر هين لأنه خير فيما يرى، ممن هو أعظم ذنباً منه، فلا يحدثون أنفسهم بالتوبة، ولا يضربون لها أجلا بالتسويف، فهؤلاء شرار المسلمين وفساق الموحّدين[2].

---

(١) انظر تفاصيل مناهج الفكرة التي رسمها الإمام المحاسبي في بابها من كتاب (آداب النفوس) له يصدر قريبا إن شاء الله. دار الجيل. بيروت. لبنان.

(٢) بل ومن المتعبدين على جهل من هم أشر من هؤلاء، لأنهم لا يرون تحريم ما يأتون من محرمات، =

ما تقطع به التسويف للتوبة[1]:

قلت: فأهل المنزلتين الأولتين قبل هؤلاء: الذين يقيمون على بعض ويقلعون عن بعض، والذين يقيمون على الكل، وكلاهما يحب التوبة، ويسوّفها، فهما أقرب إلى التوبة، ومطالبتها عليهم أيسر من هذه الفرقة الثالثة، فبِمَ يقطعان جميع التسويف؟

قال: الذي يقطعان بإذن الله التسويف به خلتان:

إحداهما: خوف المعاجلة بالموت أن يكون أجل الله عز وجل، في روحه قبل الأجل الذي أجله لتوبته فيموت بحسرته لم يبلغ أمله، ولم يتب من ذنبه، فلا إلى الله عز وجل تاب، ولا بلغ من لذته ما أراد، فمات بغصَّة الدنيا والآخرة.

والخلة الثانية: خوف أن يضرب الله عز وجل، قلبه بعقوبة مانعة له من التوبة من القسوة والرين أو الطبع أو المرض أو الإقفال، ويكون أجله مع ذلك مؤخراً. فيطول عمره بالسكرة والحيرة، فيكون إنما يُملي له ليزداد إثماً.

فإذا خاف ذلك بادر بالتوبة خوفاً أن يبادر بالموت، فيموت مصرًّا على ما كره الله عز وجل. ويبادر بالتوبة خوفاً أن يبادر بالموت، فيموت مصرًّا على ما كره الله عز وجل، ويبادر بالتوبة خوفاً أن تحل عقوبة الله عز وجل بقلبه، فيبقى في الدنيا حيران يزداد إثما، فإذا لم يأمن معاجلة بغتة الموت، أو معاجلة العقوبة بالقسوة خشي أن يؤخرها ساعة فيقع بإحدى هاتين الخلتين فالخوف لهما قاطع للتسويق، لأنه إذا قوي الخوف من المعالجة ضعف التسويف إذا ضعف الخوف. وضعف التسويف إذا قوي الخوف. والتسويف قاطع عن العمل.

ألم تسمع قول شداد بن أوس رضي الله عنه: أنذركم سوفَ.

وقيل لرجل من عبد القيس عند الموت: أوصنا. فقال: أنذركم سوفَ.

وروي ابن المبارك: حدثنا أن عامة دعاء أهل النار: يا أفّ للتسويف.

= تأبى نفوسهم أن تقبل نصح الناصحين.

(١) العنوان سقط من ط.

ومع ذلك فإن المسوف للتوبة لن يعرى من ثلاث خلال: أن يقطعه الموت عن الأجل الذي أجله للتوبة، أو يبلغ إلى الأجل الذي أجله للتوبة، فيبقى مقيما على معصية ربّه جل وعز، فقد جمع غدراً وخلفا، وكذباً لرّبه فيما وعده وأعطاه وفي معصيته التي كان عليها مقيما، فوعد ربّه إن بلغه ذلك الأجل ليتوبنّ إليه، فبلغه فلم يُقلع عن ذنبه، فازداد غدراً وخلفاً لما وعد ربّه جل وعلا، لأنه وعد ربّه إن بلغ الوقت الذي أجل توبته إليه لينزعنَّ عن ذنبه إليه ولا يعودَ إلى ما كره الله، وأخلف الوعد وأصر على الذنب.

والخلة الثالثة: أن يبلغ إلى الوقت الذي سوف إليه التوبة، فيمنّ عليه بالتوبة فيتوب إلى مولاه عزّ وجل، فهذا خير أحواله فلن ينفكّ وإن تاب إلى ربه من ضرر التسويف، إذ لا نجاة له من الله عزَّ وجل، أن يَقِفَه ويسأله عن ذنبه وإصراره عليه أيام تسويفه، وإن لقيه تائباً مغفوراً له فلا بد أن يسأله عن تلك الأيام التي كان فيها مذنباً مصراً، إلى أن بلغ وقتَ التوبة الذي سوّف التوبة إليه، فكأنه عبد قيل له: تب إلى الله عز وجل، واترك المعاصي، فقال: أنت تائب لا محالة وتارك لذاتي، إلاّ أني مقيم على الذنب إلى وقت كذا وكذا، ليكون أيام تأخيري للتوبة إلى ذلك الوقت عليَّ فيه المسألة والتوقيف من الله عز وجل، فهذا مثله: أن لو قال هذا ما كان إلا كمعناه في تأخير التوبة، لأنه إن كانت نفسه قد سخت صادقةً، بترك لذاتها إذا جاء الأجل الذي أجله للتوبة، فكيف لا يدع لذته من الآن فلا يكون عليه السؤال في أيام تأجيل التوبة، إذا هو تارك للذة عاجلا أو آجلا، منغِّص على نفسه لذته، فتركها بزوال السؤال عنه أولى من تركها باكتساب السؤال، فإذا كان تاركا لذته لا محالة، فليربح زوال السؤال عنه من الله عز وجل أيام الإصرار، فليوبخ نفسه على ذلك إن كان الأمر على ما ذكرت.

وكيف له بهذه الحال، أخاف أن يكون أحد الحالين الآخرين أغلب عليه، فأحد الأحوال الثلاثة لا يُقيم معها عامل على التسويف، إذا وبخ نفسه عليها بما ذكرت لك من سؤال الله عز وجل، إياه عن أيام الإصرار، فكيف إذا خاف الحالين الآخرين، فهذه الأحوال ما يقيم معها عاقل على الإصرار إذ خافها، فإذا

عقل ذلك استعدّ بالتوبة إلى ربه مخافة أن يبغته الموت على ذنبه، لأنه ليس عنده أمان من الموت أن يأتيه بغتة وهو مقيم على ما يسخط الله عز وجل عليه، فيلقاه وهو غضبان عليه، فليس يقيم على ذلك عاقل إذا خاف معاجلة الموت إذ لا أمان عنده منه، وإذ يخاف في مجيئه بغتة لقاء الله عز وجل، وهو عليه غضبان، فلا يرضى بهذه الحال عاقل مشفق على بدنه من عذاب الله عز وجل.

ألم تسمع قول عبد الرحمن بن يزيد حين قال لرجل وعظه، فقال له: يا فلان، هل أنت على حال ترضى فيها الموت؟

قال: لا.

قال: فهل أجمعت للنقلة إلى حال ترضى فيها الموت؟

فقال: لا، ما سخت نفسي بذلك بعد.

قال: فهل بعد الموت دارٌ فيها مستعتب؟.

قال: لا.

قال: فهل تأمن بغتة الموت؟.

قال: لا.

قال: ما رأيت مثل هذه الحال رضي بها عاقل، وصدق رحمه الله، وكيف يكون عاقلا عن الله عز وجل، من يقيم على ما يغضب الله عز وجل عليه، ولا يأمن الموتَ أن يفجأه على غفلة، ثم لا مرجع له إلى الدنيا، فيعتب ربّه جل وعز، ويترضى مولاه، وقد أخبرنا الله عز وجل، نصحاً لنا وتحذيراً بندم النادمين عند الموت، لئلا نكون نحن النادمين على ما فرطنا، السائلين عند الموت المرجع للإنابة والتوبة، والرجوع عما كره الله عز وجل، فلا نجاب إلى ذلك فَنُتْرَكَ بحسراتنا، ولا يقبل منا الندم، فلا يجاب منّا النداء.

قال الله عزَّ وجلَّ: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ﴾**[1]، قال الله عز وجل: **﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ**

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠.

﴿قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[١].

وفي التفسير عن مجاهد: البرزخ حاجز بين الدنيا والآخرة. محتبس فيه الميت إلى يوم البعث والنشور.

فأخبرنا الله عزَّ وجل أنه لا ينفعه سؤال الرجعة، وأنه محتبس في البرزخ حتى يبعث منه إلى الهلكة، يحذرنا تبارك وتعالى أن نغتر بالدنيا ولا نستعد للقائه، فيأتينا الموت بغتة فننادي بالحسرة، فلا تُقَالُ العثرةُ ولا تمكنُ الرجعة، وينبهنا على أن نتوب ما دامت التوبة مقبولة، والعثرة مقالة، والدعاء مجاباً، لنكون للقائه جلّ وعلا مستعدين، ولنزول الموت مراقبين.

باب الاستعداد للموت وقصر الأمل

قلت: أخبرني عن الاستعداد [للموت] ما هو؟

قال: الاستعداد على وجهين:

أحدهما: واجب وهو الذي تأسَّف على فواته[٢] النادمون عند الموت، وهو أن يتوب العبد توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا، بأن لو قيل له: إنك تموت الساعة ما وَجَدَ عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه فيسأل النظرةَ[٣] من أجله، فإن كان يجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه فليس مستعداً للقاء ربه، لأنه لا يؤامر في إخراج روحه، والموت يأتيه بغتة.

فإن جاءه الموت وذلك الذنب عنده لم يأمن أن يغضب الله عليه، وكيف يكون مستعداً للقاء الله، من هو مقيم على ما يغضب الله، ولا يأمن أن يأتيه الموت [وهو] أغفل ما كان، والموت آتيه لا محالة، فللخوف من لقاء الله على ما يكره

---

(١) نفس السورة، والآية.

(٢) في ط: عليه.

(٣) أي تأجيل الموت.

بادرَ الخائفون بالتوبة قبل أن يسبقهم الموت إلى أرواحهم، فيحال بينهم وبين التوبة والإنابة إلى ربّهم، ويندموا ندماً لا يُقْبَلُ، ولا تُقَالُ عثراتهم، فلذلك بادروا بالتوبة حذراً وإشفاقاً من بغتة الموت على غرَّة، فهذا هو الاستعداد الذي أوجبه الله عز وجل على خلقه.

والوجه الثاني من الاستعداد هو نافلة، كبذل المجهود من القلب والبدن، وبذل ما يملك من الدنيا إلا ما كان أولى به حبسُه، حتى لو قيل له إنك تموت غداً ما كان عنده مستزادٌ في عمله.

كما روي عن منصور بن زاذان: أنه كان يجتهد اجتهادا لو قيل له: إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في عمله. فهذا الاستعداد يستحق الله عز وجل من خلقه أكثر منه، لأن حقه لا يؤدَّى، ونعمته لا تكافأ، وعظمته لا عِدْلَ لها، ولن يبعثك على الاستعداد للموت وقطع التسويق مثلُ قصر الأمل.

قلت: بم يُنال قصر الأمل؟

قال: بخوف المعاجلة ببغتة الموت على غفلة، لأن روح العبد عارية، لا يدري متى يُرْسِلِ المعيرُ لها[1] فيأخذ عاريته؟ فإذا خاف المعاجلة انقطع في الدنيا أمله، وانتظر وبادرَ فيها أجله، وكان مرتقباً لنزول الموت.

قلت: بمَ يُنال خوف المعاجلة؟

قال: بعظيم المعرفة بإبهام الأجل، وأن المؤجّل لا ينظره[2] ولا يؤامره. ولا يؤذنه إذ أراد اخراج روحه من بدنه بالاعتبار بالأموات قبله.

قلت: فَبِـمَ تنال هذه المعرفة وهذه العبرة؟

قال: بإدمان الذكر والفكر في إبهام الأجل ونزول الموت حين حلوله، وانقطاع العمر وذكر الأموات الذين أتاهم الموت بغتة.

(١) في ط: له.

(٢) في ط: يناظره.

قلت: كيف إبهام الأجل حتى أتفكر فيه بمعرفة لتعظيم معرفتي بذلك؟

قال: أما تعلم أن الموت ليس له وقت عند العبد معلوم، فيخَافُ في ذلك الوقت ويأمن[1] في سائر الأوقات، ليس ينزل بالعباد في الشتاء دون الصيف، فيخاف من الشتاء ويأمن في الصيف، أو يحل بالعباد في الصيف فيأمن في الشتاء، أو في شهر في السنة معلوم فيأمن في سائرها، أو بالليل فيأمن بالنهار، أو بالنهار فيأمن بالليل، أو بالغداة فيأمن بالعشي، أو بالعشي فيأمن بالغداة، أو في ساعة دون ساعة.

وليس له وقت من العمر معلوم، فيأخذ أبناءَ عشرين فيأمنه أبناء دون ذلك، أو يأخذ أبناء ثلاثين فيأمنه أبناء عشرين.

وليس له علة معلومة دون علة كالحمَّى أو البطن، أو الهدم أو الغرق، أو بعض الأسباب التي يكون فيها التلف.

فحق على العاقل العالم بأمر الله عز وجل، إن كان الموت ليس له وقت معلوم من العمر، ألا يأمنه في وقت من الأوقات، وإذا كان ليس لنزوله وقت معلوم من العمر، ألا يأمنه ألا يأتيه في صغر أو كبر، أو شباب أو هرم، وإذا لم تكن له علة معلومة ألا يأمنه في صحة ولا سقم، ولا في حضر ولا في سفر ولا في مصر ولا في بدو، ولا في برّ ولا في بحر.

فمتى ذكر (العبد)[2] الموت بفراغ قلبه من كل شيء إلا من ذكره، إذ لا وقت له ولا علة، ولا عمر معلوم، مع ذكره عظيم ما يأتي به الموت من البشرى بعذاب الله، أو برحمة الله عز وجل، مع الاعتبار بالذين مضوا قبله، ممن هم فوقه ودونه، وأشكاله وأمثاله، عظمت معرفتهُ بالموت وفجأة الموت، وأنه نازل به كما نزل بمن مضى قبله لا محالة.

فإذا عظمت معرفته بذلك قصرَ أمله، فإذا قصرَ أمله حذر قلبه من الموت،

---

(١) في ط: يؤمن في الفقرة كلها.

(٢) ما بين المعقوفين: سقطت من ط.

فإذا حذر قلبه من الموت ارتقب الموتَ، فإذا كان للموت مرتقباً سارع إلى الاستعداد له، والاستباق إلى الخيرات قبل أن يسبقه إلى روحه مالكها[١].

وكذلك يروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أنه قال: من ارتقب الموت سارع إلى الخيرات.

وروي عن عليّ أيضا، أنه قال: إنما يهلك اثنتان: الهوى، وطول الأمل؛ فأما الهوى فيصد عن الحق[٢]، وأما طول الأمل فينسى الآخرة، وصدق رحمة الله عليه.

ولو أن غائبين عنك ترى أن أحدهما قادم سريعاً في يومك أو ليلتك أو من غدك، والآخر ترى أنه يقدم إلى شهر أو إلى حَوْل، لاستعددت للذي ترى أنه عليك قادم سريعاً، إن كان (قد)[٣] أوصاك بوصية بادرت إلى إنقاذها قبل أن يفجأك بقدومه، فتلحقك ملامته أو عقوبته، وتهيىء له مع ذلك البر واللطف، وإن كانت إليه منك ذنوب[٤] أو إساءة، أجَلْتَ الفكْرَ وروّيت، كيف تعتذر إليه لتخرج من سخطه أو من ملامته، أو لئلا تنتقض منزلتك عنده.

ومما يدلك على ذلك: ما روي عن كعب بن مالك رضي الله عنه حين تخلف عن غزوة تبوك، أنه قال: لما قيل: إن النبي ﷺ قد أظل قافلا جعلت أتفكر، وأستعين على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، كيف أعتذر إليه لأخرج من سخطه.

وكذلك من غلب على قلبه أن الموت قادم عليه سريعاً، ثم علم أن الخبر يأتيه يقيناً عند الموت بهلاكه أو نجاته، بادر إلى أن يترضى الله عز وجل، ويعتبه بالاعتذار إليه بما يقبله، والطهارة لقلبه وبدنه من المعاصي ليلقاه طاهراً.

---

(١) ومما يدل لصدق هذه النظرية السلفية: أن من جاوز الستين من العصاة غالباً يعاين المُوت، فيحاول تدارك ما فاته، فلو عجل الشباب هذه المعاينة من طريق الوهم لاستقاموا على الطريقة.

(٢) الهوى يصد عن الحق، ويعمي عن الرشد، لأنه مرتبط باللذات العاجلة التي تجسدها النفس، وتستمسك بها، فتصد عما عداها من الحق بأن تحجب العقل عن الموازنة بين العاجل والآجل.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) في ا: ذنب.

وقد يفعل ذلك أهل الغائب بغائبهم، تكنس له الدار والبيوت وتزين له[1] ليعلم أنهم قد أعظموا قدره وتأهبوا لقدومه.

وكذلك المقصر أمله متظهر مستعد متزين، ليعلم الله عز وجل أنه قد أعظم قدر لقاء ربه وتزين وتظهر للقائه لئلا يسخط عليه، وأن يقبله ويرضى عنه.

ومما يهيج العبد على ذكر تخويف مسارعة الموت، ما أخبرتك من زوال الأوقات التي لا يجوز فيها الأمن له.

وكذلك يروى عن لقمان عليه السلام، أنه قال لابنه: «يا بني أمرُ[2] لا تدري متى يلقاك فاستعد له قبل أن يفجأك».

وكذلك قال بعض الحكماء: «كربٌ بيد سواك[3]، لا تدري متى يغشاك».

وقال لقمان لابنه: «يا بني لا تؤخر التوبة، فإن مَلَكَ الموت يأتي بغتة».

وقد روي عن بعضهم: أنه بات فلم يزل متلفتاً يميناً وشمالا حتى أصبح، فقيل له في ذلك، فقال: كنت أنتظر من أي شِقٍّ يجيئني مَلَكَ الموت.

وقيل للربيع بن خيثم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحنا ضعفاءَ مذنبين، نأكل أرزاقنا وننتظر آجالنا.

وقال رجل لسعيد بن أبي السائب: كيف أصبحت؟ قال: أصبحتُ أتوقع الموت على غير عُدَّة.

باب ما يهيج على معرفة كراهية الموت وكربه

وأما ما يهيج على معرفة كراهيته وكربه، وما يتغشاه من هوله: فإن ابن آدم إنما يألم من كل موضع من جسده، إن أصابته شوكة فما فوقها وجد الألم بروحه،

(١) في ط: ويتزين له.

(٢) يريد بالامر: الموت.

(٣) يعني بيد الله سبحانه وتعالى.

ولولا ذلك ما وجد ألماً. ألا تراه إذا خرج الروحُ منه، لو حرق بالنار ما وجد لذلك ألماً؟

فإذا كان البدن إنما يألم بالروح، فما ظَنُّك بالروح إذا كان هو المجذوب من كل عرق ومفصل، وأصل كل شعرة وبشرة من أعلاه وأسفلِه وجميع بدنه، فلا تسأل عن أَلَمِه وكربه ووجعه.

وقد يروى أن الموت أشدُّ من ضرب بالسيوف، ونشر بالمناشير، وقرض بالمقاريض، لأن ضرب السيوف ونشر المناشير إنما يؤلم البدن بالروح، فإذا كان الروح هو المباشَر بالأخذ والجذب فذلك أشدُّ ألماً ووجعاً، وإنما صار المضروب بالسيف وغيره يستغيث ويصيح، لأن القوى بعد فيه باقية، واللسانَ مطلق.

وإنما انقطع صوت الميّت لأن الكرب قد تبالغ فيه وتصاعد، وغلب على كل موضع، فهدَّ كلَّ قوة وكسر كل جارحة، وتغشى العقلَ وقلَّصَ اللسان وأبكمه، فإن فضلت فيه فضلة قوة، سمعت له خواراً لجذب روحه، وأنيناً وغرغرة بروحه في حلقه، قد تغيّر لذلك لونه حتى ظهر منه أصل طبعه الذي منه خلق وعليه طبع، فرأيت كالتراب على وجهه[1]، قد تغيّر لونه وجذب كل عرق منه على حياله، حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي الجفون، ويقلص اللسان إلى أصله، وجفت الشفتان وقلصتا، وارتفعت الأنثيان إلى الحالبين، ومن المرأة الثديان حتى لا يبقى إلا أقلهما، وجفت الأعصاب ويبست.

فلا تسأل عن بدن مجدَّل [2] تجذب عروقه وأعضاؤه وبشرته، ثم يموت عضواً عضواً على حياله، فتخضر أنامله ثم تبرد قدماه، ثم تبرد ساقاه، ثم فخذاه بسكرات وكرب يتغشاه، وكرب من بعد كرب، وسكرة من بعد سكرة مع كل جذبة، حتى

---

(١) انظر تفاصيل أخرى في هذا الموضوع عن الروح في «الأمد الأقصى» لابن زيد الدبوسي الحنفي. باب أصل الخلقة. وباب الفصول الأربعة. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت ـ لبنان.

(٢) يعني: مطروح مصدوع.

بلغ لها إلى الحلقوم، فعند ذلك تنقطع المعرفة عن الدنيا وأهلها، ويزول عنه قبول التوبة، حين تحضره الحسرة والندامة.

وكذلك يروى عن النبي ﷺ، أنه قال: «تقبل توبتُه ما لم يغرغر»[١].

وقال مجاهد في قوله عز وجل ﴿**وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذينَ يَعْـمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حتَّى إذَا حضَرَ أحَدَهُمُ الـمَوْتُ**﴾[٢] قال: إذا عاين الرسل، فعند ذلك تبدو له صفحة وجه مَلَكِ الموت.

فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه، حين تبالَغ فيه الكرب، واجتمعت السكرات.

ويبين ذلك ما روى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ، في بعض الحديث: «أن نفراً من بني إسرائيل مرّوا بمقبرة، فقال بعضهم لبعض: لو دعوتم الله عز وجل أن يخرج لكم من هذه المقبرة مَيّتاً تسألونه، فدعوا الله عز وجل، فإذا هم برجل خلاسي بين عينيه اثر السجود، قد خرج من قبرمن تلك القبور، فقال: يا قوم ماذا أردتم مني؟ لقد ذقتُ الموت منذ خمسين عاماً ما سكنت مرارة الموت من قلبي»[٣].

وروى مكحول عن النبي ﷺ أنه قال: «لو ان ألم شعرة من شعر الميت وضع على أهل السموات والأرض لماتوا» لأن في كل شعرةٍ الموت، ولا يقع الموت بشيء إلا مات.

ويروى: لو أن قطرة من ألم الموت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت».

وقد يروى ان الله عز وجل قال لإبراهيم ﷺ، لما مات: «يا خليلي مُت، يا

---

(١) اخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٩٨ من كتاب الدعوات، وابن ماجه في سننه، الباب ٣٠ من كتاب الزهد. ومالك في الموطأ، الحديث الثاني من كتاب الحدود. والإمام احمد بن حنبل في المسند ١٣٢/٢، ١٥٣، ٤٢٥/٣، ١٧٤/٥.

(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.

(٣) اخرجه الإمام احمد بن حنبل في الزهد، ١٦، ١٧.

خليلي مت، يا خليلي مُت. قال: خليلي، كيف وجدت الموت؟ قال: يا خليلي كسفود جُعل في صوف رَطْب ثم جذب، قال: أما إنا قد هوّناه عليك».

وروى عن موسى ﷺ، أنه لما صار روحه إلى الله تبارك وتعالى، قال له ربُّه: «يا موسى كيف وجدت الموت؟ قال:، وجدت نفسي كالعصفور حيث يقلى على المقلى: لا يموت فيستريح، ولا ينجو فيطير».

ويروى عنه أيضاً، أنه قال: وجدت نفسي كشاة حيَّة تسلخ بيد القصاب»[١].

ويروى عن النبي ﷺ : «أنه كان عنده قدح من ماء عند الموت، فجعل يدخل يده في الماء، ثم يمسح بها وجهه ويقول: اللهمّ هوّن عليّ سكرات الموت، وفاطمة رضي الله عنها تقول: واكرباه لكربك يا أبتاه، وهو يقول: لا كرب على أبيك بعد اليوم»[٢].

وقال عيسى ﷺ: «يا معشر الحواريين، ادعو الله عز وجل ان يهوّن عليّ هذه السكرة، يعني: الموت، فلقد خِفتُ الموتَ مخافة، أوقفني خوفي من الموت على الموت».

وقال عمر بن رزق الله: لولا أني اخاف ان يكون قسما لا أبره لحلفت أن لا أفرح بشيء من الدنيا حتى أعلم ما لي (عند الله)[٣] في وجه رسل ربي.

فهؤلاء أولياء الله وأحبَّاؤه لم تزل عنهم سكرات الموت وغمومه مع تهوينه على بعض، فما ظنُّك بغموم الموت وكربه وشدته على المخلِّطين، مع ما قد اجتمع عليهم من الحسرة والندامة والتأسف على ما قد فات، حتى يبلغ منهم الكربُ مداه، وينتهي منهم منتهاه؟ فعند ذلك يبدو لهم ملك الموت بصفحة وجهه.

---

(١) انظر شرح الصدور للسيوطي، ففيه وصف الموت كما ذاقه كثير من السلف وكذلك العاقبة لعبد الحق الإشبيلي الخراط، مخطوط. وسنن النسائي، باب شدة الموت من كتاب الجنائز، وسنن الترمذي، الباب الثامن من كتاب الجنائز.

(٢) انظر: سنن النسائي، الباب ٦ من كتاب الجنائز، وسنن الترمذي، الباب ٨ من كتاب الجنائز.

(٣) ما بين الحاصرتين، سقطت من ط.

وكذلك يروى في بعض حديث المعراج «انه قال للنبي ﷺ وسأل ملكَ الموت عن ذلك فقال: آمر أعواني من الملائكة ان يعالجوا روحه حتى إذدا بلغت الحلقوم بدأتُ فتناولتها منها، فما ظنك بالنظر إلى وجه ملك الموت، إن كان من أهل الشقاوة والعداوة، فلا تسأل عن قبحه وكراهة وجهه، فعند ذلك تحسّ النفس بالبلاء والعطب والهلاك[1].

وقد روى عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: «أن ابراهيم ﷺ، كان رجلا غيوراً، وكان له بيت يتعبد فيه، فإذا خرج أغلقه، فأغلقه ذات يوم، فخرج ثم رجع، فإذا هو برجل في جوف البيت، فقال:

من أدخلك داري؟

قال: وأدخلنيها ربها.

قال: أنا ربّها.

قال: ادخلنيها من هو أملك لها[2] منّي ومنك.

قال: فمن انت من الملائكة؟.

قال:، أنا ملك الموت.

قال: يا ملك الموت، هل تستطيع ان تريني الصورة التي تقبض فيها نفس المؤمن؟

قال: نعم، فأعْرِضْ عني، فأعرض عنه، ثم التفت فإذا هو بشاب، فذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه، وطيب ريحه، فقال: يا ملك الموت، لو لم يلقَ المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ذلك، ثم قال:

---

(١) روي أن الحارث المحاسبي عند موته قال لمن حوله: إن رأيت خيراً ابتسمت لكم، وإن رأيت غير ذلك عرفتم ذلك في وجهي، وبعد قليل تبسم ثم مات.

وقد أخرج حديث المعراج: البخاري في صحيحه الباب ٤٢ من كتاب مناقب الأنصار، والباب الأول من كتاب الصلاة، والباب ٧٦ من كتاب الحج، والباب الخامس من كتاب الأنبياء، والباب ٣٧ من كتاب التوحيد، والباب ٣٤ من كتاب المناقب، وصحيح مسلم حديث ٢٥٩، ٢٦٣. ومسند احمد بن حنبل ١٤٨/٣، ١٤٩، ١٤٣/٥.

(٢) في ط بها.

يا ملك الموت، هل تستطيع أن تريـني الصورة التي تقبض فيها نفس الفاجر؟.
قال: لا تطيق ذلك.
قال: بلى.

قال: فأعْرِضْ عَنِّي، فأعرض عنه؛ قال: ثم التفت فإذا برجل أسود قائم الشعر. منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخره لهب النار والدخان، فغشي على إبراهيم ﷺ، ثم أفاق وقد عاد ملك الموت عليه السلام، لصورته الأخرى، فقال إبراهيم ﷺ: يا ملك الموت، لو لم يلقَ الفاجر عند موته إلا صورة وجهك كان حسبه[١].

وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أن داود عليه السلام كان رجلا غيوراً، وكان إذا خرج أغلق الأبواب، فأغلق الأبواب ذات يوم وخرج، فأشرفت امرأته، فإذا هي برجل في الدار، فقالت: من أدخل هذا الرجل؛ لئن جاء داود ليلقينّ منه عنتاً، فجاء داود فرآه، فقال داود: من أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا تمتنع منِّي الحجّاب، قال: فأنت، والله إذاً ملك الموت. قال[٢]: وزُمِّلَ مكانه[٣].

وروي عن عيسى ﷺ، انه مر بجمجمة فضربها برجله، فقال: تَكَلَّمي بإذن الله، قالت: يا روح الله، أنا مِلِك زمان كذا وكذا، فبينا أنا جالس في ملكي عليَّ تاج (الملك)[٤] وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي، إذ بدا لي ملك الموت عليه السلام، فزال مني[٥] كل عضو عن حِياله، ثم خرجت نفسي إليه.

---

(١) في ط. كرر قول عمر بن رزق الله السابق في نفس الباب: لولا اني اخاف أن يكون قسما لا أبره... الخ.
(٢) القائل أبو هريرة رضي الله عنه.
(٣) اخرجه: أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الموت وإسناد احمد جيد.
(٤) سقطت من ط.
(٥) في ط: عيني.

ويا ليت ما كان من تلك الجموع كان فرقة، ويا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة، فما ظنك بصفحة وجه ملك الموت إذا بدت وعاينها المجدَّل للموت؟ فطرفٌ خاوٍ وقلبٌ محزون، من بدن قد برد، فتستخذي النفسُ وتستسلم للخروج، ثم لا تخرج حتى تسمع نغمة ملك الموت بإحدى البشريين: أبشر يا عدو الله بالنار، أو أبشر يا وليّ الله بالجنة، وإياها يخاف العقلاء من الله عز وجل، العلماء به.

وروي عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا تخرج روح احدكم حتى يعلم اين مصيرُه، وحتى يدري مقعده من الجنة أو النار»[١].

وروى أنه ﷺ، قال: «من أحب لقاء الله احب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه، قالوا: كلنا نكره الموت، قال: ليس ذلك بذلك، إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله عز وجل، وأحب الله عز وجل لقاءه.

وإن الكافر إذا كُشف له عما هو قادم عليه كره لقاء الله، والله للقائه أكره»[٢].

وروي أن حذيفة بن اليمان[٣] قال لابن مسعود الأنصاري وهو (مهموم)[٤] لما به من آخر الليل: قم، فانظر أي ساعة هذه؟ فقام ابن مسعود ثم جاءه، فقال: قد

---

(١) أخرجه: مسلم والبخاري وابن أبي الدنيا من رواية رجل لم يسم عن علي موقوفاً، انظر: الإحياء، ٤٩/٤.

(٢) في ط: كره، والحديث، أخرجه: مسلم في صحيحه، ١٤: ١٨ من كتاب الذكر، والترمذي في سننه، الباب ٦٧ من كتاب الجنائز، الباب ٦ من كتاب الزهد، والنسائي في سننه، والباب العاشر من كتاب الجنائز، والدارمي في مسنده، الباب ٣٤ من كتاب الرقاق. ومالك في الموطأ، الحديث ٥١ من كتاب الجنائز، والإمام احمد في مسنده ٣١٣/٢، ٣٤٦، ٤١٨، ٤٢٠، ٤٥١، ١٠٧/٣، ٢٥٩/٤، ٢٦٠، ٣١٦/٥، ٣٢١، ٤٤/٦، ٥٥، ٢٠٧، ٢١٨، ٢٣٦. وابن المبارك في الزهد ٩٤، ٣٤٥.

(٣) في ط: بن يمان.

(٤) سقطت من ط.

طلعت الحمراء: يعني الزهرة، فقال حذيفة: أعوذ بالله من صباح إلى النار.

ودخل مروان على أبي هريرة، وهو في الموت، فقال مروان: اللهم خفف عنه، فقال أبو هريرة: اللهم اشدد. ثم بكى أبو هريرة فقال: والله ما أبكي حزناً على الدنيا، ولا جزعاً من فراقكم، ولكني انتظر إحدى البشريين من ربي عز وجل بجنته او بناره.

قال معاذ: لما حُضِر من الليل أصبحنا؟ فقيل له: لا، ثم قال أصبحنا؟ فقيل له لا، حتى قيل له: نعم، فقال: أعوذ بالله من صباح إلى النار.

وقيل لعامر بن عبد قيس عند الموت وقد بكى: ما يبكيك؟ فقال ما أبكي فراراً من الموت، ولا حرصاً على دنياكم، ولكني أصبحت في صعود وهبوط[1] ثم لا أدري، إلى أين يهبط بي إلى جنة أم إلى نار.

وقيل لجابر بن زيد عن الموت: ما تشتهي؟ قال: نظرةٌ إلى الحسن، فلما دخل عليه الحسن، قيل له: هذا الحسن، فرفع طرفه إليه ثم قال: الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة.

وقال محمد بن واسع عند الموت: يا إخوتاه عليكم السلام، إلى النار أو يغفر الله عز وجل.

ولقد تمنى بعضهم أن ينزع نفسه أبداً، ولا يبعث لثواب ولا عقاب.

ومن ذلك: أنه قيل لعطاء السلمي عند الموت، وأغمي عليه وأفاق، وهم يدعون الله عز وجل، فقال: فيمَ أنتم؟ قالوا: كُنَّا ندعو الله أن يخفف عنك هذه السكرة، فقال: لا تفعلوا فوددت انها تردد من لهاتي إلى حنجرتي، ولا أبعث أبداً للقيامة.

فما ظنك بإحدى البشريين لو وقعت في سمع المكروب المجدّل الحزين، المرتقب لبشرى الجنة أو بشرى بالنار، فإن قيل له: أبشر بالنار يا عدو الله، فيا لله من

---

(١) في ط: مهبطه.

قلب أيقن بالإياس من رحمة الله، وعلم ان ضعفه لن ينجو من عذاب الله، فعندها تنقطع نفسه حسرات فيسأل الرجوع.

فيقول: ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أعْمَلُ صَالِحاً فِيا تَرَكْتُ﴾[1].

هيهات خسرت يداه، وانقطع من الله رجاؤه، وبدا له غيرُ ما كان يحتسب من ربه عز وجل، رِدت عليه ندامته وتوبته، وحيل بينه وبين الرجوع إلى الدنيا ليعتب من أسخطه ثم لا تسأل ما بعد هذه الأحوال من الحال.

وإن سمع البشرى من الله عز وجل بأنه قد رضي عنه، وأن له الجنة، (وأن)[2] إليها منقَلَبهُ، فلا تسل[3] عن فرح قلبه وسروره، وتحقيق رجائه وحسن ظنه بربه، وأمنه على بدنه من العذاب بعد طول مخافته وإشفاقه وكذلك قال الله تعالى في كتابه:

﴿تتنزَّلُ عَلَيْهِمُ الملاَئِكةُ ألاَّ تخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجنَّةِ الَّتي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾[4].

فقيل في التفسير: إن ذلك عند الموت، تقول الملائكة: لا تخف ما أمامك من الأهوال، ولا تحزن على ما خلّفت، وأبشر بالجنة التي كنت توعد.

فيا له من قلب، ما أفرحه حين يسمع البشرى من ملائكة ربه تعالى، هذا يوم راحته ولها كان يعمل، وقد قيل لبعض العباد: عَلاَمَ تعمل؟ قال: على راحة الموت.

وقد روي عن الحسن، أنه قال: ليس للمؤمن راحة إلا في لقاء الله عز وجل، ومن كانت راحته[5] في لقاء الله عز وجل فقد فاز، فيوم الموت يوم سروره وفرحه، وأمنه وعزه وشرفه.

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٩٩.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٣) في ط: لا تسأل.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٥) في ط: ومن كانت براحته.

وقد روي في الحديث عن النبي ﷺ «أن الله عز وجل إذا رضي عن عبد قال: يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأريحه من نصب الدنيا، حسبي من عمله، قد بلوته فوجدته حيث أحب، فينزل ملك الموت معه خمسمائة من الملائكة، ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران، كل واحد منهم يبشر ببشارة سوى بشارة صاحبه، وتقوم الملائكة صفين لخروج روحه معهم الريحان، فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ، قال: فتقول له جنوده: ما لك يا سيدنا؟ فيقول: أما ترون ما أعطيَ هذا العبدُ من الكرامة؟ أين كنتم عن هذا؟ قالوا: قد جهدنا (فيه)[1] فكان معصوماً.

وذكر قصّة في حديث اسنده الراوي - أنس بن مالك وتميم الداري - عن رسول الله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى يقول لملك الموت: انطلق إلى عبدي فأتني به فلأريحنَّهُ، فإني قد بلوته في الضراء والسراء، فوجدته حيث أحبّ»[2].

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ «أنه كان يأخذ بعضادتي[3] الباب، ثم يقول: جاء الموت بما فيه، جاء بالويل وبالحسرة لأهل عداوة الله عز وجل، جاء الموت بالغبطة والسرور لأهل ولاية الله عز وجل»[4].

وأما الإعتبار بمن مات من الأشكال والأمثال ممن مضى، فإن ذلك يُعظّم ذكر الموت في القلب، ويهيج (القلب)[5] على قصر الأمل، وقد أخبرنا الله تعالى عن القرون الماضية، فقال تعالى:

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) انظر الحديث: في باب استراحة المقيمين بالموت في سنن النسائي، كتاب الجنائز.

(٣) اي: بمصراعيه.

(٤) اخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٢٣ من كتاب القيامة، والإمام احمد بن حنبل ١٣٦/٥. وانظر أيضاً: سنن أبو داود، الباب ٨ من كتاب الأطعمة، وسنن ابن ماجه، والباب ٥٦ من كتاب الأطعمة.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

﴿هَلْ تَحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أحَدٍ أوْ تَسْمَعَ لَـهُمْ رِكْزاً؟﴾[١].

قال أبن عباس رضي الله عنهما: تسمع لهم صوتاً يخبرك ان الموت قد اهمدهم فلا حسّ ولا صوت.

وقال عز وجل: ﴿يَـمْشُـونَ في مَسَـاكِنِهِـمْ إنَّ في ذَلِـكَ لآيـاتٍ لِأُولي النُّهَى﴾[٢]. «أفلا تسمعون».

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه، أنه قال في خطبته: أين الوُضاة[٣] الحسنة وجوههم؟ أصبحوا والله تحت التراب.

وروي عنه أنه قال: أين الذين بنوا المدائن وحصنوها بالحوائط؟ قد تضعضع بهم الدهر، فأصبحوا تحت الصخور والآكام[٤].

وروي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، أنه قال: أين الذين بنوا المدائن؟ وروي ذلك عن غيرهم.

وإنما أردت بهذه الأحاديث أن يعرف العبد المريد كيف يتفكر في الموت، ليجتلب به قصر الأمل، أن يبدأ فيذكر فجأة الموت من غير مؤامرة، وأن لا سبب له ولا وقت معلوم فيأمن دونه، كالعمر والوقت والعلّة.

ثم يتفكر في كرب الموت وسكراته ونزعه، وما أصاب منه أنبياء الله صلوات الله عليهم وأحباؤه.

والنظر إلى ملك الموت ومن معه من رسل ربه عز وجل، واستماع إحدى البشريين عند موته، والاعتبار بمن مضى قبله بذكر موتهم ومصرعهم.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٨.

(٢) سورة طه، الآية: ١٢٨.

(٣) في ط، الوضاءة.

(٤) انظر الخطبة كاملة في ترجمة الصديق في «سير السلف» للحافظ إسماعيل الأصبهاني.

ووجدت العبرة اسرع إلى القلب بالأشكال والأمثال والأصحاب ممن سواهم، بأن يذكُر العبدُ مصارعهم تحت التراب ويتوهم صورهم في حياتهم ومقاماتهم، وكيف محى التراب حسنَ صورهم، وكيف بلوا في قبورهم، وكيف أرملوا نساءهم، وأيتموا أولادهم، وخلت منهم مجالسهم ومساجدهم، وانقطعت منهم آثارهم، فيذكرهم رجلا رجلا، فيتوهم صورته، ويذكر نشاطه وتردده واكتسابه وإنفاقه، وأمله للعيش والبقاء، ونسيانه للموت أو ذكره له، ومؤانسته إياه معه، وفرحه وضحكه، وكيف وقعت تلك الأسنان وتقطعت تلك المفاصل، وذهبت تلك القوة؟

فيعترضهم رجلا رجلا، فإذا اجتمع في القلب معرفةُ فجأة الموت وكربه والنظر إلى صورة الملائكة لقبض روحه، وعظم خطر إحدى البشريين، وارتقاب قلبه لإحدى البشريين، وذكر الإخوان وأحوالهم، وكيف فنوا وبلوا وخلفوه ومضوا، وأنه لاحق بهم لا محالة.

فما هو عند نفسه إلا كأحدهم وأن الموت نازل به كما نزل بهم، كما قال أبو الدرداء: إن ذُكِرَ الموتى فعدَّ نفسك كأحدهم.

وقال النبي ﷺ لعبد الله بن عمر: «كُنْ في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل وَعُدَّ نفسك في الموتى»[1].

فعند ذلك بعون الله عز وجل يقصر أمله، ويرتقب أجله، ويستعد بالتوبة للقاء ربه عز وجل، ويعظم الحمد والشكر في قلبه لربه عز وجل ألا يكون قدّمه ولم يمهله بعد إخوانه، فيحال بينه وبين الاتّعاظ بهم[2]، والعبرة والاستعداد لمثل ما نزل بهم، فتعظم النعمة عنده أن لا يكون هو المتخطف، ويحمد الله تعالى، إذْ أخّره للعبرة والاتعاظ، ثم يرجو أن يكون ذلك من سعادة سبقت له من ربه تعالى.

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب الثالث من كتاب الرقاق. والترمذي في سننه، الباب ٢٥ من كتاب الزهد، وابن ماجه في سننه الباب الثالث من كتاب الزهد. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/٢٤، ٤١، ١٣١. وابن المبارك في الزهد ٥.

(٢) يعني: يحمد العبد ربه لأنه أجل موته حتى في إخوانه وتمكن من الاتعاظ بهم، حتى يدارك ما فاته، ولأنه لم يجعله هو عظة لغيره. فالسعيد من اتعظ بغيره، والشقي من وعظ به غيره.

وكذلك يروى عن ابن مسعود رضي الله عنه، أنه قال: السعيد مَنْ وعظ بغيره.

وروي عن عمر بن عبد العزيز، أنه قال في خطبته: ألا ترون أنكم تتقلبون في أسلاب الهالكين، ويرثها منكم الباقون؟ كذلك (تكونون)[١] حتى تردوا[٢] إلى خير الوارثين وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو رائحاً إلى الله عز وجل، تضعونه في صدع من الأرض ثم في بطن صدع، قد توسد التراب، وخلف الأحباب، وقطع الأسباب موجَّه للحساب، غني عما خلّف، فقير إلى ما قدّم، يحضهم على الفكر والذكر بذلك.

فإذا تفكَّر العبد على نحو ما[٣] وصفنا قصر أمله واستعدَّ للقاء ربه بالتوبة، فأعطي العزم ألا يعود فيما كره ربه عز وجل.

قلت: قد وصفتَ لي ذكر الخوف للموت ومطالبة قصر الأمل بإبهام الأجل، والعبر بالموتى، وقد كُنت أذكُر (بعض ذلك)[٤] من قبل، فلا أجده يُنجع في قلبي، وإن نجع (في قلبي)[٥] لم يلبث إلا قليلا حتى يزول عن قلبي.

قال: إنك تذكُره بجملة المعرفة والقلب مشغول بغير ذلك، فلو ذكرته ذكراً يباشر قلبك أنجع ذلك فيك، وهاج منه خوف المعاجلة، ولزمه قصر الأمل.

قلت: فكيف أذكُره ذكراً يباشر قلبي؟

قال: أن تفرغ قلبك حين تذكُره من ذكر كل شيء إلا من ذكره، فإذا ذكرته كذلك باشر ذلك قلبَك، إذ لا شيء فيه غيره، ولم يلبث أن يتبين ذلك على بدنك، وكما وصف الله عز وجل قلب أُم موسى عليه السلام، حين فرِّغ من كل شيء إلا من ذِكْرِ موسى ﷺ قال:

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في ط: ترد.

(٣) في ط: مما.

(٤) في ط: وقد كنت أذكر من قبل بعض ذلك.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً﴾ أي: من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾[1]، قال: تقول: ابْنَاهُ.

فأخبر تعالى أن فؤادها لما فَرَغ من ذكر كل شيء إلا من ذكر ابنها كادت أن تبديه، فيكون في ذلك ما تحاذر وما يُهلك[2]، فكيف لا يظهر ويتبَيَّن على من فَرَّغ قلبه لذكر الموت وما يبدو منه فيه نجاته.

فمن فَرَّغ قلبه من ذكر كل شيء إلا من ذكر الموت غلب على قلبه من الحزن والهمّ ما يكاد أن يجد (منه)[3] طعم الموت، كما روي عن عيسى ابن مريم عليه السلام أنه قال:

«يا معشر الحواريين، ادعو الله عز وجل أن يهوّن عليَّ هذه السكرة، فلقد خِفْتُ الموت حتى أوقفني خوفي من الموت على الموت».

فمن باشر ذكر الموت قلبه انكسر عن الدنيا فؤاده، وَقَلَّ سروره وفرحه وحسده فيها، كما قال أبو الدرداء: «من باشر ذكرُ الموت قلبَه قَلَّ فرحه وحسده».

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٠.
(٢) لأن إباحتها بذكره ينبه عيون فرعون إلى مولود من بني إسرائيل، فيبحث عنه فيقتله.
(٣) سقطت من: ط.

كتاب الرياء

باب في صفة الرياء وذكره

قلت: قد وصفت لي مراقبة الله عز وجل وذكره، والرعاية لحقوق الله عز وجل ووجوه طلبها. والأول من الواجب والفضل، فما تخاف عليَّ إن قمت بذلك؟.

قال: أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرته ويذهب بحلاوته من قلبك.

قلت: ذلك أعظم للحسرة: أن أتعنَّى، ثم يُحبَط ويبطلَ عملي، وما ذاك المعنى؟

قال: فإن المتقي الراعي لحقوق الله عز وجل القائم بها تتبدل[1] أحواله حتى تظهر للخلق.

فيظهر منه الصمت بعد طول الخوض فيما لا يعنيه ولا [فيما] يحل له.
وتظهر منه المجانبة لمن كان يعصي الله عز وجل معه.
ويظهر منه[2] الأنس لمن يسلم معه ومن يستفيد منه الخير.

ويظهر منه الكلام فيما يجب الله عز وجل عليه، ويتقرب به إليه، وتسكت جوارحه ويخشع طرفه، وتعلوه السكينة والوقار، فتظهر منه الطاعات.

---

(١) في ط يبدل.

(٢) في ط: من.

فعند ذلك تعلم النفس أن ما ظهر منها لعباد الله عز وجل لن يمنعهم[1] أن يحمدوا فعله ويعظموه بذلك، ويروا له الفضل والقدر.

وتعلم النفس أن ما بطن[2] منه وسرّه لو ظهر لـحُمِد ذلك منه وفضّل به، فتطلب النفس الراحة إلى التزيُّن بالدين بما ظهر وبما أسرَ أن يكون محموداً معظماً[3] وليكون في الدنيا محموداً معظماً.

لأنه لما منعها من كثير من لذاتها من الدنيا، فإذا وجدت موضع خلاص في الدين إلى طلب اللذَّة والراحة نازعته إليه، لتصيب من راحة الدنيا بعد منعه لها أكثر لذتها وراحتها، وهي شهوتها الخفيّة، ولذتها الكامنة، لأنها ليست من ظاهر شهواتها.

فعلم العبد ـ إذا نازعته إليها ـ أنها قد نازعته إلى شهوتها ولذتها، وليس من شهوتها الظاهرة، ولا من شهوات مطعمها ومشربها وملبسها ومنكحها التي تنالها بجوارحها، ولكن شهوة من باطنها في خير ظاهرها، فهي خفيّة في النفوس لأنها ليست بظاهرة من فضول حلال منفرد به، ولا شرّ ينفرد من الشرّ الذي لا يشوبه الخير، ولكنها شهوة خفيّة إذ صارت ممازجة للخير داخلةٌ فيه.

فعامِلُها ظاهر الخير، فهو مطيع في الظاهر، يرى أنه لله عزَّ وجل يعمل، والنفس قد أبطنت الشهوة، لتتزيّن بذلك وتتصنّع عند العباد بظاهر الطاعة، وأنها قربة لا يتهم العبد نفسه فيتفقدها، لأن الشهوة تخفي على العبد قصدَه من أجلها، فلا يتبين ذلك إلا بالعلم الدالَّ على قصده ما هو، فكمنت وخفيت على العامل إذ لم يستضىء بالعلم[4].

---

(١) في ط: لن يمتنعوا.

(٢) في ط: يظن.

(٣) يعني: أن النفس تدفع العبد إلى حب الحمد من الخلق على ما ظهر منه وما بطن من العبادات القلبية والجسدية.

(٤) انظر للمؤلف «آداب النفوس»، و«المسائل في أعمال القلوب والجوارح» من تحقيقنا، ففيها زيادة إيضاح في باب الرياء وباب النية.

كما يروى عن وهب، أنه قال: كمون الشهوة في القلب ككمون النار في العود: إن قدح أوري[1] وإن ترك خفي، وقال: الرياء أبينهُ كذبٌ وأخفاه مكيدة، يعني أنه يخفي على من غفل ويتبيّن لمن يتفقده بالعلم وينظر إليه بالمعرفة.

ومن علم شدَّة حاجته إلى صافي الحسنات غداً في القيامة، غلب على قلبه حذر الرياء وتصحيح الإخلاص بعمله حتى يوافي يوم القيامة بالخالص المقبول، إذ علم أنه لا يخلص إلى الله جلَّ ثناؤه إلا ما خلص منه، ولا يقبل يوم القيامة إلا ما كان صافياً لوجهه، لا تشوبه إرادة بشيء غيره.

ألم ترَ إلى العباد يتجاوزون بينهم النقد في الورق والذهب، فيأخذ بعضهم من بعض الدرهم المردود والرديء من النقد في الحضَر والأمصار؟ فإذا أراد أحدهم طريق مكة أو غيرها لم يأخذ من النقد إلا الجيد الصافي، لمعرفته أن طريقه يقل فيه العطف من العباد بعضهم على بعض، والمواساة لشدة سفرهم وبعد شقتهم، فيخاف أن يأخذ دراهم رديئة أو دنانير مردودة، فيبدلها في إداوة من ماء، أو قربة من ماء، أو في زاد، أو في كراء يتحمل به فتردّ عليه، فيقطع به في موضع الحاجة حيث تقل المواساة، ويعزّ التعاطف من الناس بعضهم على بعض، وهو في الحضر يتجاوز الردَّ والمردود، رجاء إن رُدَّ عليه رَدَّه وأبدله وإن رده وجد عوضاً منه من ملك له أو قرض من غيره، فكذلك من عَقلَ تخاذلَ العباد في القيامة، وتبرِّي بعضهم من بعض، حتى تودّ الوالدة أنه جُعلَ لها على ولدها حقٌّ تأخذ به لشدَّة حاجتها إلى شيء يثقل به ميزانها، ويزيد في حسناتها، ولعظيم[2] ما عاينت[3].

فمن عقل شدَّة ذلك اليوم وشدَّة فقره إلى صافي الحسنات، خشي أن يأتي يومُ القيامة بغدو أو رواح إلى علم أو صلاة أو صيام أو خشوع، أو غزو أو كرٍّ على

---

(١) في ط: أرى.

(٢) في ط: ولتعظيم ما عانيت.

(٣) لمعرفة تفاصيل أوفى لأهوال يوم القيامة انظرها في أبوابها من (تذكرة القرطبي، النهاية لابن كثير، البدور السافرة للسيوطي، العاقبة للحافظ عبد الحق الإشبيلي الخراط) والأخيران مخطوطان في فهرس الحديث بدار الكتب المصرية والآداب والفضائل بالأزهرية.

عدوّ في سبيل الله لم يخلصه فيحبط، فتصير حسناته أنقص من سيئاته، ولو كان أخلص عمله[1] في الدنيا لرجحت حسناته على سيئاته فدخل الجنَّة بذلك.

فلما حبط عمله بقيت سيئاته أرجح، وحسناته أخف وأنقص، فلا تسأل عن تقطع نفسه حسراتٍ، فيخاف العاقل ذلك، فيغلب على عقله حذر الرياء والتصنّع للعباد وإرادة الله جلّ ثناؤه وحده لا غيره، حتى يتخلص له علمه وعمله.

باب حض العاصي على الإخلاص في عمله

قلت: إن الإخلاص منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين.

قال: إن أهل القوة لأقوَمُ العباد به، وإن المخلط العاصي لأشد حاجة إلى الإخلاص بتطوعه من المتقي الورع، لأن المتقي الورع إن حبط جميعُ تنفله نجا بقيامه بالفرض وانتهائه عن المعاصي، والمخلط إنما تطوعه يقوم مقام فرضه.

ألم تسمع قول مجاهد: إنه ليس نافلة إلاّ للنبي ﷺ. لأنه قد غفر له، ثم قرأ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾[2].

وقال أبو أمامة: إنما كانت النافلة للنبي ﷺ خاصة[3].

وروى أبو هريرة وتميم الداري وأنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «يحاسب العبد يوم القيامة، فإن نقص فرضه قيل: انظروا هل له من تطوع؟ فإن كان له تطوع أكمل به فرضه»[4]. قال تميم في حديثه، «وإن لم يكن له تطوع أخذ بطرفيه

---

(١) في ط: أخلصه.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٣) انظر: (خصائص النبي ﷺ لابن الملقن) ففيها تحقيق هذا الموضوع وكذلك انظر (القول المكرم بخصائص النبي المعظم للخيضري) وهما مخطوطان في فهرس الحديث بدار الكتب المصرية. وفهرس الفضائل بالمكتبة الأزهرية.

(٤) أخرجه: النسائي في سننه، الباب التاسع من كتاب الصلاة، والدارمي في مسنده الباب ٩١ من كتاب الصلاة، وإبن المبارك في الزهد ٣٢٠.

وألقي في النار ».

فيأتي المخلط يوم القيامة وفرضه ناقص، وعليه ذنوب كثيرة، فإن حبط تطوعه كله أو بعضه عطب، لأنه عمل[1] في إكمال الفرض، وتكفير السيئات.

والمتقي يعمل في علو الدرجات، فإن حبط تطوعه بقي في حسناته ما يرجح على السيئات فيدخل الجنة، والعدو يريد أن لا تبقى له حسنة، والمخلط يوازن بها.

والقوي الورع لما صَلحَت أحواله وعلم أن الخلق يحمدون من ظهرت منه تلك الأحوال، ووجد العدوُّ موضعاً للدعاء لما عطل عليه مكائده وغلبه، إلى أن يدع لذاته لربّه تعالى، أراد أن يدعوه إلى اعتقاد الرياء، ليحبط ما كان يدعوه إلى تركه فلم يطعه، فيدعوه إلى التصنُّع بالدين، ويعظم قدر المنزلة عنده، حتى يكون عنده أغلب على طبعه من قدر الذهب والفضة، لأن العبد قد يترك الذهب والفضة، ويردَّهما إذا وُصِل بهما، ليقال: قد ترك وزهد، لأن النفسَ من قِبل هواها والعدوَّ يدعوان العبدَ إلى المعاصي.

أما النفس فلإصابة لذتها، وأما العدو فللحسد والعداوة يريد هلكة[2] العبد فإذا أبى عليهما دعوتهما[3] إلى ترك النفل، وقالا: يكفيك الورع، فإن عصاهما وتنفل دعياه إلى الرياء به، وكذلك يدعوانه وإن لم يتنفل إلى الرياء بورعه.

أما النفس[4] فتطلب القدرَ عند الخلق والتعظيم منهم له، والعدو للحسد والعداوة له، فإن أبى أرياه أن ذلك رياء منه، وأنه لا ينجو من الرياء إذا خطر على قلبه لا يترك العمل[5]، فإن أبى إلا المضي على العمل بالإخلاص والكراهية للرياء، وأن ما ادعيا عليه باطلا - إذ كان له أبياً وله كارهاً - دعواه إلى المحاورة

---

(١) في ط: يعمل.

(٢) في ط: إرادة هلكة العبد.

(٣) في ط: دعواه.

(٤) هذا الكلام في حالة إصرار العبد على العمل في النوافل.

(٥) أي: حدثاه بأن إصراره على عمل النوافل رياء.

والمجادلة. يقولان له: إنك مراء وهو يردد عليهم التكذيبَ لها، هما يدَّعيان ذلك عليه ليشغلاه بذلك عما هو فيه، ليفعله بشغل قلبه عن الآخرة[١].

أما النفس فلتصيب مع تعبها بعض راحتها عن الفكرة في الآخرة، وأما العدو فإرداته: أن ينقص العبد من طاعة ربّه عزّ وجل لئلاّ تكون له كاملة، بحضور العقل فيها، عداوة منه وحسداً، كما حسد أبويه وعاداهما من قبله[٢].

وقد حذرنا الله عز وجل ذلك، فقال: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كما أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الجَنَّةِ﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾[٤] يعني أنه بين العداوة.

وقال عز وجل: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾[٥].

وقال عز وجل: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسوء﴾[٦]، فأخبرنا الله عزّ وجل، أن النفس تأمر بالسوء، وأن العدوّ يضل العبد ويصدّ عن طاعة الله عز وجل.

باب في شرح الريا: ما هو، وما الدليل عليه

قلت: فلا غنى بي عن معرفة الرياء ما هو؟

---

(١) يعني: أنت مراء، لأنك مصر على عمل النافلة، وقد حذرناك من أن إصرارك هنا فيه خط للنفس فهو رياء. وحينئذ تشتغل نفسه عن إتقان العمل بالبحث عن الحجة التي يبرىء نفسه بها من الرياء، فيدخل بالفعل في حظ النفس والهوى.

(٢) انظر بدء من أناب إلى الله للمحاسبي ففيه تفاصيل أوسع. وقد أخرجنا باسم «التوبة». دار الاعتصام.

(٣) سورة الاعراف، الآية: ٢٧.

(٤) سورة القصص، الآية: ١٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ١٦.

(٦) سورة يوسف، الآية: ٥٣.

قال: أجل، لا غنى بك عن معرفته، وإلا لم تحسن أن تتقي ما لا تعلم[١]، ولا تحذر ما لا تبصر، وذلك شأن المريدين من قبلك أن يعلموا ما نهوا عنه لِيدَعُوا على علم ومعرفة.

ومما يدل على ذلك ما روي عن النبي ﷺ أن رجلاً سأله فقال: يارسول الله «فِيمَ النجاة» فقال: «ألا تعمل بما أمرك الله به تريد به الناس»[٢]. فسأله عن نجاته في أعماله، فأخبره بترك الرياء.

وقال رجل: يا رسول الله، الرجل يقاتل في سبيل الله حمية، والرجل يقاتل ليرِى مكانه، فسأله عن الرياء إذ أشفق على عمله أن يحبط، فأراد أن يعرفه الرياء من الإخلاص، لينفيه على علمه به إذا عرض له[٣].

(١) في أ: أن تتقيه ما لم تعلمه.

(٢) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٧٧ من كتاب المغازي، والباب ٤٩ من كتاب مناقب الأنصار، والباب السادس من كتاب الفرائض، ومسلم في صحيحه، الحديث الخامس من كتاب الوصاية. وأبو داود في سننه، الباب الثاني من كتاب الوصايا. والترمذي في سننه، الباب الأول من كتاب الوصايا.

(٣) وأخص من ذلك قصة حنظلة الأسدي رضي الله عنه حين خرج مهموما فرآه أبو بكر رضي الله عنه فسأله عن حاله فقال: نافق حنظلة، فقال: وما ذاك؟ قال: إنا نكون عند رسول الله ﷺ، فيصف لنا الجنة والنار كأنا نراهما رأي عين فإذا عدنا إلى أهلينا وداعبنا الأهل والولد نسينا. فقال الصديق: والله إني لأجد ذلك.

فانطلقا إلى رسول الله ﷺ ليسألاه فقال ﷺ: «والله لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطرقات، ولكن يا حنظلة، ساعة وساعة، ساعة وساعة.

ومن هنا نرى دقة الصحابة رضوان الله عليهم في مراقبة خطراتهم، والعمل على إخلاص إرادتهم، والإسراع بكشف ما يجدون وعرضه على الرسول ﷺ، وهم الأعلون علما ومقاما وعبودية وصلاحا.

وحديث: «الرجل يقاتل في سبيل الله حمية»، أخرجه بعدة ألفاظ متقاربة: البخاري في صحيحه، الباب ٤٥ من كتاب العلم، والباب العاشر من كتاب الخمس. ومسلم في صحيحه، الباب ١٤٩، ١٥٠، ١٥١ من كتاب الإمارة. وأبو داود في سننه الباب الرابع من كتاب الجهاد. والنسائي في سننه الباب ٢١ من كتاب الجهاد وأحمد في مسنده ٤١٦/١.

وقال أبو الدرداء، رحمه الله: «إن من فقه العبد أن يعلم نزعات الشيطان» أي متى تأتيه؟ ومن أين تأتيه؟ وصدق رحمه الله: إذا فقَهَ العبد عن الله عز وجل أنه لا يقبل إلا ما خلص وصفا من الأعمال لوجهه دون خلقه، وأنَّ نفسَه وعدوَّه يدعوانه إلى ما يحبط عمله، حذر واستدل بالعلم، فعلم حين تأتيه النزعة أمن قبل الرياءِ أو غيره

وعن يونس [بن عبيد] عن الحسن [البصري]: «لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يُفسد عليه عملَهُ» فلا غنى بالعبد عن معرفة ما أُمِرنا باتقائه من الرياءِ وغيره، ولا سيما الرياء، إذ وصف بالخفاء في الحديث أنه أخفي من دبيب النمل.

فما خفي لم يعرف إلا بشدّة التفقد ونفاذ البصيرة، بمعرفته[1] له حين يعرض، وإلا لم ينفع التفقد لما لا يعرف، فبالخوف والحذر يتفقد العبدُ الرياء، وبمعرفته يبصره حين يعرض، فلا غنى بك عن معرفة الرياء.

قلت: فما هو؟ وما دلّ عليه من العلم؟ لتقوم بذلك الحجة، وينشرح لقبوله الصدر. قال الرياء: إرادة العبد العباد بطاعة ربه.

قلت: فما الدليل على ذلك؟ قال: قول الله عز وجل: **﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إليهمْ أعمالَهُمْ فيها وهمْ فيها لا يُبْخَسُونَ. أولئكَ ليسَ لهمْ في الآخِرةِ إلا النَّار وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾**[2].

---

(١) في ط: بمعرفة له.

(٢) سورة هود، الآية: ١٥، ١٦.

ومعنى الآيات: أن مجرد إرادة الدنيا من الرياء سواء أكانت هذه الإرادة في عمل عبادي مفروض أو مسنون، أو في عمل عادي من أعمال الحياة.

لأن الإنسان بحكم نشأته أراده الله تعالى لعبادته وحده، لا لعبادة هواه، فالأعمال المباحة كالطعام والشراب والنكاح وغيرها لا بد أن يزاولها الإنسان بنية العبادة باعتبارها وسائل لتحقيقها لا لإشباع هوى النفس.

وقد روي عن معاوية بن أبي سفيان، وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية قال: هم المراءون. وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِين يَـمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ ومكرُ أولئكَ هو يَبُور﴾ (١) الآية، قال مجاهد: هم أهل الرياء.

ووصف الله عز وجل قلوب المخلصين، وأن الرياء إرادة لغير الله عز وجل، فرفضوه لله عز وجل، فقال: ﴿إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورا﴾ (٢) فأخبر الله جل ثناؤه، أنـه من أراد بعمله الحياة الدنيا وزينتها حبط عمله.

والحديث: «إن الله عز وجل، يقول للملائكة، إذا رَفَعَتْ عملَ العبد إن عبدي هذا لم يردني به فاجعلوه في سجين» (٣). فأخبرك أنها إرادةُ الدنيا والزينة عند أهلها، والآي في ذلك كثير جداً.

وأما في السنَّة: فقول النبي ﷺ، حين سأله الرجل فقال: يا رسول الله فيمَ النجاة؟ فقال: «لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها الناس» (٤).

وحديث عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبي ﷺ أنه قال: «من راءى بعمله راءى الله عز وجل به، ومن سمَّع سمَّع الله عز وجل به» (٥).

وروي عنه أبو هريرة في حديث الثلاثة: المقتول في سبيل الله، والمتصدِّق بماله،

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٠.

(٢) سورة الانسان، الآية: ٩.

(٣) أخرجه: إبن المبارك في الزهد، وإبن أبي الدنيا في الإخلاص، وأبو الشيخ في كتاب العظمة وأخرجه إبن الجوزي في الموضوعات.

(٤) أخرجه: سيأتي تخريجه في ص ١٨٨ حديث: ألا تعمل بطاعة الله تريد بها الناس».

(٥) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٣٦ من كتاب الرقاق، والباب ٩ من كتاب الأحكام. ومسلم في صحيحه، الحديث ٤٧، ٤٨ من كتاب الزهد. والترمذي في سننه، الباب ١١ من كتاب النكاح، والباب ٤٨ من كتاب الزهد. وإبن ماجه في سننه، الباب ٢١ من كتاب الزهد. والدارمي في مسنده، الباب ٣٥ من كتاب الرقاق. وإبن المبارك في الزهد ٢٤٦. والإمام أحمد في المسند ٣/٤٠، ٢٧٠، ٤/٣١٣، ٥/٤٥.

والقارىء لكتاب الله عز وجل، أن الله تبارك وتعالى يقول لكل واحد منهم: كذبت. بل أردت أن يقال: فلان عالم. ويقول للآخر: بل أردت أن يقال: فلان شجاع، وقال للثالث: بل أردت أن يقال فلان جواد. فقد قيل: قال النبي ﷺ «فأولئك أول ثلاثة يدخلون النار» (١).

فأخبر النبي ﷺ، عن الله عز وجل، أن رياءَهم الذي أحبط أعمالهم: إرادة الناس بطاعة الله عز وجل.

وأخبر عن قلوب الصادقين المخلصين له عن أعمالهم، أنهم قالوا: ﴿**إنما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُريد مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُورا**﴾ (٢)، قال مجاهد في تفسير ذلك:

ما قالوه بألسنتهم، ولكن قالوه بقلوبهم.

فحكى الله عز وجل عنهم، ليرغَب راغبٌ، فرضي عنهم إذ نفوا عن قلوبهم إرادة حَمْدِ المخلوقين (٣)، وإرادة مكافآتهم.

والحديث في ذلك كثير، فدلنا بالعلم أن الرياء: إرادة غير الله عز وجل بالطاعة. فالرياء: إرادة المخلوقين بطاعة الله عز وجل.

باب معرفة أن الرياء على وجهين

احدهما اعظم، والآخر أهون وكلاهما رياء

قلت: الرياء هذا الوجه وحده، أم في غيره من الوجوه؟.

(١) أخرجه: إبن المبارك في الزهد ١٦٠.

(٢) سورة الانسان، الآية: ٩.

(٣) تفاصيل حب الحمد وكراهة الذم من تراث الإمام المحاسبي أنظرها في أبوابها من (الوصايا، وأعمال القلوب والجوارح، وآداب النفوس). والأخير سيظهر قريبا بعون الله من تحقيقنا. وفيها فصل المباح والمذموم من حب الحمد، إلا أنه في الوصايا كان متشددا، ولكنه رائع الحجة، بليغ الاستقصاء.

قال: الرياء هو: الإرادة وحدها، إلاَّ أنه على وجهين، أحدهما أعظم وأشدّ والآخر أهون وأيسر وكلاهما رياء.

وإنما الوجه الذي هو أشدّ الرياءِ وأعظمه: إرادَةُ العبد العبادَ بطاعة الله عز وجل، لا يريد الله عز وجل بذلك، كما قال النبي ﷺ: «ألا تعمل بطاعة الله تريد الناس»[1]، وكما وصف الثلاثة: أنهم أرادوا الناس، ولم يذكر أنهم أرادوا الله عز وجل، مع إرادتهم لخلقه، وذلك عنده عظيم.

وكذلك يروى عن النبي ﷺ «أن المرائي ينادَى يومَ القيامة على رؤوس الخلائق: يا فاجر يا غادر (يا فاجر)[2]. يا مرائي، ضلّ عملُك، وحبط أجرك، اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له»[3]

وقال في حديث الثلاثة أن النبي ﷺ خط على فخذ أبي هريرة وقال: «يا أبا هريرة أولئك أول خلق الله عز وجل، تسعر بهم نار جهنَّم يوم القيامة»[4] فذلك أعظم الرياء عند الله عز وجل.

وروي شداد بن أوس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أخوف ما أخاف على أمَّتي الرياء»[5].

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، تفسير سورة ٤٧/٣. وأبو داود في سننه، الباب الثالث من كتاب الوصايا. والنسائي في سننه، الباب الثالث من كتاب الوصايا.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) أخرجه: ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والإخلاص من رواية اليحصبي، عن صحابي لم يسم. وإسناده ضعيف.

(٤) أخرجه: الترمذي في سننه من حديث طويل، الباب ٤٨ من كتاب الزهد. وإبن المبارك في الزهد ١٦٠.

(٥) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٢٤ من كتاب الحدود، الباب ٥٩ من كتاب الفتن، والباب ٣٠ من كتاب الزهد. وإبن ماجه في سننه، الباب ١٢ من كتاب الحدود، والباب ٢١ من كتاب الزهد. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢٢/١، ٤٤، ٧/٣، ٣٠، ٣٨٢، ١٢٦/٤، ٤٢٨/٥، ٤٢٩. وإبن المبارك في الزهد ٣٩٣ وزوائد الزهد ١٦.

وروي عنه أيضا أنه قال: «رأيت النبي ﷺ، يبكي فقلت: ما يُبكيك؟ فقال: أمرٌ تخوّفتهُ على أُمتي: الشرك، أما إنهم لا يعبدون صنما ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولا وثناً، ولكن يراءون بأعمالهم، فكان أخوفَ ما أخاف عليهم الرياء»[1].

وأما الوجه الذي هو أدنى وأيسر: فإرادة العباد بطاعة الله عز وجل، وإرادة ثواب الله عز وجل، يجتمعان في القلب.

فالإرادتان: إرادة المخلوقين، وإرادة ثواب الله، أدنى الرياء، وهو الشرك بالإرادة في العمل، لأن الأول: أراد الناس ولم يرد الله عز وجل، وهذا أراد الى عز وجل والناس، فأشرك في عمله يطلب حمد الله عز وجل، وطلب حمد المخلوقين.

وكذلك يروي أبو هريرة عن النبي ﷺ: «إن الله تبارك يقول أنا أغنى الشركاء عن الشريك من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فأنا منه بريء وهو للذي أشركه»[2] فأبان بذلك أن من الرياء إرادةَ الله عز وجل، وإرادةَ خلقه.

وقال طاووس: «جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يتصدّق ويحبّ أن يُحمد ويؤجر، فلم يدر النبي ﷺ ما يقول، حتى نزلت عليه هذه الآية: **﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَـمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾**[3].

فأنزلها الله عز وجل جواباً لقول السائل، إذ سأل عمن أراد الله[4] عز وجل وأراد حَمد المخلوقين.

---

(١) انظر الباب العشرين من الوصايا للمحاسبي. والحديث أخرجه الإمام أحمد في المسند، ٢٤/٤، ١٢٦.

(٢) أخرجه: مسلم في صحيحه، حـ ٤٦ من كتاب الزهد، وإبن ماجه في سننه، الباب ٢١ من كتاب الزهد. والترمذي تفسير سورة ١٨. والإمام أحمد في المسند ٣٠١/٢، ٤٣٥، ٤٦٦/٣، ٢١٥/٤.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٤) في ط: من أراد الله...

وروى محمود بن لبيد عن النبي ﷺ أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، قال: يقول الله عز وجل لهم يوم يجازي العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء»(١).

وروي القاسم بن مخيمرة أن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تبارك وتعالى: انه لا يقبل عملا فيه مثقال خردلة من الرياء»(٢) وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تبارك وتعالى يوم القيامة، للذين كانوا يراءون بأعمالهم: اذهبوا فانظروا هل تجدون عندما كنتم تعملون له ثواباً».

وقال عمر رضي الله عنه لمعاذ بن جبل - ورآه يبكي - ما يبكيك؟ قال: حديث سمعته من صاحب هذا القبر، يعني النبي ﷺ، سمعته يقول: «إن أدنى الرياء شرك».

والحديث الذي يروى: «يسيرُ: الرياء شرك»(٣).

وسأل ابن أبي مغيث سعيد بن المسيب، فقال: أحدنا يصطنع المعروف يحب أن يحمد ويؤجر، فقال له ابن المسيب: تحب أن تمقت؟ قال: لا، قال: إن عملت لله عز وجل عملا فأخلصه.

---

(١) أخرجه بألفاظ متقاربة: الترمذي في سننه، الباب ٩ من كتاب النذور. وإبن ماجه في سننه، الباب ١٩ من كتاب الفتن. ومالك في الموطأ الحديث رقم ٣٤، ٣٥ من كتاب البيوع. وأحمد في المسند ١٢٤/٤، ١٢٦، ٤٢٨/٥، ٤٢٩.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث رقم ١٤٨، ١٤٩ عن كتاب الإيمان. وأبو داود في سننه، الباب ٢٦ من كتاب اللباس. والترمذي في سننه، الباب ٦١ من كتاب البر. وإبن ماجه في سننه، الباب ٩ من المقدمة، والباب ٢٧ من كتاب الفتن، والباب ١٦ من كتاب الزهد، والدارمي، الباب السابع من المقدمة، والإمام أحمد في المسند ٤٥١/١، ١٦٤/٢، ٢١٥، ١٥١/٤.

(٣) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب التاسع من كتاب النذور، وإبن ماجه في سننه، الباب ١٦ من كتاب الفتن.

وأخرجه بلفظ «إن أدنى الرياء شرك».

وقال رجل لعبادة بن الصامت. أقاتل بسيفي في سبيل الله أريد وجه الله عز وجل، ومحمدة المؤمنين، فقال: لا شيء لك، فسأله ثلاث مرات، كل ذلك يرد عليه لا شيء لك، ثم قال في الثالثة. إن الله عز وجل يقول: (**أنا أغنى الشركاء عن الشريك، من عمل لي عملا وأشرك معي شريكا ودعت نصيبي لشريكي**)[١].

وذكر الله عز وجل في قول من رضي عنه من المؤمنين، فقال: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لاَ نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلاَ شُكُوراً**﴾[٢] فنفوا عن قلوبهم أن يريدوا مع الله خلقه.

وقال الضحَّاك: «لا يقل أحدكم هذا لله ولك، ولا يقل أحدكم: هذا لله وللرحم، فإنه لا شريك له».

وضرب عمر رجلا بالدرَّة، ثم قال: اقتصَّ منِّي[٣]، قال: بل أدعه لله ولك، فقال له عمر: ما صنعت شيئاً، إما أن تدعها لي فأعرف ذلك، أو تدعها لله وحده، قال: ودعتها لله وحده، قال: فنعم إذاً.

فدلت هذه الآثار أن أعظم الرياء: إرادة العباد بطاعة الله عز وجل، وأن يكون أدناه إرادة المخلوقين وإرادة ثواب الله عز وجل.

---

(١) أي: تركت نصيبي لشريكي من الناس حسب إرادة المرائي، ولا أقبل هذه القسمة، ويقول المحاسبي في آداب النفوس في باب الإرادة إن العبد قد يعتقد إخلاص عمله لله ثم يثبت كذبه بعد عشر سنين أو خمسين سنة كالرجل يصنع المعروف إلى رجل يعتقد أنه أراد الله ثم تدعوه الحاجة أن يطلب من المصنوع إليه المعروف شيئاً فلا يجيبه فيذكر معروفه الذي صنع إليه منذ عشر سنين أو أكثر وثبت كذبه في دعواه. والحديث سبق تخريجه.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٩.

(٣) وإنما ضربه لأنه رآه يكلم امرأة في الطريق، فلما عرف أنها امرأته طلب منه أن يقتص منه، فلما رفض الرجل القصاص حاكمه عمر إلى أبي بن كعب رضي الله عنهما أنظرها في ترجمة عمر من (سير السلف للحافظ إسماعيل الأصفهاني).

باب هيجان الرياء والدواعي إليه

قلت: بم يكون الرياء الذي يتشعب في القلب و (ما)[1] الذي يهيجه؟ لأنه لو لم يكن له من قلب العبد أصل يتشعب منه ويهيجه، لم يقبل خطرات العدو في ذلك، إذ يدعو إلى ما ليس في قلب العبد له محبة ولا رغبة.

قال: أجل.

قلت: ما هو؟

قال: ثلاثة عقود في ضمير النفس: حب المحمدة، وخوف المذمة والضعة[2] في الدنيا، والطمع فيما[3] في أيدي الناس.

قلت: ما الدليل على ذلك؟

قال: ما يجده العبد من نفسه: أنه يحب أن يعلم العباد بطاعته لربه عز وجل فيوصَل ويعطَى ويكرم، ويحب أن يحمد، ويثنى عليه ويعظم، ويكره أن يذمَّ، فيفعل الطاعة لئلا يذم، بقلة الرغبة فيها.

قلت: قد أجد ذلك، ولكن أردت الدليل عليه من العلم.

قال: الدليل على ذلك الحديث الذي رواه أبو موسى الأشعري: أن أعرابيا سأل النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حميّة، ومعنى ذلك أنه يحمي فيأنف أن يقهر أو يذم بأنه غلب أو غلب قومه فيقاتل لذلك.

---

(١) سقط من ط:

(٢) الضفة: الصغار في أعين الناس.

(٣) في ط لما في أيدي الناس.

قال: «والرجل يقاتل ليرى مكانه»[1]. وهذا طلب الحمد بالقلب، ومعرفة القدر. «ورجل يقاتل للذكر». وهذا طلب الحمد بالألسن.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إذا التقى الصفان نزلت الملائكة فيكتبون الناس على نياتهم: فلان يقاتل للذكر، ومعنى هذا حمد المخلوقين، والرجل يقاتل للملك وهذا الطمع في الدنيا.

وقال عمر رحمة الله عليه: وأخرى تقولونها في مغازيكم: فلان قتل شهيداً، ولعله أن يكون قد ملأ دفتي راحلته ورِقا[2].

وقال النبي ﷺ: «من غزا لا ينوي إلا عقالا[3] فله ما نوى» يرويه عنه عبادة.

وقال النبي ﷺ: «من هاجر لدنيا يصيبها فهجرته إلى ما هاجر إليه»[4] يرويه عنه عمر رضي الله عنه.

وقال: «من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فله ما نوى»[5].

وهاجر رجل ليتزوّج امرأة يقال لها: أمُّ قيس، فسمّى مهاجر أُم قيس. إذ لم يهاجر إلا لتزوجه نفسها. يرويه عنه ابن مسعود.

فالذي يبعث على الرياء وقبول خطرات العدو هذه الثلاث خلال: حبّ

---

(١) اي: يرى مكانه في الصف متقدما مهاجما، والذي أفسد عمله هو هذه الرغبة، أما أن يقاتل ليرى مكانه عند ربه فهذا هو الإخلاص. وقد سبق تخريجه.

(٢) اي فضة اما أن يملأ جانبي راحلته فضة فقد افسد عمله من وجهين. اولها انه غلول منهي عنه اشد النهي.
وثانيها انه اشرك في عمله رغبته في جمع المال، إذ جمعه قبل ان يقتل، وقبل قسمة الغنائم.

(٣) أي: لا ينوي إلا الحصول على عقال بعير، وهو أتفه المال، والمعنى أن إرادة غير الله تعالى مهما كان المراد تافها يفسد العمل. وقد سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه. حديث: إنما الأعمال بالنيات.

(٥) سبق تخريجه.

المحمدة، وخوف المذمة والضعة، والطمع للدنيا، ولما في أيدي الناس جميعاً، ويجمع ذلك كله: حبّ المحمدة، وخوف المذمة[١].

لأن العبد قد يعلم انه لا ينال ما عند الناس بطاعة ربه إلا أن يحمدوه عليها[٢] فتبذل له أموالهم، وأنه إنما جزع من الذم للمحمدة كراهية ان يزول عنه حمدهم، فتؤول هذه الخلال الثلاثُ إلى حب المحمدة، إلا أنها تشعبت وتفرقت على أقدار الناس وقدر مراتبهم.

باب وصف خوف المذمة

والطمع لما في أيدي الناس

قلت: فكيف يخاف المذمّة؟

قال: كالرجل يحضر العدوَّ فيحضر للقتال[٣]، فيتقدمه قوم هم أشجع منه، فيصيروا في نُحور العدو، ولا يقوى هو على ذلك، فلا يمكنه طلب الحمد ممن حضر إذا وقف مع العامة في الصف وساواهم، و[قد] تقدَّم الخاصة في نحور عدوهم، فييأس [من] أن يقول [عنه] من معه في الصف: ما أشجعه وهو مثله[٤]، وهم يرون من تقدمهم وتقدمه.

فإذا يئس من الحمد، وكان ممن لا يريد ان يقف في الصف جبناً، او غير

---

(١) والطمع في الدنيا داخل في حب المحمدة وخوف المذمة، إذ يريد الطامع فيها ان يمدح بالغنى والثروة والجاه، ويأنف من أن ينسب إليه الفقر والحاجة.

(٢) ومن دأب المرائين كذلك ـ وغالبهم من الوعاظ والمتصدرين للارشاد من المدعين ـ أن يزهدوا الناس في الدنيا ـ ولا سيا الأغنياء ـ ويبالغوا في تزهيدهم لا يريدون بذلك وجه الله، وإنما يريدون أن يأخذوا منهم دنياهم في نفس المجلس. انظر طائفة ممتعة من أخلاق هؤلاء العلماء المنافقين في الباب الرابع من «الوصايا» للمحاسبي.

(٣) في ط: فيحضر القتال.

(٤) اي جبان مثله، إذ لا يمدح الجبان جباناً إلى جنبه بالشجاعة أبداً.

ذلك، وأراد ان ينحاز عن الصف، خاف ان يقولوا: ما أجبنه، فيحبس نفسه معهم، لئلا يولي فيذموه على الجبن وقلة الرغبة في ثواب الله عز وجل.

وكذلك من تخلف عن الصف الأول في القتال فلم يمكنه طلب الحمد على الشجاعة، وأراد الإنصراف لقلة رغبته في الأجر، أو لجبن يمنعه من الإنصراف، أن يُذم بالجبن ويسمى به، فصار حبسه نفسَه في ذلك الموقف خوفاً ان يذم، ولولا ذلك لانصرف، لأنه إذا خاف الهزيمة او رأى كثرة القتل، احب أن يتنحى عن الصف أو يفرّ من العسكر والسرية، فإذا خاف ان يقال: جبن حبس نفسه على المقام.

وكالرجل يكون مع القوم[١]، فيتصدق كل واحد منهم بالدينار وبالدرهم، او الشيء الكثير، ولا تسخو نفسه ان يتصدق بمثل ما تصدقوا، ويكره ألا يتصدق بشيء فيبخل، فيتصدق بالشيء اليسير لئلا يبخل[٢]، وقد ييأس ان يحمد إذ فاته القومُ بما أعْطَوْا.

أو كرجل يكون معه الرجل يطيل الصلاة بالليل او بالنهار، ولا يقوى على صلاة من معه، ويكره ان يكسِّله[٣] من معه فلا يطمع ان يحمد، إذ فاقوه في الصلاة، فصلى الركعتين او الركعات كراهية ان يكسّل[٤]، فيجزع من أن ينظر إليه (الناس)[٥] بعين الكسل ولا يجد للمحمدة موضعا.

وكالرجل يترك بعض ما يجهله من دينه، ولا يسأل عنه[٦] كراهية أن يقال: هو جاهل بهذا إلى اليوم، أو يجهل مثل هذا.

---

(١) في أ: معه القوم.

(٢) اي لئلا يسميه الناس بخيلا.

(٣) اي: مخافة ان يظهر كسله بالمقارنة إلى اجتهاد من معه.

(٤) اي: كراهة ان يقول الناس عنه إنه كسول.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٦) في أ: وأن يسأل عنه.

وقد يحمله خوفُ المذمة على الكذب، حتى يدعى انه قد كتب من العلم ما لم يكتب [1].

وقد يحمله خوف المذمة على الكذب على أن يفتي بغير علم، وقد علم أنه لا يحسن ما يُسأل عنه، وأن الواجب عليه أن لا يفتي في ذلك، وأولى به ان يقول: لا أدري، فتجزع نفسه أن يذم بجهل ذلك [2].

وأشياء كثيرة من هذا الباب.

وكذلك يدع اكتساب الحلال كراهية الذم.

وكذلك يدع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كراهية ذم من يأمره وينهاه [3].

قلت: فالطمع لما في أيدي الناس كيف هو؟

قال: يجب ان يراه من يرجو منه البر، فيعطيه على عمله، فيصله ويبره، أو يطلع عليه فيفرح باطلاعه ليبره ويصله.

فإن اطلع على ذنبه اغتم له ما لا يغتم باطلاع غيره ممن لا يطمع فيما عنده [4]، وإن اطلع على طاعته ارتاح قلبه لاطلاعه ما لا يرتاح لاطلاع غيره ممن لا يطمع فيما عنده، وأشياء كثيرة من ذلك.

---

(١) وذلك يكون بسرقة افكار الغير دون تنبيه، وهو أمر شائع بين علماء العصر، او ادعاء العلم وكتائبه كذبا.

(٢) فصل المحاسبي أخلاق هذا النوع من العلماء بأسلوب جميل جدا في باب الدعوى من «آداب النفوس». من تحقيقنا تحت الطبع - دار الجيل - بيروت.

(٣) اي: كراهيـة ان يلحق المرائي ذم ممن يأمره وينهاه، وعلى هذا الخلق جمهور عظيم من علماء العصر.

(٤) اي: إن رياء العلماء يبرز عند الأغنياء سواء كانوا من العامة او من الخاصة، وتصديقاً لرأي الإمام المحاسبي نجد الوعاظ دائماً يكثرن التردد والثرثرة لدى التجار وأرباب الثراء، ويهملون الفقراء ولا يعتذون بحاجتهم إلى الإرشاد. انظر في هذا الموضوع رسالة ممتعة جدا للامام الشعراني، مخطوطة رقم ٧٧٧ تصوف، رصيد دار الكتب المصرية.

وكذلك من يبايعه، فيربحه او يبايعه ويؤخره عليه ويحب حمده أن رآه على خير وارتاح قلبه، فيحب أن يتصحّح عنده بالورع وحفظ المنطق والوفاء بالموعد، ليثق به ولا يجوزه إلى غيره.

وكذلك الصانع عند من يسلم إليه العمل، والأجير عند من يستأجره أو يوكله بضيعته او تجارته او عمله، يحب الصحة عنده ويرائيه بالورع.

قلت: قد فهمتُ هذين، فأما حب المحمدة فهو أبين في النفس وأجلى من أن أحتاج إلى تفسيره لي، فقد تبين لي ان هذه الثلاث خلال هي التي تهيج الرياء وتبعث على قبول خطرات العدو فما الذي كانت هذه الثلاث خلال منه[1]؟ فإنه لا ينبغي إلا أن يكون لها أصل عنه تشعبت وتفرقت.

قال: أما أصل هذه الثلاث خلال الذي منه تشعبت (وتفرقت هكذا فهو)[2] معرفة النفس بلذة ما تنال من الحمد والبر، وما يدخل عليها من ضرر الذم وغمه، فلما عظمت المعرفة بذلك انبعث[3] العبد على اعتقاده هذه الخلال الثلاث.

لأنه لما عرف أنه إن حمده الناس عظموا قدره، فبدأوه إذا لقوه[4] بالسلام والبشر والإعظام، والهيبة والتوسعة له في المجلس، والتكرمة له بتشريفه وقبول الشهادة، وتصديق الحديث وحسن الظن به حتى يوجه الذنب منه إلى الخير.

فكيف بالخير إذا كان منه؟ وقبول امره والانتهاء عما نهى عنه، والرئاسة واستماعه الثناء الحسن الذي يلتذ به السمع وتستريح إليه النفس. فهذه معرفة ما ينال من حمد العباد.

---

(١) اي: ما الأصل الذي نشأت هذه الخلال منه.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٣) في ط: بعث العبد.

(٤) في ط: فيبدأ إذا لقى.

(٥) وعلى هذا الخلق كثير من جهلاء المتصوفة.

وأما الطمع فمعرفته: بأن من برّه الناس بما يظهر من طاعة ربه فإنه يوصلُ بالأموال وتهدى إليه الهدايا، وتقضى له الحوائج ويسارع إلى إقراضه المال، ويوسع عليه في طلب الدين وما أشبه ذلك.

قلت: فخوف المذمَّة؟

قال: أما خوف المذمة فمعرفته ان من ذمه الناس يكذّب صدقُه، ويُساء به الظن في الخير، فكيف في الشر؟

ترد عليه شهادته ويرد عليه قوله، ويقصى مجلسه، ويعرض عنه، ويُحفى في السلام ويرد بغير قضاء حاجة، ويستحي من صحبته والتحذير منه إن أشيرَ في أمره في خطبة او شهادة، ولا يؤمن على مال ولا حرمه. وربما وضع عليه ذنب غيره. ويحمل عليه لغيره. وربما كان مظلوماً.

فلما عرف عظيم قدر هذه الخلال في الخير، في الطمع والحمد، وفي الضرر في الذم، اعتقد حب حمدهم وخوف مذمتهم، والطمع لما في أيديهم، فورثته المعرفة بذلك الرغبة، وغلبت على قلبه، فأهاجت دواعي هذه الثلاث الخلال إلى الرياء، واعترض العدو وبالدعاء بالرياء بالعمل والعلم، لما عرف من عظيم رغبته فيهن.

باب ما يكسر به دواعي الرياء والحمد والطمع

قلت: قد وصفت المعرفة بذلك وصفا لم تهوِّنها في قلبي، حتى خشيت ان تغلب علي، بل كنت أجد ذلك قبل أن تصفه لي، ولكن لم أعرف شرحه حتى شرحته لي، فما الذي يوهن المعرفة بما يُنالُ به دفعُ هذه الخلال الثلاث ويصغرها ويحقرها، ويدل على عورات سوء عاقبتها، حتى يزهد العبد فيها ولا يعتقدها، ولا يكون لها في قلبه قوة، فتضعف الخلال الثلاث التي تُهيج على الرياء ويُعرض عنها، ومن أجلها.

قال: المعرفة بخلتين.

إحداها: ما يحرم وينقص من خوف الله وتوفيقه، وإصلاح قلبه في الدنيا.

ومعرفته بما ينقص من ثواب الله عز وجل بذلك في الآخرة، وخوف مقته، ان يطلع على قلبه وهو معتقد لواحدة منهن.

والخلة الثانية: تحصيل ما ينال من العباد عند تحصيله لذلك، مع ما ينزل به من الله تعالى.

فأما الذي يحرم به من الله عز وجل في الدنيا، وما ينزل به منه إذا اعتقدهن فإنه يتحبَّب إلى العباد بالتبغّض إلى الله عز وجل.

ويتزين لهم بالشين عند الله عز وجل.

ويتقرب إليهم بالتباعد من الله عز وجل.

ويتحمد إليهم بالتذمّم لله عز وجل.

ويطلب رضاهم بالتعرُّض لسخط الله عز وجل.

ويطلب ولايتهم بالتعرض للعداوة من الله عز وجل.

ويُحرَم في الآخرة الثواب، ويحيط عمله في الدنيا، ويبطل أجره في يوم فقره وحاجته وفاقته.

ولعله يحبط من عمله ما لو كان أخلصه في الدنيا فجعل مع حسناته، فرجحت على السيئات، دخل الجنة.

فتكون سيئاته أرجح من حسناته، ولو أخلص عمله لوضع مع حسناته فدخل الجنة، فيدخل النار إذ لا حسنات له خالصة تجعل مع حسناته.

فلا تسأل عن تقطع نفسه بالحسرات والندامة، إلا أن يكون أخلصه قبل القيامة إذا رأى موضع منفعة الإخلاص، وموقف ضرر الرياء.

وإن كانت حسناته راجحة على حال لما عنده من العمل الخالص سوى ذلك فقد خسر بعض حسناته التي تقرب بها من ربه عز وجل، ويعلو بها في جنته مع سؤال

الله عز وجل له وتوقيفه إياه على الرياء والحياء منه أنه قد قدم في الدنيا في عمله عليه غيره في الهيبة والمحمدة، والتقرب والتحبُّب للتعرض للتباعد منه والتمقُّت إليـه.

وما يناله في الدنيا بإظلام قلبه وخبث نفسه، وزوال الرجاء عن قلبه، إذ علم بريائه.

وتشتت همومه في طلب حمدهم لا يحصى، لأنه كثير عددهم، لا يحصى من يعامل منهم، ورضاؤهم لا يدرك، لأن بعضهم يرضى بما يسخط (به)[1] بعضهم فإن فعل ما يرضي بعضهم سخط آخرون[2]، وإن فعل ما يسخط بعضهم رضى آخرون، ولأن بعضهم يسيء الظن، ويحمده بعضهم على ما يذمه (به)[3] آخرون.

فرضا من يطلب منهم بسخط من يترك منهم[4]، فقلبه مشتت وهمومه كثيرة لأنه لا يدرك منهم جميعاً ما يطلب.

وأما ما ينال منهم مع تعرضه لهذا البلاء العظيم، وما يترك به من (رضا)[5] الله عز وجل في الدنيا والآخرة، فإنهم لم يزيدوه بحمدهم في أجل ولا رزق، ولا اجترار عافية ولا صرف بلاء، ولا دفع مكروه مما قدر الله عز وجل.

وأما الطمع فيما في أيديهم فإنه لم ينل ما لم يقدر له، وإن كان (قد)[6] نال شيئاً فإنما نال ما قدر له مما لو كان أخلص عبادة ربه لنال ما نال لا محالة.

فأحبط عمله وتعرض لمقت ربه وحرمان ثوابه، من غير ازدياد في رزق ولا أجل، ولا اجترار منفعة في دين أو دنيا على ما قدر له، فكيف يزهد عاقل فيما يضره في الدنيا والآخرة بغـير اجترار منفعة في دنياه؟

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من: ط.
(٢) في أ أسخط آخرون.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٤) يعني: يتوقف رضا من يرائيهم على إسخاط من يهملهم ولا يرائيهم.
(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وأما المذمة: فإنه لا ينزل به من البلاء، ما لم يقدر له، ولن يناله من الذم ما لم يقدر.

ولا يناله من الذم إلا ما لو أخلص لكان ذلك الذم حمداً.

ولعله قدر أن يلقى كذبه في قلوبهم فيذموه إذ فر من ذمهم[1].

ولا يصرف مخافة ذمهم شيئا من العاقبة والرزق، ولا يقطع من الأجل ما قدره الرحمن جل وعز.

فحبط عمله من غير دفع مكروه من البلاء، ولا زوال محذور من المقدور، وما لم يقدر فليس بمصيبة أبداً[2].

فكيف لا يزهد عاقل في هذه الخلال إذا عرف ضررهن[3]، و (أنه)[4] لا ينال منفعة في دنياه بشيء منهن، وأن أمر الله مفروغ منه، وأن هذه الخلال الثلاث خدعة وغرور، تضر الضرر الأكبر، ولا تنفع في شيء من الأشياء.

فإذا عقل العبد هذا كما وصفتُ له: أنه يحبط عمله، ويبطل أجره، ويشتت همومه[5] ويتعرض لمقت ربه عز وجل، ويحجب قلبه عن الخير من عند الله عز وجل، من غير زيادة منفعة، ولا دفع مضرة، زهد في الخلال الثلاث ولم يعتقدهن.

وكيف يعتقدهن عاقل وهن يضررن به[6] الضرر الأكبر العظيم، لغير منفعة ولا

(١) اي: ربما ألقى الله في قلوب الناس وألهمهم كذب هذا المرائي ورياءه، فيذمه الناس من حيث اراد مدحهم.

(٢) يعني: ما لم يقدره الله لا يصح أن يكون مكروها أبدا، كما أن ما قدر لا يجوز أن يكون مكروها، لأن المؤمن يجب أن يكون راضيا بالمنع والعطاء، ومن هنا يستقيم على جادة الخلق الكريم، ويصغر الخلق لديه، فلا يرغب عندهم في خير، ولا يرهب من شر.

(٣) في ط: ضرهن.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٥) في ط: تشتت همومه.

(٦) في ا: يضررنه.

دفع مضرة؟

ما يكون هذا بعد هذا البيان إلا من الحمقى المجانين.

وربما اتقى بعض الحمقى مثل هذا في دنياهم من الذي يُتلف ماله، أو يقطع بعض جوارحه، أو يقتل ولده، بغير اجترار منفعة ولا دفع مضرة[١].

وقد روى النبي ﷺ ما يبين لك ذلك، مع ما أنزل الله عز وجل في كتابه: أن رجلا - وهو شاعر بني تميم - قال: إن حمدي زين، وإن ذمي شين، قال: « كذبت. ذلك: الله عز وجل »[٢].

فإذا كان لا يزين حمد غير الله عز وجل، ولا يشين ذم غيره، واستقر ذلك عند العبد العاقل، استوى حامده وذامه في طاعة الله عز وجل، إلا طبع ينازعه قد قمعه بعقله وغلبه بعلمه[٣].

ومع ذلك لو كان ينفعه حمدهم، ويضره ذمهم، لكان قد جهل طلب الحمد والفرار من الدم، لأنه لا يعلم الناس أنه يريد حمدهم على طاعة ربه تعالى، لأن إرادته مغيبة عنهم في قلبه، أحب حمدهم أو لم يحبه.

فالأمر في الظاهر (عند العباد)[٤] واحد، وليس عند الله عز وجل بواحد.

هو في الظاهر متطهر، وفي الباطن نجس فاجر القلب، قد أضمر في القلب من إرادتهم ما لا يظهر لهم فيحمدوه أو يذموه.

---

(١) أي: إن الأحمق يتقي حمد الناس له إذا كان هذا الحمد يتلف ماله، فكيف لا يتقي العاقل حمد الناس إذا كان يتلف عمله عند الله.

(٢) روي الحديث في كتاب العقل للمحاسبي: ذلكم الله. والحديث أخرجه الترمذي في سننه، تفسير سورة ٤٩/٢. والإمام احمد في مسنده ٤٨٨/٣، ٣٩٣/٦.

(٣) منازعة الطبع عند المحاسبي لا تضر في السلوك إذا عالجها الإنسان. أنظر رأيه في منازعة الطباع في باب الزهد من كتاب « القصد والرجوع إلى الله » وفي ترجمته في كتاب « حلية الأولياء » الجزء العاشر لأبي نعيم الأصفهاني.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

ولو أبطن الإخلاص بإرادة الله عز وجل وحده، لكان الأمر واحداً عندهم.

بل لو اطلعوا على ما في قلبه فعلموا أنه يريد حمدهم على طاعة ربه، أو الطمع لما في أيديهم أو خوف ملامتهم، لمقتوه على ذلك مع ما يتعرض لمقت الله عز وجل أيضاً، ما هو إلا شيء يعتقده في قلبه، ولا معنى له إلا البلاء والضرر في الدين والدنيا والآخرة غداً عند الله عز وجل.

فلو كان ينال بحمدهم منفعة وزيناً، وبذمهم ضررا وشينا، كان قد أخطأ طريق طلب الحمد والفرار من الشين.

فكيف وليس أحد ينفع حمده إلا الله، فلا يضر ذمه إلا الله عز وجل، إذ لا شريك له في ملكه، ولا مدبر لغير ما أراد في سلطانه.

فهذا الذي يصغر ما تأمل النفس من هذه الخلال، ويعظم المعرفة بضررها، وألا منفعة فيها.

فإذا ثبتت هذه المعرفة أورثت القلب الزهد فيها، والرفض لها، فضعفت دواعي الرياء في قلبه حين تعرض في نفسه وعدوه، فينكسر الطبع، ويخشى العدو، ويتمكن الإخلاص، ويصفو العمل، ويطهر القلب، ويستأهل العبد الإقبال من الله عز وجل، والمعونة له، ويجتمع همه، فيصير واحدا في معاملته لخالقه ومولاه، ويستريح من تشتت الهموم في معاملة الخلق، ويعتق من ذلة الرياء، وتضرعه للعباد، واهتمامه برضاء واحد وبسخط آخر، لأنه علم أن معاملة الخلق لا معنى لها، وأن معاملة الله عز وجل فيها خير الدنيا والآخرة.

باب شرح ما يراءى به من العمل واللباس
وغير ذلك

قلت: وقد وهنت هذه الخلال عندي، وتبين حماقة من اعتقدهن وقلة عقله وفهمه عن ربه جل وعز، فأخبرني عن المراءى به الذي يُتَزَيَّنُ به من قبل هذه

الخلال الثلاث ما هو؟ من وجه واحد هو أم من وجوه شتى؟.

قال المراءى به والمتزين به خمسة أشياء:

يرائي العبد ببدنه، وبزِّيه، وبقوله، وبعمله، وبغيره من الصحابة والقرابة. فيرائي بالطاعة بهذه الأشياء الخمسة.

وكذلك أهل الدنيا: يراؤون بالدنيا بهذه الخصال الخمس، إلا أن ذلك أيسر من الرياء بالطاعة.

[الرياء بالبدن]

فأما البدن فيرائي به العبد من جهة الدين.

يرائي بالنحول وبالاصفرار[١] ليتوهموا فيه[٢] الاجتهاد والأحزان أو الخوف.

ويرائي بضعف الصوت، وغور العينين، وذبول الشفتين، ليستدل بذلك على الصيام.

كما يروى عن أبي هريرة، ويروى عن عيسى، ﷺ، أنه قال: «إذا صام أحدكم فليَدْهن رأسه، ويرجِّل شعره، ويكحل عينه»[٣]. يخاف عليهم أن يراؤوا بما يظهر من بشرة وجوههم الذي يدل على صيامهم.

وقال ابن مسعود رضي عنه: أصبحوا صياماً مدهنين.

وكذلك النحول يدل على التقلل من الغذاء ويدل على الهموم والأحزان، وكذلك الاصفرار، يدل على الصيام وقيام الليل، والأحزان والغموم، وفي ذلك التمقت إلى الرحمن عز وجل.

---

(١) في ط: الصفار. في الفقرة كلها.

(٢) في ط: عليه.

(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد ٥٧، وإبن المبارك في الزهد ٤٨.

وأما أهل الدنيا: فيراءون بالسمن، وصفاء اللون، وانتصاب الصلب، وذلك أيسر من الرياء بالدين.

[الرياء بالزي]

وأما الزيّ: فيرائي العبد بتشعث الرأس، ومراهة العينين[1]، وحلق الشارب، واستئصال الشعر أو فرقه، يظهر بذلك تتبع زيّ النبي ﷺ، وأثر السجود، وخشن اللباس، وغليظها، وتشميرها، وقصر الأكمام، وخصف النعال، وحذوها على زيّ أهل الدين، وترك تهذيب الثوب، وجميع التقشق على قدره في العبادة وقدر أصحابه، لأن القراء في ذلك أصناف.

فمنهم من يريد أن يجتمع له الحمد على الدين والدنيا، فيلبس الثياب الجيدة ويشمرها، ويلبس النعال الجيدة ويحذوها على غير حذو العوام على زي أهل الدين مع جودتها، والرداء الجيد ولا يفتله، أو يفتله إن كان أصحابه لا ينفق[2] عندهم إلا ذلك، والأكسية الجيدة التي تجوز عند أهل الدين والدنيا.

يريد أن يحمده أصحابه والقراء والملوك والأغنياء من التجار وغيرهم، فلبس زي القراء في جودة ثياب الأغنياء، فقد جمع زي أهل الدنيا والدنيا، ليحظى عند أهل الدين والدنيا.

ومنهم من يجب أن يبجله الملوك والسلاطين والقراء على الدين، وينفق[3] عند جميع أهل الفرق، فيبالغ في الثياب، والحمار الفاره والدابة الفارهة[4]، يريد حمدهم أجمعين فيدنو من السلطان على جهة الدين، ويقضي الحوائج لأهل الدين ويجالسهم تصنعا وتزينا.

---

(١) أي ذبولها.

(٢) أي: لا يستحسنون إلا ذلك

(٣) يعني: يروج.

(٤) الفاره: الجيد العظيم.

ومنهم من يتقرب بالطاعة عند أهل الهدى والضلال، ليقيم وجهه عند أهل الحق وأهل الباطل.

يلقى هؤلاء بما يحبون، وهؤلاء بما يحبون ـ وهذا شر الفِرق من أهل الرياء والتصنع ـ ليتقرب إلى أهل كل طبقة بما ينفق عندهم [١].

ومنهم من لو جعل له مفروح [٢] ما قَوى أن ينتقل مما قد ألفه وعرف به من الزي في دينه، فمن يلبس منهم الصوف والثياب الخشنة الدون، لو قيل: تلبس المروية أو اللينة الجيدة أو الرقاق، لكان عنده قريبا من الذبح، كراهية أن يقول الناس فتر عن طريقه، وركن إلى الدنيا بعد تقشفه.

ولو قيل لأهل الطبقة الوسطى ممن يلبس الأوسط من المروي، أن يلبس الثياب الرقاق الجيدة، والأكسية الرقاق الجيدة، والأكسية الرقاق المرتفعة، أو الكتان الرقيق، لكان عنده قريبا من الذبح، كراهية أن يقال ركن إلى الدنيا ورغب فيها.

وكذلك لو قيل لأهل هذه الطبقة، أن تلبس الصوف والثياب المخرقة الوسخة شق ذلك عليه، كراهية أن يحقره أهل الدنيا، وينظروا إليه بالازدراء، يريد ألا يحقر، ويريد أن يحمد على زي الصالحين، ولا يقوى أن يغير ذلك الزي إلى ما هو أرفع منه، كراهة أن يظن به رغبة، في الدنيا.

وكذلك أهل الرياء بالثياب الجياد المرتفعة، فلو قيل لهم انتقلوا [٣] إلى الصوف والخشن من اللباس لما فعلوا، لئلا يكسدوا [٤] عند الملوك وعند السلطان والقضاة وأهل الغنى [٥].

---

(١) وهي صنيعة بني إسرائيل حينا قرب خراب هيكلهم.
(٢) أي: طريقا يفرح به لما ينال من حمد الناس وثنائهم.
(٣) في ط: أن ينتقلوا.
(٤) يكسدوا: يبوروا ولا تروج بضاعتهم.
(٥) في ط: الفناء

وكذلك لا ينتقلون إلى زي الملوك من لبس المصبغة والقلانس وتقطيع آلثياب، لئلا يكسدوا عند القراء، ويذموهم ويقولوا: رجعوا عن طريقهم، وانسلخوا من طريق القراء، كل ذلك (من أجل)[1] إقامة المنزلة بالدين عند كل الفرق.

وأما الرياء بالدنيا فتصنع أهل الدنيا عند أمثالهم (من أهل الدنيا)[2] بالثياب الجياد على غير زي الدين، من تطويل التقطيع بالطيالسة المصبغة والجياد وغير ذلك.

الرياء بالقول

وأما الرياء بالقول: فبالنطق بالحكمة وإقامة الحجة عند المجادلة، وحفظ الحديث وبيان الحجة والفهم بالعلم، وإظهار الذكر لله عز وجل باللسان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتضعيف الصوت عند المحاورة، وحسن الصوت بالقراءة وتحزينه؛ ليدلّ بذلك على المخافة.

ويرائي أهل الدنيا بالفصاحة وشدة الحجة في المحاورة في الحقوق وغيرها، وحسن الصوت وحفظ الأشعار، وحسن الصوت بالشعر والغناء، وقوة الصوت، والنحو والغريب.

الرياء بالعمل

ويرائي المتدين بعمله: يرائي بطول الصلاة، واعتدال الانتصاب فيها، والتمكن والتطويل للركوع والسجود، وشدة الخشوع فيها وتحزين القراءة[3]، وأخذ اليسرى على اليمنى واصطفاف القدمين، والتجافي في الركوع والسجود، ورفع الأيدي للركوع وبعده[4].

بالصوم وبالغزو وبالحج وبطول الصمت، وبذل المال في الواجب والتنقل وإطعام

---

(١) ما بين الحاصرتين: اسقطت من ط.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٣) أنظر: باب من أم قوما فألزم فله الحذر من المسائل للمحاسبي لنا.

(٤) إذن فالمحاسبي مجتهد، لأنه شافعي، وقد خالف الشافعية في رفع الأيدي.

الطعام، والإخبات في المشي وعند اللقاء، كإرخاء الجفون وتنكيس الرأس، وبالتثبت عند المساءلة بالوقار.

ألوان الرياء

ومنهم فرقة في ذلك تريد أن تجمع الدين والدنيا.

تمشي مسرعة لحاجتها، وتتكلم كذلك، حتى يطلع عليها بعض أهل الدنيا فتتقارب في الخطى، وتبطىء المشي وتنكس الرأس، فإذا جاوزتها عادت لحالها الأولى.

وذلك كالرجل يمشي مسرعاً لحاجته، أو يكون متلفتا جالسا وماشيا، فإذا رمقه بعض أهل الدنيا وأهل الدين ممن يحب أن ينظر إليه بعين الخشوع والسكينة والوقار، ولا ينظر إليه خفيفاً في مشيته، ولا لاهياً في تلفته، فإذا رمقه سكن في مشيته، ونكس رأسه، وقارب خطاه.

وكذلك يدع التلفت، ويحدث خشوعاً لم يكن عليه من قبل، فلم يخشع لذكر عظمة الله عز وجل ولا لذكر الآخرة، ولكنه خشوع أحدثه لمن يطلع عليه من الخلق.

ويرائي أيضاً بعض أهل الدين لغيرهم من أهل الدين بالعلماء والصحابة ممن هو فوقهم في الطاعات والعلم، فيسير مع العالم أو العابد، ليقال: فلان يأتي فلاناً ويمشي معه، أو ليقال: فلان صاحب فلان ويكثر غشيانه وذكره في كثير من حديثه ليوسم بمحبته (١).

فقد بينت لك أصول الخصال (٢) التي يراءى (المراءون) (٣) بها، إلا أنهم جميعاً

---

(١) ومن هؤلاء كثير من أدعياء التصوف أو أدعياء المعارضة له في سلوكهم مع شيوخهم أو داخل جماعاتهم.

(٢) في ط: الخلال.

(٣) ما بين الحاظرتين: سقطت من ط.

مختلفون في ذلك بعضهم دون بعض.

فمنهم من يريد بذلك أن يعرف الناس له قدره.

ومنهم من يريد مع معرفة القدر أن ينشر لهم حسن الثناء والحمد.

ومنهم من يريد بذلك الرياسة والشهرة في البلدان، والثناء والحمد والرحلة إليه.

ومنهم من يريد بذلك الشهوة عند الملوك والسلطان والتصنع للشهادات.

ومنهم من يريد بذلك أن يُطْمَأَنَّ إليه فيحتاز الأموال ويظلم الحقوق، وهؤلاء شر الفرق.

باب ما ينفي به الرياء

قلت: فبم ينفي الرياء حتى يسلم منه العبد؟.

قال: إن نفي الرياء. بمعنيين أحدهما: نفي ما قد قبل من الرياء وركن إليه، والآخر: نفي العارض بالدعاء ولم يقبله.

قلت: عنهما جميعاً أسالك وأبدأ بنفي العارض.

قال: العارض لا يخلو أن يكون من العدو، أو من قبل هوى النفس[1]؛ لأن العدو له ثلاث خطرات بذلك:

أولها: الرياء بذكر اطلاع الخلق أو علمهم، أو رجاء اطلاعهم أو علمهم.

والثانية: الترغيب في حمدهم، أو التحذير من ذمهم، وقد تجمع الخطرة الواحدة ذكر علمهم والترغيب في حمدهم (معا)[2].

والثالثة: الدعاء إلى القبول، والعقد لذلك والركون إليه.

فأقوى الناس في النفي: الراد عند الخاطر الأول، بتذكير علم الخلق والقنوع بعلم

(١) في ط: من النفس من قبل هواها.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

الخالق[1].

والذي يليه في القوة: الراد عند الترغيب في الحمد والترهيب من الدم، بالرغبة في الثواب، والرهبة من ذم الديان.

والثالث: الذي يرد حين يدعو إلى القبول بعد هيجان الرغبة والرهبة في الحمد والذم.

قلت: فكيف الردُّ للعارض عند هذه الخطرات الثلاث؟

قال: ينفي ذلك كله بالمعرفة والكراهة إن اجتمعا، وإن افترقا لم ينتف الرياء.

قلت: فكيف ذلك؟

قال: إن كان كارهاً للرياء في جملة عقد قلبه ثم اعترض الدعاء وهو عاقل، فلم يعرف ان ذلك هو عارض الـرياء الذي يحبط العمل قبوله، فركن إليه واستحلا ولم يذكر[2]، فيستعمل الكراهة المتقدمة في جملة عقد قلبه وضميره.

لأن الخطرة تأتي بالدعاء إلى الرياء بالترغيب في الحمد والنيل من الدنيا، والترهيب والتحذير من الذم والملامة، فيملأ حلاوة حب الحمد (ومرارة)[3] ورهبة الذم قلبه، ولا يكون في القلب موضع فراغ يذكر به أن ذلك هو الذي يحبط عمله.

كالعبد ينوي ان يحلم إن غضب، ولا يكافىء بما يكره الله عز وجل، فإذا اغتاظ ملأ الغيظ قلبه، ونسي عزمه، ولم يبق من قلبه موضع فراغ يذكر به ما قدم من العزم على الحلم.

فكما يملأ الغيظ قلبه فكذلك حلاوة الشهوة تملأ قلبه فينسى ذكر ربه.

---

(١) أي: المكتفي بعلم الله تعالى بالعمل عن علم الناس، إذ لا يفيد علم العباد.

(٢) في ص: ولم يتذكر.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

كما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال: «بايعنا رسول الله ﷺ تحت الشجرة على أن لا نفر، ولم نبايعه على الموت، فأنسيناها يوم حنين، حتى نودي بأصحاب الشجرة فرجعنا».

وإنما الغيظ مثل ضربته لك، قياسا على امتلاء القلب بحلاوة الشهوة، وحمد المخلوقين.

فينسى العبد عزمه والكراهة المتقدمة للرياء في جملة عقد قلبه، فيركن ولا ينفي ذلك، وعامة الأعمال الحرام كذلك (من هذا الباب)[1].

فكذلك الذي عرض له وليس معه ذكر الرياء، فلما فقد المعرفة، لما عرض (له)[2] زال عن الكراهة الأولى ولم يستعملها، لأنه إنما قدمها في جملة عقد ضميره، يستعملها عند العارض ليبعثه على ألا يقبله، فتركها حين احتاج إليها، وفي الموضع الذي أعدها له لأن تلك الكراهة من عزم العبد على الإخلاص، وترك الرياء قبل العمل، على أن يخلص، ولا يرائي، إذا عمل عملا من طاعة ربه عز وجل.

فقدم الكراهة للرياء[3] قبل العمل ليستعملها عند العمل، فيضيعها بنسيانه للقيام بحق ربه عز وجل في باطنه.

فلما فقد المعرفة نسي الكراهة الأولى.

وقد يذكر، فيعرف ان الذي عرض عارض، وداع إلى ما يحبط عمله، وأنه الرياء الذي نهى عنه فيغلبه هواه وشهوته، فلا يرد ذلك، ولا يكرهه لغلبة الهوى وقلة هيجان الخوف.

فإما أن يتشاغل عنه بعد المعرفة.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٣) في كراهة الرياء.

وأما أن يسوف التوبة من ذلك ويقبل الرياء ويعمل عليه.

كالرجل يتكلم بالكلام وما له فيه معنى يريده[1] غير المخلوقين ويفطن لذلك فيمضي في كلامه ولا ينفيه عن قلبه، ولا يسكت عن كلامه.

وكذلك: يذهب إلى الموضع ما له فيه الغنى غير المخلوقين، يريد حمدهم او منفعتهم بطاعة ربه، كالذهاب إلى (مجلس)[2] العلم أو مجلس من مجالس الذكر، فيعرف لذلك ولا ينهى نفسه.

وكذلك في الصلاة: يخطر له الرياء فيعرفه، فيعمل عليه.

وكذلك: إذا عرض له الذهاب والكلام والعمل قبل أن يدخل فيه، فخطر [له) الرياء فعرفه بقلبه ودخل في العمل على ذلك، ولم ينه نفسه عن ذلك.

فالذي لم يعرف حين عرض له فَسَخَ كراهته الأولى حين ركن إلى القبول والاعتقاد للرياء.

والذي عرف ثم لم يكره كانت معرفته عليه حجة، إذ ذكره الله عز وجل نبهه ووعظه، وعرفه ما عرض له من الرياء الذي يحبط عمله، فركن إلى داعي الرياء وقبله بعد علم ومعرفة، لغلبة هواه والشهوة، فلم تنفعه المعرفة والكراهة حين افترقا عند عارض الداعي إلى الرياء.

وكذلك: يروى عن الحسن، قال: لا يزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله.

فمنهم من يزين له ما هو فيه فيرى أنه مصيب.

ومنهم من تغلبه شهوته بعد علم ومعرفة.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وذلك أنه لما عرض الداعي بما تحب نفسه ولا معرفة ولا ذكر معه قبل الداعي إلى الرياء فاعتقد الرياء، ولما عرض له فـمـرقه ثم غلبته شهوته فقبله، ولم ينفه بالكراهة له، فإذا عرض الداعي إلى الرياء فعرف انه الرياء ثم كرهه نجا منه.

وفي ذلك آثار فيها دليل وحجة أن الكراهة والإباء لقبول ما يعوض من الرياء ينتفي بهما الرياء، ولا يقدر المريد على أكثر من ذلك ولم يكلفه الله سواه.

ومن ذلك: ما يروى عن النبي ﷺ حين شكا إليه أصحابه رضي الله عنهم فقالوا: «يا رسول الله يعرض بقلوبنا شيء، لأن نخر من السماء فتخطفنا الطير أو تهوي بنا الرياح في مكان سحيق، احب إلينا من أن نتكلم به، فقال: أو قد وجدتموه؟ ذلك صريح الإيمان»[١].

لا يعني الوسواس، لكن يعني إباءهم وكراهيتهم لقبوله، حتى اختاروا أن يخروا وينقطعوا ولا يتكلموا به لكراهتهم له[٢].

فإذا كان الإباء والكراهية ينجيان من الوسواس في الله عز وجل فهما من الوسواس في الرياء أنجا وأنجا، لأن ما كان دافعاً للكثير العظيم فهو للقليل الصغير أدفع وأنجا، وإنَ كان الرياء عظيماً فإنه عند الوسواس في الله عز وجل صغير.

وقال أبو حازم: ما كان في نفسك وكرهته نفسك لنفسك فلا يضرك، هو من عدوك، وما كان من نفسك فرضيته نفسك لنفسك فعاتبها عليه.

وقال زيد بن أسلم مثل ذلك، وصدقا، لأن ما كرهته وأبيته فقد رددته وبقي

---

(١) أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ٢٠٩ من كتاب الإيمان. وأبو داود، الباب ١٠٩ من كتاب الأدب، والإمام احمد بن حنبل في مسنده ٢/٣٩٦، ٤٤١. والنسائي في عمل اليوم والليلة. وابن حبان في صحيحه انظر: إحياء علوم الدين ٣/٣٠٥.

(٢) فالكرامة هي تمام المعرفة لدقائق الرياء، وتمييز لها عن كل ما يلتبس بالحق من دعاء النفس والعدو، ودعوة النفس مع الكراهة لا ضرر منها، لأن هذه الدعوة داخلة في إطار أطماع النفس الجبلية، وهي لا تضر مع المعرفة، كما لا يضر الزاهد مرورة نفسه له بالحرص مع كراهيته.

الشيطان يوسوس، وإن كان الطباع ينازع[1] فلا يضرك.

ولذلك يروى عن النبي ﷺ، في حديث ابن عباس، رضي الله عليه، أنه قال لأصحابه «الحمد لله الذي رده إلى الوسوسة»[2].

فإذا عرض الرياء فعرفه ثم كرهه وأبى ان يقبله نجا منه.

ولا بد أن يجتمع مع الكراهة (له)[3] إباء لقبوله، لأن الراكن إلى الرياء قد يكره ما هو مقيم عليه، ويحب النقلة منه، والراد للقبول هو الكاره الإباء له.

لأن الرياء إنما يقبل بخصلتين: بإرادة النفس له، والشهوة، ولا بد من ضد هاتين، فتكون الكراهة ضد الشهوة، ويكن الإباء ضد الإرادة فحينئذ ينجو العبد من الرياء.

قلت: كيف أكره ما أنا له مريد مشته؟

قال: إن الله عز وجل، جعل فيك غرائز.

فجعل فيك غريزة تحب ما وافقك وألذك، وكراهة ما خالفك وآذاك.
وجعل فيك غريزة عقل لحبه.

فقرن مع غريزة الحب للموافق، والبغض للمخالف الشيطان يزين له الدنيا، ويشبطه عن الآخرة.

وقرن مع العقل العلم والكتاب والسنة، لتزين (له)[4] الآخرة ويكره إليه الدنيا، والعلم للعقل كالسراج للعين، او النور من الشمس وغيرها للعين.

فإذا عرضت الخطرة ذكرت النفس معرفتها بما يوافقها من الحمد والثناء (من

---

(١) في ص نيازعك.
(٢) اخرجه الإمام احمد بن حنبل في المسند ١/٣٤٠.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

المخلوقين) ويخالفها من الذم والملامة[٢]، هاج من النفس حب ما يوافقها من الحمد والثناء، ويغض ما يخالفها من الذم والملامة، هاجت تلك المعرفة بذلك عند تذكير العدو لها.

فإذا كان عبداً عاقلا ذكر ما يرضى به الله عز وجل، من الإخلاص وما يسخطه من الرياء، وأنه محيط لعمله في يوم فقره وفاقته، فهاجت بذلك المعرفة، لما ذكر نفسه بالعلم الذي جعله الله عز وجل في قلبه، إذا انفصل بعقله عرف. ما تستره ظلمة الجهل من ذكر الآخرة وذكر اطلاع الرب عز وجل.

وذلك كالعين تستمد للسراج، فتعرف ما وارته ظلمة البيت، فبقي على علم، وعمل على علم.

فإذا كان عبداً حازماً جاهد بعقله وبما أعطاه الله عز وجل من العلم، ما عرض به العدو، وما هاج من شهوة النفس فكره وأبى.

باب معرفة ما ينال به الحذر من الرياء

قلت: قد تبين لي ان المعرفة والكراهة مع الإباء إذا اجتمعا انتفى الرياء، وأنه إنما ينال ذلك بنهيه نفسه بعقله، بما استودعه الله عز وجل من العلم بضرر عارض الرياء، ومنفعة رد الرياء عن قلبه في يوم فقره[٣]، وقد قلت: إنهما إذا افترقا لم ينتف الرياء، فكيف لي باجتماعهما؟ ومن أين عزبت المعرفة عني[٤]؟ وبم ينال حتى لا تذهب المعرفة عن العبد عند عارض الرياء؟ ومن أين عزبت الكراهة بعد المعرفة فلم يستعملها، وبم ينال استتمالها؟

قال: أما المعرفة فإنما عزبت من النسيان وزوال الذكر، والذكر إنما عزب

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٢) في ط: واللوم.
(٣) أي: غابت.
(٤) ساقطة من ط.

لعزوب الحذر[1] والاهتمام، فإذا اهتم وحذر تيقظ وذكر، وإذا ذكر عرف ما عرض من الرياء.

قلت: فبم ينال الاهتمام والحذر؟

قال: بالعناية:

قلت: فبم ينال العناية؟

قال: بالمعرفة بقدر منفعة الإخلاص في الدنيا والآخرة، من ثواب الله عز وجل في القلب في عاجل الدنيا، وثوابه في الآخرة، بالرضا والجنة، وضرر الرياء على القلب، مما يورثه القسوة والرين والحبطُ لعمله غداً في يوم فقره وفاقته، والتعرض للمقت من ربه جل وعز.

فإذا عظُم قدر ذلك في قلبه عُني به، وإذا عني به اهتم بالقياس بأمر الله عز وجل من الإخلاص، وحذر تضييع امره فيه بالركون إلى الرياء.

فإذا ألزم الاهتمامَ والحذرَ قلبَه أيقظاه[2]، فإذا تيقظ ذكر، فإذا ذكر عرف. ومثل ذلك، مثل اللص يأتي منزل الرجل ليلا وهو نائم، فإن استيقظ فعلم به ومعه عدة لقتاله زجره، فإن أبى شد عليه فهرب منه، ولم يأخذ من بيته شيئاً، وإن لم يستيقظ حربه[3] وهو لا يشعر

فكذلك العاقل: إذا لم يتيقظ.

قلت: فبم عزبت الكراهية بعد المعرفة؟ وبِـمَ تنال؟

قال: عزبت لأن خاطر الرياء إذا عرض في القلب هاجت سورة شهوة النفس للحمد والثناء، والنيل (من العاجل)[4]، فغلبت حلاوة ذلك على القلب، فزالت الكراهة ولم تستقرّ مع حلاوة الشهوة.

---

(١) ومنشأ الحذر المراقبة، ونتيجته المحاسبة. فإذا راقب العبد ربه، وتخيله ناظر إليه حذر، وإذا حذر حاسب نفسه على الخطرات، ومن هنا تكون له المعرفة.

(٢) في ط: يقظاه. (٣) أي: سلبه.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

فالذي يطفىء ذلك ويهيج الكراهة والإباء إذا سارت[1] الفرحة من قبل الطبع، إذا عقل العبد اللبيب فكرةً من عقله في يوم المعاد، وذكر حبط عمله وحاجته يوم فقره وفاقته إلى صافي الحسنات، وأنه لا يُقبَل إلا ما خلَص وصفا من العمل، وخوف نفسه مقتَ الله عز وجل، في ساعته تلك ان يطلع على ضميره وقد قبل ما يكره ربه عز وجل به فيمقته، وخاف[2] ما يورث قلبه قبول خطرة الرياء من شدة الرين والقسوة.

فإذا هاج الفكرُ بالخوف في عقوبة الله عز وجل، في عاجل الدنيا وآجل الآخرة، إن قبل تلك الخطرة هاجت مرارة العقوبة بالذكر على ما سار في القلب من هيجان الشهوة، فكان بعقله أبياً كارهاً، وعلى هواه وعدوه راداً.

فعند ذلك تخلص عمله.

قلت: اكل العباد يردّ بهذه المجاهدة والمكابدة والتكلف؟

قال: هكذا في أول بدء المريد، لأن للإخلاص أولا وآخراً.

فأوله مع المجاهدة والمكابدة[3] لقوة الشهوة وضعف العزم، وقلة العادة للإخلاص وطول العادة للرياء.

لان العبد الضعيف منذ عقل في الصبا قبل البلوغ لم يزل في تصنع للعباد، فإذا أراد فطمَ نفسه عن العادة وكسر قوة شهوته بضعف عزمه وقلة عادته للإخلاص، أبت النفس واستصعبت.

فجاهد وكابد، حتى إذا أدمن الردّ على نفسه واعتاد الإخلاص ونفى الرياء، رجع ثواب الإخلاص على قلبه من الله تعالى، بالنور والبصيرة، وانكسرت النفسُ حين طال منه منعها ما تحب، ويئس العدو فخنس وانتظر الشهوة والغفلة، وأقبل

---

(١) في ط: إذا سارت الفرحة. خطأ.

(٢) في ط: وخوف.

(٣) انظر باب مكابدة الهوى من كتاب «أعمال القلوب والجوارح» للمؤلف. من تحقيقنا. عالم الكتب - القاهرة.

الله عز وجل عليه بالنصر والمعونة، لما رآه قد صبر له على إدمان المجاهدة لهواه.

فعند ذلك تسكن دواعي الهوى، وما عرض منها عرض بضعف وقلة، وتقوى دواعي القلب ويعظم العزم، فإذا عرض عارض الرياء نفاه سريعاً ابغير مكابدة ولا كلفة.

قلت: قد تأتي حال فيها محنة شديدة وأسباب مفتنة، فتكثر فيه الخطرات حتى لا يكاد العبد يتخلص منها، وذلك كالشهوة العظيمة والأمر الكبير من البرّ الذي لا يصل إليه عامة الخلق، فتكون الوساوس كأنها مشتبكة على القلب، فبمَ يدفع ذلك؟

قال: إذا اختُبر العبد بذلك فليذكر الله عز وجل، وعظيم قدره وصغرِ قدر المخلوقين في عظيم قدر الله عز وجل، وأن المنافع كلها بيده، وأن القدرة من الخلق على منافعهم عنهم زائلة، ويصغر أقدارهم، ويذكر اطلاع الله عز وجل بعد ذكر عظيم قدره، فإنه إذا فعل ذلك انجلت[1] الخطراتُ كما تمزق الرياح السحاب عن السماء وكما تكشف الرياح الغبار عن الصفا.

باب معرفة قوة الإخلاص

على منازعة النفس عند العارض والنفي له

قلت: إذا كرهتُ العارض ولم أقبله فما الدليل على أن الإخلاص في قلبي أغلب (من الرياء)[2] وفيه أكثر من منازعة النفس وإرادتها؟

قال: ألم تعلم أن المريد لله عز وجل وللعباد قد استوت الإرادتان في قلبه، فإذا كره ذلك كانت الإرادة لله عز وجل ومعها الكراهة، فكانا معنيين، ومنازعة النفس معنى واحداً لذلك: [كانا] أكثر وأغلب.

---

(١) في ط: تجلت الخطرات: خطأ.

(٢) ما بين الحاصرتين: ساقطة من ط.

قلت: فالنافون للرياء في مقام واحد من السرعة والإبطاء، ومن الفضل والنقص؟

قال: لا، هم أربعة نفر:
فمنهم من ينفي (الرياء)[1] سريعاً لقوة عزمه.
ومنهم من يلبث في المجاهدة.

ومنهم من ينفي الخطرة، فإذا رآه العدو كذلك لم يطمع فيما يحبط عمله، وأراد أن ينال منه ما ينقص من صلاته وغيرها في الفضل والكمال، فأراه أنه إن خاصمه بالرد عليه والمجادلة له كان أصفى للإخلاص وأنجع، فيخاصمه ويجادله في النفي فينقصه إذ شغله بمخاصمته عن صلاته، لأنه لم يؤمر بمجادلته، إنما أمر بعصيانه فقد عصاه، إذ لم يقبل ما دعاه إليه، وكان جداله إياه لا معنى له أكثر من الشغل عن الصلاة، أو عن بر إن كان فيه، وإشغال قلبه بما لم يندب إليه.

وأما الثاني فهو الذي يرد عليه بالتكذيب من غير محاجة ولا مجادلة.

والثالثة: يمضي على ما كان عليه من هيجان الكراهة والإباء، عالماً أن ذلك مجزئه من التكذيب له، والمجادلة والمخاصمة له، فيمضي على ما كان عليه، لا يقبل ولا يحدث معنى يشتغل به عما كان فيه.

والرابع: الذي قد علم من قبل أن يعرض له في الدعاء إلى الرياء، أنه إنما يزيد أن يزيله عن نعمة ربه حسداً له.

فلما قدم هذا العلم في قلبه ثم عرض له بالدعاء، فإن كان قلبه عز وجل مشغولا ازداد شغلا، وإن كان ساهياً في عمله فزع إلى الذكر والفكر والشغل بالله عز وجل غيظا له.

وازدياد منفعته لعارض الداعي جعله عبرة لذكر ربه[2].

---

(١) في ص: من بنفيه سريعا.
(٢) يعني: حينما استفاد من هذا العارض حين فزع إلى الذكر بعد سهو القلب غيظاً للشيطان ورآى نفقا =

وكذلك يروى عن الفضيل بن غزوان أنه قيل له:
إن فلاناً ذكرك.
قال: والله لأغيظن من أمره.
قيل له: من أمره؟
قال: الشيطان، اللهم اغفر له، إني لأغيظه بأن أطيع الله عز وجل فيه[1].

فإذا رآه العدو كذلك أوشك أن يقل خطراته، كراهة أن يزداد به خيرا إذا عرض له بالدعاء إلى الرياء، إذ لم يرَه يقبل، ورد ولم يرض بالرد، حتى اتخذ الداعي عبرة يزداد به خيراً وذكراً لربه.

وكذلك يروى عن إبراهيم التيمي أنه قال: إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم فلا يطيعه، ويحدث عند ذلك خيراً، ثم يدعوه إلى الباب من الإثم فلا يطيعه ويحدث عند ذلك خيراً، فإذا رآه كذلك تركه.

وهكذا يروى عنه أنه قال: إذا رآك متردداً طمع فيك، وإذا رآك مداوماً ملّك وقَلاك[2].

وإنما مثل النافين في الوجوه الأربعة: مثل رجال أربعة أرادوا مجلس محدث[3] أو ذكر، يخافون أن يفوتهم منه بقدر إبطائهم عنه من طريقهم، أو [أرادوا] صلاة في جماعة أو جمعة فمر أحدهم برجل من أهل الضلالة، فعرض له بالتثبط والنهي عن الذهاب يريد أن يصده.

فلما رآه يأبى أن يرجع قبل أن يجادله، فقام عليه يجادله ويخاصمه، والضال يحب طول المجادلة بينهما، ليفوته بقدر ما يحبسه بخصومه.

= ظاهرا في نفسه وقلبه، إذا أنسي إلى الذكر بعد السهو عنه واستثقاله، حينما يرى ذلك يتخذ منه عبرة فيدوم على الذكر.

(١) يعني: أراد الشيطان أن يوقد العداء فأطفأه الفضيل بالطاعة لله حيث عفا وأصلح.

(٢) أي: هجرك وابتعد عنك.

(٣) أي: عالم بالحديث والآثار.

ومر الثاني عليه فنهاه عن الذهاب إلى الموضع الذي يريده، فوقف منتهراً له راداً عليه، فاغتنمها الضال بقدر ما يفوته يحبسه بالوقفة عليه.

ومر الثالث وهو يمشي ماشياً أو راكباً، فعرض له بالنهي والتثبط، وقد علم ما لقي أصحابه من الحبس فمضى ولم يقف ولم يحدث معنى.

ومر الرابع وقد علم ما لقي أصحابه من الحبس، فلما أحس بصوته إن كان ماشياً سعى، وإن كان راكبا حرك راحلته بالسرعة، ليغيظه وليدرك مايطلبه تاما، ولا يكون كأصحابه الذين قبله.

فيوشك إن عادوا عليه، أن يعرض لهم[1] ويدع هذا الرابع، لأنه اتخذ دعاءه عبرة وزيادة في الخير بالسرعة إليه والإعراض عما دعا إليه العدو.

وكذلك القوي الكيِّس من المخلصين.

قلت: فكيف يكونون قبل الاعتراض بالدعاء؟ أمنتظرين[2] له بالحذر قبل أن يعرض، حتى إذا عرض عرفوه؟ أو يشتغلون عنه بالتوكل على الله عز وجل، وبالطاعة، حتى يكون هو الذي يزجر عدوهم عنهم[3]؟

قال: قد قال الناس في ذلك أقوالا كثيرة مختلفة، عامتها غلط إلا قولا واحدا.

فأحد ما قالوه: أن فرقة من البصريين قالت: إنما يحتاج إلى الحذر من ذلك الضعفا، فأما الأقوياء فقد انقطعوا إلى الله تعالى واشتغلوا بحبه[4]، فليس للشيطان

---

(١) لأنهم استحابوا على درجات متفاوتة والشيطان يرضى من العبد بأقل القليل من الغفلة عن الخير فتخذها ذريعة إلى الكثير. أنظر باب الشيطان من كتاب «أعمال القلوب والجوارح» للمحاسبي.

(٢) في أ: أم ينتظرون.

(٣) هذا مذهب الشاذلية بوجه خاص، إذ يرون أن الذي حرك الشيطان على العبد هو الله وبالتجاء إليه سبحانه بصده عنه، ويحميه من نزغاته. وقد تبني هذا المذهب بوجه خاص مولانا العربي الدرقاوي، شيخ الشاذلية الدرقاوية. انظر رأيه في رسائله.

(٤) في ط: لحبه.

عليهم سبيل، إذ أنهم قطعوا (حب)[1] الدنيا من قلوبهم وأبدلوا قلوبهم إلزام حب الله عز وجل لها، والاشتغال بالسيد وبمناجاته.

فقد خنس الشيطان عنهم[2] وذل واعتزل كما اعتزل في خاطر الخمر والزنا والقتل من قلوب غيرهم من العابدين.

وقالت فرقة من أهل الشام: إنما يحتاج إلى الحذر من قبل يقينه وضعف توكله، فأما من أيقن بأن الله عز وجل لا شريك له في تدبيره، ولا يحدث[3] في ملكه ما لا يريد، وأنه لا يضرّ ولا ينفع شيء إلا به، وأن الشيطان عبد مخلوق ذليل مهين، لا تنفذ له خطرة ولا مكيدة إلا بإذن الله عز وجل فيها.

فالعارف بالله عز وجل يرجع إلى الله، بالتوكل والاستحياء منه أن يراه يحذر مخلوقا دونه، فالحذر لغير الله عز وجل، نقص من اليقين والتوكل.

فأولى به الثقة بالله عز وجل واليقين، لأنه لا ضار ولا نافع غيره، فلا يحذر عدواً ولا غيره.

وقالت فرقة من أهل العلم: كلا الفريقين غالط.

أما ما قالت الأولى فإن من الاشتغال بالله عز وجل والحب له حذر ما حذر منه، واتباع أمره فيمن أمر بالحذر منه، لأنه عز وجل، يقول: ﴿اتَّخذُوهُ عَدُوًّا﴾[4].

وقال عز وجل، للناس كلهم لا يحاشي ضعيفا ولا قويا: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الجنَّةِ﴾[5].

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في أ: عنهم الشيطان.

(٣) في ط: ولا محدث.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.

وقال عز وجل: ﴿إنّه يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ﴾[1] فحض على التحرز منه ومن قبيله والحذرِ لهم.

ثم قال عز من قائل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِك مِنْ رَسُولٍ وَلاَ نَبِيٍ إلا إذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾[2].

وقال النبي ﷺ، «إنه ليغان على قلبي»[3] هذا وقد أسلم شيطانه فلا يأمره إلا بخير.

ثم قال له ربّه عز وجل: ﴿واحْذَرْهُم أنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إلَيْكَ﴾[4].

فلا أحد أشد اشتغالا بربّه عز وجل، ولا حبا له من محمد ﷺ، فأمره مع اشتغاله به وحبّه له، أن يحذر الخلق أن يفتنوه عن دينه.

وقال عز وجل لآدم وحواء وهما في الجنة في دار النعيم والملك التام، لا يجد العدو لهما خدعة من خوف فقر ولا نازلة شديدة، ولا منع شهوة، ولا طلبة لها يتكلف.

وقد سمع الله عز وجل يقول: ﴿إنَّ لَكَ ألاَّ تَجُوعَ فِيهَا وَلا تَعْرَى وَأَنك لا تَظْمَأُ فِيهَا وَلاَ تَضْحَى﴾[5].

فقال عز وجل: ﴿يَا آدَمُ إن هَذَا عَدُوٌّ لكَ وَلِزَوْجِكَ فَلاَ يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الجَنَّة فَتَشْقَى﴾[6].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٧.
(٢) سورة الحج، الآية: ٥٢.
(٣) هو غين أنوار، لا غين أغيار، أي إنها مراتب من النور يعلو بعضها على بعض في المشاهدة والانكشاف، حيث هو ﷺ دائم الترقي حيا وبعد انتقاله. والحديث أخرجه: مسلم في صحيحه، جـ ٤١ من كتاب الذكر. وأبو داود في سننه، الباب ٢٦ من كتاب الوتر. وإبن المبارك في الزهد ٤٠١.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٩. (٥) سورة طه، الآية: ١١٨. (٦) سورة طه، الآية: ١١٧.

فلو كان الله عز وجل يحب الأمن منه لأحد ويزيل الحذر عنه لأحبه لهما، وأزاله عنهما في جنته، وليس لهما فتنة ولا شيء نهيا عنه إلا شجرة واحدة.

فكيف بنا في فتن لا تحصى في القلب والجوارح، وما لا يحصى من ملاذ الدنيا وشهواتها؟ فما زال بهما حتى أخرجهما من جوار ربهما.

فمن يأمن عدو الله بعدهما إذ أزالها في الدار التي لم يمتحنا فيها إلا بواحدة. فكيف في دار المحن والبلوى والفتن والبلاء؟

وقال موسى ﷺ «هذا من عمل الشيطان».

فحذرنا الله عز وجل في غير موضع في كتابه، من الاشتغال به، ومن حبه اتباع أمره وأن يحذر ما حذر منه.

فالأمن منه غـرور، وترك لأمر الله عز وجل. فمستوجبٌ من أمِنَه وضيَّع ما أمره الله عز وجل به من حذره أن يسلطه عليه، ثم لا يعصمه منه عقوبة لتضييعه أمره.

وكيف يُؤمَنُ من لم ينج منه الأقوياء؟ فأمان الضعفاء له غِرَّة وخدعة، مع تضييع الأمر من المولى جل وعز بالتحذير منه واتخاذه عدواً، وهو يقول: ﴿**عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ**﴾ [1] بيّن الضلالة.

وأمر بحذره ومجاهدته كما أمر بحذر الكافرين ومجاهدتهم.

فقال عز وجل: ﴿**خُذُوا حِذْرَكُمْ**﴾ [2].

وأمر نبيه ﷺ بصلاة الخوف تقوم بها طائفة منهم بعد طائفة لا نعدّ ذلك من النبي ﷺ شغلا عن ربه عز وجل، ولكن اتباعاً لأمره. ففعل ذلك طاعة لربه، اشتغالا بعدو الله [3].

(١) سورة القصص، الآية: ١٩.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧١.

(٣) مذهب العمل في التصوف.

من هنا يظهر أن أصول السلوك الإسلامي تقوم على رعاية الجانب الدنيوي والأخروي معا، =

والكفار عدو تراهم الأعين وتسمع أصواتهم الآذان. فإن غفل العبد[1] فأصابته منهم نزعة من ضربة أو طعنة أو رمية لم ينفك من أجر إن عاش، أو شهادة إن مات.

والشيطان عدو يراك ولا تراه. كما أخبرك عنه ربك عز وجل: ﴿**إنه يراكم هو وقبيلُه من حيثُ لا ترونهم**﴾[2] فهو أجدر أن يظفر بك فلا تظفر به.

قال ابن محيريز في ذلك: «صياد يراك ولا تراه، يوشك أن يظفر بك» يعني: إبليس يراك ولا تراه.

وإن غفلت عنه فأصابتك نزغته فعملت فيك (ما عملت)[3] لم تعرَ من إثم أو حبط عمل، أو نقص من فضل.

وإن مت عليها في قتال في سبيل الله عز وجل أو غير ذلك، وقد قبلت منه خطرة من الرياء أو غيره مما نهيت عنه، كانت النار (لك)[4] أو يعفو الله عنك.

فأي العدوين أولى أن تحترز منه؟ وأي النزغتين أولى أن تحذر؟

عدو تراه، وإن غفلت عنه فأصابتك نزغته لم تخل من أجر أو شهادة.

أو عدو يراك فلا تراه، وإن أصابتك نزغته لم تخل من إثم أو خسران عمل، أو موت أو دخول إلى النار أو يعفو الله عز وجل العلي الكريم.

فقد تبين غلط الفرقة التي قالت: إن من الاشتغال بالله عز وجل الإعراض عما حذر الله منه طاعة الله عز وجل واتباعاً لأمره فذلك بين عند من عقل أمر الله.

=> بحيث لا يطغى جانب على جانب، وكما يقولون دائما: يجب أن يكون المؤمن بين الدنيا والآخرة، وبين الخوف والرجاء كالطائر بين جناحيه، فكما يجب أن يكون الجناحان مستويين كذلك يجب أن تكون هذه المشاعر متوازنة تماما.

وعليه فالدعوة إلى الدروشة لدى المتأخرين من الأدعياء خطأ وانحراف.

(١) في ص: فإذا غفل.

(٢) سورة الاعراف، الآية: ٢٧.

(٣) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

(٤) ما بين الحاصرتين: لا توجد في ط.

وأما الفرقة الثانية التي قالت: إنه من اليقين والتوكل، على الله تعالى: ألا يحذر عدو الله، فهذا غلط منهم[1] أيضاً لأن أولياء الله تعالى لم يحذروا العدو باعتقاد منهم أنه يضر أو ينفع دون الله عز وجل.

ولكن طاعة لله عز وجل مع اعتقاد أنه لا تضر خطراته إن عصم الله عز وجل. ولا ينفع حذره إن خذل الله عز وجل.

فلا تأل جهدا من الحذر إن حذرك الله عز وجل، فترك الحذر من الخذلان. ودوام الحذر هو عصمة من الله عز وجل، لأن الحذر مهما دام حجز العبد عن القبول منه.

فكيف يكون من يحذره قد نقص توكّله، وحذره عصمة من الله عز وجل، على العبد فيها أعظم النعم.

فكيف يكون من خاف ما خوف الله عز وجل تاركا لأمر الله تعالى.

وكيف والحذر هو الذي جعله من النجاة من كل ما كره الله عز وجل، وإنما يركن العبد إلى ما كره الله عز وجل إذا ترك الحذرَ مما حذر الله.

فالحذر لما حذر اللهُ منه العبد: أن يحذر العبد ان يترك الحذر مما حذر منه، فيكون مضيّعاً لأمره.

وضد الحذر الأمن والغفلة.

والأمن والغفلة: ترك القيام بما أمر الله، ولكن اتبعوا أمر الله عز وجل بذلك، فكان حذرهم اتباعاً لأمره من توفيق الله لهم، لا حذراً لإبليس أنه يضر أو ينفع، ولكن يطيعون ربّهم كما أمرهم.

وذلك ما أمر النبي ﷺ بصلاة الخوف، وأمره أن يأخذ حذره من عدوه هو والمؤمنون فقال عز من قائل: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾[2].

---

(١) في ط: منها.

(٢) سورة الانفال، الآية: ٦٠.

وظاهر النبي ﷺ بين درعين، وحمل المؤمنون الترسة، ولبسوا ما يحصنهم. وأقام النبي ﷺ من يحرسهم في صلاته، وحفر الخندق فتحصن به شهراً، لا ينقصه ذلك ولا المؤمنين من يقينهم ولا توكّلهم، لعلمهم أنه لا يكون إلا ما قدر ولا يشغلهم عنه ذلك، ولكن اتباعاً لأمره واشتغالا بما أحب وأراد.

فكذلك من حذر العدو الذي لا يراه-وهو يكيده بأعظم ما يكيده الكفار. فحذره طاعة من المؤمنين لله عز وجل واتباع لأمره، وتوكل من ذلك على ربه، يؤدي ما أمر به مع خلع الشيطان من ملك شيء دون ربه عز وجل، ويثق بربه ويحسن الظن به إذا تبع أمره بالحذر مما حذر، مع اليقين بأنه لا يضر ولا ينفع غيره، وأنه يحسن معونته، ويقويه على عدوه، ويعصمه من فتنته.

فليس من اتبع أمر الله عز وجل مع اليقين بناقص التوكل واليقين، ولكن ناقص اليقين من ضيع أمره إرادة كمال اليقين.

وهذا قول الفرقة المتبعة لكتاب الله عز وجل والسُّنَّة.

باب وصف الحذر من العدو إبليس

قلت: كيف الحذر منه؟ أهو انتظار وتوقع متى يعرض؟ ام تحذر بغير انتظار له؟

قال: وقد اختلفت هذه الفرقة التي دانت بحذره اتباعا لأمر الله، عز وجل، فاختلفت هذه الفرقة إلى ثلاث فرق، كلها غالطة إلاّ فرقة.

فقالت فرقة منهم: إذا أمرنا الله، عز وجل بمجاهدة من لا نراه، وخوّفنا منه، وأعلمنا ان في ظفره بنا الهلكة، ولا يكون في قلوبنا شيء أغلب عليها ولا ألزم لها من حذره، فننتظر متى يعرض بفتنته.

لأن الاشتغال عنه يورث النسيان، والنسيان يورث قبول خطراته بغير معرفة، وذلك يؤدّي إلى الهلكة.

فرأت ان تكون قلوبُها منتظرة للشيطان، متوقعة متى تخطر بها خطرة[1] فينظروا فيها، كراهة أن يخطر على غفلة فيقبلوها، فيهلكوا وهم لا يشعرون.

وقالت فرقة: ذلك غلط، لاشتغالها بانتظار الشيطان، ولم نؤمر بذلك، وذلك إرادة الشيطان منا، ولكن نلزم قلوبنا ذكر الآخرة، وذكر ما يعرض، فلا نكون قد تعطلنا من ذكر الآخرة، ولا نكون ناسين لمن أمرنا بحذره، كراهة ان يأتي على غفلة (منا)[2] فيفسد (علينا)[3] ما نحن فيه من الذكر، فكان ذكرُ الله عز وجل، وذكر وساوس الشيطان في قلوبهم متعارضين.

كلما ذكروا شيئاً من ذكر الآخرة ذكروا العدو شفقا ان يخطر بفتنته، فيزيل قلوبهم عن ذكر الله عز وجل، أو يركنوا إلى ما يحبط عملهم في يوم عرضهم على ربهم، جل وعز.

وقالت فرقة وهم أهل العلم وأولى بالحق: كلتا الفرقتين غالطة.

أما الأولى ففرغت قلوبهم من ذكر الآخرة، وجعلت عبادتها إلزامَ قلوبها ذكر الشيطان، فقد أدخلتْ ذكرَ الشيطان في القلب[4] غلطاً أكثر مما أدخلت ذكرَ الله عزّ وجلّ، في قلوبهم.

وإنما أمرت بالحذر من أن تغفل عن الذكر والعمل، فإذا وَدعت[5] الذكر فقد اصاب العدو ما أراد.

وإن جاءت خطرة إلى قلب فارغ من الذكر يوشك ان يقبلها، إذ ليس فيه نور من ذكر الآخرة، ولا قوة اشتغال بالله، عز وجل.

فأنتم أضعف في الرد، وأفرغ قلوبا من الآخرة من غيركم، ولم تؤمروا بانتظاره، ولا بإدمان ذكره[6].

---

(١) في ط: تخطر بخطرة.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٣) ما بين الحاصرتين: لا توجد في ط.
(٤) في ط: من القلب.
(٥) ودعت الذكر: اي تركت ذكر الله.
(٦) يعني: الشيطان.

وأما الفرقة الثانية [1] فقد شاركت الأولى في بعض معناها إذ جعلت ذكر الله، عز وجل، وذكر الشيطان في القلب مستويين، فكأنما أمرت بذلك: ذكر الله عز وجل، وذكر الشيطان، والاشتغال بالله عز وجل، و (الاشتغال) [2] بالشيطان، ولم يبلغنا على أحد من الأقوياء ولا الضعفاء انه فعل ذلك ولا دان به.

لأن الله عز وجل، أمر عباده بطاعته، وندبهم إلى الاشتغال به عن خلقه: إبليس وغيره، وأمرهم بالحذر منه حين يعرض بفتنته.

فاشتغل اولياء الله عز وجل، وأهل الخالصة من عباده بذكر ربهم، وذكر ما ندب إليه وأحبه، وألزموا قلوبهم حذر ما حذرهم منه، على غير انتظار له، ولا اشتغال بذكره.

والحذر يلزم القلب من العناية بالنجاة من العدو والخوف من فتنته، ثم لا يمنع الاشتغال بالله عز وجل، مع ترك ذكر العدو الاشتغال به، أن يهيج الذكر والتيقظ حين يعرض العدو بخطرته.

وإن ذلك لموجود فيما هو أشد من الدنيا، فإن نام والحذر في قلبه من ذهاب النوم تيقظ في غير وقته الذي كان يستيقظ له من الحذر اللازم لقلبه.

فكذلك المشتغل بذكر ربه الذي لم يذهب عقله أولى أن يوقظه ويذكره الحذر من عدوه، وإن اشتغل بذكر ربه وترك ذكر عدوه والاشتغال به، لأن المستيقظ من النوم من غير ذكر دائم في قلبه، وكيف يذكر وهو نائم لا يعقل ولكنه أيقظه الحذر.

فكذلك العامل لله عز وجل، المشتغل بذكره، اللاهي عن ذكر الشيطان بالاشتغال بربه، عز وجل، إذا عرض عارض منه ذكّره الحذرُ في قلبه، وقوّاه الذكر على أن يفطن للعارض، وتحرك المعارض وفزع، إذ كان فيه عطبه، والنائم ليس في قلبه ذكر ولا عارض له يوقظه.

---

(١) في خ: الاخرى.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

فإن عرضت خطرة ذكرها وكان أقوى على ردها، لأنها تعرض بقلب مشغول بالله عز وجل، قد غلب عليه نور الاشتغال، فأمات منه الهوى، وقوى منه العقل، وزجر الجهل، وجانبه بنور العلم، فيرده بأهون الرد.

ومثل الذي يفرغ قلبه او بعضه لانتظار خطرة من الشيطان، مثل من يريد أن ينزف الماء القذر من بئر، والماء من المجرى إليها واصل، فهو ينزف والماء إليها يجري، فيقطع أيامه بالنزف ولم تجف البئر من الماء.

ومثل الذي يُلزم الاشتغال بالله عز وجل قلبه: مثل من جعل لمجراها سكرا [1] وسدا: فإذا جاء الماء رده بذلك السكر والسد، من غير كلفة ولا عناء، فطهر البئر من السائل من الأقذار، وقل تعبه وكلفته في النزف.

وكذلك من اشتغل بالله عز وجل رد الخاطر باشتغال قلبه بربه، عز وجل ونوره وقوة عزمه بأهون الرد.

فهذه الفرقة للقرآن والسنة والصالحين أتبع، وعلى رد الخطرات أقوى وأبعد من الخدع والنقص، فالزموا الحذر، قلوبهم بغير اشتغال بالعدو، ولا خافوا المقدرة عنده دون ربهم، عز وجل، ولكن طاعة لله توكلا عليه واتباعاً لأمره ولم يعدوا الاشتغال بربهم جل وعز، والإعراض عن الاشتغال بالشيطان وذكره.

فهم في الاشتغال بربهم دائبون، وبالحذر إذا عرض الخاطر متيقظون، وبقوة الاشتغال بالله يسهل عليهم رد الخاطر إذا عرض بفتنة، فسلموا وغنموا، واتبعوا واستقاموا.

باب الغلط في الحذر من العدو إبليس

قلت: فإذا خطرت خطرة، تحذيراً للرد، هل يكون في التحذير غلط؟
قال: إن أنفع التحذير، ما لم يورث أمنا.

---

(١) يعني: سدا.

قالت: فكيف يورث التحذير أمناً؟
قال: يدعوك إلى الحذر من الرياء بترك العمل.
ولما لم تطعه في ترك العمل دعاء إلى الرياء ليحبط عملك.

فلما لم تطعه ولم تجبه إلى ذلك حذرك الرياء بترك العمل، فقال: إنك مرائي، فدع العمل، فردك إلى ما أرادك عليه من ترك العمل اولا.

فلما لم تجبه إلى تحذيره ورّثك أمنه فأمنته، إذ لم تفطن أنه إنما أراد أن يحرمك ثواب العمل إذ عرض لك بتحذير الضرر، وأنك تريد بذلك الإخلاص فلم تخلص لله، عز وجل، شيئاً حين تركت العمل.

لأن الإخلاص: أن تعمل وتحذر الرياء وتنفيه عن عملك، فيخلص لك عند ربك تعالى، وليس الإخلاص ان تترك العمل، فلا يخلص لله عز وجل عملك.

فعلى المريد الإخلاص في عمله، فإن ترك العمل إرادة الإخلاص فلم يخلص لله عز وجل عمله، ولكن تركه.

أرأيت لو أن عبداً دفع إليه مولاه حنطة، فقال: طيبها واجعلها خالصة من الزوان والشعير، أو فضة فقال له: ألقها في الخلاص، حتى تكون فضة خالصة من الخبث والغش، فألقى الحنطة والفضة، فقال: أخاف ان لا تخلص، هل كان أخلص لمولاه شيئاً.

فقد خدع من قبل الإخلاص بترك استعمال الإخلاص حيث امر او ندب إليه، لأن التخليص غير الإخلاص.

التخليص: التمييز بين الجيّد والرديء، والحق والباطل.
والإخلاص: أن يكون الحق والجيد خالصاً صافيا من كل ما يشبهه.

فكذلك التخليص في العمل لله، عز وجل هو: نفي الخطرات، وترك القبول للرياء، واعتقاد الإخلاص، فيكون عملا خالصا بعد ما ميز من الرياء، وعزله منه، ونفي الرياء أن يخالطه.

وكذلك الفضة: إنما تكون خالصة إذا خلصت، فميز الخبيث منها، وكذلك الحنطة إذ ميز الزوان منها.

وقد يمكن ان يعترض من الشيطان أيضاً، لو ترك العمل خوف الرياء في الترك، فلا ينجيه منه شيء وإن دخل تحت الأرض، مع ما حرم بترك العمل، وذلك أنه لو تكلم بخير فعرض له: أن اسكت لئلا تكون مرائيا، فسكت، لقال: الآن يقولون: إنما سكت لطلب الإخلاص ففرّ.

فإن فر عرض له، أيضاً بأن يقولوا: إنما فر كراهة الرياء والشهوة، فلو دخل سَرَبا في الأرض ألزم قلبه حلاوة الفرار والخلوة فيه، فعلمه بما يلزم قلوبهم من التعظيم لمن أراد الإخلاص وفر طلبا له، فلا ينجيه من ذلك إلا المعرفة والكراهة والإباء له.

الفرق بين الدعوى والحقيقة:

وبين الدعوى للباطل والدعوى على حقيقة فرقٌ، إذا دعاك داع من قلبك: أبك مرائي فنظرت.

فإذا أنت من قبل عقلك وعلمك كاره أبي راد، وإن كان العدو مع ذلك يخطر، وطبع النفس ينازع، عرفت انها دعوى باطل من عدوك، ليصدك عما أنت فيه، أو عما عرض لك من البرّ والطاعة، قبل الدخول فيه.

فإن خطر خاطر آخر بذلك، فرجعت إلى نفسك، فوجدت قلبا مجمعا على ذلك، متمنيا لحمد المخلوقين، ولا رادّ من عقلك لهوى نفسك، علمت أن ذلك تنبيه من الله عز وجل لك لما اعتقدت من الرياء، فندمت واستغفرت.

فإن قويت على الإخلاص لله عز وجل، عقوبة النفس بلزوم ذلك العمل لله عز وجل، بنية قوية عن غير أغلوطة: تبين لك ذلك بإجماع القلب أن لو لم يعلموا بذلك لفعلته حياء من الله عز وجل، إذ سخت نفسك للمخلوقين بالطاعة لحمدهم، وأعرضت عن إرادة الله عز وجل، فإن وجدت من نفسك هذه القوة بعد الندم

والاستغفار والنية منك ألا تعود إلى مثل ذلك، فامض في العمل.

فإن لم تجد ذلك من قلبك فدع العمل إن كان العقد أولا للمخلوقين، فدع العمل مع الحياء من الله، عز وجل أن تسخو نفسك بالعمل لحمد المخلوقين، ولا تسخو للعمل لحمد الخالق، عز وجل.

وإن كان العقد الأول لله، عز وجل، ثم ركنت بعد ذلك، فانف ذلك واندم عليه، وارجع إلى عقدك الأول، فاعمل عليه مع الحياء من الله عز وجل، إذ رآك مستبدلا بحمده طلب حمد غيره، حتى كان الخلق يطلعون على ضميرك معه، بل لو اطلعوا لخشيت مقتهم لما أردت من حمدهم فاستح من الله عز وجل المطلع عليك وعلى إعراض قلبك عنه إلى من لا يملك منفعة ولا دفع مضرة.

ولو اطلعوا على ضميرك لكانوا أهيب عندك منه، جل وعلا، فليعظم حياؤك منه.

وإن قدرت ان تزيد في العمل حياء من ربك عز وجل، وعقوبة لنفسك فافعل.

وإن عرض لك عارض، وأنت في العمل، وقد أردت الله عز وجل، به لا يدعى عليك انك مرائي، ولكن يحذرك الرياء، ويقول: اتركه، لأن تسلم، فذلك من العدو ومن هوى النفس.

فإن خطر خاطر يحذرك الرياء، ويأمرك بأن تتم العمل بالحذر، ليكون سليما خالصاً، فذلك واعظ من ربك عز وجل.

باب منازل الرياء وأوقاته

قلت: فأخبرني بأوقات خطرات الرياء، وتفاوت منازلها بأوقات الرياء وتفاوت منازله.

قال: خطرة تخطر ولما يهم بعمل يعتقد فيه الرياء، ولكن يتمنى ان يقدر على

الأعمال ليعظم بها (عند الناس)[1] ويحمد عليها: كالغزو والعلم والتفقه، فيبر ويعظم، أو يستقضي (حاجاته)[2] أو يوصل، أو يعطى.

وخطرة تخطر له قبل الدخول في العمل، ويعتقد بها للرياء، ولا يعتقد غيره، يريد حمد المخلوقين، لا يذكر عند ذكر عند ذلك ثواباً ولا إخلاصاً.

وخطرة قبل الدخول في العمل، يعتقد بها الرياء، ولا يريد بذلك الأجر، مع ذكر[3] الإخلاص، ومعرفة الرياء، متغافل لا ينوي على الإخلاص، ولا يفزع من الرياء بعد معرفة منه له، وذكر الاخلاص من غير توجع ولا إكراه له.

وخطرة تعترض، فتقبلها قبل الدخول في العمل، فتعتقد الرياء وأنت ذاكر للرياء، متوجع منه، كركونك إلى الذنب لا تكرهه كراهة إباء وترك لقبوله، ولكن كراهة من أجل حب العصمة[4] من ذلك كالرجل المصرّ على الذنب، يكرهه ويغتم لما يرى من نفسه، لمعرفته بأن فيه الهلكة، وهو مقيم عليه.

فكذلك هذا يريد الرياء ويعتقده، وهو يحب ان يعصم منه، قد غلبه هواه وعزب عنه خوفه وحذره، وثقلت[5] عليه مجاهدة نفسه.

فهذا أقرب إلى الإقلاع ممن وصفت لك قبله ممن يعرف، ولا يتوجع لذلك ولا يغتم له.

وخطرة تدعوه إلى الرياء قبل العمل، مع خطرة تنبيه من الله عز وجل، وطلب الثواب، فيفقد إرادة الله عز وجل، وإرادة الخلق معا: يحب ان يحمد ويؤجر، يريد الله عز وجل، وارادة الخلق معا: يحب ان يحمد ويؤجر، يريد الله عز وجل به، ويريد الخلق على النسيان وزوال المعرفة للرياء.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) ما بين الحاصرتين سقط من ط.

(٣) في أ: مع تذكر الإخلاص.

(٤) في أ. حبه للعصمة.

(٥) في ط: وثقلت عليه.

وكذلك خطرة ثانية يذكر انها داعية إلى الرياء، ويعرفها، فيعتقدها بغير توجع، ويعتقد إرادة الأجر.

وخطرة أيضاً يذكر (بها)[1] الرياء ويعتقد إرادة الله عز وجل، مع توجع وحب النقلة والعصمة.

وخطرة ثالثة بعد العقد لله عز وجل قبل الدخول في العمل، يعتقد الرياء بعد ذلك الإخلاص، ثم يدخل العمل على غير ذلك.

وخطرة رابعة بعد الدخول في العمل بإرادة الله عز وجل وحده، فيقبل خطرة الرياء، ويعتقده بعد دخوله في العمل بالاخلاص، فيرائي بالتزيّد في العمل، كإحداث شدّة الخشوع الذي لم ينوه، ولم يكن يفعله قبل الخطرة، او كرفع الصوت في الصلاة، او بتحزينه، او تحسينه، او بطول القراءة زيادة على الآيات التي كان نوى ان يقرأها، أو بطول الركوع والسجود والاعتدال فيها.

وكذلك القيام بعد الركوع وبين السجدتين من التمكث في القيام، ورفع اليدين وأخذ إحداهما بالأخرى.

وخطرة تعترض بعد الدخول في العمل بالإخلاص. فيعتقد حب حمدهم على ذلك العمل، ولا يجيبه إلى الزيادة بالتحسين له ولا غيره.

وخطرة تعترض بعد الفراغ من العمل، ليحدث إرادة حمدهم، فيحدث بالذي كان منه ليحمد على ذلك.

وقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه سمع رجل يقول: قرأت البارحة البقرة، فقال: ذلك حظك منها[2]

وروي عن النبي ﷺ، عن الرجل الذي قال: صمت الدهر: فقال: « ما صمت

---

(١) ما بن الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) انظر في هذا الباب بتفصيل أوسع « باب النية من علم القلوب للمكي »، ومراده بقوله: ذلك حظك منها، أي: هذا الإعلان هو ثوابك منها.

ولا أفطرت»[1].

فقال بعضهم: من أجل أنه حدث به.
وقال بعضهم: من أجل كراهة صوم الدهر.

وخطرة تدعو مَنْ أَبي أن يحدِّث به إلى حب الحمد فيا ظهر، من نحول الجسم، أو صفار اللون، أو انقطاع الصوت، أو يبس الشفة، أو جفوف الريق وخروجه يابساً، أو آثار الدموع، أو انغيار العينين[2]، أو غلبة النعاس بين الخلق، فيحب ذلك ويسر به رجاء أن يستدلوا به على عمله، فيحمده بالتوبة والظن بما ظهر منه.

وقد يعرض بالحديث دون التصريح ليفطنوا له، لأن نفسه تجزع أن يظنوا أنه مرائي إذا حدث به، ويجب أن يعلموا بما كان منه فيحمدوه، فيحب أن يحمدوه ولا يذموه فيعرِّض به بترك التصريح كراهة أن يظنوا به الرياء، ويريد أن يفطنوا بالتعريض للمعنى، فيحمدوه على ما كان يستر عنهم من طاعته لربه عز وجل.

وقد يترك التصريح بالكلام، وتغلبه نفسه على التعريض إرادة الحمد، فتلك خطرة تعترض بذلك، فيقبلها ويعمل عليها.

وقد يأبى الحديث والتعريض والمحبة والسرور بما ظهر من دلائل طاعته من اللون والنحول وغيره، فيدعوه عند لقائهم إلى محبة التعظيم له لما ظهر لهم من بره، وإن كان قد مضى خالصاً لربه عز وجل، فيحب أن يبدأه بالسلام والبشاشة.

فأعظم إخوانه عنده قدراً: من عظّمه على طاعة ربه عز وجل، وأهونهم عليه من ترك تعظيمه له على مايعرف منه، ويجد ويغضب على من لم يعظمه وَيَبَرّه، ويقرب مَنْ عظمه ويجله على ما يعلم منه.

---

(١) أخرجه: مسلم في صحيحه، حـ ١٩٦، ١٩٧ من كتاب الصيام. وأبو داود في سننه، الباب ٥٣ من كتاب الصوم. والنسائي في سننه، الباب ٧١، ٧٢، ٧٣، ٧٥ من كتاب الصيام. وإبن ماجه في سننه، الباب ٢٨ من كتاب الصيام. والدارمي في مسنده، الباب ٣٧ من كتاب الصوم. وإبن المبارك في الزهد ٥٠. والإمام احمد بن حنبل في مسنده ٢٤/٤، ٢٥، ٢٦، ٤١٤، ٤٣١، ٢٩٧/٥، ٣٣١.

(٢) أي: غورهما دلالة على السهر.

فنيته ثابتة لإرادة قيام المنزلة عندهم.

وتخطر الخطرة عند سؤال الحاجة، وعند الرد عليه بالتعظيم إذا سلّم، والرخص [له] في المبايعة عند الشراء، والصفح له عن الثمن، فيركن إلى ذلك، ويحب أن يفعل ذلك به ويتفقد ذلك منهم.

ويستثقل من لم يفعل به ذلك، ويستخف من فعلَ ذلك به، ويتعمده في المبايعة وسؤال الحاجة، لما يعرف من إكرامه له، يفرح بذلك ويرى أنهم حمقى إن لم يقضوا له حوائجه، لما يعرفون منه من عملّه أو بره أو صلاحه.

فما آمنُ أن يُحبِط ذلك أجرَه.

وقد يروى عن عليّ رضي الله عنه، أنه قال: إن الله تبارك وتعالى، يقول للقراء يوم القيامة: ألم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبدأون بالسلام؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج؟

وفي حديث آخر: لا أجر لكم، قد استوفيتم أجوركم.

وروى ابن المبارك عن وهب: أن رجلا من السياح[1] قال لأصحابه: إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان، فنخاف أن يكون قد دخل علينا الطغيان في أمرنا أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم.

إن أحدنا إذا لُقي أحب أن يعظم لمكان دينه. وإن سأل حاجة أحب أن تقضى لمكان دينه. وإن اشترى شيئاً أحب أن يرخص له لمكان دينه.

فنخاف أن يكون قد دخل علينا الطغيان في أمرنا هذا أكثر مما دخل على أهل الأموال في أموالهم.

فبلغ ذلك ملكهم فركب إليه في الناس، فإذا السهل والجبل قد امتلأ بالناس.

---

(١) أهل السياحة: فرقة بالغت في اتباع سنة الهجرة، فتنقلوا من مكان إلى مكان بقصد الدعوة إلى طريق الله، وقد فصل المؤلف ما يلحقهم من الآفات هنا.

فقال السائح: ما هذا؟ قيل: هذا الملك قد أظلك. فقال لغلام له: ائتني بطعام، فأتاه بلبن وحِمّص. وقال في الحديث الآخر: وزيت، وقلوب الشجر، فجعل يحشو شدقيه ويأكل أكلاً عنيفاً، فقال الملك: أين صاحبكم؟ قالوا: هذا، قال: كيف أنت يا فلان؟

فقال في أحد الحديثين: كالناس، وقال في الآخر: بخير، فقال الملك ما عند هذا من خير، فانصرف عنه. فقال السائح: الحمد لله الذي صرفك عني وأنت لي ذام.

فلم يزل العاملون لله جل وعز يخادعون العباد عن أعمالهم الصالحة، كما يخادع العاملون لغيره عن سيئاتهم إرادة أن تكون أعمالهم الصالحة سراً بينهم وبين ربهم جل وعز، ليجزيهم بها علانية على رؤوس أهل القيامة.

باب وصف أعظم الرياء وأدناه

قلت: فأخبرني بالمرائين، ومنازلهم، في عظم ريائهم، وشدته، وأقدارهم فيه، ومن أعظم الناس رياءً عند الله عز وجل؟

قال: أعظم المرائين عند الله عز وجل، رياء: من راءى بالإيمان، واعتقد التكذيب والشك، أو الريب.

وكذلك المنافق الذي ذكره الله عز وجل في غير موضع من كتابه، فقال، عز من قائل:

﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾(١) وقال: عز وجل.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَامِ. وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأرض لِيُفْسِدَ فِيهَا ويهلكَ الحرثَ والنسلَ واللهُ لا يحبُّ الفَسَادَ﴾(٢).

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّك لَرَسُولُ اللهِ﴾ [1]، ثم كذبهم، لأنه ما ذلك بحق في قلوبهم، والله عز وجل، يعلم أن ما قالوا حق: أنك رسوله، وهم كاذبون، لا يعتقدون ذلك في قلوبهم، وقال تعالى:

﴿وَلاَ يَأتونَ الصَّلاَةَ إلا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [2]. وقال:

﴿وَإذا قَامُوا إِلَى الصَّلَوةِ قَامُوا كُسَالى يُرَآءُونَ النَّاس﴾ [3] الآية، قيل في التفسير: إنه لغير الله، عز وجل، وقال تعالى:

﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ. إلى قوله: الذينَ هُمْ عن صَلاَتِهِمْ ساهُونَ الذينَ هُمْ يُرَاءُونَ﴾ [4]. على غير اعتقاد، ولكن ليظنوا أنه مؤمن بالفرائض، قائم بها [5].

قلت: فمن الذي يليهم؟

قال: الذي يليهم، وهو أهون من الأول، وإن كان عند الله تعالى عظيما: الرجل يرائي بالفرض، وإن كان معتقدا أن الله تعالى ربه. وأن ذلك عليه مفترض [6].

كالزكاة: يكون ماله بيد غيره فيقول: زكّه كراهة أن يذمّه الناس على تركه الزكاة والله يعلم أنه لو خلا له ذلك ما أدى زكاته.

---

(١) سورة المنافقون، الآية: ١.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٥٤.

(٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.

(٤) سورة الماعون، الآية: ٥، ٦.

(٥) ومن الآيات السابقة نعرف علامات النفاق. وهي:

١ ـ الاندماج في الرأي العام، مع استبطان الحقد والغيظ ضد الإيمان خاصة، ومذاهب الإصلاح عامة.

٢ ـ إتقان القول، وزخرفة الحجة، حتى لقد يعجب بها المؤمنون ظاهرا. ثم السعي في الفساد بعد ذلك.

٣ ـ كذبهم في دعوى الايمان برسالة النبي ﷺ.

٤ ـ الكسل عند أداء الفريضة.

(٦) في ح: مفروض.

أو يخرج زكاة ماله إن فطِنَ له أحد أنه لا يزكي ماله مخافة أن يأخذوا ذلك عليه، والله تعالى يعلم منه أنه لو أمن ذمَّ العباد، أو سقطوَ عدالته ما زكّى، واتقى على ماله.

وكذلك الحج[١] والصيام: يحضر معه في شهر رمضان من يفطن له إن أفطر، وهو لو أمكنه الإفطار لأفطر، فيمسك عن الطعام، والقلب يتقلب على خلوة يأكل فيها، أو يأتي فيها أهله، أو ما لا يحل له.

ثم الذي يليه لا يزكي، ولا يصوم، ولا يحج، ويكذب بالقول: فيقول[٢] إني قد زكيت، وحججت، وصمت، لئلا يُذَمَّ بترك الفرائض.

فأمَّا الصلاة فإنه لا يكبر فيها إلا الله، ولا يصليها إلا له، وقد يكسل عنها، فلا يحمله على صلاته إلا الخوف من المذمَّة، ومع ذلك لا يسجد إلا لله عز وجل.

وقد يكون من الخبيث المتهتك بتركها، والله يعلم أن لولاهم ما صلاها، ولتركها، فيصليها من أجلهم، كراهة أن يذموه بتركها، حتى إنه ليصلي على غير وضوء، لئلا يذموه.

ولو قيل له: اسجد لإلـه دون الله، عز وجل، ولك الدنيا ما فعل.

فيصلي خشية الذم لغير تديُّن لعبادة أحد دون الله، عز وجل، من جهة الربوبية والإلـهية[٣].

وقد يرائي بسائر أعماله الفرض التي لو خفيت له ما أداها.

فذلك الرياء بالفرض.

وكذلك يصل رحمه، ويبر والديه، ولولا من يعلم به، أو شكاية ذوي رحمه ما فعل ذلك.

---

(١) وفي الحج يقوم به المرائي ليتخذ منه وسيلة إلى اكتساب ثقة الناس في تجاراته ومعاملاته، وهو أمر شائع بين العامة.

(٢) سقطت من ط.

(٣) في أ: الألوهية والربوبية.

ومثل إتيان الجمعة، لولا من حضره ولزمه الذهاب معه، أو رآه مختلفاً ما ذهب إليها. لحاجة يؤثرها، أو كسل عنها عن غير جحد ولا شك.

فذلك الرياء بالفرض، لا على عقد المنافقين على التكذيب والشك في القلب، ولكن مع اليقين بأنه محرم، وأن الله عز وجل لا شك فيه، وأنه عليه مفترضة، ولكنه[1] الكسل والتهاون، فيظهر أداء الفرائض كراهة الذم وحبَّ الحمد.

قلت: من الذي يليه؟ قال المرائي بالسنن الواجبة: كإتيان الجماعات، ولولا من يحضره، أو يتفقده لتركها.

أو ترك بعض الصلوات في بعض الأوقات، وإن كان قد يأتيها في غير ذلك الوقت لله عز وجل فيأتيها، ولولا من يحضره أو يتفقده لتركها، إيثاراً لحاجته، أو كسلا عنها.

وكذلك إقراء الضيف ينزل به، وعيادة المريض الضائع الذي يلزمه تعاهده وإن كان غريباً، لقول النبي ﷺ «للمسلم على المسلم سنن».

وكذلك اتباع الجنازة، وغسل الميت إذ لم يقدر على إحضار من يغسله كراهية الذم له، ولولا ذلك ما غسله ولا شهد جنازته.

وفرقة ممن يظهر النسك ترائي بإظهار الورع، (فيطيل أحدهم الصمت)[2]، ويمسك عن الغيبة، وينهي عنها، ويمسك عن الخيانة، ويؤدي الأمانة، ويستغفر إذا ظهرت من أحدهم الزلة، ويظهر الندم والحزن، ويستحل ممن ظلم، والله عز وجل يعلم منه: أنه لو خلا بذلك لما فعله.

وقد يخلو بذلك أو ببعضه، فيدع الورع فيه، وإنما يفعل ذلك، لقبول الشهادة[3] منه، أو لطلب دنيا، أو طلب حسن الثناء، أو خوفا من مذمة.

---

(١) في ط: ولكن.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في أ: لقبول شهادة.

قلت من الذي يليه؟

قال: المرائي بإكمال الفرائض التي إذا تركها كان حرجا أو منقوصا في فرضه، كالذي يريد تخفيف الركوع والسجود، وخفة الصلاة التي تجب عليه الإعادة أو النقصان بها، كخفة الركوع والسجود، وخفة الانتصاب بين السجدتين، وبعد رفعه رأسه من الركوع، فإن خلا له الموضوع خفف صلاته، وإن رآى الناس أتمها كراهية مذمتهم.

وقد روي عن عبد الله بن مسعود وقد أسند عن النبي ﷺ أنه قال: «من صلى صلاة حيث يراه الناس فأتمَّها وأكملها: فإذا خلا خففها. فتلك استهانة يستهين به عز وجل»[١].

وقال في حديث آخر: «يستهين بها نفسه».

وعن حذيفة أيضاً مثل ذلك.

وكذلك يؤدي الزكاة: بالدراهم[٢] الرديئة، والتمر الرديء، والحب الرديء فيدع ذلك مخافة ملامة الناس كما قال الله عز وجل، ﴿**وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾[٣].

فروي عن عبيدة قال: الدرهم الزائف وأشباهه.

وقال مجاهد وعطاء: كانوا يعلقون الأعذاق[٤] من التمر الرديء في مسجد النبي ﷺ للصدقة فنهاهم عن ذلك فقال: «ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه»[٥].

قال: يقول: لو كان لك على غيرك دين ما أخذته منه إلا أن تغمض له فتأخذه على رداءته.

(١) انظر: صحيح البخاري، الباب ٦٤ من كتاب الآذان.

(٢) في ط: الدراهم الرديئة.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٦٧.

(٤) انظر: صحيح مسلم، الباب الخامس من كتاب الزكاة.

(٥) جمع عذق وهو القنو.

قال مجاهد: يقول: لا تأخذوه في سوقكم، في بيوعكم ولا من[1] غريمكم، إلا بزيادة على الطيب.

وقال عمران بن حصين: لو وجدتموه في السوق ما أخذتموه حتى ينقص من ثمنه.

وكذلك يصوم فيصمت عن الغيبة عند من يحفظها عليه، ويعد ذلك منه تهاوناً بصومه.

وكذلك النظر [2]، والكذب وغيره.

قلت: من الذي يليه؟

قال: المرائي بإكمال الفريضة بما لو تركه لم يكن متحرجا [3] ولا منقوصاً. كالمبادرة إلى التكبيرة الأولى، ورفع اليدين وأخذ الشمال باليمين، وشدة تنكيس الرأس والسكون والخشوع، والاعتدال، والتطويل في الركوع والسجود؛ والقراءة. بعد أداء ما يجزىء عنه من ذلك، يعلم الله عز وجل أنه لو خلا ما طابت نفسه أن يقصر عما لا يجزيه غيره، ولما زاد على ذلك.

فإذا رآه الخلق حسَّن وعمل وتتبع الاتباع فيها، من الرفع وغيره.

وكثرة الخلوة في شهر رمضان، وطول صمتٍ يريد بذلك أن يحمد بشدة التحرز للفرض.

وكذلك في زكاته، وكفارته، ونذره، وبره والديه[4]، وصلة الرحم، يتخير الجيد الذي ليس عليه من الدراهم والطعام، وعتق الرقبة الغالية، وإعطاء الطعام الجيد، إرادة الحمد بأنه يؤثر الله عزّ وجلّ، على نفسه، ويباين بذلك العوام في أداء فرضهم؛ ويؤديها بأتم الأشياء وأكملها.

---

(١) في ط: في غريمكم.
(٢) يعني: النظر إلى المحرمات يمتنع عنه أمام الناس، ويحفزه عاليا. انظر باب نظر الفجأة.
(٣) في ط: حرجا.
(٤) في ص: وبر الوالدين.

وكذلك في حجِّه. من شدة الصمت، وشدة التوقي عند من يحضر ذلك منه. وحسن المرافقة لرفيقه، وشدَّة الإخبات في حجه.

ولو خلا لأدى ما يجزىء من ذلك فقط، ولم يزد على ذلك، وغلب عليه الورع من تضييع الفرض[1]، ولم يتورع من إكماله، من الأمر الذي يجزئه لو تركه.

قلت: من الذي يليه؟

قال: المرائي بالتزيُّد في السنن الواجبة.

كالمبادرة في اتيان الجماعة في اول اهل المسجد، والصفّ الأول، ويطلب أن يلي الإمام، فيكون قبالته، ولو خلا لما بالى أين قام، لما عرف به من الفضل أن يُرى في حال الصلاة منقوصاً من الفضل عند من يعرفه بالمسابقة إلى الفضل.

وكذلك في إكرام الضيف فوق ما يجزىء، بعدما أدى ما يجب عليه، ليثنى عليه.

قلت: من الذي يليه؟

قال: المرائي بالطاعة النافلة. وقد يظهر أيضاً، التورع والتقوى مع تصنعه بالنافلة، يريد بذلك ان يحتال في المعصية[2].

فهو، وإن كان أسوأ حالا من كثير ممن ذكرنا قبله، فإنه راءى بالتطوع، وإن كان أعظم منه بليةً بطلبه المعصية، لأن ذلك عظيم: أن يجعل طاعة الله، عز وجل، سُلما وبضاعة ينال بها معاصية.

كالرجل يريد الوصية ليختانها.

أو أخذه مالاً يتصدق به على المساكين ان يختانه.

---

(١) أي: ينقلب وروعه من التشدد في الإكمال، إلى مجرد الورع أن يضيع الفرض نفسه على أي صورة جائزة مع الترخص والتأويل.

(٢) في ط: يختال. بالخاء المعجمة خطأ، والمراد: أن يتخذ التشدد في السنة سبيلا إلى ارتكاب المعصية، بأن يكتسب ثقة الناس فيأمنوه على أعراضهم وأموالهم، وبعد ذلك يخلو الشيطان فيركب الحرام، والناس يتحدثون عن تقواه.

او طلب امرأة يريدها للفجور.
او غلاماً يريده لذلك.
وذلك على قسمين من الناس: أما طلب الفجور وغيره من أهل الفسوق.

وأما اختياره الوصية والمال ويجعل للمساكين، والوديعة يريد ان يختانها[1]. وأخذ المال للغزو والحج يختانه، فذلك كثير ممن يظهر القراءة.

وقد يظهر القراءة[2] أيضاً بعض الفجار، فيطلب الغلمان والنساء بالطاعة فيظهر لبس الصوف والخشوع وكثرة الذكر، وطلب العلم، والجلوس مع أهل الدين، وإتيان مجالس الذكر، وغير ذلك من البر، ليؤتمن ويوصى إليه، أو يعطي مالا للمساكين وللوديعة يريد ان يختانها، ويعطي ما يغزو به او يعطيه لمن يغزو به.

وكذلك من يحج، وكذلك من يتجر: يظهر التزيُّن بالخشوع والذكر وغير ذلك، لئلا يتهم في الطلب فلا يمكنه الظفر، او ليطمئن إليه المرأةُ والغلامُ لما يظهر من البر والدين.

قلت: ما الذي يليه؟ قال: المرائي بالنوافل، وقد يظهر أيضاً التورّع مع تصنعه بالتطوع لمعصية هو مقيم عليها، مخافة ان يفطن له، فإن اختان مالا فادُّعِيَ عليه، أو اغتصب مالا فاتُّهِم به، أظهر الخشوع والدين والنسك، لأن يبرأ في القلوب ويظن به البراءة مما يدعى عليه، او مما يرمى به، او يُظنَّ به.

وكذلك إن كان مقيما على فجور: يستره بالنوافل والتورع، وإظهار الطاعات والبر، لا تقطع عليهم التهم فلا يُصدَّق عليه إن قيل فيه أو اتهم بذلك.
قلت: من الذي يليه؟

قال: المرائي بالعمل لا يريد إلا الخلق تكلفاً من أجل حمدهم، كالمصلي وحده

---

(١) في ط: يختارها خطأ.
(٢) القراءة المراد بها العيادة الظاهرية مع تشدد واصطناع تعمق وغلو.

يرى المصلين، فيخاف ان يقال: كسلان، او لا يحمد على الصلاة.

او يبيت مع القوم، فيقومون، فيقوم كراهة ان يظن به انه ممن ليس يقوم بالليل وليعرف بذلك.

او ينامون فيقوم فيصلي، ليريهم انه فوقهم وأنه من القوّامين المصلين، واذا خلا لم يفعل ذلك، يعلم الله عز وجل انه لو لم يَرَوْه ويعلموا به ما فعل ذلك.

وكالقوم يصومون، وهم في موضع واحد، فيصوم معهم، ولو كان وحده لأفطر، جزعا ان يفوقوه بالصوم، فينظروا إليه بعين النقص، فيصوم، فلو خلا لأفطر وما صام ولا تطوع بذلك الصوم.

وكذلك الغزو والحج وسائر أعمال الطاعات. وكذلك يظهر البرّ والطاعة ليُعدّل[1]، فتقبل شهادته، وتُقْضى حوائجه، ويُوصل، ويبرّ، ويُعظم، أو يُثنى عليه ويشهر بالخير ويذكر به، أو ليترأس بذلك، وما أشبه، لا يريد بذلك إلا الخلق، ولا يذكر ثوابا في عمله ولا في بعضه.

قلت: ما الذي يليه؟

قال: المرائي بالعمل يريد الله عز وجل، ويريد غيره، ولولا إرادة الخلق وحمدهم بذلك ما عمله من اجله، ولو خلا لما عمله لله عز وجل وحده، فلما اجتمع الأجر والحمد نشط له.

قلت: ومن الذي يليه؟

قال: الذي يعمل العمل يريد حمدهم والثواب وهو معتاد لتلك الطاعة بنيّته.

قال: المرائي بالتطوع لينال بذلك الدنيا: كالمرأة يريدها حلالا، او يرغب في التزويج، فيظهر الحزن والبكاء والقصص، والعمل الصالح وتذكير الناس، ليرغب فيه فيزوج، كما يفعله كثير من القصاص وكما يروى عن الأعرابي الذي هاجر لتزوجه أمُّ قيس نفسها[2].

---

(١) اي: ليشتهر بالعدالة عند الناس.

(٢) وهو: مهاجر ابن قيس.

قلت: من الذي يليه؟

قال: المرائي بالنوافل تكلفا إذا اطلِع على بعض ما ينقصه في الدين عندهم، او خاف ان يُظَنَّ به انه لا يريد الله عز وجلّ بذاك يخاف ان تزول منزلته، وتغيَّر حاله في القلوب التي كانت فيها.

كالرجل يمشي مستعجلا او يطلع عليه متلفتا، فإن لُقِي لاهيا أو اطَّلع عليه سكن في مشيته، وخشع وغضّ طرفه، وخفض صوته، وأرخى جفونه، لئلا ينظر إليه بعين السهو واللهو.

وذلك رياء من يظن انه من الخاصة من القراء[1]، لئلا يُنْظَرَ إليه بالنقص، ولذلك إن اطلع على نقص فيه من ضحك او مزاح استغفر وتنفس وتحزّن كراهية ان يقال: لاهي، وان لا بنظر إليه بعين الحزن والخوف، فيستغفر مما ليس بذنب ويظهر الحزن والتنفس والتندم مما يريد به الله عز وجل.

ولقد علم ان الله عز وجل لا يعذب على ذلك، وما ذلك بذنب يُستغفر منه ولكن لكيلا تغير منزلته من قلوبهم، ولا يظن به إلا الحزن والانكسار، فيجزع مما كان منه لسقوط المنزلة عندهم، او يتكلف إظهار الحزن والاستغفار والخشوع لغير الله عزّ وجلَّ. ولو خلا لعملها وهو فرح مسرور بها، وإذا جاء وقت فعلها بحضرتهم يجزع من قبل عقله وعلمه ان يكون تكلفاً للعباد لا يريد الله عز وجل به، وقد غلبه طبعه على اعتقاد حمدهم مع اعتقاد الثواب.

قلت: من الذي يليه؟

قال: المرائي يتوهم الطاعة انه عاملها، وليس كذلك.

كالرجل يعرف بالصيام، او يرى غيره صائماً، او يظن به الصيام فلا يأكل ولا يشرب خشية ان يراه من يظن به الخير او يعرفه بذلك، فيدع الماء وإنه لعطشان، ويدعى الى الطعام فيمتنع من الأكل محبة ان يُرى انه صائم، وجزعاً أن يقال: إنه مفطر، فينظر إليه بالنقص من فضيلة الصائمين.

---

(١) وكذلك المريدون شيوخهم يكونون على حال لا يكونون عليها من الناس.

فإن علم بإفطاره اعتذر ليُعذر فَيُرِي انه لم يدع الصيام من فترة، ولكن إرادة بر والديه، أو سرور اخ، وأداء حق يلزمه في دعوة، أو إبرار مقسم، أو عِلة في بدنه.

باب ما يورث الرياء

من الأخلاق المذمومة وشرحها

قلت: فأخبرني بالذي يورث الرياء من الأخلاق المذمومة عند الله عز وجل.

قال: ما كان منها عن الرياء خاصة لا عن غيره، فإنها تورث خلالا، منها: المباهاة بالعلم والعمل، والتفاخر بالدين والدنيا.

وقد يعتري التفاخرُ ايضا من الكبر، ولكن التفاخر من جهة الرياء جزعاً أن يُعْلى[1] ومحبَّة ان يعلو، والتكاثر بالمال وغيره من امر الدنيا، وبالعلم والعمل.

والتحاسد على العلم والعمل لغير منافسة ولكن جزعاً أن ينال من يحاسده من المنزلة والحمد ما لا ينال هو.

ورد الحق على من أمره او ناظره، لئلا يقال: هو أعلم منه.

وقد يعتري ذلك أيضاً من الكبر، ولكن كراهة ان يقال: غلبه فلان، أو أخطأ.

[الرئاسة]:

قلت: ما الرئاسة؟

قال: حب التعظيم والتسخير للعباد والحقرة لهم، وان لا يُردّ شيء من قوله، ولا يساوي في العلم بغيره، ولا يقدم عليه غيره، وإن وُعِظَ عَنِف[2]، وإن وَعَظَ عنَّف فلم يقبل، وعنِف وإن علم انه قد أخطأ، فلما علمه الناس او وعظوه لم يُظهر الرجوع لئلا تنكسر رئاسته.

---

(١) اي: أن يعلو عليه احد في المنزلة.

(٢) اي: كان عنيفا في رده على من وعظه «وإذا قيل له اتق الله، اخذته العزة بالإثم».

[المباهاة]:

قلت: ما المباهاة، وكيف هي، وما تورث، وإلى ما يؤول ضررها؟

قال: بالعلم والعمل.

فأما بالعلم فالدوام على الطلب للعلم، وكثرة الحفظ له، والمواظبة عليه، وكثرة عدد من لقي من المحدثين، والمبادرة إلى الجواب حين يسأل هو او غيره. يحب بذلك ان يصيب الحق ليعلو، او ليعلم انه فوقه، ويُعْلِم غيره أنه أعلم منه، ويبادر إلى ذكر الحديث ليعلم صاحبُه انه اعلم منه، وإن ذكر صاحبه حديثاً اخبر انه يعرفه، مباهاة ليفوقه.

والمباهاة بالعمل، إن اجتمع هو ومن يذكر الله عز وجل، أو يقاتل في سبيل الله عز وجل، أو يصلي، او يعمل عملا من أعمال البر.

فإن صلى غيره قام فصلى جزعاً ان يعلوه، ويكره صلاة المصلي معه ليرى فضله، وإن صلّيا جميعاً طوّل الصلاة ليتحشم صاحبه ويمل، فيترك الصلاة، فيُرفع فوقه، ويكون قد علاه في المنزلة عند من يعلم ذلك، أو عند المصلّى معه، ليستصغر نفسه، ويرفعه على نفسه، ويرى فضله عليه.

وكذلك القتال في الحرب: يبادر قدام غيره، ويحب ان يتخلف ويتقدم هو، ويحمل نفسه على الكر على العدو بكل ما يقدر عليه ليعلوه، ويرى فضله عليه، ولعله يقتل على ذلك مُحْبَطاً اجره، ولا آمن مقت الله عز وجل له.

وكذلك في سائر الأعمال.

وأما المباهاة في الدنيا: فالمباهاة بالبناء، فينفق ما لو كان إليه وحده ما أنفقه، ولكن لمن قاربه من الجيران، أو من الأقارب والأصحاب والأشكال من أهل عمله ومثله.

فأنفق من النفقة اكثر مما لو كان يريد بالبناء نفسه، فأنفق للمباهاة أضعاف ذلك، لئلا يعلوه غيره، ليكون هو العالي عليه.

وكذلك في طلب الدنيا مجتهداً في الطلب، لئلا يعلوه، ويعلو هو في شرف المال وذكره به.

وكذلك في الخدم والأثاث وغيره.

[التفاخر]:

قلت: وما التفاخر؟

قال: التفاخر قد يجمع المباهاة في أكثر معانيه، ولكن له أسباب يتفرد بها مثل ما قد يجاء معها في العلم، فيخرجه التفاخر بالعلم إلى الاستطالة عليه فيقول: كم سمعت؟ وهل تحسن شيئاً؟ وما تقول في كذا وكذا؟ يقول ذلك لغيره، وما يحسن فلان وإن لم يسمعه، وما سمع ما سمعت، وما قام مقامي، افتخاراً عليه.

وكذلك التفاخر بالدنيا مع المباهاة فيقول: أنت فقير لا مال لك، وكم ربحت؟ وكم عندك من المال، ومتى ملكت المال؟ وعندي أكثر مما تملك، ومولاي أغنى منك.

وكذلك في العمل أن يقول: ما قمت في الحرب مقام الفرسان، وما كررت، ولقد جبنت، وما أحسنت الكرّ.

وكذلك في المناظرة والمفاخرة يقول: كم تحفظ من الحديث؟ ومن لقيت من المشيخة؟ وكم أدركت من العلماء؟ وما كان فلان يقدمك وقد كان يقدمني عليك. ويقول ذلك لغيره من غير أن يسمعه افتخاراً عليه، فيخرجه الرياء إلى إظهار التكبّر عليه، والاستطالة والبغي عليه.

والتكاثر قد يجامع التفاخر[1] ويزيد عليه في بعض معانيه وهو مثل قوله: سمعت كذا وكذا من الحديث، وغزوت كذا وكذا غزوة، وحججت كذا وكذا حجّة، وأدركت من المشيخة كذا وكذا، وما أفطرت مُذْ كذا وكذا، ومن ينام بالسَّحَر[2]؟

---

(١) في أ: قد يجتمع التفاخر.

(٢) اي: ينكر على من ينام في السحر، يريد بذلك الإعلان عن قيامه الليل.

فإن كان مكاثراً أو مفاخراً فطناً - يريد ان يحمد ويفاخر ولا يذم - لم يصرح بذلك [ولكن] عرض بجميع ذلك، لينال المباهاة والمفاخرة والمكاثرة، ولا يصرح فيقولوا: مباه، مرائي، مفاخر، مكاثر.

وهذه بعضها تجامع بعضاً ولكن يزيد بعضها على بعض، فمن ثـمَّ فرق الكتاب والسنَّة بينها وذلك قول الله عز وجل: ﴿**وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بيْنَكُمْ وتَكاثُرٌ في الأمْوالِ والأوْلادِ**﴾ (١).

وقد قال النبي ﷺ: « من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً » وقال في آخر الحديث « خلالا » ففرق بينهما.

[التحاسد]:

قلت: فالتحاسد.

قال: يبعث عليه الرياء وغيره، فأما ما كان من الرياء فحسداً ونفاسة أن يدرك [غيره] من المنزلة أكثر مما يدرك، ومِنْ حَمْدِ النـاس أكثر مما يدرك من الحمد، فيحب ان تزول عنهم النعم، لئلا يعلوه بها [أحد] فيكون دونهم عند إخوانهم وغيرهم، وقد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال لأبي أمية: لا أبقاني الله وإياك إلى زمان يتغاير فيه على العلم، كما يتغاير على النساء (٢).

قلت: وكيف يردّ الحق وهو يعلم انه حق؟

قال: لكراهة ان يقر له بالصواب فيعلوه، ولذلك تفرق أهل الكتاب بغياً بينهم وحسداً (٣).

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٠.

(٢) وقد كان والله في عصرنا من تحاسد العلماء وتناحرهم علىَ موارد الكسب والاستغلال ما تخجل منه الوجوه الحرة، ولا سيما ممن يشار إليهم ويعتمد على رأيهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

(٣) بل وكفرق المسلمون كذلك، ومن هنا نعلم كيف دفعهم الرياء والنفاق إلى التمسك بالباطل وجمع الناس حولهم في صورة فرق ليس فيها ناجية إلا واحدة، وهي اهل السنة والجماعة، وكل يدعيها، وقد ضاع الحق في ظلمة الدعوى.

[حب الغلبة]

قلت: فحبّ الغلبة؟

قال: حب الغلبة قد يعتري من الرياء وغيره.

فأما ما يعتري من الرياء فكراهة أن يغلِبَه في المناظرة ويرتفع عليه من غلبة ويتضعَ عند من يعلم ذلك منه، ويحبّ أن يغلب فيعظم عليه ويثني عليه ويبرّ ويوصل بالأثرة عليه.

وكم من عبد قد صارم رجلا في علم فناظره حتى غلبه، وقد كان المغلوب يبرّ ويعظم، فجفاه من كان يبره حين غلبه ومال بالبر والتعظيم إلى الغالب.

فيحب أن يخطىء غيره ويصيب هو، وإن أصاب اغتم لذلك، وتلك نهمة إبليس في العباد: أن يخطئوا في دين الله عز وجل ولا يصيبوا، ويغتم إن أصابوا. ولا يتفهم ما يقول مناظره إنما همَّته الرد والشغب.

وبذلك وصف الله عز وجل الكفار، فقال: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَ الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ**﴾[1].

قلت: وكيف يترك التعلم لما يحتاج إليه ولا يسأل عنه.

قال: قد يعتري ذلك من الرياء وغيره.

فأما ما يعتري منه من قبل الرياء، فكراهة أن يُسْأل عن أمر فيقال: هذا لا يحسن مثل هذا فيدع الحق أن يطلبه والحرام أن يسأل عنه، وهو يعلم أنه يحتاج إليه، ثم توهمه نفسه أن ذلك منه حياء، وإنما هو منه رياء، ولو كان حياء لكان من الله عز وجل أحق أن يستحيي، زعم من الناس أن يطلب الحق فيعلموا بذلك فيفطنوا بجهله ولا يستحيي من الله عز وجل، وقد علم أن الله عز وجل يعلم أنه يدع الحق أن يتعلّمَهُ ويطلُبَهُ.

وهذه الأخلاق كلها تتشعب من العجب والكبر وغيره، وإنما أخبرنا بما يهيج

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

عن الرياء، ولقد جاء الأثر بالنهي والذم من قبل الرياء.

فروي عن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، قال: «لا تطلبوا العلم لتباهوا به العلماء، أو تماروا به السفهاء، ولا تجترّوا به أبصار الناس إليكم»[1].

قال كعب: يأتي على الناس زمان يتغايرون فيه على العلم، كما يتغايرون على النساء، فذلك حظهم منه.

باب علامة المرائي في نفسه

قلت: فما علامة المرائي في نفسه؟

قال: يحبَّ الحمد على طاعة الله عزّ وجلّ، ويكرهُ الذم، فيدعُ الطاعة من أجل[2] الذم.

وإذا عمل عملا لم يعلم به غير الله عز وجل، أو علم علماً لم يعلم به إلا اللهُ لم تقنع نفسه في عمله؛ وعمله بعلم الله عز وجل ونظرِه وسمعه وحدَه، حتى يغلب على قلبه الطلب لعلم غيره.

يهتم لذلك، فإن اطلعوا عليه ارتاح قلبه لذلك وسرّ بحمدهم.

وأخفّ الناس عليه من حمده وأثنى عليه، وأثقلهم من ترك حمده والثناء عليه[3].

---

(١) أخرجه: الحاكم في المستدرك ١/٨٦ عن جابر بن عبد الله بلفظ: «لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، أو تماروا به، ولا تجتروا به المجلس. فمن فعل ذلك فالنار النار». وصحح الحاكم إسناده. وذكر رواية أخرى عن كعب بن مالك.

(٢) أي: إذا ذمه الناس عليها، ووسموه بالرياء فيها تركها. أو تركها خوف أن يرائي فيها دون أن يذمه الناس، لقد استبطن خوف الناس في هذه الحالة أيضاً.

(٣) يقول المحاسبي في باب المدح والذم من الوصايا: إن العامل يدعي كراهة المادح وحب الذام، من أجل السلامة، ولكن لا يعدم أن يكرم المادح ولا يكرم الذام وإذا ساوى بينهما في الإكرام أو التقريب، فلا يسلم من نزغة الصدر.

ولا تسخو نفسه بإتيان طاعة الله لا يعلم بها أحد، فإن أراد نفسه على ذلك ثقل عليها ولم تطاوعه عليه.

وقد روي عن رجل: أنه عرض على نفسه في أيام بابك [الخرمي[1]] وهو يقاتل المسلمين فقال لنفسه: أتحبّين أن تقتلي بابك ولا يعلم بذلك أحد؟ فأبت وقالت: مثل بابك يقتل ولا يعلم به أحد.

باب ما يجب أن يلزمه المريد[2] نفسه

عند عمل السر والعلانية

قلت: فما الذي أولى به أن يُلزمه قلبَه قبل العمل، وفيه، وبعده؟

قال: أن يكون يعمل العمل لا يريد أن يعلم به إلا الله عز وجل وحده، قانعا بعلم الله عز وجل دون علم غيره، لأنه قل من يقنع بعلم الله عز وجل إلا الخائف من الله عز وجل.

لأن العبد إذا أراد العمل من عمل جوارحه أو عمل في باطنه أو ابتدأ فيه كالفكر الذي يهيج (منه)[3] البكاء والأحزان، جزعت النفس أن يكون يعمل

---

(١) **بابك**: زعيم فرقة يقال لها البابكية.

(٢) المريد في تراث المحاسبي معناه: العابد المتوجه إلى الله تعالى، المخلص نيته له وحده سبحانه، من الإرادة وهي: النية.

وقد تطور معنى هذه الكلمة أخيراً حتى صار معناها مريد الطريقة الصوفية المعينة، ثم تطور حتى أطلق على مريد شيخ بعينه.

ونحن وإن كنا نقول بأن الأقوياء من أهل البصائر لا يغيب عنهم أن ارادة الطريق معناها: إرادة الطريق الموصل إلى الاخلاص لله، ولكنا لا تأمن على العامة والجهلاء اللصوق بالطريق والشيخ، ثم ينسون إرادة الله.

وعلى أحسن الأحوال فقد كان تطور هذه الكلمة هكذا لا يجعل إرادة الله بالدرجة الأولى من الأهمية.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

عملا عظيما له عند الناس قدر عظيم ولا يعلمون به.

فتغلي لذلك غلياناً تقول به: مثل هذه الفضيلة لا يعلم بها أحد! لو علموا منك لقمت عندهم مقاما كبيراً، ولا يعلم العبد أن في ذلك ضعة قدره عند الله عز وجل.

فليقنع بعلم الله عز وجل، فإن اطلع عليه فعلم به غيرهُ منعَ قلبه من الارتياح والسرور، فإن غلبه طبعه على الارتياح والسرور كره ذلك ومنع قلبه من الركون إليه.

ثم لا يزال حذرا حتى يفرغ من عمله ثم يمسك عن إظهاره، ويمنع قلبه أن يطلب البر من الناس، لما يعرفون من بره وفضله، ويكون وجلا مع ذلك كله أن يكون الله عز وجل قد أحصى عليه من النية المذمومة في عمله ما لا يرضى بها، لا يأمن من أن يكون نسيها وغفل عنها وأحصاها الله عز وجل عليه.

قلت قد وصفت عمل السرّ، فما تقول في العلانية كالجنازة وطلب العلم والصلاة تطوعا يوم الجمعة أو في المساجد حيث يراه الإنسان.

قال: مثل ذلك أن تكون نفسه قانعة بعلم الله عز وجل لا تفرح بعلمهم إذا علموا بذلك، لأنه يريد بذلك ثواب الله عز وجل وهو: الرضى والجنَّة، لأن فرح العبد بعلم من لا يملك رحمة الله عز وجل ولا جنته دلالة أنه لا يريد رضى الله ولا جنته.

ثم يرعى جميع ما فسرت لك من ذلك بقلبه ويحفظ جوارحه [1].

---

(١) أنظر كيف يفسد عمل العبد بعد سنين طويلة من عمله في باب النية والإرادة من «آداب النفوس» للمؤلف. يصدر قريباً من تحقيقنا. دار الجيل، بيروت.

باب سرور العبد عندما يظهر عليه من عمله

قبل فراغه منه وبعد فراغه

قلت: فأخبرني إذا اطُّلِع عليه بعد فراغه من العمل فيسر باطلاعهم؟

قال: سروره بإطلاعهم قد يتصرّف على وجوه ليس كلها مذموماً.

وقد يسرّ باطلاعهم إذا أطلعهم الله عز وجل وقد كان هو يستره عنهم. فأبى الله عز وجل إلا أن يطلعهم عليه فيسر بما يرى من نعمة الله عز وجل بستره القبيح، وإظهاره الجميل.

قلت: فيعدّها نعمة، ويسر بحمدهم، فهو إذاً يحب حمدهم على طاعة الله عز وجل؟

قال: لا، ولكن يسرّ بستر الله عز وجل القبيح عليه، وإظهاره الجميل منه[1]؛ لأن النفس تحبّ أن تحمد وتكره أن تذمّ ويهتك عنها الستر، فيسر بستر الله عز وجل: إذ فعل به ما يوافق طبعه وترك ما يخالفه سروراً باللطف منه لا لقيام المنزلة عندهم فيسرّ بفعال المنعم في ستره القبيح وإظهاره الجميل[1].

قلت: وبماذا يكون سروره؟

قال يسرّ بما يرى من الخلق وحمدهم الطاعة إذا ظهرت من المطيع، وحبّهم له، فيسرّ بذلك منهم إذا كانت قلوبهم كذلك.

وغيرهم ممن يدعى الإيمان قد يرمي من اطلع عليه على مثل هذا العمل بالرياء ويتكلم بالوقيعة فيه والحسد، فيسر بطاعتهم فيه ومجانبتهم أهل الحسد وأهل سوء الظن.

---

(١) هكذا قال الحسن حينما قال له رجل أنت يشير الناس إليك. فقال: يقولون ماذا؟ فقال: يقولون هذا الحسن رجل صالح. قال: الحمد لله الذي أظهر الجميل، وستر القبيح.

ويسر أيضاً إذا ستر الله عز وجل عليه القبيح وأظهر الجميل: رجاء أن يكون هذا دليلا على ستر الآخرة، لقول النبي ﷺ: «ما ستر الله عز وجل على عبد في الدنيا إلا وستر عليه في الآخرة»[1] ويسر أيضاً باطلاعهم وتعظيمهم الطاعة، ورجاء أن يقتدوا به، فيعملوا مثل ذلك العمل.

ويسر أيضاً باطلاعهم لنفسه ليحمدوه لطاعته لله عز وجل ويبجّلوه ويعظموه ويفضلوه، ويبروه ويصلوه، وهذا الخلّة المكروهة.

قلت: فهل يفسد ذلك عمله الماضي الذي قد فرغ منه، وإنما يسرّ به بعد العمل؟

قال: لا، وقد ذهب العمل خالصاً ولم يرائي به، ولم يظهره على عمد، ولم يحدّث به، ولم يتمنّ أن يظهروا عليه، وهذه المحبّة منه لحمدهم نقص منه، ومحبة للمنزلة عندهم بطاعة الله عز وجل، وذلك عقد المرائي أن يحمد، فذلك نقص منه وذم عند الله عز وجل.

ولا يحبط العمل إن شاء الله إذا لم يرائي به يتمنّ اطلاع العباد عليه ولم يظهره لهم ولم يحدث به العباد.

وقد ينبغي له أيضاً أن يكون خائفاً على عمله الماضي أن يكون قد خالط قلبه من الرياء ما لم يفطن له لغلبة الهوى فخف ذلك لما رأى من محبّة نفسه لحمدهم، ويرجع إليها فيقول: لولا أن للرياء في قلبك أصلا لما هاج حين اطلعوا، ويرجو أن يكون خالطه رياء يحبط عمله، فيكون يأمل من الله عز وجل أن يكون تقبّله منه ويكون خائفاً لما رأى نفسه تحبّ حمدهم عند إطلاعهم عليه أن يكون قد أحصى الله عزّ وجلّ من ضميره ما نسيه ولم يفطن له.

فليستغفر الله عز وجل مما يعلم الله عز وجل ولا يعلمه هو.

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه، الحديث ٧١، ٧٢ من كتاب البر. بلفظ: «لا يستر الله على عبد في الدنيا الا ستره الله يوم القيامة».

فإن كان خالط عمله رياء رجوت أن يعفو الله عز وجل عنه[1].

وإن لم يكن خالطه الرياء كان ذلك الإشفاقُ والمخافةُ طاعةً لربه عز وجل وزيادة حذر فيما يستقبل من الأعمال ورداً على نفسه ما حدث في قلبه من سرورها بحمدهم[2]

قلت: فإن اطلع عليه من قبل أن يفرغ من العمل فيسرُّ بذلك؟

قال: ذلك مختلف فيه أيحبط أم لا إن كان سروره من حب المنزلة والحمد.

قلت: أفليس قد روي عن النبي ﷺ في الحديث: «أن رجلا قال: يا رسول الله، أسرُّ ولا أحبُّ أن يُطَّلَعُ عليه، فيطلع عليه فيسرني ذلك، قال، لك أجران، أجر السر، وأجر العلانية»[3].

قال: هذا الحديث لم يقل فيه فيطلع عليه بعد فراغي منه، أو قبل فراغي منه، وقد يجوز أن يكون علم به قبل أن يفرغ منه، ويجوز أن يكون بعد فراغه.

فإن يكن قبل الفراغ من العمل فذلك أشد.

وقد اختلف في ذلك؛ فقالت طائفة: لا شيء عليه، لا يضره السرور منه بالعزم المتقدم لله عز وجل بالإخلاص الذي به دخل العمل، وروت هذا الحديث واعتلت به حديثاً عن الحسن، أنه قال: إنهما سروران، فإذا كانت الأولى لله عز وجل لم يضره الثانية.

وقالت فرقة: يحبط عمله إذا كان قبل الفراغ منه، لأنه قد نقض العزم الأول وركن إلى حمد المخلوقين، ولم يختم عمله بالإخلاص، وإنما يتم العمل بخاتمته.

وكذلك يروى عن معاوية رحمه الله، عن النبي ﷺ: «إن العمل كالوعاء إذا

---

(١) المؤلف في هذا الموضوع أدق مسلكا في «آداب النفوس» له.

(٢) تأثر الغزالي بالمحاسبي واضح بمقارنة من هنا بنظيره في الإحياء.

(٣) أخرجه: البيهقي في شعب الإيمان من رواية ذكوان عن ابن مسعود، وأخرجه الترمذي وإبن حبان من رواية ذكوان عن أبي هريرة. قال الترمذي: غريب.

طاب آخره طاب أوله »[1]. أي العمل بخاتمته، وبالله التوفيق.

والحديث قد روي: « من راءى بعمله ساعة حبط ما كان قبله »[2]. ولا معنى لهذا عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا بالرياء[3] قبل أن يفرغ من العمل، فقد راءى بعمله ساعة فحبط ما كان قبله، ولا معنى لهذا عندهم إلا ما سألت عنه من سرور هذا الرياء قبل أن يفرغ من العمل، فقد راءى بعمله، فقد حبط ما مضى منه وما بقي، إلا أن يتمه على غير ذلك العقد.

وأما حديث الحسن، فإنما روى: إذا كانت الأولى لله، فلا تهدمه الثانية، أي لا تكسره.

وأما ما روي في الحديث الآخر: لا يضره، فهذا معناه: ألا يدع العمل ولا تضره الخطرة وهو يريد الله عز وجل، ولم يقل: إذا عقد (على)[4] الرياء بعد عقد الإخلاص لم يضره.

وأما حديث النبي ﷺ فليس في مسألة السائل، قال: يا رسول الله، فيسرني من قبل حب المحمدة. فيكون فيه حجة، وقد يمكن أن يكون - إذ لم يصرح لم كان سروره - لمعانٍ كثيرة.

قلت: فما تقول أنت؟

قال: كنت لا أقطع عليه بالحبط، وإن لم يتزيد في العمل. ولا آمن عليه الحبط، فكنت أقف لاختلاف الناس في ذلك.

والأغلب على قلبي أنه يحبط إذا ختم عمله بالرياء.

وأما اليوم فقد تبين لي ذلك، فأنا أقطع به، لأنه عمل على الرياء (من أول

---

(١) أخرجه: إبن ماجه من حديث معاوية بن أبي سفيان بلفظ: « إذا طاب أسفله، طاب أعلاه ».

(٢) أخرجه

(٣) في ط: هذا الرياء.

(٤) سقطت من ط.

قدم)[1] وختم عمله به، وقد أحبطت السنة عمل المرائي، وهذا قد ختم عمله بالرياء[2].

قلت: فما تقول في الحديث الذي روي عن النبي ﷺ؟

قال: قد أخبرتك بما يمكن أن يكون (به)[3] سروره لاطلاعهم، فإن يكن للنعمة أو لطاعتهم فيه، أو للقدرة، فله أجران: أجر للعمل، وأجر لسروره، لأن سروره طاعة لربه عز وجل، إذ ظهر عمله، فسر ليقتدي به، فأخبره النبي ﷺ أن له أجر ما ظهر من عمله فسر ليقتدي به.

وإن كان سروره لحب الحمد والثناء، فذلك عقد الرياء فلا أجر له[4] يصح في الكتاب ولا في السنة تأويل من تأوله.

وإن السائل سأل عن ذلك، فأجابه النبي ﷺ، وإن الأمَّة مجمعة على الكتاب والسنة أنه ليس فيهما أن الله عز وجل يأجر على الرياء، ولا يقول ذلك أحد من علماء الأمة.

وإن أحسن حال المرائي أن يعفى له عما اعتقد من الرياء، ويبقى له أجر عمله، ولا يحبط كما تأول من ترخص في ذلك، واحتجَّ بحديث الحسن أن ذلك لا يضره.

فأما ان يقول احد له اجر عمله، واجر سروره بالرياء، فذلك ما لا يقوله احد، فإن احتج بالحديث فإنه لا يحتج ان الله عز وجل يأجر على الرياء، وإنما يحتج به لئلا يبطل العمل الأول، ولا يضره سروره.

والنبي ﷺ قد جعل له أجرين: أجر السر، وأجر العلانية، فأحسن احواله ان يكون قال له: لك اجر ما اسررت، ولا يضرك ما ظهر.

---

(١) ما بين الحاصرتين سقط من ط.

(٢) ما هنا نتبين بالتقريب أن المحاسبي كتب الرعاية في الستين من عمره.

(٣) سقطت من ط.

(٤) في ط: فلا أجره.

وأما أن يكون له على عقد الرياء أجر ثان فالذي لم يراء بعد ما اطلع عليه، وأخلص لله قلبه، ونفى خطرات الرياء عن قلبه اخس اجراً، والمرائي أعظم اجراً: له أجران على قياس هذا القول، وذلك ما لا يقوله مسلم يعقل.

فلولا ان الرجل كان في مسألته ما يدل (على)[1] ان سروره كان طاعة لربه وإن لم يكن له بذلك علم، وأشفق من اطلاعهم وسروره به لقلة علمه، فلا يمكن انه كان سروره إلا ببعض ما ذكرنا من النعمة او لطاعة من اطلع عليه فيه أو لأن يقتدي به.

وقد روي عن عبد الرحمن بن مهدي انه قال: إنما معنى هذا الحديث انه اراد القدوة، وقوله اجر العلانية يدلّ على ما قال عبد الرحمن: لأن سروره سرور بما أعلن من فعله عندهم، فإن اقتدوا به كان له مثل أجرهم، كما قال النبي ﷺ: «من سنَّ سنّة حسنة فعمل بها كان له مثل أجر من يعمل بها»[2] والله أعلم بما أراد.

غير أن الكتاب والسنّة لم يدلا على ان له اجراً على الرياء وأن الله عز وجل لم يجعل المرائي أعظم اجراً من المخلص.

وتأول بعضهم في ذلك: منهم عبد الرحمن [بن مهدي] أنه قال: إنه ندم على ما اعتقد من الرياء، فلذلك جعل له النبي ﷺ اجرين: أجراً على طاعته، وأجراً على توبته.

وقد أخطأ من قال ذلك، لأن المرائي إذا ندم على ريائه أُجِرَ على توبته، وحبط عمله إذ قد احبطه بالرياء. والحديث مع ذلك عامة من يرويه غير متصل لا يرفعه إلى أبي هريرة ـ اكثرهم يوقفه على أبي صالح[3]، ومنهم من يرفعه إلى أبي هريرة،

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) اخرجه: الشيخان عن ابي هريرة، ومسلم والترمذي عن جرير بن عبد الله، واخرجه الامام احمد بن حنبل والطبراني والبزار، واخرجه ايضا ابن المبارك في الزهد، انظر: (مجمع الزوائد: ١٦٧/١).

(٣) وابو صالح كذاب. انظره في الضعفاء لابن الجوزي، والمغني في الضعفاء للذهبي، ومعرفة المجروحين للنسائي وكلها مخطوطة في دار الكتب المصرية.

والله أعلم: أمحفوظ الحديث أم لا؟ فإن كان محفوظاً فلا وجه له إلا ما ذكرنا، وإلا تركنا السنن بالتناقض له وخرجنا من إجماع العلماء.

وقد يمكن ان يكون اطلع عليه بعد العمل فسرّ (به)[1] ولم يعلم لِـمَ كان سروره؟ فأخبره النبي ﷺ ان سروره بذلك لا يضره، وأن له اجرين: اجر له على عمله، واجر له فيما ظهر للعباد ان يعملوا بمثل عمله، فيؤجر فيهم إذا اقتدوا به، فدعاه النبي ﷺ إلى أن يكون سروره بالأجر فيهم، لا بالرياء.

باب ذم الرياء والعجب

قلت: فالحديث الذي يرويه أبو موسى عن رسول الله ﷺ: ان اعرابيا اتاه فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل حميَّة، والرجل يقاتل شجاعة، والرجل يقاتل ليرى مكانه، مَنْ في سبيل الله؟ قال النبي ﷺ: «من قاتل حتى تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[2]، ولقد علمنا ان كل مسلم يحب ان تكون كلمة الله هي العليا.

قال: قد تأول قوم في ذلك، وزعموا ان ذلك لا يضر بهذا الحديث، وذلك عندنا غلط منهم[3]، لأن الكتاب والسنة يدلان على غير ذلك.

فأما الكتاب فإنه روي عن طاووس وعدة من التابعين ان رجلا قال للنبي ﷺ: الرجل يصطنع المعروف - او قال يتصدق - يحب ان يحمد ويؤجر، فلم يدر[4] ما يقول له النبي ﷺ حتى نزل.

﴿فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّه فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِك بِعبَادَةِ رَبِّه أحَداً﴾[5].

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) اخرجه الإمام احمد والسنة. وقد سبق تخريجه في حديث: «الرجل يقاتل حمية».

(٣) في ط: منهم غلط،

(٤) في ط: فلم يرد، ولا معنى له.

(٥) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

وأما السنَّة فإن معاذاً روى عن النبي ﷺ: «إن أدنى الرياء شرك»[١].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ انه قال: «يقال لمن أشرك في عمله: خذ اجرك ممن عملت له»[٢].

وروي عن عُبادة بن الصامت أنه قال: «إن الله جل ثناؤه يقول:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل لي عملا وأشرك معي غيري ودَعت نصيبي لشريكي»[٣].

وقال عبد الله [بن مسعود]: «من هاجر يبتغي شيئاً فهو له».

وقال عُبادة بن الصامت: إن النبي ﷺ قال: «من غزا لا ينوي إلا عقالا فله ما نوى»[٤].

وقاتل رجل من أجل حمار، فقال النبي ﷺ: «له الحمار»[٥] وقال: «إنما لامرىء ما ينوي».

وكل مسلم يحب ان يغلب المؤمنون المشركين وإن[٦] راءى، ولو كان كما تأولت هذه الفرقة لكان لا يكون مرائيا في غزوة حتى يكفر، لأن حبه لأن تعلو كلمة الكفر كفر، فتتابعت الآثار بخلاف ما تأولته هذه الفرقة.

وليس يكون ما سأل عنه السائل بحجة على العباد، إنما سأل النبي ﷺ عن أشياء لا يجوز ان تكون لله، فأجابه بخلافه وبما يصح عند الله، فقال: «من قاتل حتى تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[٧]. ولم يقل: من أراد ما سألت

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) اخرجه: مالك في الموطأ، ومسلم مع تقديم وتأخير، وابن ماجه بسند صحيح.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) بل وكانوا يقولون عنه: شهيد الحمار.

(٦) سبق تخريجه.

(٧) في ط: وإلى راءى، ولا معنى له.

عنه، فقاتل لذلك، ولتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله، إنما قال له: مَنْ قاتل في سبيل الله.

فأخبره أن «في سبيل الله»[1] غير الذي عددت، فأخلص القتال لعز الإسلام فمن ادعى معنى ثانياً قاله النبي ﷺ فليأت به، ولن يجده.

والآثار أيضاً بخلاف ما تأولت. وقد روي عن ابن مسعود: إن الملائكة إذا التقى الصفان نزلت، فكتبت الناس على منازلهم: فلان يقاتل للملك، وفلان يقاتل للذكر، وفلان يقاتل يريد وجه الله، فذلك الشهيد.

وقول عمر رضي الله عنه: وأخرى تقولونها في مغازيكم: فلان شهيد، ولعله ان يكون قد ملأ دفتي راحلته ورقا.

قال: وقال النبي ﷺ، حين سأله الرجل عن الرجل يقاتل في سبيل الله، قال: إن قتلت في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلا غير مدبر».

وقتل رجل من أصحابه ﷺ، فقال له أصحابه: له الجنة، فقال النبي ﷺ: «له الحمار، إنه اراده».

وروى عُبادة عن النبي ﷺ انه قال: «مَنْ غَزا لا ينوي إلا عِقالا فله ما نوى» والحديث في ذلك كثير.

فذلك غلط في التأويل، واكثر العلماء يرون انه أشد الحديث، إذا لم يجعل في سبيل الله، إلا من أخلص لتعلو الكلمة وحدها، ولم يضم إليها إرادة غيرها.

ولو كان كما تأولته هذه الفرقة لكان الرياء مباحاً، لا يبطل العمل ولا يحبطه لأنه ليس من مسلم يقاتل إلا وهو يحب ان يَغْلِبَ المؤمنون ويُهزم الكفار، فقد اباحوا الرياء في الغزو.

ولو كان أيضاً كما تأولته ما كان ذلك حجة في سائر الأعمال، لأن الصدقة

---

(١) اي: إن القتال في سبيل الله على غير ما ذكرت ايها السائل.

واكثر الاعمال قد يفعلها العبد لا يذكر الله فيها كما يذكره محبة ان يغلب المسلمون في الغزو.

باب ما يجوز للعبد ان يقطع انه اخلص فيه لله

وما لا يجوز له منه

قلت: فهل يجوز لأحد ان يقطع انه أخلص لله عملا إذ لم يعلم رياء خالطه؟ او الخوف والشك أولى به؟

قال: أما قبل أن يبدأ[١] في العمل فلا يجوز له ان يدخل العمل حتى يعلم انه قد اراد الله به ولم يرد غيره، لأنه لا يجوز له ان يدخل في العمل ولا يدري ما يريد به، فعليه ان يكون متيقناً بأنه قد اراد الله عز وجل بذلك العمل وإلا لم يدخله.

فإذا علم انه قد اخلص فأراد الله عز وجل وحده، دخل في العمل على ذلك. وإذا مضى عليه من الأوقات - ولو كان كطرف العين[٢] - مما يمكن المخلوق فيه النسيان والسهو فالخوف أولى به، لأنه لا يدري لعله قد خطرت خطرة بقلبه: رياء او عجب، أو كبر او غيره، فقبلها وهو ناس لا يذكر أنها رياء، فيكون مشفقاً خائفاً.

قلت: فإذا كان شاكاً في عمله فكيف يرجو على الشك، ويأمل الرضى من الله عز وجل؟

قال: أما الشك في أنه لا يدري دَخلَ العمل بإخلاص ام لا، فلا يجوز في ذلك الشك، إذ قد علم انه قد دخل وقد اراد الله عز وجل وحده.

واما الشك خوفاً من ان يكون قد احصى الله عز وجل عليه قبولَ خطرة نسيها هو ولم يفطن لها فنعم، فالخوف على عمله والوجل والإشفاق من أجل ذلك.

(١) في ط: يبتدىء.

(٢) في أ: كطرفة عين.

قلت: فالرجاء والخوف على العمل ان يكون عمله لله او لغير الله عز وجل إذاً مستويان، فأمله في الله عز وجل ضعيف، فكيف ينعم بطاعته لله عز وجل ويجد حلاوتها؟

قال: بل الأمل والرجاء اغلب واكثر، لأنه قد استيقن انه قد دخله بالإخلاص لله وحده، ولم يستيقظن انه راءى بشيء منه.

فالإخلاص عنده يقين، والرياء هو منه في شك، فخوفه إن قد خالطه رياء كان ذلك الخوف مما يرجو به ان يصفيه الله له، لإشفاقه على ما لا يعلم فهي، فبذلك يعظم رجاؤه، وإن لم يكن خالطه رياء فذلك زيادة على عمله وعبادة منه.

وكلما اشفق ازداد نعيما بالطاعة، وأملا في الله عز وجل، إذا ايقن انه دخله بالإخلاص، وختمه بالإشفاق والوجل عن علم الله عز وجل، فبذلك يعظم رجاؤه وأمله، ويتنعم بطاعة ربه عز وجل.

ما يجزىء من النية

عند ابتداء العمل، والنية في العمل

قلت: فعلى الناس ان يقدموا النية على كل عمل، حتى يعلموا انهم قد ارادوا الله عز وجل وحبّه؟ ام يجزىء المريد نيّته المتقدمة في كل عمل يعرض له؟ لأنه لا يعمله إلا الله عز وجل وحده، وقد سمعتك تقول: لا يدخل حتى يستيقن انه اراد الله عز وجل وحده[1]؟

قال: إنما سألتني هل يجوز لأحد ان يقطع انه قد اراد الله عز وجل؟ فرجعت إليك في ذلك، أنه يجوز في بدء العمل قبل دخوله، ولم أقل لك: إنه من لم يذكر النيّة فهو مرائي.

---

(١) انظر باب النية والرياء (آداب النفوس) للمحاسبي.

قلت: فهل تجزىء المريد نيته المتقدمة، ام لا تجزىء إلا ان يقدم نية عند كل عمل.

قال: إن النية المقدمة مجزية إذا عرض له عمل هو لله عز وجل طاعة، وفيه ثواب ان يأتيه لاسم الطاعة، وظاهرها، وإن لم يذكر النيّة، ما لم يخطر بباله خاطر الرياء فيقبله.

فإن لم يقبل خطرة رياء فهو على نيته الأولى، وهي مجزية عنه، لأن المريد لله عز وجل المخلص، قد قدم النية لله تعالى: ألا يعمل عملا من طاعة الله عز وجل إلا لله عز وجل، وإنما هذا للمريد[1].

فأما من قدَّم اعتقاد الرياء فلا يجزيه ذلك، حتى يندم على العقد الأول، ويجدد لله عز وجل نية عند العمل.

وأولى بالمريد، وإن كان تجزئة النية الأولى أن يجددها عند كل عمل، وذلك أنور للعمل في قلبه، وأبعد له من الغفلة، واحرى إن خطرت خطرة رياء علم بها فلم يقبلها.

وإذا لم يجد النية لم يكن في العمل كمن ذكر الله عز وجل وحده، وذكر الثواب، وأهاج الأمل في قلبه، ولأن من لم يذكر ذلك ولم يجدد نية كان أقرب الى الغفلة والسهو، ولا يؤمن عليه قبول الخطرة وهو لا يعلم، فأولى به تجديد النية عند كل عمل، وإن كانت تلك الأولى مجزية.

ومع ذلك أنه إنما تجزيه في الطاعات المسمّيات في الكتاب السنة: كالجنازة تمر به فيقوم لها؛ لأنها طاعة وإن لم يذكر النية، وكالصلاة يقوم إليها، او كالصدقة وقراءة القرآن.

فأما ليس اسمه بطاعة إلا ان يريد به الطاعة فلا يجزىء حتى يجدد النية، مثل: سؤال الرجل في حاجة يقضيها له من حوائج الدنيا، أو دعاه إلى طعام، او زيارة،

(١) اي: مريد الله تعالى بالعبادة، وهو معنى هذه الكلمة في تراث المحاسبي.

أو أشباه ذلك، فذلك يكون للدنيا ويكون لله عز وجل، وليس اسمه طاعة، إنما يكون طاعة إذا أراد الله به، فلا يجزيه إلا ان يجدد نية عند ذلك، لأنها ليست بطاعة[1]، فيكون إنما أهاجه اسمها، ومعرفته بأنها طاعة لربه عز وجل؛ إلا ان يكون العبد معتاداً لبعض ما ذكرنا او ما أشبهه مما ليس اسمه طاعة، إلا أن يراد الله عز وجل به.

فإن كان العبد معتاداً له وقد قدم النية فيه عز وجل، فذلك كالرجل قد حسنت منه النية في القيام بحوائج الناس يريد الله عز وجل وحده بذلك، فذلك يجزئه ما تقدم من نيته، لأنه وإن لم يكن اسمه طاعة فقد ألزم قلبه النية لله عز وجل بذلك وهو في عادته ومعرفته وما ألزم نفسه كالصدقة.

وأما ما لم يقدم فيه نيته لم يجزئه إلا في أربعة: في العالم، والعابد، او المضطر او الرحم. فإنها فيهم أسهل، وأرجو ان تجزيه النية الأولى؛ لأنه إذا سأله العالم او العابد الذي يحبه لله عز وجل حاجة فقضاها له، فإنما هو للحب المتقدم لله عز وجل، والرغبة في العلم، او لحب العلماء، او لإغاثة اللهفان او المضطر، أو صلة الرحم.

فذلك يجزئه إن شاء الله عز وجل، ما لم تعترض له خطرة رياء يقبلها، إلا ان يكون هؤلاء قد تقدم في قلبه رجاء مكافأتهم، او خوف ملامتهم، او حب، يعرف ذلك من نفسه، فلا يجزئه إلا أن يجدد النية.

فأما من لا يعلم ان نفسه تريد ذلك منه فهي تجزئه إن شاء الله عز وجل النية المتقدمة، ما لم يقبل خطرة رياء، ولا سيما من يحب في الله عز وجل خاصة، فإن كل امره عندي هو لله عز وجل، ما لم تعرض خطرة رياء فيقبلها لغير الله.

---

(١) وهكذا جميع الأعمال المباحة التي لا نص في أنها طاعة مثل الطعام والشراب والنكاح والمسكن والمركب وغير ذلك. وهي أعمال تمكن ان تكون قربة يثاب عليها العبد، ويمكن ان تكون معصية يعاقب عليها، ويمكن ان تكون سدى، لا ثواب عليها ولا عقاب.

وخصلتان تغمُض النية فيهما: إرادة سرور المؤمن، وإرادة منفعته بما يعلمه العالم، فلا يتم السرور والمنفعة له إلا بالعلم. فالعلم يغمض ويلتبس[1].

لأنك تريد ان تسره ليحمدك على ما أدخلت عليه من السرور، وتعلمه فينتفع فيحمدك ويعظمك، إذا رأى منفعة في دينه انها بما علمته، فيحمدك إذا نال الطاعة بما علمته[2].

فمن أجل انك تريد سروره ومنفعته تغفل وتظن انك تريد الله عز وجل بذلك، وإنما تريد ان يحمدك ويبرّك ويعظمك.

قلت: فكيف الإخلاص فيهما[3].

قال: أن تكون إنما تريد ان تدخل عليه السرور لتؤجر على سروره لا ليحمدك، وتريد ان ينتفع بما تعلمه، ليعمل به فتؤجر فيه، ويكون لك مثل اجره، لا تريد بذلك ان يحمدك ولا يعظمك ولا يبرّك[4].

باب العبد يدخل العمل يريد الله عز وجل وحده
ثم يجد من نفسه نشاطاً للزيادة
وما يجزئه من النية في ذلك

قلت: العبد يدخل العمل يريد الله عز وجل به، ثم يجد من نفسه نشاطاً للزيادة فيه من غير حادث نيّة يذكرها، ولكن ينشط قلبه للزيادة، أعليه تجديد النية فيه،

(١) انظر باب النية في إدخال السرور على المؤمن (اعمال القلوب والجوارح) للمؤلف من تحقيقنا، فقد أوسع فيه الكلام بأكثر مما هنا.

(٢) ومن الأغاليط ما ذكره المؤلف في (اعمال القلوب والجوارح) في باب النية في سرور المؤمن ان يسره ليتقي وقوعه في عرضه، ففيه إثم سوء الظن مع عدم الإخلاص.

(٣) في ط: بهما.

(٤) والمراد بالمؤمن المراد سروره من ليس من أهل البغي ولو كان ناطقا بالشهادتين على رأي من يكتفي بظاهر الإيمان. فهو لا يجوز ان يبروا إلا بقدر ما تقوم به حياتهم حسب. انظر التفاصيل في باب النية في سرور المؤمن من كتاب (أعمال القلوب والجوارح).

كما اسمه طاعة أو لم يكن؟

قال: تجزئه النيَّة الأولى في ذلك، ما لم تعترض خطرة رياء فيقبلها، وكذلك كثير من الأعمال.

يقوم العبد وهو يريد أن يصلي بآيات قليلة العدد، فيفتح له شهوة ونشاط، حتى ربما قرأ القرآن كله. ويسجد يريد التخفيف، فيفتح له الزيادة في الدعاء في السجود فيطيل السجود. وكذلك قراءة القرآن، يبتدىء في السورة لا يريد غيرها: فيخف عليه قراءة الأخرى من غير ذكر نية معلومة.

قلت: هذا قد فهمته فيما كان اسمه طاعة، فما لم يكن اسمه طاعة؟

قال: وما لم يكن اسمه طاعة فابتدأ فيه لله عز وجل، ثم اتبعها التزيد فيه، فهو على ما ابتدأ، ما لم يكن حدث في قلبه رياء.

كالرجل يريد الله وحده بإعانة[1] بعض المسلمين على شرائه أو بيعه، أو في حاجة يريد أن يعينه على بعض ذلك يريد الله وحده، ثم ينشط فيزداد على ما كان نوى، فهو على نيته الأولى، ما لم يعترض رياء فيقبله.

وكذلك يُسْألُ الحاجة فينوي قضاءها لله عز وجل وحده، ثم يحب الزيادة على ما يُسْألُ فيفعل ذلك، وكذلك ينوي الهدية لله عز وجل، ثم يزيد فيها قبل أن يرسل بها، فهو على تلك النية.

والتجديد أبعد من الغفلة، وأقوى لأهل الثواب والرجاء، لأنه قد يعترض في ذلك آفات، إن كان أراد الله عز وجل بالأولى، كالهدية يريد بها الله عز وجل ثم يخاف أن تستقل ويقال: ما أبخله، وإنما يزيد من أجل ذلك.

وكذلك المعونة في البيع والشراء والعمل، وقضاء الحاجة، يزيد إذا رآهم قد سُرّوا، رجاء أن يعظم حمدهم، ويزيد مخافة أن يذم، أو يقال: لم تسخ نفسه من

---

(١) في أ: بإغاثة.

المعونة إلا بكذا، فبين أن يكون أتم المعونة حتى يفرغ الـمُعَان من عمله، أو بيع أو شراء، فالتجديد أحبّ إليَّ.

وإن لم تجدد نية كان ذلك مجزياً لما تقدم من نيته، ما لم تعترض له خطرة رياء فيقبلها.

باب وصف النية ما هي

قلت: فالنية ما هي؟

قال: إرادة العبد أن يعمل بمعنى من المعاني، إذا أراد أن يعمل ذلك العمل لذلك المعنى، فتلك الإرادة نيَّة، إما لله عز وجل وإما لغيره، لقول النبي ﷺ «وإنما لامرىء ما نوى»، لأنها نيَّة للمعنيين: نية ان يعمل العمل ونية ان يعمله لمعنى من المعاني، دنيا أو آخرة.

كالرجل يريد أن يعمل، أو يريد أن يغزو، للأجرة، أو بالتكبير، ثم ينتصب قارئاً ثم يركع، ثم يسجد، ثم يرفع.

والنيّة لثواب الله عز وجل، أو للدنيا، إرادة منه أن يصلي ليؤجر وأن يرضى الله عز وجل بها عنه، أو إرادة أن يحمد ويثنى عليه، فتلك النّية.

فالنيَّة في العمل لله عز وجل: أن يريد به ثواب الله عزّ وجل لا يريد غيره.

قلت: أنا أريد أن أكون مخلصاً، وأكون مصلياً وصائماً، ومطيعاً في كل أمري [١].

قال: ذلك على وجهين:

احدهما، قد نويت أن تخلص، وألا تريد شيء مما تفعله إلا الله وحده.

---

(١) في ا في جميع.

ونويت أن تقوم فتصلّي وأن تصبح صائماً، وألا لا تعصي الله عز وجل، وإن عرضت لك معصية ودعتها من خوف الله عز وجل، فتلك الإرادة التي هي نيّة لك هي نيّة الله[١] عز وجل.

ومعنى آخر هو (أن)[٢] تريد أو تحبّ أن تكون مخلصاً وأنت مضيّع للإخلاص، وتحب أن تكون صائماً ومن نيتك الإفطار، وتحب أن تكون مصلياً وأنت كسلان عنها، أو مؤثر عليها الشغل بالدنيا[٣]، وتحبّ أن تدع المعاصي من خوف الله عز وجل والنفس لا تسخو بالتوبة، فتلك إرادة محبة منك الشيء.

وإرادة ثالثة قد جوزتها العرب في لغتها، وأنزل بها الكتاب ـ إرادة كاد قال الله جلّ ذكره. «جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ».

وقال الشاعر:

لا تعجبي منّي ومن سَوَادي ومن قَمِيصٍ همَّ بانقِدَادِ

وقال غيره[٤]:

يريد الرمحُ صَدْرَ بني نِزَار ويرغب من دماء بني عقيل

فوصف الله عز وجلّ الجدار بالإرادة، ووصف الشاعر القميص بالهمّ.

وذلك أنه جدار مائل كاد أن ينقضّ، والقميص خلق كاد أن يتخرق لبلائه.

وتقول أردت والله أن أهلك نفسي، أي كدت أهلكها، لا أنه ينوي هلاك نفسه ولا يحب هلاكها[٥].

قلت: فهل تحضر النية وتمكن العبد في كل أمر، وفي كل وقب؟

قال: أما النية فيما ليس فيه ثواب فلا تحضر، ولا نية في ذلك، ومن أراد الله

---

(١) في ط نية الله.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في أ شغلك بالدنيا.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٥) أي: إرادة بمعنى كاذ.

عز وجل في ذلك فمغرور غالط.

كالرجل بنى البنيان الفاخر يريد بذلك ـ زعم ـ الله[1]، ويأكل الأطعمة الطيبة، ويتكلفها لغير ضعف وجده به، ولا قوة على طاعة، لا يقوى على تلك الطاعة إلاّ بها، فلا تحوز النيَّة في ذلك وكل ما أشبهه.

وكذلك في المحرم: المرأة يعتبر ـ زعم بالنظر إليها، فلا تجوز النية بالنظر في ذلك.

باب معنى قوله لا تحضرني النية في العمل

قلت: فما معنى قول من قال من المريدين لا تحضرني النيَّة؟ قال ذلك يحتمل معنيين:

أحدهما: أن يكون يُسْأل حاجة، أو يُدْعى إلى أمر له فيه الأجر، فيبخل أن يقضي الحاجة، أو يكسل عما فيه الثواب، فلا يرغب فيه، فيبدي المذمة لنفسه.

كالمال يبخل به أو لا تسخو نفسه بإخراجه لله، أو يكسل عن الصلاة، أو عن القيام للحاجة يُسْألها، أو لا تسخو نفسه بترك الطعام والشراب، وتحمّل الجوع والعطش للصيام، فيقول: لا تحضرني نيّة، أي: لا تسخو نفسي بأن أدع شهوتي

---

(١) لا نجد في النصوص ما يجعل من فاخر البناء قربة أبداً، بل على العكس من ذلك، لقد كادت السنة تحدد وتلزم المؤمنين بارتفاع معين، ولون معين من البناء ووقع النكير من الصحابة على ما زاد على ما حددته السنة.

(٢) أو كما يفعل الوعاظ، ينظر أحدكم بنية الامر والنهي، وهو يبطن نظرة خبيثة بقلبه أنظر فنون تضليلهم وتأويلهم في باب نظر الفجأة من (أعمال القلوب والجوارح) للمؤلف.

وبعض المنحرفين من أدعياء التصوف يختلط رجالهم بنسائهم على صور ضرورية ثم يقومون ستاراً حول هذه السلوك لئلا تقتحمه عين ناقدة.

بل لقد بلغ الفجور ببعضهم أن اتخذ من الـزنى وسيلة لتحريد النفس من علائقها الدنيوية بالنسبة للزوج، وكان هناك ضال في مصر يسمي هذه الشفاعة بالتكريس، والله ورسله أبرياء منهم.

وطعامي، وأتحمل الجوع والعطش، فذلك معنى صحيح.

والمعنى الآخر: أن تكون نفسه قد سخت لله بإخراج ماله في سبيل الخير، أو قد نشط لله في الصلاة لا يجد كسلا يعتريه، وكذلك تسخو نفسه بترك الطعام والشراب للصيام، فيعترض له الخطرات تدعوه إلى الرياء فيقول: ليس لي نية. يريد ألا يجد خطرة، وأن يكون قلبه بعد ما خطر مثله قبل أن تخطر به الخطرة، لا منازعة فيه، قد سكنت منه الخطرات.

فذلك غلط وضعف؛ لأن العباد أمروا وندبوا إلى الطاعات، وأن ينفوا الرياء أن يعتقدوه، ولم يؤمروا أن يتركوا الطاعة من أجل دواعي الرياء. ولو فعل ذلك عبد لأوشك إذا علم الشيطان بذلك منه أن يعترض له عند كل عمل بالخطرات بالرياء، فيدع كل طاعة[1].

ولم يؤْمر الناس أن يخرجوا وسواس إبليس أن يعترض في صدورهم بعد إذ جعل الله عز وجل له السلطان بذلك، ولا يغيّروا خلقهم وطباعهم حتى تصير بحيث لا (تنازع)[2] إلى معنى من زينة الدنيا، من رياء ولا غيره، حتى تكون طبائعهم: الحمد فيها مكروه، والذمّ فيها محبوب.

وإنما أمِروا أن يستوي ذلك في دينونتهم من عقولهم بما استودعها الله عز وجل من العلم.

فأما في الخلقة فإن ذلك لم يكلفوه، ولا يقدرون عليه، ولكن قد يقوى العبد فتسكن دواعي النفس عن الدعاء في بعض ما يعمل، ويعترض بالدعاء في بعض ما يخطر بضعف إلا أن الحمد والذمّ لا يستويان في طبعها.

فإنما أمر العباد بمجاهدة أهوائهم[3] ولم يؤمروا أن لا يكون في النفس غريزة

---

(١) في ص: كل طاعاته.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ص: جاهدة الهوى

تدعوه إلى شهوة، ولا أن يخرجوا وساوس الشيطان أن يعترض في صدورهم بل جعلت لهم غرائز عقولهم[1].

ومن عليهم بالمعرفة والعلم قائمين في عقولهم، وبُلُوا بغرائزهم وجُعِل الشيطان مهيجا للغرائز بالتذكير لها بما تحبّ.

وأمروا أن يجاهدوا بعقولهم - بما استودعها الله عز وجل من المعرفة والعلم - ما هاج من دواعي غرائزهم ونزغ الشيطان وتزيينه للنفس ما في غريزتها موافقا لها.

فليس على العباد غير ذلك، ولا يقدرون إلا عليه، إلا أن بعضهم في ذلك أقوى من بعض، وهم الذين أدمنوا المجاهدة حتى انكسرت النفس عن الدعاء، من غير تغير الطبع.

وقد تخطر أقل مما كانت تخطر به من قبل مع ضعف من الخطرة عما كان في أول بدايتهم.

فعلى العبد المجاهد والنهي لنفسه عن هواها، ولم يكلف تغيير طبعه حتى ينقلب فيجعله كطبع الملائكة، ولكن النهي عما يدعو إليه الطبع.

وكما يروى عن وهب أنه قال: الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حرون، فإن فتر قائدها صدفت عن الطريق، وإن فتر سائقها حرنت على قائدها، فإذا استقام السائق والقائد: مضت النفس طوعا، أو كرهاً.

ولو كنت كلما كرهت نفسك شيئا تركته يوشك أن تترك دينك كله.

وقال: النفس تنتظر الهوى، والهوى ينتظر العقل، فإن زجره العقل انزجر، وإن أرخى له مرّ.

---

(١) هذا التعريف للعقل بأنه غريزة كان أول من قال به المحاسبي. وقد ظن بعض المفكرين، أنه يقول بالطبائع ومنهم إمام الحرمين ثم عاد فأقر بطهارة مذهب المحاسبي وقد تبعه على ذلك التعريف الإمام الغزالي في الإحياء.

وصدق، لأن العقل إذا لم يبصر بالعلم ويعتصم بالمعرفة صبا إلى ما تدعو إليه النفس من قبل هواها، فكان هو الذي يحتال للمكائد، ويتلطف لشهواته وهواه.

وإذا تذكر فأبصر بالعلم، واستعصم بالمعرفة، عرف ضرر ما يدعو إليه الهوى، وأبصر عاقبة ضرره زجره، فأمسكت النفس عن استعماله.

وذلك أن الله عز وجل طبع الحيوان من أهل السموات والأرضين على طبائع شتى.

فطبع الملائكة على العقول والبصائر، وعرّاهم من الهوى والشهوات والاشتغال للمكاره التي يألم بها غيرهم من الحيوان، فلا تعرض[1] لهم الأهواء ولا تنازعهم الشهوات.

فهم دائبون في طاعة الله تعالى، وذكره لا يفترون؛ إذ لم يجعل فيهم الأضداد التي بها يفترون والأهواء والشهوات التي تصد (عن الفكر)[2] وتؤثر (الدنيا)[3] على الطاعات والذكر، فلم يجعل لهم ثواب نعيم الجنان إذ لم يجاهدوا الأهواء، ولم يتحملوا الآلام والتعب والنصب، وأجيروا من العذاب وتركوا في طاعتهم.

وطبَع الأنعام والطير والهوام على الشهوات، وجعل فيها المعرفة بقدر ما تغتذي وتطلب معاشها، وتحذر على نفسها وأولادها، بقدر ما عرفت من المكروه. ولم يجعل لها من العقول ما تعقل الأمر والنهي والعلم للعواقب؛ فرفع عنها العقاب في كل ما أصابته من الشهوات التي حرمها على الإنس والجن.

فرفع عنها العقاب ولم يؤخذها بما نالت من النكاح وما أصابت من أموال الناس ودمائهم، وأجارها من العقاب، وجعل آخر مصيرها أن يجعلها ترابا.

---

(١) في ط: تعترض.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ما بين الحاصرتين: ساقطة من ط.

وطبع الإنس والجنّ على العقول[1] التي تحتمل الأمر والنهي وتعرف العواقب وذلك إذا بلغوا الحلم، إلا من أزال الله عز وجل عنه العقل كالمعتوه وغيره.

وجعل فيهم غرائز تحب كل ما وافقهم وتبغض كل ما خالفهم وآذاهم ثم أمرهم أن يجاهدوا بما أعطاهم من العقول ما دعت إليه النفس من قبل غريزتها فجعل لهم الثواب العظيم والعذاب الأليم.

فاعتقل كيف طبعت وبماذا أمرت، ولا يخيَّل إليك أنك كلّفت أن تغير طبعك حتى تصير كطبع الملائكة، فتدع الطاعة انتظاراً أن يصير الطبع إلى غير ما بني عليه من الخلقة، وأن يسكت العدو ويزول سلطانه عن الوسوسة، فصدّك ذلك من طاعة ربّك عز وجل، فتدع العمل للإخلاص - زعمت - فلا تكون أخلصت عملا، ولكن تركت أن تخلص عملا فيكون لك ثوابه.

فقول القائل لا تحضرني النيَّة، أي: أريد أن أطيع الله عز وجل، ولكن أخاف ألا يخلص لي عمل لما يخطر بقلبي ، فذلك ضعف وغلط.

وأما من قاله على الكسل والبخل، وقلة الرغبة، وقلة سخاء النفس بالطاعة لله عز وجل، فذلك صادق، جائز من قول من قاله.

ولكن لا يحمد نفسه على بخلها وكسلها على الخير، وقلة سخائها بالطاعة، ولكن ليذكرها ثواب الله عز وجلّ في الدنيا والآخرة، حتى تسخو، فإذا سخت فليرد الله عز وجل بذلك، وينفي كل ما خطر بقلبه من خطرة رياء وغيره.

---

(١) هذا هو توضيح مذهب المحاسبي بأن العقل غريزة أنظر: «كتاب العقل» الملحق بكتاب «المسائل» للمحاسبي، وفي باب العقل من١ كتاب «القصد والرجوع إلى الله» يصدر قريب، وقد شرح الامام الغزالي فكرة المحاسبي في الجزء الاوسط من الاحياء.

باب من يدخل في العمل لا يريد الله بذلك

ثم يندم، كيف يكون عمله بعد الندامة

قلت: فالعبد يعمل العمل فيبتدىء فيه لا يريد به الله عز وجل،[ويريد حمد الناس، أو اتقاء مذمَّتهم، أو طمعاً لما في أيديهم، ثم يندم على نيته، وهو في العمل لم يفرغ منه. (كيف يكون عمله بعد الندامة)[1]؟

قال: أما الأعمال كلها فلا يحتسب فيها بما مضى، ولكن ليستأنف ابتداء غير ذلك العمل الأول إن أراد أن يتم له النافلة التي ابتدأها.

كالسورة يقرأ بعضها ثم يذكر فيبتدىء من أولها وما أشبه ذلك، إلا الصلاة والصيام والحج، فإن الناس في الصلاة مختلفون.]

فقالت فرقة: يدع ذلك كله، لأنه قد حبط، ثم يبتدىء فيعيد ما عمل من قراءة أو ركوع أو سجود كان بعد الافتتاح.

قلت: ولم خصصت الافتتاح والإحرام وعقد الصيام فلم تفسده وأفسدت ما سواه؟

قال: لأن الافتتاح جعل تحريماً للصلاة، وإنما الرياء عقد في قلبه لا يفسد التحريم والإحرام وعقد الصيام، فيجعله كأنه افتتح الصلاة بالشعر، واستقبل غير القبلة، والافتتاح لا يفسد، لأنه يتحرم بالصلاة، وما سواه يفسد.

وقالت فرقة: يبتدىء الافتتاح، وعقد الصيام والإحرام فلا يحتسب به، لأنه وإن كان يحرم به للدخول في الصلاة فلم يفعل ذلك لله عـز وجل، وإنما فعله للخلق، فكل ذلك فاسد، إلا ما أريد الله عز وجل به.

وقالت فرقة: ليستغفر ويتم ما بقي من صلاته وحجه وصيامه، ويعتد بما مضى، لأن الأعمال بخواتيمها، وقد ختم صلاته بالإخلاص، كما لو ختم صلاته وصيامه،

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

وحجه بالرياء حبط عمله كله، ما مضى منه وما بقي، فلأن العبد لا يكبر ولا يتوجه إلى القبلة ولا يركع ولا يسجد إلا لله عز وجل فلو فعله لغير الله عز وجل كان كافراً.

فلو صلى لله عز وجل، للإيمان وأراد حمدهم، فإذا ندم فليحتسب بما مضى فإنه خالص.

وإنما هو كثوب أبيض لطخته بسواد ثم غسلته، فنقي ورجع إلى البياض، فكذلك افتتاحه وقراءته وركوعه وسجوده تعبد لله عز وجل لا إله غيره.

فلما ندم واستغفر ونوى أن يجعله لله عز وجل وحده زال عقد الرياء، وبقي على أصل تدينه لله عز وجل بالصلاة، فقد أخلص وصفاً، وصار لله وحده، لأنه قبل أن يفرغ من العمل قد زهد في حمد المخلوقين فيما مضى من العمل، وسخت نفسه بألا يحمد عليه، وندم ألا يكون لم يجهل، وأراد الله عز وجل به قبل الدخول في عمله، فذلك يجزيه من الإعادة لما مضى، إذ ختم عمله بالإخلاص، وإنما الأعمال بخواتيمها.

والفرق كلها، الصلاة عندهم لا يشبهها شيء من الأعمال، إلاّ أن الإحرام بالحج آكد[1] في عقد الدخول، ليس له أن يدعه، ولكنه يتمّه لما أوجب الله عز وجل عليه ألا يحله إلاّ الطواف بالبيت، ولسنة النبي ﷺ فليُتِمّه وعليه الندم على الرياء، وليس له أن يخرج منه.

قلت: إذا كان الله عز وجل قد ستر عليّ، وألقى لي المحبة عند الإخوان والجيران والمعارف، وأظهروا لي الحمد والثناء، وقلبي يعطي العزم على أنه لا يريد ثناءهم ولا يريد حمدهم، فهل يخاف عليّ أن يكون ذلك الرضا أغلوطة وخدعة؟

قال: ذلك على معنيين: احدهما أن تكون صادقاً في ذلك غير مطمئن إلى حمدهم

---

(١) في ط: أوكد.

تشكر الله عز وجل على ستره، وتعلم[1] بأن حمدهم لم يزدك في معنى من المعاني، وقد تكون ركنت إلى حمدهم، واستراحت نفسك إلى ذلك، وأنت تعطي من قلبك الكراهة على خدعة وغرَّة.

وذلك أن النفس إذا ظفرت[2] بما أحبَّت من حمد العباد، فلا تبالي أن تعطى الكراهة لغير نقص من محبَّتها، وقد ظفرت بما أحبّت؛ وذلك مثل الرجل يكون عنده ما يكفيه، ويكون له من ينفق عليه، فيقول: توكلت على الله، وما أهتم للرزق، ويخيَّل إليه أن ذلك يقين منه وتوكل، وإنما طمأنينته وثقته بالكفاية والإجراء عليه، ونفسه تريه وتخيّل إليه أن ذلك يقين منه وتوكل.

قلت: فَبِمَ أميّز بين هذين المعنيين؟

قال: إذا تغيّروا، أو تغيّر بعضهم عن الحمد، فإن رأيت نفسك لا تغتم إلا خطرات لا تملك، وأنت لها راد، فاعلم أنها صادقة في نفي حمدهم (لها) ولولا أنها كانت زاهدة في حمدهم لما قلَّ غمّها بزواله.

وإن اغتممت بتغيرهم عن الثناء عليك، وما خطر منه على قلبك لا تكاد أن تخرجه، واشتغل به قلبك، فهذا دليل الخوف من أن تكون النفس كانت راكنة راغبة في حمدهم، ولولا ذلك ما اغتممت إلا عارض غم مردود بعقل عن الله عز وجل.

ولولا أنه نزع منها ما تحبّ ما اغتممت، بل قد تغتم بالظنّ دون اليقين، كراهة أن يكونوا قد ظنوا بك غير ما كانوا يعرفونك به، حتى يشتغل بذلك قلبك، ولعلك أن تخرج إلى أن تقع فيمن ذكرك لئلا يصدّق عليك، وتعتذر بالكذب، وتحلف بالإيمان، وتسهر بالليل للفكر، فإن علمت أنهم قد أيقنوا بذنبك شغلك

(١) في ط: عالم.

(٢) في ط: قد والسياق يقتضي ما أثبتناه.

الهمّ بعلمهم عن علم الله عز وجل[1].

ولعلك أن تعتذر من ذلك بأعظم من الذنب، وتظهر من الهمّ والانكسار أكثر مما كنت تظهر، لتبرىء صدورهم مما ظنوا أو تيقنوا.

فإن أردت أن تعلم أن النفس قد ركنت إلى حمدهم أو تركن[2]، فإن تغيّروا لك فانظر كيف غمك بزوال حمدهم؟ فإن غمك بذلك يدلّ على ركونها إلى حمدهم، وإن لم يتغيّروا فاعرض على نفسك: أن لو تغيروا لك عن الحمد إلى الذمّ كيف غمك بذلك، فإن اغتممت فليغلب على قلبك الخوف، واعلم أنها كانت إلى حمدهم راكنة، وإن لم تغتمّ فلا تقطع بأنها صادقة، لأنه قد تسخو بترك الغمّ ما لم تنزل بها مذمتهم.

وقد يكون العبد صادقاً في النفي[3] مع الحمد من العباد، فإذا بلي بالذم زال عنه إخلاصه، وما أقل ما يكون ذلك، فالخوف أولى به، أن يخاف، أن تكون كاذبة في إخلاصها إذا اغتمت بزوال الحمد.

باب في الرجل يدع بعض النوافل إشفاقا على الناس أن يعصوا الله عز وجل فيه

قلت: فما تقول: أيما أفضل أدع بعض النافلة إشفاقا على الناس أن يعصوا الله فيَّ، أو أفعلها؟

---

(١) أي: بفهم ما يريده الله تعالى من عباده؛ وما يجب على العبد نحوه تعالى أنظر تفاصيل العقل عن الله في باب من كتاب (العقل) للمؤلف.

(٢) وضع المحاسبي ميزانا لمعرفة الإخلاص في كتابه آداب النفوس فقال: انقض العمل من أساسه؛ وأبده من الأصل. فان وجدت نفسك قد طابت بنقضه ولم تتحرك إلى ما نقضته كل ذلك علامة الإخلاص ومثل ذلك بوليمة صنعها لله فدعا إليها عيون البلد ففطن إلى أنها ليست لله. فنقض عزمه. فإن أسف على عدم دعوة عيون البلد لم يكن مخلصاً، والعكس بالعكس.

(٣) أي: في نفي ما ظن به بعض الناس من السوء.

قال: إن في ذلك أغلوطة منك: أن تظن بعبد أن يسيء بك الظن ويقع فيك فتدع العمل من أجل ذلك.

فقد جمعت خصلتين: أسأت به الظنّ، وتركت ما يقربك إلى الله عز وجل.

وقد تترك أيضاً بعض الواجب. لعلك أن تدع إتيان القرابة لخوف المرّ بهم ولعلك ترى منه المنكر فتمتنع أن تأمره لأنه عندك لا يقبل، ولم تعلم منه ذلك، فتضيع ذلك الأمر، وتسيء به الظن، إلا أن يكون فاسقا متهتكا، فذلك الظن به، وقد يقبل مع فِسْقه[1].

ويحاجك القارىء إذا أمرته، فتدع كثيراً من الواجب والنافلة، لئلا يعصي الله عز وجل فيك، زعمت.

فإن كنت صادقا في زعمك فقد غبنت وأسأت الظن.

وإن لم تكن صادقا فإنما جزعت النفس من الذم، فخيلت إليك أنها تريد الشفقة والنصح، وأنت لم تشفق عليهم في غير ذلك، لا تبالي في أن يعصوا الله في دنياك لا تدعها لهم، وإن ظننت أنهم يعصون الله عزَّ وجل، ولا تغضب إن غضبت عليهم ولا غير ذلك.

وهذه الصفة التي تدعي صفة الأنبياء الأبدال الرحماء بالخلق، فانظر هل تعرف نفسك بالخلق هكذا في أحوالك؟ فإن كنت تعرف بهذا فقد وضعت الشفقة على حال في غير موضعها، إذ صدك عن الطاعة سوء الظن، ولم تستيقن منه بأمر تشفق عليه منه، إلا أن يكون أمراً لا ينقصك من فرض ولا فضل، فتدعه إشفاقا أن يدخل عليهم الشيطان.

إلا أنهم كذلك في وقت ما تشفق عليهم، ولكن تقول لا أعرضهم لفتنة، ولم تدع لهم فضلا ولا فرضا فيكون العدو قد أصاب منك ما يريد.

---

(١) أي: قد يقبل الأمر والنهي مع الفسق.

كما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إنها صفية». وذلك أنها أتته وهو معتكف، فلما خرجت استقبلها رجلان من أصحابه، فقال: «إنها صفية» فقالا: يا رسول الله، وهل نظن بك إلا خيراً؟ قال: «إني خشيت الشيطان أن يدخل عليكما». ولم يقل قد دخل عليكما.

وأراد إبراهيم [النخعي] والأعمش أن يمرّا في طريق، فقال إبراهيم يقولون أعمش وأعور، فقال الأعمش: ما علينا أن نؤجر ويأثمون. فقال: إبراهيم وما علينا أن نسلم ويسلمون.

فما لم تنقص من خير فلا بأس بالإشفاق عليهم، على غير قطع عليهم بشرّه، وأكثر ما يكون ذلك جزعاً من الدم وسقوط المنزلة، فلا يخدعن بذلك العبد، العاقل اللبيب!!.

باب إظهار العمل ليقتدى به

قلت: فما تقول في إظهار العمل ليقتدى بي فيه: كفعل الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال النبي ﷺ:

«من سَنَّ سنَّة حسنة فعمل بها كان له أجرها، وأجر من اتبعه فيها»(١).

قلت: فهل تجري الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره؟

قال: أما الصدقة فإن الناس فيها متقاربون في القدوة، لأنها عطف ورحمة، وإعانة الملهوف.

فإذا أظهر العبد ذلك لغيره كان فيه حث(٢) لغيره وترغيب في الصدقة، إلا أنه لا ينبغي لعبد أن يتعرّض لإظهارها حتى يعلم أنه قد أراد الله عز وجل بذلك وأنه لم يجزع من أن يُسِرَّها، ولا أحب إظهارها، لقلة القنوع بعلم الله، ومحبَّة منه، أن

(١) الحديث: سبق تخريجه.

(٢) في ط: حض.

يعلم الناس بصدقته، ولكن جزعاً أن يفوته عظيم الأجر وأن يصيبه في غيره مع أجره على صدقته.

فلم يقنع بأجر الصدقة وحدها حتى أحبّ أن يحضّ بفعله عليها غيره ليؤجر فيه مع أجره على صدقته.

وفي الصدقة معنى آخر[1]، سترها خير من القدوة إذا كانت المتصدق عليه يؤذيه ذلك ويكرهه، فترك أذى المؤمن أفضل، وقد اختُلف في قول الله عز وجل: ﴿لا تُبْطِلوا صَدَقَاتِكُمْ بالْـمَنِّ وَالأذَى﴾[2].

فقال بعضهم: هو أنك تحدث بما تصدقت به عليه، فيبلغه فيؤذيه (ذلك)[3].

وقال أكثر العلماء: هو أن تؤذيه بفعلك، فإذا لم تجد من نفسك قوة عزم لله في إظهارها للقدوة لا لغير ذلك فسترها أفضل وإن سلمت في إظهارها من الرياء.

ألم تسمع إلى ما يروى عن النبي ﷺ؟ يرويه عنه سلمان وغيره أنه قال:

«سبعة في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله[4]» فذكر أحدهم فقال: «رجل تصدق بصدقة بيمينه فأخفاها عن شماله».

وقال في حديث آخر: «فلو قدر أن يخفيها من شماله فالصدقة أفضل سراً، إلا أن يظهرها للقدوة»[5].

وقد يروى حديث: «إن العمل سراً أفضل من سبعين ضعفاً علانية» وإن

---

(١) في ا : خاص.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) الرواية المشهورة «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». وأخرجه: البخاري في صحيحه، الباب   من كتاب الحدود. والنسائي في سننه، الباب الثاني من كتاب القضاء. وإبن ماجه في سننه الباب ١١ من كتاب الطهارة.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، الباب ١٣ من كتاب الزكاة، وإبن ماجه في سننه الباب ٧٨ من كتاب الإقامة.

العمل علانية للقدوة أفضل من السرّ سبعين ضعفاً.

قلت: قد أجد القلب يقوى على ما تقول، ويريده، ويحب زيادة الأجر والثواب من الله (تبارك وتعالى)[٣]، ولا تعرى النفس من خطرات العدو، ومن هواها أن تنازع، فما الذي يفرق بين صدق الضمير بذلك، وبين الخدعة فيه من النفس؟

قال: أن تعرض عليها أن لو أصَبْتِ الأجر فيهم من غير علمهم أكنتِ تقنعين بعلم الله عز وجلّ وحده، وتصيبين هذا الأجر؟

فإن رأيت القلب يقنع بذلك فهو صادق، فإن رأيته لا يقنع بذلك فإنما هي خدعة ومحبَّة من النفس أن تظهر عملها، لتظفر بحمدهم، وتخيل للمخدوع بذلك أنها تريد الله عز وجل صادقة لتستكثر من الأجر.

قلت: فالصوم والصلاة والحج والغزو؟

قال: أما ذلك فلا أحبه لأحد ولم أجد عامة الناس يفعلونه، إلا الرجل القوي، الصادق الإرادة، القوي على ردِّ الخطرات في العمل بعد ما يفرغ منه، وقد يتبعه العدو فيخطر له حال غفلته فيصرعه، فلا بأس بإظهاره للقدوة.

والذي أمر به الناس: أن يخفوا ذلك ما استطاعوا لأنه النفس خدوع، والشيطان مرصد بمكيدته.

وقد كان الرجل يرفع صوته ليحرك بعض جيرانه في جوف الليل، وذلك إذا قوي عزمه، وهان عليه حمد من يسمعه، وليس له رغبة في عملهم به أكثر من أن يصيب ثواب الله عز وجلّ في تحريكه إياهم على طاعة ربهم[١].

فأما الغزو فذلك عمل ظاهر: فالمسارعة فيه للقدوة به أفضل إذا قوي العزم ان يشد الرجل قبل القوم، ليحض على القتال، ويبعث من معه على الشدّ معهم، فذلك

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) كان سيدنا عمر يجهر بقراءة الليل فسئل فقال: أطرد الشيطان وأوقظ الوسنان.

أفضل، لأنه لم يخرج من سرّ إلى علانية، وإنما خرج من علانية إلى علانية لأن مقامة ذلك علانية، فكلما حض غيره لفعله كان أفضل، ولو خف له الشدّ والكر على العدو، وكان ممن وهب الله له القوة على نفي الخطرات، وهو من المعروفين عند من حضر ممن يقتدي به ويحركهم فعله، وكان أفضل أن يظهر ذلك ولا يخفيه، ليحض على قتال العدو، وينصر الله بذلك على الأعداء ويعز به الدين[١].

باب العبد يحدث إخوانه

ببعض ما يقوى عليه من العمل ليحضهم على ذلك

قلت: فالرجل يُحدِّثُ إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل ليحضهم بذلك؟

قال: قد تقدم في ذلك رجال صالحون منهم سعد بن معاذ قال: ما صليت صلاة منذ أسلمت فحدثت نفسي بغيرها، ولا تبعت جنازة فحدثت نفسي إلا بما هي قائلة، وما هو مقول لها[٢]، ولا سمعت رسول الله ﷺ يقول قولا إلا علمت أنه حق.

وقال عمر: ما أبالي أصبحت على عسر أن على يسر، لأني لا أدري أن ذلك خير لي، وقال ابن مسعود: ما أصبحت على حال فتمنيت أن أكون على غيرها، وقال: يا حبذا المكروهان: الموت، والفقر - وإنما هو الفنى[٣] والفقر وما أبالي بأيهما ابتليت.

وقال عثمان: ما تغنيت ولا تمنيت ولا مسست ذكرى بيميني منذ بايعت بها رسول الله ﷺ.

---

(١) انظر بتفصيل أدق هذا الموضوع في باب الاسرار بالعمل من كتاب (المسائل في أعمال القلوب والجوارح) للمحاسبي، وانظر دسائس النفس في الغزو في باب (الإرادة) من (آداب النفوس) له أيضاً.

(٢) في ص: إلا بما هي قادمة عليه.

(٣) في ط: الفناء.

وقال شداد بن أوس: ما تكلمت بكلمة منذ أسلمت حتى أزمَّها وأحطمها[1] غير هذه الكلمة فكان قال لغلامه: إيتنا بالسفرة نعبث بها حتى يدرك الغداء.

وقال أبو سفيان بن الحرث لأهله لما حضرته الوفاة: لا تبكوا علي فما أحدثت حدثاً منذ أسلمت.

قالت عائشة: قال أسيد بن حضير وكان من أفاضل الناس: ثلاثة أكون عليهن لو كنت في سائر الأشياء: كذلك لكنت: ما تبعت جنازة قط فحدثت نفسي بغير ما هي صائرة إليه، وإذ قرأت القرآن، وإذا سمعت النبي ﷺ.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما قضى الله لي بقضاء فسرني أن يكون قضا لي غيره ولا أصبح لي هوى إلا في مواقع قدر الله عزَّ وجلَّ.

فقد فعل هؤلاء الأئمة ولا يظن أحد[2] بهم إلا الخير، والحضّ لغيرهم على الطاعة، وليس ذلك إلا لمن قوي وكان يعلم أن الذي يظهر ذلك له يضعه موضع القدرة، وإلا كان قد وضع القدوة في غير موضعها. وإن قوي عزمه ولم يرد به الرياء.

شنيعاً[3] لأنَّا قد رأينا وجربنا من العباد أن الإمام كالخليفة والعالم إذا أظهر الصوف، لباسا من التقشف، أو تكلم في العامة أو حضهم على خير يعملون به اتعظوا بذلك وخضعوا، لأنه إمامهم، وهو موضع قدوتهم.

ورأينا غيره ممن لا يعرفه العامَّة أو يعرفه بعضهم بالعلم والفضل، ولا يضعونه موضع قدوة، قد يفعل ذلك فيستهزأ به.

فم لم يكن للعامَّة إماما فذلك غلط أن يفعله في العامَّة كان لهم إماما فجائز له إذا كان قويا، كما روي عن ميمون بن مهرا أرُئي في السوق محلول الإزار ينادي:

---

(١) أي: حتى أقلبها على وجوهها لأعلم مواطن الخطأ والصواب فيها.

(٢) سقطت من ط.

(٣) في ط: شنعا.

لا إله إلا الله.

ألا ترى إلى قولهم: «اجعلنا للمتقين إماما»، قال: يقتدوا بنا، فأثنى بذلك عليهم لرغبتهم في أن يطاع الله بهم. وقول إبراهيم ﷺ: «اجعلْ لي لسانَ صدقٍ في الآخرين».

وقال عزَّ وجلّ: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾. معناه: تركنا عليه الثناء الحسن. فكل الأمم ممن يؤمن بكتاب أو نبي يقول: إبراهيم منّا.

وقد يفعل ذلك الرجل من العوام فَيُسْتَهْزَأ به: ويقال فيه القبيح، ويرمى بالرياء والطلب للدنيا والجنون والحمق، لأنه ليس بإمامهم ولا يضعونه في ذلك الموضع، وإنما يريد العبد القوي أن يحضّهم على طاعة ربِّهم تعالى وينبِّهَهُم لها.

فإذا كان، وإن قوي عزمه إنما يحضهم على المعصية فيه فكيف تصح له الإرادة فيه ولا يرى فيهم موضع أمل أن يزدادوا بما يحدثهم عن عمله أو يظهر لهم من طاعة.

فعلى العبد المريد أن يعرف ذلك ويضعه حيث وضعه الله تعالى.

وقد يحدث الرجل القوم عن نفسه فيضعونه[1] على الرياء منه، لأنهم لا يقتدون به، فمن الناس من يقتدي به أهله ولو أمر جيرانه أو يظهر لهم خيرا ما اقتدوا به.

ومن الناس من يقتدي به جيرانه ولو تجاوزهم إلى أهل سوقه ما اقتدوا به أو رموه بالرياء لو حدثهم ببعض عمله أو أظهر لهم الذكر والزي من الصوف وغيره.

ومن الناس من يقتدي به أهل حيّه وسوقه، ولو أظهر للعوام ما لا يفعله العوام ظاهراً ثم سمَّى لها لما اقتدت به ولا ردعها ولأهاج بعض من لا يعرفه منها على سوء الظنِّ والاستهزاء به حتى يعرف بعضها بعضاً بالثناء عليه وذكر علمه وعمله.

ومن الناس من إذا أظهر من ذلك شيئا فحين سمى للعامَّة بل لا يكاد يخفي

---

(١) في أ: فيصفونه.

عليها حين مرّ بها أن يقال: هو فلان كالخليفة إذا مرّ، أو كالمحدّث المشهور، أو كالمفتي المعروف عند العوام، فذلك إمام للعامَّة من يسمع باسمه ـ وإن لم يكن رآه من قبل ـ خضع واقتدى بما يكون منه من خير، حتى لقد رأينا من العوام من يقتدي بزلة العالم المشهور بالعلم، والفاضل المشهور بالنسك، فإذا كانت الزلة منه يسارعون إلى القدوة بها ولا يسارعون إلى القدوة بكثير من الخير من غيره، فكيف بما يظهر من الخير؟

فعلى العاقل المريد أن يعرف في أي موضع من الناس وضعه الله تعالى فيه فيمكنه الحسبة فيما يظهر من القدوة إذا قوي، ولا يجاوز قدره وإن حسنت نيتَّه وقوي عزمه وهان عليه حمد المخلوقين(١).

وكذلك روي عن الحسن أنه قال: الرجل إمام أهله، والرجل إمام حيِّه، والرجل إمام العامَّة. فالذي أُمر به في السنَّة إخفاء العمل لطلب السلامة ولفضل السرّ، لأن السرّ أحرز للعاملين(٢). وأبعد بهم من كثرة الخطرات وقبولها.

وقد روي عن الحسن رحمه الله أنه قال: لقد علم المسلمون أن عمل السرّ أحرز للعاملين، فلا ينبغي للمريد العارف أن يخدع نفسه وما جرب منها بأن يتعرَّض للبلاء، وليلزم العافية، وإنما مثله مثل سابح رحم الغرقى ليخرجهم، فتشبثوا به فغرقوه، وليته يغرق كغرق الماء، ولكن يكون منه ما يتعرض به للمقت من الله عزَّ وجلّ.

ومن قوي عزمه، وهانت (عليه)(٣) خطرات(٤) العدو عليه في قبول الرياء، ولم يحمله على إظهار العمل إرادة غير الله عزَّ وجلّ، أو ظهر وهو لا يريد إظهاره فسرَّ بما ظهر للناس، فلم يهيجه على ذلك قلة القنوع بعلم الله تعالى وطلب علمهم ولكن

---

(١) في ط: وهان حمد الملخلوقين عليه.

(٢) في ح، ص: أحرز العملين. والمراد عمل السر وعمل الجهر.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) في ط: خطوات.

أهاجه قلة القنوع بطلب الأجر في عمله وحده، حتى أراد أن يتقرب بحضهم على طاعة الله تعالى، فيكون له أجر ذلك مع أجره على عمله، ولم يجاوز قدره فيمن يَقْتَدي إلى من لا يُقْتَدى به[1] فهو أعظم أجرا.

وقد اختلف الناس في ذلك: فقالت طائفة من أهل العلم: عمل السر أفضل من عمل العلانية للقدوة وغيرها، وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل العلانية لغير القدوة.

وقالت فرقة: عمل السرِّ أفضل من عمل العلانية لغير القدوة، وعمل العلانية للقدوة أفضل من عمل السر. ولولا أن عمل العلانية للقدوة أفضل لما حض النبي ﷺ على ذلك، وإنما حضهم ليفعلوا ما يستن بهم، وذلك لا يكون إلا علانية.

فحضهم على عمل العلانية لهذا المعنى وأخبرهِم ان لهم اجرهم وأجر من اتبعهم، فهذا دليل على أنه أخرجهم بالحض والترغيب من عمل السر إلى عمل العلانية؛ لكثرة الأجر لا إلى الرياء به، وأخبرهم أن لهم أجرهم وأجر غيرهم، وقد علموا من قبل أن عامل السر له أجره وحده. فذلك يبيّن أن عمل القدوة أفضل من عمل السر.

وقد روي في بعض الحديث: «أن عمل السرّ يضاعف على عمل العلانية سبعين ضعفاً، ويضاعف عمل العلانية إذا استن بعامله على عمل السرّ سبعين ضعفا. وإنه ليكون أفضل بأضعاف لا تحصى»[2]. يقول النبي ﷺ: «من استنّ سنّة حسنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة»[3] فقد يستنّ الرجل السنَّة فيعمل بها إلى يوم القيامة.

---

(١) في ط: فيمن يقتدي به إلى من لا يقتدى به. والمعنى عليه مضطرب.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

باب عمل السر
والضعف عن إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة

قلت: فإذا كان فضل عمل السر كما ذكرت على عمل العلانية ولسنا من رجال القدوة فلا نظهر عملا، ولا نعمل إلا سرًّا.

قال: ذلك غلط وخدعة[1] من العدو؛ لأن الله عز وجل مدح السرّ والعلانية، فقال عزّ من قائل:

﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[2].

وقال عز وجل: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾[3].

فالسرُّ أفضل من العلانية، والعلانية أفضل من البطالة وترك العمل، فالسر أفضل ما أمكن السر، فإذا لم يمكن السر فالعمل علانية مع الإخلاص لله وحده أفضل من الترك.

قلت: فقد كره المعرفة والشهرة بالخير قوم أئمة أقوياء، منهم: إبراهيم [النخعي]، استأذن عليه رجل وهو يقرأ فأطبق المصحف، فقال: لا يرى هذا أني أقرأ كل ساعة.

ومنهم إبراهيم التيمي، قال: إذا أعجبك الكلام فاسكت، فإذا أعجبك السكوت فتكلم.

وقال الحسن: إن كان أحدهم ليمرّ بالأذى ما يمنعه من رفعه إلا كراهية الشهرة، وفي ذلك آثار كثيرة.

---

(١) في ط: وخدع.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٧٤.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٧١.

وكان أحدهم يأتيه البكاء فيصرفه إلى الضحك مخافة الشهرة.

وكان أحدهم يبيِّت عنده الزوار فيدع قيام الليل مخافة الشهرة[١].

قال: إنهم رحمهم الله أئمة، ولنا في جميعهم قدوة، وبعضهم في بعض الحال أقوى من بعض، فيقوى هذا في حال يضعف فيها آخر، ويضعف هذا القوي في حال أخرى يقوى فيها الذي ضعف، فإذا سألت عن الفضل أخبرت بالفضل، والفضل فيمن قوي ونفي[٢]، ولم يترك ما فتح الله عز وجل له من (أبواب)[٣] العمل، كما جاء الحديث: «إذا فتح لك باب من الخير فانتهزه»[٤].

ولكل ما ذكرت من الأحاديث مضادّ ممن قوي، وإن كان الذين ضعفوا عما قوي عليه غيرهم إنما أرادوا الإخلاص والسلامة، لا الفترة[٥] عن العمل، فأرجو أن لا يخيبهم الله عز وجل من ثواب ذلك، وإن كان الآخرون أقوى منهم.

فأما ما فعل إبراهيم رحمه الله في المصحف فإنه يروى عن ابن عباس أنه دخل عليه رجل وهو يقرأ فقال: هذا جزئي فاتني البارحة.

وقال عثمان رضي الله عنه: إني لأستحي من ربي عز وجل أن يأتي علي يوم ولا أنظر فيه الى عهد ربي إلي * وأخبر أنه يقرأ في المصحف كل يوم.

وقال عمر رضي الله عنه: ودخل عليه عبد الرحمن وهو يصلي عند الزوال، فقال: هذا جزئي من الليل فأتني.

وكان عكرمة بن أبي جهل يقرأ في المصحف، ثم يأخذه فيضعه على وجهه وهو يبكي، ويقول: كلام ربي، كلام ربي. والذي رواه عنه قد ظهر له ذلك منه.

---

(١) انظر تفاصيل أوسع في باب الشهرة من «المسائل» للمحاسبي.

(٢) أي: نفي خواطر الرياء.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) في ط: لا فترة.

وأما قول إبراهيم التيمي فيحتمل معنيين:

أحدهما صحيح، والآخر ضعيف، وخلاف ما أمر به العباد، وإن كان يداري به بعض العمال نفسه محبّة للإخلاص، وغيره أقوى منه.

فأما المعنى الصحيح: فإن كان ذهب إلى أن أعجبه الكلام من قبل شهوة النفس للفضول واللغو والحرام، كما يقول القائل: إنه ليعجبني من الطعام كذا وكذا، فصحيح معناه، وبذلك أمر العباد، وكذلك إذا أعجبك السكوت، أي: أعجب النفس أن تسكت عن الذكر كسلا، أو عن القول في الحق بين الخلق لشهوة استبقاء مودتهم، فتكلم حينئذ وخالف إعجاب نفسك في السكوت.

فكأنه قال: لا تتكلم بكل شيء، ولا تسكت عن كل شي، ولكن انظر ما تهوى نفسك فخالفها، لأن هواها لا يدعو إلا إلى أمر الدنيا، فخالف دعاء هواك، واتبع أمر الله عز وجل في الكلام والسكوت.

وإن كان أراد: إذا أعجبك، من قبل العجب به، أو من قبل الرياء يعجبك أن يحمدوك على سكوتك، أو قولك فاسكت وتكلم.

فإن كان أراد من قبل العجب بالعمل الصالح والقول بالخير، فلم يؤمر العباد بالترك، ولكن أمروا أن يذكروا أن ذلك نعمة من الله عز وجل، وأن أنفسهم قد كان هواها خلاف ذلك، فيلزموا قلوبهم الاعتراف له بالمنّة في ذلك.

وإن كان من قبل الإعجاب بحمد الناس، فإن كان الإعجاب هو الذي بدأ أولا فأولى به السكوت عن ذلك[1]، ويترك ما أراد به الرياء سكوتاً كان أو كلاماً كما قال إبراهيم.

وإن كان العقد لله عز وجل أولا، وإنما خطر بعد الإخلاص الإعجاب بحمد الناس، فلم يؤمر الناس في ذلك بالترك، ولكن بالنفي لما خطر، وإتمام الأعمال لله عز وجل.

---

(١) في ط: بذلك.

وأما قول الحسن رحمه الله، فقد يكون ذلك منه حضًّا لبعض الضعفاء، ومن ظنَّ أنه[1] يريد الشهرة، أو حكي عن قوم ضعفوا في بعض الأحوال عن إرادة الإخلاص والخير.

وقوله هذا وحكايته هذا للناس ليعظهم (بها)[2] أشهر من رفع الأذى ومن البكاء، وقد نصب نفسه للفتيا والعظة، وذلك أشهر من كل ما ذكر.

ولكن حضَّ على الزهد في طلب الشهرة، واختار هو لزوم العظة والذكر والفتيا، لما وجد من القوة، وذلك أشهر وأرفع من جميع ما ذكر عمن ذكر من رفع الأذى والبكاء.

وقد شهد النبي ﷺ وأصحابه الجنائز، وتَطوع العلماء في الجمع وَالمساجد، وَاجتمعوا للذكر وَالعلم، وَنصبت العلماء أنفسها، وذَلك يدل على أن أعمال العلانية أفضل من الترك لها.

وأما إبراهيم النخعي فقد قوي في غير ذلك فما هو أشهر وأرفع. نصب نفسه للفتيا حتى شهرته العامة.

وقول عثمان في إخباره عن نفسه من قراءته[3] في كل يوم أقوى في الفضل من إطباق إبراهيم المصحف.

وقعد ابن عباس رضي الله عنه يبكي وهو يقرأ في المصحف[4] حين ذكر أصحاب السبت، حتى سأله عكرمة عن بكائه، فأخبره ذلك.

فالسرّ أفضل، وعمل العلانية أولى مع الإخلاص والمجاهدة لما يعرض، إذا لم يمكن عمل السر، وإلا أصاب العدو حاجته وأطيع في تضييع الطاعة.

---

(١) أي الحسن.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ط: من قراءة.

(٤) في ط: في مصحف.

باب هل يجوز ترك العمل من أجل الرياء؟

قلت: فهل أترك العمل من أجل الرياء ويكون ذلك أولى بي؟

قال: نعم إن خطراتِ الرياء ثلاث خطرات في ثلاث أحوال:

خطرة قبل العمل، ولا يعتقد معها القلب العمل لله عز وجل! فتلك الخطرة لا تطاع ولا يعمل العمل على ذلك، إلا أن يسخو قلبه به لله عز وجل، وينفي ما سوي ذلك.

وخطرة قبل العمل مع العقد لله عز وجل، فذلك العمل يدخل فيه وينفي الخطرة.

وخطرة بعد الدخول في العمل بالإخلاص لله عز وجلّ، فذلك ينفي عن القلب، ويمضي العبد في العمل على ما نوى أولا.

قلت: فهل من العمل ما ندب العبد إلى تركه وإن أراد الله عز وجل بذلك؟

قال: نعم، إن الأعمال على قسمين:

أعمال عامة، كالصوم، والصلاة، والغزو، والجهاد، والذكر، والأمر (بالمعروف)[1] والنهي (عن المنكر)[2]، وما أشبه ذلك.

وأعمال خاصة للخواص، كالقضاء، والخلافة، والإمرة، والانتصاب للخلق بالدعاء إلى الله عز وجل، والفتوى.

ومن ذلك ضرب عمر رضي الله عنه أُبيًّا حين رأى قوماً يتبعونه، وهو في غير ذلك يقول: إنه سيّد المسلمين⋆ وقال أيضاً: هذا أُبي سيّد القراء[3]⋆ وقد كان

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو الذي أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقرأ عليه القرآن.

عمر رضي الله عنه، يقوم يعظ ويخطب، وكطلب الدنيا بعد القوام لينفق في أمر الآخرة.

فيؤمر العوام بترك ذلك كله، إذ كان لا يقوم به إلا الخواص الأقوياء الذين لا تميلهم الدنيا، ولا يستنفرهم الطمع، والله عز وجل في صدورهم أهيب من خلقه، والزهد فيها قد لزم قلوبهم بحقيقة البصر [1] بالعلم، ومكابدة عدوهم بقوة ما عوَّدهم الله عز وجل من الرد عليه.

فمن أخطأ طريق أولئك دخل عليه من الضرر في تلك الأعمال أكثر من المنفعة، وكذلك رأيناهم يأمرُون بترك الخلافة، وترك التعرّض لها، وكذلك الإمارة.

ومن ذلك حديث عبد الرحمن بن سَمُرة أن النبي ﷺ قال له: « يا عبد الرحمن، لا تسأل الإمارة فإنك إن سألتها لم تُعَنْ عليها، وإن أُوتيتَها عن غير مسألة أُعنت عليها » [2].

وقال ﷺ: « لا نُوَلّي أمرنا هذا من سَألَنَاه ».
وقد تعرَّض للصلاة والصيام والغزو وغيره قويهم وضعيفهم.

وقد سأل قوم النبي ﷺ أن يُغزِيهم، وبكوا لما لم يجدوا ما ينفقون، فأثنى الله عز وجل عليهم بذلك [3] فلم يجعل النبي الإمارة كذلك، وقال: « إنكم تحرصون على الإمارة، وإنها حسرة يوم القيامة وندامة، إلا من أخذها بحقّها » [4].

---

(١) في ط: البصائر.

(٢) أخرجه: مسلم والبخاري وهو متفق عليه.

(٣) وهو قوله تعالى: ﴿ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت: لا أجد ما احملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون﴾.

(٤) اخرجه: البخاري في صحيحه، الباب السابع من كتاب الأحكام، والنسائي في سننه، الباب ٣٩ من كتاب البيعة، والباب الخامس من كتاب القضاة، والإمام احمد في مسنده ٢/٤٤٨، ٤٧٦.

وقال: «نعمت المرضعة وبئست الفاطمة»[١] » ولم يذمهم أن يحرصوا على الصلاة والغزو والصيام.

وقال أبو بكر رضي الله عنه لرافع بن عُميرة: «لا تأمَّرَنَّ على اثنين»، ثم ولي الخلافة فقام بها، وقد قال له رافع: ألم تقل لي: لا تأمرنّ على اثنين، وأنت قد وليت أمر أمة محمد ﷺ؟ قال: «بلى، وأنا أقول ذلك لك، فمن لم يعدل فيها فعليه بَهْلة الله» يعني: لعنة الله عز وجل.

وقال أيضا: لما قبض النبي ﷺ ولم يذرني أصحابي فقال رافع بن عُميرة: فما زال يعتذر إليّ حتى عذرته.

وقال عمر رضي الله عنه: «من يأخذها منّي بما فيها؟ وودت ذلك»، لأن القول من النبي ﷺ قد تقدم فيها: «ما من والٍ يلي عشرة إلاّ جاء يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه، أطلقه العدل أو أوبَقه الجور»[٢] رواه عنه معقل بن يسار. وولي عمر رجلاً فقال له: يا أمير المؤمنين، أشر علي، فقال: «اجلس واكتم علي»[٣].

وروى الحسن ان رجلا ولاّه النبي ﷺ، فقال للنبي ﷺ: خِرْ[٤] فقال: «اجلس». وروي هذا الحديث عن غير الحسن متصل الإسناد أن النبي ﷺ قال للرجل الذي قال له: خر لي قال: اجلس[٥].

---

(١) اخرجه: النسائي في سننه، الباب ٣٩ من كتاب البيعة، والإمام أحمد في مسنده ٢/٤٤٨، ٤٧٦.

(٢) اخرجه: الدارمي في مسنده، الباب ٧٢ من كتاب السير. والإمام احمد بن حنبل في مسنده ٢/٤٣١، ٥٥، ٥/٢٦٧، ٣٢٨، وأوبقه الجور: أهلكه الظلم.

(٣) اي: لا تتولى أمراً، واكتم على رأيي هذا.

(٤) أي: اختر لي أحد الأمرين: الولاية او الترك.

(٥) الحديث اخرجه: ابو داود في سننه، الباب الثالث من كتاب الجهاد والترمذي في سننه، الباب ٨٥ من كتاب الدعوات، وابن ماجه في سننه، الباب ٦٥ من كتاب الجنائز، واحمد بن حنبل في مسنده ١/٨، ٢٦٠، ٢٩٣، ٣٣٣، ٤/١١٠، ٥/٥، ٦/١٦.

وإياها عني عمر بن عبد العزيز حين قام إلى المنبر يجرّ رداءه، وتسيل دموعه من البكاء.

وكذلك القضاء: لم يزل الناس يتّقونه، ويفرّون منه، لما تقدّم من قول النبي ﷺ[١] «القضاة ثلاثة: اثنان في النار، وواحد في الجنة»[٢]، يرويه عنه بُريدة.

وقوله عليه السلام: «فمن استُقْضِي فقد ذُبح بغير سكين»[٣].

وكذلك الدنيا: أمروا بأخذ القوام[٤] منها، ونهوا عن طلب الفضل، لا أنه محرم، ولكنه لا يسلم في طلب الدنيا إلاّ الأبطال الزاهدون، العالمون بالله عز وجل وأيامه.

وقد روي عن الحسن: أنه سُئل عن رجل طلب القوت ثم أمسك، وآخر طلب فوق قوته ثم تصدّق به، فقال: القاعد أفضل. لما يعرفون[٥] من قلّة سلامته في طلب الدنيا، وأن من الزهد تركها إلاَّ للقربة لله عز وجل، فخشوا ان يزدادوا بُعداً من الله عز وجل إذا طلبوها لفتنتها وشغل القلب بها.

---

(١) في ط: من النبي ﷺ من قوله....

(٢) اخرج رواية بريدة الحاكم في المستدرك بلفظ: «قاضيان في النار وقاضي في الجنة، قاضي عرف الحق فقضى به فهو في الجنة، وقاضٍ عرف الحق فجار متعمداً أو قضى بغير علم فهما في النار».
وصححه السيوطي.

واخرجه القضاعي في الشهاب عن ابن عمر بلفظ: «... قاض قضى بغير ما انزل الله فهو في النار، وقاض قضى بالهوى فهو في في النار، وقاض قضى بما أنزل الله فهو في الجنة».

واخرجه الطبراني في الكبير، وابي يعلى في مسنده عن ابن عباس، وابو داود وابن ماجه. انظر: (سنن ابو داود، الباب الثاني من كتاب الاقضية، وسنن ابن ماجه، الباب الثالث من كتاب الأحكام، وكشف الخفاء ٢/٩٧، وفيض القدير ٣/٤٦٨، اللباب في شرح الشهاب ٦٠).

(٣) تصوير بنوي كريم لما يلحق القاضي من التبعات، فكأنها من شدتها ذبح بطيء، والحديث أخرجه الترمذي في سننه، الباب الأول من كتاب الأحكام، وأبو داود في سننه الباب الاول من كتاب الأقضية. وابن ماجه في سننه، الباب الأول من كتاب الأحكام، وابن حنبل في المسند ٢/٢٣٠، ٣٦٥.

(٤) اي: الكفاية والكفاف.

(٥) في ط: مما يعرفون.

وقال أبو الدرداء: ما يسرني اني قمت على درج مسجد دمشق أصيب كل يوم خمسين ديناراً أتصدق بها، أما إني لا أُحرِّمُ البيع والشراء، ولكن أريد أن أكون من الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكرِ اللهِ عز وجل.

وفي حديث آخر: لئلا تشغلني عن الذكر، وكلا المعنيين واحد.

وقال: كنت تاجراً قبل ان يبعث النبي ﷺ، فلما أسلمت أردت العبادة والتجارة، فلم يجتمعا لي، فتركت التجارة، فأخبر: انه لا يمكنه التجارة إلا أن يلهو عن ذكر الله عز وجل، ويشتغل عنه، ولم يقل: لا يعجبني ان اتّجر فأصيب كل يوم خمسين ديناراً وأتصدق بها، ولا يلهيني ذلك عن ذكر الله عز وجل ولا يشغلني.

وقد أجمع المسلمون على ان من ولي الخلافة او الإمارة او القضاء، او قام بالدعاء إلى الله عز وجل والفتيا فسلم، أن ذلك افضل من جميع الناس.

من ذلك قوله: «لَيَومٌ من إمام عادل خيرٌ من عبادة الرجل وحدَه ستين عاماً»[١].

وقال النبي ﷺ: «أيما داعٍ دعا إلى هُدى فاتُّبع عليه كان له أجره وأجر من تَبعه»[٢].

وقال النبي ﷺ: أول من يدخل الجنة ثلاثة: الإمام المقسِطُ أحَدُهُم»[٣].

وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة لا ترد دعوتهم: الإمام العادل

---

(١) اخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٥٣ من كتاب الزهد. والنسائي في سننه، الباب الثاني من كتاب القضاة.

(٢) اخرجه: الترمذي في سننه، سورة ٣٧ من كتاب التفسير. ومالك في الموطأ، الحديث ٣٦ من كتاب القرآن.

(٣) اخرجه: مسلم من حديث عياض بن حماد بلفظ: «أهل الجنة ثلاث.. سلطان مقسط». ولم اجده بهذا اللفظ فيما اتيح لنا من مصادر.

أحدهم »[1].

وقال: « أقرب الناس مني مجلساً يوم القيامة: إمام عادل »[2] رواه عنه أبو سعيد الخدري.

وقال لمعاذ: « لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من الدنيا وما فيها »[3].

والقاضي كذلك إن عدل وأصاب الحق، كما رواه ابو بريدة عن النبي ﷺ انه قال: « في الجنة » يعني الذي قضى واصاب الحق.

وقد اختلف في الطلب للدنيا، بعد القوت: إن طلب وسلم وتصدق به.

فقالت فرقة: التارك أفضل وأزهد.

وقالت فرقة: إذا سلم وتصدق به فهو أفضل ممن ترك، لأنه قد اكتسب من العمل ما لم يكتسب غيره، وإنما يسأل عن ذلك كما يسأل عن الصلاة والصيام، ليثاب عليه، وتأمره بالترك خوفاً ان لا يسلم.

---

(١) اخرجه: ابن ماجه في سننه، الباب ١١، ٣٧ من كتاب الدعاء، والباب ٤٨ من كتاب الصيام. والترمذي في سننه، الباب الثاني من كتاب الجنة، والباب ١٢٨ من كتاب الدعوات. واحمد بن حنبل ١٥٤/٤، واورده الألباني في الأحاديث الضعيفة ١٣٥٩، والفتح الكبير ٦٨/٣.

(٢) اخرجه: الإمام احمد في مسنده ٢٢/٣، ٥٥.

(٣) اخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٧٣ من كتاب الجهاد، والباب ٨ من كتاب بدء الخلق. وأبو داود في سننه، الباب ٩٧ من كتاب الأدب وابن ماجه في سننه، الباب ٣٩ من كتاب الزهد، والباب ٦٤ من كتاب الجنائز، والدارمي في مسنده، الباب ١٤ من كتاب فضائل القرآن. وابن المبارك في الزهد ٤٨٤. والإمام احمد بن حنبل في المسند ٢٣٥/٥، ٢٤١، ٢٤٤، ١٤٩/٦، ٢٦٥.

باب ما يجوز للعبد من حبه[1] لمحبة الناس له

قلت: هل يجوز ان أحب ان يحبني الناس؟

قال: أما على طاعة بعينها ليحمدوك عليها فـلا تحبب بالطاعة إلا الى الله تعالى ولا ترد حمد غيره (عليها)[2].

وأما أن تحب ان يحبوك لغير طاعة محمودة عندهم، ولكن لتخف على قلوبهم ويحبوك للستر، على غير طاعة يحمدونك عليها فلا بأس، لأنهم لا يحبونك على الطاعة إلا حتى يعرفوا فضلك، ويحمدوك بقلوبهم ثم يحبوك ويعظموك ويروك[3] فلا يجوز لك طلب ذلك منهم بطاعة الله عز وجل.

قلت: فقول النبي ﷺ حين قال له رجل: دلني على ما يحبني الله عليه، ويحبني الناس، قال: «إزهد في الدنيا يحبك الله، ودع - او انبذ - إليهم هذا الحُطام يحبوك» وقد قال النبي ﷺ: «إذا زهدت في الدنيا أحبك الله عزّ وجل، وأحبّك الناس»[4].

قال: صدق ﷺ، لأنه إذا ترك ما أبغض الله عز وجل وهي الدنيا، وآثر الله عز وجل بها وهي شهوته أحبه.. فمن ترك شهوته لربه عز وجل احبه الله عز وجل، فلا يمتنع الخلق أن يـحبوا من آثرهم على نفسه، فكيف بأكرم الأكرمين.

ومن زهد في الدنيا لم يكن على احد منهم اذى ولا مؤنة، والناس يحبُّون من كان كذلك، وقد يقذف الله عز وجل بالمحبة في قلوبهم لمن تحبَّب إليه.

ولم يقل له: دلني على أمر أريد به حمد المخلوق وحمد الله عز وجل، ولم يقل النبي ﷺ: أزهد في الدنيا وأرِدْ بزهدك الله وخلقه. ولكن امره بالزهد لله عز

---

(١) في ط: من محبته.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٣) في أثبتت الفون في الفقرة وهي عطف على المنصوب يخدمها.

(٤) اخرجه: ابن ماجه في سننه، الباب الأول من كتاب الزهد.

وجل، وحده، وأخبره ان الله عز وجل، يحبه ويحبِّبه إليهم لصدقه، لأنه أراده وحده جل ذكره، ودله على ما يعزل عن الناس أذاه ومؤنته، فلا يمتنعون من حبه.

قلت: أليس قد أظهر السائل والنبي ﷺ الترغيب في محبة الناس؟

قال: لا بأس بالرغبة في محبتهم من عند الله عز وجل، بعد الصدق منه لله، عز وجل وحده، ألا ترى إلى قوله: «ازهد في الدنيا» وحبّ محمدتهم من أكبر الرغبة في الدنيا، والزهد في حب محمدتهم من اكبر الزهد في الدنيا[1]؟.

فقد انتظم له أن يزهد في حمدهم وغيره من الدنيا، حتى يكون الله عز وجل هو الذي يورث قلوبهم المحبة له، ومع ذلك: إنه حديث منقطع لا يضاد بالآثار في النهي عن طلب محمدة الخلق بطاعة الله عز وجل.

باب ما يصح للعبد من غمه

عندما يظهر للخلق من ذنوبه

قلت: هل يصحّ إذا اطلع (الناس)[2] على بعض ذنوبي ان اغتم بذلك، ولست اجد الغـمَّ يكاد ان يعرى منه أحد؟

قال: إن الغم فعل الطبع، إذا ورد عليه ما يخالف طبعه فعرفت نفسه ذلك بعينه هاج الغم.

فالغم فعل الطبيعة، والطبيعة: الغريزة على ما وافق ولم يخالف من قول او عمل او غير ذلك، فإذا هاج الغم عن الطبع كان الإخلاص والصدق، أو الرياء والكذب عند ذلك[3].

---

(١) أي، إن قوله ﷺ: «ازهد في الدنيا» يشمل الزهد في مادياتها ومعنوياتها، ومنها حب حمد المخلوقين. فلو رغب إنسان في الحمد ما كان زاهدا في الدنيا.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) يعني: وقد يكون الدافع على الغم حينئذ إما الإخلاص والصدق، وإما الكذب والرياء.

حينئذ يدعو العدو والنفس إلى الجزع من زوال المنزلة عندهم، وسقوط الشهادة، وترك البر والتعظيم للطاعة.

فإن قبل ذلك وجزع لذلك فقد استعمل غمه لما ينقصه في دينه[١].

وإن كان غمه خوفاً ان يُهتك ستره في القيامة، لقول النبي ﷺ: «ما ستر الله عز وجل، على عبد في الدنيا إلا ستر عليه في الآخرة»[٢] أو اغتمّ مما يعارضه طبعه مما امتحن به[٣] خوفاً أن يشغل ذلك عقله عن الله عز وجل، فقد أخلص وصدق.

وإن لم يستعمل واحدا من الأمرين، وترك الغم الذي هو فعل الطبيعة ولم يستعمله لم يضره[٤].

ومن شغله الغم بعلم الله عز وجل بذلك الذنب عن الغم بعلمهم[٥] فذلك أولى وأفضل.

ومن شغله الغم بعلمهم عن الغم بعلم الله، عز وجل، فذلك الخاسر.

باب في ستر المعاصي عن العباد
وإن اطلع الله عليها

قلت: فما معناه في تستّره (من)[٦] أن يظهر معصيته للعباد، وهي لله عز وجل بادية؟

---

(١) يغلب ان تكون هذه الحالة فيمن يقتدى به من أئمة الدين، وإلا فالعاصي الذي يغتم لسقوط منزلته عند الخالق إذا عرفوا ذنبه مغرق في الرياء.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) في هذه الحالة ليس الغم لشيوع ذنبه عند الناس، بل لما يستتبعه من شغله بكلام الناس عن دوام المراقبة والذكر.

(٤) بل وقد ينفعه ذلك في تكوين ملكة إسقاط رؤية الحق.

(٥) في ط: بعلمه، والعبارة معها معقدة جداً، إذ يكون المعنى: عن الغم بعلمه يعلم الناس عنه الذنوب.

(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

قال: لقد كان أولى بالعبد ألا يخفى شيئاً سوى ما يظهره للعباد من الخير، وأن تكون سريرته مثل علانيته، بل أفضل، كما قال عمر رضي الله عنه لرجل: عليك بعمل العلانية.

قال: يا أمير المؤمنين وما عمل العلانية؟

قال: ما إذا اطلع عليك (احد فيه)[1] لم تستح منه.

وقال أبو مسلم الخولاني: ما عملت عملا أبالي ان يطلع الناس عليه إلا إتياني أهلي والبول والغائط.

ولكن الصادق إذا بُلي بالذنب تستر لذلك حياء لغير طلب الرياء، ولما جاء عن الله عز وجل: أنه «لا يحب إظهار المعاصي» وعلى ما أجمع عليه المسلمون أنه من اظهر سوءاً فهو المتهتك، وهو أعظم عند الله عز وجل ممن استتر بستر الله تعالى.

والمرائي إنما يستر ذلك ليحمَد على الورع وليس بورع، وأن يوهم انه لله عز وجل خائف، تصنّعاً منه للعباد ورياء، ولا ورعاً لله عز وجل ولا حياءً من العباد.

باب ما يستحب فيه الحياء وما يكره فيه

قلت: قد اكثر الناس في الحياء، فكل مداهن ومراء يدعي الحياء، والصادق يدعي الحياء، فهل من الحياء ضعف ومنه خير؟

قال: الحياء كله خير، كما جاء عن النبي ﷺ، وقول من قال: منه ضعف، إنما يروى في بعض الكتب، لا يدري ما ذلك[2].

---

(١) ما بين الحاصرتين: ساقطة من ط.

(٢) نموذج من دقة المحاسبي، ومنهجيته في البحث، وتحرره من قيود الروايات ما لم يقارنها بغيرها ليصل إلى الصواب.

والحديث اخرجه مسلم في صحيحه، عن عمران بن حصين، الحديث ٦١ من كتاب الإيمان. وأبو داود والنسائي ايضا في سننها. والإمام احمد في المسند ٤/٤٢٦، ٤٢٧، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٤٦. والقضاعي في الشهاب عن أنس. انظر: (فيض القدير ٣/٤٢٧، وكشف الخفاء ١/٣٦٩، اللباب في شرح الشهاب ١٣).

وقد غضب من ذلك عمران بن حصين حين قال رشيد بن كعب: إنه يقال في الحكمة: إن منه ضعفاً! فقال: والله لا أحدثكم حديثاً اليوم، أحدثكم عن رسول الله ﷺ، وتحدثوني[1] عن الصحف؟ فما كان عن النبي ﷺ فهو أولى، وقد قال: «الحياء شعبة من الإيمان»[2].

وقال عليه السلام: «إن الله يحب الحيي الحليم»[3].

فالحياء: فعل من الطبيعة الكريمة، يختص به من يشاء من خلقه، ينفع العاصي والمطيع.

اما المطيع فقد زايل كل خلق دنيء، واما الفاسق فلم يجمع مع فسقه فسوقاً وتهتكا.

وقد جاء الحديث: «إن العصاة إذا تركوا الحياء وتهتكوا فلم يغير عليهم»[4] عاقب الله عز وجل العامة والخاصة»[5].

قال أبو بكر: عن النبي ﷺ انه قال: «إذا ظهر السوء فلم يغيره الناس، اوشك ان يعمهم الله بعقاب»[6].

---

(١) في ط: وتحدثوني، ولا داعي لحذف نون الجمع.

(٢) اخرجه بلفظ: «الحياء من الإيمان» البخاري في صحيحه، الباب ١٦ من كتاب الإيمان، والباب ٧٧ من كتاب الأدب. ومسلم في صحيحه، الحديث ٥٧ : ٥٩ من كتاب الإيمان. وابو داود في سننه، الباب ١٤ من كتاب السنة. والترمذي في سننه الباب ٥٦ ، ٨٠ من كتاب البر، الباب ٧ من كتاب الإيمان. والنسائي في سننه، الباب ١٦ من كتاب الايمان. وابن ماجه في سننه، الباب ٩ من المقدمة، والباب ٧ من كتاب الزهد، ومالك في الموطأ، الحديث ١٠ من كتاب حسن الخلق، والقضاعي في الشهاب. والإمام احمد في المسند ٥٦/٣ ، ١٤٧ ، ٣٩٢ ، ٤١٤ ، ٤٤٢ ، ٥٠١ ، ٥٣٣ ، ٢٦٩/٥ . وصححه السيوطي، انظر: (اللباب في شرح الشهاب ٢٩ ، فيض القدير ٤٢٦/٣).

(٣) اخرجه بألفاظ متقاربة: ابو داود في سننه، الباب ٢٣ من كتاب الوتر، والنسائي في سننه، الباب السابع من كتاب الغسل، واحمد في المسند ٢٢٤/٤ . والقضاعي في الشهاب.

(٤) اي: فلم يحاول الناهون عن المنكر تغيير حالهم.

(٥) أخرجه الإمام احمد في مسنده ١٩٢/٤ .

(٦) اخرجه احمد في المسند ٤١٨/٦ .

وقالت ام سلمة: «أنهلك يا رسول الله وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا ظهر السوء فلم يغير»[1]. وآثار كثيرة.

فالحياء: غريزة كريمة، فعندها يجد العدو الدعاء إلى الرياء فإن أطاعه العبد اعتقد الرياء، واعتل بالحياء، وصدق.

قد أهاجه اولا الحياء، ثم خطر العدو بالرياء فقبله، فكان مرائياً إذا تنقل من الحياء إلى الرياء.

وقد يهيجه الحياء على ان يريد الله عز وجل، فيضم إلى الحياء الإخلاص لله عز وجل.

فإن فعله للحياء او تركه لغير ذكر الإخلاص ولا رياء - ولا يكاد يكون ذلك - فهو خير لقول النبي ﷺ: «الحياء خير كله، وشعبة من الإيمان»[2]. ما لم يكن شيء أولى به فيه الحياء من الله عز وجل.
فالحياء من كل خلق دنيء في دين أو دنيا.

ومثل ذلك: كمثل رجل أتى رجلين، فسأل احدهما قرضاً او صلة، فكان احدهما ليس في قلبه حياء، فردّه إذ لم تسخ نفسه بالإعطاء.

والآخر سئل مالا تسخو به نفسه فمنعه[3] الحياء من البخل من ان يرده، فأمسك عن إظهار الرد، وبادر ليفعل فوجد إبليس والنفس[4] موضع دعاء، فقال اعطه لئلا يقول[5]: ما أبخله إن لم تعطه.
أو أعطه ليثني عليك به ويعظمك به.

---

(١) اخرجه: احمد في مسنده ٤١٨/٦.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) في ط: فيمنعه.
(٤) في ط: فوجد إبليس موضع دعاء والنفس وعلى هامش أ: فوجد النفس موضع دعاء إبليس من نسخة أخرى.
(٥) في ط: لا يقول: وما في أ أوضح.

أو اعطه ليكافئك عليه وهذا أيسرها.

فاعتقد ذلك وأعطاه، ولا يشك أنه اعطى للحياء عند نفسه لبدوّ هيجان الحياء من طبعه.

ويسأل آخر مالا تسخو به نفسه فلم يقوَ ان يرده لما هاج في قلبه من الحياء، فخطر خاطر الرياء فنفاه وقال: لا، بل لله عز وجلَّ، أو لما رأى نفسه تمتنع من الرد من أجل الحياء ذكر في ذلك الوقت ثواب الله عز وجل فأراده، ولولا الحياء لردّ صاحبه، ولما أمسك حتى ينوي الإعطاء لله عز وجل.

ولو انه اخلص بالإعطاء شكراً لمن جعل غريزته تهيج بالحياء، او لمن وهب له الحياء، ولم يجعله كمن لا يستحي دون طلب الثواب، لكان الله عز وجل، يستحق ذلك (منه)[1] فكيف بطلبه الثواب.

وآخر سئل[2] أشياء، فهاج من الحياء مالا يملكه، فأعطاه العزم عليه ولم يقبل خطرة رياء، ولم يذكر ثواباً، وما أقلّ ذلك: ان يعطى عبد او يعملَ، او يترك إلا لرغبة او رهبة، فإن أعطاه على ذلك الحياء أو أمسك عما لا ينبغي أعطاه مع الحياء، فهو خير عن خلق كريم، ما لم يعتقد الرياء.

ومع جمع مع الحياء إرادة الله عز وجل، وثوابه، فذلك أفضل، لأن الحياء غريزة كريمة لا يعطاها[3] كل أحد، ولا ينزع الحياء إلا من قلب شقي.

ومن ذلك ما يروى عن النبي ﷺ ان رجلا من أهل اليمن أراد ان يشرب سويقا عند النبي ﷺ، فاستتر بثوبه من الناس، فقال رجل: ما هذا؟ فقال النبي ﷺ: «هذا الحياء يعطيه الله قوماً ويمنعه آخرين»[4].

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في ط وص يسأل أشياء.

(٣) في ط: لا يعطاه.

(٤) لم اجده فيما اتيح لنا من مصادر.

فإذا هاجت تلك الغريزة فعندها يعتقد الإخلاص او الرياء او يعمل عليها بغير عقد رياء ولا إخلاص.

وكل مراءٍ يمكنه ان يعتلّ بالحياء.

وقد يخيل إلى بعض المريدين أنه مستحي، وإنما هو مراء لا يستحيي من تضييع الفرض، ويستحيي من أشياء مباحة كاستعجال الشيء، لأنه خروج إلى الخفة، وكثرة الضحك، فيقصر رياء وجزعاً من الزوال عن الخشوع عندهم.

وقد يأتي الشيء استحياء منه من الخلق والحياء من الله عز وجل في ذلك اولى، فهو كخير افضل من غيره من الخير، كالرجل يرى من شيخ مسلم منكراً، فيريد ان ينهاه فيستحيي من شيبته، فالحياء من ذي الشيبة، وتوقير الكبير خير.

وخير من ذلك ألا يدع ان ينهاه[1]! ولو كان مستحيياً من شيبته! لأن من الدين والأخلاق الكريمة إكرام ذي الشيبة، وكذلك رواه ابو موسى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن من إجلال الله عز وجل إكرام ذي الشيبة المسلم»[2].

والحياء من الله عز وجل أولى الا يضيع الامر من أن يقوم فيه لله عز وجل، وإن استحيي منه فليؤثر الحياء من الله عز وجل على الحياء من الخلق.

فافهم ما وصفت لك من الحياء، فإن كثيراً من الناس يغلطون في ذلك ويكذبون على الحياء، ويرون ذلك انه حياء.

وكل ما يستحيي[3] منه العبد لا يعقب رياء فلا بأس به، كحيائه من وسخ ثوبه ووسخ جلده، والسواد على ثوبه وعلى جلده، وما أشبه لك، فلا بأس به ما لم يعقب رياء في الدين.

---

(١) في ط: يأمره، في الفقرة كلها.

(٢) اخرجه بألفاظ متقاربة: الترمذي في سننه، الباب ٧٥ من كتاب البر. وأبو داود في سننه، الباب ٣٠ من كتاب الأدب، انظر أيضاً: باب اكرام الكبير من كتاب الأدب في صحيح البخاري. والآداب للبيهقي. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

(٣) في ط: يستحي، في الفقرة كلها خطأ.

باب من أين ينبغي للعبد ان يكره ذم المسلمين له
ومن أين لا يكرهه

قلت: أليس ينبغي للمسلم ان يكره ذم المسلمين له؟ قال: بلى، ولكن قد يكرهه على وجوه:

قد يكره ذمهم خشية ان يكون ذلك دليلا على ذمّ الله، عز وجل، له، لقول النبي، ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»[1]. هذا ما لم يظلموا في ذمتهم ولم يكذبوا وأيضاً كراهة[2] ان يغيروا قلبه فيشغلوه عن الله عز وجل، او يجيء منه إليهم ما لا يحل[3] فيعصى الله فيهم بقلبه او جوارحه.

او إشفاقا عليهم ان يعصوا الله فيه.

والذي هو اقل من ذلك وهو مباح: ان يكره ان يغتمّ بما يسمع أو يشقّ عليه لأنه مخالف للطبع، فلا يكاد يأمن[4] ان يهيج الغمّ لسماعه ما يكره من القول فيه، فليس عليه في ذلك جناح ان يكره ما يشقّ عليه فيما يهيج من فعل طبعه، وألا يحب ان يغتمّ.

وإن ذمّوه فاغتم لما هاج من الطبع، فلا بأس به، ما لم يكن يكره الذم ويغتمّ له جزعا ان يزول عنه الحمد بالطاعة، ومحبّة ان يُثنوا عليه بالورع، ويبروه على الورع،

---

(١) الذين يعتبرون شهداء الله في الأرض هم أهل الصلاح والولاية الحقة، لا المدعون، ولا الفاسقون، وخطاب النبي ﷺ إنما كان للصحابة ومن على شاكلتهم رضي الله عنهم فلا يجوز ان ينسحب هذا الحكم على ناس العصر إلا القليل منهم. والحديث اخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٨٥ من كتاب الجنائز. ومسلم في صحيحه، الحديث ٦٠ من كتاب الجنائز، والترمذي في سننه، الباب ٦٣ من كتاب الجنائز. والنسائي في سننه، الباب ٥٠ من كتاب الجنائز، وابن ماجه في سننه، الباب ٢٠ من كتاب الجنائز، والباب ٢٥ من كتاب الزهد. واحمد بن حنبل في مسنده ٢/٢٦١، ٤٩٩، ٥٢٨، ٣/١٧٩، ١٨٦، ١٩٧، ٢٤٥، ٢٨١.

(٢) في ط: وكراهة أيضاً.

(٣) كالغيبة في حق من ذمه مثلا.

(٤) في ط: فلا يكاد ان يمتنع.

ويأكل بدينه، ولا يحبّ ان يقولوا عليه غير ذلك، فيزول عنه الثناء بعمله والبرّ على طاعته.

فإذا كان ذلك فقد نقص في دينه.

وإن هو لم يراء بطاعة الله عز وجل، من أجل ذلك ولم يجزع من ذلك لأن يتمّ له الثناء على طاعته لله عز وجل، وسلم من ذلك، وشغله مع السلامة من الرياء غم ذمهم، إذا كانوا صادقين فيه عن الغم لله عز وجل، فقد نقص وغبن، بل ما يرضي كثير من الناس بالغم بزوال الثناء بالدين، حتى يبتدىء اعمالا أخر لم يكن يعملها، ليزيل ذلك الذم عنه ويخرج[1] إلى الإعتذار بالكذب والتصنّع.

والمؤمن لا يطلب بطاعة الله عز وجل حمد المخلوقين، ولا يكتسب ذمهم ولا يحبُّه، لأن فيه شغل قلبه، ومحنة له، لعله ان يخرج إلى ما لا يحل له (وإلى)[2] عصيان المسلمين فيه بالطاعة.

فالطاعة يريد الله عز وجل بها، ولا يريد بها العباد، وذمّ العباد لا يحبه، ولا يكتسبه، ولا يطلبه، ويحب الا يعصوا الله عز وجل فيه، ولا يشغلوه عن ربه عز وجل، وأن يسلم عليهم (دينهم)[3].

قلت: فإذا كان لا يحب ذمهم ولا حمدهم على طاعة ربه، وليس بينهما منزلة، فإذا لم يحب ذمهم احب حمدهم، وإذا لم يحب حمدهم فهو يحب ذمهم.

قال: إن غمه بذمّهم على طاعة ربه عز وجل، ليس بجزع منه لسقوط منزلة، ولا حب ثناء[4]، ولكن لشغل قلبه ولعصيانهم فيه.

فكذلك لا يحب حمدهم على طاعة الله.

---

(١) في ط: والخروج.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) الذم على طاعة الله تعالى كالرمي بالنفاق والتكسب بالدين وغيرهما لمن هو بريء من ذلك.

قلت: فيحبّ حمدهم لسقوط الشغل عنهم[١] ولطاعتهم فيه لربه.

قال: إن شغله لحبّ الحمد[٢]، وطلبه لتسكين الشغل عن قلبه، محبّة للثناء والتعظيم على طاعة ربه، فقد تعجّل ثواب ذلك[٣].

وإن كراهته لشغل قلبه بالذم ومحبّته ان يزول الشغل عن قلبه طلب السلامة، لا انه معتقد للشغل لا يحب[٤] حمدهم، ولكن كراهة ان يجاهد طبعه، فلعله ان يغلبه في حال غفلته، فكلما دفع ذلك عنه ان يمتحن به عدها نعمة من ربه عز وجل.

قلت: فالحمد، أيضاً، يحبه جملة لغير طاعة، لئلا تعارضه محنة ذم على طاعة يجاهد عنها طبعه، فيشغله ذلك، ولعله ان يزول.

قال: إن في وقوع الذم نفارَ الطبع وليس في دفع الحمد إذا لم يعقبه ذمّ نفار الطبع إلا جزعا لحب المنزلة، وطلب الحمد منه لا يكون من قلبه إلا رجاء ان يحمدوه على خير وطاعة، فإذا دعت النفس إلى الحمد جملة[٥] فقد علم انهم لا يحمدونه (إلا)[٦] على خير وبرّ.

قلت: وكيف جوّزت حبّ الحمد بعد العمل للستر عليه[٧].

قلت: لم أجوز لهم إلا سروره بنعمة الستر بعد ما مضى العمل خالصا[٨]. وبين الحمد والذم منزلة.

---

(١) أي: سقوط شغلهم بتتبع عوراته وفحص عمله وغير ذلك من أمثاله.

(٢) في أ: إن شغله حب الحمد.

(٣) أي: تعجل ثواب الطاعة بالثناء.

(٤) في ط: يحب خطأ عقد المعنى.

(٥) في ط: فإذا دعت النفس الحمد على جملة.

(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٧) اي: طلبا لستر الله عليه حاله.

(٨) وحب المدح للستر غير السرور بالستر مجردا عن المدح، فالسرور بالستر المجرد شكر على النتيجة دون النظر إلى سببها، وحب المدح طلبا للستر قد لا يؤدي إلى النتيجة المطلوبة، ومن هنا تبدو دقة تحليل النفس عند المحاسبي.

قلت: وما هي؟

قال: ان تخلو قلوبهم من حمدهم على طاعة الله عز وجل ومن الذم، كقلب من لا يعرفه ولا يذمه ولا يحمده.

وكقلب من يعرفه فينسى إحسانه، فلا يحمده ولا يذمه.
أو يذكر إحسانه ذلك ولا يتفرغ قلبه لحمد ولا ذم.

فهو لا يحب ان يذموه كراهة الشغل، ويحب ألا يحمد على طاعة لكراهية الرياء والزهد في المنزلة، ويحبُّ ان يخلو من ذلك جميعاً، فلا يكون منهم حمد ولا[1] ذم على طاعة، ولو اعتقدوا ذمه بعد الا يعلم به لهان عليه، إذ لا تقع فيه المحنة، إلا انه لا يحبه لهم، وإن لم يعلم به، لئلا يعصوا الله عز وجل فيه، وفي الحمد هم مطيعون.
قلت: أليس الحمد والذمّ منزلتين إحداهما قبل الأخرى؟
قال: إنه ليس بين الفعل والترك منزلة، لأن الترك للفعل فعل ثانٍ.
فالفعل ضروب.

فيكون العبد يفعل فعلا آخر ثالثاً، لا حمد ولا ذم، ويفرغ قلبه من الحمد والذم لبعض العباد.

فهو يحب ان يكون ذلك العبد يعيش عُمرَهُ لا يحمده احد على طاعة، ولا يذمّه احد، لئلا يشتغل قلبه عن الشغل بالآخرة، ولا آمن ان يجيء منه إليهم ما يأثم فيه، ومحبّة الا يعصوا الله عز وجل فيه.

وإن كان من يذمه محسنا[2] لم يحب الذم منه، خشية ان يزداد إثما.
وأيضاً (خشية)[3] ان يذكرهم بما لا يحل له، وأدنى ذلك: أن يشغلوا قلبه عن ربه عز وجل.

---

(١) في ط: فلا ذم خطأ، والترقيم فيها في الفقرة كلها مفسد للمعنى.
(٢) في ط: وإن كان من يذمه محسن برفع خبر كان خطأ.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

باب كيف يكون قلب الصادق

عند كراهية المنزلة عند المخلوقين

وحبه لإخمال ذكره

قلت: كيف يكون قلب الصادق في ذلك؟

قال: تكون نفسه سخيةً، او يكون في الخلق ما عاش لا يخطر بقلوبهم حمدُه ولا معرفةُ فضله، ولا تنطق بذلك ألسنتُهم (إلا)[1] بالزهد في المنزلة، سخياً بذلك لربّه عز وجل، دون خلقه.

قلت: ألم تجوّز للعبد ان يحب رفعَ الشغل عنه، والمعصية عن غيره بذمّه، وإن كانوا ذامّين له من قبل الغضب لله عز وجل؟ يذمونه في وجهه، ويعظونه ولا يغتابونه؟

قال: يغتم لذلك من أجل هتك الستر، ويحب لو بعث الله عز وجل إليه من يوقظه ويعظه، ويحب مع ذلك ان الله عز وجل كان [قد] ستر عليه، أو يعظه من قلبه[2] ولم يكل عظته وتأديبه إلى غيره بهتك ستره.

قلت: فإذا كان الذمّ إذا وقع كرهه للشغل [به] والمعصية للعباد إذا كان بما لا يحل لهم، لم لا، جاز ان يفرح بالحمد منهم، إذا كان يدفع الشغل عنه، وحب طاعتهم[3].

قال:، جائز إذا كان يدفع الشغل عنه، وحب طاعتهم، وكان لغير قيام منزلة، إذا حمدوه بعدما يفرغ من العمل، أو حمدوه قبل ان يفرغ من العمل، أو حمدوه على جملة على غير عمل يسمونه، كمثل: عافاه الله وجزاه خيراً، أن يعدها نعمة إذ ستر القبيح، وأظهر الجميل، وحبَّبه إلى خلقه، وهو يتبغض إليه ويفرح لهم بأن

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) أي: يجعل الله للعبد من قلبه واعظا. وفي ط: ويعظه من قلبه.

(٣) اي: حبا لطاعتهم لله تعالى في عدم تتبع عورات المسلم.

يطيعوا الله، عز وجل فيه، وأن يقتدوا به، إن كان موضع قدوة لهم، متفقداً لقلبه مع ذلك ألا يكون فرحه لحب المنزلة عندهم.

وليحذر مع ذلك ان يكره ان تظهر منه فترة بعد ذلك فيغتمّ؛ لئلا يتغيروا له عن حمدهم، أو يبتدىء في عمل وهو معتقد بقلبه أنهم[1] يحمدوه عليه، إن اعترضت له محبَّة ثناء وتعظيم (على)[2] طاعته، أو بالبرّ والصلة نفي ذلك شكراً للذي ستر عليه قبيحه، وأظهر جميله فعامله وحده وأخلص له قلبه.

قلت: فما معنى إذاً قول عبد الله: حتى يكون حامده وذامّه في الحق سواء؟

قال: ذلك صحيح، يستوي حامده وذامّه في نفسه، للإخلاص والصدق لله عز وجل وللزهد[3] في حمد من لا يضرُّ ولا ينفع؛ لأن الخلق عبيد، لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا، فهم لغيرهم اولى ألا يملكوا له ضرًّا ولا نفعاً.

فزهد في حمدهم، فلم يبال بذمهم، واستوى ذلك عنده لنفسه، إذ الأمر في المنفعة والمضرة واحد، وأن ذمهم لا يوجب ضرراً، وان حمدهم لا يوجب منفعة، كما روي عن النبي ﷺ، قال له رجل، وهو شاعر بني تميم: يا رسول الله، إن حمدي زين، وذمّي شين. قال: «كذبت، ذاك الله، عز وجل»[4].

فلما استيقن المؤمن، وعلم وصدَّق بأن الله عز وجل إلّه واحد، وكل ما سواه مألوهٌ مربوبٌ مدبَّرٌ مصنوع، لا يحدث في ملك مولاه وربه، عز وجل ما لا يريد، ولا يكون إلا ما أراد، خلع من قلبه رجاء من لا يملك له ضرًّا ولا نفعاً وخوفه، واستوى عنده حمد المخلوقين وذمّهم إذ كانوا بهذه المنزلة، ولم يستوِ عنده حمد الخالق وذمّه، إذ الملك كله له، والمنفعة والمضرَّة من تدبيره عز وجل وصنعه.

---

(١) في ط: أن.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في المطبوعة: والزهد.

(٤) وفيه نزلت: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله﴾. وقيل: ﴿لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾. والحديث سبق تخريجه.

فما حمده الله، عز وجل، من الفعل امل فيه الثواب بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، وذلك اعظم المنفعة. وما ذمّه عليه إلٰهه عظم عليه، وخاف عقابه في الدنيا والآخرة، إذ لا مالك لها غيرُ مولاه وإلٓهه. وما حمده الخلقُ أو ذمّوه استوى عنده، إذ لا ملك لهم في المنفعة ولا في المضرة في الدنيا والآخرة بما لم يرد مولاه ولم يشأه.

باب استواء الحمد والذم في قلب العبد

والفرق بين حبه لنفسه ولربه عز وجل

قلت: (في)[١] مثل أيّ شيء يستوي؟

قال: كرجل أمَرَ بالمعروف ونهى عن المنكر، فحمده من العباد حامد، فنظر[٢] فإذا حامده[٣] لم يزده في رزق، ولم يؤخر له في أجل، ولا زاده في صحة، ولا دفع عنه سقما، ولا أوجب له ثواباً في الآخرة[٤]، فكان عنده كأنه لم يكن.

ثم ذمَّهُ آخر على أمره ونهيه، فقال: مراء متكلف[٥]، فنظر فإذا ذمه لم ينقصه من رزق، ولا من عمر، ولا أزال عنه صحَّة، ولا أحلَّ به سقماً، ولا أوجب به عليه عقوبة في الآخرة، فكأن الذم منه لم يكن.

فاستوى ذمٌّ من ذمه وحمدُ من حمده لنفسه، إذ لم ينل بحمد الحامدين منفعةً، ولم يُصِب بذمّ الذامّين له مضرّة، فيستوي لنفسه ولا يستوي لربه، لأن الذي حمده قد أطاع الله عز وجل فيه بحمده للحقّ، وحبه للقيام به، وحبه لمن أطاع الله عز وجل. والذي ذمه على الحق قد عصى الله فيه، وأبغض الحقَّ، ولم يحبَّ عليه،

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في ط: ونظر.

(٣) في ط: حمده.

(٤) في ط: ولا وجب له ثواب.

(٥) في ط: مكلف.

فيبغضه على معصيته لله عز وجل في ذمه للحق وأهله، فلا يستوي لربه ويستوي لنفسه[1].

قلت: هذا معنى غامض دقيق لا يعقله مثلي إن لم تكن تشرحه لي كيف بين ذلك وطبعه ينازع إلى الحمد، وينفر من الذم؟ وكيف يستويان لمعنى، ولا يستويان لمعنى آخر؟

قال: هو معروف موجود إذا قررت: أن الحامد للحق مطيع لله عز وجل، والذامّ للحقِّ واهله عاصٍ لله عز وجل، فقد ثبت الفرقان بينهما في الحبّ والبغض، وثبتت المساواة بينهما لنفسه، لا لربّه عز وجل، إذا لم ينتفع بالحمد ولم يُضَرّ بالذمِّ.

قلت: لا بُدّ من معنى تنصبه لي أعرف به كيف أفرق بينهما واستدلّ به على ما يكون من طبع، لما اجد في الحمد والذم؟

قال: إن الذي يسوّي بينهما لنفسه قد يخالف بينهما لمنازعة النفس وخطر العدو، ولكنه كاره لذلك، راد على هواه وعدوه، وقد يقوى ويعلو في الإخلاص، حتى يأتي عليه بعضُ الحال يُذَمُّ ويُحْمدُ فيها، فلا يكاد أن يتغيَّر طبعه لما قد قهر الطبع من قوة عزم العقل ونور الإخلاص.

وقد ينازع طبعُ هذا القوي في بعض الحالات، إلا انها منازَعَةٌ ضعيفة، لغلبة الصدق على قلبه، ومن لم يقوَ فعليه المجاهدة والردّ على دعوى نفسه وعدوه، ويسوّي بينهما بعقله وعلمه، وإن نازع الطبعُ إلى الخلاف بينهما، حتى يعلو ويقوى، فتخفّ المحنُ، ويضعف دعاء الغريزة وَيَهِنُ[2].

ولما ثبت انه إذا سوّى بينهما بعقله، لما استودعه الله عز وجل، من العلم بمعرفة الخلق والخالق، كانا عنده سواء، كما امر وندب إليه، ولم تضره منازعةُ نفسه إياه، وكذلك إذا فرق بينهما في الحب والبغض لربه عز وجل، وساوى بينهما لنفسه سلم وصدق.

---

(١) انظر: باب المدح والذم من الوصايا للمحاسبي ففيها تفاصيل اخرى.
(٢) اي: يضعفه.

قلت: فبِمَ يعتبر، حتى يعلم انه قد صار إلى ما قلت إن التبس عليه وخاف ان يكون الفرقان بينهما للحب والبغض لنفسه، وهي تدَّعي ان ذلك لربه عز وجل؟

قال: يعرض على قلبه: أن لو كان المحمود على الطاعة غيرُه، والمذموم عليها غيرُه، كيف كان حبُّه الحامد إذا أحبّه الله عز وجل، وبغضُه الذامّ إذا أبغضهُ لله عز وجل، ويحمل قلبه على أن يدين الله بمثل ذلك سواء.

قلت: فالطبع لا يستوي فيه حمده وحمد غيره، وذمُّه وذم غيره.

قال: أجل، ما أقل ذلك! ولكن يتديَّن بعقله وعلمه، وأن يحبّه ويُبغضه على نحو مما يبغض من يذم غيره، ويحب من يحمد غيره، ويكون رادًّا على هواه، كارهاً للفضل بينهما، كما يكره منازعة النفس ومخالفتها بين الحمد والذم إذا استوى ذلك عنده من قبل تدينه بعقله لربه عز وجل.

وكذلك يستويان عنده في الحب والبغض للحامد والذام لغيره، والحامد والذام لنفسه، ويكره ما نازع من الطبع من الزيادة والفضل بينهما التي تنازع الطبع إلى التفرقة بينهما، وإذا فعل ذلك فقد دان الله بالحب والبغض للمطيعين والعاصين، ودان الله عز وجل بالتهاون بحمد المخلوقين وذمهم، فاستوى ذلك عنده، وما خالف هذين بالمنازعة من قبل هواه كرهه ولم يركن إليه، كما أُمر بنهي النفس عن الهوى.

قلت: إن الإخلاص منزلة شريفة لا يبلغ مثلي إليها، لأنها منزلة الخاصة، وأنا مخلّط.

قال: ما احد أحوج إلى الإخلاص من المخلط[1]، لأن المتقي لو حبط تطوعه كله نجا بتقواه، والمخلط إنما يكتمل بتطوّعه فرضُهُ، فإن حبط تطوعه بقى فرضه ناقصاً فهلك إلا أن يعفو الله عز وجل، بعد ان يلقى الله عز وجل على توبته من الريـاء.

---

(١) ينبغي الا نغفل عن ان مذهب الإمام المحاسبي بالنسبة للمخلطين وهم الذين يخالفون عن أمر الله ورسوله، او يبطنون اخلاقاً رديئة هو عدم جدوى عمل النافلة لهم بثوابها، لأن هذه الخلائق =

باب في الرياء للوالدين ليرضيا

وللعلماء ليستفيد به علما

قلت: فهل يجوز الرياء للعالم ليستفيد منه علما، لا يريد بذلك دنيا؟

قال: لا، هذه أغلوطة وخدعة، لأن الله عز وجل إنما أمرك ان تعمل له وحده، وتريده وحده، ورياؤك لتزداد علماً خسران وجهل، فكأنك قلت: اخسر عملا بازدياد علم، لأن إرادتك ان يحمدك العالم ضدٌّ ارادتك ان يحمدك الله عز وجل، فذلك يحبط عملك، ولعلك لا تستفيدُ علماً. ولعلك إن استفدته لن ينفعك الله عز وجل به بسوء إرادتك، لما راءيت بعملك.

وليس رياؤك بالذي تزداد به علماً، إذ كان ما يصير إليك من العلم مقدوراً (سواء)[1] راءيت أو أخلصت، فإنه لا يصل إليك إلا ما قدر لك، وما لم يقدّر لك فلن يصل إليك، وما عَلِمَ العالم بأنك تريده فيزيدك علماً، بل لو علم أنك إنما تريده لغيره لمقتك، وكنت أحرى ان يمنعك العلم، لما ظهر له من سوء ضميرك، فكيف تأمن الله عز وجل ان يمنعك ما تأمل من العلم لما يعلم من سوء ضميرك، وإن أعطاك إياه منعك المنفعة به عقوبة، فتكون إنما ازددت حجّة ولم تنل منفعة، مع خسران العمل وحبطه وتعرضك للمقت.

= الرذيلة شر، وقليل الشر وكثيره سواء، والشر إذا خالط الخير صار الخير شرا كله، كما فصل القول في ذلك في كتابه «آداب النفوس».

وهو يرى أن أفضل السلوك بالنسبة لهؤلاء ان ينقطعوا انقطاعا تاما للاقلاع عن هذه الخلائق، ويكتفوا في هذه المرحلة بالفرائض، فإذا تم لهم تطهير نفوسهم من هذه الخلائق أصبح الإخلاص سهلا ميسوراً.

فإزالة العوائق عند المحاسبي أفضل من حمل النفس على الإخلاص وغيره من جلائل الأخلاق مع بقاء هذه العوائق، لأن الأمر حينئذ يكون شاقا وعسيراً وغير مأمون النتائج.

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وكذلك والداك: إنما تطلب رضاهما لرضى الله عز وجل، وفي رضى الله عز وجل ترك الرياء له، فكأنك قلت: أطلب رضى الله عز وجل بسخط الله عز وجل.

فهذا متناقض ومحال لا يقوم في وهم، ولا يقرُّ به عقل، ولعله لا يزداد إلا سخطاً عليك، لأنك إنما توهمه بما يظهر له منك أنك في الضمير تطيع الله عز وجل، فيلقى الله عز وجل كذلك في قلبه عقوبة، فيزداد لك مقتاً وبغضاً، لثقلك على قلبه، كما لم تهب الله عز وجل، في ضميرك فتخلص له عملك.

فاتق الله عز وجل فإن هذه خدعة: ان تطلب رضى والديك بما لا يرضي الله عز وجل، وإنما تريد برضاهما - زعمت - رضى الله عز وجل، فتطلب رضى الله بسخط الله عز وجل.

باب الرجل يحضر القوم يصلون

فتحضره نية للعمل وإن لم يكن يفعل ذلك في خلوة او يكون فلا يجد البكاء

قلت: الرجل يبيت مع القوم في منزل بعضهم او في منزله، فيقومون او يقوم بعضهم، فيصلون الليل كله او بعضه، وهو ممن لا يقوم وحده في منزله من الليل كما يقومون، إنما يصلي ركعات ثم يوتر، أو إما ان يقوم في منزله دون صلاته، فتحضره نيّة ومحبّة ان يقوم معهم، ويرتاب بنفسه، إذ كان لا يقوم في منزله مثل ذلك، أيدع الصلاة ولا يزيد على ما كان يصلي في منزله، او يصلي معهم؟

وكذلك لو حضرهم بالنهار في منزل أو مسجد؟

قال: إن اسباب الدنيا مشغلة مفترة قاطعة عن العمل، وإن أسباب أعمال الآخرة محركة مهيجة على العمل، فإذا كان الرجل في منزله قطعته الأسباب: من حب النوم مع زوجته وأهله أو على فراشه، إن كان له ممكناً ان ينام عليه، أو أكل طعام، او حديث مع زوجته، أو شغل بولده، أو ينظر في حساب أو غيره، فيفتر لهذه الأسباب ونحوها.

وأخرى: ان قيامه في منزله وإن قل دائم، فلا يقوى على الدوام مع الكثرة، فإذا صار إلى موضع غير منزله زالت هذه الأسباب عنه (وهي)[1] المفترة المشغلة له عن القيام، فحضرته أسباب تهيجه على ذلك وتحركه عليه؛ وذلك رؤيتهم وهم يصلون، فيحركونه بصلاتهم، ويجد الغبن (من)[2] أن يسبقوه بصلاتهم، وربما لم يأخذه النوم لاستنكار الموضع، أو لأصواتهم وحركاتهم، فيستغنم ذهاب النوم، فيجعل سهره في صلاة، وقد لا يستنكر الموضع ويمكنه النوم، ولكن حركوا قلبه للقيام، وزالت عنه الأسباب المشغلة له، وإنما هي ليلة أو ساعة او ليال قليلة او يوم واحد ثم ينقطع.

فيخف على النفس لقلة الدوام على ذلك، ويغتنم ذلك إذا وجد على نفسه أعواناً يحركونه للقيام بصلاتهم، فقد تحضره النيَّة الصادقة بذلك.

وقد يكون ذلك خدعة من نفسه، تخيّل إليه أنه صادق يريد الله عز وجل، بذلك لما حركوه بقيامهم، وإنما هو جزع من ذمهم له، والنظر إليه بالنقص ان يقولوا في أنفسهم: ليس هو ممن يقوم الليل، او ما كـنَّا نظنّه إلا صاحب قيام بالليل، او كنَّا نظنه يصلي اكثر مما صلى هذه الليلة، او جزع ان يكسلوه إذ لا يتحرك بحركتهم.

قلت: فما الفرق بين الهمتين، وبين المعنيين؟

قال: الفرقان بينهما: أن يعرض على نفسه ان لو كان وحده، وزالت عنه الأسباب التي كانت تشغله في موضعه، او علم بصلاتهم، فرآهم يصلون من حيث لا يرونه، ولا يعلمون به، فيخاف مذمّتهم إن هو لم يصل كما يصلون، وعلم بهم من وراء جدار، أو ساتر لهم عنه، فعلم بهم ولم يعلموا به، أو يحركوه بمثل ما حركوه به، وهم لا يرونه أكان قائماً أم لا.

فإن طابت نفسه بذلك فليصلِّ ما بدا له، وإن لم تطب نفسه فلا يزيد على ما

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

كان يصلي في منزله ركعة. وكذلك الصيام: إذا حركوه به، وكذلك إن لم يصل منهم أحد، ولكن حضر معهم قراءة القرآن أو عظة، فتحرك قلبه لذلك، فأراد ان يصلي ما لم يكن يصلي من قبل.

وكذلك إن يكن حضر معهم قراءة قرآن ولا ذكراً إلا ان النوم طار عنه، فَلْيَعْرِضْ على نفسه: أن لو كان في موضع لا يرونه، وسمع تلك القراءة أو العظة، أو طار عنه النوم، أكان مصليًّا؟ فإن طابت نفسه وسخت بذلك فليصل، وإلا فلا يزيدنّ على ما كان مصلياً من قبل.

قلت: فإن كان وقت ما حركوه - وهم يرونه - يجد من نفسه حركة للقيام ومسارعة من قلبه فلا يقوم، إما كسلا من نفسه من تحمُّل القيام وأن تقول له نفسه: انعس، وإما أن يدعوه من قلبه داعٍ: ان القيام لا يصحُّ لك، لأنك لا تقوم في منزلك مثل هذا القيام.

قال: إن كان كسلا وفترة من النفس، والقلبُ قد سخا بالقيام معهم ابتغاء مرضاة الله وحده جل ذكره، لا يجد غير ذلك فليقم معهم، فأما الداعي أنه لا يصح لك معهم ذلك، فقد يكون من العدو، ويكون من الله عز وجل، فإن وجد من نفسه الغالب على قلبه حب القيام لله وحده، ونفسه سخيّة أن لو خلا وحده وحركوه بمثل هذه الحركة من حيث لا يرونه قام فليقم، وإلا فلا يقوم إن وجد الأغلب على قلبه انه لا يصح له القيام ولا يجد نفسه طيّبة بالقيام لو خلا ورآهم يصلون من حيث لا يرونه، او طار عنه النوم، او سمع مثل ما سمع من القراءة والعظة، من حيث لا يرونه، فلا يصلي ولا ركعة.

قلت: فإن كان يعرض حب حمدهم مع ما حضره من النيّة؟

قال: إن كان الغالب على قلبه حب القيام لله عز وجل، وكان كارهاً لحب محمدتهم، راداً على المنازع من نفسه حب حمدهم، ونفسه سخيّة ان لو خلا، وهو يراهم، فحركوه بمثل ذلك لصلى فيصلي معهم، ولا يدع الصلاة من أجل تلك المنازعة إلى حمدهم، أو وجد من قلبه انه غالب عليه إرادة الله وحده عز وجل،

وانه لو خلا لقام مثل ذلك القيام.

وقد ينشط العبد بغيره كالصلاة يوم الجمعة: تزول عن العبد الأسباب المشغلة، ويرى من حوله يصلي فينشط لذلك، وهو في سائر الأيام لا يكاد ان يصلي، فإذا حضرته مثل تلك النيّة فليصل، فإنه لله عز وجل، وكذلك بالليل مع غيره، إلا ان مع غيره أقرب من خدعة النفس، فليعرض على قلبه ما وصفت لك.

قلت: فإن حضر مع قوم يبكون (أو يتباكون)[١]، ولم يأته البكاء، فوجد نفسه تجزع ان يكون قاسياً من بينهم، أيتكلف البكاء بالفكر والذكر؟

قال: ليعرض على قلبه ان لو خلا وسمع بكاءهم ورآهم من حيث لا يرونه، هل كان جزِعاً أن كان قاسياً يراه الله عز وجل على ذلك، وغيره يبكي من خشية الله عز وجل؟ وان يكونوا أخوفَ لله عز وجل منهُ، وهو يعرف من نفسه من الذنوب اكثر مما يعرف منهم؟ فليتكلف ذلك، وإن لم يجد من قلبه ذلك فلا يتكلف ذلك حتى يأتيه ما لا يملك.

لأنه إذا لم يجد من قلبه ذلك، لا آمن ان يكون قد جزعت نفسُهُ ان يقولوا: ما أقساه، وأقلّ وقتُه، وأقل خوفُه وحزنُه، لأن النفس تنازع إلى أن يظهر منها الخوف ليكرم به، ألا ترى إلى قول لقمان رحمة الله عليه: «يا بني لا تُرِ الناس أنك تخشى الله ليكرموك وقلبك فاجر»[٢].

قلت: فالصيحة تكون من العبد (الواجد)[٣]، او النَّفَس العالي عند الذكر يسمعه العبد، أو عن فكرة منه فيكون ذلك؟

قال: ذلك على وجهين؛ أحدهما: تكلف ـ لا عن خوف هائج ـ ابتغاء حمد من يسمعه أو يبلِّغُه غيرُه عنه (من الناس)[٤]، أو جزعاً ـ عند الذكر يسمعه ـ أن

---

(١) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

(٢) رواه احمد في الزهد.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

يقال: ما أقساه، وأقل رقّة قلبه عند الذكر، أو يفجأه على ذنب وتقصير في دين، كالمزاح او الضحك، او يظنّ انه قد بلغهم عنه ذنب، او نقص في دينه فيتنفس او يصيح تحزُّناً، ليندرس ما كان منه، ولئلا ينْقِصه ذلك عندهم. إما ليشككهم فيما كان منه إن كان يحتمل التشكيك، او لئلا يوضع[1] أمرُه على قلة الخوف لله عز وجل، وقلة الورع، وقلة الحزن، وأنه منه لأجل خوف في قلبه ولحزن، فإليه يرجع.

والوجه الثاني: أن يتفكّر او يتذكّر او يسمع الذكْر من غيره، فيحزن قلبه حزناً لا يغلب على قلبه، فيتكلّف الصياح والتنفس بالزفرة والأنين، استعظاماً لما يتفكر فيه ولما يسمع، إذا رآى قلبه لا يرقّ كما ينبغي، فيصيح ويزفر ويئن تحزناً منه واستدعاء للحزن من قلبه، ثم يلحقه التصنّع في وقت ما يبدو ذلك منه ان يستدلوا بذلك على أن قلبه خائف محزون. فإن نفاه معاً ولم يقبل الخطرة خلص ذلك منه، فإن قبلها بعد ما تقضى لم يحبط ذلك، وذلك نقص، إذا احبَّ قلبُه حمد المخلوقين على طاعة ربّه عز وجل. وإن قبل الخطرة مع الصيحة وزاد فيها حبط أجره فيها. وإن قبلها معها ولم يتزيد فيها خَشِيتُ عليه ان لا يُقْبَل منه[2].

ووجه آخر[3]: أن يهيج الصياح والتنفّس والزفير او الأنين عن الفكر بالخوف، أو عن الاستماع للخوف، او النظر للمخوف والمحزن[4]، كالنظر إلى الميِّت أو إلى القبور أو الشيء يعتبر به يدل على عقوبة الله عز وجل، أو معنى من معاني الآخرة يهيج ذلك منه عن غلبة من عقله، فذلك يهيج خالصاً لله عز وجل، من خوف تحقيقه في القلب.

وقد يُخْطِر العدو مع الهيجان بذلك ـ حين يظهر الصياح والتنفس ـ حبّ

(١) في ط: يضع.

(٢) يبدو ان الصيحة كانت حديثة الظهور في عهد المحاسبي، اما في عهد الجنيد فقد كان استشرى خطرها فعابها بوجه عام، وسماها تلبيسا في الدين.

(٣) في ط: والوجه الآخر

(٤) في ط: والحزن.

محمدة المخلوقين، او جزعا من ان ينظروا إليه بالقسوة وقلة الرقة والخوف، فإن نفاها خلص ذلك إليه، وإن قبلها فقد تصنّع بذلك.

قلت: وكيف جعلته متصنّعاً بذلك مرائياً، وقد ابتدأ في الهيجان على غير كلفة؟

قال: إنه تصنّع به قبل ان ينقضي. وكذلك الصلاة وغيرها، يدخل فيه ثم يخطر العدو بالدعاء إلى الرياء فيقبل ذلك منه ويتصنّع به.

واعظم من ذلك الصياح والتنفس والتأوّه والأنين يهيج عن الخوف، فإذا ظهر للعباد تصنّع بذل العبد فيزيد فيه، حتى يزيد في مدّ صوته او تحزينه، وكذلك تنفّسه او تأوّهه وزفيره وأنينه، فذلك الذي لا يختلف فيه أنه رياء[1] ، لأن ذلك التزيّد هو كابتدائه، تكلفه لطلب حمد المخلوقين.

فإن لم يقبل حتى يقضي صياحه وأنينه، ثم خطرت بقلبه خطرة لحب حمدهم على ذلك فقبلها لم يحبط ذلك، لأنه قبل الخطرة بعد تقضّي الصياح، إلا أن ذلك نقص منه .

وكذلك البكاء، يحلّ منه هذا المحلّ في جميع اموره: قد يتكلفه تصنّعاً للعباد، وقد يتكلفه ليستدعي به البكاء يريد الله عز وجل بذلك، ويخطر خاطر الرياء مع ذلك فيقبله، وقد يهيج من الخوف ما لا يملكه، فيخطر خاطر الرياء مع ذلك فيقبله، ويزيد عليه من ترجيع النشيج، او تحزين الصوت بالبكاء او رفعه.

وقد يقبل الخطرة، ويعتقد حب حمدهم على بكائه، ولا يتزيّد على ذلك شيئاً، وهو الذي يختلف فيه كالصلاة يدخل فيها فيبتدىء بها ثم يخطر خاطر الرياء فيقبله، وكذلك التعديد على نفسه، يحل هذا المحل.

---

(١) هذا الخلق غالب على متصوفة العصر، لا سيا حين يجتمعون بشيوخهم أو بالمخلصين من المريدين.

(٢) ولكن الإمام المحاسبي قرر في «آداب النفوس» أن قبول الخطرات بعد العمل دليل على الكذب في دعوى الإخلاص. انظر «باب النية والرياء» من المرجع المذكور. وكذلك «باب الإرادة».
ثم قارن ما قال المحاسبي في فصل علامة الصادق الخاشع.

قلت: فالسقوط.

قال: ذلك قد يكون تكلفاً، وذلك فِعالُ الكاذبين: يسقط لغير خوف أضعفه، فألقاه، أو ذهاب من عقله، وقد يكون لضعف غلب على البدن، فلم يتمالك ان يثبت جالساً او قائما والعقل لم يذهب، وقد يلحقه في ذلك التصنّع به ليحمد على ما ظهر منه من دلالة الخوف.

وقد يلحقه في ذلك أعظم من التصنّع بما ظهر من سقوطه: أنه تجزع نفسه ان يفطنوا انه سقط لغير ذهاب عقله، فيحمله جزعها من ذلك ان يوهم انه ذهب عقله، وهو صادق في سقوطه مع ذلك من الضعف، فجزعت نفسه ان يروه أنه سقط من غير ذهاب عقل، فيظهر ذهاب العقل، فيخرج إلى التكلف له لا لشدة الخوف تصنّعاً ورياء.

وقد يسقط من ذهاب العقل، فيفيق سريعاً، فيخاف ان يظنّوا انه سقط من غير غلبة على عقله، ولو كان سقط من غلبة على عقله لأبطأ في سقوطه على الإفاقة، فيسقط لله عز وجل، لخوفه منه لا يملك ذلك، ثم وجد العدوّ موضعَ فتنته فيدعوه إلى أن يطيل المكث، لئلا يتوهموا انه سقط من غير غلبة على عقله، ليعظم عندهم بطول مكثه في سقوطه، ليدل بذلك على أن الخوف الغالب في قلبه قوي.

وكذلك إذا سقط لضعف فقوي سريعاً، تجزع نفسه ان يظنّوا به انه سقط من غير غلبة، إذ لو كان من غلبة على عقله لما أفاق سريعاً.

وقد ينهض حين يُفيق، ولا يتمكث بعث الإفاقة، ثم يفيق ولا يظهر القوة سريعاً، ويخفيها ان تظهر منه، فيضعف صوته ويُظهر الضعف في بدنه، لئلا يظنوا به انه سقط عن غير غلبة على عقله.

وكذلك يسقط لذهاب عقله، ثم يفيق فيظهر الضعف لأن يزيل سوء الظن منهم، ليستدلوا بما يُظهر من الضعف بعد الإفاقة، أنه سقط من ذهاب عقله.

فصل فيما ينفي به التصنع للمخلوقين

في التصنع والحزن

قلت: فبم ينفي جميعَ ذلك في الصياح والتنفّس والسقوط؟

قال: اما إذا دعته نفسه إلى أن يفعل ذلك تكلّفا للعباد، فليذكر اطلاع الله عز وجل على بدنه وعقله وقلبه بالمقت له إذ رآه متكلفا لإظهار الخوف، مع الأمن لله عز وجل إذا فعل ذلك يريد العباد، ولا خوفَ في قلبه، وذلك خلْقٌ من أخلاق المنافقين: ان يتكلف الطاعة لا يريد الله عز وجل بها، ولولا العباد ما فعل ذلك، ويُظهِر انه خائف من الله عز وجل بالأمن لله عز وجل، لأن تكلفه ذلك وقصده لذلك إلى العباد من الأمن لغضب الله عز وجل ومقته، ولو كان تكلفاً لله عز وجل، او مغلوباً على ذلك لما أهاج الخوف قلبه.

فيذكر نظر الله عز وجل إليه، وانه لا يرضى الا عمن فعل ذلك خوفاً منه، أو تكلفاً ليستدعي به الخوف، وتعظيما لما يخاف منه.

ثم يذكر انه يستبدل بما يرجو رضى الله عز وجل عنه به التعرّض لمقته، من غير ان ينال ازدياد منفعة من العباد في دين او دنيا، ولا اجتلابَ حمدٍ منهم، ولعل الله عز وجل أن يزيلَ حمده من قلوبهم ويجعل عقوبته في قلوبهم ذمًّا له، إذا بارز الله عز وجل بما يكره في ضميره.

فإذا خاف المقتَ وذكر الغبنَ والخسرانَ ان يستبدل بما كان بدؤه صدقاً يرجو به الرضا من الله عز وجل عنه والأمن من عذابه بالتعرّض لسخطه وحرمان رضاه بذلك عنه.

فإن لم يكن هذا خاسراً مغبوناً فلا خاسر أبداً في شيء ولا مغبون، فإن ذكر هذا بعقل عن الله عز وجل، ولم يزد على ما تكلفه لله عز وجل، ولا على ما هاج منه، وهو لا يملكه، ولم يحب حمدَهم على ذلك، ولم يتزيد فيه بتحزين، ولا يطول مكثُه في سقوطه، ولا إظهار ضعفٍ في إفاقته.

وكذلك تنكيس الرأس والإظهارُ للإنكسار في مشيئته وصوته وصلاته، وعند الذكر، ولم يهج من القلب خوفٌ يكسره ينكس له رأسه، وينكسر له بدنه، ويخشع له قلبه: ولم يتكلف حياء من نظر الله او طلب السلامة ألا ينظر إلى ما لا يقرب إلى الله عز وجل، ولا يمزح ولا يبطر، ليذلل نفسه بذلك لله عز وجل، وذلك فعال المنافقين.

كما جاء في الحديث: «تعوذوا بالله من خشوع النفاق» قيل: وما خشوع النفاق؟ قال: «ان يخشع البدنُ والقلبُ ليس بخاشع»[1].

وكذلك إظهار الاستغفار والاستعاذة بالله عز وجل، من عذابه وغضبه.

قال عمر رضي الله عنه: «لا يزيد الخشوع على ما في القلب».

قلت: فبم ينفي ذلك؟

قال: بذكر نظر الله عز وجل إليه، وخوف مقته، وقليل ما يرجع إليه من العباد، بل لا يرجع إليه منهم شيء يزداد به منفعة[2] في دين أو دنيا.

فمن الذي تطيب نفسه ان يتعرض لمقت الله عز وجل، ويحيطَ عملُه في الآخرة لغير منفعة ينالها في دين أو دنيا؟ ما يفعل هذا إلا كافر او احمق ذاهبُ العقل، او فاجرٌ على الله متمردٌ لا يكترث بغضبه ولا بعقابه.

قلت: يعترض لي الخشوع حين أرى بعضَ الخلق، وأنسى ما الذي أهاجه ابتداءً.

قال: إنك قبل ان تخشع في حال اخرى غير الخشوع، فإذا رهقتك أبصارُ العباد، فإن أرادت نفسك ان تغير من الحال التي كانت عليها إلى حال الخشوع، فانظر ما الذي ثار في قلبك من الذكر له، أعن اطلاع الله عز وجل، او عن ذكر الآخره، أو تصنُّعاً لهم لما رأوا ذلك؟ فإن كان لله عز وجل فامضه، واحذر ان تركن إلى حمدهم بعدما كان منك الخشوعُ على صدق.

---

(١) اخرجه: البيهقي في الشعب من حديث ابو بكر الصديق وفيه الحارث بن الايادي، ضعفه احمد وابن معين.

(٢) في ط: في منفعة.

وإن تغيرت عن الحالة الأولى تصنُّعاً لاطلاعهم، فاستحي من الله عز وجل، واحذر على ذلك مقته، والفضيحة غداً أن يُهتك سترك عند من كان يظن بك الصدق والإخلاص.

ألم تسمع إلى ما رَوَى وهب: ان احد الثلاثة الذين حاجّوا أيوب صلى الله عليه وسلم قال: يا أيوب، أما علمت ان العبد تضلّ عنه علانيتُه التي يخادع بها عن نفسه، ويجزى بسريرته!

ومنه قول بعضهم: أعوذ بك أن يَرى الناسُ أني اخشاك وأنت لي ماقت.

وكان من دعاء الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«اللهمّ إني أعوذ بك ان تحسُن في لامعة العيون علانيتي، وتقبحَ لك فيما أخلو سريرتي، أحافظ على رياء الناس من نفسي، وأضيع ما أنت مطلع عليه مني، أبدي للناس حسنَ أثري، وأفضي إليك بأسوأ عملي، تقرباً إلى الناس بحسناتي، وفراراً منهم إليك بسيئاتي، فيحل بي مقتك، ويجب عليَّ غضبك، أعذني من ذلك يا أرحم الراحمين».

واحذر المقت والفضيحة في الآخرة، وسقوط الجاه عند الله عز وجل، وحرمانَ الإجابة عند الاستغاثة، لأن من تهاون لنظر الله عز وجل إليه، هان على الله عز وجل.

ألم تسمع إلى ما يروي وهب بن منبه، رحمه الله: أن أحد الثلاثة النفر قال لأيوب: يا أيوب، ألم تعلم ان الذين حفظوا علانيتهم وأضاعوا سرائرهم؟ فعند طلب الحاجات إلى الرّحمن عز وجل، تسودّ وجوه أولئك بالرد.

باب ما قالوا في علامة صدق الخاشع لله عز وجل

إذا رمقته أبصار العباد

قلت: فما علامة الصادق فيما يُظهر من الخشوع والخوف إذا رمقته أبصار العباد؟

قال: إن الصادق قبل أن تُرهقه أبصارهم، لا يخلو من إحدى منزلتين: إما أن يكون خاشعاً، أو غير خاشع.

فعلامة صدقه في ذلك: أن لو اطلع عليه جميع العباد لم يتغيّر عن حاله التي هو عليها، فينتقل من حاله التي لم يكن فيها خاشعاً إلى الخشوع، ولا يزداد في خشوعه، ولا يسرّ باطلاعهم على خشوعه إن كان خاشعاً قبل أن ترهقه أبصارهم، من أجل اطلاعهم، إلا أن يحضره صدق من قلبه يشهد أن الله عز وجل قد علم ذلك من قلبه، يهيجه على ذكر الله عز وجل، أو ذكر الآخرة، أو تحرزاً منهم إن كانوا ممن يتحرّز منهم، فيخشع لئلا ينظر منهم إلى ما يلهيه، أو يخاف إن لم يخشع انقباضاً عنهم، إن انبسطوا إليه، وانبسط إليهم بما لا يسلم في دينه، أو بغضاً لهم لله عز وجل، أن ينظر إليهم، إذ عرفهم بالعصيان لربّه عز وجل، أو إجلالاً لهم وهيبة لله عز وجل، إن كانوا يستحقون ذلك.

ومع ذلك أن يجد من نفسه سخاء أنه لو هاج من قلبه هذا الذكر الذي هاج فيه من غير أن يروه لخشع.

فذلك علامةُ الصادق في خشوعه، وعلامة صدقه من قلبه، مع الحذر منه أن يتغيَّر قلبه، فيميل إلى التصنع لهم بعد الصدق، فالحذر من نفسه غالب على قلبه، فإذا كان كذلك كان منه الخشوع، وكأنه لا يطلع عليه إلا الله عز وجل متقلباً في خشوعه، كأن ليس في الأرض غيره إلا خطرات تخطر بضعف والقلب رادٌّ لها بصدق قوي وإجلالٍ لله عز وجل، وخوف منه.

فإذا كان كذلك لم يكن في طاعة ولا مباح فيتغير ولا ينتقل إلا لاطلاع ربه عز وجل وابتغاء مرضاته، والطلب لما عنده من الثواب الجزيل، والعيش السليم، والنعيم المقيم.

باب الرجل يكون له صاحبان

أحدهما غني والآخر فقير، فيكثر زيارة الغني وبره دون الفقير كيف السلامة من ذلك له، ومن أين فساده؟

قلت: قد يكون لي صاحبان: أحدهما فقير والآخر غني، فأجد نفسي تسارع إلى برّ الغني وإيثاره بالزيارة والعيادة، وغير ذلك.

قال: إن ذلك قد يصح وقد لا يصح في الإرادة لله عز وجل.

فأما الذي يصح: فإذا كان الغني منهما أطوع لله عز وجل وأتقى، أو كان أنفعهما لك في دينك، أو تكون تجد قلبك معه أزيد وأسلم لك في دينك، أو تستفيد منه علماً تنتفع به في دينك، فآثرته بالإتيان تريد الله عز وجل بذلك، ولا تعتقد بذلك طلب دنياه، فهو أولى حينئذ أن تؤثره بالبر والإتيان، إلا أن تعلم من الفقير تجوعاً أو عرياً فتبتدىء بمواساته حينئذ.

وكذلك أن يكون منك الغني قريبَ المنزل، فتنشط إلى إتيانه من أجل قرب منزله، والله عز وجل يعلم أن نفسك سخيّةٌ أن لو كان الفقير يقرب منزله ما آثرته بالإتيان على الغني، إذا كانا[1] مستويين في الطاعة والسلامة والمنفعة والقرب والقرابة، فإيثارك الغني للدنيا لا يشك فيه، إلا أن تكون أنت عالماً، والغني يخاف ضعفهُ ورجوعهُ وفترتهُ، وهو أضعف قلباً من الفقير، فتتألفه بالبر، رجاء أن يقوى في الدين، فإن آثرته بالبر لذلك، وأنت تريد الله عز وجل بذلك، فهو أولى حينئذ بالبر والإتيان.

قلت: قد تحضرني النية في إتيان الغني، ولا تعرض في إتيان أخ فقير، ولا آمن خدعة نفسي فبِمَ أعرف ذلك؟

قال: إعرض عليها بعض الفقراء، أن لو استوت أسبابه وأسباب هذا الغني، أكنت تأتيه، فإن لم تسخُ نفسك بذلك، علمت أنها غيرُ صادقة.

(١) في ط: إذا كانا، خطأ.

قلت: فإن استوت أسباب الغني والفقير، فأتيتهما جمعا، أكنت تخاف علي؟

قال: أما في الذهاب فلا، ولكن أن تذكر العلم وتنشرَ الحكمةَ وتُظْهرَ الخشوع أكظرَ مما يكون منك عن الفقير، فتفقَّد ذلك، ثم دع فضل ما بينهما.

وقد رُوي أن ابن السماك قال لجارية له: ما لي إذا أتيتُ بغدادَ تفتحت لي الحكمة؟ قالت له جاريته: يشحذ لسانك الطمَعُ. وصدقتْ، إنّ العبد يُكثر الكلام بالخير عند الغنيّ ما لم يتكلم به عند الفقير، يهيجه الطمعُ على ذلك أو تَعظيمُهُ للدنيا، وكذلك يُظهر الخشوعَ وغيْرَه من الطاعات.

هذا آخر كتاب الرياء، والحمد لله رب العالمين

كتاب الأخوان ومعرفة النفس

باب في العبد يعزم على التوبة ثم يرجع

وما الذي يقويه ويعينه على التقوى ومخالفة الهوى والشهوة؟

قلت: قد تسخو نفسي بالرعاية لحقوق الله عز وجل، وترك الرياء بالطاعة لعباد الله عز وجل، وأعزم على ذلك، ثم لا ألبث[1] أن أزول عن ذلك حتى أضيِّع بعض الحقوق، وأتصنَّع ببعض الطاعة، فمن أين أتيت[2]؟

قال: خوفك ضعيف، وحذرك من الله عز وجل قليل.

قلت: فكيف لي بقوة الخوف وشدَّة الحذر؟

قال: قد أجبتك عن ذلك بإدمان الفكر بالتخويف لنفسك.

قلت: قد خوّفتُ نفسي كما أمرتني، حتى سخت بالعزم، ورفضت الإصرار على المعاصي، والرياء على الطاعة، ثم لم تلبث[3] أن زلَّتْ ورجعت، فراجعتُ التوبة والعزم، ثم زلَّتْ، ثم راجعتُ التوبة والعزم، ثم راجعتُ الذنب وتصنعت[4] في بعض، ووفيتُ في بعض؟

قال: إنك قريب العهد بالجهالة والزلل، طويلُ العادة والألفة للمعاصي، قليل العناية بالمراقبة[5] والصدق، فهواك قوي، وشهوتك هائجة، لشدَّة إلْفِ نفسِك

(١) في ط: لم ألبث.
(٢) في ط: أوتيت.
(٣) في ط: لم ألبث.
(٤) في ط: والتصنع.
(٥) في ط: للمراقبة.

اللذاتِ ومباشرة الشهوات، فمن ثم أسرعْتَ الرجوع ولم تحقِّق الوفاءَ بالعزم في حقوق الله عز وجل، حتى ضيَّعت بعضها، وتصنَّعْتَ ببعض الطاعة.

قلت: فكيف لي بموت شهواتي، وضعف هواي، وقوة خوفي، وشدّة حذري؟

قال: الزم الفكرَ فيما سلف من الذنوب، وخوف ما وجبَ عليك من الله عز وجل (من النصب)[1] بها، والفكرَ في البعث والسؤال، وشدة العذاب[2]، وحرمان الثواب، فإنك لذلك مستوجبٌ، ومراجعةَ التوبة ومراجعةَ العزم، والحذرَ فيما تسقبل، ومنعَ النفس لذتها فيما يكرهُ ربُّها عز وجل؛ فإن زللت[3] رجعتَ سريعاً، وعاودت العزمَ والتوبة.

فإذا أدمنت الفكر بالتخويف لنفسك، قَوِيَ خوفُكَ، وإذا أدمنت الردَّ على نفسك، والعصيان لها، وتركَ استعمال شهواتها انقطعت النفسُ عن[4] عاداتها، ويئست من أن تعطيها لذاتها، وماتت شهواتها إذ لم تستعمل، وما استعملت منها عاقبْتَه بالخوف والحزن.

فحينئذ تقوى وتستقيمُ على الصدق، وتعلو في المراقبة لله عز وجل، والإخلاص له[5].

قلت: هذا قد يطول بي، وقد يسرع، فما الذي أستعين به على ضعفي ما دمت ضعيفاً، حتى أقوى بعد إدماني على الفكر ومجاهدة نفسي كما وصفت؟

قال: يقوي ضعفك وتقوي على نفسك بخَصْلتين:

---

(١) ما بين الحاصرتي: سقطت من ط.

(٢) ومما يعين على ذلك كا كتبه الإمام المحاسبي في كتابه (التوهم).

(٣) في ط: زلت.

(٤) في ط: على عاداتها.

(٥) انظر كتاب المراقبة للمحاسبي مصور بالجامعة العربية، وما كتبه من فصول عن المراقبة في (آداب النفوس، وأعمال القلوب والجوارح).

إحداهما: قطعُ كل سبب يكون عنه زوالك وفتنتك، إلا سبباً يجب عليك الاشتغالُ به، والإتيانُ به، أو إتيانه، أو سبباً هو عون لك على طاعتك لربك عز وجل.

والخصلة الثانية: قلة المكث بعد الزلل[1]، والمسارعة إلى الإقلاع قبل أن تألف النفس المعصية، ويتمكن من قلبه حلاوةُ الشهوة.

قلت: والأسباب التي يكون عنها الخطأ والزلل، مثلُ أي شيء هو من الأسباب؟

قال: كالرجل يشكو حبَّ النظر إلى ما لا يحل، وهو يجلس على الطريق يتحدث، أو يستريح إلى ذلك، ويكثر لقاء الإخوان، فكلما جلس على الطريق وهو ينوي ألا ينظر فجأهُ ما يُهيج شهوته على النظر، فتغلبه نفسه فينظر[2]، ثم يرجع فيندم ويتوب، ثم يعاود الجلوسَ، فيصيبه مثلُ ذلك، [فهذا] إذا قطع الجلوس ولزم منزله أو مسجده سقط عنه السببُ الذي كان يفتنه، وصار في تلك الخصلة مع ضعفه أقوى من القوي الذي يعرض نفسه للفتنة بالجلوس، لأن الضعيف إذا قطع السبب الذي يُؤْتى من قِبَلِه صار أقوى من القويِّ الذي يتعرض للسبب الذي يفتنه، وكذلك الخروج في الحوائج التي لا تجب عليه، فتركُها أقطع عنه لسبب فتنته.

قلت: فإن كانت حاجة فيها برّ وطاعة؟

قال: إن كانت واجبة فليخرج لها، ولا يعصي ربّه عز وجل بشك: لا يدري أيكون أم لا يكون؛ لأن تركه للذهاب (إلى البر والطاعة)[3] معصية، والنظر منه لم يكن بعدُ، ولا يدري أيكون أم لا يكون، بل إن ذهب والله عز وجل يعلم منه أنه لو كان الذهاب لراحة نفسه، أو حاجة له فيها لَذّة لما ذهب إبقاءً على دينه، لئلا ينظر إلى ما كره ربُّه عز وجل، ولولا أداءُ واجب حقِّ الله عز وجل ما ذهب.

---

(١) أي عدم الاسترسال في لذة المعصية، وعدم الإقامة في مواطنها.

(٢) لمعرفة دسائس النفس في النظر إلى ما لا يحل. انظر باب نظر الفجأة من «أعمال القلوب والجوارح للمؤلف».

ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

فإذا علم الله عز وجل منه الصدق في ذلك من خوفه من النظر كراهةَ أن يُسخط الله عز وجل، فذهب لله عز وجل، ولولاهُ ما ذهب وتوكَّل على الله عز وجل، فإن الله يعصمه إذا علم أنه لا يذهب من أجل راحة نفسه، فإذا ذهب على ذلك كان الله عز وجل أكرمَ من أن يخذله.

فإن كانت حاجة للدنيا لا غناء به عنها من الغذاء له أو لعياله، فهو يقوم هذا المقام، إذا علم الله عز وجل منه أنه كان يذهب لِتَكَثُّرٍ، أو لرياء، أو لافتخار، ما ذهب، ولآثر الترك، لئلا يتعرَّض لما يُسخط ربه عز وجل، ولولا طلب العون على طاعة ربِّه عز وجل، والعذرُ في عياله وَنفسِهِ، ما ذهب متوكّلاً على ربه عز وجل في أنه لا يخذله، إذا علم أنه لم يذهب للذّة نفسه، رجوتُ ألا يخذله الله عز وجل، بل لا يخذله ويعينهُ ويعصمه، إن شاء الله.

فإن كان ذهابه لحاجة الدنيا، فله عنها غناء، وهو يعلم أنه لا يسلم، لما جَرَّبَ من نفسه، فترك ذلك أولى به حتى يقوى، وَلستُ آمره بذلك دهرَه كله، إنما آمره تداوياً لذلك قليلا حتى يقوى.

وكذلك، إن كان يشكو لسانه أن يسبقه إلى الغيبة والمزاح بما لا يحل، والاستهزاء بغيره[1]؛ فإذا أنعم الرويّةَ من أي وجه يُؤْتى، ومن أين أكثرُ ما يُؤْتى، من مجالسة الإخوان وغيرهم، وترك مجالستهم إلا أن[2] يلحقه فرضٌ واجب لا يؤدّيه إلا بالكينونة معهم، أو معاشٌ لا غنى به عنه، فيجالسهم حينئذ لإقامة الواجب، أو لطلب الغذاء، لا لراحة نفسه وشهوتها متوكّلاً في ذلك على ربّه أن يعصمه، إذ علم أنه تارك للمجالسة للذّة نفسه وشهوتها، ولولا أداء واجب له، أو طلب ما يعينه على أداء واجب حقه، لآثر الله عز وجل بالترك، خوفاً أن يتكلم بما يُسخطُ ربه[3] عز وجل به، عصمه الله عز وجل، وأعانه إن شاء الله.

---

(١) في ط: من لغيره.

(٢) في ط: حتى يلحقه.

(٣) في ط: بما يسخط الله.

وأما إذا علم أنه لا يسلم معهم، ثم جالسهم بعد علم وتجربة من نفسه أنهم يخرجونه بحديثهم ومجاورتهم إلى الكلام بما يكره مولاه، ثم ذهب أو جلس لغير واجب، ولا طلب معاش لا غِنىً به عنه، وهو يعلم ذلك، فقد أعطي بيده إلى التهلكة على عمد منه، متهاوناً بأمر الله عز وجل.

باب الرجل يخرج في الحاجة

أو يجالس بعض إخوانه ممن يدّعي أخوتهم في الله عز وجل وهو يعلم انه لا يسلم له دينه معهم

قلت: أرأيت إن ذهب، وهو عازم ألا يتكلم بما يكره الله عز وجل، وقد جرَّب نفسَه وجرّبهم، فعلم انه لا يسلم معهم؟.

قال: فإذا عزم على ترك الكلام فيما يَكْرَهُ الله عز وجل، وقد جالسهم، وهو عازم من قبل، كعزمه هذا المستقبل فلم يسمل، فقد تعرَّض للفتنة على علم وتجربة، ويستحق من الله عز وجل ألا يعصمه، وقد تعرَّض للهلكة بعد علم وتجربة، ويستحق من الله عز وجل ذلك، وأعطى بيده بعد التجربة من نفسه لقلّة السلامة.

وإذا استقصى ذلك من نفسه، وقطع مجالستهم، حتى يجب عليه حقٌّ الله عز وجل او معاشٌ لا غناء به عنه علم الله عز وجل انه لولاهُ ما جالسهم، وكذلك زيارتُهم ما زارهم، كان الله اكرم من أن يخذله، وقد ترك مجالستهم للذة نفسه وراحتها، ولولا ربه عز وجل لم يجالسهم، ولم يأتهم، ولكن لما وجب عليه من حقه لم يُسلمه الله عز وجل إلى الهلكة، وقد آثر الله عز وجل على هوى نفسه.

قلت: فإن كانت مجالستهم على ذكر وخير، وقد يجري بين ذلك من الكلام ما يَكرهُ الله عز وجل.

قال: يترك مجالستهم وإتيانهم، إذا جرّب نفسه انه لا يسلم معهم، لأنه يقوم التطوع بالمعصية.

قلت: إنهم إخوان في الله عز وجل.

قال: هذا اسم قد يستعيره الكاذب في دعواه[1] على غير حقيقة.

إن أدنى من يستحق[2] الأخوة في الله عز وجل، بل المحبَّة فإنها دونها، من تسلمُ معه دون ان تغتم معه، ومن لا تسلـمُ معه فهو عدو لك في دينك، وإن سميته صديقاً وصاحباً وأخاً في الله عز وجل.

فكيف يكون صاحباً وأخاً في الله عز وجل من تتعرَّض بمجالسته ومحادثته. لغضب الله عز وجل؟ لأنك لا تسلم معه ان تتكلم بما يَكرهُ الله عز وجل، وقد سمعتَ حديث بلال بن الحارث، عن النبي ﷺ:

« إن الرجل ليتكلم بالكلمة، ما يرى أنها تبلغ من سخطِ الله ما بلغت، فيكتب الله بها عليه سخطه إلى يوم يلقاه »[3].

فمن أعدى لك ممن يُعَرِّضك بمحادثته لأن تتكلم بكلام يغضب الله عز وجل عليك منه؟

وحديث بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ انه قال:

« ويل للذي يحدث، فيكذب، ليضحك به القوم، ويل له، ويل له »[4].

وحديث قيس بن أبي حازم، عن ابن مسعود: « إن الرجل لَيتكلم بالكلمة في الرفاعية - قال: يعني في المجلس - ليضحك به القوم، فتُرْدِيه بُعْدَ ما بين السماء والأرض » أن يهوي بها في النار.

(١) في ط: الكاذب الدعوى.

(٢) في ط: ما يستحق.

(٣) اخرجه: الإمام احمد في مسنده، والترمذي والنسائي وابن ماجه والبيهقي في شعب الإيمان والحاكم في المستدرك عن بلال بن الحارث، وصححه السيوطي في الجامع الصغير ١/ ٨٠.

(٤) اخرجه: ابو داود في سننه، الباب ٨٠ من كتاب الأدب، والترمذي في سننه، الباب ١٠ من كتاب الزهد، والدارمي في مسنده، الباب ٦٦ من كتاب الاستئذان، واحمد بن جنبل في مسنده ٥/ ٣، ٥، ٦.

فمن اعدى لك ممن كان سَببُ هذا منه، وبه؟

وكذلك إن كان لا يرضى منك إلا بالتصنُّع، ولا تمتنع نفسك من ذلك، إذا كان لا يرضى منك إلا بتصنّع، وكذلك أن تغضب لغضبه، وتصارم من صارم[1]، جَارَ او عَدَلَ في صرمه وغضبه، وهذا يكون في الفرط، ولكن المحادثة اكثر ذلك.

فهذا عدو لك، لا أخ لك في الله عز وجل.

ألم تسمع إلى حديث محمد بن النصر الحارثي: إن الله عز وجل أوْحَى إلى موسى عليه السلام:

«يا موسى، كن يقظان[2] مرتاداً لنفسك اخداناً، فكل خدن لا يواتيك على مسَرَّتي فلا تصحبه، فإنه لك عدو، وهو يقسِّي عليك قلبَكَ».

فمن كان هكذا فهو لك عدو، وإن سميته اخا في الله وصاحباً، فوضعت عليه اسماً لا يستحقه، ويستحقُّ ضده، وهي العداوةُ.

وكيف يكون أخا في الله عز وجل، او صاحباً في الله عز وجل من يُعْصَى الله عز وجل به ومن أجله؟

فمن أشد لك ضرراً في دينك ممن كان سبب معصيتك به؟

ألم تسمع إلى حديث أبي موسى، عن النبي ﷺ: «مثل صاحب السوء كمثل صاحب الكيرِ، يعني الحداد، إن لم يحرقك بشرره يعبقْ بك من ريحه»[3]. وكذلك هو كما قال. إن لم تعصِ الله عز وجل معه لم تَعدم معه قسوة قلبك ولهوَه واشتغاله، فليس من كان لك هكذا بأخ، ولكن هو لك عدو، وهو أضرّ عليك في دينك ممن تعادي.

(١) في ط: تعادي من عادى، وهو بمعناه.

(٢) في ط: يقظاناً، خطأ، فهي ممنوعة من الصرف.

(٣) اخرجه: ابو داود في سننه، الباب ١٦ من كتاب الأدب. والبخاري في صحيحه، الباب ٣١ من كتاب الذبائح، والباب ٣٨ من كتاب البيوع، ومسلم في صحيحه، حديث ١٤٥ من كتاب البر. ولفظة: «مثل جليس السوء كمثل صاحب الكير...».

وإنما الناس أربعة رجال: رجل لا تعرفه او تعرفه ولا تصاحبه، ورجل مبتدع، ورجل فاسق، ورجل عندك مستور، وأنت له مصاحب.

فالمبتدع قلبك منه نافر، والفاسق كذلك، ولو دعواك إلى الحق لم تمل نفسك إليهما، فكيف تخوض معهما فيما لا يعنيك.

ومن لا تصاحبه ولا تعرفه فلست تحادثه، فلا تؤانسه، فهؤلاء كلهم لا تغتش بهم ولا يستريح قلبك إليهم، فتغفل بهم، حتى تتكلم بما يكره ربك عز وجل.

وإنما توتى من الصاحب الذي هو شكلك ومثلك وأنيسك فيستريح قلبك إليه، ويغفل معه، حتى تعصي الله عز وجل وأنت غافل لا تذكر الله عز وجل، أو تذكره ولا تبالي، لغلبة الهوى فيه وفي محادثته، وهو من مكائد إبليس وحبائله، يخيِّلك به حتى يوقعك في حبائله، لأنه شكلك وأنيسك ومثلك، وهو أرفق من الصياد الرفيق.

ألا ترى ان الصياد يحتال للغربان، فيصنع شباكاً، ليصيدها به من العصافير، ولا يحتال للعصافير بالغربان، فإنما يحتال فينصب لكل طير من صنفه وشكله، لأن الشكل بالشكل يألف، فعليه يقع، وبه يُصطاد، الم تسمع إلى كتاب أبي الدرداء إلى سلمان، رحمة الله عليهما:

«أما بعد، فإن يكن البدن من البدن بعيداً، فإن الروح من الروح قريب، وطير السماء على شكله من الأرض يقع».

وقد صدق رحمه الله، قد رأينا ذلك، فالصياد يحتال بالشكل للشكل من الطير، وكذلك عدوك إبليس، لما علم انك نافر من أهل البدع، ومن الفساق، ومن مؤانسة العوام، حرك قلبك بالدعاء إلى لقاء[1] الأشكال والإلف بهم، وحبِّ محادثتهم، فلما التقيتما على الحب والمؤانسة زال عن قلبك الحذر منه، كما يحذر من المبتدع

---

(١) في ط: إلى لقي الأشكال.

والفاسق، وأنس قلبك به، واستراح إليه، فركن ولَها بِقُربِهِ، فزين لك من القول ما يُزيلك به، حتى تشاركه فيه.

ثم الأصحاب عنده مختلفون، فإن علم إبليس انك حذر خائف في كثير من احوالك لم يبدأ صاحِبَك بالتزين له بالغيبة والكذب، إن علم أنك من ذلك نافر، وله مجانب، ولكن يدعكما، حتى إذا ذكرتما الله عز وجل، واستأنستْ قلوبُكما، زين لكما فضول الكلام، والراحةَ الى الدنيا، فإذا خُضتما في ذلك زين لكما الغيبة والكذب.

فإن كنتما من الخائفين في كثير من اموركما اجرى الغيبة من قبل الغضب لله عز وجل، او التعجب، او الإنكار، او التوجع لمن تغتابانه.

وإن كنتما لا تقومان في الخوف ذلك المقام، أجرى بينكما الغيبة من قِبل الغضب والغيظ والمكافأة لمن ذكركما، او ذكر أحدكما، والآخر راض بذلك، او [من قبل] الراحةِ إلى ذكر عيوب الناس.

وكذلك الكذبُ والاستهزاء، قد يزين لكما ذلك قبل ان يجري بينكما شيء من ذكر الله عز وجل على قدر ما عَرَف من ضعفكما.

وقد يُريد العدوُّ العبد [١] على ما يكره الله عز وجل فيأبى عليه، ولا تطيب نفسه ان يتكلم مع العوام بالخير دون الشر، فكيف بالشر؟!

فإذا عصاه زين له لقاء من يرجو ان يطيعه به [٢]، فإذا لقيه زين لأحدهما الكلام حتى يفاتحه الآخر، ثم يزين له الكلمة بعد الكلمة، فلعله يكون عامَّة نهاره أو بعضه ساكتا قد سلم، او متكلما فيما ينفعه من الذكر، او طلب معاشه بما يحلّ له، حتى يلقى من يزعم أنه اخوه في الله عز وجل، فإذا لقيه جرى بينهما من الكلام ما لعلهما لا يفترقان، حتى يُلعنا جميعا.

---

(١) اي: يغريه ويزين له.

(٢) اي: يطيع إبليس بالخوض في الشر.

فمن ثم قال عمر رضي الله عنه: «واحذر صديقك إلا الأمين من الأقوام ولا أمينَ إلا من خشي الله عز وجل. إذا غفلت نبّهك». فإذا لقيته ازددت سلامة، فإن كنت في لغو صرفك إلى ذكر، وإن كنت متكلما بما يكره الله عز وجل نهاك عن ذلك، ونبهك له، فإذا نبهك لما تعلم أنه لا يحل لك ندمتَ عليه وتبت منه، وما لم تَرَ انه مما يكره الله عز وجل لما أنت به جاهل، عرفته واستفدت منه علم ما لم تكن تعلم من ذنوبك، فتحذرها فيما يستقبل.

وكذلك قال الشعبي: «نصف عقلك مع أخيك»، وصدق رحمه الله، لأنه إذا نبّه عقلك بما كنت عنه غافلا كنت كأنَّ عقلك كان معه فردّه عليك، وكأن عقلك كله كان معه فردّه عليك في الوقت الواحد.

فأما في جميع احوالكما فكان نصف عقلك معه، لأنك قد تفطن لما يغفل اخوك عنه فتنبهه، وتغفل انت عنه فينبهك، فأنت تعبد الله عز وجل بعقلين إذا اجتمعا، وتعرف عيوب نفسك بعقلك وعقل أخيك.

فمن لم يخف الله عز وجل من الأصحاب وإن كان مصلّياً، او مدمناً للصيام، أو غازياً، او حاجا فهو عليك وبال، لأن صلاته وصيامه وغزوه وحجه وكثرة ذكره وزكاته له، وخوضك معه وخوضه معك مما يكره الله عز وجل عليك وبالٌ.

وإنما مثله: كمثل صاحب لك غني موسر، وأنت فقير محتاج، فكلما أتاك أكل طعامك ولم يُوَاسك بماله، فماله له، وضرره عليك، لأكله طعامَك. فكذا هذا: له صلاته وصيامه وغزوه وحجه. ووباله - بما يخرجك إليه من الخوض - عليك.

فإن كنت قد سلمت قبل ان تلقاه اخرجك إلى العطب في دينك عند لقائه، وإن كنت في خير استبدلت به شراً عند لقائه، ولعلك أيضاً تبدؤه قبل ان يبدأك بالخوض فيما لا يحل لك، لأنه موضع راحة قلبك، وأنس نفسك، أو لعلكما تفيضان في ذكر الله عزّ وجلّ وطاعته، او تتعاونان على بعضها على قدر قوتكما، وقد يطمع العدو فيكما، ثم لا تفترقان إلا عما كره الله عز وجل من الكلام، فلا يقوم ما تعاونتما عليه من البر بما تعاونتما عليه من الشر، لأنكما ضيَّعتما فرضا،

وتعاونتما على نافلة، وذلك هو الخسران المبين.

فكم من صاحب قد عصيتَ الله عز وجل معه وتصنّعت له قد مات وخذلك بتوحده في القبر عنك، وبقي ما عصيت الله عز وجل معه مكتوباً عليك. والكلام في الأصحاب يطول، وليس هذا بموضعه.

وسأصف لك إن شاء الله عز وجل صحبتهم في غير هذا، وإنما اردت بهذا لأنبهك لترك الأسباب التي ينقص بها عزمك، ويقلّ بها صبرك على الوفاء لله عز وجل بالتوبة إذا كنت ضعيفاً، وعرضت لك الأسباب المزيلة لك، المفتنة [التي] لم تلبث معها ان تزول، فإن قطعتها قويت على نفسك، لأن القويّ إذا تعرّض للأسباب المفتنة كان أضعف من الضعيف، إذ يتحرز من الأسباب المفتنة، والضعيف اقوى منه في الترك لما كره الله عز وجل إذا زالت منه الأسباب المزيلة له.

باب ما يستعان به على ترك لقاء الإخوان

الذين يتخوف من لقائهم قلة السلامة في الدين

قلت: فبِـمَ أستعين على ترك الأصحاب؟ فإنك لم تذكر شيئاً أعظم على القلب منه فتنة، ولا أغلب في الراحة.

قال: ان تكون معنياً بدينك، مشفقاً على بدنك من النار.

فإذا كنت كذلك فتذكر وتفكّر، فأحسن الفكر، وأنعم الروية بالبحث والتفكُّر، حتى تعلم كنه ما يُنقِصك لقاؤهم في دينك، فإن انت نظرت في ذلك بفراغ قلب، مع الإشفاق على بدنك من النار، وعلى دينك من النقصان، فعرفت كنه ذلك من كلام يحصى عليك، ولا تأمن فيه غضب الله عز وجل، فلو عرفت انك لا يكون منك من الكلام عند لقائك للأصحاب إلا كلمة مما يكره ربك عز وجل، ثم أشفقت على نفسك، ونظرت إليه وإليك بعين اليقين، وأنت فارّ منه في القيامة، مشغول عنه بما أنت فيه من الخطر العظيم، وقد تحملت أوزاراً كثيرة لم

تصبها إلا بصحبته، لم يكن شيء أبغضَ إليك من لقائه، وذلك إذا كنت مشفقاً خائفاً من الله عز وجل.

ولذلك مثل بيّن: ان لو كنتَ كلما لقيتَ إخوانك وأصحابك اخذوا من لحيتك شعرة، أو من ثوبك سلكا[1]، لقلّ لقاؤك لهم، ولأبغضتهم، وأبغضت لقاءهم، لأنك تعلم انه إن دام ذلك ذهبت لحيتك، وصرت مشوها، ينظر إليك العباد بالشَّين والقبح، وكذلك تعرى من ثيابك سريعاً.

فكذلك من كان مشفقاً على نفسه وعلى دينه، ثم عرف كُنْه ما ينقص بلقائهم في دينه أبغض لقاءهم، إلا لقاء الذين يَزيدونه في دينه وَرعاً وتحرزاً، فأولئك الإخوان في الله عز وجل، والإسم بالاخوة لهم حق وصدق، والاسم لغيرهم كذب وزور.

قلت: أرأيت إن عزمتُ على ترك كل من لا أسلَم معه في ديني، فلم تصبر نفسي، وجاشت على لقائه؟

قال: إن سخت نفسُك بتركه، ثم تحرّزت ممن لا تأمن منه، وتوقيت حتى يأتي عليك بعض النهار وأنت صامت عما كره ربك عز وجل، وقد فرح قلبك بالسلامة، إزددت زهداً في لقائه، ولم يكن شيء أبغض إليك من لقائه ورؤيته، إذا وجدت حلاوة السلامة ورجوت رضا الله عز وجل بها عنك.

فإذا احسست بمن تخاف ان يزيلك عنها ثقل عليك لقاؤه، فإن استعملت التحرز إذا انفردت من الأصحاب حتى تظفر بالسلامة، ويجد قلبُك حلاوتها، أبغضت لقاء من يزيلك عنها، لأن المريد الساهي راحته في الكلام، وغمه في السكوت، وذلك إذ كان الأغلب على قلبه حبَّ راحة المحادثة للناس، ولم يكن طلبُ السلامة أغلبَ على قلبه، فغَمَّه حينئذ في السكوت، ولذته وراحته في الكلام، فإذا اهتم بالسلامة وغلب على قلبه طلبتُها والاهتمامُ بها، ثم عمل فيها بعض نهاره

---

(١) في ط: سلكها، خطأ. والسلك يعني: الخيط.

حتى يسلم، ثقل عليه الحديث مع الأصحاب والإخوان إذا عرف أن في محادثتهم زواله عما قد منّ الله عز وجل عليه به من السلامة.

فإن رأى بعضَهم، فأفلتت منه كلمةٌ مما يكره الله عز وجل، ضاقت عليه الأرض برحبها، إذ كان قبل أن يلقاهم سليم القلب والبدن، يرجو رضا الله عز وجل مما صمت عنه مما يكره الله عز وجل خوفا منه، ثم تكلم بما يخاف ان يكون قد سخط الله عز وجل منه عليه، فتضيق عليه الأرض، ويلزم قلبه الغم، إذ زال عن السلامة إلى العطب.

فبينما هو يسكت عن كلمة من محادثتهم، فتكاد تضيق عليه الأرض برحبها، إذ صار ذلك إذا تكلم بالكلمة التي كان يغتم بالسكوت عنها.

وهذا ميراثُ الوَرَعِ وعادةُ التقي ومعونة الله عز وجل، ونصرهُ للمريدين، إذا كابدوا له أنفسهم، وجاهدوا له شهواتهم وأهواءهم.

قلت: فإذا عزمتُ على ترك مؤانستهم، لم أُعرَ من لقائهم، لمعاش في سوق، أو اجتماع في حلقه علم، أو جماعه في مسجد جامع أو غيره أو جنازة، أو حاجة تعرض لأحدهم إليّ، أو تعرض لي إليه، أو يأتيني زائراً، أو أطمع في أن يقبل مني، فيقطع من يَصْحب ويعزم على مثل ما عزمت عليه.

قال: إنك إذا عزمت على ترك مؤانسته، وتفردت بنفسك عنه، ثم لقيك فرآك نافراً منه، مشمئزاً من حديثه، استحيي وتحرز أن يؤانسك بما لا تحب، وزال عن قلبك السهو والغفلة به إذا ألزمت قلبك حذرَه فإذا عرف ذلك منك، أمسك نفسه عنك.

فإذا لقيته بغير هوى وشهوة محادثته، وإنما تلقاه لبعض هذه الأسباب أو لما يشبهها ثم ألزمت الحذَرَ قلَبك منه لعلمك أن العدو يصطادك به، وإن تكلم بشر أو بفضول قلت لنفسك: ما أعرَفنِي بمن دسه علي ليزيلني عن طاعة الله عز وجل، فاتخذته عبرة، فإن كان ممن يحتمل العظة نهيته في رفق، ونبهته لما يقول، فلعلك أيضاً تنفعه، فإن كان ممن لا يحتمل ذلك أو هو ممن يجادلك إذا نهيته، حتى

يخرجك إلى نقص في دينك، كرهت ما قال، وتحرزت إلا أن يقول محرّما، فتنهاه برفق، ولا تجادله إذا أراد ذلك منه، إلا أن يكون مريداً لطلب البيان فتبيّن له إن كنت تحسن ذلك، وإلا فاسكت عنه، فإن أخذ في الخوض ولم تقو على نهيه، ولم يمكن القيام عنه، فإن قدرت فاذكر الآخرة لعلك تصرفه عن ذلك فيكون لك أجرك وأجره.

كما يروى عن إبراهيم التيمي أنه قال: « إن الرجل ليأتي القوم وهم يخوضون في الباطل، فيصرهم إلى الذكر، فيكون له أجره وأجرهم ».

وإن بدأك بالخير قلت في نفسك: هذا خير، وما أدري ما يكون بعده؟ فأنت حَذِر، وإن بدأك بذكر الله عز وجل لطول ما جرّبت من الأصحاب ومن نفسك، فإذا كنت حذراً كنت متحرّزاً، وإذا كنت متحرّزاً فجرى في عقب الذكر خوضٌ فيما لا يعنيكما، فطنت له بالحذر اللازم لقلبك، فلم تخض معه، وإن لم يجر بينكما شيء كان حذرك زيادةً في خوفك لله عز وجل، وعملك عادتك لنفسك، فمنعك أن تزل في وقت آخر يجري أوله الذكر، ثم يجري عقيب الذكر أو في خلاله ما لا يعنيك، أو ما هو معصية لربك عز وجل.

وكذلك في أهل سوقك: تكلمهم في معاشك أو غير ذلك، وقلبك حذِر نافِرٌ منهم. وكذلك إذا زارك أحد منهم، أو أتيته لحاجة، أو أتاك لحاجة، أطلت معه الصمت، وتركت معه الكلام، حتى يجري ما هو لله عز وجل رضى، فإذا أفضت معه في ذلك لم يزايل قلبك الحذر، لطول ما جرّبت من نفسك.

وأما أن تأتيه لتعظه، فإنه لم يبن[1] لك ذلك بعد ما تشكو من ضعفك فأنت[2] كمن يتعلم السباحة، فكيف يخرج الغرقى من يتعلم السباحة.

فاشتغِلْ بنفسك، إلا أن تبتلي بلقائه فيجب عليك حق تقوم به لله، فتكون في سكوتك تخاف حينئذ عليه المقتَ من الله عز وجل إن سكت عنه، فتأمره وتنهاه، وتنبهه إن قبل، وإلا صمتّ عنه ولم تجادله.

---

(١) في ط: بيان لك.

(٢) في ط: أنت.

وكذلك بعض القَرَابات ممن تزورهم لله عز وجل ويزورونك، فلا تأتهم لراحة نفسك، واحذر إن كنت قد جرَّبت نفسك معهم بالخوض فيما يكره الله عز وجل.

وكذلك من معك في منزلك لا تشك به، وإلْفُكَ له يجعلك تسهو وتغفل، فتحادثهم بما لا يحل لك، فكن منهم حذِراً، وهذه أصعب الأسباب عليك، إذا كنت لا تقدر أن تجانبهم، ولكن احذر واذكر ما وصف ربك عز وجل عن أهل الجنة إذ قالوا حيث استقروا ورأوا عاقبة الإشفاق والوجل فقالوا: ﴿**إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ**﴾[1]. ووصف عدوه من أهل النار فقال جل من قائل: ﴿**إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُوراً**﴾[2].

فكن منهم مشفقاً حذِراً، واحذر أن يفتنوك عن دينك، وهم أصعب عليك في المؤانسة وفي الانكسار عليهم، فأحذرهم وأدّب من وجب عليه الحق منهم بالنهي عن الخوض فيما يكره الله عز وجل، حتى تقوم بأمر الله عز وجل فيهم إذا أمرك بأدبهم خاصة فقال: ﴿**قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً**﴾[3].

قال علي رضي الله عنه: أدبوهم وَعَلّمُوهم.

وقال مجاهد: أوصوهم بتقوى الله عز وجل.

وقال قتادة: مروهم بطاعة الله، وانهوهم عن معصية الله عز وجل.

وقال الضحاك: وأهليكم فليقوا أنفسهم.

ويكون لك مثل أجورهم، ويعرفوا مذهبك، ويمسكوا عما يفتنك، حين تسهو معهم، فتخوض معهم، فتفزع حينئذ من الخوض في الباطل، فترجع إلى الله عز وجل بالتوبة. ألا ترى ما مدح الله عز وجل به إسماعيل ﷺ في قوله: ﴿**وَكَانَ يأمُرُ أهلَهُ بالصَّلَاةِ وَالزكَاةِ**﴾[3]. وقال الله عز وجل لنبيه ﷺ: ﴿**وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ**﴾[4].

---

(١) سورة الطور، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الانشقاق، الآية: ١٤.

(٣) سورة التحريم، الآية: ٦.

(٤) سورة مريم، الآية: ٥٥.

(٥) سورة طه، الآية: ١٣٢.

وكذلك طلب العلم تطلبه مع من لا تسلم معه، وتجالس عليه من لا تسلم معه، فلا تطلبه إلا وحدك، أو مع من تسلم معه.

وأما المجالسة للاجتماع له في بعض ذلك فلا يجوز أن تتركه فتترك العلم، ولكن كن منهم حذراً، وأبدِلهم التحرز والاشمئزاز منهم. وإن وجب عليك حق فيهم فقم به، فإنهم لن يخلوا من منازل ثلاثة: إما أن ينتفعوا، أو ينتفع بعضهم فيكف عنك، أو يتصنّع لك فيمسك عنك، أو يستحي منك لعلمه باشتغالك بحديثه فيكفّ عنك، فتسلمَ في دينك، ويخلص لك طلب العلم بغير آفة ولا معصية تشوبه.

وكذلك الشريك في تجارتك أو صناعتك، والأجير لك، أو من أنت أجير له، أو معامل له، افْطمْ نفسك عن عادتها معه، وَافْطِمْهُ عن عادته معك، واحذر واحترز، ولا تستعن به على صلاح دنياك بفساد دينك.

فإن زللت في جميع ذلك فلا يمنعك ذلك من أن تبادر التوبة، فإنه لا غناء بك عن الرجوع والإنابة إلى ربك عز وجل، فإذا كان عزمُك قطع الأسباب من العباد وغيرهم، المزيلة لك إلى ما كره الله عز وجل فيما قمت به مما يجب لله عز وجل عليك فيهم، حمدت الله عز وجل على ذلك، فإذا زللت استغفرت الله عز وجل، وندمت وحذرت ذلك السبب، وتحرزت فيما يستقبل من تلك الزلة، وحَذّرت أمثالها، فخشيتُك إن شاء الله عز وجل مشكورة، إذا فعلتها رجاء الله عز وجل، وخوفاً منه، وذنبك مغفور إذا أتبعته بالتوبة، وصار لك عبرة وتحذيراً فيما تستقبل منه ومن أمثاله.

فلم تلبث ـ إن صدقت الله عز وجل ـ إلا قليلا حتى يُقْبلَ الله عز وجل عليك بمعونته، ويرحم منك مكابدتك ومجاهدتك نفسك له، وتأيس نفسك منك، وَتَأيَسُ ممن كان يفتنك ويزيلك، وتقوى على طاعة ربك عز وجل.

فافعل في هذه الأسباب كما وصفتُ لك، وكل سبب يُزيلك ويفتنك، فإن ذِكْرَ كل الأسباب يطول به الكتاب، والعاقل يجتزىء بالوحي دون التصريح وإنما قطعُك الأسباب التي تزيلك، وإمساكُ جوارحك عما يكره ربك عز وجل حِمْيَةٌ

تحتمي بها أن ترتع [فيها] فتهلك كما يحتمي أهل الدنيا فيتركون ملاذّهم رجاء العافية وخوف طول البلاء.

فمثلك في حميتك لربك: كمثل ملك من ملوك أهل الدنيا، أمكنته الأشياء من الشهوات واللذات، فرتع فيما يحب من الأشياء، وأحاطت به الأدواء، مع سقم من بدنه وضنًى، فإن رتع فيما يقدر عليك هلك، وإن احتمي عاش وَنُهِك، فقد آخى الأطباء، وحارف الصيادلة، وتجشم شرب الأدوية المرَّة، وجانب الأطعمة الطيِّبة، فبدنه يزداد نهوكاً لقلة طعمه، وسقمه، كل يوم يقل وصحته تزيد، وإنما اختار الاحتماء، وإن أنهك بدنه على أطايب اللذات خوفاً أن يرتفع فيهلِك، ورجاء أن يؤدِّيه الاحتماءُ إلى العافية، فينال اللذاتِ بجسم صحيح. وعافية لازمة، فتطيب حياته بغير سقم، ويصفو عيشه فلا يكدر.

فكذلك المؤمن المريد التقي، احتمى عن كل مهلك من الدنيا في آخرته، فتبيّن عليه النحول، والتقشف، والوحشة، وزوال الأنس بالعباد، وظهور الأحزان، وزوال الأفراح، فاختار ذلك كله كراهية الرتوع في لذاته، فيحل به غضب ربه عز وجل، ويجب عليه عذابه، ورجاء أن يرضى الله عز وجل بذلك عنه، فينجو من عذابه، ويحل في جواره، فيصيب اللذات في الجنان بغير سقم ولا تنغيص، ولا تبعة في ذلك يخاف فيه الهلكة مع البقاء الدائم فيه أبداً، ورضوان ربه الأعلى.

فالزم الحمية، وتذكر سوء العاقبة في الآخرة، وأمِّل طيب عيش الآخرة، واستعن بالذي يحتمي له لطلب مرضاته، فإنه الله عز وجل، الذي لم يزل للمريدين عوناً، وعليهم متحنناً.

ولو شاء لأغناك في أول بدايتك عن الحمية، ولكنه أراد أن يعلم منك صدق الطلب لرضائه، بالمجاهدة والمكابدة، حتى إذا صدقت في الطلب، وتجشمت[1] مكابدة نفسك ومجاهدتها[2]، أقبل عليك بالمعونة فسهل عليك ترك ما تهوى،

(١) أي: تحملت.

(٢) في ط: مجاهدتها.

ونعّمك بطاعته، لأنه الكريم بغير تكلف، والجواد الذي لا يعتريه البخل، وإنما أحب من عبده المريد أن يصدق في طلب مرضاته، فيكابد له نفسه، ويجاهد له هواه، فعند ذلك يخفف الله عز وجل عنه المحن، ويميت منه الهوى، ويلي سياسته وتقويمه حين يراه[1] جاداً في طلب مرضاته عز وجل.

ولو أن عبداً من عبيد أهل الدنيا أقبل إلى مولاه وهو ضعيف في بدنه، فأقبل إلى مولاه بضعفه، يقع مرة في مشيته ويقوم أخرى، فكان ذلك منه مراراً، فنظر إليه مولاه مقبلا إليه، مكبًّا يكبو لوجهه لضعفه، ثم يقوم فلا يمنعه وقوعه من الإقبال إليه لطلب القربة منه ومرضاته، فرآه يصيبه ذلك في الإقبال إليه مراراً، وعنده دواب كثيرة، ثم كان له أدنى كرم أو رحمة، لما ودعه كرمه ولا رحمته، إلا أن يرسل إليه بدابة يأتيه عليها مستريحاً من الوقوع، ويسرع عليها إلى لقائه.

فالله عز وجل أولى بذلك إذا رأى عبده المريد مجاهداً لنفسه، يزل ثم لا يمنعه ذلك أن يعود إلى طلب مرضاته، يجاهد من نفسه مغتما بزواله أعظم من غم الساقط على وجهه.

فإذا رآه كذلك خفف عليه طلب مرضاته، وأسرع به إلى معالي درجات القرب منه، جل من لا يشبهه أحد في جوده وكرمه، ورأفته ورحمته، وتحنّنه ولطفه.

---

(١) في ط: حين رآه.

كتاب التنبيه على معرفة النفس
وسوء أفعالها، ودعائها إلى هواها

باب التحذير من هوى النفس

قلت: قد وصفتَ لي الرياء وأسبابه فمن أين أتيت[1]؟

قال: من نفسك، من قبل هواها.

قلت: وكيف أتيت من قبل نفسي، ولي عدو يكيدني، ويزيّن لي، ودنيا تفتنني؟

قال: فإنه لن ينال منك عدوّك ما يريد إلا من قبل هوى نفسك، ولولا ذلك لكنت قد ازددت بدعاء عدوك قربةً إلى ربك، إذ كان سبب القربة دعاؤه، لأنه حين دعاك عدوك فأبيت أن تجيبه، كنتَ بامتناعك مطيعاً حين عصيت من دعاك إلى ما لا يحب ربك عز وجل، وكان اعتصامك منه خوفاً من الله عز وجل، ورجاءَ ثوابه، فامتنعت واستعملت الخوف والرجاء حيث أمرت، ولو لم تكن تركن نفسك إلى الدنيا لازددت بزينتها قربة، إذاً امتحنتَ بالدنيا وغرورها، فلم تركن إلى غرورها، وأردت الآخرة ورغبت فيها، وامتنعت أن تَرْتَعَ في الدنيا أو تميل إليها، فتحرم الآخرة، أو تنقص منها، فأطعت (الله تعالى)[2] فيما امتحنت به، فكان سببُ ذلك الدنيا، إذ يقول الله عز وجل:

---

(١) في ط: أوتيت، وهكذا في مثلها من الباب.

(٢) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[1].

يخبرك أنه يريد حسن العمل في الزينة، وإنما خلق زينة الأرض لينظر من الذي يحسن له العمل فيها.

وإنَّ أحسن العمل فيها الزهد فيها، وإيثارُك الآخرة عليها، فإن فاتك ذلك فاترك كل زينة عليها توجب سخط الرب جل وعز، وذلك الورع الواجب عليك لله عز وجل.

ولم يضرك أحد من أهل الدنيا يدعوك إلى ضلالة وخطأ إن لم تجبه نفسك، بل تؤجر إذا امتنعت وأبيت واستعصمت لقول الله عز وجل، ورسوله ﷺ.

وكذلك من عاداك وآذاك واغتالك، وكادك إن لم تعص الله عز وجل فيه، ولم تكافئه فتكون مثله لم يضرك، بل عرّضك للمنفعة، وأهلك نفسه، إلا عدوًّا أمرت بمجاهدته وهم الكفار[2]، فذلك الذي ينفعك مجاهدته.

وعلى أي الحالين فإنك الرابح الفائز، إما أن تَغلب أو تُقتل، فالغلبة منك فيها أجر عظيم، والقتل شهادة، لقول الله عز وجل:

﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْـحُسْنَيَيْنِ﴾[3].

فوسيلة كل عدو ضرك بمكيدته نفسك من قبل هواها.

قلت: فقد ثبت عندي أن سبب كل محذور أخافه عليَّ نفسي من قبل الهوى، فَدَلَّني ذلك أن في مخالفتها طاعةَ الله عز وجل، وفي طاعة الله عز وجل صِدقه والقيام لمحبته، فاشرح لي ذلك وعرفنيها.

قال: لا تصدُق الله حتى تصدُقَ نفسك، ولا تصدقُ نفسَك حتى تعرفها،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٧.

(٢) في ط: الكفارة، خطأ.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٥٢.

ولا تعرفها حتى تفتشها، وتعرضها على الموت والعرض على الله عز وجل، فتعترض أحوالها، ولا تعترض أحوالها حتى تتهمها فيما تظنها محسنة فيه، وتحكم عليها فيما ظهر من إساءتها.

فإذا اتهمتها فتشتها[1]، فإذا فتشتها اعترضت أحوالها، وإذا اعترضت أحوالها عرفت تصنُّعها وخدعها وكذبها.

فإذا عرفتها حَذِرْتَهَا، فإذا حذرتها تفقدتها، فإذا تفقدتها أبصرت رَوغانها من طاعة ربها عز وجل، وتزينها بما لا يحب خالقها، لأنها معدن كل سوء، والدعاية إلى كل بلية، أخبرك عنها خالقها عز وجل أنه بالسوء أمارة، وللهوى المرْدِي متَّبِعة، فخذ منها حذرك، واتهمها على دينك؟

باب بم يعرف سوء رغبة النفس

قلت: فدلني على ما أعرف به بعض عيوبها، حتى يَلزم قلبي تهمتها فأفتشها وأعرفها.

قال: ألست ترى ان العزم منها في حال الرضا مبذول على الحلم، سخية غير ممتنعة؟

قلت: بلى.

قال: فكل خلق من كافر أو من مؤمن يحلَم عند الرضا، فإذا غضبَتْ فطلبْتَ منها الحلم، امتنعت منه فظهر منها من السفه والحقد وسوء الخلق، ما لو يظهر من بعض الولدان لكان قبيحاً.

قلت: بلى:

---

(١) يريد بالتفتيش المحاسبة، وقد تخصص المؤلف وبـذ العلماء جميعا في محاسبة النفس حتى سمي بالمحاسبي لذلك، انظر ما كتبه عن المحاسبة في بابها من «آداب النفوس» ومن كتاب «المراقبة» مصور بالجامعة العربية. وفيما نقله عنه أبو نعيم الأصفهاني في ترجمته في الجزء العاشر من حلية الأولياء.

قال: فمن بذل الشيء حيث لا يحتاج إليه، ومنعه عند الحاجة، أليس مخادعاً وليس بصادق؟ يخذلك عند الحاجة ويعدك في الغنى[1] أنه يغنيك، فإذا احتجت إليه أسلمك للهلكة، لأنها وعدتك ان تحلم عند الغضب، فتستوجب بذلك الجنة، وتعتصم من أن تمضي غضبك بما يكره ربك عز وجَلَّ، خوفاً ان تجب لك النار.

فلما احتجت إليها اسلمتك إلى التعرض لوجوب العذاب، وأعانتك عليه وشجعتك فيه، وثقّلت عليك التعرض للنجاة، فمن أعدى لك ممن فعل ذلك بك؟ ومن اكذب وافجر ممن فعل ذلك بك؟

وكذلك الإخلاص، تعطيك قبل العمل، وليس الإخلاص إلا نية الإخلاص ان يخلص عند العمل إشفاقاً - زعمَتْ - على العمل أن يحبط في يوم فقرك وفاقتك إليه، تعطيك ذلك سخية غير ممتنعة.

فإذا عرض العمل هاجت هي بالدعاء إلى الدخول فيما وعدت ان تفرّ منه، وامتنعت مما وعدت ان تقوم به، وهاجت الشهوة بالرياء، وامتنعت من الإخلاص، وامتنعت مما يُقْبَلُ به عملك، ودعتك إلى ما يحبط به عملك في يوم فقرك وفاقتك.

أرأيت لو أنها وعدتك عند العمل، والامتناع من الإخلاص عند العمل، فأخبرتك انها تريد بذلك حبط عملك، حيث تحتاج إليه في يوم فقرك وفاقتك، ألم تكن قد أنجزتْ ما وَعدتك؟

وكذلك تعطيك الورع في حال العدم، وإنما ذلك نية الورع فتزعم أنها تدع ما يكره عز وجل حين تعرض للبلاء، خوفاً ان يغضب الله عليك، فتستوجب العذاب وتحرم الثواب، وأنها تمتنع من المعصية ترجو بذلك الأمان من العذاب، والظفر بالفوز والثواب.

حتى إذا قدرت وامتحنت، جاشت لشهوتها، فطلبت ما زعمت انها تدعه إذا

---

(١) في ط: الغناء.

عرض لها إشفاقاً عليك من النار وحرمان الثواب، وامتنعت مما زعمت انها تقوم به من الورع، رجاء الأمن من العذاب والظفر بالفوز والثواب.

فهل يقدر أعدى الأعداء لك إلا ان يعطيك من الأمن ما تغتر به[1]، لتسكن فتطمئن ولا تحذره، وتأمنه حتى إذا عرض ما وعدك ان يعطيك كان هو الذي يطلب هلاكك وعطبك، لينال ما يريد ويشتهي؟

وكذلك الزهد، تعطيك قبل المِلْك، حتى يخيل إليك أنك من الزاهدين حتى إذا ملكت الدنيا او القليل منها هاجت منها الرغبة، وكانت هي المطالبة والمنازعة إلى الرغبة، والصادّة عن الزهد، والمثبطة عنه، فأخلفتك الموعد، وكانت عليك في خلاف ما أعطتك.

وكذلك الرضا، في حال الرخاء والعافية، قبل وقوع القضاء بالبلاء والمصائب، حتى يخيل إليك أنك من الراضين.

وتلك حال يرضى بها كل مؤمن وفاجر؛ لأنها حال توافق محبة النفوس، وليس عنده هذه الحالة أُرِيدَ منها الرضا، وإنما ذلك العزم منها نية أن ترضى[2]، لا رضاء، لأن الرضا بعد القضاء بنزول البلاء والمصائب.

فإذا نزلت مصيبة أو بلاء في بدنه، او ضيق في معاشه من شدة من شدائد الدنيا، امتنعت من الرضا بل كانت هي التي تهيج للجزع والتسخط وتثبط عن الرضا وتصد عنه، فلم تف بما وعدت، وكانت هي التي تدعو إلى ما يكره الله عز وجل من السخط، وتصد عن الرضا.

وكذلك تعطيك التوكل والثقة بالله عز وجل ما واتتها الأسباب والدنيا، وكُفِيت المؤنة. فإذا جاءت حال يحتاج فيها إلى النظر إلى الله عز وجل لا إلى خلقه

---

(١) في ط: تعتز به.

(٢) يعني: إذا كان الإنسان معافى من البلاء فخطر له الرضا عند نزوله مستقبلا فليس ذلك رضى في الحقيقة، وإنما هو عزم ونية على الرضى، قد يتحقق وقد لا يتحقق.

والأسباب التي دون الله عز وجل[1] تعلقت بالأطماع، وهاج رجاء المخلوقين وخوفهم، ولزم القلب الاهتمام بالأسباب، وظهر التصنع والتملق للخلق.

فغدت بك النفس حين احتجت إليها وكانت هي التي تصد عن التوكل على الله وتثبط عنه.

فإن ايقظك الله عز وجل لها ولمجاهدتها وذكرتها موعدها وما تحملك عليه من نقض موعدها، وخلف عزمها جاهدتك وامتنعت.

فإن حملت عليها بذكر الوعيد والوعد[2]، وذكرتها نظر الله عز وجل وقيامه عليها وسؤاله غداً لها فتذكرت بعقلك استبان فيه اليقين، وعظمت فيه المعرفة، واشتدت فيه البصيرة، فقهر ذلك هواها وغريزتها، خلاف ما انقادت له.

فلما رأتك قد حلت بينها وبين الشرّ الظاهر والباطن، طلبتْ الشر الخفي الغامض، وانتشرت عليك بطلب الرياء لتتصنع به، والعجب لتستريح إليه، والكبر لتعظم به وتفتخر به، تريد ان تنال لذتها فيما أجيبت إليه كأنها لا تريد ان تصل إلى خير من عمل الآخرة.

فإن صرت إليه جهدت في أن تحبطه ـ وما ذاك بها ـ ولكنها تحوم على ان تنال لذتها، لا تبالي فيما نالت كائنا ما كان غير مكترثة.

فإن حملت عليها، وتفقدت دقائق منازعتها، ولطائف خدعها، فكرهت ذلك، وذكرت ما قدم الله عز وجل إليك فيه، وما توعدك به على قبول ذلك والركون إليه من الحبط، والتعرض للمقت، فغلب على قلبك الخوف والحذر، انقادت وهي كارهة، ثم لا ترضى مع إعطاء هذا العزم، ثم الغدر بها ان تفي بها والمعاونة على

---

(١) وذلك لأن حقيقة التوكل هي: الأخذ بالسبب بحكم الشريعة، وتعليق الثقة والنظر والقلب بالمسبب سبحانه بحكم الحقيقة، لأنه مالك السبب، والقادر على إبطال عمله.

وكثير من الناس إذا لم يف السبب لهم بالكفاية اخطأوا الطريق، فازدادوا تشبثاً بالأسباب، وهذا هو موضع الفتنة.

(٢) في ز: الوعد والوعيد.

الشر، حتى تدعو إلى الله عز وجل، وتتكلم بكلام الخائفين، وتقول بقول المؤمنين، وتظهر تقشف المتواضعين، وتنعت آفات الدين، من الغيبة والكذب والرياء والكبر والحسد والاغترار.

فكنت مغتراً منها بذلك: تظن انها كذلك لما ظهر منها، حتى لما وقعت المحن، ونزلت النوازل التي تحتاج فيها إلى تحقيق ما تقول، وتصديق ما تدعي، ومعنى ما تظهر، قلبت ذلك كله وأرادت خلافه.

وقد كانت[1] تخيل إليك ان الخوف له أصل في قلبك، والصدق والإخلاص والتواضع والزهد والتوكّل والرضا، فلما جاءت الأحوال التي يتبيَّنُ فيها هل صدقت فيما ظننتَ انه قد سكن قلبك من الخوف والإخلاص والزهد والرضى والتوكل والصدق، هاج الهوى منها، وجاشت الشهوات في ضدّ ذلك كله.

فلو كان ذلك ساكناً قلبك، لهاج في وقت الحاجة إليه، ولما هاج ضده، فإن هاج ضده قمعه، فعلمتَ ان ذلك إعطاء جملة بلا مؤنة، مع دعوى غير محققة.

أرأيت لو قال لك عدّة من الخلق: إنا معك إذا نزلت بك نازلة او شديدة، فلما نزلت بك النازلة خذلوك، وطلبتهم فلم تجدهم، علمت انهم ليسوا معك، ولكنهم غرُّوك.

فبينا انت متعجّب من خذلانهم وقلّة وفائهم، إذ وثبوا هم عليك، يعينون عليك عدوك، لطال منهم تعجُّبك، واشتد منهم حذرك فيما يستقبل، ولم تطمئن إلى موعد وعدوك به.

وإن سمعتهم الثانية يذكرن نصرتك عند الشدائد مقّتهم، لما عرفت منهم.

فاعرف نفسك، فإنك لم ترد خيراً قط - مهما قل - إلا وهي تنازعك إلى خلافه ولا عرض لك شر - مهما قل -[2]، إلا كانت هي الداعية إليه، ولا

---

(١) في ط: وقد كان.

(٢) في ط: إلا أقله، ولا معنى له

ضيَّعت خيراً قط إلا لهواها، ولا ركبت مكروها قط إلا لمحبتها.

فحق عليك حذرها لأنها لا تفتر عن الراحة إلى الدنيا والغفلة عن الآخرة، فإن تيقظت للآخرة، وتذكّرتها وتفكرت فيها، نازعتك إلى الدنيا وإلى الراحة بالتذكُّر والفكر فيها، والتمني لها.

فما تمت لك قط ركعتان لم تنظر فيهما في شيء من امر الدنيا مما يشغلك عما أنت فيه، ولا تـمَّت لك ساعة من أجزاء النهار بالفكر في الآخرة، لمجاذبتها إياك عن ذلك، ومنازعتها إلى الدنيا.

فإن غفلت عنها ركنت واشتغلت، وإن تيقظت نازعتك لتشغلك عما أنت فيه من أمر آخرتك، فهواها قاهر لعقلك، يغفل عقلك وهي لا تغفل، ويذكر عقلك وهي تنازعك الا يذكر، فلا يحلّ لك قتلها، ولا تقدر على مفارقتها، وهي بهذه المنزلة من العداوة لك.

فاعرفها واحذرها، فإنك إن عرفتها ازددت منها حذراً [1]، وعلى ربك توكلا، وبه ثقة، وإليه طمأنينة، ولها بغضاً ومقتاً، ولربك عز وجل مودة وحباً، ومنها إياسا وقنوطاً، ولربك عز وجل رجاء وأملا، ولله عز وجل بالنعمة والمنّة والتفضل بما عملت، اعترافاً وإقراراً وشكراً، وأنها منه بريئة.

لأنك لو صحبت صاحبين: احدهما لا يحل لك قتله فلا تقدر على مفارقته، كالوالدة او الوالد، وله نهمة ان يصيب لذته ويُروّح بدنه وإن اعطيت في ذلك، فبينما انت معه إذ غفلت، فجاء بصخرة ليرضخ بها رأسك، فأيقظك الآخر الذي معك، وأمسك بيده حتى قمت إليه فأخذت الصخرة من يده ثم ألقيتها.

وكذلك لو صُنع طعام فيه سم فنبهك الآخر له حتى عرفته، لازددت له بغضاً ومقتاً، وللذي نبهك وفطّنك له مودة وحباً، وللذي أراد بك القتل حذراً، وعلى الذي نبهك توكلا، وبه ثقة، وانقطع رجاؤك ممن أراد ان يكيدك، واشتد املك

---

(١) في ط: جذرا، خطأ.

ورجاؤك للذي ايقظك ونبهك، وانقطع عنك العجب لفطنتك به، وتخلصك من شرّه، وأقررت بالنعمة والتفضُّل للذي نبهك وأيقظك، حتى امتنعت من مكائد عدوك الذي أراد ان يكيدك.

فالعدو الذي اراد مكيدتك نفسك، والذي أيقظك ونبهك ربك عز وجل، فكم من بلاء أرادته[1] بك ونازعتك إليه، وهممت به أو فعلته، فنبهك الله عز وجل عليه، فتركته ولم تركبه، وما ركبت منه ندمت عليه وتبت إليه.

فإن عرفتها ازددت لله عز وجل حباً ومودة، ولها بغضاً ومقتا، وعلى الله عز وجل توكلا وثقة، ومنها إياساً، وإلى الله عز وجل طمأنينة، ومنها حذراً ووجلا، ولم تعجب بما عملته، ولم تضفه إلى نفسك إذا كانت محبتها في خلاف ما عملت من الخير، ومحبتها فيما تركت من الشر، ولو تركت إلى محبتها صارت إليها.

فالذي أيقظك وأعانك على خلاف محبتها غيرها، وهو الله عز وجل، فاعرفه عز وجل واعرفها، فإنك إن عرفتها صَدَقْتها، وإن صدقتها ولم تداهنها ولم تمل مع هواها، صَدَقتَ الله عز وجل واتقيته، وأنبتَ إليه ووثقت به.

فاتهمها فيما خف[2] عليها من الخير من غير ان ينقطع منك الرجاء، فيدخلك الإياس والقنوط، ولكن اتهم وفتش، وإن لم تعلم شيئاً فاحمد الله عز وجل، وكن وجلا ان يكون قد كان منها ما يكره الله عز وجل، فلم تذكره لغلبة هواها، وأحصاه مليكها عليها، مع الأمل في الله عز وجل ان يقبل منك ما عملت.

وإن كان منك امر مما يكره فيما عملت رجوت العفو عنه، ولم تترك الوجل والإشفاق من الا يعفو عنك، وترجو بذلك الوجل العفو عنك والصفح، لأن من خاف الا يعفى عنه بصدق منه عُفي عنه، ومن امن واغترّ استوجب ان لا يعفى عنه.

---

(١) في المطبوعة: إرادته خطأ.

(٢) في المطبوعة: فاتهم ما خف.

فاحذرها وفتشها وخاصمها، كما يخاصم الخصم الظلوم الخائن الموارب، البليغ في حُجته المزخرف القولَ بالباطل[1] بشدّة بيانه، حتى تقيم عليه البينات العادلة، وتفتشه حتى اذا قامت عليه البينة، او فتش فأصيب معه السرقة انقطعت حجته، وأذعن وأقر.

فإن أبى ان يؤدي الحق الذي اعترف به، أو قامت عليه البينة، رفعته إلى موضع الحكم، فحكم عليه بالحبس والضرب، فإذا نظر إلى ذلك وعلم انه يمتنع ان يُعطي اقل مما ينال منه، وأن يؤخذ منه أكثر مما يمتنع منه، أعطى الحق وَرد الظلم.

وكذلك فخاصمها بالكتاب والسنة، وأقم عليها الحجة، وفتش [2] عن عيوبها، وذكرها خبثها وكذبها، حتى إذا اذعنت بالإقرار والاعتراف بالحق، وانقطعت معاذيرُها ومواربتها وحججُها الكاذبة.

فإن انقادت إلى الحق، وإلا فارفع وهمها إلى النار، وهي السجن والعذاب، فتوهم شدة عذابها وأنه واجب عليها، فإذا رأته ببصر العقـل، وعين اليقين، وهاج منها الخوف، لم تتمالك بالإذعان والندم والعزم، وانقادت إلى الحق، لما عاينت وعلمت انه يؤخذ منها اكثر مما تنال.

ثم احذرها أيضاً بعد ذلك ان تنازع إلى ما تركت فتردك غادراً، فإن نازعتك فأقم عليها الحجة وأرها العذاب، ورجّها بالترك الثواب، وأرها إياه بمشاهدة اليقين، واستعن بالله عز وجل عليها، وتوكل عليه ثقة به، وأحسن به الظن، وايأس منها ان يكون منها خير إن وكلك الله عز وجل إليها.

فتوكل عليه، ومنها فلينقطع رجاؤك وأملك.

---

(١) في المطبوعة: الباطل.
(٢) في ط: فتشها عن عيوبها.

كتاب العجب

باب ما يؤدي إليه معرفة النفس
وشرح العجب والإدلال بالعمل

قلت: قد عرفتني نفسي وحذرتُها، فأخبرني ما الذي يؤدي إليه معرفتها بعد وصفك الرياء وأسبابه، ولم يكن بي عنه غنى، وإن عرفتها فما ينفعني ان اعرف عدوي لا أعرف مكائده، ولا يكون معي آلة لمجاهدته، فأخبرني بالعجب ما هو، وفيما هو، وفيما ينفي ويتقي؟

قال: إنك سألت عن آفة في كثير من العباد عظيمة، معمية عليهم ذنوبهم[١]، ومزينة لهم خطأهم وزللهم، لأن العجب يعمي القلب، حتى يرى المعجب انه محسن وهو مسيء، وانه ناج وهو هالك، وأنه مصيب وهو مخطىء.

ولا يلبث صاحبه المعتقد له ان يركن إلى الغرّة، فيستصغر ما علم به من ذنوبه وزلله، وينسى كثيراً منها، ويعمى عليه اكثرها، حتى لا يظنه ذنباً، فيستكثر عمله، فيغترّ به، فيقل خوفه، وتشتد بالله عز وجل غرته، بل قد يخرج صاحبه به إلى الكذب على الله عز وجل، وهو يرى انه عليه صادق، وإلى الضلالة وهو يرى أنه مهتدٍ.

فبالعجب هلك أئمة الضلالة، وبالعجب تكبّر المتكبّرون، وافتخر المفتخرون، واختال المختالون، وبه هلاك آخر هذه الأمة.

---

(١) في ط: معمية لذنوبهم.

ومما يدلك على ذلك قول النبي ﷺ ـ وذكر آخر هذه الأمة ـ فقال لأبي ثعلبة: «إذا رأيت شُحًّا مطاعاً، وهوى متبعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك»[١].

وقال أبو الدرداء: «ثلاث منجيات، وثلاث مهلكات، فأما المهلكات: فهوىً متبع، وشحٌّ مطاع، وإعجاب المرء بنفسه».

وروي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجاب المرء بنفسه»[١].

وقال عمر رضي الله عنه مثل ذلك، فدلوا بذلك أن فيه الهلاك.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «الهلاك في اثنين: القنوط، والعجب».

وصدق رحمه الله، فإن الإنسان إذا أعجب لم يفطن لذنوبه، وما فطن له[٢] من ذنوبه استصغره، وما لم يفطن له لم ير أنه ينبغي أن يتوب منه، وما استصغره لم يفزعه فيقلع عنه، فيقيم على ذنوبه فيهلك.

وإذا عرف كثرة ذنوبه واستعظمها ثم قنط لم ير أنه يقبل منه التوبة، فأقام عليها، فأمسك عن العمل لله عز وجل بالطاعة فيهلك.

فدلّ ابن مسعود بقوله هذا أن في العجب الهلاك، لأنه إذا أعجب زكّى نفسه، فإذا زكاها لم يتهمها، ولم تعظم عليه مخالفتها أمر ربها، وظن أنها ناجية.

ألا ترى إلى قول الله عز وجل: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ﴾[٣]. قيل في التفسير: لا تبرئوها، فكيف يتهمها وهي عنده بريئة، فإذا لم يتهمها كيف يفطن لعيوبها؟.

---

(١) أخرجه: ابن المبارك في زوائد الزهد. والقضاعي في الشهاب، والبيهقي في الشعب، والنسائي في سننه. وصححه السيوطي. وأخرجه البزار والطبراني في الصغير.

(٢) في ط: فلن به.

(٣) سورة النجم، الآية: ٣٢.

وقوله جل ثناؤه: ﴿فلا تزكُّوا أنفسكم﴾ قال زيد بن أسلم: لا تبرئوها. وقال ابن جريج: يقول: لا تعملوا بالمعاصي وتقولوا: نعمل بالطاعة. وقال مطرّف: لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً، أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح متعجباً.

فيجمع العجب خصالا شتى: يعمي عليه كثير من ذنوبه، وينسى مما لم يعم عليه منها أكثرها، وما ذكر منها كان له مستصغراً، وتعمى عليه أخطاؤه، وقوله بغير الحق، ويخرجه ذلك إلى الكبر والتعظيم على العباد، ويغتر بالله عز وجل، وَيُدِلّ عليه بعمله وعلمه، حتى كأن له منَّة على ربه عز وجل.

فحينئذ ينقطع عن الله عز وجل عصمته، وَيَكِلهُ إلى نفسه. فيرى أنه من المحسنين، وهو عند الله من الظالمين الفاسقين.

ألا ترى إلى ما يروى عن عائشة رضي الله عنها أنه قيل لها: متى يكون الرجل مسيئاً؟ قالت: «إذا ظن أنه محسن».

وصدقت رضي الله عنها، إنما يرى أنه محسن إذا أعجب بعمله.

ويخرجه العجب إلى المن بمعروفه وصدقته (وجميع أعماله)[1]، لأنه عُظم عنده ما تصدق به أو تفضل به، وينسى منَّة الله عز وجل عليه، وأنه مضيّع لشكره على ذلك، فمنَّ بما اصطنع من معروفه، فحبط أجره، كما قال الله عز وجل: ﴿لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾[2] ويستوجب عذاب ربه جل وعز.

قال النبي ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله عز وجل يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أحدهم المنان»[3].

---

(١) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٦٤.

(٣) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٤٨ من كتاب الأحكام، والباب ٣٤ من كتاب التوحيد. ومسلم في صحيحه، الحديث ١٧١، ١٧٤ من كتاب الإيمان. وأبو داود في سننه، الباب ٦٠ من كتاب البيوع، والباب ٢٥ من كتاب اللباس، والنسائي في سننه، الباب ٥، ٦ من كتاب البيوع.

فاعقل ما سألت عنه، وافهم إجابتي إياك وقدّم لله عز وجل العزم في تركه بعد معرفته، لعل الله عز وجل أن ينفعك بإجابتي لك عنه.

باب العجب بالدين

واعلم أن العجب بالدين بوجوه أربعة: بالعمل، والعلم، والرأي الصواب، والرأي الخطأ.

فالعلم ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة.

وأما الرأي الصواب فما استنبط قياساً على الكتاب والسنة والإجماع، مشبهاً بها حكمةً مثل حكمةٍ[1].

وأما الرأي الخطأ فما كان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة، وإنما هو تأويل بغير الحق، وانتحال له على سبيل الجهل، من قبل هوى النفس، مع اعتراض من الظن أنه حق[2].

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأي الصواب فمعنى واحد، لأنه كله منة من الله عز وجل ونعمة منه، وله أوّلٌ يكون عنه، وقد ينفرد أوله فلا يكون عجباً.

فأما أوله الذي يكون عنه العجب: فالاستكثار والاستعظام للعمل، والاستحسان للعلم والرأي الصواب[3].

فإن استكثر العبد عمله واستعظمه تعظيما للنعمة، والمنَّة عليه به، أو رجاء ثوابه، وأنه لا يستحق الثواب، ولا كان أهلا أن يمن عليه به، ولا هو أهل أن يقبل منه،

(١) يعني: بشرط أن يتفق الحكم المستنبط ـ بفتح الباء ـ مع الحكم الثابت في الكتاب والسنة في الحكمة والعلة والسبب. وذلك مثل استنباط تحريم اللبن الشديد الحموضة الذي يسكر إذا شرب قياسا على الخمر، لاتفاقهما في سبب التحريم وحكمته وسببه وهو الإسكار وذهاب العقل، وهكذا.

(٢) ويجمعه آراء الفرق الهالكة كلها. وهي ترجع إلى: التشبيه، والتناسخ والحلول، والبداء، والتأويل.

(٣) هنا كررت هذه العبارة «فمعنى واحد لأنه كله منة من الله عز وجل» ولا أصل لها في الأصول ولا معنى فحذفناها.

ولكن عظمت عليه النعمة به (من الله تعالى)[1]، ورجاء التفضل بالقبول له لا غير ذلك فليس يعجب به، ولكن إذا استكثر عمله واستعظمه، واستحسن علمه ورأيه، فأضاف ذلك إلى نفسه، وحمدها عليه، ونسي نعمة ربِّه عز وجل عليه ومنته بذلك، فقد أعجب بعمله وعلمه.

فجملة العجب بالدين: حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونسيان النعم من الله عز وجل عليك بذلك. فحمد النفس، ونيسان النعم[2]، هو العجب بالدين.

إلا العمل الذي يريد أن يقوم به العبد ولم يقم به بعد، فإن في ذلك معنى زائداً، وهو الاتكال على نفسه، بالنسيان للتوكل على الله عز وجل، وذلك أيضاً من النسيان للنعمة، لأنه إذا نزل ما ينال بمنَّة الله عز وجل علم أنه لا مقوّى له لما ينال غير الله عز وجل، فإن مَنَّ الله عز وجل عليه بذلك ناله وإلا لم ينله[3].

قلت: فعليَّ أن أكون ذاكراً لكل نعمة ينعم الله عز وجل بها عليَّ في الدين، فإن نسيت شيئاً منها كنت معجباً؟

قال: لا، ليس عليك فريضة الذكر لكل نعمة أنها نعمة إذا كنت معتقداً في جملة إيمانك أن جميع النعم في الدين والدنيا من الله عز وجل، وإن ذكرت الله عند كل نعمة وعلمت أنها منَّة من الله عز وجل، كان أفضل لك عند الله عز وجل، وأبعث لك على الشكر، وأبعد لك من العجب، فإن نسيت ذكر النعمة فسهوت عنها، ولم تضف الفعل إلى نفسك، مع الحمد[4] على ما أنعم عليك من العمل والعلم، لم تكن معجباً، وكنت ناسياً لتلك النعم كنسيانك سائر النعم في غير عملك، إلا أن تحمد نفسك على ذلك ناسياً لنعمة الله عز وجل، فتكون حينئذ معجباً.

---

(١) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

(٢) في ط: المنعم.

(٣) تأثر القاضي أبو زيد الدبوسي بالمحاسبي في هذه النظرية ولكنه فلسفها وعمقها. انظر باب الفقر من «الأمد الأقصى» للدبوسي. تحقيق محمد عبد القادر عطا. دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان.

(٤) في ط: مع الحمد لها.

باب إضافة العمل إلى النفس

قلت: وكيف يمكن ألا أضيف الشيء إلى نفسي، ولم يعمل ذلك العمل غيري، ولو لم أعلم أني أنا الذي عملته ما عددته نعمة، ولا رجوت ثوابه من الله عز وجل.

قال: أجل ليس العجب (من)[١] علمك بما عملت وعلمت، ولكن (من)[٢] الإضافة إلى نفسك بالحمد لها (على العمل)[٣]، ونسيان منَّة المولى بذلك. فأما إذا علمت أن ذلك كان بمنة الله عز وجل، وأن نفسك لو تركتها ومحبّتها لركنت إلى خلاف ذلك، فتفرد الله عز وجل بالمنَّة في ذلك فلست معجباً.

قلت: بيّنْ لي فرقاً بين معرفتي أن العمل أنا عملته، وبين إضـافتي العمل إلى نفسي، وحمدي إياها عليه.

قال: معرفتك بأنك عملته معرفة قائمة من الطبع بالاضطرار، لا تقدر أن تجحد أنك عملته، ولا تحتاج إلى ذكر ذلك، ولا مخاطبة نفسك به.

والعجب ذكر هائج تخاطبك به نفسك، وينزع به عدوك، وذلك أن يهيج استعظام عملك واستكثاره على أن تقول في نفسك: لقد قويت وصبرت وتخلصت، أو جوّدت أو جاهدت أو فهمت، مستعظماً لذلك، فرحاً من نفسك بقوتها، ونفاذ بصيرتها، معظماً لها على ذلك.

وقد تخاطبها بدون ذلك فتقول: قرأت كذا، صليت كذا، لم أفطر منذ كذا، صُمت في يوم شديد الحرّ، مع نسيان النعمة، فذلك استكثار لعملك بإضافتك إياه الى نفسك.

وجملة ذلك إذا هاج فرحك بقوتك على ما عملت، وكذلك ما لم تقم به من العمل مضيفاً إليها القوة والصبر، ترى أنك تقوم بذلك ناسياً، لا تنظر منَّة الله عز وجل بذلك، ولا تترك الاتكال على قوتك، فلو كان الله عز وجل لم يمنّ عليك

(١ ـ ٣) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

بشيء من ذلك، أكنت تقوى على ذلك، أكنت تقول في قلبك لنفسك، وترى لها من القدر في القوة والنفاذ أكثر من ذلك؟

فهذا الفرقان بين معرفتك بما منَّ الله عز وجل عليك به من العمل، وبين العجب من نفسك بعملك وعلمك.

قتل: أجِدُ ما تقول يعترض لي، وأجده زائداً على المعرفة بعملي، لأني لو قلت ذلك لنفسي خوفاً مني أن تجهل أنها عملت ذلك العمل، حتى ترى أن غيري عمله، كنت ذاهب العقل.

إن أخاف أن تجهل نفسي أن تكون هي عملته وترى أنه عمله غيرها، وأنها كانت كافة (عن الحركة)[1] لم تتحرك لعمل، حتى ترى أنها إذا كانت مصلية أنها نائمة، أو إذا كانت صائمة أنها مفطرة، وأن غيري صام وصلى، فلم لم يجز أن يكون ذلك مني كذلك، فقد علمت أني لم أقله لأعرف نفسي ما جهلت، إنما كان ذلك هو العجب لا غيره إذا أضفت إليها ذلك بالحمد لها، مع نسيان نعمة ربي[2] عزّ وجلّ.

ولكن أريد مع ذلك دليلا من العلم [على] أن ذلك هو العجب، ليكون أعون لي على نفسي، إن عارضني بالتشكيك فيه معارض، وإن استدلني عليه مستدل، فلم يقنع [مني] بدون الحجَّة فيه بالعلم، كان أدعى له إلى القبول.

قال: نعم، إن العجب بالخير لا يكون إلاّ من المطيعين لله عز وجل المريدين له، فمن ذلك ما يروي ابن أبي الزناد عن موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس أنه قال: «ما أصاب داودُ ﷺ الذنب إلا بإعجاب أعجبه من نفسه؛ أن قال: يارب ما تأتي ليلة إلا وإنسان من آل داود قائم، وما يأتي يوم إلا وإنسان من آل داود صائم»[3].

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) في ا: نعمة الله.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في الزهد.

وفي حديث حجاج: «ما تمرَّ ساعة من ليل ولا نهار إلا وعابد من آل داود يعبدك، إما يصلي وإما يصوم، وإما يذكرك». فأضاف العمل بالليل والنهار إلى آل داود، وكان هو أولهم في ذلك، وأقومهم به وداعيهم إليه، ومقومهم عليه، فاستعظم ذلك، لأن قوله: ما تأتي ليلة، استعظام ذلك[1]، لأن العرب لا تعرف في لغتها مثل هذا إلا الاستعظام للشيء من نفسه، فأضاف العمل إليها وحمدها عليه، وقول الله عز وجل يدل على ذلك.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: فأوحى الله عز وجل إليه: «يا داود إن ذلك لم يكن إلا بي، ولولا عوني إياك ما قويت على ذلك، وسأكلك إلى نفسك». وفي حديث آخر: «وعزتي وجلالي لأكِلَنَّك إلى نفسك». فلو كان ذاكراً للنعمة في ذلك لما ذكَّره ما هو له ذاكر، ثم يعاقبه عليه، فيتركه ونفسه، ولكن ذكره النعمة التي كان لها ناسياً، ووكله إلى نفسه التي أضاف العمل إليها وحمدها عليه، فكان بعملها معجباً، وسماه ابن عباس معجباً بنفسه[2]، وأخبر أنه أصاب الذنب من أجل عجبه بطاعة الله عز وجل.

فطاعة الله أعجب بها فأدركته العقوبة على ذلك، حتى أصاب ذنباً أورثه الندم والحزن أيام حياته، والتبعة في الآخرة، حتى يستوهبه الله عز وجل من أوريا[3] كما جاء في الحديث، فأعظِم بالعجب بلية وأعظم به آفة.

ومن ذلك ما قال الله عز وجل في كتابه العزيز في يوم حنين لأصحاب محمد ﷺ وهو خير عصابة على وجه الأرض، بل لا عصابة تعبد الله عز وجل غيرهم ومن تبعهم، غضابٌ لله عز وجل، ينصرون دين الله عز وجل مستجمعون لقتال

---

(١) في ط: مستعظم ذلك.

(٢) في ط: من نفسه.

(٣) أخطأ محقق المطبوعة فظن الكلمة خطأ وعلق عليها بقوله: لعلها من أوزاره والتعليق لا معنى له، وأوريا بن صوريا هو الذي ضم داود زوجته إلى زوجاته بعد أن أرسل به إلى الحرب فقتل هناك. أما ما ترويه التوراة من أنه زنى بها فباطل لا أصل له، وقد روي أحمد في الزهد في الموضوع حديثا طويلا.

أعداء الله عز وجل، فقال الله عز وجل:

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُدْبِرِينَ﴾[1].

وذاك أن قائلا قال منهم: «لن نغلب اليوم من قلة» فلما أعجبوا بكثرتهم واتكلوا على قوتهم، ونسوا الله عز وجل في ذلك رفع الله عز وجل في ذلك الوقت النصر عنهم، ليعلمهم ان كثرتهم لا تغني عنهم شيئاً، وأن الله عز وجل الناصر الغالب لهم عدوهم لا عددهم، ثم عطف الله عز وجل عليها بالنصر إكراماً لنبيه ﷺ ولهم، ونظراً لدينه، ثم أنزل بذلك قرآناً فعرفهم به ما كان منهم، وما قال من قال منهم، وهذا هو العجب بالكثرة.

ومنه أيضاً ما روى [سفيان] بن عُيينة أن أيوب صلوات الله عليه قال: «إلهي أنّى ابتليتني بهذا البلاء وما ورد على أمر إلا آثرت هواك على هواي»؟ فنودي من غمامة بعشرة آلاف صوت يا أيوب، أني ذلك؟ أي من أين لك ذلك؟ قال: فأخذ رماداً فوضعه على رأسه، فقال: «منك يا رب».

أفلا ترى إلى رجوعه عما قال ناسيا أن يضيف نعمة العمل إلى ربه جل وعز، ففزع إلى الذكر بالذل والاستكانة، والإقرار بالنعمة أنها من الله عز وجل، فقال: منك يا رب.

وفي هذا وفي حديث داود عليه السلام معنى من الإدلال بالعمل، سأبينه لك إن شاء الله عز وجل عند ذكر الإدلال بالعمل.

باب الإدلال بالعمل

قلت: فأخبرني بالإدلال ما هو؟

قال: إن الإدلال معنى زائد في العجب، وهو ان يعجب بعمله او علمه، فيرى

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥.

ان له عند الله قدراً عظيما قد استحق به الثواب على عمله، فإن رجا[1] المغفرة مع الخوف لم يكن إدلالاً.

وإن زايل الخوف ذلك [الرجاء] فهو إدلال، كما قالت امرأة من المهاجرات وهي عند عائشة رضي الله عنها: «بايعتُ رسول الله ﷺ ألا أشرك ولا أسرق ولا أزني ولا أقتل ولدي ولا آتي ببهتان أفتريه بين يدي ورجلي، ولا أعصيه في معروف، فوفيت لربي عز وجل، ووفى لي، فوالله لا يعذبني ربي.

فأتيت[2] في النوم فقيل لها: أنت المتألية على الله ألا يعذبك؟ فكيف بقولك فيما لا يعنيك، ومنعك ما لا يغنيك»؟

وفي حديث آخر: «أنه أتاها ملك فقال لها: كلامك تزجين، وزينتك تبدين، وخيرك تكدين[3]، وجارك تؤذين، وزوجك تعصين»، ثم وضع اصابعه الخمس على وجهها فقال: خمس بخمس ولو زدت لزدناك.

قال: فأصبحت وأثر الأصابع في وجهها. فهذا الإدلال على الله عز وجل، وإيجاب الثواب عليه على الغفلة والنسيان والجهل عليه.

قلت: فما الدليل انه قد رأى ان له بذلك عند الله عز وجل قدراً عظيما؟

قال: على ذلك دلائل كثيرة من قلبه ولسانه.

فمن ذلك ان يناجي الله عز وجل باستعظام عمله، كما قال داود عليه السلام، او يستكثر ان ينزل به بلاء، او ينصر عليه غيره (من اعدائه)[4]، او يرد دعوته وهو يعمل مثل ذلك العمل.

ومثل ذلك: ما روي عن ايوب صلوات الله عليه حين قال: إلٓهي أنى ابتليتني بهذا البلاء وما ورد عليّ امر إلا آثرت هواك على هواي.

---

(١) في ط: فإن رجاء، خطأ.

(٢) في ط: فأوتيت، خطأ.

(٣) اي: تمنعين.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

فإذا استنكر العامل ألا تجاب دعوته، أو ألا يُفعل به ما يحب، أو أن يبتلي، او يُسْلَم لعدوه، او لهلكة من مهالك الدنيا، فهذا معجب بعمله، مدِلّ به، كأن له على الله عز وجل منَّة بما عمل، يجب على الله عز وجل مكافأته.

ولولا تفضُّل الله عز وجل على خلقه ما جعل لهم عملا، لأن العمل منه بفضله ونعمته، والشكر من العباد ضعيف، والشكر بعينه نعمة من الله عز وجل، والذنوب كثيرة.

ألا تراه يقول جلَّ ثناؤه: ﴿**وَلَوْلَا فَضْلُ اللهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ما زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أحَدٍ أبَداً**﴾[1]، فقال النبي ﷺ لأصحابه ـ وهو خير الناس يومئذ وإلى اليوم ـ: «ما منكم من احد ينجيه عمله» قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا انا إلا ان يتغمدني الله برحمته»[2].

وقال: «لو يؤاخذني الله أنا وعيسى ابن مريم بما نصيب بهاتين لعذبنا».

ثم اصحابه من بعده (على)[3] فضلهم وبرهم يتمنّون انهم كانوا خلقوا بغير خلق الإنس، لعظيم الخوف، أبو بكر رضي الله عنه يود انه لو كان قمرياً[4]، وعمر رضي الله عنه يتمنى انه لو صار تبنة، وأبو عبيدة، وعمران بن حصين وغيرهم.

فلله عز وجل الحجة البالغة على عباده، وله الفضل والطَّوْل والمنَّة عليهم، ولا منة لهم عليه، وما عملوا من خير فمنه وبه.

(١) سورة النور، الآية: ٢١.

(٢) اخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ١٨ من كتاب الرقاق، والباب ١٩ من كتاب المرضي، ومسلم في صحيحه، الحديث ٧١، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٨ من كتاب المنافقين. وابن ماجه في سننه، الباب ٢٠ من كتاب الزهد، والدارمي في مسنده، الباب ٢٤ من كتاب الرقاق. واحمد بن حنبل في مسنده ٢/٢٣٥، ٢٥٦، ٢٦٤، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٤٤، ٣٨٦، ٣٩٠، ٤٥٢، ٤٦٦، ٤٧٣، ٤٨٢، ٤٨٨، ٤٩٥، ٥٠٣، ٥٠٩، ٥١٤، ٥٢٤، ٥٣٧، ٣/٥٢، ٣٣٧، ٣٦٢، ٦/١٢٥.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) الذي رواه الإمام احمد في الزهد: انه ود ان يكون شعرة في جنب مؤمن.

قلت: وما الدليل على ان ذلك هو الإدلال[1]؟

قال: ما يروى عن قتادة في قول الله عز وجل: ﴿ولاَ تَمْنُنْ تَسْتَكْثِر﴾[2] قال: لا تُدِلّ بعملك، وقد اختلف في تفسير هذا الحرف، فقال بعضهم: لا تهدِ حتى يهدى إليك، إلا أن قتادة ذهب إلى أنه الإدلال بالعمل.

وقال أيوب وداود عليهما السلام في الحديث الذي يروى: إن صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه.

وقال: لأن تضحك وأنت معترف بذنبك، خير من ان تبكي وأنت مدل بعملك.

فهذا العجب بالإدلال.

فأما إذا انفرد العجب ولم يخالطه الإدلال فهو ما أخبرتك من حمد النفس ونسيان النعم، وسُئل رباح القيسي فقيل له: يا أبا مهاجر، ما الذي افسد على العمال أعمالهم؟ فقال: حمد النفس ونسيان النعم.

باب العجب بالرأي الخطأ

قلت: والعجب بالرأي الخطأ، لم أسمعك أدخلته في هذا الجواب.

قال: إنه ليس بنعمة فيوصف بنسيان النعم فيه، ولكنه بلاء، وخذلان ونقص.

أما ما كان في الضلال والبدع فبليّة وخذلان، وما كان في الأحكام فقد يكون خذلاناً وإثماً، وقد يكون نقصاً في الدين دون الإثم.

فإذا كان الرأي على غير الكتاب والسُّنة والإجماع فمن العجب كان، وهو الذي أهلك عامة العباد، حتى ضلوا وكفروا وابتدعوا وأخطأوا في دين الله عز وجل.

---

(١) في ط: على ذلك أنه الإدلال، وما أثبتناه أوضح.

(٢) سورة المدثر، الآية: ٦.

وقد ذمّه النبي ﷺ واخبر انه يغلب على آخر هذه الأمة، وعنده يكونون قد عُموا وصمّوا فلا ينتفعون بموعظة.

قال ابو ثعلبة الخشني: سألت رسول الله ﷺ عن قول الله عز وجل: ﴿**عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُم لا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾ (١). فقال: «يا أبا ثعلبة، ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، فإذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا موثَرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك نفسك» (٢)

فأخبر ان معناها إذا غلب على أهل الدنيا إيثار الدنيا، والعجب بآرائهم. وذم أصحاب النبي ﷺ العجب بالرأي [وكذلك] العلماء بعدهم، واخبروا ان فيه الهلكة.

ألا ترى إلى ما وصف الله عز وجل من قال عليه غير الحق؟ فقال: ﴿**وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعاً**﴾ (٣). وقال عز وجل: ﴿**أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً**﴾ (٤).

فأخبر ان القوم معجبون بما يدينون به من الضلال والكفر والكذب على الله عز وجل، وكذلك جميع أهل البدع، لولا انهم معجبون بآرائهم ما اعتقدوا البدع ولا اقاموا عليها.

فبالإعجاب بالرأي الخطأ (٥) هلك عامة الكفار وأهل البدع من أهل الإسلام، وأهل الخطأ في الفتيا، لأنهم تأولوا فأعجبوا بتأويلهم، وظنوا انه الحق اليقين (٦)،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.

(٢) اخرجه: ابو داود في سننه، الباب ١٧ من كتاب الملاحم، والترمذي في سننه، تفسير سورة ١٥، ١٨ من كتاب التفسير. وابن ماجه في سننه، الباب ٢١ من كتاب الفتن.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١٠٤.

(٤) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٥) في: بخطأ الرأي.

(٦) في أ: الحق المبين.

وقاسوا على غير القياس[١]، فأعجبوا بقياسهم وظنوا انهم قد اصابوا الحق وقد تركوه، ودانوا بغيره وخالفوه.

قلت: قد أعظمت ضرره وبيَّنت كثرة الآفات فيه، فأخبرني ما هو؟

قال: استحسان الرأي[٢] الخطأ من قبل هوى النفس، مع اعتراض من الظن انه حق يظنه بغير يقين.

قلت مِـمَّ كان ذلك؟ فإنه لا يمكن انه كان إلا عن إغفال وجهل.

قال: أجل.

قلت: مِـمَّ كان ذلك؟

قال: من ترك تهمة النفس، واستحسان الرأي بغير علم وضح له، ولا دليل عليه من الله عز وجل، وتلك بليَّة عظيمة لا نعمة.

ولو ذكر النعمة عند ذلك لما انتفى العجب بذلك، بل يستحكم العجب بذلك فيغلب عليه.

وإنما أعجب حين رأى أنها نعمة ولم يعدّه بليّة فينزع عنها، أو يظنّ انها بليّة فيتهم نفسه، فتثبت حتى يتبين له العلم فيعتقده او ينفيه، فإنما أعجب به حين عدَّه نعمة.

باب ما ينفي به العجب بأعمال الطاعة

قلت: فبم ينفي (العابد)[٣] العجب بالدين حتى يسلم منه العبد؟

قال: اما العجب بالحق والطاعة من العمل والعلم والرأي الموافق للحق والصواب فبذكر النعمة فيه ان ذلك بمنّة الله عز وجل وفضله، ولولا منّته بذلك لما نال ذلك

---

(١) في أ: غير فقيس.

(٣) في ط: الاستحسان بالرأي.

ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

أحد أبداً من نفسه، لأن النفس لو تُرِكت لما فعلت[١] ذلك، ولا كان منها، لأن محبّتها كانت في خلاف ذلك حتى نبه الله عز وجل العقل فقهر به هوى النفس، وعزم له على الرشد، فخالف محبّة النفس وشهوتها.

لأن العبد لا يكاد[٢] يأتي برًّا إلا وشهوتها في ضده، إن قام الليل فشهوتها في راحتها من التعب، وفي نومها فراراً من السهر، وكذلك إن صام فشهوتها في الإفطار، لما بنيت عليه من حب الغذاء من الطعام والشراب، وحبِّها الراحة إلى النكاح وغيره.

وكذلك جميع أعمال الطاعات، فلم تكن لتعملها[٣] لو تركت، فيذكر ويعترف انما العمل من الله عز وجل نعمة أنعم بها عليه، لا ابتداء من نفسه، وأن عليه في ذلك الشكر، وأنه غير قائم بالشكر على ذلك، مقصر عن شكره[٤]، لم يستأهل ما منَّ عليه به، بل يستأهل ان يسلبه، لتضييعه شكر نعم الله عز وجل عليه.

قلت: قد يكون من البرّ ما لا تعب عليها فيه، كالسكوت عن الخوض في الباطل، وكغضّ البصر، وترك الغيبة، (وترك الخوض)[٥] في الآثام والفضول، والفكر في القلب والذكر.

قال: إن ذلك كله يثقل عليها، لأنه وإن لم يكن لها متعباً فإنه مشغل (لها)[٦] عن محبّتها وهواها، لأن راحتها في محادثة الخلق واستراحتها لتخرج ما يجول في القلب، وكذلك غضُّ البصر عن النظر إلى ما تهواه وتشتهيه.

وكذلك الفكر والذكر بالقلب للآخرة شاغل من النظر في راحة الدنيا والفكر

---

(١) في أ: ما فعلت.
(٢) في أ: لأن النفس لا تكاد تأتي برا.
(٣) في ط: لتعمله.
(٤) في أ: معترف بالتقصير عن شكره.
(٥) ما بين الحاصرتين: سقط من المطبوعة.
(٦) ما بين الحاصرتين: سَقطت من المطبوعة.

فيها، فذلك يثقل عليها، ويشغلها عن راحتها ومحبَّتها.

فقد صح لأولي النهي ان ما نالت من البرّ والطاعة كان يخالف محبتها، للتعب الذي يدخل عليها، أو منعِها من راحة او لذة تنالها.

فهذا دليل بيّن وشاهد واضح وحجة عليها بأن الذي ادخلها في خلاف محبتها غيرها، وهو مليكها المتفضل عليها بذلك، فله الحمد والشكر وحده.

فإن رجعت إلى صاحبها بالدعوى منها أنها هي التي عملته وانتحلته، فحمدها على صبرها وقوتها، فليرجع إليها بهذه المعرفة التي يجدها في نفسه[1] وطبعه، وكفى بإخبار الله عز وجل عنها انها أمارة بالسوء إلا ما رحم الرب وتفضل به المولى.

فليرجع إليها بهذه المعرفة، وأنها مبطلة فيما تدعي، مباهتة به، وكيف جاز لها ادعاء ما كانت تحب خلافه، ويثقل عليها فعاله، وكانت جاهدة ان تصدَّ عنه؟

فكيف تدعي ان منها ما كانت تأباه وتحرص على خلافه، وتنازع بعد الدخول فيه إلى قطعه وترك تمامه، فذلك منها بهتٌ، ومن تصديق العامل لها جهل وحمق.

قلت: فقد يجد العامل لله عز وجل القوي العزم، الزاهدُ في الدنيا (المواظب على الطاعة)[2]، نشاطاً من نفسه للطاعة، وشهوة منها لها، لا تكاد تصبر عنها، كأنها طبع منها، بل قد يكون في بعض الحالات اكثر من الطبع، وقد نجده نحن أيضاً، مع تخليطنا في بعض أحوالنا في أعمالنا.

قال: إن ذلك لم يكن منها ابتداء، ولا هو موافق لها في الخلقة (لا)[3] في (حال)[4] ضعفها ولا حال قوتها، وقد كانت اولا جاهدة حريصة الا يكون ذلك منها، فلما وهب الله عز وجل للعبد قوة العزم، والمواظبة على مجاهدتها والقمع لها، فيئست ان يجيبها الى محبتها، وقهر الطبع منها قوةُ العزم ونور الحق، وغلبت عليها

---

(١) في أ: من نفسه.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقط من المطبوعة.

(٣ ـ ٤) ما بين الحاصرتين: سقطتا من المطبوعة.

هموم[١] الآخرة وأحزانها، سكنت عن دعائها، وانقطعت عن طلب عادتها، وهي مع ذلك على خلقتها وهيبتها، ولو وجدت منه فترة لرجعت إلى اسوأ احوالها، ولرفضت اكثر طاعتها لربها عز وجل.

أفرأيت من لم يَنْقَدْ إلا بالكُره (منه)[٢]، ولم يجب إلا بالوعيد والزجر، ولم يذعن إلى الإجابة إلا إن قهره لك غيرك وأعانك عليه، وأنت مع ذلك لا تأمن رجوعه عن إجابته، وترك طاعته لك، وانقلابه إلى شر أحواله، لما تعلم أن محبته لم تتغيّر، وأن شهوته لم تذهب، ولكن قهر فأجاب، وغُلب فأطاع، ولو وجد سبباً او سبيلا الى ما يحبُّ ويهوى ركن إليه سريعاً، وولّى معرضاً، أكنت له حامداً على طاعته، أو كنت منزلا منه ذلك (العمل)[٣] لمحبة منه لإجابتك؟ او هل تكون له ذامًّا لما تعرف من محبته وخلاف إرادته لطاعتك؟ وهل كنت تحمد إلى الذي اعانك عليه، حتى قهره وغلبه لك حتى استعملته؟

ومثل ذلك كأسير من بلاد العدو، استأسرته وفرقت بينه وبين ماله وأهله وولده وأرضه ووطنه، وقد كان جاهدك قبل الأسر على ان يكون هو الآسر لك[٤]، حتى أتاك من اعانك عليه، فشده لك كتافا، وأمكنك منه، فلم يزل بعدما امكنك منه يجاذبك إلى الرجوع إلى بلاده، ويطلب منك غفلة ليقتلك او يستأسرك، فيرجع بك معه إلى منزله ووطنه.

فلم تزل تضربه وتقهره حتى انقاد لك من الخوف، وسارع إلى خدمتك، وأنت مع ذلك متخوف ان يجد فرصة (أو غرة)[٥] فيرجع ويتركك، ويرفض ما في يديه مما استرعيته من عملك. اكنت له حامداً، او في امره متزيناً؟

---

(١) في المطبوعة: عليه.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

(٤) في المطبوعة: المستأسر لك. وهو عكس المعنى المراد.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

فكذلك نفسك قد كانت حريصة على الركون من قبل إلى الدنيا، وإيثارها على الآخرة، فكانت جاهدة أن تستأسرك بهواها، فتكون به (لها)[1] عاملا، ولطريق نجاتك إلى الآخرة تاركاً.

فأبى الله عز وجل إلا أن يوفقك ويسددك، فقوّى ضعفك، ونور قلبك، وأعانك عليها، حتى رفضت كثيراً مما تهوى[2]، وتركت كثيراً مما تحب[3]، وما انقادت إلى خلاف ذلك إلا بالكره والجبر.

ثم وهب لك زجرها ومعاتبتها، وقوى عقلك على هواها، وعلمك على جهلها، ووفقك لدوام ترك إجابتها، حتى أيست منك ان تنال محبتها، وانكسرت عما كنت عوّدتها، فأجابت مسرعة على غير انقلاب من طبعها، ولا تغيير عن غريزتها.

وأنت مع إجاباتها لك متوقع لرجوعها، تسأل الذي تولى معونتك عليها وقهرها، حتى انقادت لك طائعة، بعد امتناعها أن يديم ذلك لك، ولا يسلبك هو خشية ان يتبرأ منك، فتثب عليك فترجع بك إلى جميع ما تحب وتهوى، فيكون في ذلك هلاكك في دنياك وآخرتك.

فهل تجد بينها وبين الأسير فرقاً؟ بل هي أشد بلاء من الأسير وأعظم فتنة (وخطراً)[4].

قلت: قد اجد بينها وبين الأسير فرقا، لأن الأسير لا يرى ان الخير فيما يراد به، وهي قد علمت ا ن ما يراد منها خير لها (في العاجلة والآجلة)[5].

قال: فقد ساوت الأسير في مخالفته، وفضلت عليه في الشرّ، فإنها[6] أبت وعصت عن معرفةٍ وبيانٍ، والأسير ابى وعصى عن جهالةٍ وعمي.

---

(١) ما بين الحاصرتين: ساقطة من المطبوعة.

(٢) في أ مما تحب. (٣) في أ مما تهوى.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من المطبوعة.

(٥) ما بين الحاصرتين: سقط من المطبوعة.

(٦) في المطبوعة: إنها.

ولعله لو علم ما يراد به من الإسلام، والفرق بينه وبين الكفر، ودار الحرب التي أهلها محاربون لله عز وجل ولدينه، لأجابك طائعاً، وأبغض الرجوع إلى بلاده[1].

فهي شرٌّ وأَعْجَبُ عصياناً وإباء من الأسير، إذ عصت بعد العلم بأنك إنما تدعوها إلى نجاتها، وتجانب بها هلكتها.

وقد نجد بعض الأسراء مشبها لها في جميع أمورها، لأنه قد يكون الأسير يعرف الإيمان وفضله، كما وصف الله عز وجل به بعض أهل الكتاب، أنهم يعرفون الحق ويجانبونه بعد العلم، فقال:

﴿فَإِنْ كُنْتُ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾[2].

ووصف إبليس أنه اعترف له بالربوبية ثم عاند بعد علم.

وقال عز من قائل: **﴿وَإِنَّ فَرِيقا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾**[3].

فكذلك هي تأبى بعد علم وبيان ومعرفة، فهي تساوي شرّ الأساري، وتوافق كل أسير جاهل أو عالم، فلا فرق بينهما في الشبه من قبل الإباء والعصيان.

فالحمد لله وحده، والذم لها، والحذر والخوف منها، وترك الطمأنينة إليها لمعرفتك بها.

فمن عرف نفسه زال عنه العجب، وعظم شكر الرب عز وجل، واشتد حذره منها، والثقة والطمأنينة إلى المولى عز وجل، والمقت لها، والحب للمتفضل المنعم.

أرأيت لو صحبك صاحبان، فأراد أحدهما وأنت نائم أن يرضخ رأسك بصخرة، فأيقظك الآخر وقد أمسك يده على الصخرة وهو رافعها ليرميك بها، فأراك ما همَّ به وما أراد أن يغتالك به.

---

(١) في ا: إلى وطنه. (٢) سورة يونس، الآية: ٩٤. (٣) سورة الأنفال، الآية: ٥.

أو لو صنع لك سمًّا في طعامك ليقتلك به فأراك الآخر بالتجربة على بعض البهائم ما أراد أن يقتلك به من السم، حتى عرفت أنك لو أكلت ما هيّأ لك من الطعام كان في ذلك عطبك، من قتله بذلك السم للبهيمة التي جرب عليها، ألم تكن تزداد له مقتا وبغضا؟ وَللذي أنقذك من مكيدته حبًّا ومودة وأنسا ومنّة؟ وللذي أراد بك السوء حذراً؟ وللذي حاك بينك وبين ذلك ثقة وَطمأنينة؟ رجاء أن ينقذك من أمثال ذلك، وخوفا من الآخر أن يغتالك بمثل ذلك.

فإن ادعي المريد لك بالسوء أنه هو الذي أنقذك منه، هل كنت ناسيا للذي أنقذك؟ ومضيفا نجاتك إلى الذي أراد بك المكيدة بالسوء؟

كلا. ما كنت فاعلا أبداً ذلك ما صح لك عقلك.

فكم من بلية قد أرادتها بك نفسك فعزم الله عز وجل لك على تركها، وأيقظك (وأزال عنك الغفلة)[1] فعصمك منها، وقد كان فيها عطبك بالنار أعظم من الميتة بالحجر والسم.

وكم من حق لله عز وجل قد هممت بتضييعه، فأبى الله عز وجل إلا أن وفقك لخلاف ما هممت به[2]، فقد وَجب عليك المقت لنفسك والحذر منها، وترك إضافة العمل إليها بالحمد لها، وَالحبُّ لِربك عز وجل، والطمأنينة إليه، والثقة به، والحمد له خالصا وحده، وَالشكر له على منته بكل ما نلت من بر وطاعة.

قلت: قد تبين لي بوصفك هذا ـ وَقد كان عندي في الجملة هكذا ـ أن نفسي لو تركها ربي عز وجل لأهلكتني، وَأنه الذي تولى ذلك وَله المنة عليّ بذلك، حتى نلت ما نلت من بر وَطاعة، هو وَحده لا شريك له.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من المطبوعة.

(٢) وأصل ذلك معصية آدم، وإلهام الله تعالى له الكلمات التي دعا بها فتاب الله عليه.
وحقيقة ذلك الحب السابق من الله تعالى لخلقه بوجه عام، وللمعترف به بوجه خاص فمن وفق للحب لله فقد وافق الحقيقة، واندرجت بشريته في حقيقته اندراج تحقق وتعلق وعبودية. وهذا المشهد من مشاهد الأذواق، وهو الذي دفع النبي ﷺ وأصحابه إلى العبادات الشاقة وهجران الملذات إبقاء عليه، إذ كانوا يجدون في شهوده وذوقه من السعادة ما لا يجدونه في الراحة وملذات الحياة.

باب ما ينفي به العجب بالرأي الخطأ

قلت: أفرأيت نفي العجب بالرأي الخطأ إذا كان ليس بنعمة، فأذكر منّة الله عز وجل بذلك، ولا أضيف ذلك إلى نفسي، فم أنفيه إذ تبيَّن لي أنه بليّة وخِذْلان، أو نقص في الدين؟

قال: قد ينفي العبد العجب بالرأي الخطأ بتهمة نفسه، وترك الاستحسان لشيء من رأيه إلاّ بدليل بيّن، وحجّة واضحة من الكتاب والسُّنّة، أو قياس عليهما، واستنباط حكم في نازلة.

قلت: وكيف يتّهمها؟ وما الذي ينال به تهمتَها؟

قال: لمعرفته ما بنيت عليه في الخلقة أن من شأنها السهو والغفلة، ولما جرب منها من كثرة غلطها، وكثرة زللها، وسوء تأويله ما لا يُحصى مراراً كثيرة، في كل ذلك يرى أنه مصيب لا يشك عند نفسه في ذلك، ثم يتبيّن له بعدُ أنه قد كان غفل وغلط وكان استحسانه لذلك من قبل الهوى وتزيين الشيطان.

ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف عن عامة هذا الخلق، من غلطهم وقولهم في دين الله عز وجل بغير الحق، وكلهم يزعم فيما يدعي الحقّ وهو على باطل، وهو ـ مع ما هو عليه من الباطل ـ لا يشك أنه محقّ صادق، وأن من خالفه مبطل كاذب، من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين، وكثير من أهل الفتيا والرأي.

وقد علم أن النفوس طبعُها بعضهُ قريب من بعض، بل كلها لا تعرى من السهو والغفلة، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم عليه السلام، بنيتهُ كبنيتهم، وغريزتهُ كغرائزهم، مع ذلك فإن المزين لهم واحد، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة، والباغي لهم الزلل والعصيان.

فإذا أثبت في قلبه هذه المعرفة بنفسه اتهمها، ولم يعجل بما يستحسن دون النظر في الكتاب والسنّة، أو مُساءلة أهل العلم والبصيرة، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم، ولم يزالوا متهمين لآرائهم، خائفين من أنفسهم.

ومن ذلك ما روي عن ابن مسعود (أنه)[1]، اختلف إليه شهرا في مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسمّ لها صداقا، فلم يجبهم شهرا مخافة الخطأ في إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك، تهمة لنفسه وخشية لخطئها، ثم قال لما لم يجد بداً من القول فيها، قال: أقول فيها برأي، فإن كان صَوابا فمن الله عز وجل، وإن كان خطأ فمن نفسي.

وروي عن أبي بكر رضي الله عنه مثل ذلك.

وقال عمر رضي الله عنه: إن الرأي كان من رسول الله ﷺ صوابا، لأن الله عز وجل كان يريه، وهو منَّا الظنُّ والتكلف.

وقال أبو سعيد (الخدري)[2] رضي الله عنه: قال الله عز وجل لهم وهم أصحاب نبيه ﷺ: **﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾**[3] فكيف فيمن دونهم من الناس؟

وقال قتادة في قوله عز وجل: لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم؟ فأنتم أطيش أحلاما، فإتهم رجل (اتهم)[4] رأيه وانتصح كتاب ربه عز وجل.

وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: يقول الله تعالى لنبيه ﷺ لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم، وقال: ونحن أصحابه فأنتم أعجز رأيا.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أيها الناس اتهموا الرأي ولقد رأيتني وأنا أهم أن أضرب بسيفي في معصية الله عز وجل، ومعصية رسوله ﷺ.

وقال سهل بن حنيف: أيها الناس اتهموا آراءكم.

وقال عمر رضي الله عنه: اتهم رجل رأيه، ولقد رأيتني يوم أبي جندل، ولو أقدر لرددت على رسول الله ﷺ، يعني يوم صَالَحَ النبي ﷺ قريشا يوم الحُديبية في إجابته إياهم.

(١، ٢) ساقط من المطبوعة.

(٣) سورة الحجرات، الآية: ٧.

(٤) سقطت من ط.

والأحاديث في ذلك كثيرة، وتركنا ذكرها كراهية التطويل.
قلت: فإذا ثبتت المعرفة بذلك فاتهم رأيه، كيف يتثبت حتى لا يخطىء؟
قال: تعلم أن من كتاب الله آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها.
ومنه ما يشتبه ويمكن فيه التأويل، وذلك الذي اختلف فيه.
ومنه مشتبه ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل أنهم يبتغون تأويله ابتغاء الفتنة[1]، لما في قلوبهم من الزيغ والضلالة.
وكذلك سنة النبي ﷺ بهذه المنزلة.

فليعلم العبد المريد للصواب، ليدين الله عز وجل به، أن من الكتاب والسُّنة محكما بَيِّنَ التلاوة مفسرا بإجماع، وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث، ولا يجب على النفس التهمة في قبولها واجتنابها إياه.

وأن الذي يمكن فيه الخطأ والصواب لضعف ابن آدم وسهوه، وغفلته وغلبة هواه له، وتزيين عدوه له: ما اختلف فيه، أو حادثة يحتاج فيها إلى التمثيل والقياس على الكتاب والسنة والإجماع.

فعند ذلك يتهم نفسه، ويتثبت ولا يعجل، إذ كان الخطأ في ذلك منه ممكنا، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ، وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله بغير[2] الحق، فلا يعجل، ويتثبت وهما يجترىء، ويتجنب ولا يقبل.

ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وَزُيِّنَ في عقله إلا من كتاب أو سنة، أو ما اجتمعت عليه الأمة، أو تأويل فيما اختلف فيه مشبهٍ للكتاب والسنة والإجماع، أو قياس مساوٍ إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر في أقوالهم، وإلى ما ذهبوا إليه.

وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالا من حرام

---

(١) مثلا وردأن المنافق قالها عن المنسوخ إن محمدا يأمر أصحابه بأمر ينهاهم عنه غدا.
(٢) في المطبوعة: لغير الحق.

ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء إذا سألوهم عند الحاجة.

وذلك كالأعجمي وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز.

وإن كان من المتشابه الذي وجب على المؤمنين الإيمان به، ووكل علمه إلى الله عز وجل، وقَفَ وعلم أنه ليس له تأويله.

وبذلك وصف الله عز وجل الراسخين في العلم بالإيمان به، وترك تأويله فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به.

فهذا ما ينفي العجب بالرأي الخطأ، حتى لا تعجب إن شاء الله بخطأ في دين الله عز وجل، من غلط تأويل ولا قياس.

قلت: فالعمل الذي لم يُمنّ به عليّ كيف العجب فيه؟

قال: الاتكال على قوتك وصبرك لما جربت من نفسك، ونسيانِك انتظار منة الله عز وجل بذلك.

وقد روى الأحنف بن قيس عن النبي ﷺ أن داود عليه السلام قال: يا رب إن بني إسرائيل يسألونك بإبراهيم وإسحاق ويعقوب.

قال ابن عباس في هذا الحديث: إن داود ﷺ حدّث نفسه أنه إن ابتلي يستعصم.

وقال محمد بن كعب والمقبري في هذا الحديث: إن الله عز وجل قال: إني ابتليتهم فصبروا، قال: يا رب وأنت إن ابتليتني صبرت، قال: أما إني ابتليتهم ولم أخبرهم بأي شيء أبتليهم[1]، ولا في أي شهر ولا في أي يوم، وأنا مخبرك في سَنَتك في شهرك هذا.

ولكن داود لم يصبر على الابتلاء، فاحرز نفسك.

---

(١) في ط: ابتليتهم.

باب العجب بالدنيا والنفس

قلت: فالعجب من قبل الدنيا[1] ما هو؟

قال: العجب بالنفس، والعجب بالمال، والعجب بالحسب، والعجب بالكثرة من الخدم والولد والموالي والعشيرة والأصحاب.

قلت: فالعجب بالنفس ما هو؟

قال: هو العجب بالجمال والجسم، بِعِظَمه وتمامه والقوة والعقل والعمل وحسن الصوت، فأمَّا بالجمال والجسم فاستحسان ذلك من نفسه، ونسيان ما يلزم العبدَ: من الشكر لله تعالى على ذلك، ونسيان القدر في البداءة وما يتقلب فيه من الآفات، ومصير الجمال والجسم إلى الفناء والبلى، حتى يتكبَّر ويتبختر ويتعرّض بجماله للفجور، ويفتخر به على غيره.

قلت: فَبِمَ يُنفي ذلك؟

قال: بذكره النعمة وما وجب عليه من الشكر، وما ضيَّع منه، للمنعم مما يستحق بخلافه وتضييعه للشكر، أن يغير جماله بالشين بآثار (ذكر) عذاب الله تعالى وأن النار تأكل حُسن الجسم وتمامه، وبمعرفته قدره وممَّ كانت بدايته من التراب والنطفة، وما يتقلب فيه من الأقذار التي لا يمتنع منها من الغائط والبول، ومصير جسمه وجماله إلى التراب، وأن التراب سيمحو صورته ويبلي جسمه[2]، فإذا عرف نفسه وقدره ومصيره، وما عليه من الشكر، وما ضيَّع منه، وما وجب عليه بتضييعه الشكر من العقاب، زال عنه العجب واهتم بالشكر وتواضع للمنعم.

قلت: فالعجب بالقوة؟

قال: استعظامها ونسيان الشكر والاتكالُ عليها، ونسيان الاتكال على الله تعالى، كما حكي عن قوم عاد حين قالوا: من أشدُّ منا قوة، فأعجبوا بقوتهم واتكلوا عليها، وظنُّوا أنهم بها يتخلصون من عذاب الله عز وجل.

---

(١) في أ: فالعجب بالدنيا.

(٢) في أ: جسده.

وكما اتكل عوج (بن عنق)[1] على قوته، فاقتطع من الجبل قطعة ليطبقها على عسكر موسى ﷺ، فثقبها الله عز وجل حتى صارت في عنقه.

وقد يتكل المؤمن أيضاً على قوته كما وصف النبي ﷺ قول سليمان عليه السلام: لأطوفنَّ الليلة بمائة امرأة. فلما لم يقل: إن شاء الله لم يكن ما أراد من الولد، فيتَّكل العبد على قوته وينسى التوكُّل على ربه عز وجل.

ومنه قول داود عليه الصلاة والسلام: «إن ابتليتني صبرت» وقد يجترىء أيضاً بما أعطي من القوة على الحروب في معاصي الله عز وجل، ويسارع بالضرب والقتل إلى من نازعه، لما يعرف من قوته عجباً بها، واتّكالا عليها، ويُعيِّر غيره بضعفه ويفتخر عليه بقوته.

قلت: فبِمَ ينفي العجب بها؟.

قال: بمعرفته أنها من الله عز وجل نعمة، فضّله بها، لينظر كيف استعماله لها في طاعته، وأن عليه الشكر فيها إذْ فضله بها على غيره من الضعفاء، وأن الله عز وجل هو الذي قواه بها، ولو شاء هدَّها بعاهة أو بسَقم أو ضعف، فيُلزم نفسه وجوب الشكر عليه[1]، ويخاف إن استطال بها واستعملها في معصية الله عز وجل أن يهدّها أو يكسرها بعقوبة منه، فإذا ألزمَ قلبه ذلك انتفى العجب بها، واهتمّ بأداء الشكر فيها.

قلت: فالعجب بالعقل والذهن والفطنة؟

قال: استحسان ذلك واستعظامه، ونسيان النعمة بالتفضُّل به، والاتكال عليه ان يدرك به ما يريد وما يؤمل، من علم أو رأي، او أحكام دين الله عز وجل، أو دنيا.

وترك التوكل على الله عز وجل في جميع ذلك، حتى يخرجه ذلك إلى قلّة التثبت لإعجابه بعقله، حتى يخطىء في دين الله عز وجل، ويقولَ عليه بغير الحق، ويخرجه أيضاً إلى ترك التفهم مـمّن علّمه أو أمره او ناظره، حتى يحرم الفهم للحقّ، ويأبى إلا القول بالخطأ والغلط، ويخرجه إلى حقرية من دونه، مـمَّن لم يُعطَ من الفطنة مثل ما أعطي،

---

(١) في ط: عليها.

وإن كان أورع منه وأفضل عملا ، حتى يُسَمَّى كثيراً ممن هو أورع منه وأفضل منه جهالا حمقى، ويراهم كالحمير التي لا تعقل، إذ فضل عليهم بالفطنة والذهن، ويستطيل عليهم، ويرى ألا قدر لهم، ويستصغر ما عملوا من خير، ويرى انه خير منه وإن ضيّع العمل لفطنته ولعقله [1].

قلت: فبِمَ ينفي ذلك؟

قال: بمعرفته بجهله مهما أعطي من الفطنة، وبسهوه وغفلته، وقلّة ما يدري بعقله، وإن كان قد أعطي من الفطنة اكثر مما أعطي غيره، فقد وجب عليه في ذلك الشكر.

وإنما فُضِّل بالذهن لتعظم الحجة عليه، ولتوكيد الطاعة باللزوم لها [2]، ولينظر الله عز وجل كيف استعماله لعقله في الفهم عنه، والاشتغال به، وأن ما أعطي من العقل بيد الله عز وجل، [و] لو شاء أن يغيّره ويزيله ببعض الآفات، كما رآه فَعَلَ ذلك بمن هو مثله ومن هو فوقه لفعل، فلا يأمن من أن يسلبه الله عز وجل عقله.

فإذا عرف ضعفه وجهله وقلةَ ما يدرك بعقله [3]، وأن ما فُضِّل به منّة منْه، عليه فيه الشكر وعظيم الحجَّة، ووجوب الحق، وأنه لذلك مضيع، فإذا عرف ذلك علم أن من لم يؤتَ من الفطنة مثل ما أوتي أحسنُ حالاً منه، إذ لم يشكر الله عز وجل على ما فضّله به عليه، وأن الحجَّة عليه أعظم منها على من دونه.

وقد يرى كثيراً ممَّن هو دونه في الفطنة أطوعَ لله تعالى منه، وأنه مع ذلك لا يأمن ان يسلبه الله تعالى عقله إن ضيّع القيام لله تعالى به فيما وجب عليه من الفهم عنه، والعقل عنه والعمل به.

فإذا ألزم قلبَه هذه المعرفة زال عنه العجب، وخاف عظيم الحجة، وَواجب الحق، واهتم بالشكر وأداء الحق.

---

(١) لقد عكس هذا النوع من الناس الهدف من العلم وهو: العمل به، فلا تكاد ترى في نصوص السلف إلا تحديد هدف العلم بالعمل وحده، فالاعتداد بالعلم والذكاء فيه وقوف عن مواصلة السلوك.

(٢) أي إن الله اختصه بالعلم والذكاء ليؤكد عليه لزوم الطاعة والعمل بالعلم.

(٣) في أ: ما يدركه بعقله.

باب العجب بالحسب

قلت: فالعجب بالحسب؟

قال: استعظام القدر من أجل الآباء والأصل، فإن كانوا من أهل الشرف في الدنيا من الذين شُرفوا في الدنيا بالدين، فيستعظم قدره من أجلهم، وينسى منة الرب عز وجل (عليه)[1] إذ خلقه من الكرام الصالحين، ورفع عنه محنة ضعة القدر.

لعله لو جعله وضيعاً في الحسب لسخط ذلك، وانتمى إلى غير آبائه، وأنِف منهم، فينسى[2]، ما رفع الله عز وجل عنه من المحنة، وما تفضَّل به من المنة، بأن جعله من ذُريَّة أوليائه وأهل طاعته، فيُغْفِل ما عليه من الشكر وما وجب عليه من الحجّة، وأنه مأخوذ بعمله.

فيعجب إذا استعظم قدره من أجل آبائه، وأغفل الشكر ووجوب الحجة، حتى يخيل إليه بل قد يقطع بعضهم انه ناج بغير عمل، وأنه مغفور له[3]، وإن كثرت ذنوبه، وإن لم يتب منها، فيستطيل بذلك ويتكبر، ويفتخر على غيره ويحقره، ويأنف منه إن كان ذا قرابة أو جارا أو غيره ممن هو دونه في الحسب، ويختال في مشيته، ويرى ان الخلق شبيه بالعبيد، بل قد يرى بعضهم أن الأمة عبيد له، فيخالف آباءه في فعالهم، ويريد ان يكون عند الله عز وجل مثلهم، وذلك الاغترار بالله عز وجل، والجهل بأمره.

قلت: فبِـمَ ينفي ذلك؟

قال: بمعرفته ما وجب عليه من شكر الله عز وجل، على ما منَّ به عليه، إذ جعله من

---

(١) ما بين الحاصرتين: ساقط من ط.

(٢) في أ: فنسي.

(٣) واكثر هؤلاء من اولاد العباد والزهاد، وقد شاعت هذه النظرية حديثاً، فقيل إن السر ينتقل إلى الأبناء دون جهد في العمل. والقرآن صريح في وجوب العمل لنيل مرتبة الآباء في قوله تعالى: «الذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم...».

والفكرة المنحرفة هذه مأخوذة من أفكار الشيعة القائلين بانتقال الإمامة انتقالا باطنا من إمام إلى إمام، وأخذ بها المنحرفون من المتصوفة المتأخرين.

ذريَّة من تولاّه وأحبّه، وأنه مجزيّ بعمله دون عمل آبائه، وأنهم إنما نجوا بالطاعة وشرفوا بها، وقد ساواهم في الحسب غَيْرُهُم فلم يؤمنوا ولم يطيعوا، وكانوا عند الله عز وجل شراً من الخنازير والكلاب، وأنه وإن خالف طريقهم فحكمه ان يُخالَفَ به إلى غير دارهم وهي النار، لن ينجوَ إلاّ بعمله، أو رحمة الله عز وجل، من ذلك قول الله عز وجل:

﴿إنَّ أكْرَمَكُم عِنْدَ اللهِ أتْقاكُمْ﴾[1].

وذلك ان الحارث بن هشام، وسُهيل بن عمرو، وخالد بن أسيد لما أذن بلال يوم الفتح على الكعبة أنكروا، وقال الحارث بن هشام هذا العبد الأسود يؤذن على الكعبة» فأنزل الله عز وجل: ﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ رواه ابن أبي حسين.

ومنه قول النبي ﷺ: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية - يعني كِبْرها - كلكم بنو آدم وآدم من تراب»[2].

فيعرف أن أصله وأصل بني آدم كلهم واحد وأنه فضل عليهم بالحسب والصلاح في الآباء لينظر كيف شكره، وأنه إنما ينفعه عمله دون عمل آبائه.

ومن ذلك قول النبي ﷺ: «يا معشر قريش لا يأتي الناس بالأعمال يوم القيامة وتأتون بالدنيا تحملونها على رقابكم، تقولون: يا محمد يا محمد فأقول هكذا» يعني أعرض عنكم.

وقال حين أمره الله عز وجل أن ينذر عشيرته الأقربين: فناداهم بطنا بطنا، حتى صار إلى أن قال «يا فاطمةُ بنت محمد، ويا صفيَّةُ بنت عبد المطلب عـمَّة رسول الله

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.

(٢) اخرجه: أبو داود في سننه، الباب ١١١ من كتاب الأدب.

(٣) اخرجه بلفظ آخر: النسائي في سننه، الباب ٦ من كتاب الوصايا، والإمام احمد في المسند ٢/٢١٨، ٣٦٠.

ﷺ، إعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً »[1] رواه أبو هريرة وغيره عن النبي ﷺ.

فيلزم ذلك قلبَه، فإذا فعل ذلك وألزمه قلبه عرف نفسه، وزال عنه اغتراره وعجبه، واهتمّ بالشكر وخاف من الذنبْ، وخاف أن يكون من دونَه ينجو، ويهلك هو، إذ كان أتقى الله عز وجل منه.

فإذا عرف نفسه بهذه المعرفة، وأنزلها بهذه المنزلة، قلَّ فخرُه وخيلاؤه وحقريته غيره، بل يتواضع لهم، ويتشبه بآبائه، فإن الله عز وجل إنما رفعهم بتواضعهم له في خلقه، ومخافتهم على أنفسهم.

قلت: فقد جاء الحديث عن النبي ﷺ انه قال - في عقب قوله يا فاطمة ويا صفية اعملا لأنفسكما فإني لا أغني عنكما من الله شيئاً - « إلا أن لكما رحماً سأبلها ببَلاها »[2] وقال: « أيرجو نسلهم شفاعتي ولا يرجوها بنو عبد المطلب »؟ فقد دلّ بهذا القول أنه سيخص قرابته بالشفاعة، فكذلك كل صالح على هذا القياس يشفع لأقربائه.

قال: إن ذلك ينبغي له ان يرجوه، ويعلم انه لا يشفع النبي ﷺ ولا احد من الصالحين إلا لمن يغضب الله عليه، وأراد ان يكون سببُ رحمته له شفاعة نبيه ﷺ وبعض أوليائه، ومن غضب الله عز وجل عليه لم يؤذن لنبي ولا لأحد في الشفاعة له.

ألا تراه حين ذكر ملائكته قال: ولا يشفعون إلا لمن ارتضى[3]؟ قال قتادة: يوم القيامة، وقال مجاهد: إلا لمن رضي عنه، ومن شفع فيه بغير علم أخبر أنه قد غضب الله عليه.

ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: « فيؤمر بقوم من أصحابي ذات الشمال، فأقول: يا رب

---

(١) اخرجه: مسلم من حديث عائشة، والشيخان من حديث أبو هريرة.

(٢) الحديث السابق.

(٣) مسخت فكرة الشفاعة حديثا حتى قيل إن الشفاعة عامة وأن العلماء يشفقون فيمن لم يشفع فيه النبي ﷺ.

أصحابي، فيقول إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك»[1].

فهو وإن رجا الشفاعة فهو خائف ان يعصي الله عز وجلّ فيغضب عليه، ويكون قد غضب عليه فيما كان منه، فلا يشفع له شافع، ولا يؤذن لأحد أن يشفع له، ومع ما يرجو من شفاعة النبي ﷺ، فإن جميع المسلمين يرجون شفاعة النبي ﷺ، وإن كان قد خصَّ بالشفاعة أقرباءه، ولكن لا تأمن الغضب والمقت من الله عز وجل.

فإذا ألزم قلبه هذا خاف ورجا، فلم يعجب ولم يغترّ ولم يفتخر ولم يتكبّر، وكيف يعجب ويتكبَّر وهو لا يأمن ان يكون عند الله عز وجل مغضوباً عليه، شرًّا من القردة والخنازير؟

وكيف يأمن ذلك ومَا أمنه أهلُ الحسب في الدين والدنيا، وخَيْرُ الخلق بعد النبي ﷺ، حين غَبَطُوا البهائم وتمنَّوا ان يكونوا مثلها في الخلقة خوف عذاب الله عز وجل وغضبه؟.

وإنما يعجب بأنه منهم فإذا خافوا هم هذا الخوف ولهم السابقة والفضل ولا سابقة له، ولا فضل عنده ولو كان عنده فضل كان أولى به الخوف من الله عز وجل كما كانوا خائفين من ربِّهم عز وجل.

قلت: أرأيت من كان له الحسب في الدنيا، وليس له آباء صالحون أكثر من الأصل عند الناس في الحسب ما العجب به؟

قال: العجب به استعظام القدر حتى يخرجه إلى الكبر والخيلاء، والفخر والاستطالة على الناس، والحقرية لهم، حتى يعيِّرهم بأحسابهم، ويغتابهم ويقع فيهم، ويرى لنفسه

---

(١) كل أحاديث الشفاعة هذه أخرجها السيوطي بطرقها في البدور السافرة في باب الشفاعة. وأخرجه: البخاري في صحيحه الباب الأول من كتاب الفتن، والباب ٤٥ من كتاب الرقاق. والباب ٤٨ من كتاب الأنبياء. وصحيح مسلم، حديث ٣٢، ٤٠ من كتاب الفضال، والترمذي في سننه. الباب الثالث من كتاب القيامة.

وقد استوفي طريق الحديث في كتاب «لقط اللآلىء المتناثرة في الأحاديث المتواترة». تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

الفضلَ عليهم.

قلت: فم ينفي ذلك؟

قال: يعلم أن أصله في البداية أصل الناس كلهم، وخلقته كخلقتهم، ولم يفضل عليهم في الخلقة بشيء، إذ الخلق واحد والأب واحد والأم واحدة، والموت والبلاء في رقبته، والحساب عليه، والثواب والعقاب امامه، وانه قد استوجب العذاب بذنبه، وأن عليه الشكر إذ جعله في موضع لا يشينه فيكون عند الناس وضيعاً.

فعليه في ذلك الشكر، وأن آباءه من تقدم منهم في الشرك غير معجب بهم، ولا يليق بهم الإعجاب، ولا لهم عند الله عز وجل قدر، بل الكلاب عند الله تعالى خير منهم، كما قال النبي ﷺ: «لَيدعنَّ قوم الفخر بآبائهم وقد صارت فحماً في جهنم، أو ليَكونُنَّ أهون على الله عز وجل من الجعلان التي تذوق بآنافها[1] القدر»[2].

والحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «افتخر رجلان عند موسى عليه السلام قال احدهما: انا فلان ابن فلان حتى عدّ عشرة معه، فمن أنت؟ فأوحى الله عز وجل إلى موسى عليه السلام: قل للذي افتخر بآبائه تسعةٌ من أهل النار أنت عاشرهم في النار»[3].

وإن كان من آبائه من له صلاح ودين فهو على ما وصفتُ لك.

قلت: فإن كان آباؤه ليس لهم أصل في العرب، ولا سابقة في الصلاح والطاعة إلا أن لهم الشرف في الملك والسطوة المتقدمة، ما العجب بذلك؟

قال: استعظام القدر، ونسيان ما صار إليه آباؤه من العذاب، وأن ما كانوا فيه عار عليهم عند أهل العقل، وشين عند الله عز وجل، ويرى ان له الفضل على غيره، ويحتقره ويتكبر عليه، وينسى عاقبة ما كانوا فيه، ويضيّع الشكر إذ أخرجه الله عز وجل منهم،

---

(١) الأناف: جمع أنف.

(٢) اخرجه: أبو داود في سننه، الباب ١١١ من كتاب الأدب، والترمذي في سننه، الباب ٧٣ من كتاب المناقب. واحمد بن حنبل في مسنده ٣/٣٦١، ٣٦٤.

(٣) انظر: باب التفاخر بالأحساب في سنن الترمذي من كتاب الأدب.

وخصَّه بالإسلام والمنَّة، وأبدله بشرفهم شرف الإسلام، وجعل دينه الإيمان.

فيتكبر ويفتخر، ويحقر من دونه في الحسب، حتى يرى انه خير ممن تقدمت له السابقة في الصلاح، وربما أورثه ذلك غشاً للإسلام، وعداوة للدين ولهم، لأنهم هزموا آباءه وغلبوهم، وورثوا أرضهم وديارهم بالحق ونصر الدين[1].

قلت: فم ينفي ذلك؟

قال: بمعرفته بما كانوا فيه من السطوة على عباد الله عز وجل، والفساد في أرضه، والكفر والجحد به، وما صاروا إليه من العذاب والهوان، وما منَّ الله عز وجل عليه به، إذ أخرجه منهم ولم يجعله مثلهم، وأبدله شرف الإسلام، وزينة الإيمان، لأنه لا فخر بأهل النار ولا بكثرتهم.

وإن كان لهم مع ذلك كرم في الدنيا في الرأي والقول، وحسن المداراة لمن استرعوه، حمد الله تعالى إذ زال عنه ان يجعله ممن يعير به، كالزنج وغيرهم، وعليه في ذلك الشكر، إذ لم يعترضه ـ لفتنته ـ الضعة في قدر الدنيا.

ومع ذلك إن العجب بآبائه عنه زائل، للمعرفة بقدرهم عند الله عز وجل وعند أوليائه من المؤمنين، لا يُعظم إلاّ من عَظُم عند الله عز وجل، ولا يُصغر إلاَّ من صَغُر عند الله عز وجل.

باب العجب بكثرة العدد

قلت: فالعجب بكثرة العدد من الولد والخدم والموالي والعشيرة والأصحاب والأتباع؟

قال: الاستكثار بهم، والإتكال عليهم بالتحرز بهم، والغلبة لغيرهم، والتزين بهم، والاتكال على عددهم، ونسيان الإتكال على الله عز وجل، كما فعل بعض أصحاب النبي

---

(١) وغالب المنافقين من هذا النوع، ومن لم يجهر بنفاقه منهم حاول ان يطوع شرائع الإسلام لهواه، ويعمل بالتأويل الفاسد في سبيل ذلك.

ﷺ يوم حُنين، فأنزل الله عز وجل: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُم كَثْرَتُكُمْ﴾ [1]، إذ قال قائلهم: لن نغلب اليـوم من قلّة فاتكل على الكثرة وأغفل ذكر الله عز وجل، فعوتبوا على ذلك وعلى الإفتخار بالكثرة والعزّة بهم.

وقد يكون ذلك من المؤمنين ومن الكافرين، كما قال الكافرون: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وَأَوْلَاداً﴾ [2].فيستطيل المعجب بالكثرة على الناس،ويجترىء على المشاتمة والقتال والضرب لغيره، متّكلا على كثرتهم لينصروه ويمنعوه، ويحمله ذلك على جحد الحقوق، والجور والظلم بالاتكال على الكثرة.

وبالعجب ظلَـمَ اكثر من ظلم واستطال.

قلت: فبم أنفي ذلك؟.

قال: بمعرفتك بضعفك وضعفهم، وأن من لم ينصره الله عز وجل فلا ناصر له، ومن لم يَقِهِ الله عز وجل فلا واقي له، وأن الإتكال عليهم دون الإتكال على الله عز وجل يستأهل به صاحبه الخذلان من الله عز وجل، حتى لا ينفعه جمعهم ولا كثرتهم، وقد يعجل ذلك له، فإن لم يعجل ذلك لم يغترّ، وتوقع ذلك سريعاً إن لم [3] يُقِلْها أهلَ حُنين، وهم خير عصابة على وجه الأرض وكيف يُقلها العاصي الظالم المسرف على نفسه.

وبمعرفته ان الجمع سيتفرق عنه وأنه سيخـلو بنزع الموت وحده، ثم يموت فيسلمونه إلى البلى، ولا يغنون عنه من الله عز وجل شيئاً، وان كل من استعان بهم فأعانوه عليه، او استطال او ظلم بقوتهم أن ذلك كله مثبت عليه مجزى به، حين يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه، ومن يعجب بهم جميعاً، بل يتمنى يوم القيامة، إن لم يعفُ الله عز وجل عنه، أنهم فداؤه من النار، وبأن الشكر عليه فيما أعطاه من كثرة، وجعله من أهل الكثرة، وأنه إن ضيّع الشكر أغضب الله عز وجل بذلك، ولم يغنوا عنه من الله شيئاً، ولم يدفعوا عنه ما قدر في دين ولا دنيا.

فإذا ألزم قلبه هذه المعرفة زال عنه العجب بذلك، واهتمّ بالعمل، وخاف المقدور واتكل على الربّ عز وجل لا على غيره.

(١) سورة التوبة، الآية: ٢٥. (٢) سورة سبأ، الآية: ٣٥.

(٣) يعني: لم يدع إعجاب الصحابة يوم حنين دون مؤاخذة.

باب العجب بالمال

قلت: فالعجب بالمال ما هو؟

قال: استكثاره والاتكال عليه، حتى يخرج إلى الاستطالة به والافتخار به كما قالوا: ﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً﴾. ويحقر به الفقير، ويطلب به [1] الشهوات التي لا تحل ويجترىء به على الظلم، ويتعظّم على الفقراء ويتقذّرهم، كما روي عن النبي ﷺ: أنه رأى رجلا غنياً قد قبض ثيابه وكفها أن تصيب ثياب رجل فقير إلى جنبه، فقال له النبي ﷺ: «أخشيت أن يعدو فقره على غناك»؟ [2].

قلت: فبِمَ ينفي العبد ذلك؟.

قال: بمعرفة أنه إنما ابتلي به للفتنة والامتحان، وأن الحقوق عليه أكثر وأوجب منها على الفقير، وأنه قد عُرِّض للعطب، إلا أن يشكر ربه عز وجل، فيرحم نفسه من كثرته، ويشفق منها، ويرى للفقير عليه فضلا إذ أزيلت عنه الفتنة، ووجوب كثرة الحقوق عليه من الحج والزكاة والصلة للرحم، وإقراء الضيف، ومواساة الجار وغيره.

وقد أشفق الصالحون من كثرتها، وأشفق عبد الرحمن بن عوف وخبَّاب وغيرهما من ذلك.

وقال النبي ﷺ يرويه عنه أبو ذر: «ما يسرني أن لي مثل جبل أحدٍ ذهباً أنفقه في سبيل الله تأتي عليه ثالثة وعندي منه قيراط أو قيراطان» [3] فراراً من الكثرة لمعرفته بها، وزهداً فيها.

---

(١) في ط: ليطلب له.

(٢) أخرجه: الإمام أحمد في الزهد، وفيه أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً غنياً جلس بجانبه فقير فانقبض عنه وجمع ثيابه، فقال عليه الصلاة والسلام: أخشيت أن يعوده إليك فقره.

(٣) أخرجه بألفاظ متقاربة: البخاري في صحيحه، الباب الثالث من كتاب التمني، والباب الرابع من كتاب الزكاة، والباب الثالث من كتاب الإستقراض، والباب ٣٠ من كتاب الإستئذان، والباب ١٤ من كتاب الرقاق. ومسلم في سننه، حديث ٣١، ٣٤ من كتاب الزكاة. وسنن إبن ماجه، الباب ١٠ من المقدمة، والباب ٣ من كتاب الزكاة، والباب ٨ من كتاب الزهد، والدارمي في مسنده، الباب ٥٣ من كتاب الرقاق. وأحمد بن حنبل ٢/٢٥٦، ٣١٦، ٣٤٩، ٣٦٧، ٣٩٩، ٤١٩، ٤٥٠.

وقال ﷺ: « الأكثرون هم الأقلون إلا من قال بين عباد الله بالمال هكذا وهكذا عن يمينه وشماله وبين يديه ومن خلفه »(١).

فإذا ألزمَ ذلك قلبَه حقر نفسه وخاف عليها، وعظّم الفقير لأنه أقلّ بلاء منه ألا ترى إلى ما لقي من أخرجه العجب بالكثرة إلى ما لا يحل له؟

من ذلك ما وصف الله عز وجل به قارون في تجبُّره واختياله، حين خرج على قومه في زينته، فخسف الله عز وجل به الأرض.

وقال النبي ﷺ: « بينما رجل يتبختر في حُلّة له، أو قال في بُردين له، وقد أعجبته نفسه، إذ أمر الله الأرض فأخذته فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة »(٢).

فيخاف ما يؤدي إليه العجب بالمال والزينة من العقوبة، فأوضعُ من يرى عنده خيرٌ منه إذ لم يبتل بمثل ما ابتلي به، ألا ترى إلى حديث أبي ذر قال: كنت مع النبي ﷺ فدخل المسجد فقال لي: « يا أبا ذر، ارفع رأسك فانظر أرفع رجل تراه في المسجد » فرفعت رأسي فإذا رجل يتبختر في حلّة، فقلت هذا، فقال: « ارفع رأسك فانظر أوضع رجل في المسجد » فإذا رجل عليه خلقان له، قلت هذا، فقال: « يا أبا ذر هذا عند الله خير من قراب الأرض مثل هذا »(٣) لأنه ليس يُرفع عنده إلا بالطاعة لا بالمال وغيره.

فإذا ألزم قلبه هذا، خاف من كثرة ماله، ورأى أن الفقير خير منه، وأنه إنما فضُل عليه بالبلاء والفتنة، وكثرة واجب الحقوق.

ويعلم أن الله عز وجل قد منَّ عليه بالمال لينظر كيف شكره، وأنه لا يعرف أنه شكر الله عز وجل كما يحق له فيشفق من ذلك، ويزول عنه العجب بالمال إن شاء الله.

قلت: فقد رأيت أكثر العلماء يسمي من تكبّر معجباً، ويصف العجب بصفة الكبر.

---

(١) أخرجه: إبن ماجه في سننه، الباب الثامن من كتاب الزهد، وأحمد بن حنبل في مسنده ٣٠٩/٢٥، ٣٥٨، ٣٩١، ٥٢٥، ١٨١/٥.

(٢) أخرجه: مسلم في صحيحه، الحديث ٥٠، ٥١ من كتاب اللباس. والدارمي في مسنده، الباب ٤٠ من المقدمة. واحمد في مسنده ٢٢٢/٢، ٢٦٧، ٣١٥، ٤١٣، ٤٩٢، ٤٩٧، ٥٣١.

(٣) أخرجه: أحمد في المسند ١٧٠/٥.

قال: إن أول بُدُوِّ الكبر العجب، فمن العجب يكون أكثر الكبر، فمنه سمِّي بالكبر، ولا يكاد المعجب أن ينجو من الكبر.

فلما كان العجب هو الذي أخرج إلى الكبر وعنه كان، فإنه يسمى[1] به، دلت أخلاق الكبر عليه[2]، لأنه قد يستعظم ما أُعطي من دين أو دنيا، ولا يتعظم به على أحد، فذلك العجب إذا نسي منة الله عز وجل بذلك، فإذا تعظم به على غيره، وأنف منه فحقره فقد تكبر.

لأنه إذا أعجب بنفسه ولم يحقر غيره كان معجباً ولم يكن متكبراً، فإذا أعجب بنفسه ثم نظر إلى غيره وقال في نفسه: أنا خير منه محتقراً له، مزدرياً به، سمِّي حينئذ الكبر عجباً، من أجل أنه هو أهاجه على الكبر.

وليس الكبر هو العجب.

---

(١) أي: فإن العجب يسمى كبرا.

(٢) أي: دلت أخلاق الكبر على العجب.

كتاب البر

باب وصف الكبر وشعبه وشرح وجوهه

قلت: وما الكبر؟ وممّ يكون؟

قال: إن الكبر [من] عظيم الآفات، عنه تشعبُ أكثر البليات، يُستوجَب به من الله عز وجل سرعة العقوبة والغضب، لأن الكبر لا يحق إلا لله عز وجل، ولا يليق ولا يصلح لمن دونه، إذ كل مَنْ سواه عبد مملوك، وهو المليك الإله القادر.

فعظم عند الله عز وجل الكبر ذنباً، إذ كان لا يليق بغيره، فإذا فعل العبد ما لا يليق إلا بالمولى جل وعز اشتد غضب المولى تعالى عليه.

ألا ترى ما يروي أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال:

إن الله عز وجل يقول: «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، فمن نازعني فيهما أدخلته ناري»[1]. فيستحق المتكبر أن يقصمه الله عز وجل ويحقره ويصغّره، إذ جاز[2] قدرَه وتعاطى ما لا يصلح لمخلوق.

وكما يروى عن النبي ﷺ، وعن عمر رضي الله عنه أنه قال: «من تواضع لله عز

---

(١) أخرجه: أبو داود في سننه، الباب ٢٥ من كتاب اللباس، وإبن ماجه في سننه، الباب ١٦ من كتاب الزهد. وأحمد بن حنبل في مسنده ٢/٣٧٦، ٤١٤، ٤٢٧، ٤٤٢.

(٢) أي: تعدى منزلته.

وجل رفعه الله هكذا، ومن تكبر هكذا وضعه الله هكذا »[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « ما من بني آدم أحد إلا وفي رأسه حَكَمة[٢] بيد ملك، فإن تواضع لله رفعه الله إلى السماء السابعة، وإن أراد أن يرفع نفسه وضعه الله في الأرض السابعة »[٣].

وعن عبد الله بن سلام قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا يدخل الجنة مَنْ في قلبه مثقال حبة من خـردل من كبر »[٤].

وعن سلمان الأغر عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: « الكبر ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني أحدهما قذفته في النار »[٥].

وعن كعب: « ما من عبد إلا وفي رأسه حكمة بيد مَلك فإن تواضع رفعه الله وقال: انتعش أنعشك الله، وإن تكَبّر وضعه وقال: اتضع وضعك الله ».

فيستأهل (هذا)[٦] المتكبر أن يضعه الله ويحقره، ويصغّره في الدنيا والآخرة، ألا ترى أن الله عز وجل يقول: ﴿**وَالـمَلاَئِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِم**﴾ إلى قوله: ﴿**وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ**﴾[٧]، ثم قال تعالى لأهل النار: ﴿**ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْـمُتَكَبِّرِينَ**﴾[٨]. ثم أخبر عز وجل أنَّ أشد أهل النار عذاباً أشدهم عتياً[٩] على الله عز وجل وأنهم المتكبرون، وتحمل عليهم أوزارُهم وأوزار الضعفاء الذين اتبعوهم، قال الله عز وجل حين ذكر جُثاهم حول جهنم:

---

(١) أخرجه: أحمد بن حنبل ١/٤٤.

(٢) الحكمة ـ بفتح الحاء والكاف ـ ما تحكم به الدابة من لجام ونحوه.

(٣) أخرجه: ابن ماجه مع اختلاف يسير في اللفظ من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد حسن، وأخرجه أيضاً أبو يعلى وأحمد في مسنده وفي إسناده إبن لهيعه، وفيه كلام.

(٤) أخرجه:

(٥) سبق تخريجه.

(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٧) سورة الانعام، الآية: ٩٣.

(٨) سورة غافر، الآية: ٧٦.

(٩) العتي والعتو: التجبر، والتكبر، والجرأة.

﴿ثُمَّ لَنَنْزَعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا﴾ [1].

قيل في التفسير: بدأ بالأكابر فالأكابر جُرْماً.

وقال الله عز وجل: ﴿فَالذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ [2] ثم قال عز وجل قائلا: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ القِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [3].

وقال عز وجل: ﴿يقول الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [4].

وقال الله عز وجل يصف به قوم صالح: ﴿قَالَ الملأُ الّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ: أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ﴾ [5].

فأخبر أن المستكبرين هم أهل الجحد لله تعالى والخلاف عليه، وأهل الصدّ عن سبيله للضعفاء. وأهل الخلاف على الرسل والأنبياء.

وقال الله عز وجل: ﴿إنَّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [6] يعني صاغرين وكذلك يحشرون.

وقال ابن عمر: «يحشر المتكبرون يوم القيامة في صور الذين يتواطأهم الخلائق».

فحمل الكبرُ أكثرَ العباد على الرد على الله أمره والجحد به، وهو إلى المعاصي أقرب وأسرع، ولم يجعل الله عز وجل للمتكبرين موضعاً في جواره، إنما يجاوره من تواضع لجلاله وهيبته.

ألا ترى إلى ما يروى عن النبي ﷺ يرويه عنه ابن مسعود أنه قال: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردلة من كبر» [7]؟ وذلك قول الله، عز وجل: ﴿تِلْكَ

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٩.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ٢٥.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٣١.

(٥) سورة الاعراف، الآية: ٧٥.

(٦) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٧) سبق تخريجه.

﴿الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا﴾ الآية[1].

قال ابن جريج: علوا: تعظماً وتكبراً، فأخبر أن القليل منه لا يَدخل صاحبهُ الجنَّة من أجله، وكفى بذلك بلية.

ويستأهل أيضاً المتكبِّر أن يزيل الله عنه النعمة التي تكبَّر بها لأنه لا يتكبَّر إلا بنعمة الله عز وجل، ومن ذلك حديث خليع بني إسرائيل حين أنف منه عابدهم فحبط أجره وغفر للخليع، وتحوَّلت الغمامة على رأس الخليع[2].

ثم مع ذلك إنه يستحق من الله عز وجل ألا يفهِّمه العلم، ولا يفقِّهه في الدين. ومن ذلك قوله عز وجل: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[3] قيل في بعض التفسير: سأرفع فهم القرآن عن قلوبهم وفي بعض التفسير سأحجب قلوبهم عن الملكوت. يعني عن النظرة إلى ما غاب باليقين[4]، وما شاهدوا من العبر، وكفى بذلك بلاءً وخذلانا.

قال ابن جريج: سأصرفهم عن أن يتفكروا فيها ويعتبروا.

وروي عن عيسى ابن مريم عليه السلام، أنه قال: «إنّ الزرع إنما ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا، وكذلك الحكمة: تعمر قلب المتواضع، ولا تعمر قلب المتكبِّر، ألاَ ترى أنه من شمخ برأسه إلى السقف شَجَّه[5]، ومن تطأطأ أظله وأكنه».

مثلٌ ضربه للمتكبِّر: إنه إن تكبَّر وضعه الله وأزال عن قلبه فهم الحكمة، وإن تواضع أفهمه الله عز وجل حكمته، ونفعه بها.

فالمتكبر يتعرّض للمقت من الله عز وجل، وسُرعة المعاجلة بالعقوبة، ألا ترى إلى ما يَرْوي أبو عمران الجَوْنيّ، وفي رواية أخرى عن مالك بن دينار «أن سليمان، عليه

---

(١) سورة القصص، الآية: ٨٣.

(٢) سيأتي تفصيل خبره قريبا إن شاء الله.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٦.

(٤) أي: شهود الغيب كأنه يقين مشهود ظاهر.

(٥) أي: أصابه وأدماه.

السلام، أمر الريح، فقال: ارفعينا، فرفعتم، حتى سمعوا زجل الملائكة بالتقديس، ثم قال لها: اخفضينا، فخفضتهم، حتى مسَّت أقدامهم البحر، فإذا منادٍ ينادي من السماء: إن الله عز وجل يقول: «لو أعلم من قلب صاحبكم مثقال خردلة من كِبر لخسفت به أبعد مما رفعته».

قلت: الكِبر ما هو، وممّ يكون؟ وابدأْ بما يكون عنه الكبر، وممّ يتشعب؟

قال: الكبر يتشعب من العجب، والحقد، والحسد، والرياء، وأصل ذلك من جهل معرفة القدْر، فإذا جهل العبد قدرَه تكبَّر.

قلت: قولك تكبَّر ما معناه.

قال: إذا جهل قدر نفسه عَظم قدرها عنده، فتعظّمَ[1] على الخلق وأنف، فالكبر التعظُّم، وعنه يكون أخلاق الكبر، وأخلاق الكبر كلها تسمّى كبراً.

وقد يكون عن الحقد، والحسد، والرياء، والعجب (وغير ذلك)[2]، إلا أن أوله في القلب استعظام القدر، فإذا استعظم العبد قدره تعظّمَ، فإذا تعظم أنِف وحمي، وتعزز وافتخر، واستطال، ومرح واختال.

فالكبر: التعظُّم.

قال عطاء الخراساني عن ابن عبّاس في قوله، عز وجل: ﴿**إن فِي صدُورِهِمْ إلاّ كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ**﴾[3]، قال: عظمة لم يبلغوها، وقال ابن جريج «عُلوًّا في الأرض»: تعظماً، فأخبر ابن عبّاس أن الكبر هو التعظّم، وعنه تكون أخلاق الكبر، وأخلاق الكبر كلها تسمّى كبراً.

ألا تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿**إنِّي عُذْتُ بِرَبِّي ورَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَ**

---

(١) في أ فتكبر.
(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٣) سورة غافر، الآية: ٥٦.

يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسَابِ﴾[1]، وقال عز وجل: **﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ علَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾**[2].

قلت: قد أراك ذكرت أخلاقه بوجوه شتى، وتشعبه، من وجوه شتى، ففسِّرْ لي كل وجه من أخلاقه على جهته ومعناه: قال: إن الكبر على وجهين: أحدهما: كبر بين العباد وبين ربِّهم، عز وجل، وهو أعظم الكبر، والآخر: كبر بين العبد وبين العباد، فأما ما كان بين العبد وبين ربِّه تعالى، فقوله تعالى: **﴿إن الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾**[3]. وقال عز وجل: **﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الـمَسيحُ أنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ ولاَ الملائِكَةُ الـمُقَرَّبُونَ ومَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فسَيَحْشُرُهُم إليهِ جَميعاً﴾**[4]. وذلك الأنف عن الكبر، وهو من الكبر: خلق عظيم شديد عند الله، عز وجل، قال: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا: ومَا الرَّحمنُ؟ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وزَادَهُمْ نُفُورا﴾**[5]، وقال أيضاً: **﴿... نُفُوراً اَسْتِكْبَاراً في الأرضِ ..﴾**[6].

ومن ذلك استكْبر إبليس على آدم، حتى خرج به إلى المعاندة وترك السجود لطاعة ربِّه عز وجل: وكذلك يروى عن النبي ﷺ «إن إبليس إذا رأى آدم ساجداً قال يا ويله، أمر هذا بالسجود فسجد، وأُمِرْتُ أنا بالسجود فلم أسجد».

وقد كان الأنف من الركوع عند العرب قديماً، يأنفون منه من أجل التحنية، لأن التحنية عندهم قبل أن يبعث النبي ﷺ كانت ضعة يأنفون منها، ومن ذلك قول حكيم بن حزام: بايعتُ النبي ﷺ أن لا أخرّ إلا قائماً، فبايعه النبي ﷺ على ذلك، ثم فقه بعد[7]، رحمه الله، وقال أبو سُفيان: يا معشر قريش، إن الله لا يصنع بتحنيتكم شيئاً، وذلك عندهم قديماً يأنفون منه، يعرف ذلك منهم،

---

(١) سورة غافر، الآية: ٢٧.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣٥.
(٣) سورة غافر، الآية: ٦٠.
(٤) سورة النساء، الآية: ١٧٢.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٦٠.
(٦) سورة فاطر، الآية: ٤٣.
(٧) انظر القصة كاملة في سير السلف للحافظ اسماعيل الأصبهاني، حرف الحاء.

ويعرفونه من أنفسهم، حتى إن كان أحدهم ليقع منه الشيء فيدعه ولا يأخذه يأبى أن يخرّ له، ومن الناس اليوم من تنقطع نعله فتقع، فيأنف أن ينكس لأخذها، فأنفوا من السجود، إذ كان عندهم ضِعَةً من أجل التحنية. ومن ذلك ما يروى عن حبيب عن يحيي بن جعدة، قال: «من وضع جبهته لله ساجداً فقد برىء من الكبر»[1]. يعني الكبر بينه وبين ربّه، عز وجل.

وقد يجامع هذا البابَ من الكبر بينه وبين ربّه الردُّ على الرسل فيردّ أمره، ويعانده ويخالفه في أمره، فأنفوا ان يتبعوا الرسل عليهم السلام، ويكونوا لهم أتباعاً فعاندوا الله، عز وجل، في أمره، وردّوا كتابه، وجحدوا حجّته، ومن ذلك قولهم: ﴿**أنؤمِن لبشرَيْنِ مثلنا وقومُها لنا عابدون**﴾[2]؟ وقال: ﴿**ولَئِن أطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذَنْ لَخَاسِرُونَ**﴾[3] فأنفوا ان يكونوا تبعاً لمن هو مثلهُم في الخلقة، وقالوا: ﴿**لولا أنزلَ علينا الملائكة أو نرى ربّنا**﴾[4] قال الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا في أنْفُسِهِم وعتَوْا عُتُوًّا كَبِيراً**﴾[5]، ﴿**وقَالُوا لَولاَ أُنْزِلَ إلَيْهِ مَلَك فَيَكُونَ معَهُ نَذِيرا**﴾[6]، ﴿**وقالُوا: لَوْلا أُنزِلَ علَيْهِ كنْزٌ أوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ؟**﴾[7] وقال فرعون: ﴿**أوْ جاءَ معَهُ الملاَئِكَةُ مُقْتَرِنين**﴾[8]، وقال الله عز وجل: ﴿**واْستَكْبَرَ هُوَ وجنُودُهُ في الأرض بِغَيْرِ الحَقِّ**﴾[9] فأنف أن يكُونَ عبداً لله عز وجل، يعبده حتى ادّعى الربوبية.

وقال وهب: قال له موسى عليه السلام: آمن ولك الجنة ولك ملكك، قال: حتى أشاور وزيري هَامان، فشاوره وأخبره بما قال له موسى عليه السلام، قال له: بينا أنت ربّ تُعْبَدُ إذ صرت عبداً تَعْبُدُ!! فأبى حينئذ إلاَّ المعاندة لموسى عليه السلام: واستكبروا ان يخضعوا لبشر مثلهم، وأرادوا ان يبعث إليهم من هو أعظم منهم،

---

(١) اخرجه الترمذي في سننه، الباب ٢١ من كتاب السير.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٤.
(٤) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٥) سورة الفرقان، الآية: ٢١.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٧.
(٧) سورة هود، الآية: ١٢.
(٨) سورة الزخرف، الآية: ٥٣.
(٩) سورة القصص، الآية: ٣٩.

وأظهر في الخلقة استكبارا، كما قال الله عز وجل: ﴿**لَقَدْ ٱسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ**﴾(١).

ومعه أيضاً حَقْرِيَّتهُم لمن اتّبع الرسل أن لا يكونوا مثلهم، ولا يدخلوا في مشاركتهم، وقالوا لنوح ﷺ: ﴿**وما نَرَاكَ اتَّبعك إلاّ الَّذينَ هُمْ أراذِلُنا بَادِيَ الرَّأي**﴾(٢)، قال عطاء الخراساني عن ابن عباس رضي الله عنه: بادي الرأي: باديء ما ظهر، فقال لهم: يخبر انهم يأنفون منه، وأنه ليس بالظاهر يصغر العبادَ عند الله فقال: ﴿**ولا أقُولُ لِلَّذينَ تَزْدَري أعْيُنُكُم لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْراً اللهُ أعلَمُ بما في أنْفُسِهِمْ**﴾(٣). فأخبر أنهم ازدروهم كبراً واستعظاماً عليهم، فلم يتبعوه، وردُّوا على الله عز وجل، وكذبوا رسله، وجحدوا بآياته.

وقالت قريش: ﴿**لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا القُرآن علَى رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظيمٌ**﴾(٤)؟ قال قتادة: هو الوليد بن المغيرة، وأبو مسعود الثقفي، يريدون ان يتبعوا من هو أعظم في الرياسة والدنيا من النبي ﷺ، لأنهم قالوا: غلام يتيم بعثه الله إلينا؟ قال الله عز وجل: ﴿**أَهُمْ يَقْسِمُونَ رحْمَةَ رَبِّكَ**﴾(٥).

وقالوا ـ ازدراء لمن اتبعه ـ: ﴿**لو كانَ خَيْراً مَا سَبقُونَا إلَيْهِ**﴾(٦) أي إنَّا أكبر منهم، وأحق بالخير أن نُؤْتاه منهم؛ ومنها قول قارون: ﴿**إنَّمَا أُوتيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾(٧) فرأوا بما يَعْتقدون: من ارتفاعهم عليهم قبل أنْ يبعث الرسول ﷺ أنهم أحق ان يُخَصُّوا بالخير، وأنهم، من حقريتهم لهم، لا يستحقون ان يُخَصُّوا بالخير من بينهم؟ قال الله عز وجل لِيَقُولوا: ﴿**أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا**﴾(٨). استكباراً من أجل حقريتهم لهم، وتعظُّمهم عليهم، فردُّوا على الله عز وجل أمره، وخالفوا رسول الله ﷺ استكباراً وأنفاً، حتى جحد كثير من أهل الكتاب الحق، وهم يعلمون أنه الحق، كبراً وأنفاً، ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿**فلَمَّا جاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾(٩).

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢١. (٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١. (٧) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٢) سورة هود، الآية: ٢٧. (٥) سورة الزخرف، الآية: ٣٢. (٨ـ٩) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.
(٣) سورة هود، الآية: ٣١. (٦) سورة الأحقاف، الآية: ١١.

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿**وجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهُمْ**﴾ [١]، وقد اختلف في تفسير ذلك، ثم أخبر الله عز وجل ما الذي حملهم على ذلك فقال: ﴿**ظُلْماً وعُلوًّا**﴾ [٢] أرادوا العلوّ وهم ظالمون في ذلك؛ ألا ترى أنه يقول: ﴿**تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا في الأرْضِ ولاَ فَساداً والْعاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ**﴾ [٣]؟

وقالت قريش: يا محمد يجلس إليك عبيدنا في قصة طويلة، فأنزل الله عز وجلَّ: **ولا تَطْرُدِ الَّذينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالغَداةِ والعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجهَهُ، ما عَلَيْكَ مِنْ حِسابِهِم مِنْ شيْءٍ**﴾ إلى قوله: ﴿**أهَؤُلاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِم مِنْ بَيْنِنَا**﴾ [٤]. وقالَ: ﴿**وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عنْهُم تُرِيدُ زينَةَ الحَيوةِ الدُّنْيا**﴾ [٥] يقول: تريد رفعة في الدنيا، وقالوا حين دخلوا جهنَّم يخبرنا الله عزَّ وجلَّ عنهم أنهم سيقولون ذلك: ﴿**ما لَنا لا نَرَى رجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِنَ الأشْرارِ**﴾ [٦] يخبرون عن أنفسهم أنهم كانوا يحقرونهم ويزدرونهم، قيل: أبو جهل، يعني بقوله عمَّاراً وبلالاً وصهيباً والمقداد رحمهم الله عزَّ وجلَّ.

وأما الوجه الآخر من الكبر -الذي بين العباد، فهو التعظم عليهم.

قلت: ما حقيقة التعظم عليهم، قال: خصلتان، إحداهما: الحقرية لهم والأنفة منهم، وذلك انه يرى انه خير منهم فهو ينظر إليهم بالإزدراء والحقرية لهم.

والخصلة الثانية: ردُّ الحق عليهم أن يقبله منهم وهو يعلم انه حق، إن أمره بعضهم بخير، أو نهاه عن منكر، أو ناظره في دين فيرد الحق وهم يعلم، كما وصف الله تعالى عن بني إسرائيل، قال: ﴿**وجَحَدُوا بها واسْتَيْقَنَتْها أنفُسُهُمْ ظُلْماً وعُلُوًّا**﴾ [٧] وقال: ﴿**فلَمَّا جاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ**﴾ [٨] فإن ناظر أحداً

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٢) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٣.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٥٢، ٥٣.
(٥) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٦) سورة ص، الآية: ٦٢.
(٧) سورة النمل، الآية: ١٤.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

كان هِـمَّتهُ الغلبةُ والرد وترك الفهم، أنفاً وتعززاً ان يتعلم من غيره وحقرية له، وحباً للغلبة، كما وصف الله عز وجلَّ عن الجاحدين، فقال تعالى: ﴿**وقالَ الَّذينَ كَفَرُوا لا تَسْمَعُوا لِهَذا القُرْآنِ والْغُوا فيهِ لعَلَّكُـمْ تَغْلِبُونَ**﴾ (١) فإن أمره بخير أنف وأخذته العزة، فرد الحق بالغضب، استعزازاً للكبر الذي في قلبه، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿**وإذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ العِزَّةُ بالإثْـم**﴾ (٢).

وروى عن عمر أنه قرأها فقال: إنَّا لله وإنَّا إليْهِ راجِعُونَ، قام رجل فأمر بالمعروف فقتل، وقال: ﴿**ويَقْتُلُونَ الَّذينَ يأمرونَ بالقِسْطِ مِنَ النّاسِ**﴾ (٣) فيَقتُل المتكبّرُ من أمره ومن خالفه كبراً؛ ألا تسمع إلى قول الله عز وجل: ﴿**وَإذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُـمْ جَبَّارِين**﴾ (٤).

وقال عبد الله بن مسعود: كفى بالرجل إثماً إذا قيل له اتق الله قال: عليك نفسك، وهل أنت تأمرني؟ قال النبي ﷺ لرجل: «كل بيمينك» قال: لا أستطيع، فقال النبي ﷺ: «لا استطعت، ما منعك إلا الكبر» (٥) قال: فما رفعها بعد ذلك إلى فيه، رواه عنه سلمة بن الأكوع.

فمن رأى نفسه أنه خير من غيره، مزدرياً به، حاقراً له، أو رد حقاً وهو يعلم انه حق فقد تكبّر بينه وبين الخلق، وقد يؤول به هذا الكبر بينه وبين الخلق إلى أن يتكبّر بينه وبين الله عز وجل، كما فعل إبليس، قال ابن عجلان: ما زاد إبليس على أن قال: أنا خير منه، فلما رأى انه خير منه أنف ان يسجد له، وقد علم ان ذلك مهلكة، إذ رد على الله عز وجل أمره، وعاند بقوله: لا أسجد، أبيا على الله عز وجل، معانداً الله سبحانه للأنف، إذ رأى انه خير من آدم، لانه عند نفسه كان خير أصل من آدم عليه السلام، لأن أصلَهُ النار وأصل آدم عليه السلام

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٢٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٦.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٢١.

(٤) سورة الشعراء، الآية: ١٣٠.

(٥) أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ١٠٧، من كتاب الأشربة.

الطين، والنار أقوى من الطين، لأنها تأكل الطين، قال ذلك جهلاً بالله عز وجل، وأنفا من آدم عليه السلام، فأخرجه الكبر على آدم، إلى أن رد على رب العالمين عز وجل، فكفر بذلك، فجعله لعيناً ملعناً، ويجمع ذلك كله قول المصطفى ﷺ، حين سأله ثابت بنُ قيس بن شماس، فقال: يا رسول الله إني امرؤ قد حبّب إلي من الجمال ما ترى، أفمن الكبر هو؟ قال: «لا، ولكِن الكبر من بطر الحق وغمط الناس»[(١)]. يعني: ازدراء الناس، وفي حديث آخر «مَنْ سَفَهَ الحق وغمض الناس»[(٢)] يعني: ازدرى الناس وحقرهم، فمن تعظّم وأنف ان يقبل عن الله عز وجل أمره، وأن يذل ويخضع لطاعته، فقد تكبّر بينه وبين ربه جل وعلا، ومن رأى انه خير من أخيه حقرية له وازدراء به، أو ردَّ الحق وهو يعرفه، فقد تكبّر بينه وبين العباد، فأصل الكبر التعظم، وحقيقته الأنف وازدراء العباد، ورد الحق بعد علم به، فذلك جماع الكبر.

باب الكبر (يكون)[(٣)] عن العجب

وتفسير الكبر بالعلم

قلت: ما الكبر الذي يكون عن العجب؟

قال: الكبر الذي يكون عن العجب في الدين بالعلم والعمل.

فإذا كان من قبل العلم، فإن العالم إذا أعجب بعلمه اخرجه عجبه إلى الكبر تعظُّماً على العباد، فيتكبر على العوام، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل منه،

(١) انظر باب الكبر والحسد والغش من كتاب [المسائل] للمحاسبي نشر عالم الكتب بالقاهرة، ففيه تفاصيل أوسع.

وانظر كذلك باب أصل الخلقة من الأمد الأقصى للدبوسي. تحقيق محمد عبد القادر عطا. وقد صدر حديثاً. دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

والحديث أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ١٤٧ من كتاب الإيمان.

(٢) اخرجه: ابو داود في سننه، الباب ٢٦ من كتاب اللباس، واحمد بن حنبل ١/٣٨٥، ٤٢٧.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وذلك الذي خافه عمر رضي الله عنه على العلماء حين قال: «تواضعوا لمن تعلّمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم[1]». أي: لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به.

فإذا تكبر العالم بعلمه حقَّر من دونه في العلم، وازدراه وأقصاه وأبعده، واستذله وانتهره واستخدمه وامتنّ عليه بما يعلّمه، وتعظّم على العوام[1]، وانقض عنهم ليبدأوه بالسلام، ويسخر منهم[2] ويغضب عليهم إن استُخف بشيء من حقّه، أو لم تقضَ له حوائجه كبرا، لأنه يرى أنه يستحق ذلك منهم، وأن ذلك له عليهم واجب لازم، لعظم قدر نفسه عنده.

وإن حاجّ أو ناظر منهم ردّ الحقّ على علم، وإن وعظ عنَّف، وإن وُعظ عنف، تعززاً من التعظم والكبر.

وكذلك روى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال: ومن العلماء من إن وعظ عنف، وإن وعَظَ عَنِف، ويغضب إن استُخف بشيء من حقه او رُدَّ عليه بعض قوله، ووصف في هذا الحديث أن العلماء سبع طبقات، لأنه فوقهم وهم دونه تعظما وأنفاً ان يقبل منهم إن أمروه، أو علموه أو وعظوه، ويأنف ان يرفق بهم إن علمهم، او وعظهم، أنفا ان يكلمهم بالسويّة، لأنهم عـنده ليسوا مثله، محتقراً لمن دونه في التقى، ولمن فوقه في التقى، وينظر إليهم كأنهم الحمير التي لا تعقل، لا يرى ان أحداً منهم ينفعه علمه، وإن نفعه فهو حقير عنده، كل ذلك جهلا بالله عز وجل[3].

---

(١) هذا كله بكل أسف من خلائق المتصوفة المتأخرين الذين أطلقوا على غيرهم (علماء الأوراق). بل إن بعض المتصدرين للارشاد الذين شهدناهم يدينون بالكثير من تلك الأخلاق.

(٢) في ط: ويتسخرهم.

(٣) والمعمول عليه هنا حقيقة التواضع ورسوخـه في القلب، لا ظاهره الذي يتشدق به بعض العلماء بما هو أدخل في باب الكبر، فالتواضع المصنوع اشنع من الكبر الظاهر. والقياس الذي يوزن به التواضع هو: استعداد العالم المدعي للتواضع للتلقي على من هو أقل منه منزلة وأعظم منه علما كما كان يفعل السلف. فإن خف على قلبه فهو المتواضع، وإن ثقل عليه فهو منافق.

وهم أعلم بالله تعالى منه، لأنهم أخوف لله تعالى منه، لأنهم ينظرون إليه بالتعظيم وهو ينظر إليهم بالإزدراء بهم، فهو الوضيع وهم الرفعاء المتواضعون، لأن الله عز وجل يضع ويحقر من تكبر، ويرفع من تواضع له.

فيتكبر عليهم حقرية لهم، يفتخر عليهم بعلمه، ويعيرهم بجهلهم، مضيعاً لحقوقهم، فهو مزدريهم، ممتنّ عليهم، إن علمهم فهو جبار في علمه، غير متواضع لله عز وجل.

ومنهم من يتقي بعض هذه الخلال ويتكبر ببعضها.

فمن أوتي من العلم شيئاً فقد يعترض له التعظم على من دونه، ومنهم من يتكبر بغاية الكبر في علمه، ومنهم من يتواضع في خلق ويتكبر في آخر، على قدر عقله عن ربه عز وجل، وقدر معرفته بالحجة عليه لله عز وجل في علمه[1].

قلت: العلم يزيد العبد تواضعاً، فقد زاده العلم كبراً وجهلاً.

قال: إن العلم كما قال وهب: العلم كالغيث ينزل من السماء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها، فتحوله على قدر طعومها، فتزداد المرة مرارة، وتزداد الحلوة حلاوة، ويكثر ماؤها بالحلاوة، ويكثر ماء المرة بالمرارة.

فكذلك العلم، تحفظه الرجال؛ فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً، لأن من كانت همته الكبر فهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به، فازداد كبراً.

وإذا كان الرجل جاهلا وهو يخاف من الله عز وجل، ويعلم ان حجة الله تعالى له لازمة وإن كان جاهلا، فإذا حفظ العلم وفهمه ازداد خوفاً[1] ووجعاً كما قال معاذ: «من ازداد علماً ازداد وجعاً».

فإذا ازداد وجعاً لعظم الحجة عليه لما علمه الله عز وجل ازداد ذلا وتواضعاً، وإشفاقاً وخوفاً.

---

(١) في أ: ازداد الله خوفا.

وإذا كانت همتَه وهواه الدنيا والتعظيم، ازداد بالعلم كبراً وأنفاً، وحقرية لمن دونه، ورداً على من مثله ومن فوقه، كبراً وأنفاً وحبًّا للغلبة.

قلت: فما يعترض للعامل سواء أكان عالماً أو لم يكن عالماً؟

قال: يحقر من دونه ممن لا يعمل مثل عمله، سواء أكان أعلم منه أو أجهل منه، إن كان أجهل منه قال (عنه)[1] في نفسه: مضيّعٌ جاهل، وإن كان أعلم منه قال في نفسه: الحجة عليه عظيمة، وهو مضيع للعمل.

ويحقر من دونه في العمل، وينظر إليهم بالإزدراء، أو يتعظّم عليهم وينقبض عنهم، ليبدأوه بالسلام ولا[2] يبدأهم، ويبروه ولا يبرهم، ويزورونه ولا يزورهم ويعودونه ولا يعودهم، يريد ان يأخذ بفضله عليهم وينتهرهم، ويستخدم من خالط منهم ويسخرهم، ويأنف إن وعظوه، لأنه فوقهم في العمل، وهم مضيّعون مفرطون.

فإن بدأ أحداً منهم بالسلام، أو رد عليه أو قاومه، أو داخله، أو أجابه إلى دعوته، أو أنس به، رأى انه قد صنع إليهم معروفاً، وأنه قد فعل بهم ما لا يستحقونه من مثله، ولكن يفعل ذلك عنده بفضله عليهم، فقد تفضل عليهم بذلك عند نفسه.

وينظر إليهم بالاستصغار، وإلى نفسه بالتعظيم، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لهم، ويخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه[3]، بل لا يكاد إذا رآهم أو ذكرهم ان يذكر الخوف على نفسه، ولا يذكر إلا الخوف عليهم، يرى أنهم هالكون، كأنه قد أتاه من الله عز وجل الأمان بأنه لا يعذبه، وذلك هو الهلاك منه.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٢) في ط: فلا. وهو مخالف للسياق.

(٣) ولخدمة المصالح الشخصية بالغ بعض المتصدرين للارشاد الصوفي في العصر الحاضر في تقييم أنفسهم وتقييم شيوخهم عند الله تعالى، ونطقوا في هذا الصدد بألفاظ عجيبة رووها عن شيوخهم الأقربين كقولهم رواية عنهم: «ظهري مطية لأبنائي على الصراط». واعتقاد المريدين ان شيوخهم لن يدعوهم في شدائد القيامة.

وغاب عن هؤلاء المفتونين جميعا ان مرد الأمر كله للشفاعة النبوية، وأنهم وشيوخهم داخلون =

ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «إذا سمعتم الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم»(١). يرويه عنه أبو هريرة، وصدق ﷺ، لأنه متكبر مزدرٍ بالخلق، مغترّ بالله عز وجل، آمن غير خائف، فأخرجه كبره وحقريته إلى هذه الأخلاق المذمومة عند الله عز وجل.

وكذلك قال النبي ﷺ: «كفى بالرجل من الشر أن يحقر أخاه المسلم»(٢)، لأن الحقرية لهم أخرجته إلى هذا كله، وإلى غيره مما يطول ذكره.

فإذا نظر إليهم بالاستصغار، وخلف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ورجا لنفسه أكثر مما يرجو لهم، وينظرون إليه بالتعظيم، وإلى أنفسهم بالاستصغار، وخافوا على أنفسهم أكثر مما يخافون عليه، بل يظنُّون أنه ناجٍ وأنهم هالكون، ورجَوا له أكثر مما يرجون لهم، كانوا هم أعبَدَ لله عز وجل وأطوعَ فيه منه فيهم.

فقد تعرض للمقت من الله عز وجل وحبْطِ الأجر في الآخرة، واستحق أن يسلبه الله عز وجل ما تكبر به عليهم من العمل.

وقد تعرضوا هم للرحمة من الله عز وجل، بتواضعهم، وحبهم له، واستصغار أنفسهم، وتعظيمهم له، لأنه يأنف من مجالستهم، والكينونة معهم، وهم يقتربون إلى الله به والدنو منه.

ولولا حب الله عز وجل وتعظيمه ما أحبوه، ولا عظموه، فقد عظموه وأحبوه لحب

= تحت قوله تعالى: «لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه».

ويبدو ان تلك النظرية مأخوذة عن الشيعة وهي التي دعت الإمام علي زين العابدين ان يقول ردا على من سأله: متى يبعث علي؟ قال: «يوم القيامة ويهمه أمره».

اما ما ورد من شفاعة بعض الناس لإخوانهم. فإنما كان ذلك بسبب أعمال خيرية قدمها بعض الناس لإخوانهم، فالشفيع هنا العمل وليس الشخص بذاته.

(١) أخرجه: أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة. أنظر الاحياء ٣/٣٤٠.

(٢) أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ٣٢ من كتاب البر، وأبو داود في سننه، الباب ٣٥ من كتاب الأدب. والترمذي في سننه، الباب ١٨ من كتاب البر، وإبن ماجه في سننه، الباب٣، من كتاب الزهد. وأحمد في المسند ٣/٤٩١.

الله عز وجل ورجاء القربة من الله عز وجل به.

فقد تعرضوا للرحمة والمغفرة، وأن ينقلهم الله عز وجل إلى مقامه في العبادة والاجتهاد، وقد تعرض هو لحبْط عمله وأن ينقله إلى شر الأحوال، إذ تكبّر بما مَنَّ الله عز وجل عليه به من العمل، وحقر عباده وأنف منهم، واغتر بالله عز وجل، وجعل الخوف منه عليهم، ونسي نفسه أن يكون عليها أخوف وأشفق.

فلا يؤمَنُ ذلك عليه، كما روي عن الشعبي، وروي أيضا عن أبي الجلد بن أيوب: أن رجلا من بين إسرائيل كان يقال له خليع بني إسرائيل، فمر الخليع بالعابد وعلى رأسه غمامة تظلله فقال الخليع في نفسه: أنا خليع بني إسرائيل، وهذا عابد بني إسرائيل، فلو جلست إليه لعل الله أن يرحمني به، فجلس إليه، فقال العابد في نفسه: أنا عابد بني إسرائيل، وهذا خليع بني إسرائيل، يجلس إلي؟ فأنف منه وقال له: « قم عنِّي ». فأوحى الله عز وجل إلى نبي ذلك الزمان: « مرُهما فليستأنفا العمل، فقد غفرتُ للخليع، وأحبطت عمل العابد ».

وفي حديث آخر: « فتحولت الغمامة على رأس الخليع ».

وإنما أراد الله عز وجل من عباده قلوبهم، فتكون جوارحُهُم تبعا لقلوبهم، فإذا تكبّر العالم أو العابد وأنف، وتواضع الجاهل أو العاصي، وذل هيبة الله عز وجل، وفرقا منه، فهو أطوع لله عز وجل من العابد.

والعالم بقلبه من ذلك المعنى [1]، ومنه الحديث: أن رجلا من بني إسرائيل أتى عابداً من بني إسرائيل ل، فوطيء على رقبته وهو ساجد، فقال: ارفع رأسك فقال له العابد: فوالله لا يغفر الله لك، فأوحى الله إليه: « أيها المتألي علي، بل أنت لا يغفر الله لك ». لأنه إنما تألى على الله عز وجل ألا يغفر له، لعظم قدر نفسه عنده، وأن الإساءة إليه عند الله عز وجل عظيمة لا يغفرها الله لعبادته وسجوده، لأنه عند نفسه أنه عظيم القدر عند الله عز وجل، فجمع عُجْبا وكبراً، واغتراراً بالله عز وجل.

---

(١) أي: إنما يعتد بعلم القلب في هذا السلوك.

وكذلك المتكبّر المزدري للعباد، كأنه الناجي من بينهم، كما يروى: أن رجلا ذُكِرَ للنبي[1] ﷺ، فأقبل ذات يوم فقالوا: يا رسول الله هذا الذي ذكرنا لك. فقال: «إني أرى في وجهه شعفة[2] من الشيطان» فسلم، ووقف على النبي ﷺ وأصحابه، فقال له النبي ﷺ: «أسألك بالله حدثَتك نفسك: أنه ليس في القوم أفضل منك»؟ فقال: اللّهم نعم[3].

فيرى كأنه الناجي من بينهم، لفضله عليهم، مشمئزاً ينقبض عنهم، كأنه يمن عليهم بعمله، كما قال الحرث بن جرير الزبيري صاحب النبي ﷺ: «يعجبني من القراء كل طليق مضحاك، فأما الذي تلقاه ببشر ويلقاك بعبوس، يمن عليك بعمله فلا أكثر الله في المسلمين مثل هذا»[4].

ولو كان الله عز وجل يرضى هذا من أحد، ما قال لنبيه ﷺ: **﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾**[5]. وقال تعالى: **﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾**[6].

ووصف أولياءه الذين يحبُّونه ويحبهم فقال: **﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾**[7].

فلا قدْرَ عند الله عز وجل لمن تكبّر على عباده، عابداً كان أو عالماً.

ومن العباد قوم ضلال، قد جمعوا إلى الضلال الكبر، لا يرون أن أحداً يقول الحق على الله عز وجل غيرُهم، وأنه لا مهتدٍ في الأرض غيرهم، وهم الذين يقولون إن القرآن مخلوق، وهم الذين يقولون بالوقف[8]، والذين يقولون[9] باللفظ، والذين يكذبون بالقدر، والذين ينكرون أن الله عز وجل يرى في الآخرة، والذين يغلطون الموازين،

---

(١) في ط: ذكر النبي. خطأ.
(٢) الشعفة: العلامة.
(٣) أخرجه: لم أجده فيما أتيح لنا من مصادر.
(٤) أخرجه: لم أجده فيما أتيح لنا من مصادر.
(٥) سورة الحجر، الآية: ٨٨.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٥٤.
(٨) الوقف: التوقف في الأمر ولا يقولون بالقدم.
(٩) القائلون باللفظ يرون أن اللفظ مخلوق.

ومنهم الرافضة، والمرجئة، والحرورية، والذين يكذبون بالشفاعة، ويشتمون أصحاب رسول الله ﷺ والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك رحمها الله.

ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم فكل هذه الفرق آبقة جائرة عن الطريق، لا يرون أحداً يقول بالحق، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم جهلا بالله عز وجل، وتكبُّراً على عباده، كما روى العبَّاس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

« يكون قوم ويقرأُون القرآن لا يجاوز حناجرهم يقولون قد قرأنا القرآن، فمن أقرأ منَّا؟ ومن أعلم منَّا »؟ ثم التفت النبي ﷺ إلى أصحابه فقال: « أُولئك منكم أيها الأمة أولئك هم وقود النار »[(١)].

باب ما يكون من الكبرياء عن الرياء

وما يورث من الأعمال المذمومة

قلت: فما يكون منه عن الرياء؟

قال: يرد الحق على من ناظره أو أمره، وإن كان عند نفسه دونه أو خيراً منه.

فيرد الحق أنفاً أن يُخطَّأ فتتضع منزلته، أو يقال: فلان غلب فلاناً أو خطّأه أو قهره، فيخرجه الرياء إلى أخلاق الكبر، وإن كان يعلم في قلبه أن الذي ناظره أو أمره خير منه، ولكن يظهر الأنفة والتعزُّز رياءً لا كبراً من قلبه[(٢)].

---

(١) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٦ من كتاب الأنبياء، والباب ٣٦ من كتاب فضائل القرآن، والباب ٦١ من كتاب المغازي. والباب ٢٣ من كتاب التوحيد. وصحيح مسلم، حديث ٢٧٥ من كتاب المسافرين. وحديث ١٤٢: ١٤٤، ١٤٧ من كتاب الزكاة. وأبو داود في سننه، الباب ٢٨ من كتاب السنة. والنسائي في سننه، الباب ٧٩ من كتاب الزكاة، الباب ٢٦ من كتاب تحريم الدم، ومالك في الموطأ، حديث ١٠ من كتاب القرآن. وأحمد بن حنبل في المسند ٣/٥، ٥٢، ٦٠، ٦٨، ٧٣، ٣٥٣، ٤٨٦.

(٢) يعني: هو في قلبه لا يحتقر من ناظره فغلبه، ولا يتعظم عليه، فظاهره كبر، وباطنه رياء للخلق، واحتفاظ بالمنزلة لديهم.

قلت: فما الذي يخرج إليه الحقد من الكبر؟

قال: يأنف أن يستحلّ[١] ممن حقد عليه إن ظلمه أو سبّه أو صارمه[٢] أنفا أن يبدأه بالسلام.

وبرد عليه الحق عداوة وحقداً ألا يراه أنه قبل منه، أو يرى ذلك أحد منه، فيحمله الحقد والعداوة على أن يستعمل الكبر في رد الحق، أو (أن)[٣] يؤدي حقه.

فما كان من الرياء والحقد فقد يتخلق بأخلاق الكبر، وهو يعلم أنه دون من يرائيه ومن حقد عليه وعاداه.

إلا أن المعجب هو الذي يكون عنه الكبر بالقلب، فيأنف ويرى أنه خير ممن لم يؤت مثل ما أُوتي فيزدريه[٤].

ويجمع ذلك الدين والدنيا من العلم والعمل، فكلما فَضُلَ بنعمة على غيره أعجب بها وتكبر، جهلا وتضييعاً للشكر، فلا يأمَنِ النُّسَّاك ذلك على أنفسهم، لأن العجب والكبر إنما يعتري من قبل النعم، فكاما كثرت النعمة وعظمت كان العجب والكبر إليها أسرع، ولا سيا ما بان منه على العامّة[٥] بعلم أو عمل كان الكبر إليها أسرع.

ألا ترى إلى ما رواه ابن بُريدة عن ابن عباس أن عمر قال: «ما زال يعرف في طلحة بأواءٌ منذ أصيب إصبعه مع رسول الله ﷺ يوم أُحد» والبأْواءُ عند العرب هو: الكبر.

وكذلك يروي عنه ابن عباس (من)[٦] حديث حميد بن عبد الرحمن عن ابن عباس، أن عمر رضوان الله عليه قال: وقال له ابن عباس: أين أنت عن طلحة؟ قال: ذاك رجل به نخوة، وعدهم واحداً واحداً.

وذلك أن طلحة يوم أحد بان على أصحاب رسول الله ﷺ، إذ وقى رسول الله

---

(١) يستحل منه أي: يطلب منه أن يجعله في حل.
(٢) المصارمة: المقاطعة.
(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.
(٤) في ط: يزدريه.
(٥) أي: ما امتاز به على العامة وباينهم به.
(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

ﷺ بنفسه، حتى ضربت كفه ليتخلى عن النبي، فجذب إصبعه تحت قدمه، ثم أكب على رسول الله ﷺ، فأخبره عمر أنها عرفت فيه بعد ذلك.

وما بلغنا أن ذلك أخرجه إلى حقرية مسلم بحق يعرفه، لكن، إذا كان الأخبار لا يعرَوْن منه[1] فنحن المساكين أولى أن نحذره في كل حال وإلا هلكنا، إذ قال النبي ﷺ: « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال خردلة من كبر »[2].

كذلك فيما يظهر من اللباس. إن لبس الرجل الصوف، يتكبر به على من هو دونه في اللباس، ألا ترى إلى قول الحسن: « حتى إنَّ صاحب الصوف (في صوفه)[3] أشد كبراً من صاحب مطرف الخزّ في خزّه ».

وصدق رحمه الله، إنما ينكبّر لابس الخز على من دونه من أهل الدنيا، ويتواضع لأهل الدين، والذي يلبس الصوف على الدين قد يتكبّر على صاحب الخز، وصاحب الخز إذا رآه عرف له الفضل عليه، وذلَّ في نفسه له، لما يرى عليه من لباس الصالحين، وآثار الزاهدين في الدنيا.

فالعجب والكبر لا يأمنهما عاقل على حال، فكل ما بان به العبد على غيره كانت الفتنة إليه أسرع.

ومن ذلك أن تميا الداري استأذن عمر في القصص، فأبى أن يأذن له، وقال له: إنه الذبح، واستأذنه رجل كان إمام قومه أنه إذا صلى وسلم من صلاته ذكرهم فدعا بدعوات فأبى أن يأذن له، وقال: إني أخاف أن تنتفخ حتى تبلغ الثريا، فخشي عليه الكبر.

وصلى حذيفة بقومه فلما سلم قال لتلتمسُنَّ إماماً غيري أو تصلوا وحداناً، وقيل في

---

(١) ليس هذا من طلحة رضي الله عنه حقيقة الكبر، بل زهو بعمل عظيم قل أن يعمله مثله، وليتنا نزهو بمثل هذه الأعمال البطولية النادرة، ولكنا نزهو بالتوافة من القول والعمل.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

حديث آخر: إنه قال: إني رأيت في نفسي أنه ليس في القوم أفضل مني.

فما أقل مَن يخُص بنعمة يبين بها على غيره إلا غلبة عليه الكبر، إلا من قواه الله عز وجل وسدده، وبالله عز وجل الاعتصام.

باب الكبر بالدنيا

قلت: قد وصفت الكبر بالدين فما الكبر بالدنيا؟

قال: الكبر بالدنيا: الكبر بالحسب، والجمال، والقوة، والمال، وكثرة العدد.

فأما الكبر بالحسب فإذا تعظم بحسبه حقر من دونه في الحسب، وإن كان أفضل منه عملا، حتى يبلغ التكبر ببعضهم إلى أن يرى أن العامة له خَوَل[1] كالعبيد، ويأنف أن يخالطهم، ويفتخر عليهم، ويعيرهم عند الغضب؛ وقد يعتري ذلك الرجل الصالح إذا كان حسيبا عند غضبه، ومن ذلك ما يروى عن أبي ذر أنه قال: «قاولت رجلا عند النبي ﷺ، فقلت له: يا ابن السوداء[2]، فقال النبي ﷺ:

يا أبا ذرّ، طفّ الصاع، طفّ الصاع، ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل»[3].

وذلك أنه رآه خيراً منه، بأن كانت أمه سوداء، وأم أبي ذر بيضاء، وقول النبي ﷺ: «إنه ليس لابن بيضاء على ابن سوداء فضل». يدل أنه رأى أنه خير منه فتعظم عليه، قال أبو ذر: فاضطجَعت ثم قلت للرجل: «قم فطأ عَلَى خدّي»، لتذلّ بدلا مما قال له.

فقد يعتري ذلك الرجل الصالح عند غضبه وعند غفلته، لمن دونه في الحسب، حتى

---

(١) أي: خدم.

(٢) هو كعب الأحبار أو ابن سبأ أو بلال. ويغلب أنه أراد كعبا لأنه واجهه بهذا أما عثمان رضي الله عنه في قصة رواها المحاسبي في الفصل الرابع من «الوصايا» له. من تحقيقنا. وقد قامت دار الكتب العلمية، بيروت، بطبعه طبعة جديدة.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٤/١٤٥، ١٥٨.

يغتابه، ويذكُره بحسبه، يضعه بذلك، ويتنقصه بذلك، كقول الرجل: خوزيٌّ وسِندي ونبطيٌّ، ينقصه بذلك.

وقد يعيره بذلك ويفتخر عليه مع التعيير، فيقول: أنا خير منك وأكرم أصلا، وأنا ابن فلان ابن فلان، ومن ولد فلان، من أنت ومن أبوك؟ وإنما أنت كذا وكذا، ويقول له: تجترىء أن تكلمني؟ أو مثلك ينظر إليَّ؟ أو مثلك يضع نفسه معي.

ومن ذلك مايروي: أن رجلين تفاخرا عند النبي ﷺ، فقال أحدهما للآخر: «أنا فلان ابن فلان، فمن أنت؟ لا أمّ لك، فقال النبي ﷺ:

«افتخر رجلان عند موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان ابن فلان حتى عدَّ تسعة، فأوحى الله عز وجل إلى موسى أن قل للذي افتخر بآبائه: تسعة من أهل النار أنت عاشرهم»[١].

ومن ذلك قوله النبي ﷺ: «ليدعنَّ قوم الفخر بآبائهم وقد صاروا فحما في جهنَّم، أو ليكونُنَّ أهون على الله عز وجل من الجعلان[٢] التي تذوق بآنافها القذر»[٣].

ومن ذلك قوله: «إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عيبة الجاهلية فلا تفاخروا»[٤].

وكذلك التكبُّر بالجمال، يحقر من دونه، ويعيّره ويقبحه، ويفتخر عليه، ويعيبه من خلْقه ومن ذلك ما يروى أن أمّ المؤمنين عائشة قالت: «دخلت امرأة على النبي ﷺ، فقلت بيدي هكذا، فقال لي النبي ﷺ: اغتبتها».

فيعيب من دونه في الجمال، ويسخر منه ويحكيه[٥].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) جمع جعل وهو حشرة تعيش في القذر تدعى بالعامية (الجعران).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أي يقلد ما فيه من فنون النقص. وأكثر هذا اللون من الكبر في النساء. والحديث أخرجه احمد في المسند ٦/١٣٧، ٢٠٦.

وكذلك القوة، يتكبر بها، ويحقر الضعيف، ويعيره بضعفه، ويفتخر عليه بقوته، ويستطيل عليه لضعفه.

وكذلك المال، يستطيل به، ويفتخر به ويغتر به، ويتبختر بالزينة في لباسه بطراً وكبراً ومرحا [١] بكثرة ماله ولباسه ومن ذلك ما وصف الله عز وجل عن قارون فقال عز وجل:

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ [٢] فقال قوم: **﴿يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونَ﴾** إلى قوله تعالى: **﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾** [٣].

وكذلك الكبر بالولد والخدم والعشيرة، يتكبّر بهم، ويستطيل بهم، ويحقر من قلت عشيرته، أو قلَّ مواليه، أو عبيده. وذلك كله مبدؤه العُجْب ثم يصير كبراً.

قلت: قد أراك تسمي الكبر بما تسمِّي به العجب، فما الفرق بينهما في الدين والدنيا؟

قال: أما في الدين فقد يعجب بعمله، فيحمد نفسه عليه، وينسى منَّة ربه بذلك، ولا يتكبّر على أحد، وربما أخرجه العجب إلى أن يرى أنه خير من غيره، فيحقره، ويزدريه ويأنف منه، فيكون حينئذ متكبراً معجباً.

وأما بأمر الدنيا فقد يعجب بجماله أو ماله أو حسبه أو قوته، ولا يتكبّر، وما أقل ما ينفرد العجب بالدنيا دون أن يُخرج صاحبه إلى الكبر والمرح والخيلاء. ألا ترى إلى قول النبي ﷺ: «بينما رجل يتبختر في بردين له قد أعجبته نفسه» [٤]. فوصفه بالعجب في تبختره وخيلائه.

فيجمع المتكبر بالدين والدنيا خصالا يبغضها الله عز وجل: حبّ العلوّ والأنف من الخضوع للحق، والنفور من قبول الصواب ممن هو دونه، فلا يكلم من دونه إلا

---

(١) وقد نشأ بعد المحاسبي الكبر في الكلام، وهو أمر شائع الآن بين الرجال والنساء على السواء لا يحتاج إلى بيان.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٧٩ ـ ٨٢.

(٤) سبق تخريجه.

بالزبر [١]، ولا ينظر إليهم إلا شزرا: ينظر إليهم بالاحتقار، ويجاورهم بالاستصغار.

باب نفي الكبر وتعريف العبد قدره

قلت: فبِـمَ ينفي العبد الكبر؟

قال: بمعرفته بقدره في الدين والدنيا.

قلت: فبمَ يعرف قدره؟

قال: يعرف قدره بمعرفته ببدايته وحياته وعاقبته.

أما بدايته فقد مضت الدهورُ ولم يكن فيها شيئاً مذكوراً، وأوجده الله عز وجل بعد العدم إذ لم يكن شيئاً مذكوراً، فأوجده الله عز وجل ميتاً، وبدأه بموته قبل حياته، لأنه خلقه من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم من مُضغة، ثم جعله عظما، ثم كسا العظام لحما، فبدأه بموته قبل حياته، وبضعفه قبل قوته، وبجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه، وببكمه قبل نطقه، وبجوعه قبل شبعه، وبعريه قبل ستره، وبضلالته قبل هداه، وبفقره قبل غناه [٢].

ثم أحياه بعد ما كان ميتاً، وأسمعه بعد ما كان أصمّ، وبصّره بعد ما كان لا بصر له، وقواه بعد أن كان ضعيفاً، وعلّمه بعد أن كان جاهلا، وأغناه بعد أن كان فقيراً، وأشبعه بعد ان كان جائعاً، وكساه بعد أن كان عارياً، وهداه بعد ان كان ضالا.

فابتدأه بهذه الأحوال الدنيا، ثم نقله إلى هذه الأحوال الرفيعة، فصار موجوداً بعد العدم، وحياً بعد الموت، وناطقاً بعد الخرس، وسميعاً بعد الصمم، وبصيراً بعد العمى، وقوياً بعد الضعف، وغنيا بعد الفقر، ومهتدياً بعد الضلالة.

---

(١) الزبر: الشدة.

(٢) انظر مقدمة كتاب المكاسب للمحاسبي. من تحقيقنا ضمن كتاب «المسائل في «أعمال القلوب والجوارح» عالم الكتب ـ القاهرة. وسيظهر قريباً في طبعة جديدة. دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

فالأحوال الأولى ابتدأه بها يعرفه بها نفسه، ليشهد عليها بالذلة، والضعف والقلّة، والحاجة والمسكنة، ليعرف بذلك صغر قدره، ولتردعه معرفة ذلك عن الكبر والفخر والبطر والخيلاء والعجب بنفسه.

فما بدأه من صغر القدر، وضِعة المنازل، عليه فيها من الله عز وجل نعمة سابغة، إذ عَرَف نفسه، فردعه ذلك ان يجوز قدرها، وحجزه - إن عقل - عن الكبر والفخر والبطر.

والنعمة الثانية عليه من الله عز وجل سابغة، إذ عرف بها ربّه الذي نقله من الأحوال الدنيَّة المذمومة، إلى الأحوال الرفيعة، فكلا النعمتين سابغة من الله عز وجل، فالأولى عرف نفسه وبالثانية عرفَ ربه عز وجل، فبالأولى يصغر قدرُ نفسه عنده، وبالثانية يعظُم قدرُ ربه عنده، فيخضع ويذلّ لمولاه شكراً، إذ رفع خسيسته بعد الضعة وصغر القدر والمهانة.

فمن كان بُدُوه هذا البدو، وأحواله هذه الأحوال فإنه عن الكبر بمعزل، كما قال لقمان لابنه: يا بنيّ ما للترابي[1] وللكبر؟! وصدق رحمه الله: من كان أصله مما يداس بالأقدام - ومع ذلك إنه خـمَّرَ طينته حتى صارت حمأ مسنوناً - كيف يتكبّر وأصله دنيّ وضيع عند الخلق؟ لأنه إذا أراد أن يصغر بقدر غيره، قال: لأنت أهـون عليّ من التراب الذي أطؤه بقدمي، ولأنت أنتن من الحمأة.

وأصل أبن آدم من التراب الذي يوطأ بالأقدام، وحمأ مسنون قد أسِن فأنتن، ثم صار بعد الأصل من نطفة قذرة، ومنها فصله.

وإذا عير الرجل الرجل، وأراد أن يصغر بقدره، قال لا اصل لك ولا فصل، والأصل عند العرب: الجدّ، والفصل: الأب، فكان أصله التراب وفصله النطفة، لأن جدّه هو التراب، وأبوه هو النطفة، وهو بعد أبيه من نطفة، فالأصل يوطأ بالأقدام، والنطفة تغسل منها الأجساد والثياب، فخلق من دناءه وضعف وأقذار، ألم تسمع إلى قول الله عز وجل: **﴿قُتِلَ الإنْسَانُ ما أكْفَرَهُ. مِنْ أيّ شَيْءٍ**

(١) الترابي: هو الإنسان منسوب إلى التراب ومخلوق منه.

خَلَقَهُ؟ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾ [١] وقال عزّ وجلَّ: ﴿من ماءٍ مهين﴾ [٢].

وقال النبي ﷺ: «يقول الله عز وجل: أيُعْجِزُني ابنُ آدم؟ وإنما خلقتك من مثل هذه». وبزق النبي ﷺ في كفِّه. [٣].

فخلق الإنسان من أقذار، وسكن في أقذار، وخرج من أقذار، لأنه خرج من صُلب، ثم من ذكر من مجرى البول إلى الرحم، ثم خرج منه من مجرى القذر، كما قال أنس بن مالك: كان أبو بكر رحمة الله عليه يخطبنا، فيقول في خطبته: «خرج أحدكم من مجرى البول مرتين» حتى يقذِّر إلى أحدنا نفسه.

فأوّل ابن آدم من تراب، ثم من نطفة موات، ثم من علقة موات، ثم من مضغة موات، ثم من جسم موات، لا يسمع ولا يبصر، ولا ينطق ولا يعقل، ولا يتحرك، لما به من الذلّة والمهانة، ثم نفخ فيه الروح، ثم أخرج إلى الدنيا بعد ما نقله من هذه الأحوال، فأخرجه حياً ضعيفاً صبياً صغيراً ذليلا، ثم وكّل به الأقذار، الرجيعُ في بطنه، والبولُ في مثانته، والمخاط في أنفه، والبزاق في فمه، والوسخ في أذنيه، ثم النتن والأقذار تسرع إليه، إن تهاون بنفسه ان يغسلها او ينظفها، صار أنتن من الدواب، ووكلت به الأمراض والطبائع المختلفة المتضادة، لا تفارقه من المِرَّة والبلغم والريح والدم.

وهو مع ذلك عبد ذليل امرُه إلى غيره، يجوع كرهاً مقهوراً، ويعيش كرهاً مقهورا، ويغلبه النوم كرها مقهورا، لا يملك لنفسه في ذلك ضراً ولا نفعاً، يُغْلَب في المكروهات، يريد من نفسه ما لا يقدر، يريد الا يجوع ولا يعطش، ولا يظمأ ولا يمرض، فينزل به من ذلك خلافُ مراده، ويريد ان يذكر الشيء فينساه، ويريد ان ينسى الشيء فيذكره.

---

(١) سورة عبس، الآية: ١٩.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٨.

(٣) اخرجه: ابن ماجه في سننه، الباب الرابع من كتاب الوصايا، واحمد بن حنبل ٤/٢١٠.

ثم هو مع ذلك لا يأمن ان يكون تلفه فيما يريد ويحب، ولعله يكون تلفه في شبعه أو نومه فلا يقوم منه.

عبد مملوك ذليل، يقلبه غيره، ولا يأمن في ليله ونهاره ان يُسلب سمعه وبصره وجميع جوارحه وعقله، أو بعض ذلك، حتى يرد إلى بعض أحواله في بداءته من العمى او الصمم او البكم أو الجهل، حتى يذهب عقله، وقد رأى الله عز وجل فعل ذلك بكثير من خلقه.

ثم هو مع ذلك لا يضمر بقلبه، ولا يحرّك جارحة من جوارحه، ولا يكتسب ولا ينفق، ولا يأكل ولا يشرب، إلا وعليه من يحصي ذلك كله عليه، حتى يحاسب به وينظر فيه.

ثم هو مع ذلك لا يأمن ان يسلب ملكه، فعليه في ملكه مالك، وليس هو لنفسه بمالك، ولا على ما أراد فيها بقادر.

وهو مع ذلك مخالف لمالكه ومولاه غير شاكر له، وناس غير ذاكر له، وقد ركب كثيراً مما قد نهاه عنه، وضيّع كثيراً مما امره به، قد استوجب بذلك من العذاب، ما إن لم يُعف عنه كانت الخنازير والكلاب خيراً منه وأفضل، وأنظف وأطهر وأطيب وأرفع منه، لأن الخنازير والكلاب تصير ترابا، وهو يصير معذباً أبداً.

لو وَجَدَ الخلائق نتن ريحه لماتوا من نتنه، ولو رأوه لصعقوا من وحشة خلقته، ولو قطرت قطرة من شرابه ـ الذي يشربه ويفزع إليه ليُسكن به عطَشه ـ على جبال الدنيا لأذابتها، مخلد في غاية الذل والخضوع، والمسكنة والهوان والعذاب.

فمن هو في الدنيا بهذا الوصف وأعظم منه قد وجب في رقبته واستحقه وحكم عليه به كيف يكون ذله وتواضعه؟

كيف ينبغي لمن كان هذا الوصف قد وجب عليه أن يتقلب بين العباد؟ وهل يمتنع هذا إن عقل ان يكون في نفسه ذليلاً مهيناً؟.

أرأيت من وجب عليه حكم ألف سوط[1] وهو في سجن ينتظر ان يخرج إلى العرض فيمضي فيه من الضرب ما قد حكم عليه به، كيف ذلته في السجن، وتوقعه في كل وقت، إلى أن يخرج إلى العرض فيقضي فيه الحكم؟

أفليس هو في الدنيا وهو في السجن قد وجب عليه العذاب، لا يدري متى يخرج من الدنيا إلى العرض ليحكم عليه بالعذاب؟ إلا أن يعفو الكريم.

وهو مع ما قد وجب عليه يتوقع الموت، فالموت خاتمة عيشه، لأنه قد علم ان آخر حياته إلى الموت، فيعاد كما كان بطء خلقه ميتاً بعد ان كان حياً.

ألم تسمع إلى قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وأحْيَيْتَنا ٱثْنَتَيْنِ﴾[2]؟ أي كنّا امواتاً في أصلاب آبائنا، ثم أحييتنا ثم أمتنا بعد الحياة.

فيصير ميتاً كما بدأ الله عز وجل خلقه، فيعمى بعد البصر، ويصمّ بعد السمع، ويبكم بعد النطق، وتتقطع أوصاله، ويصير جيفة تقذره الدواب والخلائق، ثم يَبْلى فينخر عظمه، ويصير تراباً، إلاّ عجب الذنب[3]، كما قال النبي ﷺ «يبلى من ابن آدم كل شيء إلا عجب الذنب»[4].

فيصير تراباً، فيرجع إلى أصله الذي خلق منه أبوه الأول، فيصير معدوماً بعد أن كان موجوداً، كما كانت الدهور قبله ولم يكن فيها شيئاً مذكوراً، ثم يحييه الله عز وجل بعد طول البلى، فيخرجه إلى أهوال القيامة فتحدق به كلها: من سماء ممزّقة وأرض مبدلة، وجبال مسيّرة، ونجوم منتثرة، وشمس وقمر مطموسين، زفير

---

(١) في ط: صوت خطأ.

(٢) سورة غافر، الآية: ١١.

(٣) عظم صغير في أسفل العمود الفقري منه يكون نباته يوم القيامة كما جاءت بذلك الاحاديث. (انظر البدور السافرة للسيوطي).

(٤) اخرجه: البخاري في صحيحه، سورة ٣٩ من كتاب التفسير. ومسلم في صحيحه، حديث ١٤١، ١٤٣، من كتاب الفتن، وابو داود في سننه، الباب ٢٢ من كتاب السنة، والنسائي في سننه الباب ١١٧ من كتاب الجنائز. وابن ماجه في سننه، الباب ٣٢ من كتاب الزهد. ومالك في الموطأ، حديث ٤٩ من كتاب الجنائز، وأحمد بن حنبل في المسند ٢/٣٢٢، ٤٢٨، ٤٩٩، ٣/٢٨.

جهنَّم في سمعه، وركوب الصراط لا بد له أن يركبه بضعفه.

ثم يعرض على مولاه، فيُسائله عن كل عمله، ثم الحكم الذي وجب عليه أن يصرفه من بين يديه بعد السؤال إلى عذاب لا ينقطع، في غاية الهوان والذل والخضوع، فيصرفه إليه إن لم يعف عنه.

فإذا تذكّر العبد وتفكّر كيف كان بدوه، وما أصله وفصله، وفي ضعفه ومسكنته وصِغَر قدره في نفسه مما يتقلب فيه من المكروهات، من غير مؤامراته[١]، ومما لا يكاد ان ينفك منه من الأسقام والغموم، والوجع والجوع والظمأ، وما وجب عليه من العذاب والهوان، وما يصير إليه من الموت والبلى، وما بعد الموت مما يعاين من الأهوال وما يخاف أن يصير إليه من العذاب، زال عنه الكبر ولزمه الخضوع والذلة والتواضع للمولى عز وجل، والشكر للمنعم تعالى، والإنكسار للخوف من العقاب، فإذا عرف ذلك عرف قدرِه وصغر قدر نفسه في الدين والدنيا عنده.

وأمثال ذلك كثيرة، وليس كمثله في صغر القدر مثل بدو ابن آدم إذا تفكَّر فيه، فصغر قدره عند نفسه كرجل لم يزل عند نفسه من بني هاشم، أخبره بذلك والده وكَذَبهُ في خبره، فكانت نخوة الهاشمية في نفسه، متعظم متكبّر بحسبه، يحقر من دونه، ويتفخر عليه، لأنه لا يشك ان الذي حدثه به والده عن أصله وحسبه قد صَدَقَهُ فيه.

فبينا هو في نخوته وكبره وتعظمه، إذ أتاه رجلان او عدة رجال ممن يثق بهم، ولا يشك في صدقهم، أصدقُ عنده وأبرُّ من والده عن علم، يخبرونه عن كبر أسنانهم، وقديم معرفتهم بأصله، وأخبروه بينه وبينهم أنه من الخوز او النبط او السند، فصدقهم ولم يشك في قولهم، وأن أباه قد كذبه وأخبره بالباطل، هل كان يمتنع أن يذل في نفسه، وتنكسر تلك النخوة من قلبه؟ وإن أظهر غير ذلك إذا أيقن انه على خلاف ما كان يرى ويظن.

---

(١) أيي: من غير استشارته فيما يقع له من مكروه.

وكذلك ابن آدم، يتكبّر ويتعظم، حتى كأنه ليس أصله الترابُ والنطفةُ والضعفُ والمهانةُ والذلة والمسكنة والضرّ والزمانة[١]، فإذا تفكّر وصدق نفسه عن الخبر بالتذكر عن بُدُوه وأصله، ومم هو وكيف كانت أحواله، لم يمتنع ان يذل في نفسه وينكسر عن نخوته وكبره.

ومَثَلُ حياته وصحَّته وما يتقلب فيه من ملكه وغناه، مَثَلُ رجل كان عند نفسه حُرًّا لا يشك فيه، ثم مات والده، وأورثاه مالا كثيراً، فكان يتعظَّم ويتكبّر بشبابه وحسن جسمه وهيأته وغناه وملكه، وهو مع ذلك في سعة من المنازل والنظافة والطيب والمنعة والحرز والأمن.

فبينما هو كذلك متكبّراً متعظماً في نفسه، إذ قدم عليه قادم من بعض البلدان، فأخذه وأقام عليه البينة العادلة بأن أبويه كانا مملوكين له، وأن ما كان في أيديهما من مال فهو له، فحكم عليه الحاكم بذلك، وعلمه أيضاً صدق ذلك، وأطمأن قلبه إلى شهد به الشهود، هل كان يمتنع في نفسه ان تزول عنه نخوته وكبره إذ علم أنه عبد مملوك، ليس لنفسه بمالك ولا لما بيده من المال، وأن مولاه إن أراد أن يأخذه منه، وأنه لا يقدر أن يفعل شيئاً إلا بإذن مولاه وإرادته؟.

ونظر مع ما أيقن به من العبودية، فإن في منزله من الهوام والحيَّات[٢] وغير ذلك ما لا يأمن ان تتلف نفسه ـ أغفل ما يكون ـ ولا بد له من سكنى ذلك المنزل، لأن مولاه ألزمه ذلك، لئلا يضيع ذلك المنزل وما فيه، كيف يرى كان يكون في نفسه لذلة العبودية والانخلاع من ملكه وما يخاف من تلف نفسه ـ أغفل ما يكون ـ ولم يكن ذلك المنزل لأحد[٣] إلا كان آخر مصيره إلى التلف، هل كان يعدُّ لنفسه مالا، وهل كان يعد لنفسه منزلا أو قراراً ؟

فكذلك ابن آدم إذا تكبّر وتعظم وهو ناسٍ لحالته التي وضع عليها، وناسٍ

---

(١) أي: الأمراض المنفرة.

(٢) في ط: والحياة، خطأ.

(٣) في ط: أحد، خطأ.

لضعته[1] التي وضع بها، فتذكَّر وتفكَّر في العبودية انه عبد ذليل مملوك، لا يملك نفسه ولا ماله، متوقع للمتالف أن يعترض بعضها له ـ أغفل ما كان ـ في لذته وتقلبه، وإن آخر مصيره إلى أن يتلف، فيخرج من الدنيا ويزول عنه كل ما هو فيه، هل كان يمتنع ـ إذا صَدَقَ نفسَهُ الخبر بالذكر والتفكر في ذلك ـ من أن يذلّ في نفسه ويخضع لمولاه، ويخشع له، ولموضعه الذي وضعه به من الخوف للمتالف.

ومثل العاصي لله عز وجل، الذي وجب عليه العذاب في حياته، كمثل عبد مملوك، له سيّد شديد النقمة، شديد السطوة (والسلطان)[2]، وهو يملك الأرض، ولا يأمر بأمر إلا نفذ، وقَدَرَ عليه. فوكَّله سيده بعمل، ونهاه عن أشياء تُفسد ذلك العمل، وأعطاه مالاً ينفقه على عمله، فغفل وسها وجهل، فضيّع اكثر العمل فلم يعمله، وعمل قليلا منه فأدخل فيه من الفساد والنقصان مما نهاه عنه مولاه، وأنفق في لذّة نفسه وشهوتها، وهو في ذلك مرح فرح، بطر أشر، متجبّر متكبّر، يتقلب في لذاته، غير مكترث لما ضَيَّع من عمل مولاه، ولا ما أفسد مما عمل له، ولا ما أتلف من المال الذي أعطاه.

فأتاه خبر صادق ان مولاه مرسل إليه من يخرجه من كل ما هو فيه عرياناً ذليلا، حتى يلقيه على بابه في الشمس والحرّ زماناً طويلا، معذباً بالشمس والحر، حتى إذا بلغ ذلك منه غاية المجهود، دعا به فعرضه عليه، وأمره برفع حسابه، ونظر في عمله، ما ضيَّع منه، وما أفسد منه، وما أتلف من ماله، ثم يأمر به إلى سجن ضيق وعذاب دائم، ولا يروَّح عنه ساعة، ولا يخرج من سجنه ذلك أبداً، وقد علم ان مولاه قد اخرج كثيراً من عبيده إلى العذاب والهوان ممن فعل كفعله، وقد عفى عن بعض، هل كان يمتنع مع هذا الحظر إذا بلغه هذا الخبر فتفكّر فيه وتذكّر، ولزم قلبه تصديقه ان ذلك كائن إلا ان يعفو عنه مولاه، وأن ذلك

---

(١) في ط: بضعته.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

واجب عليه ـ والعفو شك ـ لا يدري أيكون ام لا؟ ألم يكن ينكسر عن شره وبطره، وفرحه وتكبره، حتى يكون أذلّ الناس في نفسه، وأشدهم خضوعاً وذلا ومسكنة لما قد حكم به عليه مولاه، ولما يتوقع في السرعة والمعاجلة[1] أن يؤخذ بغتة حتى يمضي فيه كُلُّ ما حكم مولاه عليه به، فما كان يمتنع من ذلك كله أن يذل ويخضع.

فكذلك ابن آدم، إذا تذكر في تضييعه كثيراً من عمل مولاه، مما أوجب عليه، وما أفسد مما عمله فيه، مما أدخل فيه من الرياء والعجب وغير ذلك، وما ذهب من عمره فيما أفناه من اتباع هواه، ونسيان مولاه، وأن الموت نازل سريعاً عاجلا.

فيخرج إلى قبره، فيبلى فيه، ثم يخرج إلى القيامة فيوقف، حتى يبلغ به غاية المجهود، فيعرضه مولاه، ثم يحاسبه بكل ما عمل وضيع وأفنى من عمره، ثم يأمر به إلى عذابه الذي لا يشبه عذاب الدنيا ولا عقوبتها، لا يشك أن العذاب قد وجب عليه، وإنما يرجو العفو على شك لا يدري أيفعل ذلك به أم لا، فإنه إن عفا عنه فهو لا شك أنه سيعرض ويحاسب، ويوقف على ما ضيع من العمل وَأفسد، وَما أتلف من عمره، وَما أنفق فيه ماله.

أتراه كان يمتنع من أن يذل في نفسه، وَيزول عنه تعظمه وَتكبره؟ وبذلك يروى الحديث في المساءلة عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزول قدما ابن آدم من بين يدي الله عز وجل حتى يسأل عن أربع: شبابك فيم أبليته، وَعمرك فيم أفنيته، ومالك من أين اكتسبته وفيم أنفقته، وعملك ماذا صنعت فيه»[2]، فإذا تفكر في ذلك العاقل اللبيب ذل وخضع وَزال عنه الكبر والفخر.

ولو لم تكن إلا خصلة واحدة من هذه الخصال التي ينفي بها الكبر من البدو، ومن الحياة، وما وجب عليه بمعصيته، ولو خلق من خير الأشياء، وساعدته الأقدار

---

(١) في ط: المعالجة.

(٢) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب الأول من كتبا القيامة.

فلم يسقم ولم يمرض، ولم يعتوره قذر في جسمه، ولا فاقة نازلة به، ولم يحل[1] به موت، ولا عذاب عليه في الآخرة، ما كان الكبر مع هذه النزاهة والطهارة يصلح للعبد، ولا يليق به لأنه عبد مملوك، فذل العبودية ضد الكبر، فلا يليق بالعبد الكبر.

وكيف وهو مع العبودية صغير القدر في البدو تعتوره الآفات في حياته مستوجب للعذاب مذ عصى ربه، ثم إلى الموت مصيره، والحساب أمامه، والعذاب جزاؤه، إلا أن يعفو عنه مولاه، ولو لم يتذكر العبد هذه الخصال، كان تذكره أن الله عز وجل نهاه عن الكبر، وأنه يمقت عليه، كفى بذلك نافياً للكبر. فكيف إذا ذكر هذه الخصال مع خوفه لمقت الله عز وجل أن يطلع على قلبه، وقد عقد على الكبر فيمقته بذلك.

ومما يدلك أن الله عز وجل يمقت عليه، قول الله عز وجل:

﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾[2].

ومن لم يحبه الله فهو له مبغضٌ ماقت.

وقول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبّة خردل من كبر»[3]. وإنما يحرم الله عز وجل جوارَه مَن يمقته ويغضب عليه، فبواحدة من هذه الخلال ينفي العبد اللبيب الكبر.

باب التكبر بالعلم والعمل خاصة

قلت: قد تبيَّنتَ بما وصفت من ذلك أنه نافٍ للكبر بالحسب والجمالِ والجسم والمال والكثرة والعمل والعلم، إلا أني أجد للعمل والعلم فِتَنا تعترض فيهما مع ذكر صغر القدر، فقد تغلب على العالم والعامل حتى يتكبّر، فما الذي يدفع به تلك العوارض التي تبعثه على الكبر؟

---

(١) في ط: ولا يحل.	(٢) سورة النحل، الآية: ٢٣.	(٣) سبق تخريجه.

قال: إن العلم والعمل لكذلك، ومن ذلك ما يجده العباد من أنفسهم، لأن فتنهما أعظم الفتن، لأن قدرهما عند الله عز وجل وعند العباد أعظم من قدر الحسب والمال والجمال، بل لا قدر للحسب ولا للجسم ولا للجمال ولا للمال عند الله عز وجل إلا أن يكون مع ذلك عمل وعلم.

وكذلك العباد، العامل والعالم في صدورهم أكبر قدراً من كل حسب ومن مال وجمال، فعظمت فتنهما إذ عظم قدرهما عند الله عز وجل وعند العباد، ألا ترى إلى قول حذيفة رضي الله عنه: اتقوا فتنة العالم الفاجر والعابد الجاهل، فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون. فبعظيم قدر العلم والعمل عند العباد افتتن الجاهل، حتى لقد اتبع العالم في زلته والعابد في خطئه.

وقال النبي ﷺ: «ثلاث كائنات: زلة العالم، إذا زل زل بزلته الناس»[1].

وقد روي عن عمر أنه قال لتميم الداري، ما زلة العالم؟ قال: «إذا زل زل بزلته عَالَم من الخلق» وقال: «ثلاث بهن يهدم الزمان إحداهن زلة عالم».

وقال معاذ: «احذروا زلة العالِم، فإن قدره عند الخلق عظيم، يقلدونه ويتبعونه على زلته»، وروي عن كعب أنه قال: «للعلم طغيان كطغيان المال».

فكما أن قدرهما[2] عند الله عز وجل عظيم إن اتقياه، فكذلك إثمهما عند الله عز وجل عظيم إن لم يتقياه، لأن العامل إذا لم يتق الله عز وجل، فأراد العباد بما يعمل من طاعة الله عز وجل، كان عند الله عز وجل اعظم بليّة ممن ضيّع العمل إذا لم يُـرد الله تعالى به، لأنه لم يعمله لله عز وجل، وإنما عمله لغيره، فشارك المضيّع في تضييعه، وفضله في الشرّ بريائة وكبره وعجبه وحسده.

ألا ترى إلى المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من النار، وقد تركوا الإيمان، مع سائر الكفار وأظهروه[3] رياءً للعباد، فجعلهم في الدرك الأسفل من النار، فكذلك المفسد للعمل شر ممن ضيّع العمل.

---

(١) أخرجه بألفاظ مختلفة: الدارمي في مسنده، الباب ٢٣ من المقدمة. والقضاعي في الشهاب ٢٠١.

(٢) يعني قدر العالم والثري. (٣) في ط: وأظهروا.

وأما العلم فكذلك الحامل للعلم المضيَّع لأمر الله عز وجل أشد بلاءً وأعظم إثماً ممن ضيّع العمل.

وأما العلم فكذلك الحامل للعلم المضيَّع لأمر الله عز وجل أشد بلاءً وأعظم إثماً ممن ضيّع أمر الله عز وجل على جهل.

ألا ترى إلى إبلس لما عَلِمَ أمر الله عز وجل، واعترف له بالربوبية، ثم عاند أمره، بعد عِلم وبيان واعترف، لعنه الله عز وجل إلى يوم الدين، وصار شر الخلائق، وقطع رجاءه من التوبة أبداً.

أولا ترى أن اليهود اليوم لا يدّعون لله ولداً ولا شريكا، وهم عند جميع أهل الإسلام شر من النصارى الذين يدعون لله الولد والشريك؟ لأن الله عز وجل وَصف عامتهم بالجحد بعد المعرفة، فقال عز من قائل:

﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (١).

وَقال جل وَعلا: ﴿يَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ (٢).

وَقال تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٣).

فكانوا عنده أعظم بلاء إذ جحدوا الحق بعد علم وَمعرفة، كما قال الله عز وَجل: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (٤).

وَقد عُصِيَ الله عز وَجل ممن جهل وَلم يعرف أمره ما لا يحصى، فلم يضرب له الأمثال التي ضربها للعالم الذي يعرف أمره.

فضرب المثل للكافرين المشركين، من العرب الذين لا علم لهم، فقال: ﴿إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأَنْعَامِ﴾ (٥).

وَضرب مثل من آتاه العلم وَعرف الحق، ثم جانبه بعد علم وَمعرفة، كمثل الحمار والكلب، فقال: ﴿مثل الذين حُمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار﴾ (٦).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦. (٣) سورة البقرة، الآية: ١٤٦. (٥) سورة الفرقان، الآية: ٤٤.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٧. (٤) سورة البقرة، الآية: ٨٩. (٦) سورة الجمعة، الآية: ٥.

وقال في بلعم بن باعورا: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ [١]. فبدأ ذكره بأنه قد آتاه آياته حتى بلغ ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [٢] قيل في التفسير: إن حملت على الكلب بالعصا لهث، وإن تركته فلم تحمل عليه لهث، يريد أنه يلهث على كل حال.

فضربه مثلا للعالم الذي أوتي العلم فضيّع أمر الله عز وجل، كما ضيعه الجاهل. وقال ابن مسعود: بلعم بن برق، وقال ابن عباس: بلعم بن باعوراء [٣]، أوتي كتاباً فأخلد إلى شهوات الأرض ﴿ولو شئنا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [٤] قال: بعلمه، وقال مجاهد: هذا مثل من يقرأ الكتاب فلا يعمل بما فيه، وقال ابن عبّاس في حديث عكرمة عنه: أخلد: ركن إلى شهوات الأرض ولذاتها وأموالها، ولم ينتفع بما جاءهُ من الكتاب.

وقيل في قوله عز وجل: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [٥] قال: يقول الله عز وجل سواء على هذا العبد آتيتهُ الحكمة أو لم أُوتِه، فضرب الكلب له مثلا.

ثم قال النبي ﷺ: يخبر أن العالم يعذب عذاباً يطيف به أهل النار، استعظاماً منهم لشدة عذابه، يخبر أنه أشد عذاباً منهم، قال أسامة بن زيد: سمعت النبي ﷺ يقول: «يؤتى بالعلم يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه، وقال بعضهم أفياده فيدور به كما يدور الحمار بالرحى فيطيف به أهل النار، فيقولون: ما لك؟ فيقول كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهي عن الشر وآتيه» [٦].

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) في ط: ابن باعر.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٥) سورة الأعراف، الآية: ٧٦.

(٦) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ١٠ من كتاب بدء الخلق، والباب ١٧ من كتاب الفتن، والباب ٥١ من كتاب الزهد. وأحمد بن حنبل في مسنده ٥/٢٠٥، ٢٠٧، ٢٠٩.

وروي عن أبي الدرداء أنه قال: «ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله علّمه وويل للعالم سبع مرات».

فإذا عرض للعامل أو العالم ذكر عظم القدر والتكّبر، رد على نفسه أنه على خطرٍ أن يكون قدره عند الله عز وجل وعند خلقه أصغر قدراً من المضيع للعمل، والجاهل بالعلم، إذا كان أعظم بليّة، فإذا رجع إلى نفسه [قال] إني كما عُرِّضت لأعظم الأجر وأكبر القدر، فكذلك عرضت لأعظم الإثم وأصغر القدر، وإن تَتكَبّرِي يا نفس تكوني أصغر قدراً من الجاهل والمضيع للعمل.

فهو كرجل قيل له: إن لك قدراً ما لم تر لنفسك قدراً، فإن رأيت لها قدراً فلا قدر لك عند الله عز وجل، وهو كذلك، لأن الله عز وجل يضعه ويُذِلُّه إذا تكبّر.

فإذا عقل من الله عز وجل، علم أنه إن تكبّر وضع قدره، وإن نفى الكِبر وذَلّ رفع قدره، وإذا ألزم العبدُ قلبه ذلك، انتفى الكبر عنه عاملا كان أو عالماً، لأن خطرهما جميعاً عظيم[1].

أما العابد فكثير آفاته، وكثير أخطاؤه في علمه، وكذلك العالم، وهو أعظمهما خطراً وأشدّهما بلاء[2].

ألا ترى إلى ما روي عن أبي ذرّ: أن مولاه جعل يسأله عن العلم، فقال له أبو ذرّ، أما إنك لا تسألني عن شيء إلا زادك الله به بلاء.

وصدق رحمة الله عليه، تعظم عليه الحجة عند الله عز وجل، ويعظم منهَ الذنب، وتكبّر آفاته، ومع عظيم الحجة وكثرة الآفات إنما يؤجر عليه إذا عمل به بنية قلب أو فعل، ألا ترى إلى قول معاذ بن جبل: «اعلموا ما شئتم أن تعلموا، فإن الله عز

---

(١) فصل المحاسبي فنون كبر العاملين والقراء في كتابه «آداب النفوس». ومن قبله اشتد نكير سفيان الثوري على العباد والقراء والعلماء، انظر أقواله فيهم في حلية الأولياء ٧، ٨.

(٢) انظر باب آفات العلم، من الوصايا للمحاسبي لزيادة العلم بخطر كبر العلماء.

وجل لا يأجركم على علم حتى تعملوا »[1].

ونيَّته للعمل به عند طلبه عمل، فبمعرفته بعظيم الخطر يطلّ وينكسر، وبمعرفته بعظيم الحجة عليه يزول عنه الكبر أن يتكبّر على من دونه، ولو لم يعظم خطره، ولم تعظم الحجة عليه، وأيقن أن الله عز وجل قد رفعه بعلمه على من دونه، لكان حريًّا - إن كان بالله عز وجل عالماً - ألا يتكبّر على من دونه، فيزول عن منزلته، ويتضع عن رفعته، إذ علم أن الله عز وجل واضعٌ بالكبر من تكبّر على من دونه، ومذلّه ومصغره.

وإنما كررت هذا عليك لتفهمه، وتعرف أن الكبر لا يليق ولا يصلح ولا ينبغي لأحد سوى الله عز وجل، إذ كل ما سواه مملوك ذليل لربه عز وجل، كما يروى عن أبي هريرة أن رجلا كان لا يُعدى عليه، وكان يمر بدابته لا ينظر إلى أحد، فعرض له أبو هريرة فأخذ بلجامه، وقال له: « ما رأيك إلى شيء لا يصلح إلا لله عز وجل تجعله لنفسك؟ ». قال فانكسر الرجل وما رئي منه بعد ذلك إلا خيراً وتواضعاً.

قلت: فإذا تذكَّر هذا وتفكّر فيه (وفي آثاره)[2] حتى يلزم قلبه معرفته، زلت[3] نفسه لصغر قدرها عنده، وزال الكبر عن قلبه، حتى لا يرى أنه خير ممن دونه من المسلمين، فلا[4] يزدريه ولا يأنف منه، هل يجزي ذلك عنه فيما يستقبل من عمره؟

قال: لا، لأن النفس قد تعطِي العزم على التواضع وترك الكبر، إذعاناً منها للحق، إذ بهرتها معرفته، فعرف العبدُ صغر قدر نفسه، فلما عرف صغر قدر نفسه ذلَ وخضع، فتُعْطَى النفسُ العزمَ عند هذه المعرفة، ثم تسهو أو تغفل في غير ذلك

---

(١) وممن جرى على هذه السنن من السلف الحسن البصري وإبراهيم بن أدهم وسفيان الثوري ومالك بن دينار. كانوا جميعا لا يعرفون من العلم إلا الجانب العملي، فانحرف المتأخرون وقاسوا العلماء بميزان الجمع والاستكثار منه.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط. (٣) في ط، فزلت. (٤) في ط: لا يزدريه.

الوقت فتتكبر وتتعظم، فتنقضُ ما أعطت من العزوم، وتتغير عن حالها تلك، من الخضوع والذلة، فتتكبر وتتعظم.

باب بم يعلم العبد أن نفسه قد تركت الكبر على الصدق ولا خدعة منها؟

قلت: فبِمَ يعلم أنها قد وفت بعزومها، أو أنها ناقصة لها».

قال: بتفقدها عند الداعي من القلب إلى الكبر، وعند الأعمال التي يأنف منها المتكبّرُون، ويتعظمون عنها.

فأما الداعي من القلب إلى الكبر، فمثل الخطرة تهيج بالإعجاب بالنفس، تدعو العبد إلى أنه خير من أخيه المسلم، وأن ينظر إليه بعين الازدراء والضعة، فعند خطرة الداعي إلى ذلك[1]، يكون حذِراً متيقظا، رادّا لما خطر بقلبه من ذلك، فإن أبت نفسه ذلك ذكَّرَها صغر قدرها، وما وجب عليها، وخاتمة حياتها، وما تخاف من سوء عاقبة الآخرة، وأنه لذلك مستوجب.

وأما بالجوارح، فإن أمَرَهُ آمِر، أو نهاهُ ناه، أو ناظرَه مناظر، فتبيَّن له أن الحقّ ما قال مَن أمَرَه أو نهاه أو ناظره، منع نفسه الردّ لقوله، وحَمَلَها على القبول لقوله، والخضوع للحقّ إذ تبيَّن له.

وكذلك إن أنف من اكتساب الحلال من الأسباب الوضيعة حملها على ذلك، فإن أبت ذكَّرها ما وصفْتُ لك[2] من صغر قدره وغيره.

وكذلك إن أبت حمْلَ ما ينفعها مما يأنف من حمله المتكبّرون، كالشيء يحمله

---

(١) في ط: بذلك.

(٢) بل إن الكبار من أولي العلم والخالدين في تراث الإسلام فعلوا ذلك ولم يروه منقصة، فقد نزل إبراهيم بن أدهم عن الإمارة وعمل حصادا وحارسا للبساتين وحمالا ليعيش من الحلال الخالص.

لنفسه أو لأهله، حملها على حمله وذكّرَها صِغر قدرها[1].

وكذلك إجابةُ دعوة الرجل المسلم، وإن كان عبداً أو فقيراً أو دنيء الحسب، وكذلك المشي معه لحاجته أو زيادته أو عيادته أو معاملته، كان قريباً له أو بعيداً، حملها على ذلك إذا كان ذلك نافعاً له في دين أو دنيا، وكذلك تعليم الحقّ أو سؤال عنه لمن دونه، وكذلك الانتماء إلى أصله ومواليهِ، لأنه قد يُخرجه الكبر إلى أن ينتمي إلى غير أصله، أو يُدْعى إلى غير مواليه، أنفاً وكبراً عن أصله ومواليه، وذلك عند الله عز وجل عظيم.

وروي عن سعد عن النبي ﷺ أنه قال: «من دُعي إلى غير مواليه فالجنّة عليه حرام»[2]. وقال أبو بكر الصديق، رضي الله عنه: «كفرٌ بالله تبرُّئي من نسب وإن دقّ».

وكذلك يأنف من لبس الثوب الدنيء، فيدع ما وجب عليه كالصلاة وغيرها، أو إتيانَ حقّ من قرابة أو غيرهم. وقد روي: أن أبا موسى رحمة الله عليه قيل له: إن أقواماً يتخلفون عن الجمع من أجل ثيابهم، فلبس عباءة[3] فصلّى بالناس فيها.

وهذا الباب كله قد يجامع الكبر الرياء فيه، فبذلك يحقق جُملة ما عزم عليه من نفي الكبر ألا ترى ما يروى عن النبي ﷺ؟ قال: «من اعتقل العنز، ولبس الصوف، فقد برىء من الكبر»[4].

وقال: «إنما أنا عبد: آكل بالأرض، وألبس الصوف، وأعتقل العنز، وألعق

---

(١) رؤى عثمان رضي الله عنه يحمل حزمة حطب. فقيل له ذي ذلك. فقال: أردت أن أجرب نفسي هل تأبى؟

(٢) اخرجه: ابن السني عن عمير بن سعد.

(٣) في المسائل للمحاسبي ليس قطيفة [انظر باب الشهرة].

(٤) أخرج مثله: البخاري في صحيحه، الباب ١٢ من كتاب اللقطة. وأحمد بن حنبل في المسند ١/٣، ٤٦٢.

أصابعي، وأجيب دعوة المملوك، فمن رغب عن سنتي فليس منّي»[1].

والحديث عن أبي سنان: انه قال له رجل: هات حتى احمل عنك هذا اللحم، فقال: لا، ثم قرأ: ﴿إنّهُ لا يُحبُّ المُسْتَكْبِرينَ﴾[2].

ولا يرضى أهل العلم والمعرفة بما أعطت انفسهم من العزم على ترك الكبر دون أن يبلوها ويختبروها عند الأعمال، حتى ينظروا، تحقق ذلكَ أم تنقضه، ومن ذلك ما يروى: أن عبد الله بن سلام حمل حزمة من حطب، فقيل له: يا أبا يوسف، قد كان في غلمانك وبنيك ما يكفونك، قال: أجل ولكني أردت الأنف حتى يجرّبها، أتصدُق في ذلك أم هي كاذبة.

وقد يعترض للعبد مع الكبر، في مثل هذا كُله الرياء، فيجامع الكبرُ الرياء، وهو ما اخبرتك في اول الجواب عن مسألتك: أن الكبر يعترض من الرياء، فيعترض في ذلك الرياء مع الكبر، أنفاً ان يقولوا فقيراً او وضيعاً أو مسكيناً، فينظروا إليه بعين الازدراء من الفقر او الكسب الدنيء، او صحبة الرجل الدنيء، او زيارته من القرابة وغيره، او أن يقبل الحقّ من غيره، فيقال: فلان خطّأه أو علمه، أو يقول: من غلبه في نفسه خطأته، أو علّمته.

فإذا اعترض الرياء مع الكبر، فليقارب بالفكر بين صغر القدر، وما وجب عليه من العقاب، وكراهية الرياء المحبطة لعمله في يوم فقره وفاقته، إلى صافي الحسنات، لينجو بها من عذاب ربه عز وجل، ويستحق بها ثوابه ورضوانه، فيذكر صغر القدر وما وجب عليه من العذاب، ويذكر مصيره إلى الموت والحساب.

وبالحكم بالجزاء ينفي الكبر، وبالكراهة للرياء ينفي الرياء، لأنه قد ينفي الكبر

---

(١) أخرجه بعدة ألفاظ: مسلم في صحيحه، حديث ١٣٦ من كتاب الأشربة. وأبو داود في سننه، الباب ٤٩ من كتاب الأطعمة. والترمذي في سننه، الباب ١١ من كتاب الأطعمة، واحمد في مسنده ٢٩٠/٣، ٤٥٤.؛ وابن ماجه في سننه، الباب ٤٩ من كتاب الأطعمة.

(٢) سورة النحل، الآية: ٢٣.

إذا عرض له الأنف من الأعمال التي تقربه إلى ربّه عز وجل، لضعة أسبابها، فيتواضع [في نفسه] أن الكبر لا يليق به، وتجزع نفسه بعد معرفته بصغر قدرها، أن تُذَمَّ، وينظر إليها بالإزدراء، فهو في نفسه وضيع، ولا يحبّ مع ذلك أن يكون عند الناس وضيعاً [١].

ومما يدلك على ذلك: انه قد يكون من بعض الخلق ان العبد يدعى إلى حسب شريف، كادِّعائه أنه من أهل بيت النبوَّة، أو من قريش، او العرب، وهو عالم أن أصله غير ذلك، فهو عند نفسه وضيع الأصل، وهو يحبّ أن ينظر إليه الناس بعين التعظيم، ويكره أن يعلموا بأصله وينظروا إليه بالإزدراء.

وكذلك يظهر انه غني وهو فقير، فذلّ الفقر في قلبه، لمعرفته انه لا غنى عنده، وهو يحبّ ان ينظر إليه بالغنى، ويكره ان يرى بالفقر.

وكذلك يظهر انه غني وهو فقير، فذلّ الفقر في قلبه، لمعرفته انه لا غنى عنده، وهو يحبّ ان ينظر إليه بالغنى، ويكره ان يرى بالفقر.

وكذلك يوهم العباد انه يحسن من العلم ما لا يعلمه، ويكره ان يفطنوا لجهله [٢] فيزدروه، ويحبّ ان ينظروا إليه برفعة العلم، فهو عند نفسه دنيء الحسب قليل المال جاهل، وهو يوهم العباد أنه على غير ذلك، لحبِّ الحمد وكراهة الذمّ.

وكذلك هذا الذي اعترض له الكبر مع الرياء، قد ينفي الكبر ويستعمل الرياء، فيدع ما هو أولى به وأقرب إلى ربّه [٣] عز وجل، ولعله أن يغلط فيرى أنه بنفيه الكبر قد نفى الرياء، فيكون عند نفسه مخلصاً متواضعاً، وهو عند ربّه عز وجل مراءٍ (مخادع) [٤] ولعل نفسه عند ذلك ان تخيّل إليه أن ذلك حياء منه، وإنما تركه للحياء، ولم يتركه للكبر ولا للرياء.

---

(١) يدخل هذا النوع في دائرة العالم الذي لا يعمل بعلمه.

(٢) في ط: بجهله.

(٣) كالعمل مع البسطاء، واحتراف العمل الدنيء للكسب الحلال الخالص.

(٤) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وكذلك قد يَنفي الرياء فيعلم ان العباد يضرّه ذمُّهم، ولن ينفعه حمدهم، فيكره ذلك، وتأبى نفسه أن يفعل شيئاً من ذلك، كبراً في نفسه، وأنه لا يصلح ذلك لمثله، ولو رفعه الناس بذلك.

وقد رأينا مَن قد يتكبر بالحسب مع الدين، كمن هو من أهل بيت النبوة أو من قريش، يرفع نفسه أن يصلي خلف العامّة، فيدع الجماعة أنفاً وكبراً، وقد علم ان العباد يذمُّونه، يعلم ذلك منهم، ويبلغه عن بعضهم، ويسمعه من بعضهم، ونفسه تأبى إلا كبراً، وأنه لا يصلح له في قدره أن يؤمّه غيرُه، فقدَ لزم قلبه الكبر مع معرفته ان ذلك يزيد حمد العامة له، وهو متكبّر لا يرائي[1] بذلك.

وكذلك لا يختلف إلى الفقهاء والمحدثين (والعلماء)[2] أنفاً وكبراً أنه أحق[3] أن يتَعلّم منه، من أن يتعلم هو من غيره، لأن العلم إنما جاء من أصله وآبائه[4]، ولعله جاهل لا يحسن ان يقيم صلاته او بعض فرضه.

وقد تبيّن بهذا ان العبد إذا قارن الرياء بالكبر انه قد ينفي الكبر، ويعتقد الرياء، وقد ينفي الرياء ويعتقد الكبر، فلا ينجيه إذا تقارنا ان ينفيَ احدهما بما ينفي به الآخر، إلا أن يكون عبداً قوياً خائفاً، فيذكر اطلاع الله عز وجل على ما في قلبه، فينصرف عنهما، وذلك إذا كان عارفاً بهما وبما يُنْفَيان قبل العارض.

فأما من لم يكن يعرف ما ينفيهما به فلا غنى به عن معرفة ذلك عند

---

(١) في ط: لامرائي.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) في ط: أنه أحق.

(٤) لقد تسربت هذه الفكرة أيضاً من الشيعة الذي حصروا العلم في الإمام وحده وخصوه بالأسرار، ولكن الإمام علي بن الحسين زين العابدين هدم هذه الفكرة، وكان يجلس إلى العلماء مثل زيد بن أسلم وغيره ويقول: إنما يجلس الرجل حيث ينتفع، ويقول إن هذا العلم يجب ان يتبع وكذلك كان زيد بن علي بن الحسن وأعيان آل البيت النبوي.

وإنما انتحل هذه النحلة جمع من أدعياء المشيخة الصوفية في العصر الحاضر ظنوا انهم مصدر العرفان، وأنفوا من استماع احسن القول من غيرهم.

اعتراضهما، وذلك إذا كان يعرف - من قبل أن يعرضا - بم ينفيهما به.

ثم إن لم يكن عنده خوف وقوة يقين وإجلال لله عز وجل لم يكد ان يجزئه ذكر اطلاع الله أو ذكر عقابه، لغلبة الهوى وضعف العزم واليقين، حتى يخاصم نفسه ويعاتبها، ويورد عليها أضداد ما ادَّعت، من عظيم القدر، ويرد عليها ما أرادت من رياء المخلوقين، بذكر سوء عاقبة الرياء في معاده، أفقر ما يكون إلى أن يقبل الله حسناته.

فإذا نفى الرياء والكبر إذا اجتمعا في القلب بما وصفت لك من ذكر صغر القدر، وما وجب عليه في حياته، وما تكون خاتمة امره، فينتفي بذلك الكبر، وينفي الرياء بالكراهية والإباء له، لخوفه من حبط عمله حين لا ينجيه إلا الخالص من العمل، فقد نفى الكبر حينئذ والرياء جميعا، وسلم منها بإذن الله عز وجل.

باب ما يجب من التواضع للمطيعين

والعاصين لينفي به العجب والكبر

قلت: قد أمرت بالغضب والبغضة للعاصين، والمجانبة لهم والمقت لهم، ومعرفة النعم التي بها عُصمتُ من كثير من أعمالهم، فقد يمكنني ان أذل وأتواضع للمطيعين، وأعرف لهم قدرهم وما رفعهم الله عز وجل به عليّ، وأني دونهم، فكيف يمكنني ان أذل وأتواضع لمن أمرتَ بمقته وبغضه، وبمجانبته ومعرفة النعمة التي بها فضلتُ عليه.

قال: لا يمنعك من التواضع لله عز وجل، والذلّ في نفسك، مع القيام بذلك كله.

قلت: ما أجدني احسن ان أميز بين هذين: أن أتواضع لمن انا له مبغض، وعليه غضبان وله مجانب، أحمد الله على العصمة من مثل عمله.

وكيف لا أرى اني خير منه وقد فضلني الله عز وجل عليه؟ فقد التبس عليّ

معنى ما وصفتَ في نفي العجب فإني لا أمتنع أن أعلم ان الله عز وجل رفع قدري فوقه، وأني قد علمت ما لم يعلم، وتورّعت عما لم يتورع.

وأما ما وصفت مِن نفي الكبر فلست أمتنع منه ـ إذا كنتُ أعلم ان الله عز وجل قد فضلني عليه بأمور كثيرة ـ أن أنظر إليه بعين المقت والبغضة كما أمرت وندبت.

قال: إن ذلك ليَلتبس على من هو أعلم منك وأقوى، (وأشد مراساً لنفسه)[1]، ومن ذلك أتى كثير من الديانين[2]، حتى أعجبوا وتكبّروا، وظنُّوا انهم قد أطاعوا الله عز وجل بذلك، لأن الكبر على المطيع شر مقرر بعينه، لا يلتبس إلا على الغافلين، والكبر على العاصين يمازجه ويشوبه الغضب لله والمجانبة له، والاعتراف بالنعم التي فضل بها عليهم، والتبس واشتبه لهذه الشائبة حتى خدع بها كثير من المتعبدين، وظنوا انهم بذلك مصيبون لله عز وجل مطيعون.

وسأبين لك ذلك حتى تميز بينهما، فتغضب (لله)[3] وتمقت (لله)[4] وتجانب لله، وتعرف ما فضلت به من النعم، وتزايل العجب والكبر بالعلم، وما يمكن في النظر لمن عقل عن الله عز وجل أمره.

فإن ميزت بينهما نجوت من الكبر والعجب ومقت الله عز وجل بالغضب له وعرفان نعمه، وإذا لم تميز بينهما خدعتك نفسك وعدوك بالطاعة، فأبقتك في المعصية لما شابها من الطاعة.

شرح المسألة المتقدمة

اعلم ان الناس عندك فرقتان: فرقة مستورة لا تعرف منها سوءاً ولا جرماً، فتلك الفرقة افضل منك عندك، إذ لم تتبين منها مكروهاً.

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) جمع ديان، وهو العادل مع نفسه ومع ربه، التقي الصالح.

(٣ ـ ٤) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

والفرقة الثانية مختلفون في ذلك، فمنهم من هو عندك مهتوك في ذنب أو ذنبين، أو أكثر من ذلك، إلا انه اقل مما تبين لك من نفسك من الذنوب في طول عمرك، فهؤلاء أفضل منك عندك، إذ كنت تعرف من نفسك اكثر مما تعرف منهم.

وفرقة قد ظهر لك منها من الذنوب اكثر[1] واعظم مما قد ظهر لك من نفسك.

فأما الكثرة فلا تقدر ان تحصيها من غيرك كما تحصيها من نفسك، لأنك خالٍ بنفسك في كل حال في عمرك كله، ولا تقدر ان تصحب غيرك في طول عمرك فلا تفارقه، كما لا تقدر ان تفارق نفسك، ولا تطلع على سرائره وضميره كاطلاعك على سرائر نفسك وضميرها، فذنوبك عندك أكثر من ذنوب غيرك[2].

فأما العظم فقد يظهر لك من غيرك ذنوب عظيمة كالقتل والسرقة والزنا وغيره من غيرك، فقد يكون بعض من[3] ظهر لك ذلك منه ليس عنده من المعرفة والعلم ما عندك، فالحجّة عليك أعظم منها عليه، والحساب في سؤال القيامة بالعلم أشد..

فأنت [يجب أن] تخاف على نفسك العذاب، على قدر تضييعك مع العلم والمعرفة، فتنفي عنك الكبر بذلك.

وقد يكون لبعض من ظهر لك ذلك منه من العلم مالك او اكثر، وقد ظهر لك من الذنوب اعظم مما أتيت به، فهو أعظم عصياناً منك.

فهذا الذي سألت عنه إن عقلت وأردت التمييز بين الغضب لله عز وجل والنجاة من العجب والكبر.

فالذي عليك فيه: أن تعرف نعمة الله عز وجل عليك، إذ عصمك من

---

(١) ي ط: اكبر، والسياق كما نرى تقتضي ما أثبتناه.

(٢) يعني: يجب ان تعتقد ان ذنوبك اكثر من ذنوب غيرك بهذه المعرفة والمشاهدة.

(٣) في ط: ما ظاهر، واللغة تقتضي ما أثبتناه.

مثل عمله، وتغضب لله عز وجل وتجانبه وتجفوه غضباً لربك تعالى، فلا تنس الخوف على نفسك حتى ترى انك ناجٍ وأنه هالك دونك، وأنت لا تدري بم يختم لك ولا بما يختم له.

وإنما وُكِّلت بالخوف على نفسك من ذنبك، ولم توكل بالخوف عليه من ذنبه، إلا من طريق الإشفاق[1] عليه، فأمّا ما نُدبْتَ إليه، ووجب عليك [فهو] أن تخاف الله عز وجل، وترهبه وتتوب إليه، وتخاف ألا يقبل منك صالح عملك، لما سلف من ذنوبك، ولما تخاف ان يكون قد دخل عليك في عملك من الآفات التي تفسده، وأن تخاف من سوء عواقب الخاتمة، وسابق العلم فيك، فإنما أمرت ووجب عليك الخوف على نفسك، لأنك المأخوذ بذنبك لا بذنب غيرك. ألم تسمع الله عز وجل يقول: **﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾**[2]، **﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أساءَ فَعَلَيْها﴾**[3]، **﴿وَلاَ تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إلاَّ عَلَيْهَا﴾**[4].

فأنت لا تدري لعل الله عز وجل يكون قد غضب عليك، فأنت عندك شغل من[5] الخوف على غيرك، ولا تدري بم يختم لك، وكم قد رأيت راحماً لغيره من المسرفين على أنفسهم قد رجع إلى المعاصي وتاب المرحوم عنها[6]، ورجع هو[7] حتى مات على شر أحواله، ومات الآخر على الطاعة والتشمير، لأن الله قد غيَّب علم عواقب الأمور وأعمال العباد عنهم، فلا يدري احد منهم [من امر الله] إلا الرسل الذين بين لهم، فلا يدري العبد على ما يموت، وبأي حال يختم له بها.

فالخوف على نفسك أولى بك من الخوف على غيرك.

---

(١) الإشفاق والنصح بمعنى واحد في مؤلفات المحاسبي.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٣) سورة فصلت، الآية: ٤٦.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٦٤.

(٥) في ط: عن الخوف، خطأ مخالف للمعنى.

(٦) في ط: عنده، ولا معنى له.

(٧) يعني: من كان يرحم غيره من المسرفين.

فإذا لم تترك الخوف على نفسك لما سلف من ذنوبك، وبما يختم لك به، وأنت مع ذلك عارف بنعمة ربك الذي عصمك من سوء فعل غيرك، وغضبت لله عز وجل، وجانبت [لله] وأنت غير ناسٍ للحذر، ولا تارك للخوف على نفسك، فلست بمستكبر عليه.

وإنما تكون مستكبراً عليه إذا نظرت إليه بعين الإزدراء والحقرية، وقد غلب على قلبك انك الناجي، وأنك خير منه على كل حال، فلا تذكر ما سلف منك، ولا بم يختم لك، فحينئذ تجمع عصياناً لله عز وجل وكبراً، إذا نظرت إليه بالإزدراء وأنك خير منه، غير خائف على نفسك، أو أنفت ان تقبل منه حقاً، او تؤدي إليه حقاً، اوجبه الله عز وجل له عليك، وقد قطع قلبك عليه بالهلاك، وغلب عليك النجاة لك.

فحينئذ قد تكبرت عليه، وأعجبت بنفسك، كما صنع عابد بني إسرائيل بخليعهم.

فلا تدع ذكر النعمة التي بها فضلت، ولا مجانبة الفاسقين، ولا تنس سالف ذنوبك، وعظيم الحجة عليك في علمك وعملك لله عز وجل ومعرفتك، وبم يختم لك، خائفا ان يختم لك بشرِّ الأعمال، وان تكون عند الله عز وجل في علمه شقياً.

فقد عظم خطرك، وفي ذلك شغلٌ لك عن الكبر على غيرك، ولا تأنف ان تقبل الحق منه، ولا أن تؤدي الحق إليه إن كان (بنيك وبنيه)[1] قرابة أو غيره.

قلت: فأنا أيضاً لا أدري بما يختم له.

قال: أجل، وإنما وكلت بالخوف على نفسك، والإشفاق من سوء الخاتمة لعملك، ولو ختم لك وله بأعمال اهل النار فدخلتما جميعاً النار ما كان لك في الخوف عليه راحة ولا فرح، فالغم لنفسك والحذر عليها أولى بك في الدنيا والآخرة، لأنه لو كانت بك قرحة تضرب عليك، وبغيرك اكلة، كنت لما بك من القرحة أشد غما وهما منك لغيرك.

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

فمن كان عندك مستوراً او مهتوكا بأدون مما[1] عندك به، فقد تبيّن لك انه خير منك، ومن كان عندك مهتوكا بأعظم مما عندك به، ففيما عندك شغل عن الفراغ لحقريته وازدرائه، والخوف عليه، وخوف سوء الخاتمة على نفسك اولى ان يغلب على قلبك، لأن البلاء إليك يصل إن لم يرض الله عز وجل عنك.

ولعلك اعلم منه، فالحجة عليك أعظم، وعلى أي حال عندك من الذنوب في الدين من الكبر والعجب والرياء والحسد في الدين ما ليس عنده.

وقد روى عن وهب بن منبّه ما يبيّن هذا، أنه قال: ما تم عقل امرىء حتى يكون فيه عشر خصال، فعد تسع خصالٍ حتى بلغ العاشرة، فقال والعاشرة، وما العاشرة؟ هي التي ساد بها مجدُه، وعلا بها ذكره: انه يرى الناس كلهم خيراً منه[2] وأنه شرهم حالا فقال: يرى، ولم يقطع، ثم فسر ذلك فقال: وإنما الناس عنده فرقتان او رجلان، ففرقة هي أفضل منه وأرفع، وفرقه هي شر منه وأدنى، فهو يتواضع للفرقتين جميعاً، بقلبه إن رأى من هو خير منه شكره، وتمنى ان يلحق به، وإن رأى من هو شر منه قال: لعل هذا ينجو وأهلك أنا، أفلا تراه خائفاً من العاقبة؟[3].

ثم قال: ولعل برّ هذا باطن فذلك خير له، لا يدري لعل عنده خُلقا كريما فيما بينه وبين ربه جل وعلا، يشكره له فيرحمه به، فيتوب عليه ويختم له بأحسن الأعمال.

ثم قال: وبرِّي أنا ظاهر، فذلك شر لي، فلا يأمن ألا يكون سَلِم فيما أظهر من الطاعة أن يكون قد دخلها من الآفات ما يحبطها.

ثم قال: فحينئذ كمل العقل، وساد أهل زمانه، وصدق، لأن يتواضع لهما جميعاً

---

(١) • في ط: بدون ما عندك.

(٢) وهي حقيقة التواضع، انظره في بابه من المسائل للمحاسبي

(٣) يؤكد المحاسبي في «آداب النفوس» وجوب هذا السلوك مع الكافر، على أساس أن الكافر قد يكتب له الإيمان فيمحق إيمانه ما سلف من ذنبه، وتبقى ذنوبك قائمة، فهو حينئذ خير منك.

بقلبه مقراً معترفاً أن ما لم يبد منه أعظم مما يعرف من نفسه، فهو خائف على نفسه الهلاك، وأن يختم له بشر من عمله، أو لعله لم يتقبل له حسنة، وأنه عند الله عز وجل شر منه مما سلف من ذنوبه، ولعله يختم له بشر الأعمال.

فهو متواضع للفريقين جميعاً، غير متكبّر على واحد منهما، غير تارك للغضب لله عز وجل، والمجانبة لمن أمر بمجانبته، والغضب عليه، إذ لم ينس الخوف على نفسه، خائف أن العذاب واصل إليه، ولعله شر من يرى وسينجو ويختم له بخير الأعمال.

ألا ترى إلى حديث: أن عابداً كان يتعبَّد في جبل، فأتي في النوم فقيل له: إيت فلاناً الإسكاف فاسأله أن يدعو لك، فأتاه فسأله عن عمله، فأخبره أنه يصوم النهار، ويتكسَّب فيتصدّق ببعضه ويطعم عياله ببعضه، فرجع وهو يقول: إن هذا لحسن، فأما كالتفرغ لطاعة الله عز وجل فلا، فأُتي في النوم فقيل له: إيت الإسكاف فاسأله فقل له: ما هذا الصفار في وجهك؟ فأتاه فسأله، فقال له الإسكاف: ما رُفع لي أحد من الناس إلا ظننت أنه سينجو وأهلك أنا، فقال له العابد بهذه نجوت.

وبهذا وصفهم الله عز وجل، فقال: ﴿**يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ**﴾(٢).

ولم يصفهم بالإشفاق والخوف على غيرهم.

وهل يبلغ أحد من البراءة من الذنوب، ودوام الدؤوب والاجتهاد بغير فترة ولا سآمة ما بلغت الملائكة؟ وقد أخبرنا الله عنهم: أنهم يسبحون الليل والنهار لا يفترون، وأنهم من خشية ربّهم مشفقون.

فمتى زايل الإشفاقُ والوجَلُ قلبك، ونظرت إلى غيرك بالازدراء والحقرية

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٥٧.

والأنفة منه، وأنك خير منه، من غير حذر ولا خوف لسوء العاقبة، وسابق العلم، أو رددت عليه حقاً أنفاً أن تقبل منه، أو منعته حقاً يجب له عليك، كصلة رحم وغيره أنفاً أن تأتيه أو تعلم أنه لك قريب، ازدراء به وأنفه منه، فقد تكبّرت عليه.

ومتى ذكرت نعمة الله عز وجل، التي عصمك بها مما أتي غيرك من الذنوب وأنت غير تارك للوجل والإشفاق، خائف على نفسك، لا تقطع لك بالنجاة وعليه بالهلاك، وأنت مع ذلك غضبان لله عز وجل، مجانب له، فقد نجوت من الكبر، وقمت بما أمرت فيه، ولم تنس النعمة عليك.

ولكن أخاف عليك أن تخدع بذكر النعمة، فتنظر إليه وأنت لا تكاد تشك أنك الناجي وهو الهالك، وإن جلس إليك أو قاربك في موضع جانبته، تريد النزاهة والغضب لله عز وجل، وأنت مع ذلك معظم لنفسك، تأنف من مثله أن يقارب مثلك، وأنك خير منه، لا تذكر الخوف على نفسك، كأنك لا تشك أنه مغضوب عليه وأنك مرضي عنك، ناجٍ لا محالة، فتجمع نزاهة الدين وكبرا، فتُخدع باسم الغضب لله عز وَجل والنزاهة، فتتكبّر وأنت لا تعلم.

ألا ترى إلى قول عون بن عبد الله، ووصف المؤمن فقال: «ليس دنوه خدعة ولا خلابة[1]، ولكن دنوه ليغتم، ولا نأيه عمَّن نآى عنه كبراً، ولكن نزاهة منه ليسلم».

فاحذر العدو أن يزين لك البر ليلقيك في الإثم، أو يمن الله عز وَجل عليك بطاعته فيحسدك العدو عليها، فيزين لك إثماً يحبط به الطاعة، فتكون حينئذ غير شاكر لما منَّ به عليك من طاعته.

فاحذر إذا ذكرت النعمة التي فضلت بها عليه أن تجمع مع ذلك كبراً، فاذكر النعمة وأنت من العواقب مشفق وجل، ولنفسك بما خالفت مولاك مستصغر مبغض ماقت.

---

(١) أي: سحر للعقول.

باب في بيان الكبر على أهل البدع
وغيرهم من أهل الكفر والشرك

قلت: قد تبيَّن لي كيف أجانب الكبر في أهل المعاصي من المسلمين، فأخبرني عن أهل البدع الذين يتدينون بغير السنَّة، ويضلّون العباد عن الله عز وجل، أعداء لسنن رسول الله ﷺ، همَّتهم إطفاء نورها، وإحياء الضلالة، ومذلّة أهل الإفتراء والكذب بالتأويل على الله عز وجل، وعلى رسوله ﷺ.

قال: إن أهل البدع يجب عليك البغض لهم والمجانبة إلا من وجب له عليك حتى تؤدّيه إليه، فتـؤديه إليه وقلبك له مبغض، ومنه نافر، كائن من كان، إلا أن قلبك لا ينسى ما في رقبتك من الذنوب وما تقدم فيك من علم علام الغيوب، بالشقاء أو السعادة، أو سوء الخاتمة.

وتعلم مع ذلك أن الله قد فضلك عليهم، فما عصمك منه، من التدين بأديانهم غير غافل حتى تقطع أنك خير منهم في الآخرة، ترى أنك ناج وهم هالكون.

فقد غيَّب الله عنك العلم فيك وفيهم، لا يدري أحد منه على أي حال يموت، وعلى أي حال تموت، ولعله ألا يغفر لك ولا له فتدخلا النار جميعاً.

فإذا كان عاقبة أمرك دخول النار فعندك شغل عن استصغاره، والظنِّ في نفسك أنك خير منه، فإذا دِنت الله ببغضه وخالفته، وعلمت ما منّ به عليك مما عصمك مما يدين [به]، ولم يغفل قلبك حتى يغلب عليك أنك ناجٍ وهو هالك، فقد نجوت من الكبر.

وإن غلب على قلبك أنك ناجٍ وهو هالك، فقد تكبرت في نفسك واغتررت بربك عز وجل.

فهذا بيان ما سألت عنه من الكبر، ونفيه عنك في أهل البدع.

قلت: إن أهل البدع وإن كانوا ضُلالا فهم معتقدون للتوحيد، ولكن أرأيت

من لا شك فيه أنه عدو لله، كافر به، إن مات على كفره فهو في النار، لا يرحمه الله أبداً، فلا يمتنع قلبي من أن أعلم أني خير منه، وأنه هالك لا محاله، وأنه ليس عنده من الخير مما يَرضي الله عز وجلّ به أو يقبله مثقال خردلة، وأنه لا حسنة له عند الله عز وجل في الآخرة.

قال: هو كما ذكرت، إلاّ أن يمنَّ الله عليه بالتوبة، فإن مَنَّ الله عليه بالتوبة قبل الموت فالله أحق بالتفضل عليه، وإن لم يمن الله عليه بالتوبة فهو الظالم الخاسر.

فأما الكبر على أحد من الناس فلا يجوز لك، ولكن لك ولكل مسلم جائز - بل هو فضل وخير وقربة إلى الله - أن تعلم أن الله فضلك عليه، وأنه لا خير عنده، وأن الحكم عليه من الله بالعداوة والغضب، إلا أنك قد غيَّب الله عنك عاقبتك وعاقبته على ما يموت، وعلى ما تموت، فعليك - وإن كنت عارفاً بضلالته وكفره، وأن الله فضلك عليه بأن عصمك من كفره ومنَّ عليك بتوحيده - أن تكون شاكاً في عاقبة أمرك، لا تدري علي أي حال تموت، وعلى أي حال يموت هو، وأن تكون خائفاً من العواقب التي يختم بها العمل للعباد، فأنت لا علم لك لعلة يموت أعبدَ أهل زمانه، وتموت أنت أكفرَ أهل زمانك، فكن لذلك متخوفاً.

ومما يدُّلك على ذلك: أن الله ابتعث نبيه ﷺ أفضل ما صلى على أحد من خلقه، فأجابه في أول ما دعي إلى توحيده قوم، وتأخر عن الإجابة آخرون، فكان ممن أجابه أبو بكر وعلي وبلال وخباب رحمة الله عليهم وغيرهم، وعمر وغيره كفار، وقد كان ممن أسلم مع النبي ﷺ: مثلُ عمرو بن عنبسة وبلال وغيرهما، ينظرون إلى عمر، ويعرفون أنه ضال كافر، لا يدرون بم يختم له، فوهب الله له الإسلام حتى فاق كل من أسلم قبله إلا أبا بكر وحده.

فلم يكونوا يعلمون ما يكرمه الله عز وجل به، وكانوا مؤمنين وكان هو كافراً، ثم أسلم ففضلهم، وكذلك غيره ممن تقدم إسلامه، وتأخر إسلامُ آخر بعده إلى عصرنا هذا.

وقد ارتد قوم أسلموا على عهد النبي ﷺ فقتلوا كفاراً يوم الردة وأسلم من كان كافراً وهم مؤمنون، فحسن إسلامهم، ثم قتلوا مؤمنين شهداء.

فإذا كنت متخوفاً على نفسك العاقبة والخاتمة، لا يغلب على قلبك نجاتها ألبتَّة ولا أنه ميت على كفره، فقد نفيت الكبر، ولم تغتر ولم تأمن على نفسك من التغيير والزوال اللذين يورثانك العذاب.

كتاب الغرة

باب الغرة بالله عز وجل

قلت: ما الغرّة بالله عز وجل وممَّ تكون؟

قال: إن الغرَّة بالله عز وجل تكون من الكافرين ومن العاصين، من المسلمين ومن الدينانين النساك، وكل من اغتر بشيء من الأشياء فقد ضيَّع أمر الله عز وجل، وقل حذره منه وخوفه.

فالغرة بالله عز وجل إنما هي خدعة النفس بصَنيع الله بالعبد، أو باسم رجاء الله عز وجل، أو ببعض العبادة والعلم، فيغتر كثير من العباد ببعض ذلك، حتى يعصيَ الله، وهو يرى أنه من المحسنين، أو يكفرَ بالله تعالى وهو يرى أنه من المهتدين أو يغتر فيعصي على علم وهو يرى أنه مغفور له ناجٍ لا يعذب.

فأما الغرة من الكافرين، فهي خدعة من أنفسهم وعدوهم بظاهر الدنيا عن الآخرة.

قلت: فبِمَ يغتر؟

قال: إن الغرّة غرتان: غرَّة بالدنيا عن الآخرة، وغرة بالله عز وجل وبالآخرة فأما الغرة بالدنيا عن الآخرة فإيثار الدنيا والاشتغال بها عن الآخرة، وهو قول الله

عز وجل: ﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الغَرُورُ﴾[1]. وقول الله: ﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ﴾[2].

قلت: عن الغرة بالله عز وجل أسألك، وما الذي يغتر به العباد؟

قال: أما ما اغترَّ به الكافرون عن الله فهو ما رأوا من فعل الله بهم من إكرامه لهم بالدنيا، ورفعتها وسعتها، فظنوا بذلك أن ذلك لم يكن من الله إلا لمنزلتهم عنده، وأنهم أحق بالخير من غيرهم.

ثم هم بعد ذلك على وجهين:

فرقة منهم شُكَّاك في الآخرة، يقولون في أنفسهم وبألسنتهم: إن يكن لله مُعاد فنحن أحق به من غيرنا، ولنا فيه النصيب الأوفر، اغتراراً بما ظهر لهم من خير الدنيا وكرامته.

ألا تسمع ما حكى الله عز وجل عن الرجلين اللذين تحاورا؟ فقال الكافر منهما للمؤمن المحاور له: ﴿وَمَا أَظُنُّ الساعة قائمة ولئِنْ رِدُدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْراً مِنها مُنْقَلَباً﴾[3] أي: لا أوقن بأن للهِ عز وجل بعثاً وثواباً وعقاباً، فإن كان فإن لي عنده خيراً مما أعطاني في الدنيا، غرةً بالله، وظناً أن الله لم يكرمه في الدنيا إلا وهو كريم عليه.

فإن كان لله بعث ودار فيها ثواب وعقاب، فسيجيره من العقاب، ويكرمه في الآخرة كما أجاره من الفقر والضيق في الدنيا، فحاور المؤمنَ الكفارُ بذلك.

وفي التفسير لما كان بينهما قصة طويلة ـ وهما فيما يروى في التفسير اللذان قال المؤمن منهما في الآخرة: «إني كان لي قَرين يقول أإنك لمن المصدقين؟!» إلاّ أن المحاورة كانت بينهما في جملة أمرهما: أن الكافر بني قصراً بألف دينار، واشترى بستاناً بألف دينار، وخدماً بألف دينار، وتزوج امرأة على ألف دينار وفي ذلك كله

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

(٣) سورة الكهف، الآية: ٣٦.

يعظه المؤمن، ويقول له: اشتريت قصراً يخرب ويفنى، ألا اشتريت قصراً في الجنة واشتريت بستاناً يخرب ويفنى، وخدماً يموتون ويفنون، وتزوجت زوجة تموت وتفنى، ألا اشتريت بستاناً لا يفنى، وخدماً لا يموتون، وتزوجت زوجة لا تموت؟ وفي كل ذلك يرد عليه الكافر: ما هناك من شيء، وإن كان ليكونن لي في الآخرة خير من هذا.

وكذلك وصف الله عز وجل لنا قول العاص بن وائل[١]، إذ يقول: ﴿**لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً**﴾ قال الله عز وجل: ﴿**أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمٰنِ عَهْداً؟**﴾[٢] روي عن خباب بن الأرتّ أنه قال: كنت رجلا قينا[٣] وكان لي على العاص بن وائل دَيْن، فجئت أتقاضاه فلم يقضين، فقلت إني آخذه منك في الآخرة[٤]، فقال لي: إذا صرتُ إلى الآخرة فإن لي هناك مالا وولداً، فأقضيك منه، فأنزل الله عز وجل: ﴿**أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدَا**﴾[٥] فاغترَّ الكافر بالله عز وجل، وظنّ أن الله عز وجل لا يعذبه في الآخرة.

وقال الله عز وجل: ﴿**وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائمةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِيَ عِنْدَهُ لَلْحُسْنَى**﴾[٦] قال ابن جريج عن مجاهد: ليقولنَّ هذا لي بعملي، وأنا محقوق بهذا، يغترُّ بما أذاقه الله عز وجلَّ من رحمته في الدنيا.

ألا تسمع الله عز وجل يقول عن قول المغترين بإنعام الله عز وجل عليهم في

---

(١) هو والد عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) سورة مريم، الآية: ٧٧، ٧٨.

(٣) القين هو: الحداد.

(٤) في رواية الواحدي أن العاص قال لخباب: ما لك لقد كنت خفيف الطلب؟ فقال خباب: كنت على دينك، والآن أنا على دين الإسلام فما أنا بمفارقك حتى آخذ حقي.

(٥) سورة مريم، الآية: ٧٧.

(٦) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

الدنيا: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلَاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[1] أي أن الله عز وجل أنعم علينا بنعمه لكرامتنا عليه، فهو لا يعذبنا، وقالوا: ﴿لو كان خيراً ما سبقونا إليه﴾[2].

ويغترُّون أيضاً بما فضلهم الله عز وجل بنعم الدنيا على غيرهم، فيرون أن ما خص الله عز وجل به أهل الإيمان أنه لو كان عند الله هدى ما وَفق الضعفاء له وتركهم، فيغترون ويجانبون الهدى، أن لو كان هذا هدي لكنا نحن أحق أن نُؤتاه ممن هو دوننا.

ويغتر الكافرون بنعم الله عز وجل في الدنيا، فلا يرون أن الله عز وجل أخذهم بعقوبة في الدنيا، وأنه إنما أعطاهم ما أعطاهم من الدنيا لما علم منهم من الخير، وأنهم عنده بالمنزلة العظمى.

ألا تسمع إلى قول الله عز وجل إخباراً عن مقال قارون وموسى ﷺ: يخوفه بأس الله عز وجل فقال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾[3] قال قتادة على خير عندي، قال الله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً﴾[4]. أي لم يمنع الله عز وجل ما أعطاهم من نعيم الدنيا، إذ لم يطيعوه، أن يعذبهم.

فلم يعلم قارون ان الله عز وجل قد فعل ذلك بغيره، وذلك من الله عز وجل استدراج لمن أراد أن يهلكه ويعذّبه ليغتر بنعم الله عز وجل.

ألا تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[5] قيل في التفسير: كلما أحدثوا ذنباً احدثنا لهم نعمة. وقال: ﴿فَتَحْنا عَلَيْهِم أبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حتَّى إذا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أخذْنَاهُم بَغْتَةً﴾[6] وقال في قارون: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال سبحانه: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾ ثم قال: ﴿قَدْ قَالَهَا

(١) سورة سبأ، الآية: ٣٥.
(٢) سورة الأحقاف، الآية: ١١.
(٣) سورة القصص، الآية: ٧٨.
(٤) سورة القصص، الآية: ٧٧.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.
(٦) سورة الأنعام، الآية: ٤٤.

الَّذينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾[1] فأخبر ان الدنيا فتنة: بلوى واختبار، وأنها ليست بدليل على رضا الله عز وجل عن العباد، ألم تسمع قوله تبارك وتعالى: **﴿فأمَّا الإنْسانُ إذا ما ٱبْتَلاهُ ربُّهُ فأكْرَمَهُ ونعَّمهُ فَيَقُولُ رَبِّي أكْرَمَنِ﴾** إلى قوله: **﴿رَبِّي أهَانَنِ﴾**[2] قال الله عز وجل كلاَّ.

قال الحسن: كذبهما جميعاً يقول: ليس هذا بكرامتي ولا هذا بهواني، ولكن الكريم من أكرمته بطاعتي على أيّ حال كان، فقيراً كان أو غنياً، والمهان من أهنته بمعصيتي على أي حال كان، فقيراً كان أو غنياً.

فاغترّ الكافرون بظاهر نعم الله عز وجل، وظَنوا ان ذلك من كرامتهم على الله عز وجل، وكذلك وَصفهم فقال: **﴿أيَحْسَبُونَ أنَّما نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مالٍ وبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ في الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُون﴾**[3].

وقال الحسن: إن المنافق أساء وتمنَّى، وإن المؤمن أحسن وأشفق، ثم قرأ: **﴿ولَئِنْ رُجِعْتُ إلى رَبِّي إنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَى﴾**[4].

وقد يعتري ذلك كثيراً من المسلمين، حئت يخيَّل إليه انه إذا سمع وَسع الله عليه في الرزق، فإنه لعمل صالح عمله، فكوفىء به، وأن الله تعالى يحبّه، فلذَلِكَ وَسّع عليه، كما وَصَف به ابن آدم، فقال: **﴿فأمَّا الإنْسَان إذَا ما ابْتلاهُ رَبُّهُ فأكْرَمهُ ونعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أكْرَمَنِ﴾**[5]، فقد شارك المسلمُ المغترُّ بذلك الذي يظنُّ ان ذلك كرامة له من الله عز وجل، وأنه بمنزلة عند الله عز وجل، [شارك] الكافرين في اغترارهم، وإن لم يشك في البعث والحساب.

ويغترّ الكافر أيضاً باستئخار العقوبة عنه، وإن خوّفها، لم يخف، فيظن ان العقوبة لم تتأخر عنه وهو أهل ان يعاقب، وَ(يظن)[6] انه على الحق.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٥٠.

(٢) سورة الفجر، الآية: ١٥، ١٦.

(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٥٥.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٥٠.

(٥) سورة الفجر، الآية: ١٥.

(٦) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

قال أبو جهل: اللهم اقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه[1] الغداة قال الله عز وجل: ﴿وَاسْتَفْتَحُوا وخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[2].

ومن ذلكَ ان قارون دعا موسى صلى الله عليه وسلم إلى أن يلاعنه، فخرج، فبدأ قارون فلم يُجَب، ثم دعا موسى فأجيب، فدعا قارون موسى إلى الملاعنة اغتراراً بالله.

والفرقة الأخرى من الكفار يغترّون بما زين لهم من سوء أعمالهم، بعبادات يعبدون بها غير الله عز وجل، يحسبون انهم يحسنون صنعاً.

فالغرّة من الكافرين خدعة من النفس، بالظن ان له عند الله عز وجل قدراً لما أكرمه به من الدنيا أو عمل ضلال يحسبه هدى.

باب الغرة من عوام المسلمين وعصاتهم

قال: واما الغرة من عوام المسلمين وعصاتهم فهي خدعة من النفس والعدو، يذكرون الرجاء والجود والكرم، يطيبون بذلك أنفسهم، فيزدادون بذلك جرأة على الذنوب، فيقيمون على معاصي الله، يظنون ان ذلك رجاء منهم، كما قال وهب بن منبه لابنه: يا بني إياك والغرة بالله عز وجل، فإن الغرة بالله عز وجل المقام على معصيته وتمنى مغفرته.

فيقيمون على المعاصي ويتمنون المغفرة والرحمة ويظنون ان الذي طيب انفسهم الرجاء، وإنما طيب أنفسهم الغرة، فتمنوا وظنوا ان ذلك منهم رجاء لربهم عز وجل، وإنما أمكن احدهم ذكره للرجاء، حتى ظن أنه رجاء للتوحيد، او لذكر آباء صالحين مع التوحيد[3] أو عمل ضعيف.

---

(١) أي: أبلغه حينه، أي: أجله.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ١٥.

(٣) هذا النوع من الغرة من أخطر انحرافات مريدي طريق التصوف في العصر الحاضر، ومن العجيب ان بعض المتصدرين للمشيخة يوافقونهم على هذا الانحراف، فيعتقد المريد المنحرف انه ناج ببركة =

فيغتر بذكر الرجاء ويظن انه رجاء.

فيقيم على المعاصي طيب النفس، غير نادم ولا مقلع، لا يشك ان ذلك رجاء منه لربه عز وجل فيطيب نفسه بذلك، فيقل حذره وخوفه من الله عز وجل، ولو كان ذلك رجاء لقد وضع الرجاء في غير موضعه، وذلك الرجاء الكاذب.

فالغرة من الموحِّد خدعة من نفسه، يتمنى المغفرة مع المقام على المعصية، وذلك الرجاء الكاذب يظنه منه رجاء صادقا، كما قال سعيد بن جبير: «الغرة بالله عز وجل المقام على معصية الله عز وجل وتمنى مغفرة الله عز وجل».

باب التمييز بين الرجاء والغرة (١)

قلت: بيِّن لي الرجاء من الغرَّة، حتى أعرف احدهما من الآخر.

قال: الرجاء لله عز وجل في معنيين:

احدهما: حسن الظن بالله عز وجل حيث وضعه الله عز وجل، لأن رجاء المذنبين من عباده ان لا يقنطوا، وأن يتوبوا إلى ربِّهم من ذنوبهم، قال الله عز وجل: **﴿قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أسْرَفُوا عَلَى أنْفُسِهِم لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ الله﴾** إلى قوله تعالى: **﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وأسْلِمُوا لَهُ﴾** (٢).

وقال: **﴿وَإنِّي لغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى﴾** (٣) الآية.

= شيخه وحدها، دون اخذ في العمل الذي كان عليه السلف، ولو كان لهذا النوع من المتصدرين للمشيخة عمل لنهضت إليه همم المريدين، وقد امعن بعض هؤلاء المريدين في الغرة فاعتقدوا ان شيوخهم يرافقونهم وقت الموت وفي عرضات القيامة، وأن الرحمة تتنزل بذكرهم وهم مقيمون على ما هم فيه من ضلال وكسل عن العمل، بل ومعصية أيضاً.

(١) انظر: باب الغرة من «أعمال القلوب والجوارح»، و«آداب النفوس» كلاهما للمؤلف رحمه الله، من تحقيقنا، عالم الكتب ـ القاهرة، دار الجيل ـ بيروت.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٥٣، ٥٤.

(٣) سورة طه، الآية: ٨٢.

وقال: ﴿وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فَقلْ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُم عَلَى نَفْسِهِ الرحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُم سوءًا بِجَهَالةٍ ثُـمَّ تابَ مِنْ بَعْدِهِ وأصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[1].

قال عكرمة: نزلت في عمر رضي الله عنه، حين كلم عُتبةُ بن ربيعة وغيره من المشركين ابا طالب ان يكلم النبي ﷺ: أن يطرد بلالا وعمارا وغيرهما، فقال عمر للنبي ﷺ: لو طردتهم حتى ننظر ما يريدون، فلما نزلت: ﴿وَلاَ تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَداةِ والْعَشِيِّ﴾[2] الآية، جاء عمر يعتذر من مقالته، فنزلت: ﴿وَإِذا جاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآياتِنا فقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُم﴾[3] الآية.

فرجّى اللهُ عز وجل العبدَ المغفرة على التوبة، وإن عظمت ذنوبه وكثرت، ألا يمنعه كثرةُ ذنوبه وعظمها ان يتوب إلى ربه عز وجل، ولا يخاف خوفاً يَقْنط معه حتى يقول: لا يغفر لي، ولا يقبل توبتي، فيقيم على المعصية خوفاً ألا يقبل له توبة، فيزيده قنوطه مُقاماً على المعاصي، فيزداد بقنوطه معصية إلى معاصيه، لأن القنوط معصية لله عز وجل، يمنع من التوبة عن المعاصي، ويزداد به العاصي عصياناً، كما قال عبد الله بن مسعود: «الكبائر أربع، احدها القنوط من رحمة الله عز وجل».

فرجّى الله عز وجل العاصي من عباده المغفرة على التوبة الا يقنطوا من اجل ذنوبهم، فيدّعوا التوبة إلى ربّهم عز وجل، وينقطعوا عن طاعته، فهذا احد المعنيين.

[والثاني] رجاء الجنات والمنازل العالية والقربة منه عز وجل في درجات العاملين له من عباده، فقال عز من قائل: ﴿قَدْ أفْلَحَ الْـمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُـونَ﴾ إلى قـولـه عـز وجـل: ﴿أُولَئِـكَ هُـمُ الوَارِثُـونَ الّذِيـنَ يَـرِثُـونَ الْفِرْدَوْسَ﴾[4] الآية، وقال عز وجل: ﴿وَإِنَّما تُوَفَّوْنَ أُجورَكُـمْ يَوْمَ القِيامَةِ﴾[5] فأخبر ان الجزاء والثواب اجور العـمّال على الأعمال، ليرجوا ذلك الجزاء، فيعملوا

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١، ١١.
(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٨٥.

تلك الأعمال رجاء ان ينالوا ذلك الثواب.

ثم أخبر انهم الراجون دون المغترين، فقال، عز وجل: ﴿**إنَّ الَّذينَ آمَنُوا والَّذينَ هَاجَرُوا وجَاهَدُوا في سَبِيلِ اللهِ أُولئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللهِ**﴾ [1] فأخبر ان العاملين هم الراجون رحمة الله تعالى لا المغترون.

فالمغتر بذكر الرجاء يظن ان الغرّة منه رجاء، فيقيم على معاصي الله عز وجل، ويظنُّ ذلك حسن الظن منه، وليس ذلك بحسن ظن، كما قال وهب: «حسن الظن بالله ما جانب الغرَّة، وقيل للحسن: إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل ويضيِّعون العمل، فقال: «هيهات هيهات، تلك امانيهم يترجحون فيها، من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف شيئاً هرب منه».

ودخل رجل على مسلم بن يسار، فقال مسلم: لقد سجدت البارحة حتى سقطت ثنيتاي، فقال الرجل، إنَّا نرجو الله عز وجل، فقال مسلم: هيهات هيهات من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه.

فالرجاء هو ما هاج من الطمع والأمل في الله عز وجل، فسخّي نفس العاصي بالتوبة، وحال بينه وبين القنوط، وبعث العبد على الطاعة لله عز وجل، والتشمير والاجتهاد، رجاء ما وعد العاملين.

والغرَّة خدعة من النفس والعدو بذكر الرجاء بالتوحيد، او بالآباء الصالحين، او بعمل قليل ضعيف، فتطيب نفسه بتلك الخدعة، حتى تَهون عليه ذنوبه، لظنّه انها مغفورة، فيتمنّى المغفرة فيقيم عليها ولا يتوب.

فهذا فرق ما بين الغرَّة والرجاء، وذلك موجود في فطر العباد في دنياهم، أنهم إذا ضيّعوا العمل عذلوا انفسهم، وعدُّوه منهم تفريطا، فإن قعدوا عن الأعمال وهم يظنُّون انهم يعطون الاجر عدُّوا ذلك من أنفسهم حمقاً وغرَّة.

قلت: فأين أضع الرجاء حتى لا يكون غرَّة؟

قال: إن الله عز وجل خوّف العاصين بغضبه وعقابه، ليخوّفوا انفسهم بما

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٨.

خوَّفهم، فيتوبوا إلى ربّهم، ورجّى الله عز وجل التائبين من عباده على تركهم الذنوب لئلا يقنطوا فيقيموا على ذنوبهم، رجّى العاملين ليبعثهم الرجاء على الأعمال التي تقرِّب إليه.

فعلى المؤمن بالله عز وجل العاقل عنه امره ان يضع الخوف حيث وضعه الله عز وجل.

فإذا هـمّ بمعصية خوّف نفسه ما خوَّفه الله عز وجل به من عذابه، فإن غلبه هواه فأتاها، فأبت نفسه إلا المقام عليها، خوّف نفسه بما خوّفه الله عز وجل من غضبه وعقابه، ليدع المعصية ويتوب منها بعد ركوبها.

فإذا هـمّت نفسه بمعصية أو عصت فأبت إلا المقام على العصيان، عاتب نفسه وقال لها: إن الله شديد العقاب، وإن غضبه لا دواء له، وإن عذابه لا صبر عليه، فخوّف نفسه بما خوفه الله، حيث أمره ان يخوِّف نفسه ليقطع ويتوب.

وإذا أراد التوبة فعارضه القنوط الصادّ لَه عن التوبة، ذكّر نفسه الجود والكرم، فرجّاها عفو الله عز وجل وكرمه، وفضله ولطفه ورأفته ورحمته، وما وعد التائبين انه غفّار لمن تاب وآمن، وأنه غفور رحيم لمن أناب إليه.

ألا تسمع قوله لولد سبأ: ﴿**كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُم وَاشْكُرُوا لَهُ، بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ**﴾ (١)، فعظمت علينا بذلك النعمة، إذ اخبرنا عز وجل انه رب غفور، واذ أقالنا عثراتنا، وبسط لن التوبة، ووعد عليها المغفرة.

أرأيت ان لو كان يأخذنا بأول ذنب، أو لا يقبل منا توبة بعد مرَّة او بعد مرتين، او بعد ثلاث مرّات، فإن الناس اكثر ما يردون العذر والتوبة من بعضهم على بعض بعد ثلاث مرات، أن يقول احدهم للآخر: فقد عفوت عنك ثلاث مرار، او أقلتك ثلاث مرار، فلا أكثر من ثلاث.

فلو كان ربُّنا عز وجل كذلك ما هنأنا عيش، ولكن لو أذنب عبده ألف ذنب

---

(١) سورة سبأ، الآية: ١٥.

يعود فيه ألف مرة، ثم تاب توبة نصوحاً يعلم الله عز وجل صدقها من قلبه، غفر له ما مضى من ذنوبه، ولم يعذبه بما سلف من جرمه، فيذكر الجود والكرم وسعة العفو والرحمة. إن عارضه قنوط عند إصابة الذنب، ليقطعه عن العمل بالطاعة عارضه بالرجاء للمغفرة والقبول، لسعة رحمة الله عز وجل، ولما رجّى التائبين من عباده، ولما حرَّم من الإياس على التائبين المذنبين والمصرِّين من الموحِّدين ان ينقطعوا بالقنوط عن العمل، ويكتسبوا بالقنوط ذنباً، مع تضييعهم لطاعة ربِّهم عز وجل، كما قال ربنا عز وجل: ﴿وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (١).

قال البراء بن عازب: هو الرجل يذنب الذنب العظيم فيقول: لا يغفر لي، فيمسك عن النفقة في سبيل الله عز وجل، فنهُوا عن ذلك.

فإذا ذكّر نفسه العقاب عند الذنوب، تخويفاً لها ليتوب من الذنوب، وذكّرها الرجاء عند التوبة، ليردع نفسه عن القنوط، وتسخو بالتوبة لرجاء المغفرة عند اعتراض القنوط القاطع عن العمل أنه لا يتقبّل منه، فرجا القبول وغفران الذنوب، فسخا بالتوبة نفساً، وبالعمل لرجاء الرحمة والعفو والصفح والتجاوز، فقد وضع الخوف والرجاء بالموضع الذي وضعها الله عز وجل فيه (٢)، وأدّب نفسه بأدب الله عز وجل في كتابه، ولم يغتر ولم يقنط من رحمة ربه عز وجل.

ومن قلب هذين المعنيين من الخوف والرجاء، وذكر الرجاء عند الذنوب، ونسي الخوف والحذر، فطيب نفسه بذكر الرجاء، فقلّ خوفه وزال حذره، فأقام عن المعاصي متمنياً، فذلك المغترّ بالله عز وجل، المتأدب بغير أدبه، والواضع الرجاء في غير موضعه، والتارك لاستعمال الخوف في موضعه عند الحاجة إليه، فهذه صفة المغترين من العاصين الموحدين.

وإنما مثله في ذلك مثل عبد له مولى، إذا عاقب مملوكه عاقبه بأشد العقوبة وأعظمها، وهو مع ذلك رحيم عظيم الرحمة، يعفو كثيراً، ويعاقب فيبالغ في العقوبة،

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٥.

(٢) في ط: به.

فعقوبته على قدر عفوه، فقال لعبده مع عظيم هذا الخطر: إن أنت أتيتني غداً يوم السبت رضيت عنك، وأعطيتك من المال كذا وكذا، وأعتقتك وزوجتك وأخدمتك، وإن تأخرت إلى بعد غد، يوم الأحد، فأتيتني يوم الأحد، لم أعطك من ذلك شيئاً، وغضبت عليك وعذبتك عذاباً شديداً، وسجنتك سجناً طويلا، فعرضت للعبد لذة، إن أصابها اشتغل عن مولاه ان يأتيه يوم السبت وتأخر الذهاب إلى يوم الأحد، فاشتغل بلذته، ورجّى نفسه عفو مولاه ورحمته ناسياً مع ذلك شدة عقوبته، وإن ذكرها ذكرها بغير تعظيم لها ذكراً لا يمنعه عن الشغل يوم السبت، وتأخير الذهاب إلى يوم الأحد، لما غلب على قلبه من حلاوة لذته.

فآثر إصابة لذته على طاعة مولاه، في إتيانه يوم السبت الذي وعده فيه بالرضا والثواب، فأخر الذهاب إليه إلى يوم الأحد، لئلا تفوته لذّته، وقد علم انه قد توعده إن أتاه يوم الأحد ان يغضب عليه، ويحرمه ما وعده، ويعاقبه بأشدّ العقوبة، فتشاغل يوم السبت بلذته، وهو طيب النفس بما تذكره نفسه من الرجاء، فقد قطعه ذكر الرجاء عن خوف العقوبة، تاركاً للذهاب في اليوم الذي وعده فيه الثواب، ويرجو الثواب والعفو مع التأخير للذهاب في اليوم الذي توعده فيه بالغضب والعقاب، وهو ناس للعقوبة، تارك للذهاب، لينجز ما وعده من الثواب في يوم السبت، متمنّ لعفوه.

يقول لنفسه أذهب يوم الأحد، فيعفو عنّي مولاي ويرضى، ويعطيني ما وعدني من المال، ويزوجني ويخدّمني، قد أنساه هذا الذي تُرَجّيه نفسُه خوفَ مولاه وحذره، ولم يترك لذته القاطعة له عن طاعة مولاه، ألم يكُ هذا مغرراً بنفسه، مخاطراً ببدنه، تاركا للوثيقة والاحتياط لنفسه، معرضاً نفسه لهلكتها، مضيّعاً لطلب رضا مولاه وتنجز ثوابه؟.

وكذلك لو قال له مولاه: إذا عملت كذا وكذا محكما تاماً أعطيتك الف دينار، وإن أفسدته لم أعطك شيئاً وضربتك الف سوط، فترك إحكامه للذة شغلته، وأفسده على عمد للذة آثرها، لا ينالها إلا بفساد ذلك العمل، فآثرها وهو يعلم ان

العمل يفسد، كراهة الشغل عنها بإحكام ذلك، أو كراهة تحمل مكروه: من تعب على بدنه، أو قلة في غذائه، وهو مع ذلك طيب النفس، يطيبها ويرجّيها الف دينار غير خائف لما توعد به من ضرب ألف سوط ألم يكَ مغروراً قد غرته نفسه، فوضع الرجاء في غير موضعه، وأزال الخوف الذي يبعثه على طاعة مولاه عن موضعه، ولم يضع وعد مولاه وتوعده كل واحدة منهما في موضع ينتفع به؟

فكذلك المغتر بالله عز وجل، أقام على ما أوجب عليه حرمان جواره، والحلول في عذابه، طيب النفس راجياً للثواب، غير خائف من العذاب، أفليس هذا مغتراً مخاطرا بنفسه؟ وإن كان مولاه عظيم العفو قد يفعل ذلك له وقد لا يفعل ألم يك قد اغتر وخاطر بنفسه، وغرته نفسه وخدعته؟ لأن العقاب في الحكم عليه يقين لا شك فيه، والرجاء للمغفرة من غير توبة مع الإصرار شك لا يقين فيه.

فهو تارك للوثيقة، مغرر بنفس ليس لها خلف لا يأمن ان يبدو له من الله عز وجل غير ما يحتسب، وذلك ان الذي وجب عليه لا يشك فيه، كما وصف الله عز وجل المغترين، فقال: ﴿**وبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ**﴾[1] قيل في بعض التفسير: أعمال كانوا يرون أنها خيراً فصارت شراً، فذلك رجاء كاذب.

قلت: أليس الرجاء مبسوطاً للموحدين وإن عظمت ذنوبهم، والإياس محرّما عليهم؟

قال: أجل، وليس هذا موضعه الذي وضع فيه، ولكنه موضع خوف من الله وقد يكون العبد عاصياً مغتراً فإن عارضه القنوط قمعه بالرجاء، من أجل التوحيد، فقمع به القنوط الذي هو معصية لمولاه، لئلا يجمع معصية وقنوطاً فيكونا ذنبين، فإن طيّب بعد ذلك نفسه بذكر الرجاء، فجرّأه على المُقام على معاصي الله عز وجل، فقد اغتر بالله عز وجل، لأن الله عز وجل جعل الرجاء مزيلا للقنوط الذي يمنع من التوبة والعمل، باعثاً على الطاعة والقربة إليه، وجعل الخوف مانعاً من الأمن والاغترار، مزيلا عن الإقامة على الذنوب، مانعاً لمواقعتها عند الهمّ بها.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٧.

ألم تسمع إلى قوله عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[1]؟ فالخوف مانع من الذنب قبل مواقعته مهيج على التوبة بعد إصابته. فهذا فرق ما بين الرجاء والغرة بالله عز وجل.

ولقد أعلمنا الله عز وجل على لسان النبي ﷺ أن الغرّة تشتمل في آخر الزمان على آخر هذه الأمة، بذكر الرجاء في غير موضعه، فذمهم النبي ﷺ بذلك، وأخبر أن ذلك عند ذهاب الحق وأهله، وغلبة الباطل على آخر هذه الأمة، رواه عن معقل بن يسار أنه قال ﷺ:

«يأتي على الناس زمان يخلق فيه القرآن في قلوب الرجال كما تخلق الثياب على الأبدان، يكون أمرهم كله طمعاً لا خوف معه، إن أحسن أحدهم قال: يتقبَّل منِّي، وإن أساء قال: يغفر لي»[2] فأخبر ﷺ أن ذلك عند ذهاب الفهم والعقل عن الله عز وجل من قلوبهم حتى يخلق فيها فهم كتابه، والأخذ فيه بأدبه، يقلبون آدابه فيضعون الطمع موضع الخوف والإشفاق والوجل.

وبذلك وصف الله عز وجل النصارى في كتابه فقال ـ بعد ما فرغ من أخباره عن بني إسرائيل ـ فقال: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾[3].

قال مجاهد هم النصارى، يأخذون ما أشرف لهم من الدنيا من حلال أو حرام يشتهونه، يأخذونه ويتمنّون المغفرة وإن يجدوا الغد مثله يأخذوه.

وقال سعيد بن جبير: يعملون بالذنوب ويقولون سيغفر لنا وإن يأتيهم عرض مثله يأخذوه، قال: الذنوب.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: ألا يقولوا على الله إلا الحق ما يتمنون على الله

(١) سورة النازعات، الآية: ٤٠.
(٢) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٧٣، ٧٩ من كتاب الفتن.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٦٩.

عز وجل من غفران ذنوبهم التي لا يزالون يعودون فيها ولا يتوبون منها، يخبرك أنهم يفترُّون فيصيبون الذنوب، ويغترُّون فيقيمون عليها، ويعاودونها، يرجون المغفرة، يعدونها أنفسهم مع معاصي الله عز وجل؛ وعلى ذلك عامة عصا المسلمين من غير قطع بالمغفرة، ولكن غرَّة تطيب بها أنفسهم، يظنونها رجاء صادقاً وهي غرة بالله عز وجل، وخدعة عن طريق النجاة، كما وصف المغترين من هذه الأمة أنهم إن أذنبوا قالوا: يغفر لنا، فلا يفزعون، ولا يرهبون فيتوبوا، وإن أحسنوا قالوا: يتقبل منا فلا يشفقون، ولا يوجلون، قال الخوف عنهم، فلم يخافوا عقوبة على ذنوبهم، ولم يشفقوا على إحسانهم فيحذروا على أعمالهم، لتخلص بالقبول إلى ربهم عز وجل.

باب الغرة من أهل النسك

وأصنافهم واختلافهم، وغرة أهل العلم

قلت: فما الغرَّة ممن أظهر النسك وعدَّ هو نفسه من الديانين؟

قال: أولئك في الغرَّة أصناف مختلفون: فمغترّ بالعلم، ومغترّ بالقليل من العمل، ومغترّ بالبصر بالحجاج والجدال، ومغترّ بالستر والإمهال، ومغترّ بالثناء من الناس والتعظيم منهم له، ومغترّ بذكر آبائه الصالحين.

فأما المغترون بالعلم فهم فرق شتى على قدر منازلهم فيه.

فمنهم فرقة تغتر بكثرة الرواية وحسن الحفظ مع تضييع واجب حق الله عز وجل، وتخيّل نفسُ أحدهم إليه وعدُّوه أن مثله لا يعذب، لأنه من العلماء، وأئمة العباد الحافظين على المسلمين علمهم، ويُعمَّى عليه أكثر ذنوبه، فلا يرى أن مثله فيما بلغ من العلم يرائي ولا يعجب ولا يتكبّر ولا يحسد، وإنما يفعل ذلك الجهاد الذين لا يعرفون العلم ولا يحفظونه، فيقلُّ خوفه وحذره من عذاب الله عز وجل وَيُغْفِلُ التفقد لنفسه، إذ كان يرى أن مثله لا يعمل بالأخلاق الدنية، لأنه قد ارتفع بالعلم عن ذلك، فلا يتهم نفسه، فإذا لم يتهمها لم يتفقد من نفسه، الأخلاق المذمومة عند

الله عز وجل، ولم يحذرها، لأنه إنما يتفقدها الجاهل، فأما مثله فقد ارتفع بالعلم عن ذلك، فيضمر ما يكره الله عز وجل: من الرياء والعجب وغيره، ويغتاب ويهمز ويلمز، ويتكبر على العباد، ويسيء بهم الظن، ويشمت بالمصائب والبلاء، وهو يرى أنه بريء منٍ جميع ذلك، إذ لم يضع نفسه موضع التهمة، فيتفقدها عند دعائها إلى ما كره الله عز وجل، فلو تفقد نَفسه علم ذلك كله حين تعرض بالدعاء إلى ما كره الله عز وجل، فهو يعدُّ نفسه من الورعين العالمين بالله عز وجل، وهو عند الله عز وجل من الفاجرين والجهال به، الذين لا يخافونه ولا يحذرون عقابه.

وقد يعلم بعض هذه الفرقة بكثير من ذنوبه، فلا يفزعه ذلك، ولا يرهب من الله عز وجل من أجله، يرى أنه قد قام مقاماً من العلم لا يعذّب مثله، فهذه الفرقة الفاجرة ممن حفظ وأكثر روايته.

قلت: فبِمَ ينفي ذلك؟

قال: ينفيه بمعرفته أن العلم حجة عليه، وأن الله عز وجل حَمَّله ما أعظم به عليه حجته، وشدد عليه به في القيامة المسألة ضيَّع العمل، فلم يقم بواجب الحق لله عز وجل، وبترك ما نهي عنه في ظاهره وباطنه، كان عند الله عز وجل أعظم وأشد عذاباً من الجاهل.

وإنما جعل الله عز وجل العلم وعلّمه عباده، ليعرفوا به ما أوجب عليهم وأحب، فيقوموا لله عز وجل بذلك، وليعرفوا ما حرم الله عز وجل فيجانبوه، ويعرفوا ربهم فيخافوه، وجزيل ثوابه فيرجوه، وعظيم عذابه فيحذروه، فإن لم يغلب الحذر على قلبه والخوف من الله عز وجل فهو جاهل في العلم، لأن الله عز وجل وصف العلماء بذلك، فقال عز وجل:

﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَـمَاءُ**﴾[1].

قيل في التفسير: أعلمهم بالله عز وجل: أشدهم له خشية.

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

وقال خالد الربعي: « فاتحة الزبور، ورأس الحكمة، خشية الله عز وجل».

وقال عبد الله [بن مسعود]: « ليس العلم بكثرة الرواية، ولكن إنما العالم من خشي الله عز وجل».

وقال عبد الله بن مسعود: « كفى بخشية الله عز وجل علما، وكفى بالاغترار بالله جهلا ».

أي إن العالم هو الخائف من الله عز وجل، وإن المغتر هو الجاهل، حفظ العلم وراه، أو لم يحفظه.

كما قال في كتابه، حين ذكر بلعم بن ياعورا: **﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهثْ﴾**[1].

قيل في التفسير: يقول الله عز وجل: سواء على هذا العبد: آتيتُهُ الحكمة أو لم أوته.

وقال داود ﷺ: «إلّهي، ما عِلِمُ من ل يخشك، وما حكمة من ضيَّع أمرك»؟

فمن ضيَّع أمر الله عز وجل بعد علم فهو جاهل بـالله عز وجل، إذ[2] كان أعظم جرأة من الجاهل على الله عز وجل، فلو كان هذا عالماً بالله عز وجل لما اجترأ بأعظمَ من جرأة الجاهل، فلا علم للمغتر، بل هو أشدُّ جهلا بالله عز وجل من الجاهل الذي لا يعرف العلم.

ولعله لو عرف كما عرف هذا المغترّ الذي أكثر الرواية للعلم ما ضيَّع أمر الله عز وجل، فهو شر من الجاهل.

كما روي عن أبي الدرداء: « ويل للذي لا يعلم مرة، ولو شاء الله لعلّمه، وويل للعالم سبع مرَّات» أي: الحجة عليه أضعاف، وكذلك العذاب.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٢) في ط: إذا كان، خطأ، والسياق يقتضي ما أثبتناه.

فإذا تذكر هذا وأمثاله حذر الله عز وجل، وازداد مع العلم وَجَلاً وحزناً، كما قال أبو الدرداء: «كم يزدد علماً يزدد وجعاً».

وقال الله عز وجل: ﴿إنَّ الذينَ أُوتُوا العِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ سُجَّداً... إلى قوله ...وَيَخِرُّونَ لِلأذْقَانِ يَبْكُونَ﴾[(١)].

وقال عز وجل: ﴿إذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّداً وَبُكِيًّا﴾[(٢)].

فوصَفَ العلماء من قبلنا ومن هذه الأمة بالوجل والإشفاق، والدليل على ذلك البكاءُ مع سجودهم إذا تتلى عليهم آياته، وهي أعظم العلم وأشرفه، وينفي اغتراره الذي عماه عن ذنبه، حتى يخيل إليه أنه لا يعتقد مثله الأخلاق المذمومة عند الله عز وجل لما حفظ من العلم.

فينفي غرَّته بذلك: أن يعلم أن حفظه للعلم لم يجزيه دون معرفة معانيه، فيما دل عليه من المحبوب لله عز وجل والمكروه، حتى يعرف معاني العلم في المحبوب لله عز وجل والمكروه، وأنه إن عرف معانيه لم تجزه معرفته بذلك دون القيام بما أوجب الله عز وجل بعد معرفته به، والانتهاء عما حرم الله عز وجل عليه.

فإن علم أن ذلك لا يجزيه فألزمَ قلبه طلب معرفة معاني العلم، وَحَمل نفسه بعد المعرفة على القيام بما أحب الله عز وجل، وترك ما كره الله تعالى، عرف أنه معطل من معرفة معانيه دون القيام به، فلم يغتر، وعلم أن ما علم [فهو] عليه وبال، إذ شارك الجاهل في جهله بعد معرفة العلم، وعظمت عليه الحجة إذ جهل معانيه بعد علمه بحفظه تلاوته وروايته، فهو أشد بلاء من الجاهل الذي لم يعرف تلاوة العلم، ولا حفظ روايته، وقد شارك أيضاً الجاهل في تضييعه العمل به بعد حفظه العلم.

فإذا ألزم قلبه [ذلك] انتفت عنه الغرَّة بما حفظ من العلم، واهتم بطلب معانيه،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٠٨، ١٠٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٥٨.

والتفكّر فيه، والقيام به، فلم يغتر بما حفظ، وعد نفسه جاهلا بالعلم بعد حفظه له، وأسوأ حالا ممن لم يحفظه ولم يدرسه ولم يروه.

باب الغرة بالفقه

والفرقة الثانية: يغترّ أحدهم بالفقه في العلم بالحلال والحرام، وبالبصر بالفتيا والقضاه، فهو يغترّ كغرَّة الحافظ للعلم وأعظم [منه] غرَّة، حتى لا يرى أن أحداً أعلم بالله عز وجل منه، لأنه قد علم الحلال والحرام والفتيا والقضاء، فهو القائم للأمة بدينها، ومَفْزَعُها إليه (عند حاجتها)[1]، ولولا مثله ضاعَ الدين (واندثر الشرع)[2]، وما عُرف حلال من حرام، واستصغر أهل الرواية والحفظ إذ لم يفقهوا الحلال والحرام، ويعلموا الحكم والقضاء.

فهو عند نفسه القائم بالدين دون غيره، وأن الله عز وجل لا يعذب مثله، وأنه لا يعتقد ما كره الله عز وجل، لأن مثله لا يركن إلى ما كره الله عز وجل، ولا يطمع الشيطان في مثله، إنما يطمع فيمن جهل حلال الله وحرامه، فيغتر بذلك، فيقل حذره من الله عز وجل ورهبته له، وتُعَمَّى عليه أكثر ذنوبه مما لم يفقه عن الله عز وجل في تركها والقيام في حقه فيما أحل وحرم.

قلت: فبمَ ينفي ذلك؟

قال: بمعرفته أن الفقه عن الله عز وجل فيما عظم من نفسه، وأخبر به من جلاله وهيبته، ونفاذ قدرته، وما وعد من ثوابه، وتوعد به عن عقابه أعظم الفقه وأشرفه، وأنه لن ينفع الفقه في الحرام والحلال إلا بالفقه في ذلك.

لأن من فقه عن الله عز وجل ما[3] أخبر من عظمته وجلاله وهيبته، ونفاذ قدرته، وملكه للأشياء في الضر والنفع دون غيره، وما وعد من ثوابه، وتواعد به

(١ و ٢) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٣) في ط: فيما أخبر.

من عقابه، هاب الله عز وجل، وأجله واستحياه، وعبده كأنه يعاينه [١]، لما فقه عنه من عظمته وجلاله وعظم ربوبيته، ولما فقه عن الله عز وجل في وعده ووعيده، حتى كأنه يشاهد الجنة والنار بقلبه، اشتد خوفه من الله عز وجل، ورهبته له [٢]، لما عاين بقلبه من أليم عذابه، واشتد شوقه إلى جواره والقرب منه، لما استقرَّ في قلبه من عظيم ثوابه وكريم النعيم في جواره.

فحينئذ يهاب الله عز وجل ويخافه، فيترك كل ما فقه فيه من حرامه، ويرجو الله عز وجل، ويشتاق إلى جواره، فيتحمل كل مكروه في القيام بحقه الذي ينال به ما وعد من جزيل ثوابه، فهو تارك لما كره الله عز وجل، عامل بما أحب الله عز وجل، لما وقر في قلبه من الفقه من الله عز وجل، لأنه مزعج له عن كل ما كره مولاه، باعث له على القيام بحقه.

فإذا فقه في ذلك عرف أنه معطل من الفقه، وأنه إنما فقه فيما وجب عليه به الحجة، وأنه ليس من الفقهاء عن الله عز وجل، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [٣].

وأن الفقيه الخائف لله عز وجل، كما قال تعالى: **﴿قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾** [٤].

وقال النبي ﷺ: «من يُرد الله به خيراً يفقِّهه في الدين» [٥].

فمن أراد الله عز وجل به خيراً وفقه للفقه عنه، والفقه فيما أحل وحرَّم، فخافه ورجاه، فجانب ما علم من الحرام، وقام بما علم من واجب الحق لله عز وجل عليه.

---

(١) وهذا هو مقام الإحسان، وهو: اليقين، وهو حقيقة الإيمان التي عبر عنها حارثة رضي الله عنه حينما سأله النبي ﷺ عن حقيقه إيمانه، فقال: « ... كأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً» وقد أقره النبي ﷺ وقال: «عرفت فالزم».

(٢) في ط: به.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٢٨.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٨.

(٥) سبق تخريجه.

ومن ضيَّع حق الله تعالى وركب ما نهي عنه بعد معرفته به، فلم يوفق للخير، ولكن ابتلي بما عظمت عليه فيه الحجة، واشتد عليه البلاء، وصار به من فجار العلماء بالحكم والفتيا، مع التعرض لغضب الله عز وجل.

وقد يطلب بما يفقه (من دين الله)[1] الدنيا لا الآخرة، فإذا عرف ذلك لم يعد نفسه فقيهاً بغير خشية لله عز وجل.

كما روي عن الشعبي أنه قيل له: أفتنا أيها العالم، يدلك هذا أنهم يعلمون أنه عالم بالفتيا. فأجابهم: «إن العالم من فقه عن الله عز وجل ما توعده به فخافه». وقال: «إنما العالم من خشي الله».

وقيل للحسن البصري: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك في شيء استفتوا فيه. فقال لسائله: «هل رأيت فقيهاً قط؟ الفقيه القائم ليله، والصائم نهاره، الزاهد في الدنيا».

يخبرك أن الفقية من فقه عن الله عز وجل، فأزعجه ذلك إلى كل ما أحب ربه عز وجل، حتى زهد في الدنيا فجانبها بما فقه عن الله عز وجل في فنائها، وشدة الحساب عليها، ونقصان من ركن إليها من أوليائه من الثواب؛ وعذاب من ركن إلى حرامها من أعدائه، وفقه عنه مما[2] أخبر به دوام نعيمه وجزيل ثوابه، فأسهر ليله وصام نهاره ورفض الدنيا ليناله.

وروي عنه أيضاً أن رجلا سأله عن شيء فأفتاه فيه بفتيا، فقال له الرجل: إن فقهاءنا لا يقولون ذلك، فقال الحسن: وهل رأيت فقيها قط؟ الفقيه يداري ولا يماري، يفسر حكمة الله عز وجل، فإن قُبلت حمد الله تعالى، وإن رُدَّت حمد الله تعالى.

يخبر أن الفقيه من فقه عن الله عز وجل فعظمه بقلبه، وأيقن أنه لا نافع ولا ضارّ

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.
(٢) في ط: منا.

غيره، فهان عليه شأن الخلق، فلم يخفهم فيداهنهم[1] فيكتم ما علمه الله من حكمته، ولكن أظهرها، فإن قبلت حمد الله عز وجل، إذ أُخذ عنه ما يؤجر فيه، ووفق عباده لقبول الحق، ولم يفرح لقيام المنزلة عندهم، وإن رُدَّت حمد الله عز وجل، إذ وفقه لنشر الحق فآجره، وإن ردَّه الخلق، لم يغتم لسقوط منزلته عندهم، ولا ذمَّهم ولا خافهم دون ربه عز وجل [فهو] قائم بما عليه، حامد له على كل حال، متوكل عليه دون خلقه.

فإذا عرف العبد ذلك وألزمه قلبه، اهتم بالخوف من الله عز وجل فيما فقه وعلم، فإذا اهتم بالخوف من الله عز وجل فيما فقه وعلم، اهتم بالعمل فيما علمه الله عز وجل وفقهه[2]، فإذا اهتم بطلب الخوف والعمل لله عز وجل، اهتم بالفقه عنه بطلب الخوف منه.

فحينئذ يعد نفسه من الجهال المضيعين (لحقوق الله)[3]، حتى يرى نفسه خائفة راجية، قائمة بأمر الله عز وجل في نفسه وفي خلقه، لأن الفقهاء الأمرُ عليهم أعظمُ منه على الجهال، لأن الله عز وجل أوجب عليهم أن يقوموا به في أنفسهم وفي الخلق، لأنه أخذ عليهم الميثاق فيما علمهم أن يُبَيِّنُوه للناس ولا يكتموه.

فإذا علم ذلك زال عنه الاغترار بالله عز وجل، فلزم قلبه الحذر والخوف فيما علم، ليقوم لله عز وجل به، ويتفقّد حق الله سبحانه في ظاهره، وباطنه، وعلانيته وسريرته، واهتم بمعرفة ذلك من نفسه فلم يغمّ[4] عليه ذنوبه دون معرفتها، ولم يقنع بمعرفتها دون تركها من خشية الله عز وجل، فهو مهتمٌّ بالعمل فيما علم وَفَقَه، خائف من المسألة من الله عز وجل عن ذلك، فلا يكون عنه حجة.

كما يروى عن أبي الدرداء أنه قال: ما أخاف أن يقال لي: يا عُوَيمر ماذا علمت،

---

(١) في ا: ولم يداهنهم، والمداهنة: الرياء.

(٢) في ط: وفقه.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) في ط: فلم يعم.

ولكن أخاف أن يقال لي: يا عُويمر ماذا عملت فيم علمت، ولن يؤتي الله عز وجل امرءاً علما في الدنيا إلا سأله عما عمل فيه يوم القيامة.

وروي أيضاً أنه قال: إن قلتُ: علمتُ قيل لي: فما عملتَ فيما علمت، فإذا أنا لا حجة لي. فبذلك ينفي الفقيه الغرّة بربه تعالى.

باب الغرة بعلم العمال لله تعالى

من علم الصدق والإخلاص، ونفي الرياء والأخلاق المذمومة ووصف الخوف والرجاء والحب

ومنهم فرقة علمت العلم، وعملت بمعانيه في حقوق الله عز وجل التي تحقُّ لله عز وجل على عباده، من حقّه وحبّه، وخوفه ورجائه، وحسن التوكل عليه، والرضا بقدره، ومعاني ما ذمَّ الله ونهى عنه من الأخلاق الدنية والمذمومة عنده، كالرياء والعجب والكبر والحسد وسوء الظن، وأشباه ذلك من أعمال القلوب، ومن الكذب والغيبة، فحسنت عبارتهم بذلك، ويصفون تعظيمَ الله عز وجل وحبَّه، والحياءَ منه وخوفَه، ورجاءَه والتوكل عليه، والرضاء عنه والاخلاص له، فيذمّون الأخلاق المذمومة عنده من أعمال القلوب والجوارح، فلا يشك أحد منهم عند نفسه أنه لا يصف خُلْقا مما يقرّب إلى الله إلا وهو قائم به، ولا خُلقاً ذمه الله إلا وهو مجانب له، لأنه عَلِم أنه لم يعبر بلسانه إلا عما في قلبه، فيظن أنه لم يعظم الله بلسانه إلا وهو معظم له بقلبه، إذ كان إنما يؤدي لسانه عن قلبه.

وكذلك الحياء من الله عز وجل، وجميع الأخلاق الكريمة، فلولا أن هذه الأخلاقَ ساكنةٌ قلبه، لازمة له، معتقدٌ لها بالعمل بها ما علمها، ولا أحسن أن يصفها، إن كان وصفه بلسانه إنما هو ترجمة عما في قلبه، ولولا أن ما يصف من حقوق الله عز وجل، والقربة إليه ساكنة قلبه، وأنه قائم بها، لما ألزم معرفتَها قلبَه، ولا عبَّر عنها بلسانه.

وكذلك ما يصف، من تضييع حقوق الله عز وجل، وما نهي عنه، مما ذمّه وأحبط العمل من أجله، مما لا يعرف إلا بشدة التفقد له.

أما المغتر فهو يرى أنه من الخائفين لله عز وجل، وهو من الآمنين، ومن الراجين له، وهو من المغترّين المضيِّعين، و[يرى أنه] من الراضين عنه وهو من الساخطين عليه، ومن المتوكلين عليه وهو من المتوكلين على غيره، قليلة بالله ثقته، ومن المخلصين له وهو من المرائين، حتى أنه لقد يصف الإخلاص بترك الإخلاص[1] ليقال مخلص، ويصف الرياءَ ليقال قد فطن إلى مذهب الرياء قلبُه، فغرّه حسن وصفه، وبيان عبارته بلسانه، ومعرفة قلبه بجملة ذلك كله، وإنما ذلك كله لمعرفته بغير اعتقاد نيّة، ولا عمل بضمير ولا جارحة، إلا الشيءَ اليسيرَ الذي لا يَعري أن يناله عامَّة المسلمين.

قتل: وكيف عرف بقلبه، ووصف بلسانه ما هو منسلخ من العمل به؟

قال: تلك معرفة اللسان من الكتاب والعلم، وحفظُ كلام المتكملين، ممن عمل منهم بما يقول، فهو يصف الإخلاص لمعرفته بجمله[2] ويصف الخوف لمعرفته ما الخوف، لأنه تكلف الخوف حتى خاف الله وحذره.

ثم وصف الخوف بعد القيام به، وكذلك جميع أخلاق الدين، وكذلك يصف الرياء بجملة المعرفة له مما هو[3] في العلم، وما دلّ عليه العلماء، من غير تفقد له من قلبه، حذراً من الله عز وجل أن يطلع على قلبه وهو معتقد للرياء، فيمقته ويحبط في [يوم] القيامة عمله، فيكون قد تفقده بحَذر من الله عز وجل، ونفاه واتقاه وجانبه، ثم وصفه بعد حذره من الله عز وجل من أجله، ونفيه إياه عن قلبه.

ولكن يصف ما عرفه من العلم من محبَّة الله عز وجل وما يكره، من غير تفقّد منه لنفسه، ولا قيام لله بما يحب في جميع ذلك.

---

(١) يعني يقول: إن الإخلاص الحق هو: عدم ملاحظة الإنسان لإخلاصه، ونسيان نفسه فيه، ونسبته إلى الله تعالى، وكونه صادر عن ملكة من الملكات يجري دون أن يشعر به.

(٢) في ط: لمعرفته بجملها.

(٣) في ط: ما هو.

قلت: هذه الغرة المستحكمة، كيف له بأن ينفيها [١] بذلك من بعد (ما) [٢] علم أنه مغترّ، وما الدليل عنده أنه مغترّ بجميع ذلك غير قائم به؟

قال إن الوصف للعلم غير العمل به فليبلُ (الإنسان [٣]) نفسه عند العمل بذلك فإنه يبين له أنه مغتر، لأنه إنما خاف من الله عز وجل، وسكن الخوفُ قلبه فيما يرى أنه يعذبه بذنبه، كما قال رضي الله عنه: «لا يخاف أحدكما إلا ذنبه». وإن كان الله عز وجل يستأهل أن يخافه العبد وإن لم يذنب ذنباً، كما خافته الملائكة وإن لم تذنب ذنبا.

لأن أول منازل الخائفين الخوف من الذنوب، فإذا بَلاَ [٤] نفسه واختبرها عند أول منازل الخائفين، فافتقد الخوف منها، فلم يجده، علم أنه اغتر بما يصف بلسانه، وأنه ليس من أهله.

فإذا عرض له فرض في باطنه أو ظاهره، سراً أو علانية نظر، هل تُسارِع نفسه إلى القيام به حذراً من الله عز وجل من تضييعه؟

وإذا عرض له ذنب مما يسخط منه ربه عز وجل نظر، هل تسارع نفسه إلى تركه خوفا من الله عز وجل، أن يحل به غضبه؟

فإذا تفقد نفسه عند القيام بالفرض وتركِ الذنب، فوجدها مضيِّعة لفرض الله عز وجل غير خائفة، وراكنة إلى الذنب غير فارغة منه، علم أنه لو كان الخوف ساكناً قلبه، قائما به حذرا من ربه عز وجل، لاشتد هيجانه عند تضييع الفروض، وركوب الذنوب، إذا ادّعت نفسه أنها تخاف الله، وأن مايصف من الخوف هو ساكن فيها.

وإذاً لهاج الخوف أعظم مما كان يجده عند وصفه له، من غير أن يعرض فرض ولا ذنب، إذ كان في ذلك غضب الله عز وجل، وإيجاب النار عليه.

فلما افتقد ذلك، ولم ير من قلبه فزعا من الله عز وجل، ورأى نفسه متمادية

---

(١) في ط: أن ينقي الغرة.

(٢ و ٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٤) بلا نفسه أي: اختبرها.

متسوفة[1]، علم أن الأمن هو الساكن في قلبه، إذ كان هو المستولي عليه عند حاجته إلى الخوف، والخوف قد زايله عند حاجته إليه.

وأولى حال يكون الخوف فيها من الخائفين الحال التي توعد الله عز وجل فيها بسخطه وعقابه، فلما فقد الخوف عند تضييع الفرض وركوب الذنب، علم أن الخوف زائل عن قلبه، وأن الأمن حال فيه.

وكذلك جميع ما يصف بلسانه.

وإن هو قام ببعض وضيّع بعضاً، علم أنه لم يلزم قلبه من الخوف إلا بقدر ما حفظ من حق الله عز وجل، وأن الخوف فيه ضعيف، بخلاف ما كان يرى.

وكذلك يصف الزهد في الدنيا، حتى إذا أوتي منها شيئاً تشاغل به عن نفسه، وآثر به هواه ولذته وأخرجه رياء للعباد، فعلم أن الزهد لو كان ساكناً قلبه لرفض الدنيا، ونبذها عند الظفر بها[2]، وما آثر على الله عز وجل وعلى الآخرة ما هو زاهد فيه، ومبغض له.

وكذلك يصف الحب لله عز وجل، وهو عامة ليله ونهاره ناس له عند اعتراض محبّته، وإن أراد نفسه على الخلوة والأنس بربه عز وجل استوحش ذلك، وثقل عليه، فإن خلا بخير، لم يجد للخلوة بمناجاه ربه عز وجل، نوراً في قلبه ولا حلاوة لذكره وإن عرض الأنس بالمخلوقين استراح إلى ذلك، وملأ قلبه حلاوته.

فهل رأيت حبيباً ينسى حبيبه، ويؤثر محبة نفسه عليه؟ أو يستوحش من الأنس به ويستأنس بغيره، وإن كان حائلا بينه وبينه؟ هذا كذب من الحب غير صادق صاحبُه، إلا حب التوحيد الذي لو زال عنه كان كافراً.

---

(١) أي: تؤجل وتماطل في العمل والترك.

(٢) لقد نفذ الإمام المحاسبي هذه القاعدة السلوكية، فرفض ميراثه من أبيه لأنه كان قدريا، أو واقفيا من الخوارج. ودرج السلف من قبله على هذا السلوك، فرفض ابن أدهم الإمارة، ورفض الثوري عطايا الخلفاء ورعا.

ويصف التوكل عليه إن واتته الدنيا، وأعطاه الله ما يحب، فإن خولف هواه بضيق العيش، أو عرض له خوف مخلوق، أو طمع لما في يديه، اضطرب قلبه، فخاف غير الله، وطمع فيما [1] في أيدي العباد، واهتم لإبطاء رزقه، وتسخط ما قل منه، فهل يتعلق هذا بشيء من توكل الواثقين بالله عز وجل؟ وإنما يحتاج إلى التوكل عند هذه الحال [2].

وكذلك يصف الإخلاص، فإذا عرض العمل هاج الرياء، وافتقد الإخلاص وإنما يحتاج إلى الإخلاص عند العمل، ونفى الرياء عند العمل من العمل [3]، لئلا يحبط الله عز وجل العمل عند الفقر في القيامة إليه، فلما افتقد الإخلاص عند الحاجة إليه وهاج الرياء عند ذلك، وغلب عليه علم أن الإخلاص لم يكن ساكناً قلبه، ولو كان لما افتقده عند الحاجة إليه، إلا عند الغفلة ثم يفزع إلى الرجوع، كالحائد عن الطريق الذي يؤمّ المسير عليه [4].

وكذلك يعرض له عند العمل العجبُ والكبرُ وغيره، فيركن إلى عامة ما كره الله، عز وجل عند العمل، كالعجب والكبر، وجميع ما كان يذم بلسانه، فإذا افتقد عامة ما كان يصف من الأخلاق المحمودة المقرّبة إلى الله عز وجل عند موضع الحاجة إليها، وغلبت عليه الأخلاق المذمومة عند الحاجة منه إلى مجانبتها، علم أنه كان مغتراً بما كان يصف بلسانه.

قلت: كيف يصف بلسانه ما ليس في قلبه منه شيء إلا معرفته فيغتر بذلك؟

قال: إن أصول ذلك في قلبه في عقد إيمانه، لأنه يحب الله عز وجل، حب التوحيد الذي لو فارقه كان كافراً بالله تعالى.

وكذلك لا يأمن الله عز وجل، لإيمانه أن له عقاباً وعذاباً، ولو لم يعلم أن له ذلك

---

(١) في ط: لما في أيدي العباد.

(٢) أي: في حال إبطاء الرزق أو ضيقه، أو خوف الخلق.

(٣) أي: إن تصفية العمل من الرياء والآفات الأخرى جزء من العمل غير منفصل عنه.

(٤) الذي يقصد العودة إليه.

كان كافراً معانداً.

وكذلك يخلص لله التوحيد والفرض، لا يعبد إلّهاً غيره، (ولا يؤدي فرضا إلا له، ويكون)[1] عقده على ذلك.

وكذلك يؤمن أنه مالك للضر والنفع، مدبر الأشياء، ولو لم يعلم ذلك كان كافراً.

فلما لزمت هذه الأصول التي هي عقود التوحيد قلبه، ووصف معالي منازل الخائفين والراجين، والمحبين والمتوكلين والمخلصين، مع معرفته بذلك مما وجده في العلم، وما وصف على القائمين لله عز وجل بجميع ذلك، ظن أنه لم يصف شيئاً من ذلك ولم يعرفه إلا أنه من أهله.

وإذا رجع إلى قلبه لم يجده يعرى من أن يدين في عقود إيمانه بجميع ذلك، فاجتمعت هذه الجملة من الإيمان في قلبه مع معرفة المنازل العالية التي كانت عن هذه الأصول، ووجد عنده منها الشيء اليسير، فلما وصفها بلسانه لم يشك أنه من أهلها، والقائمين لله بها، دون عوامّ المسلمين، إذ لم يعرفوها، ولم يصفوها إلا الشيء اليسير منها، الذي يناله كثير من عوام المسلمين.

فلما تفقد نفسه عند الحاجة إليها، فرآها له مفارقة، لم يبق فيه منها إلا عقود تديُّن الإيمان، علم أنه من شر عوام المسلمين، وأنه زائل عما كان يصف من معالي الدرجات، ومحامد الأخلاق، وراكن الى ما كان يصف من الذم، ويخيل إليه أنه تارك له ناجٍ منه، فعرف غرته بذلك عند تفقده ذلك من نفسه.

فإن كان مع ذلك ممن يدعو العباد إلى ما كان يصف بلسانه ويعرفه، من غير قيام لله عز وجل به كما وصفت لك، علم حين تفقد ذلك من نفسه أنه أشد بلاء وغرة ممن كان لا يدعو العباد إلى ذلك، وأنه كان مغتراً بما يصف ويعرف، فيعلم أنه شر منه.

لأنه أظهر الدعاء إلى الله عز وجل وهو فار منه، وأنه كان يخوف بالله وهو له آمن، ويذكِّر بالله وينساه، ويقرِّب إلى الله عز وجل ويتباعد منه، ويحضُّ على التوكل

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

على الله وهو غير واثق به، وعلى الرضا عنه وهو ساخط عليه، وعلى الإخلاص له وهو معامل لغيره.

فحينئذ تعظم حسرته، وتشتد ندامته، ويحق له (العذاب من الله تعالى)[1].

ألم تسمع ما يروي أُسامة بن زيد عن النبي ﷺ أنه قال: «يؤتى بالعالم يوم القيامة، فيرمى به في النار، فتندلق أقتابه، فيدور به كما يدور الحمار بالرحى، فيطيف به أهل النار، فيقولون له: ما لك؟ فيقول: كنت آمر بالخير ولا آتيه، وأنهي عن الشر وآتيه ولا انتهي عنه»[2].

وقال النبي ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «مررت ليلة أسري بي بقوم تقرض شفاههم بالمقاريض، فقلت لجبرائيل: من هؤلاء؟ قال: خطباء أُمَّتك يأمرون الناس بالبِرِّ وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفَلاَ يَعْقِلون»[3].

وفي حديث غير الحسن: «لئن عدت إلى هذا الثانية لأجعلنّك نكالا بين العابدين».

فالمغتر بجملة معرفته بما يصف بلسانه وإن لم يدع العباد إليه، عظيم البلاء، إذ خيّل إليه بل كان عند نفسه موقناً أنه قائم بعامّة مايعرف ويصف، فلما تفقّد نفسه عند مواقع الأعمال التي ينال بها رضاء الله، وافتقد ذلك من نفسه، علم أنه بالله عز وجل عظيم الغرة، حقيق بشدة الحسرة والندامة.

وهذا الذي جمع مع غرته من الله عز وجل بذلك دعاء العباد إلى ذلك، حتى قام مقام الدعاة إلى الله، القائمين بحقّه عند نفسه وعند العباد، هو أعظم حسرة وندامة وتأسفاً على ما قطع من عمره بالغرّة والغفلة عن الله عز وجل.

وإنما أطلتُ الوصف في هذه الفرقة لأنها عظيمةٌ غرتُها، قد غلب ذلك على كثير ممن يتعبّد ويرى أنه من النساك العاملين لله عز وجل.

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

باب الغرة بحفظ كلام المذكرين

والقصص واحاديث الزهد وغيره

وفرقة ممن ترى انها من اهل العلم يحفظ احدُهم كلام المذكِّرين، وأحاديث الزهد والذم للدنيا، لا يعرف معنى ما يقول، ولا ما يذكِّر به من الحديث، أكثر من أنه قد حُبِّب إليه ذلك وخفَّ عليه[1].

فمنهم من يذكِّر به الناس.

ومنهم من يذكره لجلسائه وإخوانه غير عارف بما يقول، وهو مع ذلك مغترٌّ بذلك.

يرى انه من العاملين لله عز وجل، والعلماء به، والعارفين لذمِّ الدنيا، يرى ان مثله لا يعذب، وهو مع ذلك تعمَّى عليه اكثر ذنوبه، لاغتراره بما يقول ويروي.

ويرى انه إذ حفظ من الذكر، ومن الأحاديث في الزهد ما حفظ قد جاوز مرتبة أهل الدنيا والرغبة فيها، وأنه غير مُراء ولا متكبّر ولا معجب، ولا يأتي كثيراً من الذنوب، وإنما يفعل ذلك العوامُّ الذي لا يعرفون ما يعرف هو، فهو مغتر بما يقول ويروي ويكتب.

قلت: فبـمَ ينفي الغرّة بذلك؟.

قال: يرجع إلى نفسه، فينظر: اين خوفه مما يذكر من الخوف والرقة؟ وكيف حفظه لجوارحه عما كره الله عز وجل؟ وهل قلبه طاهر من كل ما يسخط الله عز وجل عند دواعيه ونوازعه؟ أهو كما يصف به القلوبَ من الطهارة ونفي الأدناس عنها؟ وهل هو كما يروي من الحديث في خشيتها ورقتها؟ وهل يراه مؤثراً للدنيا على محبّة ربه عز وجل فيما أوجب فعله، وأوجب تركه، وندب إلى القربة به؟ فإنه حينئذ يرى نفسه تغلبه إلى استعمال جوارحه فيما كره الله عز وجل من الكلام بلسانه، والنظر بعينه، وسائر جوارحه من المشي وغيره فيما عليه ولا هو له.

---

(١) وإنما نشأت خفته على النفس مما يرى من منازل العاملين به، السالكين له، واحترام الناس لهم.

وكذلك قلبه يجده ينازعه إذا تفقده عند دواعيه إلى الرياء والكبر، والعجب والحسد وغيره.

وكذلك يجد نفسه مؤثرة للدنيا على محبّة ربه عز وجل في اكثر احواله.

فإذا علم بذلك من نفسه، علم انه كان يصف الخوف لله عز وجل، وهو غير خائف منه، ويصف طهارة القلوب ورقتها وقلبه دنس قاسٍ، ويصف الزهد في الدنيا، ويروي الآثار فيه، وهو في الدنيا راغب، ولها على الآخرة مؤثرٌ، فيعلم بذلك انه كان مغترًّا بما يصف ويروي ويكتب، من حسن القول وآداب الصالحين، والزهد في الدنيا والذمّ لها، فتزول عنه بذلك غرّته.

ولا يقنع بذلك من نفسه دون ان يراها كما يصف، او الغالب عليها مطالبة[1] ذلك، ليظفر بذلك إذا علم انه كان منسلخاً من أكثر ما كان يصف ويقول ويرى ويكتب[2].

---

(١) اي: الغالب عليها الجد في طلب الكمال في هذا السلوك.

(٢) يجب ان نلاحظ ان المحاسبي قد بنى علاجه لكافة الأمراض القلبية على محاسبة النفس كما رأينا فيما مضى، وكما نرى هنا. وهذه المحاسبة عبارة عن كشف صريح لعناصر النقص في داخل النفس، وهو ما يقره الآن علماء التحليل النفسي العلاجي.

ويجب ان يوضع في الاعتبار ان هذا الكشف وتلك المواجهة بين الإنسان ونفسه يجب ان تأخذ طابع الدوام والإدمان حتى يمكن الاقتناع بفداحة الخطأ، ومن ثم يمكن محاولة الرجوع عنه.

وقد أكد المحاسبي فن الإدمان هذا في (آداب النفوس) حينما عرض لفكرة التطهير، وقرر ان الانقطاع إلى فكرة واحدة خاطئة، والإدمان على مواجهة النفس بها يفضل عمل النوافل، ويجدي في العلاج، ثم يأخذ الإنسان في فكرة اخرى، وهكذا.

ومن هنا يظهر قصور التحليل النفسي العلاجي الحديث إذ لا يعني بهذا التنظيم والإلحاح على تلك المواجهة.

ومن هنا كذلك نعلم ان ما يسميه المحدثون بالتحليل النفسي هو ما عناه المحاسبي في فكرة المحاسبة. وقد درج على المحاسبة أئمة السلوك من بعده، حتى جعلوا لها وقتا من كل يوم

باب الغرّة بالجدل
وحسن البصر بالاحتجاج والرد على أهل الأديان

وفرقة جَدِلة خَصِمة، مغترَّة بالجدال والردّ على المختلفين، من أهل الأهواء، وأهل الأديان، يتأول في ذلك انه لا يصح لعبد عمل حتى يصح إيمانه، والقول بسنة نبي الله ﷺ، فليس عند احدهم احد يعرف ربه، ولا يقول عليه الحقَّ غيره، أو من كان مثله.

ثم هم فرقتان:

فرقة ضالة مُضلة، لا تفطن لضلالتها، لاتساعها في الحجاج، ومعرفتها بدقائق مذاهب الكلام، وحسن العبارة بالردّ على من خالفها، فهم عند انفسهم من القائلين على الله عز وجل وبالحق، والرادين لكل ضلالة، لا احد اعلم منهم بالله، ولا أولى به منهم، وكل الأمم ضالة سواهم وأن الله عز وجل لا يعذب مثلهم، بل لا ينجو احد في زمانهم غيرهم، وغيرهم، من المغترين يدعي ذلك وينتحله، ويشهد عليهم بالإكفار، فهم فرق كثيرة يُكفر بعضها بعضا، وكل فرقة منها مغترّة، لا ترى ان احدا يقول عليه بالحق غيرها.

والفرقة الثانية من المغترّة بالجدل والبصر بالحجاج، تقول بالحق، ولا تدين بغيره، وقد اغترت بالجدل، ترى انه لا يصحُّ لها قول دون الفحص والنصر، وقيام الحجّة على من خالفها، وقد اغترّت بذلك، حتى قطعت اعمارها بالاشتغال عن الله عز وجل، وعمّى عليها أكثر ذنوبها وخطئها وهي تظنّ ان ذلك اولى بها، وأقرب لها إلى ربها، وهي أيضاً لا تسلم في مجادلتها من أن تخطىء في تأويلها وقولها، إلا أن اعتقادها السنة [دائم] مع اغترارها.

قلت: فَبِـم ينفيان الغِرَّة بذلك؟

قال: أما الفرقة الضالة فإنها تنفي ذلك بأن ترجع إلى أنفسها، فتعلم ان من القرآن

محكما ومتشابها، وكذلك من السنة، فلا يقضي بمتشابه على محكم، ولكن يقضي[1] بالمحكم على المتشابه، وأن الخطأ في التأويل لا يحصى، فتتهم نفسها، وتعلم أن الله عز وجل سائلها عما تدين به، وأن الجماعة قد مضت على الهدى، وسنة نبيها ﷺ، ولا تخرج من إجماعها، وإن حَسُنَ ذلك في عقولها[2].

فإن تثبتت كما وصفتُ لك أبصرت ضلالتها، ولم تغتر بشدة حجاجها، إذ علمت أن غيرها ممن خالفها شديد الحجاج، بصير بالجدل، وهو عندها ضالٌ مُضلٌ، فكذلك لا تأمن ان تكون عند الله عز وجل كذلك وإن أبصرت بالجدل والخصومات[3].

فإن اتهمت نفسها على الآراء والتأويل، وتثبتت عند المتشابه فقضت بالمحكم[4] عليه، وتوقفت[5] فيما لم يجعل الله لها النظر فيه، ولم تخرج عن إجماع من مضى[6]، زالت عنها غرَّتها، وثابت إلى ربها من ضلالتها.

وأما الفرقة المصيبة للحق مع غرتها عن الله عز وجل بالخصومات والجدل عما هو أولى بها، فإنما تنفي غرَّتها بذلك، بأن تعلم أن الله عز وجل تعبّد من مضى بما تعبَّدها به، وقد أدرك كثير منهم من [ناسا] من أهل البدع والأهواء، فما جعل عمره ولا دينه غرضاً للخصومات، ولا اشتغل بذلك عن النظر لنفسه، والعمل ليوم فقره، إلا أن يرى موضع حاجة يظن أنه إن تكلم [فيه] بالحق قُبِلَ منه[7]، فيقول بالحق ويحذر أن يخطىء على الله عز وجل، فيرد الباطل بالباطل، فكانوا على ذلك، وذمّوا الجدل والخصومات ورَوَوْا ذلك عن نبيهم ﷺ [كما] رواه عنه أبو أمامة انه قال:

(١) في ط: وليقضي.

(٢) أي: وإن حسن الخروج عن السنة والإجماع في نفوسها ابتداعا.

(٣) هذا عنصر جديد من عناصر العلاج النفسي عند المحاسبي، إذ هو لون من الإقناع القائم على الموازنة، ولا يكتفي بمجرد مواجهة النفس وكشف خداعها، بالخطأ دون دليل كما ترى.

(٤) في ط: بالحكم خطأ.

(٥) في ط: وأوقفت.

(٦) في ط: ولم يخرج من إجماع من مضى.

(٧) وهو ما فعله المحاسبي حين غضب منه الإمام احمد بن حنبل. انظر تحقيق الخلاف في مقدمة [الوصايا] و [أعمال القلوب والجوارح] للمؤلف، من تحقيقنا.

«ما ضلَّ قوم قط إلا أوتوا الجدل»(١).

وذم الله عز وجل ذلك فقال: ﴿وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾(٢).

وقال تعالى لقريش: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾(٣).

فذم المراء والجدل.

فليرجع المؤمن إلى نفسه فليقل لها: إنما تَدْعين إلى الإتباع والسنة بجدلك لأهل الأهواء، ودعاؤك لهم بالجدل والمراء ترك للسُّنّة؛ لأن النبي ﷺ نهى بسنته عن الجدل والخصومات، وغضب على أصحابه، حتى كأنما فقىء في وجهه حب الرمان حمرة من الغضب، إذ خرج عليهم وهم يختصمون، وهم كانوا أولى الخلق بالفهم والبصر بالحِجَاج فقال: «أبهذا بعثت، ام بهذا امرتم، أن تضربوا كتاب الله عز وجل بعضه ببعض؟ أنظروا إلى ما أمرتم به فاعملوا به، وما نهيتم عنه فانتهوا عنه».

ثم هو في نفسه ﷺ قد بعث إلى جميع أهل الأديان، فما جادلهم إلا بما تلا عليهم من التنزيل، ولو شاء كلّمهم بالمقاييس ودقيق الكلام، ولو كان ذلك هُدًى كان هو أولى به، وعليه أقوى، فلم يقِم الحجة إلا بالتنزيل، وأضرب عن جدلهم بالدقائق، وعلم ان ذلك لله عز وجل رضى ومحبة، فترك الجدل والخصومات من السنة.

ويرجع إليها أيضاً بأخرى من التذكرة: إني لو نجوت وعَطِبَ أهل الأرض من أهل الأهواء ما ضرني ذلك، ولو عطبتُ ونجوا ما نفعني، فإقامتي الحجّة عليهم، وتركي أن أقيم الحجّة على نفسي لله عز وجل في تضييعي امره، حتى أؤدي ما أمرني به ربي، وانتهي عما نهاني عنه، وأربح ايام عمري ليوم فقري وفاقتي اولى بي، فقد شغلوني عن نفسي وعن العمل في نجاتي.

ومع ذلك ما يؤمنني ان اقيم الحجة ببعض التأويل والقياس أرى أنه هُدًى وهو عند

---

(١) اخرجه: الترمذي في سننه، تفسير سورة ٤٣ من كتاب التفسير. وابن ماجه في سننه، الباب ٧ من المقدمة. واحمد بن حنبل في مسنده ٥٥/٢٥٢، ٢٥٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٤.

(٣) سورة الزخرف، الآية: ٥٨.

الله عز وجل ضلال وكذب عليه.

وقد تبين لي ذلك فيما مضى من عمري، قد كنت اقول القول ثم يتبيّن لي انه خطأ فأرجع عنه، فما كانت حالي عند ربي لو أقمت على حالي تلك.

وكذلك لا آمن مثلها ثم أموت عليها قبل ان أعرف خطئي، فإذا أنا قد أهلكتُ نفسي بطلبي نجاة غيري.

ومع ذلك إنه لو كانت المجادلة من السنة، ولم اكن أشغل بها عن العمل لآخرتي، وأمنت الخطأ في حِجاجي، لما كان لكلامهم موضع فيه مزدجر في آخرتي، إذ لم أرَ أحداً منهم رجع عن قوله، ولا تاب من بدعته، فلو كان ذلك كذلك لكنت معنيًّا بنفسي، فكيف وقد نهيت عن الجدل وهو يشغلني عن العمل لنجاتي؟ ومع ذلك أتعرض للخطأ على الله عز وجل، والكذب عليه في دينه وأنا لا أشعر.

فإذا رجع إلى نفسه بذلك أبصر غرَّته، واهتم بنفسه وعلم أنه كان في غرور وزخرف من رأيه، وأنه قد مضى [طوال] عمره بترك ما هو أولى به، فحينئذ يهتم للعمل، ويتفقد عيوبه، ويقدم التوبة منها قبل لقاء ربه عز وجل.

باب الغرة بالعبادة والعمل

قلت: فالغرّة بالعبادة والعمل كيف هي؟

قال: منهم فرقة تتكلّف الرضا والزهد والتوكُّل والحبّ لله عز وجل على غير حقيقة ولا معرفة بما هو أولى (منه)[1]، يتقلّل احدهم من اللباس والطعام زهداً في الدنيا، وبعضهم يخرج إلى الحج بغير زاد ويدع المكاسب، يؤمّ التوكل بذلك، ومنهم من تخيّل إليه نفسه أنه يشتاق إلى الجنة، ومنهم من يدعي حب الله عز وجل، يلهج بذلك ويجالس عليه، ويصعق عند ذكره

وكل هذه الفرق مغترة بالله عز وجل، تتكلّم بما يكره الله تعالى وهي لا تشعر،

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

وترائي بما تعمل، وتتكبر وتعجب، وتأتي كثيراً مما يكره الله عز وجل وهي لا تشعر، لم تعرف التقوى إلا بالإسم ولم تتكلفها في جوارحها وباطنها، ولا تعلمها ولم تطلبها، وهي ترى أنها قد قطعت [مقام] التقوى، وصارت إلى الزهد والتوكُّل والرضا، ومعالي الدرجات الكبرى، وهي عامّة قرّاء زمانك، الغالب عليهم اتباع أهوائهم في طاعتهم وتقشفهم.

قلت: هذه الفرقة أولى بالرحمة من الفرق التي وصفتَ قبلها، إذ كابدت أهواءها، وحملت المكروه على أبدانها ووُسمت بالتشمير عند العباد، وظنت ذلك من أنفسها، لأن كل الفرق اغترت من غير كثير مؤنة تحملتها، ولا إدخال المشقة على أنفسها، وهذه قد رفضت الدنيا فيما ترى، وحرمتها أنفسَها، وهي راكنة إلى بعض الدنيا وهي لا تشعر، فهي أولى بالرحمة من غيرها، وقد خشيت ان يكون [هذا هو] الغالب على أهل زماننا (١).

فكيف لها بأن تعرف غرّتها، وتنفيها وتجانبها بعد معرفتها؟ والنفي بعد المعرفة على هذا أيسر، إذ عرفت غرّتها، لأنها قد تحملت من المكروه ما هو أشدُّ من النفي.

قال: لا تفعل، فإن مجانبة الهوى مع العمل اليسير أعظم وأشد على النفس من تحمّل المكروه والشدائد في الأعمال الكثيرة إذا كان معها الهوى.

قلت: فبيِّن لي غرتها، فإنها على حالٍ نَفْيُ الغرة عليها أسهل.

قال: أجل، لأنها أسخى المغترّين أنفساً بالأعمال، وأشدهم تحملا للمكروه في ظاهر الطاعات، فالذي تعرف بها غرّتها أن ترجع إلى أنفسها بدعائها إلى العزم على طلب التقوى، وتعريف النفس أنها أصل الطاعات، ولا تزكو الأعمالُ إلا بها.

حتى إذا عرفتها ما هي في السر والعلانية، امتحنت أنفسها عند دواعيها إلى كل خير وشر في باطنها حتى تعلم:

هل طهّرت قلوبها من كل مكروه يكره الله عز وجل؟

---

(١) ولا زال غالبا عليهم إلى عصرنا هذا.

وهل طهّرت جوارحها من معاصي الله عز وجل؟
وما الذي هو أولى بها أن تبدأ به في الوجوب من الفروض عليها؟

فمن ان منها متقلّلا من الدنيا من غذائها ولباسها، نظر كيف صحة معاشه، فإن كان صحيحاً طيبا نظر، هل ترك شيئاً يجب عليه فضيّعه مع تقلّله؟ وكيف ضميره وحركات جوارحه في ليله ونهاره؟

فإن رآه غير قائم بحق الله عز وجل في ذلك أو في عامّته، علم انه قد كان يرى انه كان من الزاهدين، وهو عند الله عز وجل من الفاجرين، فإذا تفقد نفسه علم انه كان مضيعا للتقوى مع تزهُّده، وأنه كان مخدوعا مغرورا.

ثم ينظر ماذا كان يريد بتقلله؟ وكيف كان ارتياح قلبه بعلم إخوانه وغيرهم بتقلله؟ وبحمدهم حين يسمعه أو يبلغه عنهم؟ وهل كان قائماً على قلبه بِنَفْيِ ذلك خوفا من الله عز وجل.

فإن رأى قلبه أنه قد كان أغفل ذلك، علم أن الغِرَّة كانت عليه مستحكمة، قد علَّق قلبه بأعلى الدرجات فيما يرى، واشتغل عمّا هو أولى به منها، ثم لم يخلّصها أيضاً مع ما اشتغل بها عما هو أولى به منها، فحق الله عز وجل كان عنده مضيَّعا، وعمله لا يأمن أن يكون عند الله عز وجل محبَطاً، وقد كان يرى أنه قد منّ عليه بالزهد أو ببعض الزهد، ولعل غذاءه الذي كان يتقلل منه حرام أو شبهه، قد كان أولى به تركه كله للورع، فهو آخذ للقليل الذي [كان] ينبغي له أن يتركه ورعاً، وهو يرى [أنه] يأخذ القوت، ويقدم الفضل زهدا في الدنيا ورفضا لها.

فإذا تبيَّن له ذلك زالت عنه بإذن الله عز وجل غرته، واهتمَّ بالتقوى وإخلاص العمل لربه عز وجل.

وكيف لا تزول عنه غرته بعد معرفته بنفسه، وقد كان يعدّها من قبل معرفتها أنه قد جاز [1] أهل الورع، وهو عنهم منقطع، لأنه لم يكُ يأتي عليه يوم من أيامه إلا الله

---

(١) أي: ارتفع عنهم وزاد عليهم.

عز وجل مطلع فيه على ما يكنّ في صدره، مما كره مولاه ونهى عنه، من الرياء وغيره.

وكذلك جوارحه، قلَّ يوم إلا وقد يكون من بعضها ما يكره مولاه فإن سلمتْ جوارحه لم يكد يسلم قلبه، فلا يقيم على الغرة بعد هذه المعرفة عاقل من ربِّه عز وجل.

وأما المغتر بترك الأعمال، والخروج بغير زاد، فإن نظر بصحَّة النظر لِطَلَبِ الاتباع للأئمة الراشدين، وحذراً من خوف المحدثات، فلم يعرف أحداً من السابقين سبقه إلى ذلك.

وتدبَّر الآثارَ فإذا هي تحض على ترك ما تديّن به من [ترك] العمل و[تحث على] حمل الزاد، و[تقرر] أن الفضل في العمل وحمل الزاد على اليقين بأن الأرزاق إلى الله عز وجل، ولا رازق إلا الله عز وجل، اتباعا للنبي ﷺ ولأئمة الهدى وقطع عن النفس خطراتها إلى طمع المخلوقين، وأن يكون هو المأجور في نفسه بما يغذوها به دون غيره، فيكون له ذلك الأجر الذي يُؤجر فيه غيره، فإذا علم ذلك علم أنه كان لطريق الصالحين وأئمة العبّاد في تديُّنه وقوله مخالفاً.

وأيضاً أن لو كان ذلك جائزا نظر، هل أحكم ما سواه من التقوى في باطنه وجوارحه ومطعمه وملبسه؟

وكيف كان إخلاصه فيما كان يظهر من توكُّله؟.

فإذا عرف أنه كان على مخالفة الاتباع، وأنه مع ذلك قد كان مضيِّعاً لكثير من حقوق الله في باطنه وجوارحه، زالت عنه غرته، واتبع واهتمَّ لما هو أولى به، فإن كان متّقيا في باطنه وظاهره من قبل، علم أنه كان على حال قد كان [فيها] مغتراً بما كان يتديَّن به من قوله، إذ لا يعرف له إماماً سبقه إلى قوله، وإذ الآثار تدل على خلاف قوله.

وكذلك جميع الفرق من المتقشفين على غير الصدق ولا التقوى، فعلى نحو من ذلك التفقُّد لأنفسها، حتى تعرف غرتها، فتخاف الله عز وجل بما هو أولى بها.

باب الغرة بالورع في المطعم والملبس
دون سائر الأشياء في أعماله الباطنة والظاهرة

ومنهم فرقة لا ترى أنه يجب عليها من الورع في زمانها إلا الورع في غذائها من المطعم والملبس.

فلما نظرت وحملت أنفسها عليه، ظنت أنها إذا بلغت أصعب الدرجات من الورع وأعزها في زمانها، قد أحكمت التقوى وقامت به، فعُمِّي ببعض الورع أكثر الورع عليها في قلوبها وجوارحها.

قلت: فبِمَ تنفي ذلك؟

قال: أن تعلم أن الله عز وجل لم يرض منه بالحلال وحده، وأنه قد يعذب من طاب مطعمه إذا لم يخف الله عز وجل في غير ذلك، وأنه قد يغضب مما يقول أو يُضمر أو يستمع إليه أو يخطو أو يبطش.

فإذا عرفَت ذلك زالت عنها غرتها.

باب الغرة بالعزلة والفرار من الناس

وفرقة قد غلب عليها الاستيحاش من النار والخلوة، وهي مع ذلك تتصنَّع بفرارها، وتحب أن تشتهر به، وترتاح قلوبها بذكر العباد لذلك منها، مع تكبُّر على العامة، وعجب بأعمالها، قد عُمِّي عليها أكثر ذنوبها، عدّت أنفسها أنها أنيسةً بالله عز وجل، مستوحشة من خلقه.

قلت: فبِمَ تنفي غرتها بذلك؟

قال: تتفكَّر في عظيم حق الله عز وجل، وواجب طاعته، وكثرة عدد ما يلزمها من مجانبة ما كره ربها عز وجل ونهى عنه في ظاهرها وباطنها، هل أحصت ذلك كله، حتى لم تضيِّع لله عز وجل حقا، ولم تركب نهيا مما نهى الله عز وجل عنه.

فإذا تفكر أحدهم في ذلك علم أنه يقيم بحقوق الله عز وجل كلها في طول عمره، ولم يسلم مما كره أن يأتيه بجارحة أو بقلب، وأن القليل من عمله الذي يغترّ به تعتوره الآفات التي تفسده أو تحبطه، من الرياء والعجب، والكبر والحسد وسوء الغذاء [1]، أو بعض ما يمقت الله عز وجل عليه فيحبط به العمل من تضييع الفرض، وإتيان ما نهى الله عز وجل عنه.

وقد تهدد بذلك المؤمنين من عباده فقال: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُم فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾** إلى قوله: **﴿أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُون﴾** [2].

فتهددهم بحبط أعمالهم إن جهروا بالقول للنبي ﷺ، حتى كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يكلمه فيستعيده الحديث مراراً، ما يفهم عنه النبي ﷺ، وقال: «والذي بعثك بالحقّ لا أُكملك إلا كأخي السرار» وهو صدّيق الأمة، خوفاً مما تهدد الله عز وجل به.

فمن يأمن حَبط عمله بعد قوله ذلك لخير الخلق بعد النبي ﷺ، وتهدُّدِه إياهم بهذا؟

وقال النبي ﷺ: «إن الله طيب لا يقبل إلا الطيب» [3].
وقال: «من ترك صلاة العصر حبط عمله» [4].
فمن يأمن أن يحبط عمله بتضييع بعض ما أوجب الله عز وجل وافترضه.
وروي عن ابن عباس: «لا تُقبل صلاة من رجل في بطنه لقمة من حرام» [5].

---

(١) يقصد: الحرام أو الشبهات في الغذاء.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ٢.

(٣) أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ٦٥ من كتاب الزكاة. والترمذي في سننه، سورة ٢، ٣٦ من كتاب التفسير، والباب ٤١ من كتاب الأدب. والدارمي في مسنده، الباب التاسع من كتاب الرقاق. ومسند أحمد بن حنبل ٣٢٨/٢.

(٤) أخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ١٥، ٣٤ من كتاب المواقيت. والنسائي في سننه، الباب ١٥ من كتاب الصلاة، وأحمد بن حنبل في المسند ٣٤٩/٥، ٣٥٠، ٣٥٧، ٣٦٠، ٤٤٢/٦.

(٥) أخرجه أحمد في الزهد وفيه اختلاف في اللفظ.

وروي عن ابن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: « من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم من حرام لم تقبل منه صلاة حتى يضعه عنه »[1].

فأيّ مال ينجو في زماننا من أن يخالطه الحرام؟

فلو سلم عمله القليل من الآفات التي تفسده، لم يأمن أن يكون قد عمل عملا قد يغضب الله عز وجل عليه به، فأحبط علمه، أو أحبط بعض ما مضى من عمله وإن لم يغضب الله عز وجل عليه. هذا لو سلم من الآفات التي تفسد ببعضها، كالرياء الذي لا يقبل الله عز وجل الأعمال إذا كان فيها.

بالكتاب والسنة ثبت ذلك عند أهل العلم والمعرفة: أن الرياء محبط للعمل إذا اعتقد [ه] عامله، أو العجب كما جاء: أن صلاة المدل لا ترتفع فوق رأسه، أو كالحسد الذي جاء (فيه)[2]: « إن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »[3].

فحقوق الله عز وجل عظيمة، والطاعة واجبة، والمعاصي في الظاهر والباطن كثيرة، [و] التي لا يكاد يسلم منها، والقليل من عمله تعتوره الآفات التي تخالطه فتفسده.

وبتضييع بعض الحقوق الواجبة لا يأمن العبد في تضييعه إياها أن يحبط عمله. ولو خلص من الآفات وسلم من الذنوب، ولم يضيِّع حقا، ولا ركب نهياً، ولا غفل غفلة يخاف الزلل منها وهو لا يشعر - وذلك يكاد يستحيل من مثلنا - لكان في عظيم ما يطلب من النجاة من العذاب، والفوز بجوار الرحمن عز وجل عمله يسيراً حقيراً في جنب ذلك، ما لا يقوم عمله بشكر بعض نعم الدنيا دون نعم الدين، فعمله صغير عندما أنعم الله عز وجل عليه، وعندما يطلب.

ولو أن أهل السموات وأهل الأرضين سخّرَهم الله عز وجل له، فدأبوا واجتهدوا

---

(١) أخرجه: أحمد في مسنده من حديث ابن عمر بسند فيه مجهول، ولفظه: « إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام ».

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) أخرجه: إبن ماجه في سننه، الباب ٢٢ من كتاب الزهد. وأبو داود في سننه، الباب ٤٤ من كتاب الأدب.

له، لكانت النجاة من عذاب الله عز وجل أعظم وأكبر من عملهم له، وكذلك الحلول في جوار الله عز وجل. فكيف بعمله الضعيف مع كثرة الزلل والخطأ، وغلبة الغفلة والنسيان عليه في طول عمره، مع أنه لا يأمن من الآيات التي تفسد عمله عليه، فلذلك أشفق أوّلونا رحمهم الله.

فالرياء لا يُشَكُّ أن الله عز وجل لا يقبل العمل إذا اعتقده عامله.

وأما العجب وما سواه فأخاف أن يحبط الله عز وجل به الأعمال، ولا أقطع به.

ولتعرض هذه الفرقة وجلها وشفقتها على وجل السابقين: أين وجلهم منه؟

باب الغرة بالغزو والحج

وقيام الليل وصيام النهار

ومنهم فرقة اغترت بالغزو والحج وقيام الليل وصيام النهار، فقد خُيِّل إلى أحدهم أنه من عمال الله عز وجل، والمشتغلين به والذابِّين عن محارمه.

فقد عُمي على أحدهم ذنبه، فهو غير مصحح لمطعمه وملبسه من الشبهات وغير ذلك، وجوارحُه منتشرة عليه في أكثر عمره فيما يكره ربه عز وجل، وهو غير متفقّد لنفسه، لا يخيّل إليه أنه ينبغي لمثله أن يتفقد نفسه، وإن علم منها ببعض التفريط هان عليه لما عنده من العبادة والعلم والغزو والحج.

وهو مع ذلك غير متفقِّد للإخلاص فيما يعمل، ولا عارف به دون تفقده.

قلت: فَبِمَ تنفي ذلك؟

قال: بتفقدِها أنفسها، حتى تعرف أنها كانت مشتغلة بالنوافل عن واجب الحق، والقيام بالفرض.

فإذا تفقد ذلك أحدهم من نفسه، علم أنه كان يعَدُّ نفسه ممن جاز التقوى، وعلا في درجات النوافل، يخيل إليه أنه لا يعذب مثله، وأنه [من] خاصة الله عز وجل من خلقه هو ومن كان مثله، وقد كان مع ذلك مضيِّعاً للخوف من الله عز وجل فيما

أوجب ونهى عنه، فحينئذ يهتم بالتقوى، ويزداد إن قدر على ما كان يعمل، رجاء أن يكفِّرَ ما مضى من التضييع لحق الله عز وجل والتصنُّع بعمله.

باب الغرة ممن أمَّ التقوى

وأحسن التفقد لظاهره وداخله

ومنهم فرقة أهل بصر ونظر وتفقُّد لجوارحها، ولكثير من خطرات قلوبها، يَؤُمُّون التقوى ويريدونها، ولا يحبّون أن يبدوا بشيء من الأعمال غيرها.

فهم مع ما خصّوا به من بين العابدين في زمانهم يغترّون بها، قد زايلهم الوجل والإشفاق، يخيّل إلى أحدهم أن العذاب إنما يرفع عن العباد به، ويدعو الله عز وجل والغالب عليه أنه مستحق للإجابة، غير وجل ولا مشفق أن يكون من أعداء الله، لبعض ما سلف منه، أو لبعض ما يكون منه في ضميره وجوارحه، أو بأمر يختم له به، فيشقى فيموت وهو عدو لله عز وجل على شر أحواله.

قلت: فكيف يغترّون وهم معتقدون للتقوى ويطلبونها ويؤمّونها؟

قال: أعجبوا بتفقدهم فظنوا أنهم ناجون، واستصغروا من سواهم لمعرفتهم بتضييع العباد لحق الله عز وجل في زمانهم.

قلت: فكيف تنفي غرتها بذلك؟

قال: تعرض وجلها وشفقتها على وجل السابقين، فتنظر أين وجلها من وجلهم، فإنها تجدهم قد تمنوا ـ مع ما قد قاموا به لله عز وجل مما لم يأت بأقل القليل منه ـ أنهم كانوا بهائم، إعظاماً للأمر وخوفاً من الرب عز وجل.

وبذلك وصفهم الله عز وجل فقال: ﴿**يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ**﴾[1].

فليتفكروا ويتذكروا أيّ رب يعبدون، وأي ثواب يطلبون، ومن أي عذاب

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

يهربون، وما بين أيديهم من الأهوال وعظيم الخطر، وما أحصى عليهم من الذنوب وسابق علم الله عز وجل فيهم.

فإنهم إذا تفكروا في ذلك كانوا ـ مع معرفتهم بتضييع العباد لحق الله عز وجل في زمانهم، وبما من الله عز وجل عليهم من الطاعات والتقوى ـ يرون أنهم شر أهل زمانهم.

كما روي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: «لا يبلغ عَبْدٌ حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في ذات الله عز وجل، ثم يرجع إلى نفسه فتكون عنده أحقر حاقر».

وكيف لا يكون كذلك والرب جل جلاله لا يؤدَّي حقه، ولا يُبْلَغُ قدر عظمته، ولا تحصى نعمه، وعذابه عذاب لا يقام له به، وثوابه ثواب لا صبر عن دونه، حتى لو أن أحدهم كُشف له عن عبادات الملائكة، لعلم أنهم مقصرون عما يحقُّ لله عز وجل وعلى قدر يوم القيامة بأهواله وزلازله وشدائده، فكيف بضعيف عمل أحدهم؟

فحينئذ تزول عنهم غرتهم، ويغلب على قلوبهم مع إحسانهم الشفق والوجل، والحزن والحذر، وترك الطمأنينة والسكون إلى شيء من أعمالهم.

إنما يرجون الله عز وجل وتجاوزه، وإن لم يفعل ذلك بهم عطبوا، إذ لله عز وجل، الفضل عليهم على كل حال، وأنه قد كان منهم ما قد استوجبوا به العذاب.

وإذ هم لا يشهدون لأنفسهم بالسلامة في أعمالهم، لما يجدون من كثرة منازعة أنفسهم إلى ما يفسد أعمالهم، ولما يعرفون من كثرة غفلاتهم، خوفاً من إحصاء الله عز وجل عليهم ما قد كانوا عنه يغفلون، وإياه ينسون.

فيبدو لهم ما لم يكونوا يحتسبون، كما وصف الله عز وجل به المغترين.

قيل في التفسير: أعمال كانوا يرون أنها خير صارت شراً.

فبذلك ونحوه ينفون الغرَّة بأعمالهم.

باب الغرة بتقديم العزوم بإخلاص الأعمال
والعزم على الرضى والتوكل ومجانبة دناءة الأخلاق

ومنهم فرقة الغالب منها تقديم العزوم لله سبحانه بإخلاص العمل له في كل ما تعمل، والعزم على الرضا والتوكُّل، وما أشبه ذلك، وترك الكبر والعجب وسوء الظن والكذب والغضب، وإشفاء الغيظ بما لا يحل.

فلما سخت انفسها بالعزم على ذلك ونحوه، عدّت أنفسها من أهله، والقائمين لله عز وجل به، بعزمها على الإخلاص، فإذا عرض العمل سهت وغفلت فراءت، وكذلك سائر ما كره الله عز وجل، إلا القليل من ذلك تنتبه له فتدعه.

غرتْها عزومها، فحكمت لأنفسها بذلك، فلم تتفقد أنفسها عند ذلك، ولم تتهمها عند تضييعه، إذ رأتها قد سخت بالعزم على ذلك، فلم تف بما عزمت عليه، ولم تصدق في أكثر ما عاهدت، غفلة وسهواً.

قلت: فبِـمَ تنفي غرَّتها بذلك؟

قال: بمعرفتها ان العزم على العمل ليس بالعمل، وأن العزم على العمل أقل مؤنة على النفس من العمل، لأن العزم لا تعب فيه ولا مؤنة على النفس، ولا ترك لذة بعد مقدرة عليها، أن النفس قد تعزم ثم تضيع العمل، كراهة تحمّل المؤنة والتعب، وقد تعزم على ترك اللذة ثم تواقعها عند الظفر، لأن المحنة عند المقدرة أشد على النفس، لأن شهوتها تهيج إذا أحَسَّت بلدتها ومحبَّتها[١] وظفرت بها.

---

(١) من هنا يظهر ان النفس تهيج وتنعقد على حب اللذة والراحة إذا احست بها، وهذا الإحساس ناشيء عن الفكرة المعروفة عند الصوفية بالخواطر الملازمة، وقد ألح المحاسبي في محاولاته النفسية على فكرة نفي الخواطر ومقاومتها، وعدم الركون إليها. وأكد الصوفية من بعده وأخصهم العلامة سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري ان الاستمرار مع الخاطر بما يساوي دقيقة من الزمان يكون عقدة النفس على حب اللذة.

انظر (العرائس القدسية المفصحة عن الدسائس النفسية) خط بدار الكتب المصرية ففيه متفرقات في الموضوع.

فإذا علمت ان ذلك كذلك، لم تحكم لأنفسها بذلك دون الوفاء لله عز وجل بالعمل بما أوجب، والترك لما كره، وأن العزم المتقدم طاعة منها، وإنما يكون العازم عليها من أهلها إذا قام لله عز وجل بها كما عزم، فلا يحكم لنفسه احد منهم بالحلم إلا عند الغضب، لأن العزم الأول على الحلم نيّة أن يحلم [هو] لا حِلم، ولا (العزم على)(١) الإخلاص إلا في العمل، لأن العزم الأول على الإخلاص نية الإخلاص إذا عمل عملا ان يخلصه، لا إخلاص في [أثناء] العمل.

وكذلك جميع الأعمال التي تقدم العزم عليها، إلا ما كان من أعمال القلوب التي ليس فيها للجوارح عمل، كاعتقاد السنة والتدين بها، وما أشبه ذلك.

فأما العزم على العمل فلا يغتر به، فيغفل عن نفسه، فيضيع العمل، ويركن إلى ما عزم على تركه دون ان يتفقد نفسه، ويأخذها بالوفاء بما عزمت عليه.

وبذلك وصف الله عز وجل أولياءه فقال: ﴿**رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ**﴾(٢).

باب الغرة بطول ستر الله تعالى وإمهاله للعبد

ومنهم فرقة اغترّت بطول ستر الله عز وجل عليها، وإمهاله لها، فلما دام لها الستر فلم يظهر للعامّة منها إلا خير، وأثنت عليها وعظمتها، [فـ] ـاغترّت بذلك، وظنّت أن ذلك لم يكن إلا ولها عند الله عز وجل منزلة عظيمة، وأنه محب لها، وهي مع ذلك كثير تخليطها، كثيرة التصنُّع للعباد، ولا تعرى من العجب بعملها والكبر على من دونها، قليلة الفطنة لكثير ذنوبها، قليلة الوجل والإشفاق، لما رأت من الستر وحب الإخوان، وثناء العوام.

فاغترّت وظن انها ناجية، وأن الله عز وجل عنها راضٍ، وأنه لو كان سخط عليها

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٢٣.

بما أسلفت من الذنوب لما ستر عليها، ولا حبّبها إلى كثير من الناس، ولا نشر لها الثناء، فهي مغترة بذلك غير متفقِّدة لأنفسها، ولا تكاد تظن بها أكثر ذنوبها، قليل خوفها وحذرها.

قلت: فبِم ينفي أحدهم ذلك؟

قال: بمعرفته بنفسه وأن الستر عليه حجة من الله عز وجل عليه، ليُعلمه أنه لم يُعجل عليه ولم يهتك ستره، ليستحي من ربه عز وجل، الذي ستر قبيحه، وأظهر له من الجميل ما لم يعمله.

فالستر عليه حجة من الله عز وجل، ليس بغرّة، وثناء الناس إنما كان لستر الله عز وجل عليه، ولو أظهر الله عز وجل لهم ما يعلم منه لأبغضوه ومقتوه، وهو لا يحب ان يعلموا منه ما يعلم الله عز وجل منه من ذنوبه فيمقتوه، والله عز وجل اولى ان يخافه ان يكون قد مقته بما سلف من ذنوبه، أو قد مقته ببعض ما هو عليه مقيم.

وإنما أثنى الناس عليه لستر الله عز وجل عليه، ولو علموا منه ما علم الله عز وجل منه ما أثنوا عليه، فثناؤهم عليه طاعة منهم لربهم عز وجل بحسن ظنهم به، فهو لا يغره ظنهم على غير يقين منهم بما عنده، حتى ينسيه ما يعلمه يقينا ان الله عز وجل يعلمه منه، فلا ينسى اليقين من نفسه لظن الناس به خلاف ما هو عليه، وذلك عبادة منهم لربهم عز وجل، وحسن ظن منهم به.

فكيف يخيّل إليه ويرى انه كما يقولون، وهو عالم من نفسه خلاف ما يظنّون؟ كما قال عليّ عليه السلام إذ أثنى الناس عليه او كما قال غيره:

«اللهم انت تعلم وهم لا يعلمون، فلا تؤاخذني بما يقولون».

ومرّ مطرّف وابن عون[1] برجل، فقال الرجل: من احب ان ينظر إلى رجلين من أهل الجنة فلينظر إلى هذين، فقالا: اللهم انت تعرفنا ولا يعرفنا، اي إنه يتكلم بالظن على غير علم، وأنت عالم.

---

(١) في ط: ابن أون، ولم نعلم له أصلا.

وكان أبو البختري الطائي وأصحابه إذا أثنى على أحدهم، وضع شقّه نحو الأرض وقال: تواضعت لربي، إني أذلُّ ان اكون كما يقولون، تواضعاً لله عز وجل ان يرى أن له قدراً بما سمع من ثنائهم عليه، فلا ينسيه ظنُّهم يقينه بنفسه.

ومع ذلك لا يأمن أن يكون ثناؤهم عليه استدراجا من الله عز وجل، ليغتر بالثناء، ويستأنس الى الستر والإهمال، ثم يأخذه بغتة بعقوبة، أو يهتك ستره عنه، أو يموت على ذنبه ولم يتب منه، فلا يأمن ذلك، إذ علم أنه على خلاف ما يثنون عليه.

كما يروى عن ابي تميمة الهجيمي انه قيل له: كيف اصبحت؟ قال: بين ذنب والله ما أدري ما فعل فيه، أغفره وعفى عنه، أو غضب علي من أجله؟ وثناء من هؤلاء الناس، والله ما أستأهله ولا أنا كذلك.

لا يأمن ان يكون استدراجاً من ربه عز وجل إذ علم من نفسه خلاف ما يثنون عليه به، والله عز وجل يعلم خلاف ما يقولون فيه، فهو لا يأمن مقته على ما يعلم أنهم لو علموا به لمقتوه وأبغضوه عليه.

فلا يعد الستر إلا توكيداً للحجة عليه، واستدراجاً له.

فبذلك ينفي الغرة بستر الله عز وجل وإمهاله له، وثناء العباد عليه.

كتاب الحسد

باب في ذكر الحسد ووصفه

وتفسير محرمه من مباحه

قلت: ما الحسد؟ وما الدليل عليه من العلم؟

قال: إن الحسد في الكتاب والسنّة على وجهين، وهما موجودان في اللغة.

فأحدهما غير محرم، فبعضه فرض، وبعضه فضل، وبعضه مباح، وبعضه يخرج إلى النقص والحرام.

وأما الوجه الآخر فمحرم كله، ولا يخرج إلا إلى ما لا يحل.

قلت: فما الحسد الذي ليس بمحرم؟

قال: المنافسة.

قلت: ما الدليل على أن المنافسة حسد؟

قال: قول الله عز وجل: **﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾** (١).

وقال تعالى: **﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** (٢).

وقال: **﴿وسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾** (٣).

ولا تكون المسابقة من العبد إلا أن يسابق غيره.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٢٦.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٢١.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٣٣.

وقال علي عليه السلام وذكر العامل لله عز وجل، فقال: « ويباهي العباد بعبادة ربه ». يعني ينافسهم ويسابقهم، كما يرى العبدين من عبيد أهل الدنيا يتباهيان عند مولاهما أي لا يخطىء أحدهما قبل الآخر، جزعاً ان يسبقه إلى محبة مولاه ويقصر هو عنها، فتكون منزلته عند مولاه احسن من منزلة الآخر، نفاسة ان يسبقه إلى الحظوة عند مولاه، ولا ينال هو الحظوة معه عند مولاه، كما نالها هو عند مولاه.

وقال النبي ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين »[1] فنهى عن الحسد وأخبر أنه لا يجوز عند الله عز وجل إلا فيهما، فقوله: إلا اثنتين، أي: الحسد فيهما جائز.

وقال النبي ﷺ: « لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله عز وجل، مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله، عز وجل، علماً فهو يعمل به ويعلمه الناس »[2].

ثم فسر في حديث آخر لأبي كبشة الأنصاري عنه كيف ذلك الحسد؟ فقال ﷺ: « مثل هذه الأمة مثل أربعة: رجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً، ورجل آتاه الله عز وجل علماً ولم يؤته مالا، فيقول ربُّ العلم: لو ان لي مثل مال فلان كنت اعمل فيه بمثل عمله، فهما في الأجر سواء، ويقول رب المال لو ان لي مثل علم فلان كنت اعمل فيه بمثل عمله »[3].

فذلك هو الحسد الذي هو منافسة، أحب ان يلحق به، وغمه ان يكون دونه، ولم يحب له شراً.

وقد تُسمى العربُ الحسد المحرم منافسة، لأنهما جميعاً في اللغة حسد، فيقول الرجل للرجل: نفست علي، أي: حسدتني.

وقال قثم بن العباس والمطلب بن ربيعة لما أرادا أن يأتيا النبي ﷺ فيسألاه ان

---

(١) اخرجه: البخاري في صحيحه، الباب ٥ من كتاب التمني، والباب ٤٥ من كتاب التوحيد.

(٢) الحديث السابق.

(٣) اخرجه: ابن ماجه من حديث أبي كبشة الأنصاري بسند جيد، ورواه الترمذي بزيادة، وقال: حسن صحيح.

يؤمرهما على الصدقة لعلي رضي الله عنه حين قال لهما لا تذهبا إليه فإنه لا يؤمر كما عليها، فقالا: ما ذاك إلا نفاسة منك، والله لقد زوجك ابنته فما نفسنا ذلك عليك، أي هذا منك حسد، وما حسدناك على تزويجك فاطمة.

قلت: ففسر لي هذا الحسد الذي هو منافسة تفسيراً تميز به بينه وبين الحسد المحرم.

قال: هو أن يرى بغيره نعمة في دين او دنيا، فيغتم ألا يكون انعم الله عليه بمثل تلك النعمة، فيجب ان يلحق به ويكون مثله، لا يغتم من أجل المنعم عليه نفاسة منه عليه، ولكن غما الا يكون مثله.

فهذا الحسد الذي هو منافسة.

فإن كان الذي رأى بغيره من النعم قياما بفرض الله، عز وجل، وانتهاء[1] عما حرم الله عز وجل، فحسد على ذلك، وأحب ان يكون مثله، وتمنى ذلك، وسأل الله عز وجل ذلك، كان ذلك عليه فرضاً واجباً ان يحاسده على ذلك، ليؤدي فرض الله تعالى، لأنه إن لم يغتم ويحزن بتخلفه عمن قام بفرض الله عز وجل عليه، واجتناب[2] ما نهى عنه، ولم يحب ان يكون مثله، كان عاصياً مقيماً على تضييع الفرائض، وركوب المحارم، ولا يغتم، بتركها، ولا يحب أن يطيع الله عز وجل، كما أطاعه الورعون في القيام بحقه.

وإن كان ما رأى بغيره من نعم الدين فضلا وتطوعاً فاغتم ان يقصر عن منزلته، وأحب ان يلحق به، ويكون مثله، فذلك فضل منه وتطوع إذ أحب ان يتقرب إلى الله عز وجل، كما تقرب غيره، واغتم ان يقصر عن القربة إلى الله عز وجل بما يحب من طاعته.

وإن كان ما رأى بغيره من النعم مباحاً له فيما يتقلب فيه من لذته ونعيمه بالفضول فيما أحل له، فاغتم الا يكون له مثله، واحب ان يلحقه به، فيوسع عليه كما

(١) في ط: وانتهى.
(٢) في ط: واجتنب.

وسع على من نافسه، وأن يلحق به فيكون متنعما مثله، فذلك مباح له، وليس بمحرم عليه، إلا انه نقص من الفضل ومن الزهد، إلا ان يخرج إلى السخط على الله عز وجل، فيكون السخط على الله عز وجل لا يحل له؛ لا أن السخط منافسة، لأنه يحب السعة والتنعم بحلال الله، عز وجل، وليس محبته تلك بسخط، وإن كانت محبته نقصاً من الفضل.

وإن كان ما يرى من غيره محرما لا يحل له كاكتساب الحرام، وإنفاقه المال فيما لا يحل له[1]، والعمل بالمعاصي في التلذذ بها، فاغتم ألا يكون مثله، وأحب ان يكون مثله، ويصيب من المال واللذة مثل ما أصاب من ذلك، فذلك منه لا يجوز له.

ولم يحسده الحسد المحرم من قبل الغش له، ولكن حسده حسد منافسة في الحرام الذي لو كان ما نافسه فيه حلالا او طاعة لجاز ذلك الحسد له، وإنما أتى ما لا يجوز له من قبل محبته للحرام، لا من قبل أنه حسده حسداً غشاً له وحباً للشر، وكراهة الخير ان يراه به.

وإنما كان ذلك الحسد لا يجوز من قبل تمنيه للحرام ومحبته له.

وكذلك يروي أبو كبشة الأنصاري عن النبي ﷺ قال: « ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه في معاصي الله عز وجل، ورجل لم يؤته الله، عز وجل مالا فيقول: لو ان لي مثل مال فلان كنت أعمل فيه بمثل عمله، فهما في الوزر سواء »[2].

فذمه النبي ﷺ من قِبَل تمنيه الحرام، لا من قبل حسده للمسلم، غشاً له وكراهية ان يرى به خيراً من الدنيا.

فهذا احد الوجهين من الحسد، وهو كراهة التقصير عن منزلة غيره ومحبة المساواة واللحوق به، مع ترك التمني ان يزول عمن نافسه في حاله التي هو عليها.

وأما الوجه الثاني فهو المحرم كله، قد ذمه الله عز وجل، في كتابه، والرسول ﷺ

---

(١) في ط: به.

(٢) هذا تمام الحديث السابق أبي كبشة في أقسام الناس الأربعة.

في سنته، واجتمع علماء الأمة عليه.

قال الله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثيرٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إيمانِكُم كُفّاراً حَسَداً مِنْ عِنْدِ أنْفُسِهِمْ﴾[1].

وقال: ﴿أمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلَى ما آتاهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾[2].

وقال: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً﴾ إلى قوله: ﴿ومَا آخْتَلَفَ فِيهِ إلا الَّذينَ أُوتُوا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[3] قيل في التفسير: حسداً.

وقال: ﴿وَما تَفَرَّقُوا إلا مِنْ بَعْدِ مَا جاءَهُـمُ العِلْـمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ﴾[4].

فأنزل الله عز وجل العلم ليجمعهم، ويؤلف بينهم على طاعته، فأمرهم ان يجتمعوا بالعلم ويتألفوا به ولا يتفرقوا، فتحاسدوا واختلفوا وتفرقوا، حسدا بينهم، كل أراد ان يكون له الرفعة والرياسة، وألا يكون تابعاً لغيره، وأن يقبل قوله منه ويتبع، وأحب ان يزول غيره عن الرفعة، وكره رفعة المنزلة له، فردَّ بعضهم على بعض، وخالف بعضهم بعضا بغياً، كما قال الله عز وجل، فتركوا الحقَّ وعاندوه حسداً بينهم.

قال ابن عباس: كانت اليهود قبل ان يبعث النبي ﷺ إذا قاتلوا قوماً قالوا: نسألك بالنبي الذي وعدتنا ان ترسله، وبالكتاب الذي تنزله إلا ما نصرتنا، فكانوا ينصرون، فلما جاء النبي ﷺ من ولد إسماعيل وعرفوه كفروا به[1]، بعد معرفتهم به انه الذي كانوا يستنصرون الله عز وجل به فقال الله عز وجل:

﴿وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كفرُوا، فلَـمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُـوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الكَافِرِينَ* بِئْسَ مَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ الله بَغْياً﴾[2] أي حسداً بينهم.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ٥٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.
(٤) سورة الشورى، الآية: ١٤.
(٥) في أسباب النزول للواحدي أن كفر علمائهم كان بسبب مأكلة كانت لهم عند عامتهم، فخافوا أن تذهب المأكلة فوافقوهم، ويمكن أن يجتمع السببان فيهم.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٨٩، ٩٠.

وقالت صفية بنت حيي للنبي ﷺ: «جاء أبي وعمي يوماً من عندك، فقال أبي لعمي:

ما تقول فيه؟ قال:

أقول: إنه النبي الذي بشر به موسى.

قال: فما ترى؟

قال: أرى معاداته أيام الحياة».

وبذلك وصفهم الله عز وجل أنهم على علم كفروا به.

قال: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾ (١).

وقال: ﴿يَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وروى وهب بن منبه: أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام: «الحاسد عدو لنعمتي، رادّ لقضائي، ساخط لرزقي الذي قسمت لعبادي، غير ناصح لهم».

وأما السنة في ذلك فإن النبي ﷺ قال: «لا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا» (٣) يرويه عنه عبد الله بن عمر وأبو هريرة، ثم أخبرهم أن الحسد سيكون فيهم كما كان في الأمم من قبلهم، فقال النبي ﷺ:

«دب إليكم داء الأمم: الحسدُ والبغضاء» (٤).

فأخبر أنه سيكون فيهم من الحسد ما كان في الأمم، وأنه داء الأمم من قبلهم وأنهم منه أتوا، وبه هَلكوا، ولم يزل ذلك في الكافرين ممن مضى، وفي بعض المؤمنين.

وقد روي عن الحسن أنه قيل له: أيكون المؤمن حسوداً.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٤٦.

(٣) أخرجه: مسلم في صحيحه، حديث ٢٤، ٢٨، ٣٠، ٣٢ من كتاب البر. والبخاري في صحيحه، الباب ٥ من كتاب الدعاء. ومالك في الموطأ، حديث ١٤، ١٥ من كتاب حسن الخلق. وأحمد بن حنبل في مسنده ٣/١، ٥، ٧، ٢٧٧/٢، ٢٨٨، ٣١٢، ٣٦٠، ٣٩٤، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٨٠، ٤٩٢، ٥٠١، ٥١٢، ٥١٧، ٥٣٩، ١١٠/٣، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٩، ٢٢٥، ٢٧٧، ٣٨٣.

(٤) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٥٦ من كتاب القيامة. وأحمد بن حنبل في المسند ١٦٥/١، ١٦٧.

قال: لا أبالك، ما أنساك بني يعقوب فعلوا بأخيهم ما فعلوا.
وقال أبو قلابة: ما قتلوا عثمان رضي الله عنه إلا حسداً.

وروى الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة في المؤمن» فذكر إحداهن الحسد.

والحسد المحرم الذي ذمه الله، عز وجل في كتابه، والرسول ﷺ في سنته. كراهة النعم أن تكون بالعباد، ومحبة زوالها.

قلت: وكيف ذلك؟

قال: أن يكون العبد إذا رأى بعبد مسلم نعمة في دين أو دنيا، أو بلغه أنها به كرهها وساءته وأحب زوالها عنه.

ومما بين ذلك: قول الله عز وجل: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسداً مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ﴾[1].

فأخبر أنهم يودُّون أن تزول نعمة الإيمان عن المؤمنين.
وقال: ﴿إنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[2].
قال ابن عباس: هذا في غزوة تبوك.
وقيل في التفسير: هذا الحاسد.
﴿وإنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِها﴾[3].
قيل: هذا الشامت.

وقال: ﴿مَا يَوَدُّ الّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُم﴾[4].

وقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاء﴾[5].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.
(٥) سورة النساء، الآية: ٨٩.

ثم أخبرك عن إخوة يوسف حين حسدوا فعبَّرُوا بألسنتهم عما في قلوبهم من حسده، فقالوا: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ، إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ، أُقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُم وَجْهُ أَبِيكُم وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾[1].

فكرهوا خصوصية أبيه له بالحب من بينهم، وأرادوا أن يزيلوا حب أبيه له، وبرّه به، وتفضيله إياه عليهم، بأن يغيبوه عنه، فيقبل بالحبّ عليهم والبر، ويزول ذلك عن يوسف، فقالوا: «يخل لكم وجه أبيكم» ليكون لهم إذا غاب حسدا له على حب أبيه وبرّه وتفضيله إياه.

وقول أبي قِلابة: ما قتلوا عثمان إلا حسدا، أي حسدوه على الخلافة فأحبوا أن يزيلوها عنه.

وقال الله عز وجل، حين ذكر الأنصار: ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا﴾[2].

أي: لا تضيق صدورهم، ولا يغتمون بما أوتوا من خير حسدا لهم، فأثنى عليهم بذلك.

باب من الحسد وليس بالحسد بعينه

ومن الحسد وليس به بعينه، المحبة ألا يصير إلى من يحسده خير.

كما قال الله عز وجل: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُم﴾[3].

فالمحبّة بألا يصير إليه خير، وتمني البلاء له[4]، فِعْلٌ من العبد يكون عن الحسد، فإن طلب علما لم يحب أن يتم له، وكذلك إن طلب خيرا منه خير الدنيا والآخرة لم

(١) سورة يوسف، الآية: ٨.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.

(٤) في ط: والتمني له البلا.

يجب أن يتم له من ذلك شيء، وذلك قبل نزول النعم بالعبد.

وأما الحسد: فكراهة النعم وحب زوالها، بعدما يمنّ (الله)[1] بالنعم على العبد، فيعلم الحاسد بالنعم عليه من الله عز وجل، فيغتم لها حينئذ، ويحب زوالها.

قلت: فأخبرني عن الحسد الذي هو منافسة، مم يكون؟

قال: ما كان في الدنيا فمن حب طاعة الله عز وجل، والعزم على القيام بها لو أعطي أسبابها التي بها تنال، وما كان من دنيا فمن حبه الدنيا، وحب سعتها، والتنعم بها.

قلت: فمم يكون الحسد المحرم؟

قال: يكون من الكبر والعجب، والحقد والعداوة[2] والبغضاء والرياء وحب المنزلة والرياسة أن يعلوه غيره، وشح النفس بالخير غما[3] يجده العبد على قلبه إذا رأى النعم بغيره في كثير من الناس من قرابته أو أشكاله أو أمثاله وغيرهم ممن هو مثله وفوقه ودونه لا تسخو نفسه بالخير لهم.

قلت: فبين لي ذلك كله.

قال: أما ما كان من الكبر فإنه يأنف أن يعلوه من كان دونه أو يساويه، أو يعلوه من هو مثله في دين أو دنيا، كما قالت قريش: غلام يتيم.

وقالوا: ﴿**لَوْلاَ نُزِّلَ هٰذا القُرْآنُ على رَجُلٍ مِنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ**﴾[4].

وقال الله تعالى يصف كفار قريش: ﴿**لِيَقُولُوا أَهَؤُلاَءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا**﴾[5].

---

(١) ما بين المعقوفتين: سقطت من ط.

(٢) في ط: للعداوة.

(٣) في ط: عما يجده، بالعين المهملة، وفي أ: مما يجده.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٥٣.

فإذا أنف منه وازدراه ورّثه ذلك الحسد له، فأحب أن تزول عنه نعمة الله عز وجل، غمًّا أن يراها بمن لا يستأهلها عنده، وأنفا أن يكون مَنْ دونه مثله أو فوقه.

فيحب لذلك أن تزول عنه النعمة التي فضل بها، لئلا يصير إلى المنزلة التي يعلوه بها أو يساويه حقرية له، وازدراء له، لأنه لا يستأهل عنده تلك النعمة ولا تلك المنزلة، ويحمله الحسد له أن يرد الحق حسدا أن يعلوه به فيرفعه غليه.

باب ما يكون من الحسد
على الرياسة وحب المنزلة

وأما الرياسة والمنزلة عند الناس بالعلم، فإنه يورث رد الحق وتركه على علم، كما تفرق أهل الكتاب حسداً بينهم أن يعلو بعضهم بعضاً في العلم، كل واحد منهم يحسد صاحبه (على)[1] الرياسة أن تكون له دونه.

وكذلك المنزلة عند الناس، فرد الحق أن يقبله وابتدع فقال بغير الحق، ليتبعه الناس على قول هو خلاف قول من يحسده، وخطّأه فيما يقول وإن كان حقا، وأظهر أن الحق في غيره، ليصدّ الناس عنه، ويطفىء نوره حسداً أن ترتفع منزلته، أو يخضع له فيكون عليه رئيسا.

كما كفرت علماء اليهود بالنبي ﷺ، وهم يعرفون أنه قد جاء بالحق من عند الله عز وجل، حسدا أن يرئسوه عليهم، وتذهب رئاستهم في اليهود، فيكونوا أتباعاِ بعد ما كانوا متبوعين.

وكذلك في العبادة، يكره أن يترأس بها فوقه، ويعظم عليه، فيقع العالم في العالم، والعابد في العابد، خوفا أن يترأس عليه، أو يكون فوقه، أو يعظمه الناس، ويحب أن يهتك الله ستره، وأن يعصي الله عز وجل، فيفتضح بذلك، وأن يخطىء على الله عز وجل في دينه، ويقول عليه بغير الحق، لئلا تثبت له رئاسة ولئلا تقوم له منزلة،

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

فيحب أن ينزل به كل ما فيه زوال الرئاسة عنه والتعظيم من الناس.

وكذلك في الرئاسة والمنزلة في غير العامة، يتحاسد الصاحبان في الحب والمنزلة عند من يصحبانه[1]، فيحب أحدهما أن لا يُفَضِّله عليه في عمل ولا علم، ولا يرفعه عليه، فيخَطّئه فيما يقول، ويحبّ أن يُهتك ستره عند صاحبه، ويقع فيه، وَيُفَطِّنه إلى سوء الظنون فيه، ويضع أمره لئلا يكون أحب إليه منه، وأن يكون الحب والمنزلة له عنده دون صاحبه.

وكذلك الشجاعان في الحرب يُجَبّنُ أحدهما الآخر، ويقع فيه، لئلا يعلوه في المنزلة عند من يعرفهما، فيعظم بذلك دونه، فيقع فيه حسداً، أو يُبَغِّضه إلى غيره، ويجبّنه عند اللقاء في الحروب.

باب ما يكون من الحسد

عن الحقد والعداوة والبغضاء

وأما ما كان عن الحقد والعداوة والبغضاء فهو أشد الحسد، وذلك ما وصفه الله عز وجل عن الكفار وعداوتهم وبغضهم للمؤمنين.

فقال: **﴿وَإذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا، وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأنَامِلَ مِنَ الغَيْظِ، قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُم إنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ، إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾**[2].

فأخبر أنهم مبغضون للمؤمنين، يسوءهم ما يرون بهم من نعمة حسدا لهم، لبغضهم وعداوتهم، فأخرجتهم العداوة والبغضاء إلى الحسد والشماتة، وكذلك وصف الله عز وجل قلوب المبغضين.

---

(١) كما يتحاسد المريدون المحدثون في الطريق الصوفي على حب شيخهم، وهم بهذا التحاسد يقفون عن السلوك، ويعملون بغير الله تعالى، ومن هنا قالوا: إن الشيخ قد يكون حجاباً للمريد عن المعرفة.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٩.

قال: ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾[(١)].

قال ابن جريج: يودُّون ما عنتوا في دينهم. ﴿قد بدت البغضاء من أفواههم﴾[(٢)].

وكذلك قوله: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾[(٣)].

قيل في التفسير: هو الحاسد.

﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَة يَفْرَحُوا بِهَا﴾[(٤)].

فالمبغض لا يحب أن يرى بمن يبغض نعمة عليه من الله عز وجل، ويحبُّ أن يراه بأسوأ الحال في الدين والدنيا.

فإن نزلت به نعمة ساءته وكرهها، ولو قدر أن يزيلها عنه لأزالها، فيتمنى لمن يعاديه ويبغضه البلايا، ويكره ما به من النعم، ويحب أن تزول عنه، ويفرح بما نزل به من بلاء أو ضر.

والمبغض المعادي لا ينفك من الحسد والشماتة، إلا من عصم الله عز وجل، وقد يكون عن الحسد الذي عن العداوة والبغضاء والقتل وأخذ المال، والسعاية بمن يحسده، وهتك ستره، وغير ذلك، فالمبغض حسده أعظم الحسد وأشده.

باب ما يكون من الحسد

عن حب ظاهر لدنيا

وما كان من حب الدنيا أن ينال ما يرى بغيره من حب او بر من قرابة او غيره. كالإخوة يتحاسدون، أو أخ يحاسد الأخ عند أبيهما أو أمهما أو قرابتهما.

وكذلك الصاحبان او الشريكان، فيحسده على ما يرى من حب أبيهما او امهما أو

(١) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١١٨.

(٣) الآية السابقة والسورة.

(٤) سورة آل عمران الآية: ١٢٠.

برهما او من صحبهما أو شاركهما، ويحب ان يؤثر بذلك دونه، فيحسده فيقع فيه ويبغضه، ليصرف وجه أبيه او غيره إليه بالبر والحب.

وكذلك المرأتان والضرتان.

وذلك كما وصف عن إخوة يوسف حين حسدوه في حب أبيه له دونهم، وإيثاره إياه عليهم.

﴿إذ قالوا: لَيُوسُفُ وأخُوهُ أحَبُّ إلَى أَبِينَا مِنَّا ونَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ إلى قوله: **﴿أُقْتُلُوا يُوسُفَ أوِ اطْرَحُوهُ أرْضاً يَخْلُ لكُم وَجْهُ أبِيكُم وتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾** (١).

وكذلك بنو الأم وبنو العم، يتحاسدون ليحظى أحدهم دون الآخر.

وكذلك الرجلان يجري عليهما (ذو) (٢) قرابة أو غيره فيتحاسدان، وكل واحد منهما يحسد صاحبه، ويحب ان تتضع منزلته عند من يُجري عليهما او يصلهما.

وقد يخرج (إلى) (٣) الحسد الذي يكون من حب الدنيا كالملك والشرف حتى يقتتلوا، فيقتل بعضهم بعضاً حسداً ان ينال من ملك الدنيا أو شرفها، أو عزها او إكرام أهلها ما لا ينال صاحبه.

وكذلك التاجران والصانعان، يحسد احدهما الآخر، ويحب ان يزول عنه المبايع والمستأجر، فيبايعه دون صاحبه ويستأجره، فيحب ان حُرفاءه صاروا إليه وتركوه، وان من يبايعه او يستعمله يدعه وينصرف إليه، فيقع فيه او في متاعه او صناعته، ليبغضه إلى من يعامله، فينصرف إليه ويدَعه.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٨، ٩.

(٢) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

(٣) ما بين الحاصرتين: سقطت من ط.

باب ما يكون من الحسد عن العجب

وأما ما كان من الحسد عن العجب، فما أخبرنا عن الأمم الماضية فقالوا للرسل عليهم السلام: ﴿ما أنتم إلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾[1].

وقولهم: ﴿أنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلُنَا﴾[2].

وقولهم: ﴿وَلَئِنْ أطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُون﴾[3].

فجزعوا ان يفضل عليهم بشراً مثلهم، فحسدوه وردُّوا الحق، وقالوا: ﴿وَلَئِنْ أطَعْتُمْ بَشَراً مِثْلَكُمْ إنَّكُمْ إذاً لَخَاسِرُونَ﴾، جزعاً وتعجباً أن يفضل عليهم من هو مثلهم في الخلقة والنسب، فقالوا يتعجبون: ﴿أبَعَثَ اللهُ بَشَراً رَسُولاً﴾[4]؟

وقالوا: ﴿لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَلَك﴾[5] تعجباً وإنكاراً أن يفضلهم من هو مثلهم.

وقال الله عز وجل عن قول نوح وهود لقومهما: ﴿أوَعَجِبْتُمْ أنْ جَاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُم عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ﴾[6] فحسدوه، فردُّوا الحقّ وعاندوا الإيمان.

وكذلك الحسد في الأشكال والأمثال، في النسب او في القدر، أو في الغنى أو في التجارة، أو في الصناعة، أو في الولاية، يتحاسد بنو الأم والأب، وبنو الأعمام والإخوة أكثر ذلك دون سائر الناس، فيحسد بعضهم بعضا، ولا يكادون يحسدون غيرهم من الغرباء.

وكذلك العالم يحاسد العالم، ولا يكاد يحاسد غيره.

وكذلك العابد يحسد العابد، ولا يكاد يحسد العالم، بل يخضع له ويذل، ويحسد المتعبِّد مثله، لأن العالم ليس مثله فيحسده.

وكذلك اهل التجارات، يسرع الحسد من أهل كل تجارة إلى من شاركهم فيها دون سائرهم من التجار، كالبزازين، يحسد البزّاز البزاز مثله، يسوءه ويغمه ما يرى

---

(١) سورة يس، الآية: ١٥.
(٢) سورة المؤمنون، الآية: ٤٧.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٣٤.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ٩٤.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٨.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٦٣.

من نَفَاق سوقه[1] وأرباحه، ولا يكاد يحسد الجزارين والصيارفة وسائر الباعة، ومن ضامّه في سوقه من أهل تجارته كان الحسد منه إليه أسرع ممن تباعد عنه وإن كان من أهل تجارته.

وكذلك من دنا منه من القرابة أسرع إليه بالحسد ممن تباعد عنه.

ومن ذلك ما روي ان عمر رضي الله عنه كتب إلى أبي موسى: إن الأقرباء يتزاورون ولا يتجاورون.

ومن ذلك: أن أهل نجران أتوا عمر رضي الله عنه فقالوا: إنَّا قد تجاورنا ففسد ما بيننا، فأجْلِنا عن بلادنا[2].

فالقرب من المجاورة وغيره في الحسد أسرع، والأشكال والأمثال: الحسد من بعضهم إلى بعض أسرع منه إلى غيرهم، يحسد القومُ عالمهم ويعظمون العالم الغريب، لأنه ليس مثلَهم، ولا يساويهم في النسب او الجوار.

ومن ذلك ما يروى: ان كعبا قال لأبي مسلم الخوالاني: كيف أنت في قومك؟ قال: مُطاع، قال: كذَبَتْني إذاً التوراة، ما من حكيم في قوم إلا حسدوه وكبروا عليه.

ومن ذلك ما يروي هشام بن عُروة عن أبيه، قال: كان يقول لنا: يا بنيّ، إنه كان يقال: إن أزهد الناس في العالم أهله، فقد يكون ذلك من الحسد ويكون من غيره.

وقد يزهد القوم في الرجل يكون منهم حسدا له، فيحسد القوم العالم منهم إنكاراً وتعجباً، كيف يفضلهم من هو مثلهم ومنهم؟

وكذلك الشركاء، وكذلك من النساء الضرائر، ومنه قول أم رومان[3] لعائشة: قالت لها لما رماها أهل الإفك: يا بُنيّة، خفّضي عليك الشأن،: أي: هوني عليك هذا الأمر، فإنه قلّ امرأة وضيئة عند رجل لها ضرائر إلا أكثرن[4] عليها.

وكذلك المشتركات في عامة الأشياء، من النسب والتجارة والبضاعة والشجاعة

---

(١) أي: رواج تجارته.

(٢) أي: باعد بين بعضنا والبعض الآخر.

(٣) هي: أم عائشة رضي الله عنها.

(٤) في ط: اكثرت.

والجماعة والقوة والصوت والعمل والعلم، يسرع الحسد من بعضهم إلى بعض ما لا يسرع منهم إلى غيرهم.

فهذه مذاهب الحُسّاد.

فجملة الحسد المحرم من الحاسد: كراهة ما يرى من غيره من النعم، وحبٌّ زوالها عنه.

وجملة الحسد الذي ليس بمحرّم - إلا أن يستعمل الحاسد بعضه فيما لا يحل كالمنافسة في الحرام - وهي المنافسة في خير الدنيا والآخرة، ان يحب ما يرى بغيره من النعم ان يكون (معه)[1] مثله، وأن يناله ما ناله غبطة منه له، فأحب ان يكون مثله فيما يغبطه، ويكره ان يكون دونه في الخير، ولا يكره له ما يرى به من النعم، إنما يكره لنفسه ان يصغر به دونه، فيحب اللحاق به، ولا يحب زوال النعم عنه.

وأما شح النفس وقلة سخائها[2] بالخير للعباد فذلك شر الحاسدين، لا يحسد لمعنى عداوة ولا غيرها اكثر من انه لا تسخو نفسه للعباد بما منّ الله عز وجل عليهم، غمًّا يجده على قلبه إن رأى بغيره نعمة، لغير عداوة يعرفها، ولا غير ذلك اكثر من شح نفسه بالخير لهم نفاسة منه ان يصل إليهم خير[3].

قلت: فبم ينفي الحسد المحرم الذي يكره صاحبه ما يرى من النعيم بغيره، ويحب زوالها عنه؟

قال: بيسير من الأمر، أن تعلم أنك قد غششت من تحسده من المسلمين، وتركت نصيحته، وشاركت أعداءه: إبليس والكفار في محبتهم للمؤمنين زوال النعم عنه، وكراهة ما أنعم عليهم به، وأنك قد سخطت قضاء الله عز وجل، الذي قسم لعباده.

فإذا علمت ما قد دخل عليك من هذا الضرر العظيم بغير منفعة في دين ولا دنيا،

---

(١) ما بين الحاصرتين: سقط من ط.

(٢) في ط: سخاها بالخير.

(٣) وهم الموصوفون بقوله تعالى: «منَّاع للخير معتد أثيم».

ردعك ذلك عن الحسد، إن كنت مؤمناً بالله عز وجل، خائفا على نفسك من غضبه وعقابه، فلم تتعرض لوجوب غضبه عليك من غير اجترار منفعة في دين او دنيا صارت إليك، ولا هي إليك صائرة لو زالت النعمة عمن تحسده، لأنها إن زالت عنه لم تصر إليك، فلا يتعرض لهذا الضرر العظيم الذي يوجب سخط الله عز وجل بغير منفعة في دين ولا دنيا نالها مؤمن عاقل.

وأيسر من ذلك كله ان لو كان الذي تحسده أبغض الناس إليك، وأشدهم عداوة لك، أنه لا تزول النعمة عنه بحسدك له، لأن الله عز وجل لو أطاع الحاسدين في المحسودين لما أبقى[1] عليهم نعمة، ولكن يُمضي نعمه وقسمه لعباده، ولا ينظر إلى حسد الحاسدين.

ولو فعل بالمحسودين ما يحب الحاسدون لهم، لما أبقى على النبيين صلوات الله عليهم أجمعين نعمة، ولأفقر الأغنياء لحسدهم لهم، ولأضلّ المؤمنين لحسد الكافرين لهم، ولكن الحسد على الحاسد ضررُه، والنعمة جارية على من أراد الله عز وجل أن يتمّها عليه إلى الوقت الذي أراده وقدره، ولا ينظر الى حسد الحاسدين.

ألا ترى إلى قوله عز وجل: **﴿وَدَّت طائِفَةٌ مِنْ أهْلِ الكِتابِ لَوْ يُضِلُّونَكَمْ ومَا يُضِلُّونَ إلاَّ أنفسَهُم﴾**[2].

فبمحبتهم ان يضلوا المؤمنين ضلوا بذلك، لأن تلك المحبة لهم ضلال، لأنهم أحبوا ان يرجع المؤمنون ضُلاَّلا، وذلك هو الضلال: ان يكفر بالله عز وجل.

فمن أحب ان يكفر بالله تعالى فهو كافر، فازدادوا كفراً بحسدهم، مع غشهم للنبي ﷺ والمؤمنين.

وإنما مثل الحاسد فيمن عاداه أو باهاه أو تكبّر عليه، أو تعجب عليه، أو تفضل عليه، مثل رجل أراد أن يرمي عدواً له بحجر، فلما رماه له رجع الحجر على عين

---

(١) في ط: لما بقي.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٦٩.

الرامي فأصابها، وأعاد الـرمي فرجع الحجر أيضاً على عينه فأصابها، حتى فعل ذلك مرارا، كل ذلك لا يصيب عدوه، ويرجع الحجر عليه فيقع بعينه.

وكذلك إن رماه بسهم أو بغير ذلك، كل ذلك يرجع على عينه ولا يصيب عدوه، فلم يك هذا ابدا ليرمي عدوه، وقد علم وتبين له انه لا يصيب عدوه، وإنما يصيب نفسه.

فكذلك الحاسد، قد كان في نعمة قبل ان يحسد من حسده، وهي نعمة السلامة من الحسد، فلما حسد وأحب زوال النعمة عنه، زالت عن الحاسد النعمة التي كانت عليه، وهي نعمة السلامة من الحسد.

فتزول عنه سلامته من الحسد، ونصحه للمؤمنين، وينزل به من المكروه والإثم أعظم مما أراد بمن يحسده، وتبقى النعمة على المحسود لم تزل عنه.

فإذا كنت أردت زوال النعمة عن غيرك، وأن ينزل به المكروه بزوالها عنه، لم تزل عنه بإرادتك، ولم ينزل به مكروه لمحبتك له المكروه، وتزول عنك النعمة بتلك المحبة، وينزل بك أنت المكروه من الإثم، ولعل الله عز وجل ان يسخط عليك بذلك.

فأنزلت بنفسك ما أردت بغيرك، وربما كان أكثر مما أردت به، لأنك إن أردت ان تزول عنه نعمة الدين وينزل به الإثم، فقد نزل بك ما أردت ان ينزل به، وسلم هو مما أردت به.

وإن كنت اردت ان تزول عنه نعمة دنيا، وان ينزل به مكروه في الدنيا فقد أنزلت بنفسك من الضرر اعظم مما أردت به، ولم تزل عنه نعمة، ولا نزل به مكروه مما اردت به.

وكذلك قال الله عز وجل: **﴿يا أيُّها النَّاسُ إنّما بَغْيُكُم عَلَى أنْفُسِكُم﴾**[١].

فهل بينك وبين الرامي بالحجر لعدوه إذ رجع الحجر على عينه فرقان؟ بل أنت

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٣.

أعظم بلاء وضرراً ، لأنك إذا حسدته فقد تعرضت لسخط الله عز وجل فيه ، وأثمت بربك ، ولم تزل عنه النعمة ، ورجع عليك عقوبة الإثم فصارت في عينك ، فذهبت بها وكُتب عليك إثم تؤخذ به في الآخرة ، وتستوجب به غضب الله عز وجل ، فلو رجع الحجر على عينك بدل الإثم ، كان خيراً لك ، لأن عينك ذاهبة بالموت والبلاء لا محالة ، وإثم الحسد لا يبلى ولا يمحى حتى يوقفك الله عز وجل عليه ، ويسألك عنه.

ثم لعله يكون آخر الطامة الكبرى غضب الله عز وجل عليك من أجله ، فلأن تذهب عينك في الدنيا خير لك من ان يكون لك عين في النار ، ثم لا تلبث ان يُعميها العذاب.

أيُّهما أيسر ؟ حالك او حال من رجعَتْ رميتُه إلى عينه ولم تصب عين عدوه ؟ فهو أيسر منك حالا ، وأنت اشد منه بلاء وضرراً ، إذ لم تزل النعم عمن حسدته ، وزالت عنك النعمة التي كانت عليك من سلامة قلبك من الحسد للمؤمنين.

فأنزلت بنفسك ما أردت بغيرك او اكثر ، ولم يُرِكَ الله عز وجل فيه الذي تحب ، وبقيت النعمة عليه على الرغم منك والجزع منك ، وما دخل عليك من الضرر في دنياك أعظم عليك ، إذ لم تخف الآخرة إذ نزل الغم بقلبك.

كلما رأيت به حسنة أغممت بها ، وتعذب قلبك بالغم بها ، فالله عز وجل يُنعِّمه بطاعته او بالدنيا ، وتعذب قلبك بجسده.

فأنت مغموم وهو مسرور ، فعذبت نفسك بنعيم غيرك ، بغير منفعة دخلت عليك ، فأنزلت بنفسك الغم بغيرك ، وأثمت وتعرضت للعذاب والعقوبة ، فلن يجهل هذا الواصف عاقل ، ولا يقيم على الحسد بعد هذا الوصف لبيب ، إذ تفكَّر فعقل ما يضره مما ينفعه إذ كان مؤمناً.

بل الكفار لو تدبروا هذا الوصف لردعهم ذلك عن الحسد وإن كانوا لا يؤمنون بالبعث والحساب ، إن علموا ان قلوبهم معذبة بالغموم لنعم الله عز وجل على خلقه ، والنعم على المنعم عليه جارية غير زائلة ، فلم يُعطوا ما أرادوا ، وعذبوا انفسهم بالغم ،

وتنعم اولئك بما يتعذبون به.

فما من كافر لا يؤمن بالبعث يعرف هذا الوصف إلا ردعه عن الحسد إن كان له عقل من أجل دنياه دون آخرته، فكيف من آمن بالبعث، وعلم ان في الحسد الإثم الكبير، وأنه لا يأمن غضب الله عز وجل في ذلك؟.

فذلك اولى الا يعترض الحسد بقلبه لخطرة فضلا عن القبول له إذ كان بهذه المنزلة، فبذلك لا ينفي الحسد حين يعترض، ومن كان معتقداً له عرفه، وأعطي العزم ألا يعود فيه، ويحذر فيما يستقبل.

وأيضاً مما يقوّي على نفي الحسد من قلبك بعد قبوله وردِّه حين يعرض في القلب: أن تعلم ان الحسد في الدنيا والدين من حسد إبليس لك، إن كانت نعمة من الدين بأحد من المؤمنين، وكان المنعمَ عليه بها فوقك في الدين او مثلك او دونك.

فإن كان فوقك فلم تلحقه بعملك فتعمل مثل عمله، أو تعلم مثل علمه كرها وحسداً إذ فاتك اللحاق به في العلم أو العمل، فتكون مثله، فكره إبليس لك ان تحبه على ما وهبه الله من ذلك، وحسدك ان تشركه بمحبتك له على ذلك، فتضرب بالشركة معه إذا أحببته على ذلك لما صنع، وأحببت ان تكون مثله، فألقى في قلبك الدعاء إلى حسده، وحب زوال النعمة عنه، لئلا تضرب معه بسهم الحب إذ فاتك العمل والعلم، فبغضه إليك وحبب إليك زوال النعم عنه، لأنه علم أنك إن احببته على ذلك، وفرحت له بما أنعم الله عز وجل عليه، شركته في الأجر، فألقى في قلبك الكراهة لعمله وعلمه، وحب زوال النعمة عنه لئلا تلحق به بمحبَّتك، إذ عجزت ان تلحقه بعملك.

ألا ترى إلى قول الأعرابي للنبي ﷺ: الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم، حين سأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال النبي ﷺ: «هو مع من أحب» يرويه عن صفوان بن عسَّال [١].

---

(١) اخرجه: الترمذي في سننه وأورده ابن الاثير في جامع الأصول ٣٥٦/٧ وهو من الأحاديث المتواترة التي عدها الزبيري في كتابه لقط اللالیء المتناثرة في الأحاديث المتواترة. تحقيق محمد عبد القادر عطا. =

والأعرابي الذي سأله عن قيام الساعة فقال: ماذا أعددت لها؟ فقال: ما أعددت لها كبير صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله، يعني على طاعتهم حبًّا لطاعتهم، فقال النبي ﷺ: «أنت مع من أحببت»(١).

قال أنس: فما فرح المسلمون بعد إسلامهم كفرحهم يومئذ، يخبرك: أنه كان أوثق أعمالهم عندهم بعد الإسلام.

ومنه قول أبي موسى: «قلت: يا رسول الله، الرجل يحب المصلين ولا يصلي، ويحب الصُّوَّام ولا يصوم، حتى عد أشياء، فقال النبي ﷺ: «هو مع من أحب»(٢).

وقال رجل لعمر بن عبد العزيز: إنه كان يقال: إن استطعت أن تكون عالماً أو متعلماً فكنْ، فإن لم تستطع فأحبهم، فإن لم تستطع فلا تُبغضهم. قال: سبحان الله، لقد جعل الله عز وجل له مخرجا.

فأراد العدو أن يصدّك عن أفضل الأعمال لك، مقصراً كنت أو عاملا، لأنك إن كنت عاملا فأحببت من سبقك من النبيين والصديقين فسررت بطاعتهم، شركت معهم بالحب، وكنت معهم، كما قال النبي ﷺ.

وإن كنت مقصراً في العمل ففاتك العمل، لم يفتك أن تكون معهم بمحبتك، فصدّك عن ذلك إرادة ألا تلحق بهم بمعنى من المعاني، ولم يرضَ أن عرّضك لحرمان اللحاق بهم، حتى دعاك إلى بغض فعلهم، أن تكون منهم، وإلى بغضهم، والغشِّ لهم، وحبِّ زوال الطاعات عنهم، ففاتك أن تلحق بمن حسدته، وازددت إثما، وازددت في الدنيا غماً.

فيا ليتك إذ فاتك اللحاق به وازددت غما في قلبك، سلمت من الإثم، ولكن مع ما فاتك من اللحاق به أثمت، فاستحققت أن تهلك فيما ينجو به من حسدته، فأثمت ولم

= دار الكتب العلمية بيروت. ص ٨٥.

(١) أخرجه الطبراني في الكبير والأوسط ورجاله حسن.

(٢) سبق تخريجه.

تكف ورعاً، ولو كففت عن الحسد ورعا لأجِرْت وسلمت فأثمت على ما يؤجر به من حسدته.

وقد جاء الحديث: «أهل الجنة ثلاثة: المحسن، والمحبُّ له، والكاف عنه»[1] وذلك أن تكف عنه ورعا، فتجب لك الجنة بذلك.

فلينظر الحاسد على من أدخل الضرر، ومن حرم الخير، وزالت عنه النعم ومن غُبِن، هو أو من حسده!

ولو كان يضر المحسود حسد الحاسد له، فيزيل عنه بحسده له النعم، لدخل عليك أعظم الضرر، لأنك لا تعرى أن يحسدك غيرك، فلو كان الحسد يضر المحسود لما بقيت عليك نعمة، إذ كنت لا تعرى أن يحسدك حاسد، فيحب زوال النعمة عنك، فإن أردت أن لا يطيع ربك عز وجل فيك الحاسدين فأنت أهل ألا تحسد عباده اتباع محبّته وشكراً له على ذلك.

ولو لم يكن في الحسد إثم لكان أهلا ألاَ تعصيه، إذ يُتم عليك نعمه، ويرجع الحاسدون بحسراتهم، منكسرة شهواتهم، ومحبتهم وإرادتهم مردودة عليهم، مع زوال النعم عنهم في دينهم، تفضلا منه وتكرما وامتنانا ألا يعطى الحاسدين فيك ما يحبون، فاشكره على ذلك.

فدع الحسد الذي لم يطع به غيرك فيك لو كان هو الحاسد لك، فارضَ بما قسم لعباده، فإنك إن لم تفعل خالفت محبته، وبارزته بالخلاف فيما أوجب. وما آمن أن يزول عنك من النعم في الدنيا والدين سوى ما زال عنك من نعمة السلامة والنصيحة قبل أن تحسده، فينزل بك ما تمنيت بغيرك، عقوبة من الله عز وجل، لأنه يقول تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الـمَكْرُ السَّيِّءُ إلاَ بِأَهْلِهِ﴾[2].

وذلك كالماكر، إنما أراد أن يفعل السوء بغيره، فحاق به ما أراد بغيره، وكذلك

---

(١) أخرجه: الدارمي في مسنده، الباب ٥٦ من المقدمة.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٤٣.

الحاسد، لا يأمن أن ينزل به من البلاء وزوال النعم مثل ما أحب للمؤمنين.

وقد يروى عن بعضهم أنه قال: ما تمنيت لعثمان رضي الله عنه شيئاً إلا نزل بي، حتى لو تمنيت له قتلا لقتلت.

فلو لم تدع الحسد ـ خوفاً من عقوبة الآخرة ـ إلا خوفاً من عقوبته في الدنيا أن ينزل بك مثل ما تمنيت لمن حسدته، وساءك ما أنعم عليه به، فلا ينعم الله عليك مثل ما أنعم عليه به إذ ساءك تفضّل الله عز وجل عليه، فتتخوف بلاء الدنيا وزوال النعم فيها، كان ينبغي لك أن تدعه لو أمنت عقوبة الآخرة.

وما لك أن تأمن ذلك وقد ذمه الله عز وجل، والرسول ﷺ وسخطه الله عز وجل، وسخط على من اعتقده، أخبرك بذلك في غير موضع في كتابه، يذم أهل الحسد، ويخبرك أن الأمم الماضية هو الذي فرق بينها، وألقى الاختلاف في دينها، ولو لم تخف عليك عقوبة آخرة ولا دنيا ولم يكن عليك فيه إثم، كان ينبغي عليك أن تدعه لتعذيب قلبك بالغم من غير أن تصير إلى ما أردت لمن حسدته.

فلو لم تدعه إلا لذلك، كنت حرياً أن تدعه من أجل ذلك إلا أن تكون معتوهاً لا عقل لك إذ عذبت قلبك بالغم ولم تدرك ما تريد.

وإنما فسرت لك هذه الخلال التي بها ينفي الحسد إن لم تسخ نفسك بترك الحسد بالخلة الأولى، فعسى أن تسخو أن تتركه بالخلة الثانية، فإن لم تسخ بالثانية فعسى أن تسخو بالثالثة، أو الرابعة.

فتدبر ذلك، وناصح نفسك، فإنه قد شمل عامة أهل الدين والدنيا، ولقد عجل لك بعض عقوبة الحسد في الدنيا، بما لزم قلبك من الغم وضيق الصدر، وكثرة الهم بغير اجتلاب دنيا، مع ذهاب الدين بغشك بنفسك للعباد، وبسخطك قسم الله عز وجل لهم وغمك بفرحهم.

باب متى يعلم العبد أنه قد نفى الحسد؟

قلت: قد بينتَ الحسد وعظَّمت ضرره، فأحب أن أنجو منه بعلم، فما الدليل - إذا ذكَّرتُ نفسي ما وصفتَ مما يُنفي به الحسد - أن أعلم أني قد نفيته عن قلبي وجانبته؟ وقد أجدني أذكِّرُ نفسي بعض ما وصفتَ، ومنازعٌ ينازعني من نفسي بالكراهة للنعمة التي أنعم الله بها عليه وحب زوالها.

قال: إنك لا تقدر أن تُسْكِتَ عدوك إبليس، ولا تغيِّر طبعك، فتجعلَ خِلقةَ نفسك خِلقةً لا تنازعك إلى حسد من عاداها، أو اختص بشيء دونها، أو تريد أن يكون لها دونها، فلا تكاد تملك نفسك إذا خطر العدو بتذكير الحسد، أو لا يتحرك الطبع.

ولم تُكلف ذلك: أن تجعل طبع نفسك بهيئة لا يغفل ولا يسهو، ولا ينازع إلى محبوب ولا مكروه، فذلك طبع الملائكة، وإنما كُلِّفت أن تعقل بعقلك عن الله عز وجل، فلا تمل إلى غير طاعته، فإذا أردت بعقلك بما استودعه الله عز وجل من المعرفة بضرر الحسد على منازعة طبعك، ودعاء عدوك، فكنت من قِبَل عقلك كارها لما نازعك إليه[1] طبعك، أبيًّا لذلك، فلم تركن إليه من قِبَل عقلك كراهة له، نجوت من الحسد.

وكذلك جميع ما نازع من دواعي الشرّ في القلوب، فإذا كنت للحسد كارها أبيا له من قِبَل عقلك، فلا تضرك منازعة نفسك به وخطرات العدو.

وقد روي عن الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاثة في المؤمن، له منهن مخرج: الطيرة، والحسد، والظن. فمخرجه من الطيرة ألا يرتد، ومخرجه من الحسد ألا يبغي، ومخرجه من الظن ألا يحقق».

فأخبر النبي ﷺ: أنَّ من لم يبغِ فقد خرج من الحسد إذ لم يبغِ له الشر، ولم يحب زوال النعم عنه.

---

(١) في ط: لما نازعك إليك.

باب الرد على من قال إن الحسد بالجوارح

وأنه لا يضر إذا كان في القلب ما لم يبده بفعل جارحة

وبيان خلافه للعلم

قلت: فما معنى قول الحسن، وسُئل عن الحسد، فقال: غَمِّه [1]، فإنه لا يضرك ما لم تبده؟

قال: معنى ذلك صحيح، لأنه إذا غمّه ولم يعده فلم يَدَعْ إبداءه إلا من كراهيته له، فذلك الذي وصفت لك من الردِّ بالكراهية، لأن الكراهية منعته أن يبديه فيستعمله بلسان أو جارحة.

ولو أنه لم يبال أن يبديه ولم يغمه كما قال الحسن، ولكن لم يجد له موضعا ولا أحدا يبديه إليه، وقد يكره ويسوءه ما أنعم الله به عليه، ويحب زوال ذلك عنه، لكان حاسدا [2]، لأن الحسد إنما هو بالقلب، وان استعمله [3] باللسان أو اليد كان أعظم لإثمه، كما فعل إخوة يوسف ليوسف.

فإذا استعمله بالكذب عليه والغيبة له، أو الكلام أو الوقيعة فيه عند من يقبل منه، فيحرمه الخير من علم يعلمه، أو صلة يصله بها، أو معونة يعينه بها، أو الدعاء عليه، أو الأذى له بالجوارح، وذلك كله ليس بالحسد، ولكن عمل عن الحسد، بعثه عليه الحسد [4]، حتى استعمل جوارحه بما يكره الله عز وجل فيمن حسده.

ولو كان هذا هو الحسد لكان هذا الفعل من العباد لرغبة أو خوف، أو طلب

---

(١) يعني: لا تتكلم به، بل اصرفه عن قلبك.

(٢) الفرق بين هذا وسابقه: أن الأول عارضه عارض الحسد من قبل الطبع فكرهه ومقته، أما الآخر فانساق وراءه وأحبه ولكنه لم يتكلم به لعدم وجود من يتحدث به إليه، أو خشية أن يقول الناس عنه إنه حاسد.

(٣) في ط: يستعمله.

(٤) ويسمى هذا بغيا إذا كان سعياً لإزالة نعمة موجودة بالفعل لدى المحسود، وهو أشنع من الحسد، أما هذه الحالة التي يتحدث عنها المؤلف فهي محاولة لمنع خير لم يكن موجوداً عند المحسود.

دنيا، حسدا كله، فكان جميع إساءة العباد بعضهم إلى بعض حسدا، فكانت معاصي العباد بعضهم في بعض حسدا، فلم يعص أحد في أحد إلا بحسده، وهذا ما لا يقول به أحد يعلم أو يعقل، فالحسد بالقلب.

وكذلك وصفه الله عز وجل من الحاسدين، فقال: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُم حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ (١).

وقال: ﴿مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَلاَ الْـمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ (٢).

وقال: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ (٣).

وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً﴾ (٤).

فوصف الحسد بكراهية القلوب للحسنات التي يمن بها على المؤمنين، من نصر أو فتح، أو خير وحب، أن يزول عنهم إيمانهم، فأضاف الله عز وجل الحسد إلى فعل القلب، ووصفه به، فهو بالقلب دون الجوارح.

فإن غمَّه وترك إبداءه كراهية له، فقد نفي قلبه أن يعمل به فأمسك جوارحه عن استعماله، لـمّا نفاه بالكراهة، وإن كانَ لم يقدر أن يُسكت عدوه ولا يسكت طبعه أن ينازعه.

وكذلك قال الحسن، لأن العبد لا يقدر على تغيير طبعه ولا إسكات عدوه، فإن غمه وترك استعماله كراهية له وإباء (٥) أن يقبله، فقد نفى الحسد عنه، فكفَّ الجوارح أن يستعمله فيما نازعته نفسه إلى حسده، لما نهاهُ الله عز وجل عنه.

إنما فسرت ذلك لأن طائفة تقول: إن الحسد إنما يضرُّ إذا استعمله العبد

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٠٥.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٩.
(٤) سورة البقرة، الآية: ١٠٩.
(٥) في ط: وأبيا.

بجوارحه، ويحتجُّ بحديث الحسن هذا، فيذهب قائلا [1]: إن الحسد بالجوارح لا بالقلب، وقد دلنا الله عز وجل أنه بالقلب، واستعماله بالجوارح عمل عنه.

ألا ترى أن الله عز وجل يقول: ﴿**وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا**﴾ [2].

فَدَلَّكَ بذلك أن الحسد في النفس دون الجوارح، واستعماله بالجوارح عمل عن الحسد ولا الحسد بنفسه.

باب هل على الحسد مظلمة
للمحسود عند الحاسد إذا أصابه ما تمناه له؟
أو هو ذنب بينه وبين الله عز وجل

قلت، فإن ساءني ما رأيت من النعم، وتمنيت زوالها، فينزل به من البلاء ما يزيلها [3] عنه، كالغنى يزول عنه وينزل به الفقر، أو الصحة فينزل به المرض، أو العلم فيحلُّ به الجهل، أو العصمة فيحل به الخذلان، أو الستر فيحل به هتك الستر، ثم ندمت على ذلك، أيكون للمحسود عندي مظلمة يجب عليَّ التحلل منها؟

قال: أما ما كان من عمل القلب ولم تستعمل به جوارحك، فذلك ذنب بينك وبين الله عز وجل، عصيته به في عباده، نهاك عنه وذمه إليك، فليس في ذلك للمحسود تبعة، ولا يجب عليك استحلاله.

فإن خرجت إلى غيبة أهاجك عليها الحسد الذي في قلبك، أو تكذب عليه، أو تغتاله بغائلة تحرمه بها منفعة، أو تنزل به مكروهاً، أو أخذ مال لا يحل لك من ماله، فعليك الاستحلال من ذلك، وما أشبهه.

---

(١) في ط: قولها.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٩.

(٣) في ط: ما يزول.

وأما ما لم يعدُ القلب فهو ذنب عظيم، لا يجري مجرى المظالم التي فيها القصاص بين العباد في عمل الجوارح في النفس والأموال والأعراض، وَلرُبَّ شيء لا قصاص فيه أعظم من كثيرٍ مما فيه القصاص.

وقد جاء في الحديث: «إن الحسَد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب».

فالحسد كما أخبرتك بالقلب، واستعماله بالجوارح عمل عنه، ولو كان استعماله بالجوارح حسدا لكانت الغيبة حسدا، والكذب والضرب حسدا، والقتل حسدا، والسرقة حسدا.

وذلك كله معاص، وقد يكون عن الحْسد، وعن الكبر، وعن الرياء، وعن حب الدنيا، وعن خوف الفقر، فقد أخطأ من تأول ذلك، وخرج من معقول الدين.

كتاب تأديب المريد

وسيرته، وتحذيره الفتنة بعد هدايتة

قلت: كيف تكون سيرتي في ساعات ليلي ونهاري، وكيف أحتسب على قد أحوالي؟

قال: إن الله عز وجل يقول: ﴿**اللهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسُ حِينَ مَوْتِها وَالتِي لَمْ تَمُتْ في مَنَامِهَا**﴾ الآية[1].

قال ابن جريج: روح ونفس[2] في جوف الإنسان، بينهما في الجوف مثل شعاع الشمس، فإذا توفى الله عز وجل النفس، كان الروح في جوف الإنسان، فإن أمسك الله عز وجل، نفسه اخرج الروح من جوفه، وإن لم يمته أرسل النفس فرجعت إلى مكانها قبل ان يستيقظ.

وقال ابن عباس: مثل ذلك، إلا انه قال: النفس العقل، فأخبرنا ربنا، عز وجل، انه يتوفى الأنفس في النوم، فوجب علينا الحذر من ذلك، ووجب علينا في الحذر التطهرمن الذنوب، ووجب علينا في التطهر ان نريد بذلك الله وحده لا غيره، وشاهد

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٤٢.

(٢) لقد فرق السلف والصوفية من بعدهم بين النفس والروح، ولتقريب الفرق بينهما يمكن تشبيه الكل بشجرة، فما كان منها لاصقا بالأرض فهو النفس، وألطف ما فيها وهو جوهر الثمرة هو الروح وما بينهما مراتب النفس والكل واحد.

فالفرق بين النفس والروح باعتبار الأجواء التي تتحكم فيها حسب، وما قيل إنه كشعاع الشمس يصل بينهما هو في مثالنا: الأغصان والأوراق والجذع مما لم يلصق الأرض.

إرادة الله ألا تهتك ستر المعصية، ولا تقبل خاطراً يدعو إلى مخالفته، إذ كان هو المتولي لتحذيرنا من بغتة الموت على غفلة منا عند منامنا، نعمة منه علينا ورحمة لنا.

وكان النبي ﷺ إذا أراد ان ينام قال: «باسمك اللهم اموت وأحيي»(١).

وكان ﷺ إذا نام قال حين يضطجع: «اللهم، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»(٢).

خائف ان يموت في منامه، يدعو بالمغفرة إن قضى موته في منامه، وبالحفظ والتوفيق إن استيقظ حياً.

فحقّ على المريد الخائف من الله عز وجل ألا يأمن بغتة الموت على كل حال، وفي منامه حين ينام، فيخاف ان يموت في منامه، وألا يقوم منه.

فإذا ألزم قلبَه الخوف لذلك فحق عليه ان يحققه بالحذر ان يقبض الله عز وجل روحه في نومه وهو مصر على بعض ما كره الله عز وجل، من ركوب بعض نهيه، أو تضييعه بعض حقه، فيعطي الله سبحانه الندم على ما كان منه، والعزم على التوبة وأنه إن أصبح حياً اجتنب كل ما يكره الله عز وجل، وأداء ما وجب عليه، ورد ما أمكنه من المظالم إلى أهلها، من مال او استحلال في عرض.

فإن مات في منامه لقي الله عز وجل مغفوراً له ذنوبه إن شاء الله، وإن أصبح حياً كان عزمه على التوبة مهيجاً له على الحياء من الله عز وجل، لأن العبد أقرب ما يكون من العزم أشد ما يكون من الله عز وجل حياء.

إن عقل ان يقول لنفسه: يا نفس، إنما عاهدت الله عز وجل البارحة، أتنقضين عهدك إياه سريعاً؟ لم تَفِ له بعزمك يوماً واحداً.

ثم تجدد التوبة في القابلة إن عشت عند نومك.

---

(١) اخرجه: احمد بن حنبل في مسنده.

(٢) اخرجه: الترمذي في سننه، واحمد بن حنبل في مسنده ٢٩٤/٤، ٣٠٢.

فكلما اصبحت حمدت الله عز وجل إذ أبقاك، ولم يتوفك في منامك، كما كان النبي ﷺ يقول إذا استيقظ من منامه: «الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني ولم يتوفني في منامي»[1].

ثم تأخذ نفسك بالوفاء وتذكّرها قرب العهد، وتهيجها على الحياء من الرب جل وعز.

فكلما نمتَ جددت العزم، وذكرت الموت للعبرة بالنوم: لانك كالميت، وقد سماه الله عز وجل وفاة، وتخاف الله عز وجل ان يتوفاك في نومك.

فإذا اصبحت ذكرت النشور، والبعث، والعرض على الله عز وجل، لأن الله عز وجل سماه بعثاً، وهو شبيه به، وكان النبي ﷺ إذا استيقظ ذكر النشور، فقال: «اللهم بك أحيا، وبك أموت، وإليك النشور»[2].

فإذا استيقظت فأول ما تبتدىء به حمد الله عز وجل، إذ أيقظك ولم يتوفك، وتذكر النشور.

ثم إذا أردت ان تقوم اخذت ثوبك فنويت به الستر[3] كما أمرت بالستر، وحياء من الله عز وجل وملائكته، وتستراً من أعين الجن ومن حضرك من الإنس.

---

(١) اخرجه: ابو داود في سننه، الباب ٩٨ من كتاب الأدب، والترمذي، الباب ١٥ من كتاب الدعوات، والبخاري في صحيحه، الباب ١٥ من كتاب الدعوات.

(٢) كل ما جاء في السنة النبوية من أذكار قبل النوم يقرر أصلا واحدا هو: التوجه بالقلب مباشرة إلى الله تعالى وحده، وقد اتخذ هذا التوجه صورا مختلفة منها العزم على التوبة رجوعا إليه تعالى، ومنها قراءة آيات وسور قصار من القرآن الكريم كالإخلاص والمعوذتين وآية الكرسي والكافرون وهو يقرر نفس المعنى، ومنها تكرار الشهادتين إلى آخر ما جاء في السنة. انظر (عمل اليوم والليلة لابن السني) باب ما يقال عند النوم، وما يقال عقب اليقظة منه نفس الباب من نزل الأبرار لصديق خان.

(٣) وهكذا جميع الأعمال العادية التي يزاولها الإنسان في حياته العادية يمكن توجيهها بالنية لتكون عبادة ذات ثواب، ويمكن ان تكون وزراً عليه عقاب إذا ساءت النية في استعمالها، فمدار التوجيهات النبوية في هذه المناسبات التي ذكرها المؤلف هو تقرير هذا المعنى، وهو اعتبار كل عمل يزاوله الإنسان موجها نحو الخير للذات وللمجموع.

ثم تأخذ سواكاً إن امكنك، فتستاك تنوي به طهارة فيك، ومرضاة ربك واتباع سنة نبيك ﷺ.

ثم تتغوط إن احتجت إلى ذلك، لإلقاء الأذى عنك، لئلا تصلي وهما يدفعانك، تتبع بذلك ما أمر به نبيك ﷺ، فإذا دخلت الخلاء لحاجتك قلت كما كان النبي ﷺ يقول إذا أراد الخلاء: «بسم الله اعوذ بالله من الخبث والخبائث، اعوذ بالله من الشيطان الرجيم»(١).

فإذا خرجت قلت كما كان النبي ﷺ يقول: «الحمد لله الذي اذهب عني ما يؤذيني وأبقى في ما ينفعني».

ثم تتوضأ، فتغسل يديك، اتباعا لسنة نبيك ﷺ، تستنجي بشمالك نظافة، واتباعا لمحبة ربك عز وجل، إذ يقول: ﴿**إن الله يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الـمُتَطَهِّرِينَ**﴾(٢) لأنها نزلت في أهل قباء إذ استنجوا بالماء.

ثم توضىء اطرافك لأداء فرض الوضوء الذي اوجبه عليك ربك عز وجل، لتؤدي فرض الصلاة التي لا يقبلها الله عز وجل إلا به، ولما أوجبه الله عز وجل، ولقول النبي ﷺ: «لا تقبل صلاة بغير طهور»(٣) ففي هذا دليل على أنها بالطهور مقبولة ممن رحمه الله عز وجل.

فلتُلزِم قلبك من أدائك الفرض الأمل والرجاء ان يقبل الله عز وجل صلاتك فكلما استنشقت او تمضمضت او وضأت طرفا من أطرافك وأملت كفارة ما أصبت من الذنوب بجوارحك، كما قال النبي ﷺ: «إنه يكفر عن العبد المؤمن ما اصاب بمواضع الوضوء من الذنوب»، لأنه قال: «إذا غسل يده كفر ما أصاب من الذنوب،

---

(١) اخرجه: البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه والنسائي في سننه، وابن ماجه في سننه، والدارمي في مسنده، والإمام احمد في مسنده ٣/٩٩، ١٠١، ٢٨٢، ٤/٣٦٩، ٣٧٣.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

(٣) اخرجه: الإمام احمد في مسنده ٣/٥٧، ٢/٥١.

حتى عد مواضع الوضوء من الذنوب »[1].

فإذا فرغت من وضوئك أتيت مسجدك، ونويت بإتيانك المسجد أداء الصلاة في الجماعة، اتباعاً لسنة نبيك ﷺ، ومعاونة المسلمين على أداء الفرض ورجاء الرحمة بدعاء من يحضر معك من المؤمنين، وأنك زائر لله عز وجل وتأمل بزيارتك ما قال سلمان: « من أتى المسجد فهو زائر الله، وحق على المزور كرامة الزائر »[2] فنأمل ان يكرمك الله عز وجل برضوانه عنك[3] وجنته.

فإذا قضيت صلاتك نظرت ايها أفضل أو أوجب لزومك المسجد، أو دخولك منزلك، أو غدوك لمعاشك، أو لبر واجب، او تطوع. فأي ذلك كان أولى بك فأْتِه.

فإن دخلت منزلك ذكرت الإشفاق الذي وصف الله عز وجل به أولياءه الذين أباحهم الله عز وجل جواره، وأدخلهم داره، إذ قالوا حيث استقرت بهم الدار: ﴿ **إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ** ﴾[4] وقد اغتبطوا في إشفاقهم في أهلهم.

فألزم قلبك الإشفاق رجاء أن تأمن به في الجنة مع المشفقين من أوليائه، فإن زل أحد منهم نهيته لتمضي امر الله عز وجل فيهم، بأن تقيهم نار جهنم لقوله تعالى: ﴿ **قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً** ﴾[5] قيل في التفسير: أدبوهم وعلموهم.

فإن أردت ان تخرج في حاجة أو إلى سوقك، فقدم النيات قبل خروجك، وإن قدرت ألا تدع شيئاً ترجو ان تطيع الله عز وجل في طريقك، او في حاجتك، أو في سوقك ان تنوي به فافعل، فإن اجرك على قدر نيتك.

---

(١) اخرجه: احمد بن حنبل في مسنده ٥/٣٣٠.

(٢) اخرجه: البخاري في صحيحه، والنسائي وابن ماجه في سننها، واحمد في مسنده.

(٣) ومما جاء في السنة من ادعية دخول المسجد والخروج منه ما رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة في هذا الباب، عن النبي ﷺ انه أمر ان يقال عند دخول المسجد او الخروج منه: « اللهم صلي وسلم على محمد وافتح لي ابواب رحمتك ».

(٤) سورة الطور، الآية: ٢٦.

(٥) سورة التحريم، الآية: ٦.

ألم تسمع إلى ما روى كعب: انه وجد ثلاثة اسطر في كتاب الله عز وجل: « ان الشهداء ثلاثة: رجل خرج في سبيل يحتسب ماله، ويكثر جماعة المسلمين بنفسه، لا يريد ان يقتل ولا يقتل، أتاه سهم غرب فقتله، فذلك تغفر له ذنوبه بأول قطرة تقطر من دمه، ويشفع في سبعين من أهل بيته، ورجل خرج في سبيل الله يحتسب ماله ويكثر جماعة المسلمين بنفسه، يريد ان يقتل ولا يريد ان يقتل، أتاه سهم غرب فقتله، فذلك ركبته مع ركبة ابراهيم خليل الرحمن في الجنة، ورجل خرج في سبيل الله يحتسب بنفسه وبماله، ويكثر جماعة المسلمين، يريد أن يقتل ويقتل، أتاه سهم غرب فقتله، فذلك شاهر سيفه في الجنة قبالة عرش الله عز وجل، يشفع فيمن يشاء، لا تعصى له فيها عزمة » يعني كلمة.

فساوي بين نفقاتهم وخروجهم وسبب قتلهم، كلهم اتاه سهم غرب فقتله، وفضل الثاني على الاول، لأن الاول لم يرد ان يقتل ولا يقتل، وأراد الثاني ان يقتل ولا يقتل، وفضل الثالث على الثاني إذ نوى اكثر مما نوى، لأنه اراد ان يقتل ويقتل.

وقال كعب: هي ثلاثة اسطر في كتاب الله عز وجل: فأخبر ان ذلك عن الله عز وجل.

وروى بعض أصحاب ابن المبارك: أنه رآه يمشي في طريق مكة فقيل له، فقال: أسر الجمال وأروّح عن الجمل.

فكلما نويت اكثر كان لك الأجر أكثر، فإذا خرجت فانو كلما قدرت عليه مما يمكن من النية، فإن فعلته اجرت على نيتك وعلى فعلك، وإن لم تفعل ذلك أجرت على نيتك.

فإن خرجت إلى سوقك ونويت: إن مررت ببعض المجالس ان تسلم عليهم، وإن رأيت مظلوماً ان تنصره، وإن رأيت منكراً فاستطعت ان تغيره غيرته، وإلا أنكرته بقلبك، وإن مررت بأذى ان تميطه عن الطريق(١).

وتنوي إن لقيت الأصحاب والمعارف، ان تسلم عليهم وتسألهم عن حالهم لله عز

---

(١) وجماع ذلك تطبيق شعب الإيمان كلها بالنية، وبالفعل فيما يستطاع.

وجل على قدر أقدارهم ممن تحبه لله عز وجل، أو تعنى به لقرابة أو غير ذلك، نويت ان تسأله عناية منك بأمره، لتؤجر على سلامك وسؤالك وعنايتك به، وتحمد له الله عز وجل او للرحم وصلة له.

ومن كان يسر بأن تبشر به إن لم تكن تعنى به، نويت ان تسلم عليه، لتؤجر في سلامك وإدخالك السرور عليه.

ومن كان لا تعلم منه سرورا، وكانت بينك وبينه خلطة، سلمت عليه لأن تعرضه للأجر ان يحمد الله عز وجل إذا سألته.

وكذلك يروى عن ابن عمر انه قال: «ما اخرج إلاّ لأسلم ويسلم علي ويحمد الله عز وجل».

وروى الفضيل بن عمرو ولم يصل الحديث قال: «لقي رسول الله ﷺ يعني رجلا فقال: كيف أصبحت؟ قال: صالح، قال: كيف أصبحت؟ قال: صالح، قال: كيف اصبحت؟ قال: بخير احمد الله، قال: هذا الذي أردت».

وقال عمر رضي الله عنه لرجل: كيف انت؟ قال: بخير والحمد لله، قال: عمر «إياها أردت».

يخبرك انه اراد منه ان يحمد الله عز وجل.

ومن كان يغتم إن أعرضت عنه، ولم تأمن عيه ان يعصي الله عز وجل فيك، نويت ان تسلم عليه لئلا يكون للشيطان عليه سبيل، فتقدم النيات فيهم كذلك.

فكلما لقيت أحداً منهم ذكرك قلبك ما قدمت من النية[1]، وإن لم تذكر كانت النية الأولى مجزيتك ما لم يعترض لك خوف مذمتهم، او حب محمدتهم، او رجاء طمع تناله منهم، فإن عرض شيء من ذلك بقلبك، نفيته عن قلبك، ومضيت على نيتك وسلمت لله عز وجل وحده.

---

(١) وفي هذا تكرار للنية، وتكرار للأجر كذلك.

وكن حذراً قبل الاعتراض من الخطرة بداوعي الرياء، لأن العدو حين تلقى من تسلم عليه يخطر ببالك انه يستخفك، او يحمدك او يجفوك إن لم تسلـم عليه ليسبق إلى قلبك ذلك، فيشغلك ان تحتسب الثواب في سلامك وسؤالك، فتعتقد ما خطر به، فلا تحتسب الثواب في سلامك ولا في سؤالك[1].

فلا تدع ان تنوي بإفشائك السلام على المجالس في العامة الأجر والثواب، كما أمرك النبي ﷺ حين يقول: «أفشوا السلام بينكم»[2].

وقال عمار: «ثلاثة من جمعهن جمع الإيمان: إحداهن بذل السلام للعالم» وتنوي إن يسلم عليك ان ترد، فتقوم بالفرض[3].

ومر على النبي ﷺ رجل، فقال: السلام عليكم، فقال: «عشر حسنات» ثم مر آخر ثم قال: السلام عليكم ورحمة الله، فقال ﷺ: «عشرون حسنة»، ثم مر آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته فقال النبي ﷺ: «ثلاثون حسنة» يرويه الحسن ومكحول عن النبي ﷺ، إلا ان مكحولا قال: قال رسول الله ﷺ: «هكذا يتفاضل الناس»[4].

وتنوي إن سئلت عن حالك ان تحمد الله عز وجل، فإن لم يسلم عليك ولم تسأل عن حالك كنت مأجورا بنيتك التي قدّمتها، وإن سلموا عليك فرددت، او سألوك عن حالك فأجبت، ذكرتك نيتك المتقدمة طلب الثواب فيهم، فأجرت في النية والعمل.

---

(١) وليس من هذا المقوت من النيات أن ينوي ترابط قلبه مع المسلمين ونزع ما يخطر بالقلب من هواجس سوء الظن بالغير، إذ السلام يسل ذلك كله.

(٢) اخرجه مسلم في صحيحه، الحديث ٩٣ من كتاب الإيمان. والترمذي في سننه، الباب ٤٥ من كتاب الأطعمة، والباب ٥٦ من كتاب القيامة. وابن ماجه في سننه، الباب ٩ من المقدمة، والباب ١١ من كتاب الأدب. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١٦٥/١، ١٦٧، ٣٩١/٢، ٤٤٢، ٤٤٧، ٤٩٥، ٥١٢.

(٣) وهو فرض كفاية لا فرض عين، اما إلقاء السلام فسنة.

(٤) اخرجه احمد بن حنبل في مسنده ٢٠٥/٤.

وإن سهوت فسلمت او سئلت عن حالك فأخبرت بغير طلب الثواب، كنت مأجوراً على نيتك المتقدمة، لقول الله ﷺ: «من هـمَّ بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة»[1].

فإذا سئلت أجبت بعقل محتسب للثواب، ولا تكن كمن يجيب بغير فهم ولا احتساب لثواب الله عز وجل، فإن الناس قد أجروا المسألة بينهم بغير عناية ولا حسبة.

فالسائل لا يعني ولا يحتسب، والمسئول لا يرى انه يسأل لعناية ولا حسبة، ولا يعقل عما يسأل، لأنه إذا سئل فلو[2] ظن ان الذي يسأله عن حاله لعناية منه به ليعلم[3] كيف حاله لأجابه عما يسأله عنه، لأنه لو قيل للمريض: كيف بت البارحة، أو كيف تجدك؟ فلم يجب عن حاله بذكر نعمة الله، أو بذكر ما يجد من الوجع، لما قنع منه بدون ذلك.

لأنه لو قيل له: كيف أنت؟ فقال: كيفِ انتم لما قنعوا منه بذلك، لأن مسألتهم إياه عن عناية به.

فأما الأصحاء فعامة سؤالهم وإجاباتهم عن غير فهم ولا عقل، يقول الرجل للرجل كيف اصبحت؟ فيقول له: كيف أصبحت[4].

فلو عقل السائل لما قنع منه بذلك حتى يجيبه عن حاله كيف أصبح، او يخبر عن نعمة الله عز وجل عليه، ولو عقل المجيب عما يسأل لأجابه عما يسأل عنه، بذكر نعمة

---

(١) اخرجه: مسلم في صحيحه، الحديث ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٥٩، من كتاب الإيمان، والبخاري في صحيحه، الباب ٣١ من كتاب الرقاق، والباب ٣٥ من كتاب التوحيد، والترمذي في سننه، والإمام احمد بن حنل ٢٢٧/١، ٢٧٩، ٢٤٩/٣.

(٢) في الأصول: لو. وما أثبتناه أوضح في المعنى.

(٣) في الأصول: لعلم، وما أثبتناه أوضح في المعنى.

(٤) وبملاحظة البيان السابق يظهر أن سؤال الأصحاء المعافين من البلاء وردهم ضرب من النفاق حيث بدا منهم ما ليس في قلوبهم. هذا إذا لم يتفطن المؤمن إلى المنهاج السلوكي الذي رسمته السنة للمؤمنين.

الله عز وجل وحمده، والله عز وجل يستحق منه ذلك، فإذا قيل لك: كيف أصبحت؟ أو كيف أنت؟ او كيف امسيت؟ قلت: بخير والحمد لله.

روي عن عائشة رضي الله عنها انها قالت: «من سئل كيف أصبحت؟ فقال: بخير والحمد لله، فقد أدى شكر ذاك اليوم».

وقال أبو الدرداء: «إذا قال الرجل لأخيه: كيف أنت؟ فقال: بخير والحمد لله، قال الله جل وعز: اثنى عليّ عبدي وحمدني».

فتنوي ان تجيب بفهم وعقل محتسباً بذلك ثواب الله جل وعز، فإن سئلت فأجبت بعثتك نيتك التي قدمتها على أن تجيب بعقل محتسباً للثواب، وإن لم تسأل أو سئلت فأجبت بغير فهم، تجيب من نيتك المقدمة التي قدمتها، حين أردت الخروج من منزلك.

وتنوي أيضاً إن رأيت امرأة ان تغض بصرك، وإن سمعت لهواً او معصية لله عز وجل لم تصغ إليه، وأن تعتبر بما ترى بعينك، وتسمع بأذنيك، وتشم بأنفك فأنت مأجور على نيتك، فعلت شيئاً من ذلك أو لم تفعله (١).

وإن كنت تريد ان تأتي سوقك، نويت أيضاً مع هذه النيات: أن تأتي سوقك، او سبباً لمعاشك، صنعة او وكالة او غير ذلك لطلب الحلال، والاتباع للنبي ﷺ، وللثواب في نفسك وعيالك، للاكتساب عليهم، والاستغناء عن الناس، والتعطف على الأخ والجار، وأداء الزكاة وكل حق فيه واجب، تأمل بذلك ان تلقى الله عز وجل ووجهك كالقمر ليلة البدر، كما روى ابو هريرة عن النبي ﷺ انه قال:

«ومَن طلبها حلالا استعفافاً عن المسألة، وكذا على عياله، او تعطفاً على جاره لقي الله عز وجل ووجهه كالقمر ليلة البدر» (٢).

---

(١) ولعظمة شأن النية في السلوك عني بها المحاسبي فأفرد لها فصلا في آداب النفوس وآخر في أعمال القلوب والجوارح أبدع فيه الحديث.

(٢) اخرجه: مسلم في صحيحه، الحديث ٣٦٩، ٣٧٣ من كتاب الإيمان والبخاري في صحيحه، الباب =

وتنوي الورع في سوقك، وأن تدع كل ربح وأجرة وإصابة تعرض لك وإن كانت الدنيا كلها، إن عرض لك فيها ما يكره الله عز وجل.

وتنوي الإخلاص في ورعك في تجارتك، إذا ظهر للمشتري منك، ومن تشتري أنت منه، أن تعامله في صنعة أو غيرها أو وكالة، وتنوي عون المسلم في تجارتك إن استعانك لجاهك، أو ببصرك، أو بغير ذلك، واعتبارك بأهل السوق وبما ترى فيه.

وأن تذكر الله عز وجل في السوق محتسبا لما جاء به الحديث: «إن الله عز وجل يعجب من الذي يذكره في السوق»[1].

والحديث أيضاً: «ذاكر الله في الغافلين كالشاهر بسيفه خلف الفارّين، ومن ذكر الله في السوق كان له من الحسنات بعدد كل فصيح وأعجمي»[2]. يعني: إنسان وبهيمة.

وحديث عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من أتي سوقا فقال: لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يُحيي ويميت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألفي ألف حسنة، ومحا عنه ألفي ألف سيئة، وبني له بيت في الجنة»[3].

تقول ذلك، فإن كنت مارًّا فتذكر الله عز وجل وتراقبه، وتستحيي منه أن يطلع عليك في سوقك، ولا يرى عليك أثر ما خصَّك به من العلم كالجهال حولك، فلا ترضى من نفسك ألا يراك الله عز وجل متقيا له، ذاكراً له عند خوض الخائضين،

= ٥٠، ٥١ من كتاب الرقاق، وابن ماجه في سننه، الباب ٣٩ من كتاب الزهد. والدارمي في مسنده، الباب ١٠٢ من كتاب الرقاق، واحمد بن حنبل ٢٣٠/٢، ٢٣٢، ٢٤٧، ٢٥٣، ١٦/٣، ٣٥٥/٦.

(١) أخرج معناه أبو داود في سننه الباب ٧٤ من كتاب الجهاد، والترمذي في سننه، الباب ٤٦ من كتاب الدعوات.

(٢) أخرجه: أبي نعيم في الحلية عن إبن عمر. وضعفه السيوطي في الجامع الصغير ١٩/٢. طبعة الحلبي.

(٣) اخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٣٥، ٦٢ من كتاب الدعوات. وإبن ماجه في سننه، الباب ٤٠ من كتاب التجارات، والدارمي في مسنده، الباب ٥٧ من كتاب الإستئذان، وأحمد بن حنبل في مسنده ٤٧/١.

كما قال عبد الله بن مسعود: «وينبغي لحامل القرآن أن يُعرف بورعه إذا الناس يخلّطون، وبصمته إذا الناس يخوضون» فليرَ الله عليك أثر العلم، وما ألزمك من حجته، فتنوي هذه النيات كلها إن استطعت، فتربح حسنات كثيرة قبل أن تربح شيئاً من الدنيا حين تخرج من منزلك، فتؤجر على عقد نياتك، كما قال كعب في الثلاثة.

وكذلك إن غدوت إلى شراء شيء من تجارتك، أو تقاضي دَيْنك، أو قضاء ما عليك، أو شراء شيء لأهلك، أو بيع شيء تريد بيعه، أو [غدوت] إلى صنعتك، نويتَ كل ما قدرت عليه مما أمكنك فيه أن تأمُل الله عز وجل فيه وترجوه، فإن الله عز وجل معطيك على قدر حسبتك وأملك فيه، ورجائك من ثوابه.

وكذلك إن أردت الذهاب إلى علم، لم تدع ما أمكنك من النية والحسبة في الطاعات، فتغدو وأنت تنوي ان تتبع بذلك أمر الله عز وجل، ورسوله ﷺ، تطلب العلم وما ينفعك في دينك، لتستدل به على خير، أو تنهى به عن شر.

وتأمل أن يسهل الله عز وجل لك بذهابك طريقا إلى الجنة، كما جاء الحديث عن النبي ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنّة»[١].

وكذلك تأمل أن تضع الملائكة أجنحتها لك رضا بما تصنع، كما رواه صفوان بن عسال عن النبي ﷺ، ولتزاحم العلماء في حلق الذكر.

وكذلك تنوي أن ترتع في روضة من رياض الجنة، كما جاء الحديث: «إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قيل: وما رياض الجنة؟ قال: حِلق الذكر»[٢].

وكذلك السلام على من تسلم عليه، ومسألته على قدر ما أمكنك.

---

(١) أخرجه: أبو داود في سننه كتاب العلم، والبخاري في صحيحه، الباب ١٠ من كتاب العلم. والترمذي في سننه، الباب ١٠ من كتاب القرآن. وإبن ماجه في المقدمة، واحمد بن حنبل ٢٥٢/٢، ٣٢٥، ٤٠٧.

(٢) أخرجه: الامام أحمد في المسند، والترمذي في سننه، والبيهقي في شعب الإيمان. وصححه السيوطي في جامعه الصغير ٣٥/١.

وكذلك زيارة أخ، أو قضاء حاجة مسلم، أو اتباع جنازة، أو عيادة مريض، لا تدع شيئا من النيات مما جاء به العلم، وأمكن أن تؤمل الله عز وجل له، إلا نويته واحتسبته ورجوته، فإن تم لك كل ما نويت، أُجِرْتَ على ما قدمت من النيات وعلى عملك، وإن لم يتم لك ما نويت أن تعمل به، أَجَرَكَ الله عز وجل بنياتك كلها، لأن النبي ﷺ يقول عن ربه جل وعز: «إن الله عز وجل يقول: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي عبدي ما شاء»[1]. رواه عنه واثلة بن الأسقع.

فعلى قدر ظنك به أن يتفضل عليك تجده قريبا مجيبا.

باب ما يخاف العبد على نفسه

بعد قيامه لله عز وجل بحسن الرعاية في ظاهره وباطنه

قلت: فما تخاف عليَّ بعد هذا من طريق العمل لغير الله عز وجل؟.

قال: أما ما دمت مشتغلا بنفسك، متفقِّداً لها بما أجبتك به، فلستُ أخشى عليك إلا أن تؤتى من قبل النصح والرحمة.

فيأتيك إبليس من ذلك، وتنازع النفس إلى محبتها، فتردّك برغبتها إلى ما تركت من حب ثناء العباد وحمدهم من جهة النصح والرحمة للعباد، وهي تريد قيام المنزلة وشرف الرياسة، فتفسد عليك عملك.

ألم تسمع إلى ما روى كعب بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حب الرجل للمال والشرف في دينه»[2].

قلت: وكيف ذلك؟.

قال: إن كثيراً من المريدين إذا تطهَّروا من الذنوب، وجانبوا الرياء، واعتقدوا

---

(١) أخرجه: الترمذي في سننه، الباب ٥١، ٥٣، ٥٨، ٦٠ من كتاب الزهد.

(٢) أخرجه: أحمد بن حنبل والترمذي عن كعب بن مالك، وصححه السيوطي في جامعه الصغير ١٥٢/٢.

الإخلاص، ومنعوا قلوبهم أن تريد غير الله عز وجل، لم يجد إبليس موضع طمع ولم تجد النفس موضع راحة إلى الدنيا.

فبينما العبد في إخلاصه وقوته، قد ضيق على نفسه الركون إلى الدنيا لرغبتها فيها، والتصنُّعَ في الدين لرغبتها في زينة الحياة الدنيا، فلا تجد موضع طمع تتروَّح به إلى الدنيا، ولا يجد العدو موضع طمع يُزيل به العبد إلى الدنيا، فالعبد على العزم والقوة، والنفس قد قُهرت، فهي طائعة من غير انقلاب من غريزتها، متطلعة هل تجد موضع طمع إلى الركون إلى محبَّتها، إذ نظر العبد إلى الناس صرعى في دينهم تضرب بهم المثَلات، حيارى سكارى مرضى أضنياء، صم عمي موتى.

فغلبت على قلبه الرحمة لهم، إذ كان عنده من الدلالة والمعرفة ما يفتح الله تعالى به أبصار قلوبهم، وما يُشْفون به من مرض قلوبهم، وما يَحْيَون به من بعد موتهم، من غير غرامة تدخل عليه، بل له على ذلك الربح العظيم من الله عز وجل.

فما مثله إلا كمثل رجل كانت به علل كثيرة، قد أسهرته في ليله، وأقلقته في نهاره، كالضربان[1] في العين، والآكلةِ في الجسد فيعالج بدواء لاغرامة فيه، بغير ثمن أخذه فبرأه من ذلِك وصحَّ، فنام الليل بعد طول سهره، وسكن بالنهار بعد طول قلقة، وصار إلى الصحَّة والعافية، فطابت بها حياته، وصفا بها عيشه.

فنظر إلى عدة من المسلمين لهم من العلل مثل الذي كان به، طويلٌ سهرهم، شديد قلقهم، منغّصة حياتهم، فلما نظر إليهم هاجت الرحمة لهم من قلبه، ذكر أن دواءهم الذي يشفي الله عز وجل به سقمهم، هو عارف به قادر عليه بغير ثمن ولا غرامة، فعزم على ذلك وبذله لهم.

فكذلك هذا العبد المريد، لما نظر إلى عباد الله عز وجل معرضين عن الله عز وجل، قد مرضت قلوبهم، وأعضل داؤهم وهو عارف بما يحييهم، وينعشهم من صرعتهم، ويشفيهم من سقم قلوبهم بإذن الله عز وجل، عزم على ذلك، فدعاهم إلى

---

(١) في ط بالصاد المهملة.

الله عز وجل، وبصرهم عيوبهم، وداءهم ودواءهم.

فلما رأى العدو ذلك، وجد موضع دعاء إلى الفتنة بالرياسة والتصنُّع والرياء، وتروّحت النفس، وعلمت أن العباد لن يمتنعوا من تعظيمه وتبجيله وبره، فانتشر عليه طبعها وحنَّت، من الإصابة من الدنيا والكرامة لأكثر مما رفضت من الدنيا، لأنها كرامة ومنزلة فوق منزل الأمراء.

فنصحهم عن ذلك وقد قويت نفسه، وفرحت وارتاحت، ووجد عدوه موضعا لدعاء النفس إلى حب تعظيمهم وبرهم، وذلك أنهم إذا كانت توبتهم وشفاء أمراض قلوبهم على يديه، صار أحب إليهم من آبائهم وأمّهاتهم، فآثروه بأبدانهم وأموالهم، فصاروا له خَوَلا كالخدام، يتقرّبون بذلك إلى الله عز وجل، وخصُّوه بأشرف المنازل، وعظموه في السلام، وأكرموه وبروه، وكل ذلك بخدعة نفسه وعدوه [يقولان] إنك تجترُّهم وتشوقهم إلى الله عز وجل، وقد ركنت النفس إلى أكثر مما تركت من الدنيا، فلن تعرى من المحن والبلوى والاختبار، فإن رُد عليه شيء من قوله، أو خُطِّىء في عمله، جاشت النفس فخيلت إليه وخيَّل عدوُّه: أنه غضبٌ لله عز وجل لئلا ينقطع المريدون عنه، ويَدَعوا طريق الحق.

فأخرجه الغضب إلى الوقيعة فيمن عابه، لئلا يصدَّق في عيبه، فخرج إلى المعصية في العباد بالغيبة، بعد تركه لأكثر الحلال الواسع.

فإن فتر فترة عن قيام ليل أو صيام نهار، أو كانت منه فلتة من ضحك أو غيره، جزعت النفس أن يطلعوا على فترته وسهوه، حتى يتكلَّف لهم بعض العمل، ويخيل إليه العدو أنه إنما يريد بذلك أن لا يفتروا وينقطعوا عن العمل، فتخيل له نفسه أنه يجزع من أن يتركوا الطريق بتركه هو الطريق، فيترك طريق الآخرة [1].

(١) هناك حالة واحدة لا تعد نقصا، وهي: أن يأخذ بحظه من ترفيه النفس بالمباح من المزح دون إسراف ويكف عند مواجهة العامة لئلا يعصوا الله فيه. وقد فعله إبراهيم بن أدهم، فأمر طلابه بالكف عن المزح حينما طرق طارق عليهم الباب. فلما عجب طلابه قال لهم: اسكتوا، لا أحب أن يعصي الله في وفيكم. وأشار إلى هذا المعنى المحاسبي في باب إدخال السرور على المؤمن من كتاب (أعمال القلوب والجوارح من تحقيقنا).

وإنما ذلك خدعة من النفس، لتتم رياستها، ولا ينصرفوا عن تعظيمها، ولا يمتنعوا عن تبجيلها وإكرامها، فيجزع أن يفطنوا لفترته، حتى قد يعتذر بالكذب وبالصدق، كأنه إنما كان لهم يعمل، ولا لربه جل وعز.

فإذا فعل ذلك انقطعت من الله عز وجل عصمته، ورفع عند توفيقه، فرجع متحيِّراً ممرَّجاً لنفسه من حيث لا يعلم، غير متفقد لها، أخذ لها بأن لا يزول عنه ما ظهر لهم منه، وعن تحقيق ما يدعو إليه، لئلا تزول رياسته، ولا تتصنع منزلته، فيرجع إلى معاصي الله عز وجل، فتصير عامة طاعاته لغير الله عز وجل.

فيبقى في الدنيا كذّاباً، يدعو العباد إلى الله عز وجل وهو فار منه، ويذكر بالله عز وجل وينساه، ويُظهر الزهد في الدنيا وأنه قد خربها بظاهره، وقد رغب فيها وعمرها بباطنه، يتحبَّبُ إليهم بما يُظهر ويتبغّض إلى الله عز وجل بما يخفي، يُظهر إلى العباد الانقطاع إلى الله عز وجل وهو عنه في باطنه.

فنعوذ بالله من الحيرة بعد الهدى، ومن العمى بعد البصر، ومن الإعراض عن الله بعد الاقبال إليه، ونسأله السلامة والعون على ما يحب ويرضى.

قلت: فمن أين يصح للعبد المريد النصحُ للعباد إذ كان كما ذكرت؟

قال: إني لم أقل إنه لا ينصح أحداً إلا رجع عن الصدق، ولكن أخبرتك بما أخاف عليك إن لم تصدق الله عز وجل.

قلت: فمتى يصحّ لي أن أنصح بغير زوال؟[1].

قال: إذا عرفت لنفسك أن الله عز وجل قد منَّ عليك بالقوة، وصار شأن المخلوقين عندك صغيراً، وكان الغالب عليك نفي خطرات حمدهم وذمّهم والطمع لما في أيديهم، وسخت نفسك بعيبهم لك فيما يحمدك الله عليه، من غير محبّة عصيان الله جل وعز فيك، فغلب على قلبك اليقين بالمقدور، فزال طمعهم عن قلبك، فعزمت على

---

(١) أي: بغير زوال عن السنة وطريق الحق.

النصح لهم، بعد معرفة منك بما يصلحهم من كتاب ربك عز وجل وسنّة نبيك ﷺ فانصحهم واحذر أن ينتشر عليك طبعك[1].

فكل خاطر يدعوه إلى كراهة مذمّة أو حب محمدة أو طمع في دنيا فاردده عنك وإن خيِّل إليك أنك تجترُّهم بذلك، فإن ذلك خدعة أن تطلب نجاتهم بهلاكك وأنت ترى أنكَ ناجٍ، فإذا قويت بهذه القوة، وتفقدت هذه الخطرات فلم تقبلها، ولم تغضب أن يستخف بشيء من حقِّك، أو يردُّوا عليك من قولك، وترجع إلى الله عز وجل في ذلك، وترضى بما قدر لك، وتعلم أن ما تطالب من حق الله عز وجل من الحمد والثناء عوضا من حمدهم، وزوال ذمّهم، والطمع لما في أيديهم، وأنهم مع ذلك لم يقدروا أن يوصلوا إليك ما لم يُقَدَّر لك، ولا يحمدوك بما لا يلقي الله عز وجل لك في قلوبهم قانع بعلم الله عز وجلِ وحده وبحمده، غير مكترث لذمّهم فيما يحمده الله عز وجل، غير طالب منهم ثواباً ولا إكراماً، قانع بما تأمل من الله عز وجل من الثواب في الدنيا والآخرة، فانصحهم، وخف ترك تحقيق ما تقول بالفعل، واحذر ثم احذر، واستعن بالله عز وجل وتوكَّل عليه، ولا قوة إلا بالله ومنه العصمة وعليه التكلان، ونسأله تمام نعمه علينا برحمته.

★ ★ ★

تم الكتاب بحمد الله ومنّه ومشيئته وعونه، وصلى الله على محمد النبي الأميّ وآله وسلم تسليما.

رحم الله من كتبه، ومن قرأ فيه، وعمل بما فيه، وجميع المسلمين برحمة الله إنه هو الغفور الرحيم، وكان الفراغ منه في العاشر من في ذي القعدة من سنة تسع وخمس مائة.

---

(١) انظر تفاصيل دقيقة في المدح والذم وخداع النفس فيهما في بابها من كتاب «الوصايا» للمؤلف، من تحقيقنا.

ختام التحقيق

بسم الله وعونه ورضوانه تم تحيق كتاب « الرعاية لحقوق الله »، وهو كما يرى القارىء شأنه شأن كل تراث الإمام المحاسبي قمة من الفكر الإسلامي في علم النفس الإسلامي الخالص.

وبهذا الكتاب أكون قد استوعبت تراث المحاسبي تحقيقاً فيما عدا كتاب « فهم القرآن » و « أخلاق الحكيم » ولم نعثر عليهما، ونرجو من الله تعالى أن يوفقنا إلى أصولها.

كما بقي من تراثه عدة رسائل جمعناها وحققناها، ونرجو أن تظهر للقراء قريباً بعون الله تعالى.

وبذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ يظهر في المكتبة الإسلامية عمل متكامل لرجل أثـر في الثقافة الإسلامية السلوكية كلها من بعده، فلا ترى كاتباً بعده إلا يحوم حول موضوعاته توسيعا وتعميقا ولا سيما الإمام الغزالي.

كما يعتبر تراثه ميزاناً صادقاً للصوفية السلفية التي تتجه اتجاها مباشراً نحو خدمة شعائر الله، وخدمة معرفته الحقة، دون إفراط ولا تفريط.

ولا ندعي الكمال في العمل، فمن رأى سهواً فليعذر، كما أننا لم نر داعياً لتخريج الأحاديث الواردة في الكتاب، فكلها لا تخرج عن دائرة الصحة والحسن. كما أن المحاسبي من الأوائل الذين يرجع إلى رواياتهم ولا ترجع رواياته إلى أحد.

ولو قمنا برد كلماته وأفكاره إلى أصولها من أقوال الأنبياء السابقين وسنة النبي

ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين لطال الكتاب [1].

وعلى أي حال فالرجوع إلى كتاب « الزهد » للإمام أحمد بن حنبل، وزوائده لابنه عبد الله والزهد لعبد الله بن المبارك يوقفنا على مدى استيعاب المحاسبي لآثار الأنبياء السابقين وفقهها والتأثر بها.

والله نسأل أن يجعله خالصاً لوجهه، وأن يعفو عن خواطرنا الطارقة إذا نازعتنا إلى حب النفس، وأن ينفع به البلاد والعباد.

إنه قريب سميع الدعاء..

عبد القادر أحمد عطا

---

(١) وقد قام بتخريج أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام وعمل فهارس الكتاب محمد عبد القادر عطا - إبن المرحوم عبد القادر أحمد عطا وذلك نزولا على رغبة القراء.

الفهرس

الموضوع — الصفحة

الموضوع | الصفحة

كتاب الرياء

الموضوع	الصفحة
باب وصف أعظم الرياء وأدناه	٢١٣
باب ما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة وشرحها	٢٢٣
باب علامة المرائي في نفسه	٢٢٨
باب ما يجب ان يلزمه المريد نفسه عند عمل السر والعلانية	٢٢٩
باب سرور العبد عندما يظهر عليه من العمل.. إلخ	٢٣١
باب ذم الرياء والعجب	٢٣٧
باب ما يجوز للعبد ان يقطع أنه أخلص فيه لله وما لا يجوز	٢٤٠
باب ما يجزىء من النية عند ابتداء العمل والنية في العمل	٢٤١
باب العبد يدخل العمل يريد الله عز وجل وحده.. إلخ	٢٤٤
باب وصف النية ما هي	٢٤٦
باب معنى قوله: لا يحضرني النية في العمل	٢٤٨
باب من يدخل في العمل لا يريد الله بذلك ثم يندم كيف يكون عمله	٢٥١
باب الرجل يدع بعض النوافل إشفاقا على الناس	٢٥٦
باب إظهار العمل ليقتدى به	٢٥٨
باب العبد يحدث إخوانه ببعض ما يقوى عليه من العمل.. إلخ	٢٦١
باب عمل السر والضعف عن إظهار العمل خوف العدو وحذر الشهرة	٢٦٦
باب هل يجوز ترك العمل من أجل الرياء	٢٧٠
باب ما يجوز للعبد من حبه لمحبة الناس له	٢٧٦
باب ما يصح للعبد من غمه عندما يظهر للخلق من ذنوبه	٢٧٧
باب في ستر المعاصي عن العباد وإن اطلع الله عليها	٢٧٨
باب ما يستحب فيه الحياء وما يكره فيه	٢٧٩
باب من أين ينبغي للعبد ان يكره ذم المسلمين له	٢٨٤
باب كيف يكون قلب الصادق عند كراهة المنزلة عند المخلوقين	٢٨٨
باب استواء الحمد والذم في قلب العبد.. إلخ	٢٩٠

الموضوع	الصفحة

كتاب الكبر

كتاب الغرة

الموضوع | الصفحة

كتاب الحسد

كتاب تأديب المريد

وسيرته وتحذيره الفتنة بعد هدايته

فهرس الأحاديث

ـ أ ـ

الحديث — الصفحة

الحديث | الصفحة

الحديث	الصفحة

- ب -

- ت -

الحديث | الصفحة

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- س -

- ف -

- ق -

الحديث	الصفحة
قل للذي افتخر بآبائه تسعة من أهل النار وأنت عاشرهم	٣٦٦

- ك -

- ل -

- م -

الحديث	الصفحة
من هاجر يبتغي شيئاً من الدنيا فله ما نوى	١٦٨
من صلى صلاة حيث يراه الناس فأتمها وأكملها فإذا خلا خففها فتلك استهانة يستهين به عز وجل	٢١٧
من طلب الدنيا مكاثراً مفاخراً	٢٢٦
من راءى بعمله ساعة حبط ما كان قبله	٢٣٤
من سن سنة حسنة فعمل بها كان له مثل اجر من يعمل بها	٢٣١، ٢٥٨
من قاتل حتى تكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله	٢٣٧، ٢٣٨
من استن سنة حسنة فعمل بها	٢٦٥
من تواضع لله رفعه هكذا ومن تكبر وضعه هكذا	٣٧٤
من وضع جبهته لله ساجداً فقد بريء من الكبر	٣٧٩
من العلماء، من إن وعَظَ عنَّفَ وإن وُعِظَ عنف	٣٨٤
من دعى إلى غير مواليه فالجنة عليه حرام	٤١٢
سن اعتقل العنز ولبس الصوف فقد بريء من الكبر	٤١٢
من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين	٤٤٦
من ترك صلاة العصر حبط عمله	٤٦٦
من اشترى ثوباً بعشرة دراهم فيها درهم حرام لم تقبل منه صلاة حتى يضعه عنه	٤٦٧
من أتى المسجد فهو زائر الله، وحق على المزور كرامة الزائر	٥٠٧
من هـمّ بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة	٥١١
من طلبها حلالاً استعفافاً عن المسألة وكذا على عياله او تعطفاً على جاره لقي الله ووجهه كالقمر ليلة البدر	٥١٢
من أتى سوقاً فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له كتب الله له ألف ألف حسنة	٥١٣
من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة	٥١٤

- و -

وعزتي وجلالي لا اجمع اليوم لعبدي امنين	٣٥

- ي -

الحديث	الصفحة

فهرس الآثار

ـ أ ـ

الأثر	الصفحة
إنا لله وإنا اليه راجعون. آية من كتاب الله عز وجل كأني ما سمعت بها إلا الساعة	٥٤
انظر كل امر تكره ان يأتيك الموت عليه فاتركه فإن لم يدر لم جزعت نفسه فليأت ما لم تجزع النفس	١٢٥
انذركم سوف	١٣١
إنك تموت غداً ما قدر أن يزيد في عمله	١٣٥
إنما يهلك اثنتان: الهوى وطول الامل	١٣٧
إن ابراهيم ﷺ كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه فإذا أخرجه أغلقه	١٤٣
ان عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله فقال لا تكلمي	١٤٣
اين الذين بنوا المدائن	١٤٨
اين الوضأة الحسنة وجوههم، أصبحوا والله تحت التراب	١٤٨
إنه ليس نافلة إلا للنبي ﷺ	١٥٦
انها كانت النافلة للنبي ﷺ خاصة	١٥٦
إن من فقه العبد ان يعلم نزعات الشيطان	١٦٠
ان عملت لله عز وجل عملا فأخلصه	١٦٥
إن الشيطان ليدعو العبد إلى الباب من الإثم	١٩٥
إن الله تبارك وتعالى يقول للقراء يوم القيامة: الم يكن يرخص عليكم السعر؟ ألم تكونوا تبدأون بالسلام؟ ألم تكن تقضى لكم الحوائج	٢١٢
إنا إنما فارقنا الأموال والأولاد مخافة الطغيان	٢١٢
إني لأستحي من ربي عز وجل ان يأتي علي يوم ولا انظر فيه إلى عهد ربي	٢٦٧
ان الرجل ليتكلم بالكلمة من الرفاهية	٣١٢
إن لم يكن البدن من البدن بعيداً فإن الروح من الروح قريب	٣١٤
ان صلاة المدل لا ترفع فوق رأسه	٣٤٦
إن ابتليتني صبرت	٣٦٠
إن الزرع إنما ينبت في السهل ولا ينبت على الصفا	٣٧٦
إن رجلا من بني اسرائيل كان يقال له خليع	٣٨٨

- ب -

- ت -

الأثر	الصفحة

الأثر	الصفحة

ـ هـ ـ

ـ لا ـ

الأثر	الصفحة
لأن تضحك وانت معترف بذنبك خير من ان تبكي وانت مدل بعملك	٣٤٦
لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من خردل من رياء	٣٧٥
لا تأمرن على اثنين	٢٧٢
لا يزيد الخشوع على ما في القلب	٣٠٢
لا يزال العبد بخير ما علم ما الذي يفسد عليه عمله	١٦٠
لا يقل احدكم هذا لله ولك.... فإنه لا شريك له	١٦٦
لا اجر لكم قد استوفيتم اجوركم	٢١٢
لا أبقاني الله وإياك إلى زمان يتغاير فيه على العلم	٢٢٦
الإيمان قائد، والعمل سائق، والنفس حرون	٢٥٠
لا تبكوا عليّ فما احدثت حدثاً منذ أسلمت	٢٦٢
لا يرى هذا إني اقرأ كل ساعة	٢٦٦
لا تخف ما امامك من الأهوال	١٤٦
لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس	٤٧٠
لا أبالك، ما انساك بني يعقوب فعلوا بأخيهم	٤٨١

- ي -

يا بني ما للترابي وللكبر	٣٩٧
يا أف للتسويف	١٣١
يا فلان هل انت على حال ترضى فيها الموت	١٣٣
يا بني امر، لا تدري متى يلقاك فاستعد له	١٣٨
يا بني لا تؤخر التوبة فإن ملك الموت يأتيك بغتة	١٣٨
يا خليلي مت	١٤١
يا موسى كيف وجدت الموت	١٤١
يا معشر الحواريين ادعوا الله ان يهون علي هذه السكرة	١٤١
يا موسى صرح الكتاب إليك بما انت إليه صائر	٥٠٦